الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء السادس والثلاثون

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

١
استرداد الأرض المقدسة
تأليف بيير دوبوا

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كان للحروب الصليبية أبعدالأثار على أوربا الغربية بشكل خاص، وقد فتحت هذه الحروب آفاق المعارف العقلية والجغرافية أمام الاوربين، وأخرجتهم من الواقع الإقليمي الضيق، إلى الانفتاح العالمي، ومن ظلام العصور الوسطى إلى نور المعرفة، والاستعداد إلى دخول عصور النهضة، ومن الصراع بين الامبراطورية والبابوية إلى قيام مشاريع الدول القومية وتراجع البابوية، وقاد هذا كله نحو تأسيس الجامعات وانتشار الثقافة، وظهور عدد كبير جداً من الفلاسفة و المحامين و المفكرين السياسيين الذين تأثروا كثيراً بمعطيات الحضارة العربية، عن طريق الترجمة و الاحتكاك المباشر، وعن طريق الذين هاجروا من اسبانيا وسواها إلى فرنسا نتيجة لحروب الاستغلاب ومحاكم التفتيش.

وترافق هذا مع النشاط الهائل للدول الإيطالية، وبوادر مشاريعها الاستعمارية الاقتصادية، التي تجلت باحتلال القسطنطينية، واقطاع الطليان أحياء خاصة في مدن الشام، ذات امتيازات واعفاءات، أي مايشبه المستعمرات و المستوطنات، وكانت أوربا قد تفوقت بحريا على كل ماسواها، واستحوذت على البحر المتوسط، بعد الاستيلاء على جزيرة صقلية وبعض شواطىء المغرب، وذلك بالاضافة إلى ما كان بيد الفرنجة من شواطىء الشام.

وتزامن هذا كله مع ظهور المغول كقوة فاعلة في المشرق العربي، ومع هذا كله، ظلت الوحدة التي تأسست أيام نور الدين بين مصر والشام تؤتي أفضل الثمار، فبجيوش الوحدة تحقق النصر في دمياط ثم في

المنصورة، وبعدها في عين جالوت وحررت أنطاكية ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام ١٢٩١م، وهنا بدأت العقول الأوربية تحاول استيعاب الدروس المستفادة من قرني الحروب الصليبية، وظلت الأصوات عالية تنادي بحملة صليبية جديدة، لكن الآن حلت العقلانية في التخطيط محل الانفعال و التحريض والإثارة، وشرع بعض رجال الفكر من علمانيين وكهنة في تقديم دراسات ومذكرات من أجل عمل صليبي أوربي موحد، وفي سبيل تحويل احتلال الأرض في الشام إلى احتلال دائم، ولتحويل العرب إلى الكاثوليكية أوافنائهم، واهتمت هذه الدراسات بمصر، وآمنت أن الطريق إلى القدس لابد وأن يمر عبر مصر، وأراد الأوربيون احتلال مصر، لكن بحملات جانبية، بعد اخفاق الحملات الجبهوية، وكثيرة هي الكتابات الأوربية التي خرجت إلى النور في مطلع القرن الرابع عشر حول هذا الموضوع، وأبرزها وأهمها جميعاً كتابي«استرداد الأرض المقدسة» للمحامي الفرنسي بيير دوبوا، وكتاب «الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» للايطالي مارينو سانوتو.

ففي الوقت الذي جرى فيه تصنيف هذين الكتابين، كان جوانفيل قد كتب كتابه عن حياة لويس التاسع، ولأهمية مطلع القرن الرابع عشر، هناك مدخل دراسي واسع حول هذا الموضوع في مطلع كتاب«الاسترداد» لدوبوا، ونجد في هذه الدراسة وفي نصي الكتابين، صورة عقلية الغرب الأوربي، هذه العقلية التي استمرت على المنهج ذاته حتى القرن العشرين، وتساور المرء الشكوك حول تغييرها في القرن المقبل.

والمناداة بدمج المنظمات العسكرية، وبالقيام بأعمال تبشيرية منظمة وبالاهتمام بالعربية، وبالعمل على تحويل المسلمين عن دينهم، التي نجدها في الكتابين هي الأمور التي طبقتها أوربا تحت عناوين التبشير

والاستشراق والاستعمار، وهي الأفكار التي على أساسها قامت الحركة الصهيونية، ولنتذكر دوماً أن الغرب هو الذي أوجد إسرائيل، وما برح يمدها بأسباب الحياة.

ومهما تحدثت عن محتوى هذين الكتابين في هذه التوطئة، سيكون ذلك قاصراً لا يفي بالغرض، والذي يفي بالغرض هو قراءة النصين بتمعن، ومن ثم استعراض ما وقع منذ القرن الرابع عشر حتى الآن، وليس غرضي هنا كربلاوياً فيه النحيب والشكوى من الاستعمار ومن الغرب، بل الغرض المعرفة، والقول بأن حوادث التاريخ هي حوادث صراعات بين الشعوب، والمسألة ليست مسألة عدل وظلم، لكنها قضية قوي وضعيف، ودائماً مصدر القوة الوحدة، ومصدر الضعف التمزق، فقد أخفقت كل مشاريع أوربا مجتمعة قبل القرن الرابع عشر، بفضل وحدة مصر والشام ، هذه الوحدة التي شكلت المكافيء لكل أوربا، وشكلت المرجعية العلمية والشرعية، فقد كانت الخلافة العباسية في القاهرة تشكل رمز الشرعية، وعمل الأزهر وشغل دور المرجعية العلمية، وسبيل الحفاظ — الآن — على مصالح الأمة العربية ومعها الشعوب الاسلامية، مرتبط بإعادة بعث هذه الوحدة وهذه المرجعية، فإذا اتحدت مصر والشام أمكن للعرب أن يتلاقوا، ولقاء العرب وتوحيد إرادتهم هو السبيل الوحيد أمام المسلمين في قرن مقبل، القول الفصل فيه، والانتماء إلى الثقافات، فالثقافة الآن هي التي تحدد الهوية، وكانت مصر والشام قد اتحدتا أيام نور الدين لغايات جهادية عربية اسلامية، وبالفعل حققت هذه الوحدة العديد من المعجزات، والجهاد في سبيل البقاء العربي، وفي سبيل تحرير الأرض، وفي سبيل رفع الضيم عن المسلمين، وفي سبيل إنسانية أفضل وأكثر سعادة، وأقل سفكاً للدماء، يستدعي الحال الآن بإلحاح كبير، إعادة الوحدة مابين الشام — كل الشام — وأرض الكنانة.

ويثير الكتـــابان عــــدة أمــور تتعلق بشكل رئيسي بطائفتـي الداوية والاسبتارية وبالشؤون العسكرية، ولهذا عزمت على أن ألحق بموسوعتنا ثلاث دراسات حديثة : عن الحروب الصليبية المتأخرة، أي حتى معركة وادي المخازن، وعـن فن الحرب حتى تحرير عكا، وعن طائفتي الداوية والاسبتارية.

والله المعين والموفق إلى السداد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٤ — ربيع الأول ١٤٢٠هـ / ١٧ — حزيران ١٩٩٩ م

مدخل

ترجمة مختصرة لبيير دوبوا

معلوماتنا عن حياة بيير دوبوا Pierre Dubois وأعماله قليلة جداً، فلم يترك لنا مجلد مراسلات شخصية أو رسمية، مثلما فعل بيرو ديلافينا Vigna الذي كان سكرتيراً ومستشاراً لفردريك الثاني، وما من أحد سواه من بين الأسرة الرسمية للملك فيليب الجميل، بقي تقريباً من دون ذكر داخل كتلة مواد الوثائق، التي مكنت هولتزمان بأن ينشر مجلداً حول وليم أوف نوغاريت Nogaret ، وقد جرى نشر أوراقه الكثيرة في الغالب مجهولة بين منتجات قلمه المتنوعة التي بقيت لنا، وظهر اسمه بمثابة كاتب معروف في عمل واحد فقط، أما ملاحظات أعماله القليلة المتفرقة فقد ظهرت في مدونات رسمية جرى تمحيصها بشكل جيد من قبل س.ف لانغلويس Langlois ، والاحتمال ضعيف بوجود المزيد من المواد الهامة لم يتم اكتشافها، ولهذا يتوجب أن نضيف هذه المعلومات القليلة إلى ما أخبرنا به عن نفسه في أوراقه وما يمكن أن نستخلصه مصادفة من خلال البيانات المقدمة هناك.

ونعرف من هذا كله بأنه قد ولد في شمال فرنسا، وربما في، أو على مقربة من كوتانسيز Coutances في نورماندي، وهذا واضح من أسلوبه الكتابي والأدبي، ومن معرفته بأعيان تلك المنطقة من أمثال: هنري دي ري Rie فيزكونت كين Caen، ورتشارد لينيفوLeneveu ومن حقيقة أن سكان كوتانسيز الذين كانوا أبناء منطقته قد عبروا عن ثقتهم به مرتين لتمثيلهم في مجلس الأعيان العام Estates General ، ويرجح أنه كان من أصل برجوازي، ويدلل على هذا اختياره لمهنته، وانعدام أية إشارة في كتاباته إلى أنه من أصل

نبيل أو فلاحي، ولقد أخبرنا أنه في أيام تلمذته في باريس استمع إلى محاضرات ألقاها توماس الأكويني وسيغر دي برابنت Brabant ، وكان توماس يحاضر في باريس في ١٢٦٩ — ١٢٧٢، وسيغر في حوالي ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ ، وبناء عليه يمكننا القول بأن تاريخ ميلاده كان فيما بين ١٢٥٠ و١٢٥٥ حين جرى تنظيم جامعة باريس أمميـاً، ويحتمل أن دوبوا اصطنع لنفسه معارف خلال أيام دراسته مع عدد من أبناء منطقته النورمانديين، الذين صاروا فيما بعد أصدقائه في المحكمة، وتشيرمعارفه بالقانون المدني الروماني إلى أنه لابد قد درس هذا الموضوع في مكان آخر غير باريس، ولعل ذلك كان في أورلين، لأن باريس لم يكن فيها كلية قانون كافية.

ومن الممكن أن نفترض، أنه بعدما أكمل دراسته، بدأ بممارسة مهنته في كوتانسيز، والحقبة المؤكد معرفتها في حياته، والتالية لهذه هي الفاجعة التي نزلت بفيليب الثالث في حملته ضد أرغون سنة ١٢٨٥، وقد توفي الملك لإصابته بالمرض في أثناء تراجعه، وكان دوبوا الآن ناضجاً بما فيه الكفاية، وصاحب خبرة كي يعمل بالمسائل العامة، ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت تأثيراً عظيماً عليه، هذا وتوفّر صداقته مع هنري دي ري، والأعيان الآخرين في بلاط فيليب الرابع توضيحاً لمعرفته بقضايا الدولة، وتمكن من التعمق في أحـــوال المملكة، في الخمس عشرة سنة التالية، التي أصبح فيها ثرياً تماماً، واحتل منصب المحامي الملكي في منطقة مسقط رأسه، وكانت نتائج هذه الخبرات والتأملات جهوده البكر في الحصول على الانتباه الشعبي لأفكاره الإصلاحية، حيث وجه سنة ١٣٠٠ مذكرةً إلى فيليب الرابع تحت العنوان الصارخ التالي:«خطة مختصرة ودقيقة من أجل الحملة السعيدة، ولاختصار الحروب، ومقاضاة ملك فرنسا»، ولانمتلك أي دليل على أن مقترحاته كان لها أي تأثير على السياسة الملكية.

ومهما كان نوع الاستقبال الذي تلقته هذه المذكرة لعام ١٣٠٠(هناك نسخة خطية منها وحيدة تعود إلى القرن الخامس عشر) فإن شهيته للشهرة العامة قد شحذت، وقد أعطاه تفجر الصراع بين فيليب وبونيفيس الثامن الفرصة، فقد أرسل في اليوم الذي تقدم على نشر مرسوم Ausculta Fili بشكل رسمي، مذكرة مختصرة إلى صديقه في باريس رتشارد لينيفو، بعنوان«مناقشات لاتقبل الجدل»، ولم تعد هذه المذكرة موجودة، وأمكننا التعرف إلى محتوياتها من خلال ملخص دقيق قدمه دوبوا نفسه، في كتابه«استرداد الأرض المقدسة»(الفصل الحادي عشر)، ولا يوجد دليل على أن هذه المذكرة قد وصلت إلى الملك، ووجه في ١٥ شباط ١٣٠٢ فيليب دعوة لاجتماع الأعيان، وكان هذا أول مجلس أعيان عام نمتلك عنه سجلاً أصيلاً، وتأكدت سمته الوطنية بضمه — للمرة الأولى — ممثلين من الدرجة الثالثة، كان بينهم المحامي النورماندي الطموح بيير دوبوا، فقد اختير ليمثل بلدته كوتانسيز.

وقام واحد من الأذكياء في حاشية فيليب بتقديم نص مكثف لـ Ausculta Fili مع افتتاحية Deum Time ، واقتبس اصطلاحات مسيئة لفيليب، وعرض الادعاء البابوي وقدمه بلغة أكثر إثارة من الأصل، وتوقف دوبوا عند واحد من المقاطع المتناقضة بسبب التزييف، وقام بسرعة بكتابة رد بعنوان:«تقدير لمعايير ينبغي تبنيها»، ولا نمتلك بينة بأن هذا الرد قد جرى توزيعه بين الأعيان، لكن أن يكون قد وصل إلى علم البلاط، فهذا مبرهن عليه من خلال حقيقة أنه قد عثر عليه، مع بعض المناشير الأخرى التي كتبها دوبوا، داخل مجموعة من الردود الجدلية القاسية، جرى نسخها لصالح الوثائق الملكية بتوجيه من بيير دي ايتامبز Etampes ، حافظ الوثائق من سنة ١٣٠٧ حتى ١٣٢٤.

ولانعرف شيئاً عن نشاطات دوبوا كعضو في مجلس الأعيان، فقد كان في ذلك الحين«محامي القضايا الملكية في وكالة كوتانسيز والمحامي

الرسمي عن الجماعة في تلك المنطقـة»، ومن المعقول أن نفترض أنه كان له دوره في إثارة أعضاء منطقته للقيـام بتبني قرارات لصالح «الأهداف الملكية»، وهناك بينة حول هذ ا الاسهـام قد ظهرت سنة ١٣٠٤، داخل منشور آخـر، جاء هذه المرة بصيغة وطنيـة هي:«التماس الشعب الفرنسي إلى الملك ضد البابا بونيفيس الثامن»، ويشير استخدامه للغة الشعبية إلى جهد التماس موجه بشكل خاص إلى الأعيان من المرتبة الثالثة.

ولم يوقف تعليق مجلس الأعيـان العـام نشاطاتـه، فقد ذكـر دوبوا في (الفصل ١١٧) من كتـاب الاسترداد، أنه عهد في كانـون الثاني ١٣٠٤ إلى جين دي لى فـوريـت برسـالة عنـوانها:«حـول تقصير الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، كـان من المفترض تسليمها إلى فيليب، عنـدما كان ذلك الملك في طولوز، وتحتوي اقتراحاً من أجل غلبة الامبراطورية الإغريقيـة من قبل شارل أوف فـاليوس Valois ، بمساعـدة الملك الفـرنسي ، وخطة مفصلة حول السيـاسـة العسكرية المتـوجب اتباعهـا، وهذه الرسـالة، رسالة سنة ١٣٠٤ قـد فقـدت، ولعلها صيـاغة جـديدة لمذكرة«الخطة المختصرة» لسنة ١٣٠٠.

وكتابه الرئيسي هو«استرداد الأرض المقدسـة»، وقد كتب في وقت ما فيما بين تكريس كليمنت الخامس، ووفـاة إدوارد الأول، وكـان كليمنت قـد توج بابا في الخامس من حزيران سنة ١٣٠٥، ومـات ادوارد يوم ٧ تموز ١٣٠٧، ولن نكون مخطئين كثيراً إذا ما قلنا بـأن سنة ١٣٠٦ كانت السنة التي ألف فيهـا كتـاب الاسترداد، فقـد توجـه في مطلع الكتـاب بالخطاب إلى ادوارد الأول، ووصف المؤلف هنا نفسـه بقـوله:«المحـامي المتواضع لقضـاياه(ادوارد) اللاهوتية في تلك الدوقية»(أكـوتين)، ويبدو أن التعـارض بين مركـزه كمحامي لفيليب وخـدمته لصـالح ادوارد، لم يسبب له مصـاعب كبيرة .على الرغم من العـداوة المريرة التي كـانت قـائمة آنذاك بينه وبين فيليب، وبحكم كـون ادوارد دوقـاً لأكوتين فقـد

كان من أتباع فيليب، ومما لاشك فيه، أنه في وقت ما بعد إبرام الصلح في سنة ١٢٩٩ بين ادوارد وبين فيليب، عمل دوبوا مستشاراً لادوارد في بعض من قضاياه الكثيرة التي أثارت صراعاً فيما بين القضاء المدني والقضاء اللاهوتي في أكوتين، ويبدو أن استخدامه من قبل ادوارد كان في مناسبات كثيرة، وقام س . ف لانغلويس بالتحري الدقيق لوثائق الممالك الغسكونية لادوارد الأول، فلم يعثر على أي ذكر لدوبوا كعامل ملكي في أكوتين، هذا ولم تكن الخدمة المزدوجة فريدة في بابها بأي حال من الأحوال، فقد قام محامون آخرون من ذلك العصر بمثل هذه الأعمال ومن هؤلاء كان غليوم دي بريول Breuil .

وبعد ظهور«الاسترداد»بقي قلمنا الكاتب للمناشير بدون نشاط لمدة عامين، ويبدو أنه كان قد عاد إلى نورماندي، ليمارس مهنته وليرعى مصالح جماعته المحلية، وقد ورد ذكره في رسائل ملكية تاريخها شهر أيار عام ١٣٠٧، فيها تخلى فيليب، بناء على طلب بيير دوبوا، محاميه الملكي في وكالة كوتانسيز عن بعض الاستحقاقات العائدة له عند كهنة تلك البلدة، وسعى رينان إلى التعرف على وجوده مع بطرس دي بوسكو Bosco ، الذي ورد ذكره بتاريخ ١٣ شباط لعام ١٣٠٧ ، فوق ألواح من الشمع حول الحسابات الملكية، لقيامه بشراء منازل للفريق الملكي، أثناء زيارة فيليب لنورماندي، وهذا أمر مشكوك به كثيراً، فواحد بمكانة دوبوا في ذلك الحين، كان من الصعب توجيه الدعوة إليه للعمل بمثل هذا العمل المتواضع.

ومنحه الهجوم على الداوية فرصة جديدة، فقد جرى اختياره مع واحد فريزي ثانية ليمثل منطقته في مجلس عام للأعيان، عقد في تور في سنة ١٣٠٨ ، وجاء وصفه في وثيقة انتخابه:«محامي للقضايا اللاهوتية الملكية في وكالة كوتانسيز»، وقد أنتج في ذلك العام خمس رسائل، في اثنتين منهن حملة مختصرة على الداوية، وكانت إحداهن عامية، أما الثالثة

فكانت نسخة جديدة من الاسترداد، وهي مفقودة الآن، وكانت قد قدمت إلى الملك في شينون Chinon في ٢٣ أيار ١٣٠٨ ، بعد تعليق المجلس، وجاءت معرفتنا بها من خلال إشارات قام بها دوبوا في مذكرات تالية، ووجهت هذه بشكل رسمي إلى البابا، مثلما جرى توجيه النسخة الأصيلة من الاسترداد إلى الملك ادوارد الأول، وجاء صلب الموضوع هو نفسه إلى أبعد الحدود، والخلاف هنا عن النص الأصيل هو اقتراح تقدم به من أجل تمتين المنظمات العسكرية وتعيين ملك قبرص في القيادة.

وكان الدافع لكتابة الرسالة الرابعة لعام ١٣٠٨، ذات عنوان«مشكلة الأرض المقدسة»، هو أحداث ألمانيا، فقد جرى اغتيال الامبراطور ألبيرت الأول في ١ — أيار، وانتهز كاتبنا المتشوق للشهرة الفرصة ليقترح على فيليب الرابع أن يطلب من البابا تعيينه امبراطوراً، وقد أباح دوبوا هنا واحدة من انعدام التزامه المتكرر، وتغييره لمواقفه، فقد كان معروفاً أنه خلال النزاع بين ألبيرت صاحب النمسا وأدولف صاحب ناسو Nassau من أجل العرش، قد راج اقتراح بأن يتولى البابا بونيفيس الثامن عملية تعيين الامبراطور، وكان دوبوا قد أنكر آنذاك امتلاك البابا لمثل هذه السلطة، لكن الآن، عندما بدت الظروف وهي تقدم فرصة لزيادة حجم مملكة الملك الفرنسي مع سمعته، اقترح أن يقوم كليمنت الخامس باستخدام السلطة نفسها التي رفضها في حالة بونيفيس الثامن، ويبدو أن دوبوا قد عدّ البابا فرداً عادياً بلا سلطة عندما كان إيطالياً معادياً لفرنسا، لكن عندما كان فرنسياً، له عواطف جيدة نحو الملك، فهنا عدّه دوبوا صاحب سلطات رسمية غير محدودة، ولم يقم فيليب بأي عمل جدي في هذا المنحى، لكنه اتخذ خطوات لضمان انتخاب أخيه شارل أوف فاليوس.

وكان الانتاج الأخير لهذا العام رسالة وجهت إلى فيليب، اقترح فيها

إيجاد مملكة في الشرق الأدنى من أجل ابنه الثـــاني، فيليب الطـويل، وتسوغ محتوياتها عـدّها بمثابة ملحق «للاسترداد» ولهذا ترجمت وألحقت بترجمة المجلد الحالي.

وبعـد هذا النشــاط المثير لعـام ١٣٠٨، أخلد دوبوا إلى الـراحـة لمدة خمس سنوات، فالمصادر لا تشير إلى أي أثر من النشاط الأدبي قام به من جـانبه، لكن هل أنتج رسـائل أخـرى لم تبق لنا ولم يتم التعرف عليهـا؟ وهل شعر بالاحباط لأن جهـوده لم تأت بأي استجابة من الملك؟ أم أن سياسات فيليب حققت ما يكفي من نجاحات حتى لم تبق هناك حاجة إضافيـة للتوجـه نحو الرأي العـام؟ ولقد استمر وليم نـوغاريت No-garet في خضم المعركة ينشر منشوراً لتسويغـه، لكن المحاكمة المخفقة لبـونيفيس في سنة ١٣١٠ أخفقت في إثارة المحـامي النورماندي لانتـاج أي أثر أدبي، ولم يثر مجمع فينا، الذي حـلّ منظمة الداوية أية ردات فعل من قلمه.

واستطاعـت عين س . ف . لانغلوِيس الثــاقبـــة، والخبيرة تمامـــاً بالخصوصية الأدبية لدوبوا، التعـرف إلى أنه مؤلف رسالة صغيرة، كتبها فيما بين تشريـن أول ١٣١٣ وأيام الصـــــوم الكبير في سنـة ١٣١٤، بعنوان«مبـــارزات ومنازلات»، ولم تنظر الكنيســة قط بعين الرضـــا إلى المعـارك الصورية، التي أحبتهـا قلوب الفـرسـان كثيراً، وكانت الملكيـة أيضاً تميل نحو التقطيب تجاهها لأن عدداً كبيراً من الرجال ومن الخيول هلكوا مما سبب صعوبات في الحفـاظ على قوات فرسان إقطاعيـة كافية، وقبل القيام بـالصليبية المقترحة، قـام كليمنت الخامس في ١٤ — أيلول سنة ١٣١٣ بإصدار مرسوم Passiones Miserabiles ، الذي أدان بشـدة المبـارزات والمنازلات، وفي تشرين الأول قـام النائب البـابوي في فرنسـا بشكل رسمي بتحريم جميع المبـارزات مع التهديد بإنـزال عقوبة الحرمان الكنسي والتكفير، وجـاء الاعتراض من النبلاء الذيـن احترموا

المؤسسة القديمة التي كان يمكنهم من خلالها إظهار براعتهم وشجاعتهم، ومن حشد الموظفين الصغار، الذين كانت المبارزات بالنسبة إليهم مصدراً للدخل، وكذلك من العامة الذين وجدوا في مثل هذه المشاهد خروجاً مرحباً به على رتابة حياتهم، وجاءت مذكرة دوبوا مجرد طلب غير رسمي إلى البابا حتى يعلق المرسوم، وأمام مختلف الاعتراضات من الأسرة المالكة جرى تعليق المرسوم، ومن ثم ألغي أخيراً.

وعبر دوبوا في بعض رسائله عن الخوف من الأعداء الذين من الممكن قيامهم بازعاجه بسبب الأفكار التي نشرها، وبهذا أعطى مسوغاً لإبقاء اسمه مجهولاً، ويبدو أنه توفر القليل من الأساس الفعلي لمثل هذا الخوف، وعاش دوبوا بعد سيده الذي ابتغى برغبة شديدة خدمته، لكن لم تكن هناك محاولة للنيل منه، وكان الذين تعرضوا لثقل عاصفة النقد الشديد هم بعض موظفي فيليب ومستشاريه، وخاصة انغراند دي ماريني Enguerrand de Marigni ، الذي كان وزير ماله، فهذا أيضاً كان ممن تحمل عاصفة النقد التي ثارت بعد وفاة الملك، وازدادت الكراهية الشديدة لماريني بإثارة النورمان لتدبر انتخاب ابن عمه نيقولا ليكون بابا، وغياب نقد دوبوا فيه بينة إضافية على أن جهوده لنصح فيليب لم تتلق اعترافاً رسمياً.

وأصبح دوبوا بعد سنة ١٣١٤ شخصية مغيبة في الظل، ومن المحتمل أنه تابع نشاطه بمثابة محامي للتاج، إنما في منطقة أرتوا، وجاء في سجلات برلمان باريس لدورة كانون الأول ١٣١٩ اسم«المعلم بيير دوبوا» بين أصحاب تقارير التقصي، وجرى تعريفه على أنه وكيل الكونتسة ماهوت صاحبة أرتوا، ويبدو أنه قبل وفاة فيليب(٢٩ تشرين الثاني ١٣١٤) دخل دوبوا في خدمة الكونتسة، وقد أعدت في يوم فصح ١٣١٤ من أجل الشراء في باريس لتسعة أذرعة من القماش من أجل

مستشـارها«المعلم بيير دوبوا»، وكان آخـر ظهور لدوبوا في التـاريخ — إذا كـان في الحقيقـة هو — في مـادة في وثائق باس — دي — كـاليس Pas - de - Calais ، حيث ورد ذكـره مع آخـرين شـاركـوا في التحقيق في بثيون Bethune في ٢٣ شباط سنة ١٣٢٠ ، وكـان قد وصل آنذاك إلى سن السبعين أو ما يقـارب ذلك، ولاشك أنه توفي بعد ذلك بوقت ليس طويل.

الاحتكام إلى الرأي العام

من الصعب الحديث عن وجـود رأي عـام — حسب الاصطلاح الحديث — في العصـور الوسطى، ومع ذلك ثارت اهتمامـات الرأي العام بين آونة وأخرى إلى حيث لجأ المتنافسون من على الجانبين، وابتغوا الحصـول على شيء من التأييـد الشعبي، وجـرى بالضرورة توجيـه مثل هذا الاحتكام إلى جـزء صغير جداً من مجموع السكـان، وتكون السواد الأعظم من الناس من فـلاحين جهلة، الـذين لم يكن لهم وزن، حتى لو افترضنا أن أحـد الناس قـد امتلك الوسائل، في إثـارة هذا السواد نحـو موقف ما.

وكان الالتجـاء الجدي إلى الرأي العام يمكن توجيهـه نحو فئات من المرغوب نيل مساندتها لسبب أو لآخر، وذلك من أمثال أعضاء المجلس الاستشـاري الملكي، وأشخاص يفترض أن لهم نفـوذهم وتأثيرهم على أعمالهم، وأعضاء من البلاط البابوي، أو أعيان من الهيئة اللاهوتية أدنى منزلة، ونزولاً من هؤلاء إلى مـؤيد يـدهم من الأدنى مكانة، ومع قيـام الطبقة البورجـوازية العليا وارتقائها إلى المكانة الهامةسيـاسياً واقتصادياً، صـار من الممكن إضافـة مجموعـة ثالثة، من الممكن الاحتكام إليهـا مع بعض الأمل بالنفع.

وفي غيـاب اجتماعـات مجالس منتظمـة تضم أعضـاء متمكنين من

الشعب، أخـذ الاحتكام إلى الرأي العـام شكل مـذكـرات ونشرات أو رسـائل، تمت كتابتهـا أحياناً من قبل وكـلاء جرى تعيينهم لهذه المهمـة، وأحيـاناً من قبل متطوعين، وبالطبع لم تكن هناك وسـائل تقنيـة للنسخ السريع، ولاخـدمات للتـوزيع، وحققت الأفكار التي حوتها المذكـرات الانتشار بواسطة الفم في الغالـب، أو بوضع المذكرة في مكان معروف، مثل أبواب الكنـائس، ووصلنا عـدد كبير من هـذه المنشـورات بنسخ خطية فريدة، تمّ حفظهـا في بعض دور الوثائق الرئيسة أو اللاهوتية، أو تم نسخها كليـاً أو جزئياً من قبل بعض المؤرخين، الذين عـدّوا القضية جديرة بالتدوين.

ومن الممكن القول بأن المنشورات من هذا النوع في العصور الوسطى تعـود إلى ثلاث حقب، أو ربما أربع حقـب متميـزة، و جـاءت الحقبـة الأولى وولدت من خلال الصراع حـول تقليد المناصب، التي بدأت مع محاولات البابـا غريغوري السـابع لاصـلاح الكنيسة في ألمانيا، ولتـأكيد الاستقـلال اللاهوتي عن الاشراف الـذي فـرض مـن قبل الامبراطور هنري الـرابع، واتسـع الصراع وتطور إلى مشكلة تعلقـت بادعـــاءات التنافس على السلطة بين القـوى الروحيـة والقـوى المادية، واستمـر هذا الخلاف طويلاً بعـد اختفاء الذين أثاروه على مسرح الأحـداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسـوية في وفاق وورمز Worms (١٢٢٢) ، وظهر في أثناء الصراع عـدد من المناشير، حـاول فيهـا مـؤيدو كـلاً من الفئتين المتنازعتين الاستناد على نصـوص مقتبسة من الكتـابات المقدسـة، ومن آباء الكنيسـة، ومن تقـاليد الكنيسـة، ومن القـوانين الكنسيـة، واكتشف مـؤيدو الامبراطورية مخازن من الذخـائر متـوفـرة في مناقشات القـانون المدني الرومـاني، الذي كـانـت دراسـاته المنبعثـة قـد بدأت في المدارس، وكـانت المناقشات من هـذا المصدر قـوية جـداً إلى حد جعلت فيـه من الكونتسة مـاتيلدا صاحبة توسكانيا — وكـانت من الحزب البابوي —

أداة في إيجاد مدرسة للدراسات القانونية حيث يمكن دراسة القانون الروماني من الوجهة الصحيحة، أي من وجهة النظر البابوية، ووجهت أعمال الاقتباس للقوانين أحياناً، بتهمة بأن القانون المنقول لم يكن أصيلاً، وغالباً ما تمّ تبادل هذا الاتهام من على الطرفين، وبدأ المفكرون من الناس يسألون:«أين يمكن إيجاد الحقيقة»؟ و«هل هناك حقيقة مطلقة» ؟.

وتغطي الحقبة الثانية الصراع فيما بين أباطرة أسرة هوهنزتوفن والبابوات، ولاسيما جهود الامبراطور فردريك الثاني للحفاظ على منصبه في وجه العداء المرير من جانب البابوين: غريغوري التاسع، وانوسنت الرابع، وكان فردريك الثاني كرجل دولة أكثر وضوحاً بالرؤية من كل من هنري الرابع أو هنري الخامس، وقد رأى أن خير سبيل أمامه هو نيل تأييد الملوك الأوربيين الآخرين، ومن أجل هذا بعث برسائل متوالية إلى الحكام وإلى مرؤوسيهم الرئيسيين، لكن ذلك كان بلا فائدة، وقد ترك لنا سكرتيره ومستشاره بيروديلا فينا — وكان معلماً في الأسلوب اللاتيني الرفيع — مجموعة من الرسائل اتخذت نماذج في تدريس الـ Ars dictominis ، وطبعاً قد تضمنوا إشارة إلى مشاكل فردريك، وكانت هذه المجموعة متوفرة في دار الوثائق الملكية، ومن المؤكد أنه كان بإمكان رجال الدعاية البارعين لدى فيليب استخراج إشارات نافعة من محتوياتها المقنعة، وهذا أمر لم يبرهن عليه بشكل قاطع، لكن يمكن للانسان أن يتعرف إلى توفر تطور واضح المعالم لأفكار الامبراطوريين الذين كانوا في خدمة فردريك، وذلك من خلال الذين كانوا في حاشية فيليب، ومن ثم إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذه المدافعون عن لويس صاحب بافاريا في القرن الرابع عشر.

وتقع الحقبة الثالثة خلف النطاق الزمني لهذا المجلد، ذلك أنها بدأت مع تفجر الخلاف حول الانتخاب الامبراطوري في سنة ١٣١٤، وعندما

هزم لويس صاحب بافاريا خصمه في سنة ١٣٢٢، اتخذ البابا جون الثاني موقفاً أفاد أنه وحده امتلك الحق ليقرر الخلاف حول الانتخاب، ودعا لويس إلى عرض دعواه أمام مجلس الكرادلة في روما، ورفض لويس ذلك، وحرم كنسياً، وتعقد الصراع المتجدد بين الامبراطورية والبابوية بصراع البابا جون وخصومته مع الفرنسيسكيين الروحيين، الذين انضموا إلى صف لويس، وكانت عروض كلا الطرفين عالية الصوت، لكن عندما يقارن هذا مع الصراع الأبكر، نجد أن هذا كان معركة أقزام، والذي جعل هذا الصراع هاماً هو أنه دفع بجهود بعض الكتاب مثل : وليم أوف أوكهام Ockham وجين أوف جاندون Jandun، ومرسيليوس أوف بادوا Padua ، إلى توجيه ضرباتهم نحو أسس البابوية بالذات.

وأوضحت الدراسات المنشورة في مجال السياسات الفرنسية خلال حكم فيليب الرابع، أنه توفرت آنذاك حقبة واضحة رابعة للمنشورات، قد عادت من حيث التأريخ إلى ما بين الحقبتين الثانية والثالثة المشار إليهما أعلاه، وقد كتبت الأعداد الكبيرة من المنشورات التي دبجها قلم وليم أوف نوغاريت وقلم بيير دوبوا، لغاية محددة هي كسب التأييد الشعبي لسياسات فيليب، وظهرت المحاججات التي التمست تأييد وعطف الطبقة الوسطى بشكل أكثر تعاظما وتكراراً مما كانت عليه في الحقب الأبكر، وسبب ذلك أن البرجوازية قد صعدت الآن إلى مكانة بات من المرغوب فيه كثيراً نيل تأييدها، وهذه حقيقة أدركها الملوك الوطنيون، ففي أيام الامبراطورية، حتى في أيام لويس صاحب بافاريا، كانت هناك دواعي أقل لمثل هذه التوجهات بالالتماسات، لأن الامبراطورية حافظت على التنظيم الاقطاعي الذي ترك فرصة صغيرة للطبقة الوسطى للقيام بدور سياسي من هذا القبيل، وعلى العكس كان فيليب الرابع بارعاً بما فيه الكفاية لإدراك أهميتها، وهكذا طور آلية

أعطى فيها أعضاء الطبقة البورجوازية قدراً من الاعتراف السياسي، مثلما حدث بالنسبة لمجلسي أعيان سنة ١٣٠٢ وسنة ١٣٠٨، فهنا حوضر عليهم من قبل عملاء فيليب، ووزعت عليهم المنشورات التي تؤيد القضية الملكية، وكان بيير دوبوا حاضراً في كلا المجلسين، وقد كان أيضاً قد تولى كتابة بعض المنشورات، وظهرت الرسالة التي نتولى الآن ترجمتها فيما بين اجتماعي المجلسين العامين.

خلفية تاريخية

ظهر بيير دوبوا على مسرح الأحداث التاريخية في لحظة حاسمة في الصراع فيما بين البابوية والدول الوطنية البطيئة الظهور آنذاك، وفي الوقت الذي انحصر فيه دور دوبوا في هذا الصراع في فرنسا إلى أبعد الحدود، كانت المشكلة نفسها أوسع بكثير، حيث تورط فيها بالفعل كل ملك وطني قد حاول أن يحكم ممتلكاته بمثابة سلطان متحرر من جميع أنواع التدخل من قبل سلطة خارجية، وحقق الوضع الجغرافي وحقائق أخرى في انكلترا، درجة من الوحدة الوطنية كانت أبكر مما حصل في فرنسا، وقد كانت مشكلة السيادة هذه قد انبعثت من قبل من وقت إلى آخر، لكن نادراً ما كانت حادة الشكل مثلما كانت عليه أثناء حكم ادوارد الأول (١٢٧٢— ١٣٠٧)، وبناء عليه إن الصراع بين فيليب والبابوية، الذي نشط دوبوا خلاله، وكان له دوره فيه، هو وإن كان متواضعاً، ينبغي على هذا النظر إليه بمثابة جزء من صورة أكبر، وحوت هذه الصورة، أكثر من الصراع حول السيادة، لقد شملت الروح المتوثبة وغير القانعة بالأشياء حسبما بدت مؤشراتها في القرن الرابع عشر، وعمل دوبوا باهتماماته المتنوعة بمثابة واحد من أكثر المتحدثين فصاحة حول هذه التوثبات وعدم الرضا والقناعة، ومن أجل فهم مناسب لأفكاره ولأهميتهم من الضروري تقديم عرض وإن كان مختصراً عن الخلفية المباشرة للعصر الذي عاش فيه وكتب.

ولقـد وصلت الاسميـة الحسنة التنظيم للحيـاة في العصـور الوسطى ذروتها في القـرن الثـالث عشر، وشهـد هـذا القـرن فـرض الـواجهـة المدرسية التي حققت كمالها الأعظم في عمل القـديس توماس الأكويني، وشهـدت شـارة انتصـار البـابوية في الصراع الطويل والمتـداخل ضـد خصمها الرئيسي، أي الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت الجامعات في الشمال والجنوب تقـوم ببلورة تنظيماتها الإداريـة في أشكال استمـرت بلا عـلامـات تغيير لمدة قـرون، ووصـل الأدب الفـردي للفـروسيـة والملحمة، والرومانسية، إلى ذروته، وكان هناك نمط من الأدب الأقرب إلى العامية، وفي الغالب اسطوري سفيه، قد بدأ يحقق ظهوره.

واحتوى القرن الثالث عشر هذا نفسه في داخله بذور حركات تولت في النهـاية تدمير كثير مما بدا أنه قـوي التأسيس، فـالحماسة التقـوية التي دفعت بآلاف للقيـام بالرحلة المرهقة لإنقـاذ الأماكن المقدسـة من أيدي المسلمين، بدأت بالزوال، ليحل محلهـا السعـي وراء المطامح التي بدأت بالظهـور منذ أيام الحملة الصليبيـة الأولى، والوصول أخيراً إلى شعـور بالخيبـة بسبـب اخفـاق الحروب الصليبيـة، وصحيح أن النـاس تابعـوا الحديث والتخطيط لصليبيـات جديدة، وهذا هو الموضـوع الأساسي في مـذكـرة دوبوا الرئيسيسـة، التي جـاءت بمثـابة نداء لصليبيـة جـديدة، واحتـوت على اقتراحات تفصيليـة لبرنامج اصـلاحي جـديد يمكنه أن يضمن نجـاحهـا، صحيح هذا لكن صحيح أيضـاً أن النداءات من البـابوات ومن القـادة العلمانيين قـد وقعت على آذان صماء، ذلك أن أوروبا الغـربيـة كـانت مهتمة أكثـر بمسـائل مـادية، فقـد ربحت المدن الايطالية مرابح هائلة من الاتصـالات التجارية مع الشرق الأدنى، وقد ضمن لها مـوقعها الجغرافي احتكـاراً فعلياً لهذه التجارة المربحـة، وهناك دليل على رفض احتكـارهم هذا من قبل الذيـن توجب عليهم دفع مـا اختـاره الايطاليـون وطلبـوه ثمناً لبضـائعهم، من تعليقـات دوبوا على

جشع التجار (الفصل ٦٧)، فهل ياترى اهتم التجار الايطاليون بأمر أن الذين زودوهم بالبضائع كانـوا كفاراً؟ لا، ذلك أنه حتى الكافر التركي كان من الممكن أن يبرهن أحياناً على أنه حليف مفيد.

وكانت الآفـاق العقلية لأوربا الغـربية آخذة بـالاتساع، وسيكون من الخطأ أن نعزو سبـب ذلك كله إلى الحروب الصليبية، أو أن نعـزو إليها النصيب الأوفى في عمليـة التغييرات التي كـانت قـائمـة، ولقـد كـانت الحروب الصليبية حقيقة هامة في تحريك الأوربيين الغربيين، ونقلهم من الواقع المقاطعاتي الضيق، وكانـوا قد تعلموا الدرس الثمين في أن ما كل ما علموه كان صحيحـاً، ومن الأدلة على ذلك ماقاله ستيفن أوف بلوا، الذي كان من قادة الحملة الصليبيـة الأولى، حيث كتب إلى زوجته وقال وهو يشعـر بشيء من اليأس: «إن مـاقاله بعضهم حـول استحـالة تحمل حـرارة الشمس في أرجاء سـورية غير صحيح، لأن الشتاء هناك مشـابه جداً لشتائنا في الغرب».

وكـان الأفق الجغـرافي آخـذ أيضـاً بالاتسـاع، فمع نهاية القـرن كـان ماركـو بولو قد عاد مـن الشرق الأقصى، بعد غياب هناك امتـد حوالي العشرين سنة، عاد وقـد حمل معه حكايات عن ثروات للتمتع بها، وعن مناظر رائعة تستحق أن تشاهد، ولم يكن ماركوبولو وحده هو الذي قام بمثل هذه الرحلة الطـويلة والمرعبـة، فقـد قـام عـدد كبير من الأفـراد، بعضهم كـان مجهـولاً، وبعضهم الآخـر كـان مشهـوراً، بالارتحال مثل ماركوبولو، وعدد قليل منهم تركـوا لنا روايات مدونة حول مغامراتهم، وكـانت البابـوية تحلم حول إقـامـة حلف مع الخان الكبير، الذي ينبغي عليه تدمير المسلمين، لأنه كـان حاكما عملاقاً، وجـرى إرسال المزيد من البعثات إلى الشرق لتعميق المشروع، وتمّ بالفعل تأسيس رئاسـة أساقفة في بكين سنة ١٣٠٧.

وهناك أدلة واضحـة حـول وجـود شغف ثقـافي، فقـد كتب روجـر

بيكون بشيء من الازدراء عن كتابات علماء كبار، قدموا إلى الانسانية طرائق جديدة للمعرفة، التي ادعى أنه كان شخصيا المعلم فيها، وجعل المترجمون في اسبانيا وفي جنوبي إيطاليا المعارف الاسلامية متوفرة إلى العالم الغربي، وكان خصوم المعارف الجديدة، من أمثال سيغردي برابنت، يثيرون المناقشات الحية في قاعات المحاضرات في باريس، ومراكز التعليم الأخرى.

أما في مجال الادارة الحكومية، فقد شرعت حقائق جديدة بالظهور، ربما كانت أقل بداهة، لكن لها أهمية قصوى بالنسبة للآفاق السياسية، فقد دخلت الامبراطورية المقدسة في مرحلة كسوف بعد وفاة فردريك الثاني في سنة ١٢٥٠، ثم انتعشت فيما بعد في ظل أسرة هابسبورغ، لكنها ظلت قائمة على القواعد الاقطاعية القديمة، وكانت أهم التغييرات قائمة وآخذة بالحدوث في المملكتين الاقطاعيتين القديمتين، أي في انكلترا وفرنسا، وعوضاً عن أن يكون الملك في أي منهما مجرد «الأول بين قرناء»، بدأ الملوك فيهما في تأكيد الحقوق والامتيازات الملكية، وكان هذا يختلف تماماً عن السيادة القديمة المعترف بها على الأتباع، وبدأ في انكلترا نظام جديد يتعلق بالقانون العام، تولت ممارسته المحاكم الملكية، وكان هذا الذي بدأ في أيام حكم هنري الأول (١١٠٠— ١١٣٥) قد أخذ شكله النهائي في ظل حكم هنري الثاني (١١٥٤— ١١٨٩)، وقد تقلص هذا في ظل سلوك رتشارد قلب الأسد، ثم في ظل أخيه الضعيف الملك جون، وتوقف ذلك كله بشكل فعلي بسبب ثورات البارونات أيام هنري الثالث (١٢١٦— ١٢٧٢)، غير أن هذا النظام جرى توسيعه واتمامه من قبل ادوارد الأول (١٢٧٢— ١٣٠٧)، الذي يدعى أحيانا باسم جستنيان الانكليزي، ومع سنة ١٣٠٠ كان الملك والشعب يحكمان معا من قبل القانون، وقد أصبحت انكلترا أمة.

وفي فرنسا سعدت أسرة كابيه بشكل منفرد، وذلك منذ وصول هيوكابيه إلى العرش في سنة ٩٨٧ حتى وفاة لويس العاشر في سنة ١٣١٦، فما من ملك فرنسي قد مات دون أن يترك وريثاً ذكرا مباشراً ليخلفه، وخلال الحقبة نفسها أخذ كل اقطاع فرنسي هام، يدخل في وقت أو آخر، في الاملاك الملكية، ومع وصول فيليب الرابع إلى العرش في سنة ١٢٨٥، كانت المناطق التي حافظت على استقلالها الاقطاعي هي: كونتيه فلاندرز، ودوقيات: بريتاني، وبيرغندي، وأكوتين، وكانت دوقية أكوتين مملوكة من قبل ادوارد الأول ملك انكلترا.

وترافق تأسيس السلطة المركزية الملكية مع قيام الطبقة الوسطى، التي وجدت بشكل عام أن مصالحها تتوفر أكثر بوجود ملك واحد قوي، بدلاً من وجود مجموعة متداخلة من السادة الاقطاعيين، ووجد الملوك بدورهم في الطبقة الوسطى حليفاً راغباً وثميناً لجهودهم في سبيل تأسيس سيطرة على النبلاء الاقطاعيين، أما في فرنسا فقد توفر اسهام ملحوظ قامت به الطبقة الوسطى في سبيل هذه الغاية، وتم هذا على أيدي طبقة جديدة من المحامين المحترفين الذين تدربوا على القانون المدني الروماني، في احدى مالايقل عن ست جامعات، وبدأ ظهورهم كطبقة مع إعادة التنظيمات القانونية التي تولاها لويس التاسع، وازداد رواج القانون الروماني، الذي دعمت أسسه بقوة المطالب الملكية، وانتشر إلى الشمال من بولونا Bologna ومن الجامعات الايطالية الأخرى، وقام بشكل تدريجي— لكن لامفر منه— بتدمير النظام القضائي الاقطاعي القديم، وقدم الاختصاص الجديد فرصاً لمهن حياتية مربحة، وكان من الممكن لمحام قدير، أن يأمل حتى— كما فعل دوبوا— في أن يدخل إلى الوسط المغري لمستشاري فيليب الرابع المقربين، الذي كان من بين أعضائه قانونيين لامعين من أمثال ماريني، وبلازيان Plasian، ووليم أوف نوغاريت.

وكـان فردريك بربروسـا قـد استخدم علماء من مـدرسة الحقـوق في بولونا من أجل التوسع بسياسته الايطاليـة، وقدمت مدارس الحقوق في أورلين وفي أماكن أخـرى أدوات مماثلة إلى لويس التاسـع، الذي أضاف إلى إدارتي الوكيـل والنائب القـــديمتين ادارة جـــديدة هـي الـ en-quetuers، وقد حل هؤلاء محل الرهبان المتسولين كأداة للاشراف على الوكـــالتين القـديمتين، وكـــان هؤلاء الموظفين الجدد علمانيين من أصل برجوازي، أصبحـوا ليس قضاتاً فقط بل رجال دولة أيضاً، وسـاعدتهم معـرفتهم الدقيقـة بالقـانون المدني على تلفيق الأسلحـة للدولة الوطنيـة الصـاعدة، وقـد أصبحوا بشكل فعلي أيـام فيليب الرابع نبلاء للقـانون، وقد أشير إليهم بمثابة militea legum أو Militesregis، وكان هذا نوعـاً من نبالة الثـوب، وبحكم كونهم خـدماً مخلصين وأقويـاء للملكية عـارضوا حكم الدولة من قبـل كل من النبلاء الاقطاعيين أو الكنيسـة، ووقف ضـــدهم وتحزب رجــال الشريعـــة الكنسيـــة، مع مفهـــومهم وتصورهم لدولة دينية ينبغي أن تكون ذات سلطة عليا.

وأسهمت الطبقـــة الـوسطى بدور هام في المســائـل العسكرية، لأن الجيـوش الاقطاعية لم تعـد كافيـة لتلبية الحاجـات المتزايدة للملكيـات الوطنيـة، والتي كـانت منذ زمن طويل تتـزود بالدعم من قبل جيـوش مـرتزقة تشكلت بشكل رئيسي من غيرالنبـلاء، ومع أن جيوش المرتزقـة هذه دفع لها بشكل سيء، لكن تـوجب على كل حـال اطعـامهـا، وألقى الاستخدام المتـزايد لوحـدات مدفوع لها ثقـلاً عظيماً على كاهل خـزائن المال المختنقـــة لتلك الأيام، ولكي يـواجـــه الملوك الطلب المتـــزايد على السيـــولـة النقـــدية لجأوا إلى زيـادة الضرائب، وجميع الأشكال الماليـــة الموائمـة، الأمر الذي قـادهم أحيـانا إلى صراعات مع الطبقـة الوسطى، المتكلة لثـروة قد فـرضت عليهـا الضرائب، وأحيانا مع الكنيسـة التي كانت أغنى مؤسسات العصور الوسطى.

ومع وجـود ملك أجنبي مثل ادوار الأول مسيطر على أكوتين بمثـابة تابع للملك الفرنسي، كـان لابد لسياسة التـوسع لفليب الرابع من إثارة صراع معـه، وفي سنـة ١٢٩٤ تفجـر الخلاف بالمصـالح هذا وتطور إلى حـرب مفتوحـة، وبحث كل فـريق عن حلفـاء، وعرض فيليب تقـديم العـون على سكوتلندا، وبذلك أرسـى أسـاس الروابـط بين سكوتلندا وفـرنسـا التي استمـرت حتى أيام مـاري ملكة السكوتلنديين في القـرن السـادس عشر، وبرهن أدولف أوف نـاسـو، حليـف ادوارد، أنه قليل النفع، وأعظم أهميـة منه كـان كونت فـلاندرز، الذي رأى في التحـالف الانكليزي فـرصة لصـد هجوم فـرنسي ممكن، واستمـرت الحرب لعدة سنوات، ومالبثت أن أنهكت المصـادر المالية للفـريقين المتصارعين، ولجأ الفـريقان وهما في حـالة يأس إلى فـرض الضرائب على رجـال الدين في ممالكهم المحترمـة، وجـرتهما هذه السياسـة الى صراع مع البـابا بونيفيس الثامن.

الخلاف مع بونيفيس الثامن

شعـر بونيفيس الثـامن عندمـا أصبح بابا، بعـد استقـالة سيليستين الخامس بأنه مـدعـو إلى إعـادة البـابوية إلى سـالف قـوتها ومجدها الذي تمتعت به في ظل حكم إنوسنت الثـالث، عندما عبر كل رأس متـوج في الغـرب المسيحي عن خضوعـه إلى ذلك البـابا القوي، وكـان بونيفيس، وهو مـا يزال كاردينالا، قـد اصطدم وتخاصـم مع اثنين من الكرادلة من أسره كولونا Colonna ، وهما جيمس وبيتر، وكانا قـد أنكرا صحة انتخابه، وبناء عليـه جردا من منصبيهما وحـرما كنسيـا، وكان بونيفيس، مثله مثل أسلافه، يأمل بقيام حملة صليبية يتولاها العالم المسيحي المتحد، وعمل في سنة ١٢٩٥ في سبيـل إنهاء الحرب فيما بين اداورد وفيليب عن طريق إعلان هدنة، الأمـر الذي تجاهله الفريقـان، ولهذا أصدر بونيفيس مـرسـوم Clericis Laicos (شبـاط ١٢٩٦) حـرم فيـه على العلمانيين

فرض الضرائب على رجال الدين.

ومن حيث الواقع النظري كـان الافـرادمـن اللاهوتيين مع ممتلكاتهم معفيين من المحاكمات العلمانية، ومن الضرائـب، وفي الحقيقة سمح البابا في عـدد كبير من المناسبـات للسلطات العلمانيـة بفـرض ضرائب على رجال الدين في أيام الطوارىء، وقيام التاج بجبايتها، وكانت هذه المبالغ بعيدة عن مقاصدهم الأصيلة، ولقـد قام كل من ادوارد وفيليب بفرض ضرائب ثقيلة على رجال الديـن المحليين دون الحصول على إذن بابوي، وقد وجد المحامون البارعون مع وزراء المال طرقاً لتمويه هذه الضرائب من أجل تجنب الصدام مع حرفية القانون.

وعدّ بونيفيس — الـذي كان جيد المعـرفة بشرعيـة القوانين — هذه الضرائب غير عـادلـة، وأنها تتـولى سلب الكنيسـة، وقـــرر إيقـاف هذه الممارسـة، ولم يحرم المرســوم جميع الضرائب من هـذا النوع، لكنه وضع شرطاً أسـاسياً هو الحصـول المسبق على الموافقـة البابوية، وجـرى تحريم فـرض الضرائب غير الموافق عليهـا من قبـل البـابا، على رجـال الدين، وأرفق ذلك بتهـــديد الحرمـــان الكنسي وبفـــرضـه على كل مـن الدافع والجابي، وجرى بشكل محدد وواضح منع جميع الأسـاقفة ورجال الدين من دفع مثل هذا النوع من الضرائب، مهما كان اللون الذي تموهت به.

وكانت النتيجة واضحة، هل كانت الدولة الوطنية ذات سيادة؟ وهل يمكن للبـابوية المنتصرة في صراعهـا مع الامبراطـورية تحقيق نصر مماثل على الدولة الوطنيـة الناهضـة؟ وكـان الخيـار أمـام ادوارد وفيليب إمـا الانحناء لإرادة البابـا بونيفيس العجوز المتصلب، أو الرفض ومـواجهة قـــوة يمكنهـــا الافتخـــار بتحقيقهـــا سلسلة لا يمكـن مقـــارنتهـــا من الانتصارات في صراعات مماثلة، وكـانت النتيجة من حيث المبدأ محصلة قـديمـة، لكن خصم البـابوية لم يكن هذه المرة الامبراطورية الاقطاعيـة الضعيفة، بل كانـت الدولة الوطنية الصاعدة، المدركـة تماماً لشخصيتها،

ويقـودها ملك كـان يعمل في سبيل الوصـول إلى مقـاصـد عليـا، وله مستشارين بـارعين، ورجال فيهم مضاء، لايمكنهـم التردد في الوصول إلى غـاياتهم، وعمل فيليب الرابع على حشـد الرأي العـام لتأييـده، من خلال وساطة مجالس الأعيان العامـة، والمجالس الأدنى مرتبة، ودعمت هذه الجهود بمناشير تطوعية كتبت في الغالب من قبل مجهولين، لابد أن دوبوا كان من بين أبرز الممثلين.

ورد إدوارد بسرعة، فعنـدما عـرض رئيس أساقفـة كانتبري مـرسوم Clericis Laicos وطالـب بتطبيقــه، وأقنع رجـال الدين بـرفض الضرائب المفـروضة، أمـر ادوارد مسؤول العـدالة لديه بأن يرفع بشكل رسمي حماية القانون المدني عن رجال الدين، وتجاهل الملك تهديد رئيس الأساقفـة له بالحرمان الكنسي، ولم يكتف بذلك، بل طلـب من المخاترة لديه الاستيـلاء على بعض الممتلكات الكنسيـة العـائدة لرئيس أسـاقفـة كانتربري، وعندمـا تشكى رجال الدين إلى المحاكم، جـرى إخبارهم أنه بناء على الأمـر الذي صـدر عن المسـؤول الأعلى عن العـدالة، ليس لهم مكان في المحكمـــة ولايمكن الاستماع إليهم، وانحنـى رجـــال الــدين ورضخــوا — مع استثناءات — إلى مـا لابـدّ منه، وربح ادوارد الجولة الأولى.

وكانت ردات فعل فيليب أيضاً فورية وقـوية، فقد أمر المحامين لديه بوضع مشروع أمـرين، يمنع أولهما جميع الأجـانب من دخـول فـرنسـا، وبذلـك منع أي مندوبين مـن قبل بونيفيـس، قـــد يرسلهـم لفـــرض مرسـومه، وحظر الثاني تصـدير أي ذهب أو فضة أو خيـول، أو مؤن، أو ذخائر حـربية من دون الحصول على إذن حـربي مكتوب، واستهدف الحظر على الأعتـدة والمؤن إنكلترا، وسـدد منع تصـــدير المعـادن الثقيلة ضربة شديدة إلى الموارد الماليـة للبابوية، التي كانت فرنسـا مصدراً هاماً لها.

وواجه بونيفيس حزب كولـونا القوي في روما، ووجدت انكلترا غير الصديقة في الخارج، أنه عملاً سياسياً غير مفيد القيام بتشجيع معارضة ملك فرنسا الحازمة، هذا الملك الذي كان مدعوماً من قبل عدد كبير من رجال الدين الفرنسيين، وبعد مراسـلات حادة مخففة مع فيليب، أصدر البـابا مـرسـوم Inefabilis amor (٢٥— ايلول ١٢٩٦) اعترف فيـه بمشاعـر الصداقـة العظيمة نحـو فرنسـا، وأعلن أنه ليس لديه اعتراض على فـرض الضرائب على رجال الدين أثناء الطوارىء الوطنيـة، وذلك إذا مـا تم الحصـول على موافقتـه أولاً، وأعقب هذا تنازل آخـر ورد في مـرسـوم Romana mater (٧ شبـاط ١٢٩٧) الذي أبطل مـرسـوم Clericis laicos بالسماح بتقديم هبات تطوعيـة من قبل رجال الدين إلى الملك قبل الحصـول على الموافقـة البـابوية، وجـاء التنازل الأخير في مرسـوم Etsi de statu (٣١ تموز ١٢٩٧) الذي أعطى فيليب الحق في تقرير وجـود طوارىء وطنية تسوغ فـرض ضرائب على رجال الدين دون الحصـول على مـوافقة سلفيـة من البـابا، وجـاءت خطوة مصـالحة أخـرى بتطويـب الملك لويس التـاسع، جـد فيليب الرابع (١١— آب ١٢٩٧).

وبهذه التنازلات أصبح فيليب أكثر انفتاحـاً نحو الجهود التي تولاها بونيفيس للتـوسط في الحرب مع ادوارد، وحرص المتصـارعان على عـد الوسيط الحكم بينهما، أنه شخص بلا منصب وأنه هـو بينيديتـو كايتـاني Benedetto caetani وليس البـابا بونيفيس الثامن، ووضعـا أخيراً حداً للحرب بينهما وأنهياها في سنة ١٢٩٩.

وكـان كل شيء على السطح نقياً، لكن كـانت هناك عـاصفة هوجـاء تختمر وتتشكل، ذلك أن المشكلة الأساسية المتعلقة بالسيادة، وهي نقطة الخلاف الأولى بين فيليب وبونيفيس كـانـت مـاتزال معلقـة دونها حل، ولقد رحب فيليب بالكاردينالين كولـونا، اللذين نفاهما بونيفيس، ولقد

توليا نشر مختلف حكايات القذف والنيل من البابا، واحتجا ضد قانونية انتخابه، وطالبا بعنف بعقد مجمع كنسي للحكم عليه، وانتقم في الوقت نفسه فيليب لنفسه من كونت فلاندرز، بتأمين اعتقاله شخصياً عن طريق الخيانة، وبناء عليه أعلن أن الاقطاع يخص العرش (١٣٠٠)، وقام بعد ذلك بزيارة المنطقة المتملكة حديثاً للمرة الأولى، وازداد نهمه وارتفع شرهه لدى رؤية الثروات والأبهة التي عرضها البرجوازيون الفلمنك الأثرياء مع زوجاتهم، وقد وجد هناك مصدراً غير مستغل حتى الآن لتأمين الموارد للخزينة الملكية.

ومهما كانت الشكوك التي ساورت نفس بونيفيس بشأن قدرته على التعامل مع الملكين الحرونين، فقد استطاع ضبط الأمور والحصول على التهدئة من خلال النجاح الكبير الذي تحقق في الاحتفالات الدينية التي تمت في سنة ١٣٠٠، وأعطى تدفق آلاف الحجاج على المدينة الخالدة لنيل المباركة البابوية، بونيفيس الانطباع بأنه يتمتع بالتأييد الجماعي للعالم الكاثوليكي، وكان لكميات الهبات الهائلة التي انصبت فوق المذابح الرومانية، الفضل بدعم الخزينة البابوية، وهكذا بات، إذا كان المتوجب وضع حد لقوى الملوك الوطنيين، فالآن حل الوقت الموائم.

ويبدو أن فيليب قد اعتمد على التعديلات المتنوعة لمرسوم Clericis Laicos، وبذلك تشجع ومن ثم لم تتوفر لديه نية في ايقاف سياستة بفرض الضرائب على رجال الدين، وعندما تشكى رجال الدين الفرنسيون إلى روما، قرر بونيفيس العمل، لكنه آثر أن يرسل في البداية رسالة انذار إلى الملك، وقد وقع اختياره على أن يكون حامل الرسالة غير المرحب بها، شخصية كانت هي الأسوأ سمعة، لقد اختار برنارد ساسيت Saisset ، أسقف بامير Pamiers ، وكان عدواً لدوداً لفيليب، وجرى في سنة ١٣٠١ اعتقال برنارد، وألقي به في السجن

بتهمة الخيانة.

وكان هذا بالنسبة لبونيفيس إهانة لايمكن التغاضي عنها، وقد أصدر في الرابع والخامس من كانون الأول ثلاثة مراسيم، وكان المرسوم الأول هو Salvatos mundi، وقد ألغى فيه التعديلات التي تناولت مرسوم Clericislaicor، وكان المرسوم الثاني وهو الأهم هو مرسوم Ausculta Fili ، وفيه تم التأكيد فيه بعبارات واضحة على أن سيادة البابا هي سيادة عالمية على جميع الملوك والممالك، وأطلق عبارة هرطقي على كل واحد يغامر بالرفض، وأضاف ثبتاً عدد فيه كثيراً من الاعتداءات التي اقترفها فيليب ضد الكنيسة، واستدعى المرسوم الثالث الأساقفة الفرنسيين إلى الاجتماع والتشاور في روما، لإيجاد الوسائل لاصلاح كل من ملك ومملكة فرنسا ووجهت الدعوة إلى فيليب للحضور.

وقابل فيليب هذا التحدي بمنع رجال الدين الفرنسيين من الذهاب إلى روما، وذلك عن طريق تحديد الحظر على توجيه الأموال إلى روما، ولكي يتصدى لمؤثرات اقتراح عقد المجمع الكنسي في روما، توجه نحو ارضاء العواطف الفرنسية بدعوة مجلس الاعيان العام إلى الاجتماع، وجرى توزيع مناشير هوجم فيها بونيفيس بين النواب، واستمع هؤلاء إلى خطب رنانة ألقاها عملاء فيليب، ويبدو أن جهوداً واعية قد بذلت لتجاوز مرسوم Deum Time المزيف، والقول بأنه أصيل، فقد تولى بيير فلوت Flotte ، الذي كان واحداً من كبار مستشاري فيليب، قراءة الوثيقة المزيفة إلى مجلس الأعيان.

وكانت محصلات مؤثرات هذه الجهود لصالح فيليب إلى أبعد الحدود، فقد تبنى النبلاء وأعيان الدرجة الثالثة قرارات حماسية أيدوا فيها القضية الملكية، ووجه رجال الدين رسالة إلى بونيفيس، لصالح فيليب، يرجون فيها البابا أن يقوم، في سبيل الصالح العام والوئام،

بسحب الدعوة للمؤتمر في روما، ثم كان أن نزلت مصيبة بفيليب من جهة غير متوقعة، فقد وصلت المكوس المالية التي فرضها على البورجوازية الفلمنكية إلى حد ما عاد من الممكن تحمله، ولذلك قام الفلمنكيون في صيف عام ١٣٠٢ بالثورة، ولكي يسحق هذه الثورة بعث فيليب بقوة مرعبة من الفرسان الاقطاعيين، ورفض رجال المدينة الشجعان الانهزام لدى اقتراب الفرسان، وسحبوا صف قتالهم الموجود عند كورتراي Courtrai إلى ما وراء المستنقع، وفي ١١ تموز حمل الفرسان وفقاً لعاداتهم على صف أهل المدينة،وغرقت خيولهم وغاصت في المستنقع، واضطر الفرسان إلى الترجل، وبهذا تمكن رجال المدينة بكل سهولة من تمزيق أعدائهم الغائصين بالوحل.

وكانت هذه الهزيمة الماحقة، وهي أولى الهزائم التي تلقاها فيليب، بالفعل انتكاسة خطيرة، واحتاج فيليب إلى وقت طويل لتعويض الجيش المباد في كورتراي، وكان بيرفلوت،الذي كان أفضل مستشارية وأعظمهم قدرة بين القتلى، وبات هكذا السلم الصعب المعقود مع ادوارد الأول من الممكن خرقه في أي لحظة، وألقى بونيفيس قفاز التحدي، وبات جاهزاً للعمل في كل اتجاه لنيل المنافع.

واجتمع المجمع الكنسي الذي دعا بونيفيس إليه في ٣٠— تشرين أول لعام ١٣٠٢، وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه فيليب، كان عدد كبير وهام من الأساقفة الفرنسيين بين الحضور، وصادق المجمع على اصدار مرسومين، أمر أولهما باصدار الحرمان الكنسي بحق كل واحد يقوم بالتدخل مع الأشخاص الذاهبين إلى روما أو الآيبين منها، وكان المرسوم الآخر هو مرسوم unam Sanctam الشهير وتاريخه ١٨— تشرين الثاني ١٣٠٢،وهو الذي أرسى حق الادعاء البابوي بالسلطة الروحية والدنيوية، بعبارات واضحة تمام الوضوح، ولم يحدث من قبل قط مثلما حدث الآن في عرض الموقف البابوي بمثل هذا الوضوح

اللغوي، «ولهذا فإن كل من السيفين الروحي والدنيوي، هما تحت سلطة الكنيســة وفي يدها..... زيادة على هذا، من الضروري أن يكون أحـد السيفين تحت السيف الآخر، وأن تكون السلطة الدنيـوية تحت السلطة الروحية.... ولهذا نحن نعلن، ونقول، ونـؤكد على أن الخضوع من قبل كل انسـان إلى أسقف رومـا هو كله ضروري من أجل خـلاصـه»، وفي نيسـان ١٣٠٣، أخبر بونيفيس فيليب بأنه قـد حـرم كنسياً لمنعـه رجـال الدين الفرنسيين من حضور المجمع.

وعند الوصـول إلى هذه الحالـة جـرى ابداع استراتيجيـة في البـلاط الفـرنسي، وهـذه الاستراتيجيـة تشير إلى أن الملكيــة قـررت أن لاتترك حجراً إلاّ وتقلبه في جهـودها لإلغاء تأثير المراسيم البابوية، ولاندري في عقل من جـرى تصميم الخطة، ولعـل ذلك كـان في عقل فيليب نفسـه، لابل من المرجـح أكثــر في عقل وليم أوف نوغــاريـت، وقضت الخطة الأصيلة باعتقـال بونيفيس، وأن يقوم النائب البـابوي بالدعوة إلى عقـد مجمع يتــولى محاكمـة السجين، وبما أن المتــآمــرين كـانوا واعين تمامــاً ومدركين لأهمية تأييـد الطبقات الثلاث في فرنسـا، جرى تعديل الخطة، إلى واحدة يرغـم فيهـا بونيفيس نفسه على الدعـوة إلى عقد مجمع، وهذه سـابقة كـان من الممكن أن تنال تأييد رجـال الدين الفرنسيين، وكـذلك الطبقــات العلمانيــة، لأنه كــان من الممكن أن يتردد رجــال الدين في الاعتراف بمجمع يدعـو إليه انسـان آخر لايحمل اللقب البـابوي، وبدأ العمل بـالمؤامــرة في آذار ١٣٠٣، وللحيلولـة دون أي تدخل مـنُ قبل ادوارد الأول، جرى إبرام معاهدة معه في ٢٠— أيار أعاد إليه بموجبها فيليب أكـوتين، وكانـت الخطوة الثانيـة هي تحضير الرأي العـام، ودشن هذا في اجتماع باريس لمجلس مستشـاري الدولة في ١٢ أيار، ففيـه أقلع نوغـاريت بهجـوم حـاد على بونيفيس، وقـد تبنى الحجــة التي أعلنهـا المنفيان من أسرة كولونا، في أن بونيفيس، لم يكن بابا حقيقياً، لأن لقبه

يعتمد على قانونية استقـالة سيليستين الخامس، وكانت النظرية تقول بأن أصوات الكرادلة أثناء الانتخابات البابـوية تمليها بالعادة الروح القدس، وعلى هذا كـان من معـاني استقـالة البابا القـول بأن الروح القـدس قـد أخطأت، وهذا وضع لاهوتي لايمكن تقبله.

وتم التوسع بالاتجاه نحو الرأي العام خلال اجتماع عقد في اللوفر في ١٣— حـزيران ١٣٠٣، وجـرى أمـام هذا الاجتماع الموسع والجمهـور العريض تجديد الهجوم على بونيفيس، وقد قـرأ بلازيان لائحة فيها تسعاً وعشرين تهمـة مـؤكدة ضـد البـابا، وأعلن فيليب عن قناعتـه شخصيـا بضرورة عقـد مجمـع عـام، وتبنى رجـال الدين قـراراً أعلنوا فيـه عن تأييدهم للعرش ضد جميع الخصوم، وأيدوا أيضاً مطلب عقد المجمع.

ولم يكن بونيفيس خصماً جبـاناً على الرغم من تقـدمه بالسن، وجـاء رده في عقد مجلس في أناني Anagni في آب، أصر فيه بشكل مهيب على براءته من التهم التسع والعشرين التي أثيرت ضـده بشكل عدواني، من قبل الفرنسيين، وهنـاك جرى الاعلان أنه يمكن فقط للبـابا الشرعي أن يدعـو إلى عقد مجمـع عام، وتمّ توجيـه الانذار إلى فيليب أنه مـا لم يتب ويقلع عن أعمال عصيانه، سوف يتحمل أقسى عقوبة من الكنيسة.

ووصل بالوقت نفسـه نوغـاريت، مسلحـاً برسـالة اعتماد من فيليب ومـزوداً بمبـالـغ ضخمـة، إلى إيطاليـا، حيث شكل تجمعـاً مع حـزب كـولونا، وفي ٧— إيلول ١٣٠٣، دخل المتـآمـرون إلى أناني، بمسـاعـدة أعضـاء من الحرس البـابوي تمت رشوتهم، وشقـوا طريقهم إلى حجـرة النوم البـابوية، ورفض البـابا المسن التنازل وقبـول مطالبهم، وأصر على موقفه، وفي اليوم الثالث جرى طرد المتآمرين من قبل سكان المدينة.

وصحيح أن حيـاة البـابا حفظت، لقـد برهنت صـدمـه الهجـوم أنها كبيرة جداً بالنسبـة إلى هذا البابا العجوز، ولقـد وجد هذا الرجل الذي

خيل إليه قبل ثلاث سنوات أن العالم راكع عند قدميه، نفسه مطوقاً من قبل الأعداء، فقد تدمرت معنوياته، وفقد أعصابه والقدرة على التحمل، وهنا التمس المساعـدة من أسرة الكاردينال أورسيني Orsini في روما، وهكذا جرت مرافقته إلى هناك، ولقـد كان متعطشاً للانتقام من فيليب، وسببت جهوده في سبيل الحصول على حلفـاء لتحقيق هذه الغاية معاداة أسرة الأورسيني، فـاحتفظ هؤلاء بـه سجينا بشكل فعلي في الفـاتيكان، وهناك في الفاتيكان لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٢ تشرين أول ١٣٠٣.

وترك مـوت بـونيفيس البـابوية في وضع حــرج، فهل سيكون هناك خــلاف طويل في الاجتماع السري للكرادلة، وهل سيعطـي هذا فيليب الفرصة لتقوية أوضاعه من دون تدخل؟ وهل سينتخب الكرادلة رجلاً سـوف يتابع الأخـذ بالسيـاسة المتصلبـة لبـونيفيس التي تبرهن على أنها مأسـاوية جـداً، أم أنهم سـوف يختــارون واحـداً سـوف يتبع سيـاسـة المصـالحة، ويتـولى التسـوية مع فيليب؟ وعمل مجلس الكرادلة بسرعـة، واختـاروا في ٢٢— تشرين الأول الرجل صـاحب، الأخـلاق اللطيفـة، والذي كـان القـائد العـام لطائفـة الدومنيكان، وكـان البـابا الجديد هو الحادي عشر الذي اتخذ لنفســـه لقـب بندكت، ولعله رغـب من وراء ذلك أن يقدم إيماءة بأنه يخطط لاتباع سياسة مصالحة.

وتركت المحاولة المخفقة لاعتقال بونيفيس نوغاريت في وضع خطير، فقـد صـدر بحقه حـرمـان كنسي فـرضته الـواقعة بسبب محاربتـه البـابا شخصيـا، ولم يكن وضع فيليب بالأحسـن، فهـو كـان مـايزال محرومـاً كنسياً، كما مابرحت مراسيم بونيفيس المتعددة ضده قائمة وقوية، ولكي يمارس الفـرنسيـون الضغط على بندكت الحادي عشر، تبنوا استراتيجيـة تجديد التهم ضد بونيفيس، وهـي التهم التي رفعت في حزيران المنصرم، وأصروا على أن حـادثة أناني قـد نتجت عـن تصلب بونيفيس ورفضـه المستمر للمطلب القـانوني لعقد المجمع، وبات الحال إذا مـا أمكن اقناع

بندكت بالقيـام بالدعـوة إلى مجمع، فـلابد من الاستماع للقضـايا والتهم المرفوعـة ضد بونيفيس، وإذا ما تمكن الفرنسيـون من البرهنة على صحة التهم التيٰ رفعـوها، فهـذا كـان سيعني تبرئـة كـاملـة لكل من فيليب ونوغاريت، الذي سوف يكون في وضع انسان مسيحي جيد، قد حاول تحريك آلية الكنيسة ضـد مغتصب شرير، وكان من معاني إدانة بونيفيس إلغاء جميع قـراراته ومراسيمه، وكـون بونيفيس كان قـد توفي ودفن، ما كـان له ليغير المسـألة القـانونيـة ذات الشـأن، وهكذا بدأت الحملة على ذكرى بونيفيس.

وكـانت خطوة فيليب الأولى ضرورية لتـدبير مصـالحة مع البـابا الجديد، بندكـت الحادي عشر، ومن أجل هذا الهدف عين فيليـب بعثـة مـؤلفة من أربعـة أشخـاص، كـان نوغاريت فيهـا، هو العضـو الرابع، وأعطى إلى أعضـاء هذه البعثـة لائحتين من التعليمات، وكـانت أول التعليمات التي أعطيت إلى الأعضـاء جميعـاً باستثناء نوغـاريت هي أن «يتلقوا» ولا «يطلبـوا» التحليل للملك من كل حرمان كنسي قـد فرض عليه في الماضي لأي سبب كـان، وكانت هذه مسألـة بسيطة لاتحتاج إلى عقل نوغاريت البارع، وخولهم التباحث بشأن جميع القضايا القائمة فيما بين فيليب وبونيفيس، ذلك أن مهمـة نوغاريت الماكـرة كانت الحاجـة مـاسة إليهـا، بعـد وفـاة بيير فلوت، الذي كان أكثـر مستشـاري فيليب موثوقية.

واستجـاب بندكت بسرعـة للمطلب الأول، ففي ٢٥— آذار ١٣٠٤ جرى تحليل الملك وأسرته بشكل رسمي من كل حرمـان موجود، وكان الآن بندكت حـراً للتبـاحث مع فيليب دون مضـايقـة لنفسـه واحـراج بالتعامل مع شخـص محروم كنسياً، وعندما ظهـر نوغاريت أمـام البابا، رفض بندكت الاعتراف به، بما أنه كـان تحت الحرمـان، وقام نوغـاريت بالطلب من خلال زملائه منحه «تحليل مشروط»، وجدد طلبه من أجل

عقد مجمع للحكم على بونيفيس، ولكي يتجنب بندكت المضايقة بالقيام بالحكم على سلفه، قدم تنازلات اضافية، فقد ألغى في سلسلة من المراسيم أصدرها في ١٨— نيسان، و١٣— أيار، مراسيم بونيفيس ضد الجامعات الفرنسية والكنائس، ومحا جميع المراسيم القائمة ضد حقوق الملك الفرنسي، وحلل الأساقفة الفرنسيين، الذين أطاعوا أوامر فيليب بعدم حضور المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، وعلن الحرمان الذي أعلنه بونيفيس ضد ليون وبامير، وبالاضافة إلى ذلك منح فيليب العشر لمدة عامين، مع حق التعيين في الوظائف الكنسية التي ستشغر في السنوات الثلاث المقبلة.

وبعدما تنازل بندكث لفيليب واستجاب لكل مطالبه، قرر أن يجعل مثلاً من الذين شاركوا شخصياً في عملية الاقتحام في أناني، فقد أصدر في ٧ حزيران ١٣٠٤ مرسوم Flagitiosum scelus ، الذي أدانهم فيه بجميع العبارات القاسية جداً، ووضعهم تحت الحرمان، وجرى استدعاء المجرمين للظهور أمامه، لسماع الحكم بحقهم.

ما الذي كان لفيليب أن يفعله؟ فقد كان نصره الشخصي تقريباً كاملاً، وكان نوغاريت الوكيل الملكي الهام، الوحيد الذي ترك خارج التسوية، فهل سيفسد الملك التسوية التي صنعها مع البابوية باستمراره في دعم نوغاريت، أم أنه سيرميه إلى الذئاب؟ وعمل فيليب بسرعة قصوى وبشكل حاسم، فقد جرى الاحتفاظ بنوغاريت في الخدمة، ومنح جائزة مالية كبيرة «من أجل خدماته المخلصة في قضايا ذات أهمية قصوى للعرش وللدولة»، وقبل أن يتمكن بندكت من اتخاذ المزيد من الخطوات الاجرائية ضد نوغاريت والمتورطين معه، توفي في ٢٧ تموز ١٣٠٤، كما يقال لأكله كميات كبيرة من التين الناضج.

وكان من الممكن تأمين المزيد من المنافع بانتخاب بابا مطواع للارادة الفرنسية الملكية، وكان هذا في ذهن فيليب، فقام بممارسة الضغط على

الكرادلة الفرنسيين، وقام الاثنان من أسرة كـولونا بممارسة بعض التأثير على زمـلائهما المتقـدمين، وذلك على الرغـم من عـدم اعـادتهما بعـد إلى مجلس الكرادلة، وكان المؤيدون لتوجيهـات بونيفيس الثامن كثر إلى حد قـدرتهم على منع الاختيار الفـرنسي، لكنهم لم يكونوا قـادرين فيما بينهم على الاتفاق حول مرشح، ومضى شهر تلو شهر بدون أمل في الوصول إلى اتفـــاق، وأبـدع أخيراً الكاردينال نـابليـــون أورسيني خطـة، اتفق بموجبها عشرة من الكرادلة على اختيار واحـد من ثلاثة مرشحين يتولى تسميتـه، والذي جرت تسميتـه من بين هؤلاء كـان برتراند دي غـوت Got، رئيس أساقفة بوردو، وكان على هذا مـن الرعايا الانكليز، وكان يدين بترفيعـه إلى بونيفيس الثـامـن، وكـان قـد تخاصم مع أخي فيليب، شارل أوف فاليوس Valois، وقد حضر المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، على الرغم من رغبات الملك.

ثم ما الذي تبع هذا ليس واضحاً تمام الوضوح، وقد جاءت من عند فيلاني Villani حكاية ذكرت أن واحداً من عملاء فيليب أسرع متوجهاً نحـو الشمال حـامـلاً الأخبـار، وأن فيليب قـد عقـد اجتماعـاً سرياً مع برتراند وعـده فيـه بالبـابوية مقـابل بعض التعهـدات المحـددة، وبعض الخدمات الأخرى سيكشف عنها فيما بعـد، هذا وهناك حاجة إلى بينات مقنعـة لحكاية فيـلاني هذه، وفي الحقيقـــة هناك بعض الأدلة التي تقـول العكس، إنما مما لاشك فيـــه أن برتراند يدين بانتخـــابه إلى نفـوذ الملك، وكـان فيليب رجلاً صلبـاً، وكـان من غير الممكن له شخصياً أن يقـدم مثل هذا التأييـد، من دون نوع من التفـاهم معـه، ومهما كـانت حقـائق الأمور، لقد جرى اختيار برتراند بابا في ٥ــ حزيران ١٣٠٥، وقد اتخذ لنفسـه اسم كليمنت الخامس،، وعلى الرغـم من هلع الكرادلة الطليـان الكامل، دعـــا مجلس الكـرادلة إلى الاجتماع في ليـــون من أجل تتـــويجه (١٤ــ تشرين الثـــاني ١٣٠٥) واتخذ أخيراً سكناً له في أفينون في عـــام

١٣٠٩، وهكذا بدأ السبي البابلي.

قضية الداوية

عندما وصلت مشكلة بونيفيس إلى هذه المحطة، تمازجت مع الهجوم على طائفة الداوية، وكانت علاقات فيليب بالداوية علاقات حميمة حتى سنة ١٣٠٥، وكان مقرهم الحصين في باريس قد اتخذ مستودعاً للموارد الملكية المالية حتى بعد تأسيس الخزانة الملكية في اللوفر، وجرت العادة لدى مواجهة الملك الفرنسي لمشاكل مالية ومصاعب (وكانت هذه هي الحالة الطبيعية للملكية الفرنسية) اقراضه المال، وقد أيد الداوية الملك فيليب ودعموه في صراعه مع بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٢م، لابل إنه عندما سادت الفوضى العامة، اتخذ لنفسه ملاذاً في احدى قلاع الداوية.

لكن لماذا انقلب فجأة ضدهم، هذا أمر ليس من السهل تأكيده، ومن الصعب أن نصدق أن انسانا امتلك سمات فيليب وعبقريته وفطنته كان من الممكن أن يصدق الحكايات التي أشيعت حول الداوية، فيما يتعلق بانحطاطهم الخلقي، لابل فيما يتعلق باتهامهم بالهرطقة، ومهما يكن الأمر، لقد أمسك الملك بلهفة بمثل هذه الاشاعات، واتخذها ذريعة من أجل تدميرهم، ويتوصل الانسان إلى نتيجة أنه عندما انتشرت هذه الاشاعات المشوهة للسمعة والتآمرية، ووصلت إلى الانتباه المباشر، إما انتباه فيليب أو انتباه واحد من العقول اليقظة بين مستشاريه، رأى الفرصة المناسبة لربح التاج مالياً بمهاجمة هذه الطائفة الشاذة القابلة للمهاجمة، وفي الوقت نفسه إزالة عقبة كبيرة في وجه السلطة الملكية المطلقة، ولم يكن من الممكن من حيث المنطلقات للقيام بمثل هذا الهجوم تقديم سبب قانوني عادي من التاج، فذلك لم يكن له من وزن، وكان ذلك ممكنا فقط كاثوليكيا عن طريق البابا، فهنا كان من الممكن لفيليب أن يأمل بشيء من النجاح لحملته ضد مؤسسة بدت بالمعايير المعاصرة آنذاك معصومة تماماً.

وتم إعـداد المؤامرة ضـد الداوية وتأصل ذلك في سنة ١٣٠٥، حيث يقال، كما يبدو، بأن فرداً مجهـولاً اسمه اسكوي دي فلويرانو أوف بيزير Esquieu de Floyrano of Beziers قـد قـدم إلى جيمس الثـاني صاحب أراغـون بعض البراهين حول ممارسات شـاذة يمارسها الداوية، وكان يأمل من وراء ذلك الإخبـار نيل جائزة ماليـة، وقد برهن جيمس الثـاني على حـذره، فـذهب اسكوي إلى فـرنسـا حيث قـدم الصراع بين الملك والبابوية فـرصة أفضل له، وحملت هنا اتهاماته لتـوضع أمام الملك فيليب الرابع، الذي عمل هو ونوغاريت على تحويلهم لصالح العرش.

وكـــان كليمنت الخامس، مثلـه مثل بابـوات ذلك العصر، مهتما في تجديد مشـاريع الحروب الصليبية، ففي خـلال إقامته في ليـون من أجل التتويج جرى التبـاحث حول حملة صليبية بينه وبين فيليب، وحمل الملك معــه الاشـاعـــات التي سمعهـا، وكـــان من البـــديهي إذا أريد بالفعل التخطيط لحملة صليبية، من الضروري التشـاور مع المنظمات العسكرية، وبناء عليـه استـدعى كليمنت للاجتماع به في سنة ١٣٠٦ المقـدم الأعلى للاسبتـارية مع جـاك دي مـولي مقدم طائفـة الداوية، ولعقـد مـؤتمر في بواتيـه، وفي نيسـان ١٣٠٧، وضع فيليب الاتهامات ضـد الداوية أمـام المجلس الملكي، بهدف نيل تـأييـد أعضـــاء المجلس في حملة تشن ضـــد الطائفة.

وفي الوقت الذي كـان فيليب فيـه متظاهـراً بالبحث في مسألة الحملة الصليبيـة مع كليمنت ودي مـولي، ويعبر عن اهتمامه بشـأن الاشاعـات المتعلقة بالطائفة، كان نوغاريـت يعد الأرضية من أجل هجوم مكشوف ضد الداوية، وكـان أن يقوم التاج بالمبادرة في تقـديم الاتهامات، يمكن أن يعـرض فيليب لاتهامـات مضادة، من أنـه كان يقـوم بعمل تآمـري، ولهذا قام نوغاريت في ١٣٠٥ بهدوء بالإعـداد لاعتقال اثنين من أعضاء الداوية السـالفين، وذلك بدون أدنى ضجـة، وكان من المفترض تقـديم

هذين الداويين السالفين في اللحظة المناسبة للشهادة، وبذلك يوفران على فيليب حرج المبادرة بتقديم التهم.

ومارس فيليب في صيف ١٣٠٧ المزيد من الضغط على البابا ليتخذ اجراءً في قضية الداوية، وكان الملك منذ وقت انتخاب كليمنت يطالب أن يقوم البابا باستدعاء مجمع كنسي عام ليتولى محاكمة بونيفيس الثامن المتوفى، بتهم كان نوغاريت مع رجال الملك الآخرين يقومون بإعلانها ونشرها على رؤوس الأشهاد، هذا ولم يكن كليمنت قط قوي الارادة جداً، ولم يكن أيضاً بصحة جيدة، ولهذا أمل بتجنب هذا الوضع المحرج بتقديم المزيد من التنازلات لفيليب، وبناء عليه وافق في آب على البحث في قضية الداوية، وبذلك ربح فيليب نقطته الأولى.

وكان القيام بالبحث والتقصي بشكل بطيء ومنظم من قبل البابوية لايلبي الرغبات الملكية، وكانت التهم الموجهة للداوية تتضمن شكوكاً بالهرطقة، الأمر الذي يعني احضار المتهم أمام محكمة للتفتيش، ولم تكن محاكم التفتيش ذات حظوة في فرنسا، وكان فيليب نفسه قد نال بعض الشعبية باصداره مرسوماً في كانون الثاني سنة ١٣٠٤، عين بموجبه لجنة ملكية توجب عليها فحص قضايا جميع المسجونين من قبل محكمة التفتيش، وتحرير كل من توفرت أرضية كافية لتحريره، وكان إذا ماتضمنت الشكوى ضد طائفة الداوية وأفرادها تهمة الهرطقة، فان الاجراء القانوني يتوجب أن يكون تحت ادارة محكمة التفتيش التي كان على رأسها همبرت كاهن فيليب،وكان من المؤكد أن واجب الملك المسيحي القيام بإزالة الهرطقة من ممالكه، ويمكن للانسان أن يتخيل رؤية فيليب ونوغاريت وهما يضحكان مرحاً باللسان وبالتعابير، لتمكنهما بوسائلهما وخداعهما من تحويل الاجراءات القضائية للعصور الوسطى لصالح مقاصدهما المظلمة.

وأخذت الاشاعات تنتشر وتقول بأن أعضاء طائفة الداوية سوف

يمثلون أمام محاكم التفتيش، وهكذا قيل بأن عدداً قليلاً من الداوية قد بادروا إلى الفرار، ولهذا بات من الضروروي اتخاذ اجراء سريع، وجرى ترفيع نوغاريت إلى مرتبة الحافظ للختم العظيم، وذلك من أجل هذا المقصد، وقد أدى دوره بشكل جيد، وختم بتاريخ ٢٢— ايلول ١٣٠٧ صياغة (فعليا قبل اسبوع) تعليمات وزعت على جميع السلطات المسؤولة، قضت باعتقال جميع أفراد الداوية في فرنسا، ووقعت الضربة في الصباح الباكر ليوم ١٤ تشرين أول، وكان هناك قليل من الفارين، ولم تتوفر أعمال مقاومة، وسجن المعتقلون من الداوية في سجون منفردة مغلقة، دون توفر الفرصة للتشاور مع بعضهم بعضاً أو مع رؤسائهم، وكان من بين المعتقلين دي مولي، المقدم الأعلى، الذي كان قبل يومين بصحبة فيليب، حاضراً مأتماً أقيم من أجل زوجة شارل أوف فاليوس.

وأوجدت المفاجأة في العمل وأثارت دقته غضباً عاماً، ولكي يطمئن الجمهور الشعبي، ومن أجل إثارة مواقف معادية ضد الداوية، دعا فيليب في اليوم نفسه الذي جرى فيه الاعتقال إلى اجتماع في نوتردام ضم أعيان رجال الكهنوت والعلمانيين، حيث جرى استعراض المشكلة كلها، وتم الاعلان عن التهم، وعقد في اليوم التالي اجتماع مماثل في اللوفر كان أكثر شعبية بشخصيات الحضور.

وكان استخدام التعذيب لانتزاع الاعترافات، في أثناء محاكمات الهرطقة أمراً قانونيا تماماً، وهكذا توجب على ذوي الحظ السيء من الداوية، الذين كانوا مضرب المثل بأنفتهم وبتكبرهم، أن يخضعوا إلى آلام مجريات محكمة التفتيش، وفي ظل هذه الضغوط، أو بمجرد التهديد باستخدامها اعترفوا بكل نوع من أنواع الجرائم، من ذلك مثلاً أنه لدى قبول المرشح الجديد كان عليه إنكار المسيح ثلاث مرات، وأن يبصق على الصليب، كما كان العضو القديم يتعانق مع المرشح الجديد بشكل

غير لائق، يضاف إلى هذا كـان الحزام الذي يلبسونه كجـزء من لباسهم النظامي، مكرساً للكفـر، لأنه كان يلف حول رأس صنم كـانوا يتولون عبـادته في بيعهم، ومعنى هذا كـان رهبـان الداوية لايؤمنون بقـداسـة المذبح، وكان مطلوباً منهم جميعـاً الحصول على الأملاك لصـالح الطائفة بأيـة وسيلة من الوســائـل، عـــادلة أو ظالمة، وأعلـن بعضهم البراءة شخصياً، ومع هذا اعترفوا بأن الانتهـاكات المذكورة أعلاه كـانت عامة وشأنا عادياً داخل الطائفة.

وكان كليمنت قـد استبد به الرعب، ليس بسبب لائحة الانتهـاكات، التي كان يعرفها من قبل من خـلال مؤتمرات كان قد عقدها مع الملك، بل بسبب السرعة في استخدام السلطات المدنية وبشكل عنيف جداً ضد طائفـة كانت من الناحيـة الشرعيـة تحت الاشراف القضائي للبـابا، ولا شك أنه حين وافق مكرهاً على التحقيق مع الطائفـة، لم يكن يتوقع مثل هذه الاجـراءات القاسية جـداً من قبل التاج، ولهذا علق في أوائـل عام ١٣٠٨ أعمال محاكم التفتيـش، ونقل المتهمين من الـداوية ليكـونوا تحت سلطانه القضائي المبـاشر، وأمر كذلك بنقل بعض الشخصيـات الرفيعة من الـداوية ليكونـوا تحت حفظه الخاص في بواتييـــه، ولســـوء حظ كليمنت، تعـرضت استراتيجيتـه الأخيرة هذه إلى انتكاسـة، فقـد تمكن واحد من الـداوية من الفرار من بواتييـه في شباط، وبات إذا كـان البابا عـاجزاً عن الاحتفـاظ بحفنة من رجال الداوية خلف البـاب والقفل، فكيف له أن يسـوغ مطلبـة باعتقـال المئات وسجنهم، وهم الذين كـان فيليب ملقيـاً بهم في سجن لا أمل بالخلاص منه؟ وأمر كليمنت بسرعـة بالبحث عن الفـار، وقـدم جائـزة قـدرها عشرة آلاف فلورين من أجل اعتقاله.

والآن وقد باتت قضية الداوية تحت الاشراف المبـاشر للبابوية، كانت الخطوة الثانية التي اتخذها فيليب هي توجيه استفسار إلى جامعة باريس،

سائلاً: تحديد صلاحيات السلطات المدنيـة في قضايا هرطقية صـارخة، وسأل أيضــــاً عما إذا كــــان الجرم المعترف به مـن قبل الداويـة يشمل امتيازاتهم اللاهوتيـة، وهل يجوز السماح للطائفة بالبقاء في حـالة العثور على عــدد ضئيل من أفـرادها أبرياء في مقـابل المئات الذين اعترفــوا بجـرمهم، ومـا الـذي ينبغي فعله بالنسبــة لممتلكاتهم، فهل يتـوجب تكريسهـا لهدفهـا الأصيل، أي الأرض المقـدسـة، أو من الممكن في ظل الظروف القائمة مصادرتها من قبل السلطة العلمانية، وردت الجامعة برد حذر، حيث ذكّـرت فيليب بأن طائفة الداوية كانت طائفـة دينية، وهي على هذا تحت الاشراف القضـــائي اللاهوتي، أي أنـه يمكن للسلطات المدنية في حالات الطوارىء اعتقال هراطقة، لكن مع النية بتسليمهم إلى محكمـة لاهوتية، أي أن الاعترافـات كلهـا تسوغ تحقيقـاً داخل الطائفـة نفسهـا، أي أن الذي ينبغي القيـام به هو اتخاذ اجـراءات للتأكـد من أن الذين اعترفوا بالجرم لم يفسدوا الرهبان المحتملة براءتهم، وهذا يعني أنه بات من الضروري حـراسـة ممتلكـات الطائفـة، لضمان تطبيق الأهداف التي من أجلها كرست بالأصل.

وكان هذا كـافياً بالنسبة إلى فيليب، ففي اليوم نفسـه الذي تسلم فيه الجواب من الجامعـة، وجـه الملك الدعـوة لاجتماع مجلسـه العـام الثـاني للأعيـان في تور في أيار ١٣٠٨، ومثلما كـان عليه الحال بالنسبـة لمجلس ١٣٠٢، جـرى استـدعـاء هذا المجلس لـلاجتماع ليس من أجل تقـديم النصيحـة إلى الملك، ولا من أجل تأمين موارد مـاليـة، بل كانت مهمـة المجلس الآن أن يعمل بمثـابة صوت دعـائي عـريض لتمجيد الملكيـة، التي هي المدافع عن الإيمان، ولحشـد تأييد وطني من أجل الهجـوم على الداوية، ومعلوماتنا عن مجريات أعمال الاجتماع ضئيلة، والذي نعرفه أن الطبقــة الثـالثــة كـانت حسنة التمثيـل، وكـان رجــال الدين مكرهين بالمشـاركة في الهجوم على طـائفة دينية، لكنهم خـافوا من معـاداة الملك،

وكان عدد كبير منهم ممثلاً بالتفـويض وبالنيابة، وأخبر نوغاريت، الذي عمل وكيـلاً لعـدد من رجـال الدين، الملك فيليب بأن المجلس قـد أيد الموقف الملكي بالاجماع تقريباً.

وكان من بين أعضـاء الطبقة الثالثة الذين كـانوا حضوراً في تور، بيير دوبوا، وكـان قد صار أكبر جـرأة، وذلك بتقدم السنوات، وقـد أمسك بسرعة حقيقـة أن أمل فيليب بالنجاح في قضيـة الداوية قائـم في ارغام كليمنت، فكتب رسـالة باللغـة العـاميـة بعنوان «احتجـاح الشعب الفـرنسي»، وكان صلب هذه الرسـالة مجرد هجـوم على كليمنت بسبب مـوقفه المعيق في قضيـة الداوية، وأشفع ذلك بنقـد حاد لموقف المحـاباة الذي اتخذه البـابا، وهاجم في منشـور آخـر كتبـه في السنة نفسهـا، حمل عنوان «قضية الداوية» طائفـة الداوية بعبارات قاسية جـداً، ودعا الملك لاتخاذ اجراءات شديدة جداً ضدهم.

ومن جديد تراجع كليمنت أمام الضغط، ففي اجتماع كنسي عام عقد في القصر الملكي في بواتيـــه يوم ٢٩ـــ أيار ١٣٠٨، بحضـــور الملك، وأعيـان الكنيسـة والدولة، جـرى عـرض الموقف الملكي بشكل رسمي ضـــد الداويـة، وتولى عـــرضـــه بـلازيان، ووقف نوغـــاريت المخطط الاستراتيجي الرئيسي في الخلف لأنه كان مـايزال تحت الحرمان البابوي، واستعـرض بلازيان القضيـة كلهـا، وأوضـح أن فيليب كـان مكرهاً في تصـديق التهم، ولذلك اضطـر لأن يطلب من محكمـة التفتيش التحقيق بالقضيـة، وأعلن أن فيليب الذي هو الملك الأقوى على وجـه الأرض، قـد عمل بمـوجب دوافع سـامية، ومقـاصـد عليـا، فلقد كـان واجبـه المسيحي يملي عليـه اتخاذ اجـراءات ضـد الطائفـة، التي تبرهن على إجـرامهـا بالاعترافـات التي أداها أفـرادها، وليست لديه نـوايا نحـو ممتلكات الداوية، بل تولى بكل بسـاطة المسـؤولية حتى يتم التـوصل إلى حل مناسب بشأنها، وختم بلازيان كـلامه بتهـديد مبطن لكليمنت، فيما

إذا تقاعس بالعمل، وعندما تولى كليمنت الرد، استعرض أخبار السمعة الجيدة التي تمتع بها الداوية من قبل، ووعد بإقامة محكمة خاصة من أجل محاكمة الداوية، لأنه ليس من عادة الكرسي المقدس العمل بتهور، فعندما تنهي المحكمة تحقيقاتها، سوف يصدر الحكم، ويعلنه شخصياً.

وتم تشكيل المحكمة وأعطيت الصفة الشرعية، وشرعت في تفحص المزيد من الداوية، وبما أن فيليب كان يستهدف إدانة الطائفة، وليس الأعضاء فيها فقط، جدد اصراراه على تجريم بونيفيس، وطالب باخراج جثته من القبر حتى توضع بالعراء ومن ثم تحرق، ويلقى رمادها بالهواء، وطالب أيضاً بتحليل نوغاريت، مع تعهد من كليمنت بعدم مغادرة فرنسا، وازداد الضغط على كليمنت برفع قضية ملكية ضد الأسقف غوشارد Guichard أسقف تروي Troyes، وتم العثور على شاهد اتهم الأسقف بالمسؤولية (في ٢ نيسان ١٣٠٥) عن موت الملكة الفرنسية جين أوف نافار، وقد ذكر هذا الشاهد بأنه رأى الأسقف، يقوم بمساعدة ساحر، بصنع تمثال من الشمع عمّده على أنه جين، وقام الساحر بعد ذلك بطعن التمثال ومن ثم جرى رميه في النار، وقد قيل بأن هذا الحادث قد وقع قبل وقت قليل من وفاة الملكة في ١٥— آب ١٣٠٨، وجرى اعتقال غوشارد من قبل رئيس أساقفة باريس، الذي بعث به إلى الملك.

وقام كليمنت بتقديم المزيد من التنازلات، بأمل ارضاء فيليب، وذلك مع أنه حافظ على اجراء يتعلق باستقلاليته بإصراره على أن مصير الطائفة نفسها، يمكن أن يتقرر فقط من خلال مجمع كنسي، وافتتحت محكمة لسماع الاتهامات ضد بونيفيس في أفينون يوم ١٦— آذار ١٣١٠، حيث استنفد المحامون طاقاتهم وعبقرياتهم، في استئنافات واستئنافات معاكسة لمدة سنة كاملة، ووافق فيليب أخيراً على اسقاط التهم، التي جاءت بمثابة مجرد وسائل ضغط على كليمنت، وفي المقابل

أصـدر كليمنت يوم ٢٧ نيسـان ١٣١١ مرسـوم Rex gloriae ، وهو مرسـوم أكد فيه بالتحديد براءة فيليب وحسن نواياه، وأمـر بالغاء جميع العقوبات المتعلقـة بواقعة أناني، وشطبها من السجـلات البابوية، وتلقى نوغاريت absolutio adcautelam مشفوع بـ Poenitentea ad Cautela ، وقد توجب عليه حتى يكسب الشرعية لتحليله المشاركة في الحملة الصليبيــة التي كـــان يجري التخطيط لها، وأن يبقى في فلسطين حتى يتم الافراج عنه بعفو بابوي، وبالإضافة إلى هذا كان عليه، أو على ورثته القيام ببعض رحلات الحج المحددة .

وجرى بعـد مرور عـدة أيام التوصل إلى تسوية سيـاسية، فقـد جرى عقد تحالف بين الامبراطور هنري السـابع، وروبرت صاحب نابل -Na ples ، وكـان هذا الحلف معـاديا للمصالح الفـرنسيـة، فبمـوجبه كـان روبرت سيتسلم الأرليت Arelate ، وهو الإجراء الذي عطله كليمنت بتحـريمه التنـازل عن الأرليت لأي جهة إلاّ للكنيسـة، وقبل أن يغـادر كليمنت أفنون دفع مبعوثو الملك إليه مائة ألف فلورين، مقابل جهوده.

وتقـرر مصير طائفـــة الداوية من قبل مجمع فينـا، الذي افتتح في يوم ١٦ تشرين أول ١٣١١، وألغى مرسوم Vox inexcelso (٢٢— آذار ١٣١٢) بشكل رسمي الطائفـة، وقـد تلي أمـام المجمع في ٣— نيسـان، وكان وقتها فيليب جالساً على يمين البـابا، وما من أحد تجرأ على الجهار بالمعارضة، وقد بقي أربعـة من كبار رجالات الداوية، بما فيهم دي مولي وكـارناي Charnai في السجن حتى ١٩— آذار ١٣١٤، عنـدمـا جـــرى تعيين لجنـة بابوية لتقـــرير مصيرهم ، وحكمـت اللجنة عليهم بالسجن مـــدى الحيـاة، وتلقى اثنان من الـداوية الحكم عليهما بصمت، بينما احتج دي مـــولي وكـارناي بصـــوت مـرتفـع، وأعلنا عن براءتهما، وأوضحـا أن اعترافاتهما قـد انتزعـت منهما بالتهديد بالموت، وبدا الأمـر وكأن اللجنة قـــد تأثرت، فقـررت معـاودة الاجتماعــات بنيـة تفحص

القضية بشكل أعمق في اليوم التالي، وأعيد الداوية بشكل مؤقت إلى السجن لدى عمدة باريس، وجرى إخبار فيليب بهذا التطور الجديد، وبعد التشاور مع مجلسه الاستشاري الملكي، بغياب أعضائه اللاهوتيين، أمر بإحراق الداويين المتمردين، وجرى تنفيذ الأمر في ذلك المساء بالذات قبل أن تتمكن اللجنة البابوية من اتخاذ أي اجراء إضافي.

وربحت الملكية الوطنية في صراعها مع البابوية نصراً ساحقاً مثلما كانت البابوية قد حققت ونالت من الامبراطورية منذ مضي نصف قرن، فالآن لم يقتصر الأمر على تقرير حل كل نقطة من القضية لصالح الملكية، بل جاءت ترقية الكرادلة الفرنسيين لتضمن — كما بدا— استمرار خط التعاطف البابوي تجاه الفرنسيين، ذلك أن البابوات سوف يستمرون في السكنى في أفينون تحت ظل الملكية الفرنسية، وجاء الحادث التاريخي في انقطاع خط ولادات الذكورة في أسرة كابيه بوفاة أولاد فيليب ليشكل حقيقة هامة في تدمير كثير من صورة واجهة الواقع السياسي الذي أوصله فيليب الرابع إلى الكمال، ومع هذا، إنه على الرغم من الفوضى التي أعقبت مائة سنة من الحروب الأهلية والخارجية نجحت الملكية الفرنسية في الحفاظ على بعض معايير الوضع التي تمّ الحصول عليها أثناء حكم فيليب.

ولدى تفحص أعمال فيليب ومستشاريه، تتملك الانسان الدهشة تجاه اللامبالاة الدينية ومظاهر الرياء، مما يتواءم أكثر مع الروح العلمانية لعصر النهضة، من تـوائمه مع التقوى التي ضرب بها المثل في العصور الوسطى، ولايمكن عدّ إصرار نوغاريت على الحصول على التحليل عملاً معاكسا وبينة مضادة لهذا التفسير، فقد كانت الأعراف السائدة تجعل من الانسان المحروم كنسياً منفياً اجتماعياً، ولهذا أراد رفع الحرمان، هذا ولاتوجد أدنى بينة أنه اهتم بخلاص نفسه، وبما أنه أنذر من قبل البابا بأن قانونية تحليله وتطبيقه يعتمد على تنفيذ بعض

الشروط، جاء تحركه الوحيد لخدمه هذا المقصد باصدار مذكرة جديدة بالحث على الحملة الصليبية،والقول بأنه لو عاش أطول (مات في نيسان ١٣١٣) لأمكنه انجاز أكثر، قول غير مقنع في ضوء أعماله ونشاطاته.

في مثل هذه الأجواء عاش بيير دوبوا، وكتب مناشيره، وسعى نحو قبول اقتراحاته بالاصلاح، ولم يتسلم دوبوا قط منصباً له مسؤوليته في الدولة، مثلما فعل بيير فلوت وبلازيان، ولم يكن مستشاراً مقرباً من الملك مثلما كان نوغاريت، هذا ولم يكن دوبوا قادراً على إدراك ضرورة قيامه بقصقصة أطراف أشرعته حتى يستطيع الإبحار والجواز وسط معيقات وعقبات تيار السياسات الأوربية، ولأنه كان متدينا على عكس نوغاريت الذي كان لامباليا، فقد عبر عن أفكار كان من شأن قبولها القطع عميقاً والمضي داخل التنظيم الأوربي، أكثر من أي شيء جرى اقتراحه من قبل معاصريه الذين كانوا في مواقع أكبر للمسؤولية، فقد بذل نوغاريت غاية جهده للدفاع عن السلطة الملكية في فرنسا وللرفع من شأنها، وكان دوبوا يود أن يجعل من الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، وقاتل فيليب مع مستشاريه التدخل البابوي في السياسات الوطية، وبناء عليه أراد دوبوا انزال الكنيسة وارجاعها إلى وضع أسقفية بدائية فقيرة، وجعلها مجرد قوة روحية.

أفكار في كتاب استرداد الأرض المقدسة

يتألف كتاب الاسترداد من قسمين، ويحتوي القسم الأول الفصول من ١— ١٠٩ ، وهو حين وجهه إلى ادوارد الأول ملك انكلترا، قد أراد بشكل واضح انتشاره العام بين الحكام الأوربيين، مع تحفظ من جانب الملك الفرنسي، وكان هذا أمراً من السهل تدبره وترتيبه بتغيير بعض العبارات هنا وهناك، وقيد دوبوا أفكاره وحصرها في القسم الأول من الرسالة للحديث عن اقتراحات ذات طبيعة عامة، مثل موضوع الحملة الصليبية، والسلام،، واصلاح الكنيسة، والتعليم،

وتحدث بعبـارات لايمكن أن تسيء إلى المشاعـر الوطنيـة في البلدان الأخرى، فنادراً ما ذكـر فرنسا وملكها، وكـان القسم الثاني الذي حوى الفصـول من ١١٠ حتى ١٤٢، ذا طبيعـة خـاصة قصـد أن يطلع عليـه فيليب وحـده، وهنا أطلق دوبوا العنان لغلـوه بالوطنيـة الفـرنسيـة، وأوضح كيف أن مملكة فـرنسـا وحكـامهـا سـوف يستفيـدون من تبني اقتراحـاته، وبين اجـراءً يمكن أن يجعل الملـك الفـرنسي سيـداً لكل من الشرق والغـرب، بما في ذلك الامبراطورية الاغـريقيـة وبلاد الشـام والمشرق العربي.

ومن حيث التكوين كـان كتـاب الاسترداد كتاب التماس ودعـوة إلى حملة صليبية لاستخـلاص فلسطين من أيدي المسلمين، لكن هل رغب دوبوا بالفعل وبشكل أصيل بقيـام حملة صليبيـة، أو أن شكل دعـوته لم يكن سـوى مجرد مـركبـة مـوائمـة للتعبير عن أفكاره حـول حشـد من المسـائل لها ارتبـاط بعيد بمثل هذا الهدف؟ ومن خـلال دراسـة أفكاره واستعراضها في ضوء الحوادث المعـاصرة قد أقتنعت أن رغبته من أجل حملة صليبية كـانت أصيلة، لكنها كانت مـرفقة برغبة مسـاوية بالأصالة للرفع من شأن الأمة الفرنسية وملكهـا، فقد أسهم الفرنسيون بدور هام جداً في جميع الحمـلات الصليبية المتقدمة، وليس دون سبب مسـوغ قام بونارBongars باعطاء ما جمعه من مواد حول الحروب الصليبية عنوان Gesta dei Per Francos ،فمن كـان في سنة١٣٠٠ من القـوى الأوربية غير الفـرنسية يمكنهـا أن تأخذ بـزمام المبادرة في حملـة صليبية جـديدة؟ وإذا مـاقـام الملك الفـرنسي ووضع نفسـه على رأس مثل هذا الجهد،أولا يكون وقتهـا جديراً بنيل بعض المنافع الماديـة من خلال بذل الدماء الفرنسية مع الأمـوال؟ وليس من الضروري تبيان أنه كان هناك حديثاً عـالمياً حول حملة صليبية،لكن السـؤال كم من ذلك كان أصيلاً؟ وأن نقول بأن رجال الدولة والملوك قد تولوا رعاية التفكير في جهد عام

لإنقــاذ الأرض المقـدســة، في ذلك مجافــاة كبيرة للحقيقــة، ومع هذا مسؤوليتنا محصورة هنا مع مخطط نظري وليس مع رجل دولة.

وبعد سقوط عكا (١٢٩١)، كان جل الدعاة إلى حملة صليبية جديدة مدركين أن هجـوماً جبهويا على ساحل فلسطين، سيكون محكومـاً عليه بالاخفاق، وقد حولوا انتبـاههم إلى امكانية التحرك على الجناح، وجرى تحويل بعض هـذه الأفكار إلى عمل، فقبل خمس عشرة سنة مـن كتــابة دوبوا للاسترداد، جهـز البـابا نيقولا الـرابع اسطولاً مكونا من عشرين غليـونا، وقـد اندمج هذا الاسطول واتحد مع اسطول آخــر تألف من خمسة عشر غليـونا قدمها هنري الثـاني صاحب قبرص، وشن الاسطول الموحـد هجومـاً غير ناجح على سـاحل آسيا الصغـرى عند سكاندالور Scandalore (آلانيــا Alanya الحاليــة)، ثم أبحــــر إلى مصر في محاولة مثلها مخفقة للاستيلاء على الاسكندرية، وبعد مضي عشر سنوات قـامت مجمـوعة من النسـوة الجنويات الثـريات ببيع مجوهراتهن لتجهيـز اسطول، كـان من المفترض أن يتعـاون مع المغــول، الذين كـانوا آنذاك يسيطرون على دمشق، وكـان الاسطول جاهزا للإبحـار في سنة ١٣٠١، لكن الذي حـدث هو أن المغـول كـانوا قـد تخلوا عما استـولوا عليـه في ســـورية، وبذلـك تمّ التخلي عن المشروع، وفي سنة ١٣٦٥ هـاجم بيتر الأول دي لوزغنان، حــاكم قبرص، الاسكندرية ونهبهــا لكن دون أن يحقق أية منافع ضد الاسلام.

وقامـت خطة دوبوا من أجل حملة صليبية جـديدة— على الرغم من عباراته الطنانة بكيل المديح لادوارد الأول صاحب انكلترا— وتأسست على قاعدة أن يتولى الفرنسيون القيادة، وكانت لديه فكرة متحمسة جداً حـول الموارد التي تمتلكهـا المملكة الفـرنسيـة (الفصل ١١٢)، وسـوف يتشكل الجيش من متطـوعين مع الذين تم نفيهم إلى الارض المقــدسـة كعقوبة لشنهم الحرب ضد جيرانهم، أما بالنسبة للرهبانيات العسكرية،

لابد من اتخاذ تقدير خاص لهم، بحكم اختصاصهم بالأعمال العسكرية، وعليه يمكن وضعهم في المقدمة في القتال ضد المسلمين، وتتم اثارة الحماس بين المتطوعين باستخدام الأزياء الموحدة وبوساطة الموسيقى العسكرية، وبهتافات المشاهدين في أماكن حشد القوات، وينبغي إقامة معسكرات للاستراحة في الأرض المقدسة، حيث يمكن استرداد شجاعة وحماسة الجرحى والمتعبين في أجواء عادية.

وكان تمويل الحملة الصليبية برأيه قضية سهلة، فالهبات التي تقاطرت من قبل على الرهبانيات العسكرية، ينبغي استخدامها من أجل الحملة الصليبية الجديدة، ويجري تدعيم ذلك بفرض ضرائب دخل ثقيلة على رجال الدين، وضرائب على المواريث، والاستيلاء من أجل ذلك الغرض على الأموال التي بلا أصحاب في مختلف المجالات وعلى جميع المستويات، وكان فطنا بما فيه الكفاية ليدرك أن سمة الانفعالية في الحملات الصليبية المتقدمة والجهود السابقة كان السبب الرئيسي لاخفاقها، ولهذا حث على استعمار الأرض المقدسة بوساطة مسيحيين مدربين ومخلصين من الغرب، وكان حريصاً على أن يبين المنافع الاقتصادية لمثل هذه الخطة بالنسبة للغرب الأوربي المتعطش للحصول على المنتجات الشرقية.

وكان الشرط الأساسي لحملة صليبية ناجحة هو إقامة السلام في أوربا، وقد لاحظ وجود نمطين من الحروب: حروب صغيرة بين السادة الاقطاعيين، وحروب بين القوى ذات السيادة، وكان العلاج بديهياً، في أن نجعل جميع الرجال يقسمون بالحفاظ على السلام، وإذا ما تفجرت حرب ما، لابد أن ذلك سيكون عملاً اقترف من قبل أحد المعتدين، ومن الممكن التعرف على المعتدي من خلال أعماله، وعندها يتوجب اخضاعه إلى مقاطعة اقتصادية، واجاعته بسرعة حتى يستسلم، ووقتها سوف تتوقف الحروب في أوربا، لأن ما من واحد سيمتلك

الجرأة ليبدأ حرباً عدوانية في وجه مثل هذه العقوبات المرعبة والتي لايمكن تجنبها، أما الحروب بين القوى ذات السيادة، مثل الحروب المتفجرة بين الملكيات الوطنية الناشئة في أيامه، فمن الممكن منعها بإقامة آلية تحكيم، تولى دوبوا وصفها بشيء من التفصيل. (الفصل ١٢).

والشرط الأساسي الثاني للقيام بحملة صليبية احداث اصلاح دقيق في الكنيسة في الرأس وفي الأعضاء، وبعد ردع الأساقفة عن انصرافاتهم الدنيوية وعن شرههم، وعن المثل السيء الذي يقدمونه لمن هم دونهم من رجال الكنيسة وإلى الناس، بعد هذا، أوصى دوبوا بالاستيلاء على أموالهم الدنيوية، وتحويلها إلى وقف دائم، على أرضية أنهم لم يكونوا الملاك، بل مجرد مشرفين إدارياً على أملاك الكنيسة،علماً بأن هذه الأملاك يمكن إدارتها بكفاءة أعظم من قبل سلطات مدنية.

أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين، فقد كان لدى دوبوا ما يقوله للمتسولين،مع أنه رأى جوب تمويلهم بطريقة تجعل التسول عملا غير ضروري، واتهم الرهبان بشكل عام بأنهم لم يحافظوا على تعهداتهم بالفقر، والعيش كذلك، ولتقديم الاحسان، والطاعة، وقد انتقدهم ووصفهم بالفوضوية، وقال عنهم بأنهم جماعة من شذاذ الآفاق، عصاة على رؤسائهم، راغبون في جمع الذهب والفضة، التي عهدوا بها إلى رجال علمانيين خارج الديرة من أجل تأمين الأرباح لهم، وقد صوّر تعهدهم بحياة العذوبية بأنه مجرد مصيدة، نصبت بغباء من أجلهم من قبل آباء الكنيسة القدماء، وتمت رعايتها والعناية بها فقط عن طريق خرقها، واقترح دوبوا إعادة تأسيس مبادىء الحياة في الديرة، بإلغاء الرعاة من غير الرهبان، حيث هناك عدد قليل من الرهبان يعيشون حياة ترف، وكسل ورخاء، وهؤلاء ينبغي تقويمهم وانزال دخلهم المالي إلى الحد الأدنى، وما يتوفر من المال ويزيد يتوجب تكريسه لمنافع الأرض المقدسة، ومن الواجب تقييد عمل الراهبات وحصر أعداد القاطنات في

الديرة، فالأفضل هو تحويلهم وإرسالهم إلى مدارس الفتيات.

وكتب دوبوا الاسترداد قبل هجوم فيليب على الداوية بشكل معلن، ولهذا لم يقم بجهد للتمييز بين الاسبتارية والداوية،بل أوصى بدمج جميع منظمات الرهبانيات الدينية في منظمة واحدة، تحت قيادة واحدة، ويتوجب أن يطلب من جميع أعضاء هذه المنظمات العيش في الارض المقدسة، وأن يجري تحويل جميع ممتلكاتهم في أوروبا إلى المدارس التي يتوجب تأسيسها وذلك كجزء من برنامجه الاندماجي المقترح للتعليم.

وإذا كان الأساقفة بحاجة إلى الاصلاح هم والكهنة النظاميين، فبالحري حاجة البابوية إلى ذلك، وقال دوبوا بأن ميراث القديس بطرس كان السبب الأساسي في تراجع البابوية، لأن البابوات حرضوا على الحرب وخاضوها، وانشغلوا بواجبات إدارتهم الدنيوية فلم يتوفر لديهم الوقت للقيام بواجبهم الرئيسي، وهو العناية بالأرواح والنفوس، وقد اقترح بأن العلاج بسيط لكنه شديد مؤلم، وهو أن يتم تحويل الميراث وموارده إلى الملك الفرنسي مقابل ضمان عطاء سنوي، وبذلك يمكن للبابا أن يكرس وقته كاملاً لأعماله الروحانية، وهو عندما يتحرر من مسؤولياته الدنيوية الثقيلة، يمكنه وقتها إحداث إصلاح شامل ودقيق للكنيسة.

ومن أهم ملامح خطط دوبوا كان نظام التعليم الجديد، البعيد عن المدارس والجامعات التي كانت موجودة، وقد اقترح إقامة مؤسسة عملاقة يكون واجبها الرئيسي هو تأسيس مدارس للصبيان وللبنات في كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا، وأن يكون الهدف الرئيس لهذه المدارس هو تدريب الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق، وقد أعطى لثلاث نقاط أهمية خاصة: وأولى هذه النقاط، التمكن من معرفة اللغات الأجنبية، فبدون هذه اللغات من الصعب جداً نجاح الجهود التبشيرية وإدارتها في الشرق، والنقطة الثانية: وضع برنامج للدراسة متسارع،

حتى يمكن إكمال التدريب المطلوب في سن مبكرة، والنقطة الثالثة: تأمين خبرة عملية، سواء في الوعظ والتبشير أو في مجالات التطبب، والأعمال الأخرى المرتبطة، أو القانون، وينبغي إقامة مدارس منفصلة من أجل مواضيع دراسات أكثر تخصصاً، مثل دراسات القوانين والشرائع المدنية، والفلك، واللاهوت، والأعمال المتقدمة في الطب.

وباستثناء مثل هذه الموضوعات الاختصاصية، كان من المتوجب أن يتبع تعليم الفتيات بشكل أساسي القواعد نفسها المتخذة لتعليم الصبيان، إنما مع إلحاح خاص على الطب والجراحة، وينبغي الاهتمام أيضاً بتأسيسهم بشكل جيد بمبادىء الإيمان الكاثوليكي، وبعد اكتمال تدريباتهم، من الممكن تبني هذه الفتيات الجميلات الناضجات بمثابة بنات وحفيدات لأمراء الغرب وأعيان الرجال فيه، ومع التمتع بمثل هذه السمعة الاجتماعية والمكانة السامية، وبعد إلباسهن على حساب المؤسسة، وقتها يصبحن جاهزات لتزويجهن من أساقفة ورجال دين شرقيين، ومن أمراء مسلمين وأثرياء، فمن الممكن نجاح مثل هذه الزوجات في تحويل قرنائهن إلى الايمان الروماني، كما يمكنهن الحصول على فتيات مدربات مثلهن ليكن زوجات لأولادهن.

واحتاجت الاجراءات في المحكمة، وكذلك دراسة القانون إلى الاصلاح، وكان دوبوا، بحكم كونه محامياً مجرباً، على دراية بآثار الخدع الخطابية ومؤثرا ت الصوت والحركات التي كان المحامون البارعون يستهدفون من استخدامها التأثير على الذين يستمعون إليهم، ولهذا أوصى بتقديم جميع الالتماسات والمرافعات كتابة، يعني أن تكون هذه الأشكال المكتوبة محصورة بالشكاوى، وبردود الدفاع، ورد المدعي، ورد الدفاع على المدعي، وينبغي أن يمتلك القاضي السلطة على رفض القضايا التي ليس لها علاقة، والمقحمة، وكان دوبوا قانعاً بأن طريقته سوف تزيل إطالة القضايا القضائية، وستكون موائمة بشكل خاص

للتبني حالاً في مسألة الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن الخلافات سوف تتفجر، وسوف تثور، لو أن كل مجموعة من المجموعات القومية العديدة أصرت على استخدام طرائق الاجراءات المعتاد استخدامها في بلدانها الخاصة بها.

وكان القسم الثاني من كتاب الاسترداد، مصمماً لرؤيته من قبل الملك فيليب ومستشاريه المقربين فقط، ولهذا حول دوبوا انتباهه هنا إلى المشاكل الفرنسية، ومع أنه كان بلا خبرة عسكرية، فقد ناقش بشيء من الطول الاجراءات المتوجب اتخاذها في الدفاع عن المملكة، وحسب شرحه لهذه الاجراءات يمكن للملك في الوقت الذي يرغب به، توجيه الدعوة إلى الإقطاعيين التابعين له، المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية على حسابهم، ويمكنه في أوقات الطوارىء استدعاء المتملكين لاقطاعات حرة، الذين هم بالعادة معفيين من تلك الواجبات والالتزامات، وتكون الخطوة التالية هي«الاستنفار العام»، ويمكنه أخيراً في أوقات الضرورات القصوى والطوارىء الاستيلاء على ممتلكات الكنائس، والمؤسسات اللاهوتية، وهذه الخطوات جميعاً — باستثناء الأولى — مسوغة فقط في أوقات الطوارىء الوطنية.

وكان دوبوا قانعاً بأن الملك، قد ضلل من قبل مستشاريه الذين تغاضوا عن المراوغة في تطبيق الالتزامات الاقطاعية، فالتجأ بالغالب إلى اتخاذ الاجراءات الاضطرارية غير المسوغة قانونياً، وبهذه الطريقة كانت الكنيسة مستبعدة، وتمت مقابلة الأعباء المالية الإضافية — ثانية بناء على نصيحة المستشارين العاجزين أو الأشرار — بتخفيض عيار العملة، مما يلحق الضرر برعايا الملك، وأصر دوبوا على أن من الممكن تجنب هذه الشرور بسهولة، وذلك بفرض الالتزامات الاقطاعية وتطبيقها بحزم، وإذا ما تم تنفيذ هذا، سيمتلك الملك من ورائه قوة عسكرية لا يمكن مقاومتها، وسيكون بإمكانه القيام بمشاريع عسكرية واسعة، وهو ما

كان دوبوا يحثه على القيام به.

فما الذي كانته هذه المشاريع؟ لقد كانت بشكل مجمل إقامة سيطرة فرنسية على الغرب والشرق، فبالاستيلاء على ميراث القديس بطرس، سيتمكن الملك الفرنسي من ممارسة سلطانه على أتباع البابا، الذين كان من بينهم ملوك إنكلترا، وأراغون، وصقلية، وإلى مملكة صقلية ينبغي إضافة مملكتي القدس وسردينيا، ثم إنه بدعمه لأبناء ابن خاله في الخلاف العائلي في كاستيلا، سيتمكن من نيل السيادة على تلك المملكة، كما أن رعايته لحملة صليبية ناجحة سوف يمنحه السيطرة على الأرض المقدسة، ومن الممكن للجيش الصليبي المنتصرالعودة عبر طريق القسطنطينية، حيث سيمكن أخا الملك، شارل أوف فاليوس من الاستيلاء على الامبراطورية الاغريقية، وبالقيام بترتيبات مع البابا الفرنسي الجديد(كليمنت الخامس) من الممكن إقناع الناخبين الألمان بإعطاء أصواتهم إلى عضو من الأسرة الفرنسية المالكة، وأيضاً من الممكن الحصول على الأرليت والضفة اليسرى للراين من خلال مناقشات ودية مع الامبراطور الألماني، وتوقع دوبوا بذكاء احتمال قيام البابا كليمنت الخامس بتعيين ما يكفي من الكرادلة الفرنسيين لضمان أكثرية فرنسية، وبذلك يمكن للبابوية أن تبقى فرنسية الملامح، واقترح في منشور متأخر خطة من أجل السيطرة على مصر، ويمكن للانسان أن يقول معقباً: لو أن جميع هذه المشاريع قد تحققت، وقتها كان فيليب سيتطلع فقط لعوالم أخرى ليستولي عليها!

تقويم نقدي لدوبوا

في الحديث عن المؤثرات المتنوعة التي أسهمت في صياغة أفكار دوبوا، نجد بلا شك أن أهمها كان القانون، فهو لم يكتف بتلقي تدريبات دقيقة في هذا الموضوع، بل أمضى حياته في ممارسة العمل القانوني كمحترف، ومن هذا الميدان استقى مقارباته القانونية وأحياناً

غير الواقعية للمشـاكل التي اهتم بها شخصيـاً، ويتـوجب على الذين عـدّوه مجرد مصلح اجتماعـي خيـالي أن يلاحظوا أنه حتـى أكثـر خططه تناقضاً قـد منحت ثوباً عملياً، ولدى النظرة إلى الموضـوع نظرة إجمالية، نجـد أن رسالتـه لا تترك الانطبـاع أنه كـان يتولى صيـاغـة شكل دولة مثاليـة، بعيدة عن مملكة الواقع الممكن، فقـد صاغ كل اقتراح وعبّر عنه بعبـارات عمليـة، تستخـدم في أوضـاع كـانت تماماً معـروفـة بالنسبـة لمعاصريه، وكان دوماً متوقعاً حجج خصومه، ولديه حل جاهز وواضح لكل مشكلة، ولم يـأخـذ بالتـأمل الفلسفي حـول السيفين، أو الشمس والقمر، وغير ذلك من التشابيه التي راجت كثيراً في الكتابات السياسية لمعـاصره الكبير، دانتي، فقـد ظل دوبـوا دومـاً مـرتبطاً بالأرض، وقـد تحدث بعبارات عملية يمكن للأحاسيس العامة للأفراد فهمها وتقبلها.

وكـان المؤثر الثـاني، الذي يمكن عـدّه معـاكسـاً للأول، هو التأمل الفلسفي العلمي، الذي استقـاه أثناء أيام دراسته في باريس، وشحـذت المناقشات في سـاحات الجامعة، التي لا شك أنه شارك فيهـا قدرته على الجدل، التي هي ضرورية لممارسـة مهنتـه، ومـن المحتمل أنه هناك تعلم القياس المنطقي الذي استخدمه من وقت إلى آخر، للوصول بالمناقشة إلى مبتغاه، ففي الجامعـة استمع إلى محاضرات توماس الأكـويني الذي كان أعظم علماء وقتـه، غير أن دوبوا لم يكن مفكراً عميقـاً، ويبدو أنه افتقـر إلى مـا يكفي مـن التبصر الفلسفي حتى يتفهم استخـدامـات الفلسفـة التـوماسيـة، وصحيح أنه نقل عن تـوماس وذكـره بالاسم مع الموافقـة والتأييـد، نجـده ينقـل في مـرحلة تاليـة بالتأييـد نفسـه والموافقـة عن سيغـربرابنت، الذي كـان ممثلاً لمدرسـة من التفكير مناهضـة للمدرسـة التوماسية.

وفي أثناء الاقامة في باريس كان دوبـوا عضواً في الأمة النورماندية في الجامعـة، وفي أثناء المناقشـات التـي ثارت في الجامعـة واستعـرت بين

مدارس الفلسفة المتعارضة كان موجوداً، وتبنت الأمة النورماندية بشكل عام موقف الرشدية الذي مثله بقدرة سيغردي برابنت، واقترح دوبوا في عرض موجز دراسة العلوم الطبيعية، وأوصى بالتحديد بالعودة إلى كتابات سيغر(الفصل ٧٢)، وعنه نقل في مكان آخر على أنه مفسر معتمد للأرسطوطالية(فصل ١٣٢)، وقدمت المدرسة الرشدية في التفكير المنطقي المؤثر الثالث، الذي أثر على دوبوا خلال سنوات تكوينه.

وتأثر عقل صاحبنا المحامي — الذي كان عقلاً علمياً — بالدرجة الرابعة«بالمدرسة التجريبية» التي كان روجر بيكون الشارح لها، ولعله عرف بيكون شخصياً، وهو على كل حال أظهر معرفة كبيرة بكتابات هذا الراهب، التي نقل عن بعضها بالعنوان وباسم الكاتب، ويبدو أن بيكون قد لقي اهتماماً قليلاً في أيامه، ومع أن دوبوا كان رجلاً علمانياً في حقل الفلسفة، يعدّ واحداً بين الندرة من معاصريه الذين نقلوا عنه بالاسم، وقدموا براهين على أنهم قرأوه، ويبرهن على أنه تأثر كثيراً وبعمق بأفكار بيكون تكرار إصراره على قيمة التجارب العملية، وبإظهار رغبته في ضغط نصوص كتب المجلدات الكبيرة الرائجة والشروح، وإخراجها بحجم معقول، وباهتمامه الكبير بالقيمة العالية لمعارف اللغات المعاصرة، وكان أيضاً متفقاً مع بيكون حول قيمة ومكانة دراسة العلوم والرياضيات، وبلغ به الحماس لهذا الأمر إلى حد التوصية بالأخذ بتوصية بيكون الحماسية من أجل استخدام المرايا في الأعمال القتالية.

وأخيراً في مقابل التأثر العملي بمدرسة روجر بيكون«المدرسة التجريبية»، وقع دوبوا تحت تأثير الأفكار الكيماوية لريموند لول Lull، هذا ومن الممكن أن الرجلين قد عرفا بعضهما شخصياً، ففي أيام حياة دوبوا، أمضى لول خمساً وعشرين سنة في نشر أفكاره، بشكل كبير

في فرنسـا، ولقد كان مـوجوداً في مجمع فينا في سنة ١٣١١ ، حيث ربح الموافقـة على خطته مـن أجل دراسة اللغـات الشرقيـة في مجمع الكرادلة وفي الجامعـات، وقـد أراد لول من دراسـة اللغات الحديثـة الإفـادة من استخدامهـا في أعمال التبشير، في حين أراد دوبوا استخدام اللغـات من أجل عظمـة فرنسا، وكـان في ذهن كل واحد منهما استخـدام عملي من أجل اللغـة، وأصرّ في الوقت نفسـه بيكون مثلهما على دراسة اللغـات، لكن بالدرجة الأولى من أجل استخـدامات علوم فقه اللغـات، وكانت مقـاربة لول مقـاربة علميـة، فقـد بدأ يقـول في كتـابه Liber de ac-quistione Terra Sanctae الذي وجهـه إلى فيليـب الرابع في سنة ١٣٠٩ :«إنه من أجل الحصـول على الأرض المقـدسـة هناك ثلاثة أمـور أساسيـة هي : القوة، والحكمة، والاحسـان»، وبدأ كتاب Liber nat-alis ، الذي أيضـاً وجهه إلى فيليب في سنة ١٣١١، بوصف ست نسـاء مزعومات نثرن المديح على فيليب، ومن خلاله يمكن أن نلاحظ خطط لول، والمقصـــود هنا قمع الـرشـــدية، وزيادة احترام الكنيســـة وحسن سمعتهـــا، وتحويل الكفـــار، وهزيمـــة المسلمين، ولاشـك أن مثل هذه المقاربة لم تكن واردة عند دوبوا وبعيدة عن تفكيره.

وهذه المؤثـرات المتنوعـــة، اللائي يمكـن تقصي أثرهن لـدى دوبوا، عبارة عن دليل أنه عاش على اتصـال مع جميع التحولات الفكرية الهامة لعصره، فمن هذه التيـارات المتنوعـة وذوات التأثير المتضـاد المتـداخل، استقى مـا حكم عليه بأنه سـوف يوسع مشاريعـه، ومع هذا هو لم يكن مجرد ناسخ لأفكار الآخـرين، فقـد أبدى استقـلالية بالتفكير مـدهشـه، واستعداداً للخلاف وللابتعاد عن مصادره المحترمة التي نقل عنها، فقد كان محامياً، وغدا ثرياً من خلال المشاركة في الاجراءات القضائية لأيامه التي كانت طويلة وبطيئة مرهقـة، ومع هذا نادى باصلاح قانوني، أعلن أنه لو طبق لكان من معانيـه خسارة مالية لأبناء حرفتـه، وقد توفر لديه

احترام عظيم للقوانين وللاجراءات القضائية، لكنه آمن بضرورة تغيير القانون وأن هذا واجب عليه، ولهذاعرض خدماته لإعادة النظر بالقوانين القائمة، ولإزالة ما هو حتمي ومتناقض، ومع أنه تدرب على العمل العلمي في باريس، عبر عن انعدام صبره تجاه دقة وبراعة العلماء، وقد أعلن عن نفسه تلميذاً لسيغر دي برابنت، وحملت أفكاره بصمة من التأثيرات الرشدية، لكنه رفض مجاراة سيغر والرشدية في إنكارهما للفضائل الفردية، وللمسؤولية الشخصية والارادة الحرة للانسان، وفي مجال العلم والرياضيات نقل عن روجر بيكون مع الاحترام، لكن عواطفه المعبر عنها حول القانون والاجراءات القانونية تعارضت بشكل حاد مع أفكار الراهب بيكون الذي عدّ العمل القضائي معيقاً لتقدم التعليم، وكان ريموند لول قد اقترح صيغة أو تركيبة تمكن الانسان من الحصول على جميع المعارف، وبالمقابل ألح دوبوا بشيء من الطول على أنه من غير الممكن الحصول على جميع المعارف(الفصل ٨٤)، وكان لول عدواً شديداً للرشدية، وعبر دوبوا عن ودّ واضح نحو عدد من أفكار الرشدية.

وكان من بين معاصري دوبوا الذين نقل عنهم ألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ، وهيرمان الألماني، الذي ترجم«الأخلاق» لأرسطو، وكان دوبوا على معرفة بمعظم كتّاب العصور الوسطى، ومع هذا لم ينقل عن مؤلف كان حيّاً بالاسم، فعلى سبيل المثال، هو لم يذكر ريموندلول، مع أنه من الواضح بأن دوبوا كان يعرف أفكاره، وفي القائمة نفسها أجيدوس رومانوس Aegidius Romanus ، الذي كان قد أهدى كتابه De regimine Principum إلى فيليب الرابع، قبل اعتلاء ذلك الملك الشاب للعرش، وقد أمر فيليب إثر تتويجه مباشرة بترجمة تلك الرسالة إلى الفرنسية، وكان أجيدوس على صلات وشيجة بفيليب ومقرباً منه، ولم تتأثر علاقاته هذه كثيراً ولم تفسد

بظهـور كتـابه De eules iastica Potestate المؤيد لبـونيفيس،في أثناء الخصـام بين الملك وبين البـابا، وبناء عليـه من المحتمل كثيراً أن دوبوا قـد عـرف الرسالة المبكـرة، ويتدعم هذا الاحتمال بـوجود أوجـه تشابه بالتفكير وفي التعبير.

وجل المصـادر التي اعتمدها دوبوا ونقل عنهـا كانت أرسطوطاليـة، وكذلك من الكتـاب المقدس، ومن الشريعة المدنية والقـوانين، مع نقول قصيرة وقليلة من الكتب الكلاسيكيـة، واعتمـد في النقول على ذاكـرته، وهذا أمـر واضح، لأن النصوص التي اقتبسهـا نفسهـا، اقتبسها أحيـاناً ثانيــة بتغيرات بالأفعــال، وكــان المفضل لـديه بين مجمــوعــة كتب أرسطو «الأخلاق» و«السيـاسة» ، ومن الصعـب تقرير صحـة القـراءة، لأننـا لا نستطيع بـأي طـريـق من الطـرق تحديـد أي مخطـوطات كتـب أرسطو قـد استخدم، وسيكون من الظلم مطالبتـه بالعودة إلى نصـوص محققـة بعناية، ومن الممكن القـول بدون تجاوز: إنه غالبـاً مـا اقتبس من كتـاب أرسطو طالي خاص، وفي حـالات قليلة تبرهن أن اقتباسـاته من رســالة أخــرى غير التي ذكــرهـا، وكثيراً مــا قــام بدمج عبـارات أرسطوطاليـة بعيـدة عن بعضهـا، وقدمهـا ضمن أفكاره بمثـابة عبـارة واحدة، وأكثر من هذا كان يضيف إقحامات من الواضح أنها من عنده، وهذا مـا يجعلنا نتوجس أن مـا كـان يستهدفـه من الاقتباسـات الكثيرة إظهار أنه كان رجلاً صاحب ثقافـة عالية، ذلك أن الاقتباسات كثيراً ما نجدها لا علاقة مباشرة لها بالموضوع المعروض للمناقشة.

وصيغة اقتباساته من الكتابات المقـدسة قريبة جداً من صيغ الطبعات الحديثـة من الترجمات الشعبيـة، والاختـلافـات البسيطة التي تظهـر في بعض النصوص مردها إلى ضعف محققي الطبعـات اللاهوتية الحديثة في ميـدان اللهجات الشعبيـة وقام دوبوا مـرة أو مـرتين بإقحام عبـارة من عنده في وسط نص توراتي، وقـام مـراراً بالمزج مـابين نصوص مختلفـة،

وغالبـاً ما نقل عن العهـد القديم بذكر اسم الكتـاب أو الكاتب، اللهم إلا باستثنـاء واحـــد، ونقـل عن العهـــد الجديد بشكـل مبهم تحت عنوان«الرسول» و«الرب»أو«المخلص»، والغلطة الوحيدة التي لاحظتها في إحالتـه لواحد من نصوص أعمال الرسـل مع أنه من الانجيل، وساد معيـار الصحة نفسـه بالنسبة لنقـوله من قانون الشريعـة، وقد ابتعـد في مناسبـــات قليلة عن النص كما ورد في طبعـــة فـــريدبيرغ Friedberg الحديثة، ووجدته مصيباً في الأمـاكن التي أتعب نفسه فيها لتحديد نص قـانوني محدد قـام بنقله أو اقتبـاسه، ونقـوله من القـانون المدني مـوزعـة بالتسـاوي فيما بين الـ Digest والـ Novellae ، وكـان يشير إليهما معـاً بدون تمييز باسم«القـانون المدني» ومعيـار الصحة في الاقتبـاس من القـانون المدني أدنى من الذي بدأه لدى التعامل مع الكتـابات المقدسـة، ومع قـانون الشريعة، وعزا في منـاسبة واحدة(الفصل ١٢٤) نصـاً نقله، إلى القانون المدني، مع أنه كان في الحقيقـة من كتاب«الأخلاق»، ويمكن أن نعـزو هذا إلى إمكانية العجـز أحياناً وعـدم القدرة على التعـرف على مصدر بعض النقول القليلة من هذا النوع.

وبذل دوبوا جهـوداً جبـارة من أجل الدخـول إلى دائـرة مستشـاري فيليب المقربين، ونجـد برهاناً على عـدم نجاحه في هذه الجهـود بكلماته، فقـد ذكر مـراراً بأنه مقبل على إرسـال هذه الرسالة أو تلك إلى صـديق يعمل في البـــلاط حتى يجري تقـديمهـا إلى الملك(الفصــول ١١١ — ١١٧)، كما عرض مـراراً خدماته للقيـام ببعض الاصلاحـات المقترحة، ولوأنه كان عضـواً من المستشارين المقربين من فيليب مـا كان ليلجأ إلاّ في النادر لمثل هذه الطريقة من العـرض، وصحيح أنه أظهر أحياناً دراية كبيرة بما كـان يجري في البـــلاط، ووضح هذا في الـ Summaria وفي الاسترداد(الفصل ١١١٦)، نقـرأ في اتفاقية فـوكلر Voucouleurs بين فيليب الـرابع والامبراطور البيرت شروطاً كـــانت بعيـــدة عن تفكير

الملكين، وكان هنا لمستشار معتمد أن يخطىء مرة، لكن من الصعب جداً أن يكرر الخطأ بعد ست سنوات في مذكرة سرية خاصة، يضاف إلى هذا انتقد مستشاري الملك وحط من شأنهم لأنهم ضللوا الملك في المسائل العسكرية(الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، وعدّهم مسؤولين عن المشورة الخاطئة بانقاص معيار العملة، ومن غير المعقول أن يقدم عضو في المجلس الاستشاري الملكي على استخدام مثل هذه الوسائل من أجل إلحاق الضرر بزملائه حتى يجلب انتباه الملك إليه، ونلاحظ أخيراً أن أسماء المقربين من فيليب من أمثال: بلازيان، وبيير فلوت، ووليم نوغاريت قد ظهرت في الوثائق الرسمية للدولة، في حين لم يظهر اسم دوبوا قط.

وأظهر دوبوا في سعيه في سبيل اقتراحاته الكثيرة للاصلاح شجاعة قناعاته، وعندما يقرأ الانسان الـ Summaria ، يمكن أن يحكم من خلال كلماته أن شقة الخلاف بين فيليب وبونيفيس باتت واسعة جداً، وكانت هذه الرسالة قد كتبها في سنة ١٣٠٠ قبل الصراع الأخير الذي تقدم صدور مرسوم Ausculta Fili ، وذلك في وقت كان بونيفيس فيه في أوج قوته، ففي الأشهر التي تدفق فيها الآلاف على روما ليركعوا أمام خليفة القديس بطرس، كان دوبوا يقترح مصادرة ميراث القديس بطرس، وأنه ينبغي أن يقنع البابا بعطاء سنوي، وعلى الرغم مما عبر فيه عن إخلاصه للملك، الذي كانت سلطته ستتحسن كثيراً بنجاحات اقتراحات دوبوا، نجد هذا المحامي النورماندي لم يتردد في توجيه النقد إلى الملك لأخذه ببعض الآراء غير الحكيمة، ولقد طالب فيليب بوجوب إدارة مملكته ليس من أجل منافعه الخاصة، بل من أجل منافع رعيته، وأكثر من هذا ذكر بصريح العبارة أن تراخيه في تطبيق الواجبات الإقطاعية، كان يسبب الأذى العظيم لرعيته،(الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، ولم يكن دوبوا مصراً دوماً في جرأته، على كل حال، ليس حتى

قام فيليب بإظهار الطريقة التي اتبعها من أجل إزالة طائفة الداوية.

ونلاحظ من جرأته وطبيعة كثير من اقتراحاته التي كانت تحتاج إلى وقت طويل، أن دوبوا أخفق بكل وضوح في أن يكون رجل دولة، وتظهر اقتراحاته من أجل توسيع السلطة الفرنسية ضعف في الرؤية بوضوح وبفهم واقع السياسات الأوربية، فما من رجل دولة حقيقي كان من الممكن أن تبلغ به السذاجة إلى حد الافتراض أن التخلي عن مملكة الأرليت، والضفة اليسرى من نهر الراين، ومن ثم حصول الفرنسيين عليها من خلال مباحثات ودية مع الامبراطور، ومثل هذا بالسذاجة كان اعتقاده أن معظم المشاكل كان من الممكن حلها بالطريقة البسيطة في وضع البابا تحت الوصايةالفرنسية ومن ثم استخدام النفوذ البابوي لزيادة المنافع العائدة لفرنسا ولملكها، وكان مدركاً تمام الإدراك وبفطنة عرف الفاجعة التي نزلت بالقوات الفرنسية في الحملة ضد أراغون في سنة ١٢٨٥، ومع هذا كان بإمكانه أن يكتب بشكل عفوي عن السهولة التي يمكن بها لفيليب إخضاع مدن اللومبارد، دون التلميح حتى إلى مصاعب الملك مع مدن فلاندرز، وهي حالة لا بد أنها كانت معروفة بالنسبة إليه.

أما في مجال النقد التاريخي، فقد أظهر دوبوا نفسه في أسوأ الأحوال، حيث أخفق في التسامي فوق السذاجة والخطأ، وهي السمة التي طبعت كتّاب العصور الوسطى، وكانت معارفه بالتاريخ المعاصر له أدنى بكثير من معارف دانتي، وقد كرس رسالته وأهداها إلى ادوارد الأول، لكنه أظهر أنه يمتلك معارف ضئيلة عن إنكلترا، وأن ما عرفه عنها لم يتجاوز أنها كانت إقطاعية بابوية، وكان لدى تعامله مع تاريخ الماضي اقترف عدداً من التناقضات، فقد أشار إلى شارلمان على أنه قد حكم مائة وعشرين سنة، وعدّه الجد الذي انحدر منه الملوك الفرنسيون، ولعله من الممكن أن يغفر له قبوله بأسطورة قيام شارلمان

بحملة صليبيـة إلى القـدس، وهي أسطورة ظلت حيـة حتى العصـور الحديثـة، هذا وأتى على ذكر صـلاح الدين وعدّه ملكاً للآشـوريين، كما أنه ذكـر بيبرس وعزا إليـه الاستيـلاء على عدد من البلدان كـانت ملكاً لملك الآشوريين.

وقبل دونما مناقشة كثيراً من الحكايات الخيالية الشعبية لعصره، وآمن بأن مسلمي الأرض المقـدسـة كـانوا يتلقـون العـون من قبل حشـد من الشيـاطين، الذين منحتهم معـرفتهم الكاملة بأحـداث الماضي حكمـة لم تتـوفر لدى النـاس الفانين، وجـرى تصـوير الشيطان الذي يسيطر على جيش كبير، وهو يقوم بالقتال بفعاليـة ضد المسيحيين بشكل عام، وضد أفكاردوبوا بشكل خاص، وآمن بـأن تفكير الناس وأعمالهم متأثرة بشدة بالنجوم وبحـركاتها بالسماء، مع أنه لحسن الحظ لا تستطيـع هذه القوى إعـاقـة إرادة الانسـان الحرة،أو أن تحول بينه وبين قـدرة التفكير بشكل منطقي، وجـرى تصوير فـرنسـا، وبشكل خاص باريس على أنها واقعـة تحت رعايـة كتل وعناصر سماوية، ولهذا فإن الناس الذين ولدوا هناك، وهناك نشأوا، كـانوا متفوقين على النـاس الآخرين، ولهذا كـان واجب الملك الفـرنسي البقـاء في الوطن لانجـاب الصبيـان في هـذه الأجـواء الموائمة، وعدم المخاطرة الآن أو في المستقبل بأن يأخـذ على عاتقه القيام بحمـلات شخصية إلى مناطـق نائية، ولا شك أن مـرد هذه العـواطف يعود في قسم منه إلى غلو دوبوا بالوطنية الفـرنسية، ومن الصعب أحياناً تقرير المدى الذي تأثر به إيمانه بالنجوم بغلوه الوطني(شوفينيته).

سوابق لأفكار دوبوا

هل كـانت الأفكـار التي عبر عنهـا هذا المحـامي النـورمـاندي ممثلة لعصره، أو هل كـان عبقرياً إلى حـد أن أفكاره كانت متـوائمة أكثـر مع القرون المقبلة؟ وقد تحدث رينان عن :

« Idees originales, Penetrantes, hardies, sortant si
. « complement de la routine

وصوره ج. ت فكز Figgis على أنه كان متقدماً كثيراً على تفكير معاصريه،« du temps » وقال :«كان دوبوا بما امتلكه من جرأة كبيرة، وفي إقـدامه، وفي الطبيعـة الواسعـة لخططه، وفي القدرة التي عـرض بها هذه الخطط، وفي الأصالة التي جعلـت من عظمة فرنسـا وملكها محوراً لإصـلاح لاهوتي ولجعل العـالم كله مسيحيـاً، كـان بالحري هو الأشبـه بعـدد من الثوريين العقـائديين من أمثـال: روبسبيير Robespierre أو لاسال Lassalle وليس من القانونيين العميـــان أو المتقيدين بالنص، للقـرنين الثـالث عشر والـرابع عشر، وذلك حسبما تعلمناه لنتصـوره»، وعدّه ديلافيـلا لى رولكس الانسان الذي كان الملهم لسيـاسات فيليب، وكـان بإمكان الآنسـة إيلين بور أن تقـول عنه:«الأكثـر جـرأة والأعظم أصالة بينهم جميعاً، وبلغت به المعاصرة إلى حدّ بدا فيه وكأنه كان يكتب للويس الرابع عشر، أو إلى نابليون».

وللوهلة الأولى عندمـا ننظـر إلى كثير من أفكاره يبـدو لنا أنها بعيـدة عن إنسان غطت حياته النصف الثـاني من القرن الثالث عشر، لكن إذا ما انبرينا نحو كتابات معاصريه، والسلف الذين عـاشوا قريباً من أيامه، نجـد تقـريبـاً أن كل واحـدة من أفكاره — التي كثير منهـا مثيرة وغير عادية كما بدت — قد جـرى التعبير عنها من قبل آخرين، لكنه دفع بين آونة وأخـرى بعض المفـاهيم خطوة نحـو الأمـام، معطيـاً إياها مظهـراً جديداً، وكان هذا أمـراً متوقعاً، فما من عصر كان متجمـداً ثقافة بالمرة، ومن المؤكد أن القرنين الثـالث عشر والرابع عشر لم يكونا راكدين تماماً، وإذا جاز الحديث عن ممثل لعصر من العصـور بقيامه بالتعبير عن أنواع واسعة من الأفكـار والمفاهيم التي كانـت رائجة في أيامه، عنـدها نقول كان دوبوا الممثل لعصره، ولقد تبرهن أن«أصـالته المدهشة» و«عصرنته»

أشبه بالأسطورة.

وكان المحور الفكري لرسالته لعام ١٣٠٦، هو استرداد الأرض المقدسة، ومن أجل تجنيد جيش صليبي، لم يكن لدى دوبوا شيئاً يقدمه أفضل من نظام تطوعي(الفصل ١٠٧)، مردوف بالقوى التي تم تكوينها من الذين سببوا القلاقل في أوربا، ونظام التطوع الذي نادى به قد اختلف قليلاً عن النظام الذي جرى اتباعه في الحملات الصليبية المتقدمة، حيث كان التطوع آنذاك يجري بوساطة التحريض والإثارة التي قام بها المبشرون، مثل برنارد أوف كليرفو في التحضير من أجل الحملة الصليبية الثانية، أما الحديث عن خدمة المعاقبين لآثامهم في فلسطين فإن التبشير فيه يعود قديماً إلى القرن الحادي عشر، وكان اقتراحه بتنظيم الجيش الصليبي، وجعله في سرايا كل واحد ة منها تتألف من مائة رجل، ويقود كل واحدة منها قائد مائة(الفصلان:٢٣ — ٢٤) مشابهاً لخطة فردريك بربروسا بتقسيمه إلى مجموعات في كل واحدة منها خمسين رجلاً، وكذلك لكل مجموعة قائدها، كما أنه لم يكن هناك شيئاً جديداً بشأن الموسيقى العسكرية كوسيلة لتقوية العزائم، أما توصيته بأن يرتدي الصليبيون أزياء موحدة، فقد سبقه بها الانكليز في غنت Ghent في سنة ١٢٩٧، وكذلك من قبل البرجاسيةالفلمنك في كورتراي في سنة ١٣٠٢، وكان الملك شارل الثاني ملك صقلية في ١٢٩٢ قد اقترح خطة من أجل حملة صليبية، وقد تضمنت الخطة وصفاً تفصيلياً للزي الموحد الذي اقترح أن تتزود به الجيوش الصليبية، أما معسكرات الراحة من أجل أن يسترد الجيش معنوياته بعد المعركة(فصل ٢٠)، فهو اقتراح تبنى فيه القاعدة التي أخذ بها فرسان التيوتون وطبقوها منذ زمن بعيد.

وبعد سقوط عكا في سنة ١٢٩١، لم تكن هناك من حاجة إلى قوة بصيرة عظيمة لتدرك أن النقطة الأساسية القائمة وراء فقدان المسيحيين

الغـربيين لفلسطين كانت هي إخفـاقهم بالاحتلال الفعلي للبـلاد، فكثير جداً من الصليبيين قـاموا بالوفاء بنذرهـم بزيارة الضريح المقدس، ومن ثم عـادوا على الفور إلى أوطانهم، ولقـد أراد دوبوا أن يجعل الاحتـلال مستمـراً أبدياً عن طريق تشجيـع الغـربيين على الاستقـرار في الأرض المقـدسة، وكـانت المدن الايطالية سبقتـه إلى هذه الفكرة إلى حد مـا — بشرهها للحصول على حصة في التجارة الرابحة للشرق — بقيامهـا بعقـد صفقـات مع الصليبيين للتخلي لهم عن مناطـق في البلدان التي جـرى الاستيلاء عليهـا حديثـاً، وصحيح أن الحملة الصليبية الرابعـة لم تكن تماماً مغـامرة استعمارية، كان ما نجم عنهـا تأسيس دويلات لاتينية في الشرق الأدنى، عـاشت لأجيـال، وكـانت الرهبـانيـات العسكرية بمقارها الدائمة وقواعدها في فلسطين مكافئاً للحاميات العسكرية التي اقترحهـا دوبوا من أجل حماية الأرض المقـدسة ضـد أي ثورة عسكرية يقوم بها المسلمـون في المستقبل(الفصلان ١٠٤ و ١٠٨)، وعندمـا كتب دوبوا عن المنافع الاقتصادية التي سوف يتم جنيها من احتلال فلسطين، كان هدفه هو تـأمين حصة هامة لفرنسا في التجـارة التي كانت من زمن طويل تجلب الثراء إلى المدن الايطاليـة، أما مسألة الفوائـد التجارية التي يمكن تحصيلها بالهجوم الجانبي على مصر، فقد كان قد تحدث عنها من قبل وأوضحهـا الراهب الفرنسيسكاني فيـدنس — Fidence — أوف بادوا في سنة ١٢٩٢ .

وتماشيـاً مع عـدد كبير من الذين تفحصـوا بدقـة مسألة الحروب الصليبيـة، أدرك دوبوا تمامـاً أنه من غير الممكـن لحملة صليبيـة جـديدة تحقيق النجـاح مـادام سـلام أوربا يتعـرض للخـرق المستمـر عن طريق الحروب بين السـادة الاقطاعيين، وتتشـابه اقتراحـاتـه من أجل منع مثل هذه الحروب مـع الخطة التي اقترحـت في أوائل القـرن الحادي عشر، ونعني بذلك خطة«هدنة الرب» التي تضمنت شرطاً قضى بإقامة حلف

معقود بالأيمان للسلام ولنفي مثيري الحروب إلى الأرض المقدسة(١)، ففي سنة ١٢٠٣، وفي مؤتمر عقد في موزون Mouzon قام كل من روبرت التقي ملك فرنسا والامبراطور هنري الثاني ببحث فكرة إقامة سلم عالمي يشمل أولاً فرنسا وألمانيا، ثم جميع العالم المسيحي.

أما قضية تسوية الخلافات بين الملوك والحكام بوساطة لجنة تحكيم، فيبدو أن فكرة دوبوا هنا بلا سابقة واضحة، ونعني بذلك إقامة مجلس من رجال الدين ومن العلمانيين يتولى تعيين هيئة محكمين واسعة، وصحيح أنه لم يوضح بشكل محدد مدة هذه اللجنة، من الممكن للانسان أن يستخلص أن دوبوا أراد أن تكون اللجنة الواسعة دائمة، هذا وتوفرت من قبل جهود للتحكيم بمثل هذه الخلافات ونفذت من خلال إقدام المتخاصمين على تعيين فرد أو عدة أفراد للتحكيم فيما بينهم، وهناك أمثلة كثيرة جداً حول التحكيم كمبدأ، سواء كعمل تطوعي من قبل الفئات ذات العلاقة، أوبفرض ذلك من قبل قوة متفوقة، ففي رسالة إلى رجال الدين الفرنسيين في ١٢٠٤، دافع البابا انوسنت الثالث عن حقه ليقوم بالتحكيم فيما بين ملكي إنكلترا وفرنسا، مع أنه كان حريصاً على التنصل من أية محاولة تتعلق بالنيل من سلطات الملك الفرنسي، وفي سنة ١٢٤٦ جرت تسمية الملك لويس التاسع والنائب البابوي يودس أوف شاتور Chateauroux ليكونا حكمين

---

١ — نظمت الكنيسة في حوالي سنة ١٠٠٠ في بواتييه حلفاً للسلام ضم كلاً من رجال الدين والاقطاعيين المدنيين، قرر اتخاذ إجراء موحد ضد أي إنسان يثير الاضطراب، وفي سنة ١٣٠٨ جمع رئيس الأساقفة أيمو أوف بورغ Aymo of Bourges أساقفته في مجمع ديني، قضى بوجوب أن يقسم كل مسيحي بلغ الخامسة عشرة من عمره على مواجهة أي خرق للسلام بقوة السلاح إذا اقتضى الأمر، ولم يعف رجال الدين من أداء هذا الواجب لكن طلب منهم قيادة أتباعهم ضد الذين يخرقون السلام، بأعلام خفاقة فوق رؤوسهم، وبالفعل قاد رئيس الأساقفة قوة للقتال كان فيها أكثر من سبعمائة رجل دين، وفي سنة ١٠٤١ راسل بعض رجال الدين الفرنسيين الأساقفة الايطاليين ودعوهم إلى الانضمام إلى«هدنة الرب» القائمة في فرنسا، وقضى الحلف الفرنسي بتجريم كل من يقترف جريمة قتل أيام هدنة الرب، وأن ينفى نفياً طويلاً إلى القدس.

من أجل تسوية قضية الخلافة لحكم فلاندرز وهينلوت، وفي سنة ١٢٦٣ وضع هنري الثالث وباروناته مسألة الخلاف حول مؤن أكسفورد للتحكيم من قبل لويس التاسع، وأخيراً لا بد أن دوبوا كان بكل تأكيد على دراية بحقيقة أنه قبل سبع سنوات فقط من كتابته«الاسترداد» عمل بونيفيس بمثابة حكم بين فيليب الرابع وادوارد الأول.

أما فيما يختص بقضية الحديث عن الاصلاحات اللاهوتية، فقد كان دوبوا على أرض معروفة، فقد كرر التهم المتداولة كثيراً فيما يتعلق بالاهتمامات الدنيوية، والسيمونية، والشره، وفساد الأخلاق، وهي أمور كلها — أو أكثر منها — يمكن للانسان أن يجدها في كتابات بعض رجال الكنيسة من ذوي السمعة الأرثوذكسية النزيهة، وكان دوبوا قانعاً أنه يمكن التخلص من الدنيوية وإزالتها بالطلب من رجال الدين التخلي عن ممتلكاتهم الدنيوية، ووضعها تحت وصاية دائمة، مع احتفاظهم بحصة من الدخل، وينبغي أن تدار هذه الوصاية من قبل رجال علمانيين، يكونوا بالعادة أكثر كفاءة، وأكثر استعداداً لتقديم الحساب من رجال اللاهوت (الفصلان ٥٢ — ٥٣)، وكانت سابقة الادارة المدنية للشؤون اللاهوتية من قبل الرجال العلمانيين قد أرسيت قواعدها من زمن طويل بوساطة الـ Negociatores Ecclesiae ، وكان هناك أيضاً الوكلاء التجاريين الرحالة للديرة الذين لم يشجع مساكنوهم على الارتحال من أجل أعمال دنيوية، وقدمت الاقتراحات من أجل المصادرة الكاملة للأملاك اللاهوتية في أثناء الصراع من أجل انتخاب البابوات، فقد اقترح البابا باسكال الثاني على هنري الخامس بشكل رسمي وجوب تخلي رجال الدين عن جميع السلطات الحكومية والامتيازات التي هم مدانون بها للملوك العلمانيين، وكان هذا يعني شمول تسليم جميع الممتلكات اللاهوتية، التي ليست فعلياً

ضمن«الهبات والممتلكات الوراثية» للكنيسة،وقد ذهب غيرهوه فون ريكرسبيرغ Gerhoh von Reichersberg (حوالي ١١٥٠) إلى القول بأن الأمير يمتلك الحق في حرمان الأسقف من ممتلكاته بسبب أي خرق للالتزامات الاقطاعية، وفيما يختص بميراث القديس بطرس، قام في سنة ١٢٧٣ سفراء فيليب الثالث بالاقتراح على غريغوري العاشر، بأن يتولى الإشراف عليه وإدارته من قبل واحد من الملوك الأقوياء، وأجاب غريغوري بأنه سيرحب بمثل تلك الترتيبات، وأن الملك الفرنسي سوف يكون شخصاً موائماً لتولي الاشراف والإدارة.

والتاريخ الديري متخم بالجهود في سبيل الاصلاح، ومعظم الرهبانيات التي تأسست في أثناء العصور الوسطى تأسست وهذا في الذهن، وعندما اقترح دوبوا إلغاء جميع الديرة غير الرهبانية، واستخدام جميع موجوداتها لحماية الأرض المقدسة(الفصول ٥٤ — ٥٧) كان يردد فقط التوصيات المحددة التي قدمها همبرت القائد الأعلى لطائفة الدومنيكان في كتابه Liber de Tractan dis Inconcilio Lug-dunensi الذي كتبه من أجل عرضه على مجمع ليون في سنة ١٢٧٤، وكان وليم دورانتي Duranti قد كرر الاقتراح نفسه قبل انعقاد مجمع فيينا في سنة ١٣١١ في رسالته Tratatus de modo alebrandi concilii et corruptelis in eulesia Reformandis ، هذا ولم يتضمن اقتراح دوبوا تحويل الرهبانيات النسائية إلى مدارس للبنات(الفصل ١٠٢) فكرة إلغاء هذه الرهبانيات، وفي الحقيقة لعل فكرته كانت مجرد عملية تبني لممارسة كانت قائمة، ذلك أن مدارس النحو المرتبطة بالديرة لم تكن أمراً اعتيادياً، فقد كانت هذه المدارس مدارس علمانية يتولى التعليم فيها معلمون علمانيون، وكانت متميزة تماماً عن المدارس المخصصة للرهبان، ومن المحتمل وجود مدارس مشابهة للبنات كانت مرتبطة برهبانيات النساء، ولاقت انتقاداته لعزوبية

رجال الدين التأييد من كتلة كبيرة من الرأي العام الفرنسي، وذلك إذا ما أخذنا بمثابة دليل الانفعالات العاطفية التي وردت في الجزء الثاني من الكتاب الشعبي واسع القراءة Roman de la Rose ، الذي تولى كتابته واحد من رجال الدين في حوالي سنة ١٣٠٠، وخرج آرنولد أوف فيلانوفا، الذي كان طبيب بونيفيس الثامن باحتجاج قوي جداً ضد عزوبية رجال الدين، وفي أثناء الصراع فيما بين فيليب والبابا تداول الناس Quia nonulli ، وهو مرسوم مزيف قيل صدر عن البابا بونيفيس، وتضمن هجوماً على عزوبية رجال الدين، وأوصى بزواج رجال الدين من البابا إلى كهنة الأبرشيات ، بحكم ما ورد في الكتاب المقدس، ولعل هذه المقترحات من أجل تغيير الوضع الرسمي المفروض على رجال الدين بالنسبة للزواج، قد جرى تحريكه بوساطة تيارات المحادثات التي كانت قائمة من أجل الاتحاد مع الكنيسة الاغريقية، التي لم يمارس رجال الدين فيها العزوبية، ونقل وليم دورانتي عن العهد الجديد، ومن ثم اقترح على مجمع فينا الاهتمام الزائد بإمكانية إلغاء عزوبية رجال الدين، وتبني المبادىء الممارسة منذ أمد طويل في الكنيسة الإغريقية.

ولم يتجرأ دوبوا على اقتراح إلغاء رهبانية الداوية حتى أعلن فيليب الرابع هجومه على هذه الطائفة بشكل معلن ومكشوف، فقبل سنة ١٣٠٨ قيد نفسه باقتراحات من أجل دمج الرهبانيات العسكرية، ومصادرة أملاكهم في الغرب، ويمكن هنا ذكر عدد كبير من السوابق لمثل هذه المقترحات، ففي سنة ١٢٢٩ قام فردريك الثاني بطرد الداوية من صقلية، وصادر ممتلكاتهم ومقتنياتهم، وعندما استدعاهم للعودة فيها بعد لم يعِد إليهم ممتلكاتهم، وكان البابا غريغوري العاشر قد اقترح في مجمع ليون سنة ١٢٧٤، دعم الرهبانيات العسكرية، وقام البابا نيقولا الرابع في آب ١٢٩١، لدى سماعه بالأخبار من عكا ، بتوجيه البطارقة

ورؤساء الأساقفة لعقد مجمع ديني إقليمي، حيث ينبغي دراسة مسألة دمج الرهبانيات العسكرية وتقويتها، وعندما طالب بالعون المالي من أجل حملة صليبيـة جـديدة، من الأسـاقفـة الألمان، عبّر هؤلاء عن موافقتهم على مشروع دمج الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون في رهبانيـة عسكرية واحـدة، على أساس أن سقوط عكا جاء نتيجة للخلافات فيما بينهم، وكان ريمـوند لول قد اقترح مراراً عملية الدمج هذه، وكذلك كان شارل الثاني، ملك صقلية، قد اقترح ذلك في سنة ١٢٩٢، والفكرة الوحيدة الجديدة المعزوة إلى دوبوا في هذا المجال كانت اقتراحه بوجوب تكريس الممتلكات المصادرة التي كانت عائدة إلى هذه الطوائف، لصالح المدارس التي كان ينادي بها كسمـة أساسية لخطته من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها.

أما اقتراحـه من أجل تأسيس مـدارس لإعداد الغربيين مـن الشباب من الجنسين للخـدمـة في الشرق الأدنى، فقـد كـان جـديداً من حيث الدرجـة وليس من حيث الفكـرة، فبعض هذه الخدمات سيكون إدارياً من أحد الجوانب وتبشيرياً من جـانب آخر، وكـان بعضهم قد بحث في المفهوم التبشيري،ففي ٢٢ حـزيران وجه البـابا انوسنت الرابع مرسـوماً إلى رئيس جامعة باريس، طلب فيه بشكل رسمي إرسال بعض الشباب الذين تعلموا اللغات الشرقيـة، إلى الجامعة من أجل التدريب اللاهوتي، وإرسـالهم بعـد ذلـك إلى الشرق لتعليم الآخـريـن الايمان الصحيح وتحويلهم إليه، ولقـد شرعوا في تنفيـذ هذا المشروع بالفعل، ودليلنا على ذلك، تشير إليـه حقيقة أنه في التـاريخ نفسـه حرر البـابا انوسنت راعي دير القـديس بيير دي تشـارترز مع الـرهبـان، من واجب دفع الأمـوال لدعم هؤلاء الشبـاب، كما كلف بارسـال سفـارة إلى التتـار من أجل تحويلهم إلى الايمان المسيحي.

أمـا مدارس النحـوذات النمـوذج العـام الذي دعا إليـه دوبوا، فقـد

كـانت موجـودة في كل مدينة تقـريباً، وكـذلك في بعض المراكز الهامـة، وكان عملهـا الأساسي هو تزويد الطلبـة بالتدريبـات الأساسيـة إعداداً للدراسة الجامعيـة، وكان من المفترض تأسيس مـدارس مماثلة في باريس من أجل الفتيـات، وكـان المرتل في نـوتردام يمارس الاشراف عليهم، فيقوم بمنح إجازات إلى معلمي مدارس الصبيان، وإلى معلمات مدارس البنات، وأورد راشدول Rashdall قائمة فيها أسماء اثنين وأربعين معلماً، وإحدى وعشرين معلمة، نالوا جميعاً الاجازات.

ولم يكن دوبوا قانعـاً بالمدارس القائمة، لكن منهـاجه أخفق في تحقيق أية تغييرات أساسية، وكان من حيث الجوهر متطابقاً مع منهاج الدراسة الذي كان مـوجوداً في جامعة باريس، والمصـادر النصية التي أوصى بها بالاسم(الفصل ٧١) كـانت هي الكتب المتعـارف عليهـا والمستخدمـة، وقـد انتقـد بعضاً من هذه الكتـب لطول نصوصهـا، وأوصى بتكثيفهـا للتـوفير على الطالب الوقـت والمال، وفي حقيقـة إتيـانه على ذكـر بعض النصـوص المختصرة لكتب مشهـورة، دليل على أن آخـرين قبله قـد حاولوا الأخـذ بحل مشابه، وبما أنه كـان مشغوفاً بأهميـة الخبرة العملية — وهي فكرة لعله استقـاها من روجـر بيكون — كان يرغب بتسـارع برنامج الدراسات إلى حد يتمكـن فيه الطالب من إكمال تعليمه النظري في سن مبكرة.

وكـان من بين أهم مـلامح منهـاجـه التعليمي نقطة أولاها اهتمامـاً خاصـاً، قضت بدراسة اللغـات الأجنبية الحديثة المستخـدمة في الشرق، وبشكل خاص الاغريقية والعـربية، وكانت بعض الجهود في هذا الاتجاه قـد بذلت من قبل، لكن ليس على مستـوى الفهم الذي نادى به دوبوا، فقـد جرى في سنة ١٢٥٤ تأسيس مـدرسـة في إشبيلية من أجل دراسـة اللاتينيـة والعـربيـة، وفي حـوالي سنة ١٢٧٥ أقنع ريمـوند لول ملك مايروكا بالقيـام بإنشاء دير مزود بما يكفي من المال، من أجل دعم ثلاثة

عشر راهباً من الشباب كان عليهم دراسةالعربية، من أجل القيام بعمل تبشيري بين المسلمين، وبعدما حصل هؤلاء الرهبان على بعض المعارف المتعلقة بالعربية من عبد عربي، ذهبوا إلى أفريقيا، غير أنهم طردوا من هناك بوساطة المسلمين، وأسس ريموند بينافورت، الذي كان القائد العام الثالث للدومنيكان مدارس في الديرة الأفريقية والإسبانية من أجل هذا الغرض، وكان قائد عام آخر للدومنيكان هو ريموند مارتيني مشهوراً لمعارفه بالعبرية والكلدانية والعربية، إلى حد أنه كتب عملاً لاهوتياً ضد الاسلام بالعربية، وكان روجر بيكون، الذي كان اهتمامه باللغات الحديثة منصباً على فقه اللغات أكثر منه على العمل التبشيري قد كرس القسم الثالث من كتابه Opus maius على هذا الموضوع، كما أنه ألف بالنحو الاغريقي.

وبالنسبة لتعليم النساء، فقد كان دوبوا متقدماً خطوة أو خطوتين على معاصريه، وورد من قبل ذكر وجود مدارس للفتيات، لكن النساء كن ممنوعات من دخول الجامعات التي تمتعت باحتكار التعليم العالي النظامي، وجرت العادة بالنسبة لمن رغبن بالحصول على تعليم فوق التعليم الابتدائي، تأمين معلمين خاصين، وقد ورد ذكر عدد من النساء حصلن على تعليم جيد، منهن على سبيل المثال هروتسفيثا أوف غندرشيم Hortsvithaof Gandersheim في القرن العاشر، وهيلوياس Heloise في القرن الثاني عشر، لكن هاتين كن استثناء، وكان بين المعلمات العلمانيات في فلورنسا سنة ١٣٠٤، امرأة متزوجة، اسمها كليمنتيا Clementia ، وقد حملت لقب Doctrix Puer-orum، وقد تولت تدريس مبادىء اللاتينية، وكان من غير المعتاد تماماً بالنسبة للنساء النبيلات الحصول على بعض التدريبات في الطبابة والجراحة، وقد أراد دوبوا قبول الفتيات بشكل منتظم في مدارس تدريبية للخدمة في الشرق، وكان سيقدم لهن الدورات نفسها تقريباً التي

تقترح للدراسة من قبل الصبيان، إنما مع تركيز الاهتمام على الأدوية والجراحة ومبادىء الإيمان الكاثوليكي، وقد أقرّ — على كل حال — أن قدرتهن على استيعاب مثل هذه التدريبات كانت محدودة، ولهذا لم يقترح قبولهن في مدارسه المتقدمة للطب، والعلوم، والقانون، واللاهوت، ويبدو أن اقتراحه بأن يتزوجن رجال دين إغريق ومسلمين من أجل تحويلهم، كان مجرد جهد لإعادة تطبيق ما قام به سليمان الأمر الذي أشار إليه في الفقرة التالية(الفصل ٦١).

وعرّف دوبوا نفسه في الجمل الافتتاحية لكتاب الاسترداد بمحامي الاستئناف للقضايا اللاهوتية العائدة لأدوارد في أكوتين، وعلى هذا لقد كان مدركاً للنزاع الطويل الأمد بين القضاء اللاهوتي والقضاء الملكي، وكان يعرف أن القضية لاتحتاج إلى البحث هنا، وقد امتلك بحكم كونه محامياً ممارساً خبرة من الطراز الأول بالإجراءات المملة المتعلقة بالأعمال القانونية في القرن الثالث عشر، وقد ضمن الـ Summaria مقترحات للاسراع بالاجراءات القانونية، واقترح في«الاسترداد» بأن هذا من الممكن إنجازه بالطلب من الادعاء ومن الدفاع تقديم التماساتهم كتابة(الفصول ٩١ — ٩٥)، وحين طالب بالمزيد من الاجراءات الكتابية كان يتماشى تماماً مع التيارات الجارية، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أحدث تأثير القانون الروماني والقانون الشرعي تطبيقاً تدريجياً لتسهيل الاجراءات القانونية، والتي زادت من استخدام الوثائق المكتوبة، وزادت بالتالي من أهمية المحامين وكتّاب العدل، وبدأ التغيير بالظهور في المحاكم الملكية مع سنة ١٢٥٠، وفي سنة ١٢٩٠استخدمت الطلبات المكتوبة في برلمان باريس، وفي الوقت الذي كان دوبوا يكتب فيه الاسترداد، كانت حتى بعض المحاكم الاقطاعية تتبع الاجراءات الجارية في المحاكم اللاهوتية والمحاكم الملكية، وفي سنة ١٣٠١ كتب يودس صاحب مقاطعة السين دليلاً في القانون هو -Sum

ma de Judiciis Possessoriis ، أسسه على القانون الروماني، وقد اقترح فيه خطة من أجل تبسيط الإجراءات القانونية وتقصيرها في القضايا المدنية.

وإذا ما تطرفنا كثيراً في أن نصف للفرنسيين روح الوطنية في أوائل القرن الرابع عشر، وقلنا بأنها كانت بالفعل قريبة من روح القرن التاسع عشر، نجد دوبوا يعبر عن أنشط مشاعر الوطنية الفرنسية، فمع أنه كان من حيث الجوهر رجل سلام، شعر بنفسه بأنه مؤهل لتقديم النصيحة لملكه حول القضايا العسكرية، وكانت هذه النصيحة بالفعل أكثر قليلاً من التوصية بأن على الملك أن يطبق بدقة نظام الالتزامات الاقطاعية القائم فيما يتعلق بالخدمة العسكرية، وكان دوبوا قانعاً أنه إذا ما طبق هذا، لن يحتاج الملك إلى التردد بالقيام ببرنامج التوسع الذي طرحه عليه في كتاب الاسترداد، وكان هذا التوسع قائماً وآخذاً طريقه قبل أن يكتب دوبوا، فقد تم الاستيلاء على نورماندي ولانغدوك قبل تتويج فيليب الرابع، وفي سنة ١٣٠٠ أُخذت فلاندرز، وكانت الخطوة المنطقية التالية في هذا الاتجاه الضفة اليسرى من الراين، وفي الاتجاه نحو الجنوب الشرقي لم تكن هناك حاجة لكاتب منشور ليظهر الرغبة بالاستيلاء على مملكة آرل، وكان فيليب الرابع منذ بعض الوقت راغباً في مدّ نفوذه فوق الامبراطورية، ففي سنة ١٣٠٨ اقتنص الفرصة التي تهيأت باغتيال ألبيرت الأول، للقيام بحملة فعالة من أجل اختيار أخيه شارل أوف فاليوس، وقد تزوج شارل في سنة ١٣٠١ كاترين أوف كورتناي، التي كانت وريثة امبراطورية القسطنطينية اللاتينية الميتة، وأعطاه هذا حجة للمطالبة بمملكة شرقية، الأمر الذي حاول أن ينفذه ويجعله حقيقة قائمة، وكان التوسع بالنفوذ الفرنسي بالحفاظ على مصالح أسرة كابيه في إيطاليا وإسبانيا وهنغاريا، أمراً طبيعياً إلى حد أن الفكرة كانت ملكاً للجميع، وقد هيأ انتخاب البابا الفرنسي(كليمنت الخامس) مجالات

جديدة للتوسع بالنفوذ الفرنسي، فلو أن البابا أقدم على تعيين ما يكفي من الفرنسيين الكرادلة، فمن الممكن بقاء البابوية ذات هوية فرنسية، ففي سنة ١٣٠٥، أي قبل أن يقترح دوبوا هذا الأمر في الاسترداد، بدأ كليمنت سلسلة من الترفيعات ضمنت أكثرية فرنسية في مجمع الكرادلة.

ولم يكن الغلو بالمشاعرالوطنية حكراً بأي حال من الأحوال على الفرنسيين فقد أعلن جوردانوس أوف أوسنابروك Jordanus of Osnabruck في سنة ١٢٨٠ في كتابه De Praerogativa Romani Ipmerii ، أن من واجب البابا تقديم العون إلى الامبراطور للحفاظ على مكانته السامية والإضافة إليها، وأعلن أنه بواسطة الترتيبات الربانية جرى منح السلطة الامبراطورية العائدة للرومان، أي المملكة العالمية، إلى الألمان، وينبغي عدم بقاءها مع الرومان، الذين ينبغي أن يكونوا راضين بالحفاظ على البابوية وقانعين بها، وكذلك يتوجب عدم ذهابها إلى الفرنسيين الذين لابد أن تكون الهبة الربانية بالتعليم كافية لهم.

وعلى هذا يمكننا الوصول إلى محصلة مفادها أن أفكار دوبوا الأصيلة حقاً تتضمن القليل فقط أكثر من خطته المحددة من أجل نظام للتحكيم العالمي مع اقتراحه من أجل تأسيس نظام للمدارس، يمكنه أن يقبل بالتدريج نساءً من أجل التدريبات الاحترافية، وهذا لايعني مطلقاً أنه نقل عن وعي جميع أفكاره المستعارة الأخرى، فلعله توصل نحو الكثير من الأفكار مستقلاً، وهذا يعني أن جميع الأفكار التي أطلقها كانت بعضاً، لا بل كلاً من اهتمامات عصره، أي أنه لم يكن«متقدماً بقرون على عصره» بل كان ممثلاً حقيقياً له.

مكانة دوبوا وأهميته

وإذا لم يكن دوبوا مفكراً أصيلاً، فأين تكمن أهميته، قطعاً ليس في

تأثيره على عصره أو العصور التالية، التي كـانت منعدمة على الرغم من الآراء التي عبر عنهــا رينان وديلافيـلا لى رولكس، وتكمـن أهميتـه في الحقيقة عينها في أن أفكاره لم تكن أصيلة، فقد عمل بمثابة مرآة عكست حشداً هائـلاً من الأفكار التي كانت رائجـة في عصره، وليس هاماً أبداً كم بدت لنا معظم أفكـاره غير واقعيـة ووهميـة، إن هذه الأفكار هامـة لأنها ترينا كيف نظر إنسان مثقف ومنطقي ، وحسن المعـرفة إلى مشاكل السياسات العالمية في مطلع القـرن الرابع عشر، وهو ما كان معاصراً له، وهنا لدينا إنسان متفرد، فقد كـان علمانياً مع ميول صحفية للتعبير، وقد تدرب في أفضل جـامعـة في أيامـه، وكـان رجـلاً عملياً في مـواجهـة المشـاكل، وقـد تماشى مع التفكير المعـاصر له، وقـد حصل على الثـروة وعلى بعض الاعتراف والتقدير في ممارسة القانون، وكان أيضاً رجلاً قد تأثر بعمق بالتيـارات التي كانـت متجهة نحـو تأسيس ملكية قـوية، في داخل الدولة القومية التي كانت آخذة بالظهور شيئاً فشيئاً، وقد أراد أن يحرك هذه التيـارات ويزيد من اتساعهـا، بإثارة الرأي العـام لصالحهـا، وكان إنســاناً، قد شعـر — كما يبدو — بشكل غير واضح، بـروح عدم الاستقرار، وعدم الرضا عن الحياة الرتيبة المشبعة بالأوهام للقرن الثالث عشر، التي ما لبث القـرن الرابع عشر أن انفجر ضدها بثورة مفتـوحة، وكان رجـلاً قد شعـر بأن«الوقت يفلت من بين الأيدي»، وهو قـد قدم برامج للاصلاح كانت واسعة ومتماسكة إلى حد ما، ودعا إلى تطبيقها.

وقـد امتلك قدرة على استيعـاب أفكار الآخرين وجعلهـا أفكاراً له، وأن يقـوم أحيـاناً بنسج الأفكار المتعـارضة، ومن ثم إخـراجهـا على شكل خطة موحـدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفـاظ عليها وسبيل زيادة عظمـة فـرنسا وملكهـا، ومن المحتمل أنه لم يكن واقعيـاً لكنه كان جاهزاً مع اقتراحات للاصلاح وللتحسين في عدد من الميادين المختلفــة، وقــد اندفع إلى داخل ربما مــا خشيت مــلائكة أيامــه من

السيرخطوة فيـه، فقد قـاتل ضـد عـزوبية رجـال الدين، ودعـا إلى قمع السلطة البـابوية الدنيـوية، وإلى مصـادرة الممتلكـات اللاهوتيـة من قبل التـاج، وإلى إصـلاح النظام الـرهبـاني، وإلى إعـادة تنظيم المنظمات العسكرية، وإلى التحـويـل الجزئي للرهبـانيـات النسـائيـة إلى مـدارس للفتيـات، حيث يدربن على الطبـابـة والجراحـة، ويتـزوجن من منشقين دينيـاً ومن كفـار من أجل تحويلهـم، ورأى أنه يمكنه ضمان سـلام دائم بوسـاطة نظام تحكيم دولي، وتأسيس فيـدراليـة أوربيـة تحت السيـادة الفـرنسية، وأراد تأسيس هيئة من المدارس بدورات متسـارعة الدراسـة تستهدف إعـداد شباب فرنسـا من أجل استعمار البلدان النائية وإدارتها، وكان يرغب في إعـداد كتب دراسية نصية جديدة، وتنقيح المجمـوعات القانونية، وتحسين الاجراءات القضـائية في المحاكم، ومع أنه عدّ الحرب شراً، كان جاهزاً ومعـه خططه لإعادة تنظيم النظام العسكري الفرنسي، في سبيل إعـادة تأهيل القـوات وتحسين سـوقيتهـا، ومن أجل إدارة الحروب وتوجيهها في البحـر وفي البر، وهنا قد توفـرت لديه اهتمامات كاثوليكية بارى فيها اهتمامات كل من روجر بيكون ودانتي.

مخطوطة وطبعات استرداد الأرض المقدسة

وصلنا نص كتاب الاسترداد في مخطوط واحد، هو المخطوط اللاتيني رقم ١٦٤٢ في مكتبـة الفاتيكان، وهـو موجـود على ورق رق مسطرته ١٧ x ٢٢ سم، والمخطـوط بحـالـة جيـدة، ويحتـل مخطوط الاسترداد الأوراق ١ — ٤١ من المجلد، والمخطـوط مكتـوب في القـرن الرابع عشر، والخط جيـد تماماً، لكن أضيفت لـه مختصرات لا حد لها عـددياً، وأحياناً هي غـريبة، وأظهـر الناسخ شواهد على أنه قـرأ الكتاب بعناية، لوجود عدد من الاضافـات في الهامش، وجاء بعضها عبارة عن شروح أضافهـا الناسخ، ولم تكن تصحيحات ولا أعمال حـذف، وأنا لم أستطع تفحص المخطوط الأصلي مبـاشرة، لكن تلطفت مكتبـة الفـاتيكان

فـزودتني بنسخـة مصورة عنـه رائعة، وقـد قـارنتهـا بالنص الذي تولى تحقيقه لانغلويس.

وكـان قد جـرى تحقيق هذه الرسالة من قبل بونغـارس Bongars على أنها مجهولة المؤلف، وقد نشرها في كتابه Gesta dei Per Francos (جـزءان — هانوفـر ١٦١١) جـ٢ ص ٣١٦ — ٣٦١، ولم يتـول لانغلويس حين عمل على إخراج طبعة جديدة للكتاب — كما يبدو — شخصياً تفحص مخطوط الفـاتيكان، بل كان قـد كلف بذلك واحداً من تلامـذته، واسمه كـولون Collon ، فقـد تولى كولون مقـــارنة نص بونغارس بالأصل، وكـانت النتيجة اكتشـاف عدد كبير من الأخطاء مع إسقـاط عـــدد من الجمل، هذا وقـــامت طبعـة ١٨٩١ التـي تولاها لانغلويس على نسخـــة أخـذت عن مخطوطـة الفـاتيكان، تولى كـولون نسخها، وهذه تحتـوي على عدد غير هام من التصحيفـات، وجرى على الأقل إسقاط كلمة واحدة من النص، والأهم والمتعب والمحير للمترجم هو المزج بين حـــرفي«S » و«F »، ويغير هذا في بعض الحالات المعنى كلياً ومـادياً، وأقسى ما جـرى توجيهه من نقد إلى طبعـة لانغلويس هو حـذفـه المتعمـد لجزء من الوثيقـة القصيرة لعـام ١٣٠٨ التي وردت في المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، الموجودة في المكتبـة الوطنية، وكان قد نشر هذه الوثيقـة بمثـابة ملحق لكتاب الاسترداد، وهناك فقـرة ناقصـة موجودة في الطبعة التي تولاها بالوز Baluze وأودعها في كتابه Vitea Puparum Avenionensium (جــزآن باريـس ١٦٩٣) جـــ٢ ص ١٩٥، وقـد تولى لانغلويس نقلهـا، وكـان بالوز مسـؤول بدوره عن إلغـاء ثلاثة فقـرات مـوجـودة في المخطوط، وهي التي تحتـوي على حكايات تآمـرية ضد بونيفيس الثـامن، وعندما أخـرج مولات Mollat طبعتـه الجديدة من بالوز(٤ — أجزاء، باريس ١٩١٤ — ١٩٢٧) عـاد إلى المخطوطة اللاتينيـة رقـم ١٠٩١٩، حيث وجـد الفقـرات الناقصـة،

فأعـاد إدخالهن إلى نصـه المطبوع(جـ ٣ ص ١٥٤ — ١٦٢)، ولابد أن لانغلويس كان يعـرف المخطوطة اللاتينية ١٠٩١٩، لأنه نقل منهـا عدة مرات، ولعله حـذف ما حذف بسبب ما تذوقـه ورآه مناسباً، غير أنه لم يقم بالاشارة إلى أن نصه ناقص.

وباستثناء هذه العيوب، تعدّ طبعة لانغلويس طبعـة رائعة، فبدونها ما كان بالامكان إخراج الترجمة الحالية، وقد تم تبني حواشيه بشكل كامل تقريبـاً مع شيء طفيف من التعديلات للتحـديث فقط، وأمد لانغلويس طبعتـه وزاد عليهـا نقـولاً كثيرة مـن كتب دوبوا الأخـرى، ولاسيما من كتـاب Summaria الذي لم يكن محققـاً بعـد، وقـــد تضمنت الترجمة الحالية هذا كله،مع إضافات كان لانغلـويس قد أهملها لتوضيح المعاني، وقد التزمت الترجمة بالنص المخطوط، ولم تبتعد عنه.

وكـان بونغـاريس عندمـا حقق الاسترداد قسمـه إلى فصـول، وكـان الناسخ قبله قـد اعتمـد وسيلة أكثر إحكـاماً، بوضع إشـارات لبـدايات الفقـــرات، وقـد حـــافظ لانغلويس عليهـــا عن طريـق الترقيم، مع أن الوسيلتين لاعلاقة مباشرة لهما بالأصل، ولا بترتيب موضوعات النص، وقـد حـافظنا في هذه الترجمة على نظام الترقيم من أجل الاحـالات على الطبعـات التي تقـدمـت على طبعـة لانغلويس لسنة ١٨٩١، وأشير إلى أرقام فصول بونغاريس بالأرقام العربية بين حاصرتين، أما أرقام فصول لانغلويس فأشير إليها بالأرقام الهندية.

استرداد الأرض المقدسة

استرداد الارض المقدسة
القسم الأول

إلى أدوارد الأمير المسيحي الأعظم، والأكثر تألقاً، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا واسكوتلندا، وسيد ايرلندا، ودوق أكوتين، والمشهور أكثر لقدراته العسكرية منه في ألقابه الأخرى كلها، يرسل إليه المحامي عن قضاياه اللاهوتية في تلك الدوقية، بتحياته، باسم الذي من خلاله يحكم جميع الملوك والأمراء، وهو منذ زمن طويل متشوق لخدمة جلالتكم الملكية، ويدفعه نحو ذلك تقدير طبيعي أصيل، واعجاب بفضائل جلالتكم، وليس بدافع مادي، لأنه ليس هناك من طلب أو عرض، وهو بإخلاص يأمل بأن يتمتع جلالتكم بمزيد من الانتصارات.

١[1]: إنني أعرف بشكل جيد، أنكم كونكم ملكاً عالي التفكير، وممجدا ومشرعاً حقيقياً، ليس منذ بداية حكمكم، بل من اللحظة ذاتها التي بدأتم فيها حياتكم العسكرية، فأنتم منذ تلك الساعة تبذلون عظيم الجهد لصنع رجال جيدين من بين جميع رعاياكم، ومن المقربين منكم، ومن المرتبطين بكم، ولقد أنجزتم هذا ليس عن طريق مجرد التهديد بالعقوبة، بل عن طريق إدامة تقديم الأعطيات الثمينة، والآن وقد انتهت جميع حروبكم بنجاح، بفضل من الرب ملك الملوك، الذي منه جميع المباركات تصدر، لم تبحثوا عن الراحة التي اعتاد بقية الأمراء على طلبها، بعد مثل هذا المجهود الذي بذلتموه، لابل بعد جهد حقيقي، وعمل لطيف، أنتم عوضاً عن ذلك تقومون بالتخطيط لتكريس طاقاتكم الرائعة من أجل استرداد الأرض المقدسة، وفي سبيل تحريرها من أيدي المسلمين، فعلى الرغم من تزايد السنوات، ومراغمة للميول الطبيعية لبني البشر، فإن رغبتكم هي بالحصول على المثلث الحقيقي للشجاعة، بالتصدي لجميع المخاطر التي تهدد بالموت الجسدي، لكن تقدم وعداً بحياة خالدة للنفس، ومع أنني أقل الناس تأهيلاً لتقديم النصيحة والمشورة، لقد تأصلت نصائحي في رحمة الرب المانحة

للحكمة، لأنه هو وفي نفســه جيد إلى درجـة أن جميع الأشياء الخيرة هي جــزء من طبيعتــه وجــوهره، وكل شيء في العــالم، بصرف النظر عن طبيعته، هو بدرجة مـا جيد تبعاً لدرجة المشـاركة في جوده الكلي، وهذا ليس رأى الكاثـوليك ومــوقفهم لوحــدهم، بل هـو مـوقـف كل من يستخـدم قليلاً من المنطق الفلسفي، وإنني مـدفـوع برغبات طبيعيـة— التي تبعاً للفلسفـة ينبغي ألا تكون عبثية— وبما أنني متعـاطف كلياً مع مطامحكم، وبعون من فضل الرب، الرب الذي لاحدود لحكمته سوف أتابع الآن لأضع باختصار، أمام واحد مجرب جداً وحكيم بفن الحرب، وهو جــلالتكـم الملكيــة بعض المقترحــات التـي بدت لي ضرورية، وموائمة، ومناسبة من أجل استراداد الأرض المقدسة، والحفاظ عليها.

٢[2] وبديهي أن هذا المشروع لايمكن أن يتحقق من دون مساندة صديقكم الأب المقـدس، الذي هو بفضل النعمة الربـانية الحبر الأعظم للكنيسة الرومـانية المقدسـة والمسكونية، ومن الضروري أيضـاً الحصول على موافقة مجمع عام لجميع الأمـراء الكاثوليك والأساقفة، الذي ينبغي أن يتولى إزالة جميع العوائق، وأن يقـدم كل مساعدة، وجميع الإعدادات الموائمة، لأن تلك البلاد، تبعاً لما صرح به الرب، أغنى من جميع البلدان الأخـرى، ومسكونة بكثـافـة من قبـل المسلمين الذين استـولوا عليهـا، وهؤلاء يمارسـون طريقـة شهوانيـة للحيـاة، تمكنهم حسبما يريدون من انجاب وتربية كل ما يستطيعونه من أطفال، إلى حد أن كثيراً من الممالك والمقـاطعات الواقعـة في شرق وغرب وجنوب الأرض المقـدسة لم تعـد كافية لتلبية حـاجاتهم، ولهذا تراهم يهاجرون من هذه البلاد وفق طرائق التتـار، وإذا حـدث الآن وتراجعـوا لسبـب مـا، من خـلال الخوف من واحد من الأمراء مثلكم شخصياً، يمكنهم بسرعة وبسهولة أن يتجمعوا على شكل حشد كبير من الناس من هذه الممالك المجاورة، ووقتها عندما يعلمون بأن قـواتكم على وشك العودة إلى الوطن، تجد هؤلاء المسلمين،

وهم أشد وأحـد من أي وقت كانوا، وهم في أعداد كبيرة جـداً، سوف يعــودون على الفـور، أي في لحظة مغــادرة قــواتكم، يحثهم على ذلك الشيـاطين الذين يفضلون السكنى في تلك البـلاد، ولسـوف يقتلون من تبقى، ويجعلون على الفــور من أنفسهم مـلاكــاً لتلك الأرض اللطيفـة وسـادة، وظهر هذا التفضيـل من قبل الشياطين من خـلال حقيقـة، أنه عندما أراد الرب شفاء رجل في تلك البلاد، كان مسكوناً بروح شريرة، فقـال لتلك الروح: «مـا هو اسمك»؟ وأجـابتـه الروح: «اسمي لجئون لأننا كثيرون»، وأضاف «لاتنفينا أيها المولى إلى أرض نائيـة، بل ابعث بنا إلى الخنازير لندخل فيها» حيث كـان هناك منها قطيع كبير جداً، وهكذا هـاجت الخنـازيـر، وانـدفع «القطيـع مـن على الجرف إلى البحـــــــر» [ـــمرقس٥/ ٢—١٣] ولهذا لايمكن الاستـيلاء على تلك الـبلاد، ولا الاحتفـاظ بها لدى الاستيلاء عليهـا، إلاّبوسـاطة أعداد كبيرة جـداً من الناس.

[3] وفي سبيل اقناع عدد كاف من الناس للارتحال إلى هناك، والبقاء في تلك الديار سيكون من الضروري ـجداً أن يعيش الأـمراء المسيحيين بوئام، وأن يتجنب أحـدهم الحرب مع الآخر، لأن الناس الذين ارتحلوا إذا مـا سمعـوا بأن أوطانهم قـد هـوجمت وتعـرضت للإفسـاد، سـوف يتخلون عن ميراث الرب للعـودة من أجل الدفـاع عن ممتلكاتهم، وقـد وقع هذا ـمراراً في الماضي، ولهذا بات من الضروري إـقـامة الـسلام بين جميع المسيحيين، أو على الأقل بين الذين يطيعـون الكنيسـة الرومـانيـة، ومن المتـوجب أن يتأسس هذا السـلام على قـاعـدة ثابتـة، حتى يتمكن المسيحيون من إقامة اتحاد مندمج بقوة ولايمكن شطره، لأن«كل مدينة منقسمة على ذاتها تخرب»، (متى ١٢ / ٢٥)، وذلـك حسبما قال الرب، وإذا مــا انقسمت يتعين علينا — بسبب هذا الانقســام بالذات — أن ندعم الدفاعات عن الأرض المقدسة، حسبما سيظهر ذلك فيما يلي، ولقد

رأينا الألمان والإسبان، مع أنهم مشهورين كمحاربين، قد توقفوا — بسبب الحروب المتواصلة بين ملوكهم— منذ زمن عن القدوم لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، كما أنهم لن يتمكنوا من فعل ذلك بالمستقبل، والحروب القائمة فيما بين الكاثوليك مؤسفة جداً، لأن عدداً كبيراً من الناس سوف يلاقون حتفهم في مثل هذه الحروب، وهؤلاء ستكون أوضاعهم في الحياة المقبلة غير مؤكدة.

ويطلب الذين غالباً ما لجأوا إلى الحرب، الشروع بحرب جديدة، لأنهم ينظرون إلى الحرب كمسألة عادة، أكثر من عدّها وسيلة من وسائل التحسين، ولا يسعون إلى السلام بعد الحروب، ولابوساطة الحروب، ولايضبطون أنفسهم ولايخافون من تجديد الحروب، وبذلك تراهم وقد أخفقوا بالأخذ بما قاله الفيلسوف أستاذ الملك الاسكندر:«جميع الحروب شريرة في نفسها، وهي غير شرعية، إلى حد أن الذي يطلب الحرب من أجل الحرب، يكون قد وصل إلى الحد الأقصى من الشرور»، وعلى كل حال عندما يكون من غير الممكن ضمان السلام، إلاّبوسيلة الحرب، ـفوقتها مسموح للرجال الصالحين طلب الحرب، لابل مسموح لهم التحريض على الحرب، من أجل أن يحصل الناس على الطمأنينة في سبيل تحصيل الفضائل والمعارف بعد انتهاء الحرب، وبعد إقامة سلام دائم، وإلا فإن جميع الحروب— باستثناء هذا الهدف وحده— هي غير شرعية وهذا ما يقول به أيضاً أساتذة القانون المدني.

ومع أن آباءهم وأجدادهم تورطوا في حروب غير شرعية، نرى أن الأبناء الأحياء، وأرامل الموتى، مهما كانت الوعود التي وعدوا بها، يبدأون فوراً بالاستعدادات لحرب انتقام، وقد وقعت هذه الأحداث بسبب أن صانع الخلافات بوسائل الإغواء لديه، والاقناع، والخداع اللامحدود، والغش، قد بذل جهوده لزيادة عدد المدانين الآثمين معه،

وليثبط جهود استرداد الأرض المقدسة وإعاقتها، ولهذا إنه غير راغب بالسماح للقوى الكاثوليكية بالاتحاد، بسبب ماقاله الفيلسوف: «كل قوة متحدة أقوى من القوة نفسها متفرقة أو ممزقة».

هذا وإن الملائكة الأشرار، حسبما شهدت بذلك الكتابات المقدسة، حكماء جداً إلى درجة ربما معرفة الحوادث المستقبلية، لأنهم استوعبوا المعارف ودرسوا النجوم منذ بداية الدنيا، وهم على دراية بأسباب جميع الأشياء، والنتائج الناجمة عن هذه الأسباب، وهم يتذكرون كل شيء، ولاينسون شيئاً، وهم يرون أن الأسباب الفاعلة الآن ربما تنتج بعض النتائج المحددة، وبما أنه كما قال سليمان: «ليس تحت الشمس جديد» [الجامعة: ١/ ١٠]، يمكنهم الحكم والتقدير ورؤية الأحداث المستقبلية، بالتذكر بأذهانهم النتائج التي نتجت في مناسبة مضت عن أسباب مشابهة، ويمكنهم القيام بهذا بدقة أعظم مما يستطيعه الشيوخ الذين تقدمت بهم السن، لأنه صحيح أن الشيوخ يمكن أن يكونوا رأوا وجربوا كثيراً، إن معارفهم وتجاربهم هي لاشيء عندما تقارن مع معرفة الأسباب والخبرة الطويلة المتوفرة لدى الأرواح الشريرة، التي تعرف كل الأسباب والمحصلات منذ بداية الخليقة، حتى خبرة شارلمان، الذي يقال بأنه حكم مدة مائة سنة وعشرين سنة هي لاشيء عندما تقارن بخبرتهم، وقال حول هذا الموضوع الفيلسوف في الكتاب الثالث من سفر «الموضوعات»: «ما من أحد يختار الشباب قادة» لاسيما في الحرب «لأنهم يعدّون بلا تجربة، وأعطى في الكتاب السادس من سفر «الأخلاق» سبب هذا عندما قال: «نحن نرى كثيراً من الشباب المتبحرين بمعارف ما جاء بالكتب، لكنهم يفتقرون إلى حسن المحاكمة والقرار الصحيح في القضايا التجريبية، لأن استخلاص معرفة ما حدث في هذا العالم، يمكن الحصول عليها فقط من خلال التجربة الفعلية».

ويحتاج الحصول على الخبرة إلى وقت طويل، ومعروف أن الشباب قد

عاشوا حقبة قصيرة من الوقت، ورأوا من الأشياء القليل، وحصلوا من الخبرة على الأقل، ولهذا السبب مـا من واحـد صاحب عقل صحيح يمكن أن يختارهم قادة في الحرب، وينبغي أن يكون قادة الحرب أهل السن من الرجال وأهل الخبرة، وأن يكونوا استراتيجيين وذوي رأي في الحرب، وبالنسبة للشباب، فإنهم ينبغي أن ينفذوا أعمال الشجاعة تحت قيادة وتوجيه الأسن منهم، ومع هذا إنه إذا ما توفر رجل حسن، يمكنه بسبب طول تجربته، وذاكرته الجيدة أن يكون أفضل قدرة من رجل شـاب، لأن يحكم على المستقبل، ويتوقع ما سيكون به، لابد من أن نفترض بعقلانية أكبر، أن ملائكة الشرّ، يمكنهم الحديث عما سيكون في المستقبل بتأكيد أعظم مما يمكن أن يفعله أكثر الرجال شيخوخة وتقدماً بالسن، ومن الواضح في ضوء هذه الحقيقة، أنه يمكن لملائكة الشر أن يقوموا عن طريق الاقناع، والاغراء، وبشكل خاص عن طريق المشورة الشريرة، بإعاقة جهود حتى عقلاء الرجال، وذلك إلى الدرجة التي يكونون فيها ذوي فائدة للآخرين الماهرين في الفنون المحظورة، من الذين يستشيرونهم عندما يرغبون.

ومثل هؤلاء الأشخاص كثـرة كثيرة بين المسلمين، لأن شرائعهم لاتمنع مثل هذه الممارسات، بل تؤيدها وتوافق عليها، ويدفع هؤلاء الملائكة الأشرار، مع التحركات في السموات وتأثير النجوم الناس بشدة لاقتراف الآثام، والرجس، والتخويف، والمحظورات، وأعمال أخرى يمكن أن ينجم عنها حظوظ خيرة أو شريرة، ولحسن الحظ أن هذه القوى لاتستطيع أن تكبح إرادة الانسان، ولا أن تعطل حكم العقل المنطقي، ويمكن من خلال ممارسة الإرادة لدى الانسان مقاومة الاغراءات، والميول الشريرة،بتثبيت التوجه والاهتمام نحو الخالق، ونحو قيم الخير لديه، والإغراء الأعظم، والقوة الأكثر دفعاً نحو التحرك والمتملكة للتأثير هي قوة السموات، والرب في السموات يحتفظ بأعظم

الجوائز لمن يقاوم حباً بالشرف والاستقامة، وهو يمنح المزيد من الفضائل من أجل هذه المقاومة، وقد شهد الفيلسوف— أرسطو— لصالح هذا التوجه في الكتاب الأول من كتاب «القيم» بقوله:«قال هرقل مصيباً بأن الفضيلة تتقد دوماً في وجه المصاعب الكبرى، ونحن لانستحق لا المدح، ولا النقد، ولا المكافأة من أجل مواهبنا الطبيعية».

٣[4] ومن أجل استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها ضد مثل هذه الاعداد الهائلة، الذين اتخذوا الشياطين مستشارين لهم، يصفقون لهم استحسانا ويشاركونهم، سوف تكون الصلوات المخلصة جداً للكنيسة المسكونية، ولسوف تتم معالجة هذه القضية فيما بعد، ويتوقف الصالح العام للمؤمنين المسيحيين الذين يدينون بالولاء للكنيسة الرومانية على اتحادهم معاً بروابط للسلام، وبالاتحاد، وهكذا يتوجب على جميع الكاثوليك الامتناع عن إثارة الحرب، أحدهم ضد الآخر، وإذا ما لجأ بعدها أي انسان إلى الحرب، متحدياً هذه الوحدة، فإن ذلك العمل بالذات سوف يوجه نحو استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها، ومن الممكن عرض هذا وتنفيذه وفق الطريقة التالية.

عندما يعطي الحماس من أجل تحرير الأرض المقدسة ثماره في عقد مجمع كنسي، يمكن وقتها لجلالته الملكية الواسعة الخبرة الطلب من خلال السيد البابا، أن يتبنى الأمراء والأساقفة [المجتمعين هنا] نظام ما، يمكن بموجبه تأمين عدالة تامة، وفقاً للشرائع المحلية والعادات، ومنحها على الفور دونما تأخير إلى جميع من ادعى لحاق ضرر به أو أذى، ومن المتوجب ممارسة أعمال العدالة من قبل قضاة محليين قد جرى تعيينهم، أما في الأماكن التي لم يتم تعيينهم بعد، فيتوجب اختيارهم وفقاً للطريقة التي سيجري شرحها فيما بعد، فينبغي أن لايندفع كاثوليكي إلى حمل السلاح ضد كاثوليكي آخر، ولايجوز لأحد أن يسفك دماً معمداً، وإذا مارغب أي انسان في شن حرب، ليكن غيوراً

متحمساً في شن الحرب ضد أعداء الإيمان الكاثوليكي، وضد أعداء الأرض المقدسة، وجميع الأماكن التي قدسها الرب، ولابد من عدم تمكينه من امتلاك الفرصة بتسبيب الموت الجسدي أو الروحي لأخوانه بالإيمان بإثارة الحرب ضدهم.

٤— وكل جماعة تقوم مراغمة لهذا التنظيم الشامل فتغامر بشن حرب ضد أخوانها الكاثوليك، سوف يطبق بحقها عقوبة حرمانها من ممتلكاتها، وينبغي إنزال هذه العقوبة بجميع الذين قدموا العون لها، سواء أكان هذا العون بالقتال الفعلي، أو بإمدادها بالعتاد والمؤن، والسلاح أو الذخائر الأخرى أو بضروريات الحياة، وعندما تنتهي الحرب، من المتوجب نفي جميع الذين بقيوا أحياء بصرف النظر عن السن، والجنس، أو الوضع، وينبغي أن يكون النفي دائميا من البلاد ومن الممتلكات، كما ينبغي تجريدهم من ممتلكاتهم هم وأولادهم والذين يمكن أن ينحدروا منهم، ويجري ارسالهم للسكنى في الأرض المقدسة، وفيما يتعلق بالممتلكات التي انتزعت منهم، ومنها حرموا، إنهم إذا ما قاموا عن طواعية بتنفيذ أمر المغادرة إلى الأرض المقدسة، يمكنهم الاعتماد على هذه الأملاك لتأمين النفقات الضرورية للرحلة.

وعلى السيد البابا معاقبة الذين يشنون الحرب مع الذين نعلم أنهم قدموا بأية طريقة من الطرق العون أو الدعم لمثيري الحروب، أو تعاملوا بتزويدهم بأية نوع من التجهيزات أو المؤن، أو الماء أو النار، أو أي نوع من أنواع ضروريات الحياة، ويتوجب عليه عدم حرمانهم كنسياً، أو تجريمهم لاهوتيا، بل ينبغي تجنب تعريض خلاص أرواحهم إلى المخاطر، خشية أن يزداد عدد المدانين، وسوف يكون أفضل بكثير إنزال عقوبة مؤقتة بهم من العقوبة الدائمة، والعقوبة المؤقتة، مع أنها ألطف بكثير من العقوبة الدائمة، سوف تكون مخشية أكثر، وسوف تكون أكثر نفعاً إلى الأرض المقدسة، وسوف تكون أقل ضرراً بالنسبة

لأقرباء المجرم وذوي الارتباط به.

٥[5]: ويتعلق السؤال الآخر الذي يواجهنا هو: هل يمكن بسهولة إخضاع مثيري الحروب وهل سيكون من المفيد نفيهم إلى الأرض المقدسة؟، ودعونا نفترض أن دوق— أوكونت— بيرغندي شن حرباً على ملك فرنسا، الذي هو مولاه، فإن الملك، الذي لايعترف بسيد له على وجه الأرض، سوف يتخذ على الفور خطوات لمنع أي انسان من جلب أي شيء إلى أراضيهما من المؤن، والسلاح والتجارات، أو أي حاجيات أخرى، حتى ولو كانت مستحقة لهما لسبب من الأسباب، وبموافقة المجلس، الذي سوف يتألف من أمراء ورجال لاهوت، سوف يجري تطبيق هذا الحرمان ليشمل جميع الكاثوليك، تحت التهديد بالعقوبة المماثلة، ولسوف يطلب الملك مصادرة جميع أراضي المجرمين وممتلكاتهم وذلك من أجل استخداماته الخاصة، ولهذا عليه القدوم عندما يكون الموسم جاهزاً للحصاد، أو أبكر، وأن تكون معه قوة عظيمة من أتباعه ومن المناطق المجاورة، حتى يمكنهم حمل المحصول كله، وكل مالايمكن حمله أو استخدامه المباشر في المناطق المجاورة ينبغي تدميره، وكل ما يمكن حمله وحفظه ينبغي تكريسه من أجل إمداد الحصون العائدة للجيران المخلصين للملك والذين عانوا من خسائر في الحرب، وبهذا سوف يكونوا قادرين في المستقبل على الحفاظ على أنفسهم، وهم بحالة الاستنفار للحيلولة دون فرار صانعي الحرب، وخشية قيامهم بتدمير المناطق المجاورة، ومن المتوجب تجنب حصار الحصون التي هي بالعادة محمية، وذات وضع دفاعي جيد، في بلاد العدو، وإذا ما تحصن المجرمون في داخل قلاعهم، الأمر المحتمل كثيراً، ولم يغامروا بالتورط في معركة مكشوفة، فمن الممكن العيش بجميع أريافهم من قبل الجيش وحشود الناس الذين معه من غير المقاتلين، ويمكن للجيش كله مع أتباعه العيش من الأسلاب، وكل ما لايمكنهم

حمله ينبغـي تدميره، وبذلك لـن يبقى شيئاً لـدعم الحيــاة، وإذا لم يقم المجرمون بمقاوـمة فعالة، بل تحصنوا داخل قلاعهم، خلف أسوارها في الجبـال أو في المستنقعات، على الانسـان عـدم طلب إماتتهم خشيـة أن تذهب أرواحهـم، وتنزل إلى الجحيم لتبقى إلى الأبـد، ولســوف يبرهن التجويع أنه عقـوبة أعظم فعالية، لأنه سـوف يؤثر ليس بالمعتدين فقط، بل بكل انســان مـن العظيم إلى الصغير، وكل واحــد ســوف يشعــر بالعقوبة، فهكذا أمر الرب وقضى من خلال النبي بإنزال العقوبة بالملك أجـاج وجميع رعيتـه من أول رجـل فيهم إلى آخـر رجل، كما أن الملك شـاول الذي رقي بأمـر من الـرب ودهن ليحكم على بني اسرائيل، قـد حرم من مملكته، لأنه بعدما منحه الرب النصر، احتفظ بحيوانات الملك أجـاج الضخمـة والسمينة من أجـل القيـام بتضحيتهم للرب، وجـرى استـدعاء داود، الذي كـان يتـولى حفظ أغنام أبيـه، ودهن ليكون ملكاً عوضاً عنه، وبهذه الصورة تمت عقوبة الملك شاول لعدم طاعته، وجرى إخبـاره من قبل النبي الذي حمل العقـوبة إليـه: «لأن الطاعـة أفضل من الأضحية» (الملوك ١/ ١٥/ ٢٢. صموئيل ١/ ١٥/ ٢٢).

٦: وعـاقب بالطريقـة نفسهـا الرب القـدير أبناء إسرائيل، لإقترافهم الذنب العظيم بخيــانتهم ربنا يســوع المسيح، وقتله، فأنزل بهم مجاعــة كانت من القسـوة بمكان أنها دفعت بالأمهات لشـوي أولادهم الصغار وأكلهم، فهذا مـا حكاه يوسفيوس في كتـابه عن التاريخ القـديم، حيث تحدث عن دمار القدس.

٧: وينبغي إعطاء غفــران كـــامل من قبـل المجلس الكنسي إلى جميع الذين ـساـعدوا على تنفـيذ مشروع عـقوبة مثيري الحروب ونفيهم إلى الأرض المقـدسـة، وينبغـي تأكيـد هذا الغفـران من قبـل الذين سـوف يتـعاقبون على شغل منصب الحبر الأعظم للكاثوليك، وينبغي أن يـتولى دومـا الذين أرسلـوا إلى الأرض المقـدسـة، عن طريق العقــوبة، قيـادة

الحمـلات على الاراضي المعادية، وبذلك يمكن أن يخدمـوا بمثابة سـور للدفاع بالنسبـة للآخرين، بما أنهم رحبـوا متطوعين بإثارة الحرب وشنها بناء على إثارة من الشيطان، ويـتوجب إجبارهم ـمرغمين على القتال في المقـدمة من أجل قتـال عباد الاوثـان، وأعداء السـلام، والوقوف ضـد الذين أنفسهـم حرضوهم من قبل على الحرب.

٨: ومن الممكن كثيراً أن التهــديد بعقـوبة التجـويـع والنفي الدائم، سوف تكون بنعمـة الرب مخيفة جـداً، إلى حد يجعل التماسـات زوجات أمراء الحرب وأولادهم الصغـار، وآبائهم المسنين وأجدادهم، وكـذلك رهـبانهم، وأـساقفتهم، ورـجال الـدين الآـخرين، تنجح بالسيطرة على أمـراء الحرب هؤلاء العنيـدين والمتهــورين، وتؤثر على الحماس الضـال لشبابهم، وفي ظل التهـديد بمثل هذه العقوبة مـا من أحد سوف يغـامر بشن الأعمال العدوانية.

٩[6]: وإذا ما صار الكاثوليك بحـالة سلام بين بعضهم بعضاً، فإن المقـاتلين سوف يتـدفقـون من كل اتجاه نحـو الأرض المقدسـة، مع كل الاحتمالات بتمكنهم من استردادها والدفاع عنها.

١٠— ومضت جمهوريات: جنوى، والبندقية، وبيزا، من دون عقوبة من أجل خصومـاتهم التي لم تتوقف، وحـروبهم البحرية، التي غالبـا ما أعـاقت في الماضي استرداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، ولسـوف تحافظ هذه الجمهوريات، ومثلها ستفعل كومونتا لومبارديا، وتوسكانيا، والمقاطعات الأخرى، على سلام دائم، كل قوة مع القوة الأخرى، إذا ما تـقرر إمكانية قـيام أي واـحد من جيرانهم بتقديم شكوى ـضدهم على هذه الشاكلة.

١١— وإذا مــا رغب الحكام في إيقــاف النزاعــات بين هذه المدن، وإنزال العقوبة بهم، يمكن لأي واـحد من هؤلاء الحكام أن يستولى على

بضـائعهم وأموالهم الموجـودة في مملكتـه والاحتفـاظ بها لنفسه،وإذا مـا أخفق إثرها بشن الحرب عليهم فوراً، ينبغي استخدام أملاكهم المصادرة وكل ما يمكن العثور عليه من بضائعهم، على الفور من أجل تمويل، أو ميزانية تتعلق بالأرض المقدسة.

وينبغي على الكرسي الرسـولي والأمـراء الذين تفجـرت في أراضيهم مثل هذه الحروب، ارغـام الذين لديهم بضائع وأمـوال عائـدة لمجرمين، على التجاوب مع هذه الاجـراءات والأخذ بها، في ظل التهـديد بعقوبة مصـادرة ممتلكاتهم، وتحويلها إلى التمـويل أو الميـزانيـة نفسها، وإذا مـا تبرهن أن هؤلاء الأمراء كـانوا مهملين في تنفيذ واجباتهم، بعدمـا جرى إبلاغهم من قبل المتولين لإدارة التمـويل المذكور، يتوجب أن يتعـرضوا لحرمان مماثل، ولمـصادرة جميع ممتلـكاتهم، التي سوف يتم تحويلـها إلى التمويل نفسه.

١٢[7]: لكن مــاذا عن هـذه المدن وعـدد كبير مـن الأمـــراء الذين لايعترفـون بوجـود سلطة عليـا على الارض فـوقهـم، تمتلك السلطة لتحكمهم تبعاً للشرائـع المحليـة والعـادات؟ وعندمـا ينخـرط هؤلاء الأمراء وهـذه المدن في الخلافات والصراعات، إلى مـن سوف يقـدمون شكاويهم ويلتمسـون الإجراءات القضـائية؟ ويمكن للانسـان أن يجيب بأن المجمع ينبغي أن يقـرر اختيـار محكمين: رجـال دين أو آخـرين، يكونوا رجالاً حكماء ومجربين، وأهلاً للثقة، وبعدما يقسم هؤلاء الأيمان يتـولون اختيار ثلاثة من الأسـاقفة للعمل بمثـابة قضاة، وثلاثة آخـرين لكل جـانب من أجل المناقشـات، وينبغي أن يكونـوا رجـالاً أقـوياء متماسكين، لهم أخـلاق مستبعـد إفسـادهـا بالحب، أو بالكراهيـة، أو بالخوف، أو بالجشع، أو بأي وسيلة أخرى، ويـتوجب اجتماعهم في مكان مناسـب لهذا الغـرض، وأن يؤخـذ عليهـم العهـد بأيمان محددة صارمـة، وينبغي أن تقدم إليهم مختلف مطالب الشـاكي والدفاع بشكل

مختصر وبسيط، وأن يتم ذلك قبل اجتماعهم، وبعد رفضهم أولاً لما ليس له عـلاقـة بالقضية ومقحم فيها، عليهم تلقي الشهـادات والوثائق والبينات، وتفحصها بدقة متناهية وبـوعي كـامل، وينبغي فحص أي شـاهد والاستماع إليه بحضـور مـالايقل عن اثنين من الرجـال العلماء الذين هم مـوضع ثقـة عن طريق القسم حسبما بينا من قبل، ويتـوجب عرض الشكاوى كتـابة، وعلى القضاة الاحتراز وفحصها وصيـانتها من التزييف، ومنع أي غش من الدخول إليها أو تزوير.

وينبغي أن تكون نفقات اجتماع القضـاة معتدلة، ويتـوجب أن يؤخذ بالحسبان أن لاتتجاوز هذه النفقـات القضائية أكثر مما قـد ينفقه القضاة لو أنهم مكثـوا في البيت، وإذا مـا كـان مـرغـوبـاً يمكنهم الاستعـانة بمـقومين في إعلان الحكم، على أن يكونوا رجـالاً معروف أنهم ثـقة إلى أبعد الحدود، مع معرفة جيدة باللاهوت، وبالقانون، وبالشريعة المدنية.

وإذا كان واحـداً من الطرفين غير قانع بالحكم، يتـوجب على القضاة الذين بـتوا في تلك القضـية، إرسال سجل بالاجراءات إلى الكرسي الرسـولي، مع قـراراتهم، لتعـديلهـا وتغييرها من قبل البـابا الذي هو بالسلطة، إذا ما كانت تلك التعديلات عادلة، وإذا كانت الأحكام كما هي عـادلة، ولم يحدث أي تغيير، سـوف يتم تثبيـت الحكم بشكل لائق من أجل السجل الدائم للقضيـة، ومن ثم تدخل إلى سجلات الكنيسـة الرومانية المقدسة.

١٣[8]: ويوفر تغيير الحكـام بالامبراطورية، بالعادة، فـرصاً لاتحصى من أجل الصراع في ألمانيا من خلال أعمال التدخل في إجراءات انتخاب الامبراطور، وبسبب الفـوضى التي رافقت هذه الحالة في الماضي، غالبـاً ما أعـاقت استرداد الأرض المقدسة والحفـاظ عليها؛ ولعل توفـر سلام دائم في الامبراطورية الرومانية المقـدسة سوف يسهم كثيراً في بلورة هذا الهدف، وذلك إذا مـا أخـذنا بعين التقـدير الأعمال الجيـدة التي أتيح

للملوك الألمان القيـام بها، والتي من الممكن لهم انقيام بها أثنـاء حيـاة الناس الأحيـاء، لو أنهم ورثوا المملكـة والمجـد الامبراطـوري بدون صراع، بما في ذلك قوة جبـارة، وخزائن مليئة مخبئة لهم ومخزونة من قبل آبائهم، ووقتهـا لن يكون هناك شغـور بالعـرش، ولا انقطاع بالحكم أو توقف، وإذا مـا أخـذنا أيضـاً بعين التقدير الأعمال الجيـدة التي قـام بها الأباطرة، كما قيل في الأيام الخوالي، قبل ظهـور هذه المعيقـات الحديثـة، وذلك من أجل إيقـاف الحروب المؤذية للجسد وللروح، وهي حـروب قـامت من خـلال الطمـوح للحصـول على الملك وعلى المجـد الامبراطوري، هذا وإنه بتجنب الخسائر الثقيلة المعتادة، يمكن أن يأتي من المملكة ومن الامبراطورية عون كبير جداً من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن أجل كثير من المنافع الدنيوية الكثيرة، التي كـان من الممكن لنا الحصـول عليهـا منـذ زمن بعيـد، من تلك البـلاد، فضلاً عن هذا كله، ينبغي عدم زوال ازدهار وتقدم الصالح العام لتلك المملكة، ولإمبراطورية ذلك الشعـب النبيل، وينبغي اتخاذ خطوات لمنح مملكة ألمانيا وامبراطوريتها بشكل دائم إلى ملك جديد، وللازدهار الذي سـوف يرافقـه، فهـو قـد يقـدم بعض التنازلات الطفيفـة حـول مسألة الممتلكات والامتيـازات والإعفـاءات العـائـدة لـلامبراطورية من أجل تجنب الخلافـات، ولإسكات الناخبين واشبـاع رغبـاتهم، زد على هذا يتـوجب على الملك الجديد، الذي سـوف يكون الامبراطور أن يشترط على نفسـه، وأن يعـد بتقـديم دعم سنوي من أجل مصـالح الأرض المقدسـة ومنافعها، مادامت هي بحاجـة إلى ذلك، وينبغي أن يأخذ هذا الدعم شكل قوة عسكرية كبيرة، يتوجب أن تكون على حسابه الخاص، وأن ترسل إلى الموانىء البحرية مسلحـة تماما ومجهزة، مع أغطيـة مناسبة لمثل هذه الحملة، وموائمة لإقامتها في الأرض المقدسة.

١٤[9] : وأن يقـوم الامبراطور والأمـراء الآخـرين بتأمين الأعتـده

والسفن من أجل ارسال عساكرهم عبر البحر، سيكون ذلك مكلفاً جداً، وبناء عليه إنه من الأفضل تأمين ذلك إلى المحاربين بشكل إفرادي، متى جاءوا، ويبدو أن هذا الهدف من الممكن الوصول إليه بسهولة وفق الطريقة التالية، وهي طريقة عرضة للتغيير والتصحيح من قبل السلطات المسؤولة:

يمتلك الداوية والاسبتارية والتنظيمات الأخرى التي تأسست من أجل مساعدة الأرض المقدسة، موارد كثيرة، وبضائع، وممتلكات على هذا الطرف من البحر المتوسط، الذي كان ذا فائدة قليلة حتى الآن للأرض المقدسة.

وكانت هذه التنظيمات في أوقات الحاجة القصوى منقسمة بين بعضها بعضاً، ولهذا كانت معاقة ومعطلة وبيوتها عرضة للسخرية، ومن ثم إلى فضائح شنيعة، ومن هنا إذا كان في وجود هذه التنظيمات أية فوائد للأرض المقدسة، إنه لمن المرغوب فيه، ومما يُنصح به، دمجها في منظمة واحدة، بالنسبة للمظهر، والملبس، والرتب، والممتلكات، وذلك حسبما يراه المجمع المقدس مناسباً، وعليهم أيضاً البقاء في الأرض المقدسة، يعيشون على واردات ممتلكاتهم هناك وفي قبرص، إلى أن يتمكنوا من استرداد استملاك ممتلكاتهم بسلام، وممتلكات من هذا النوع تكون كافية لإحتياجاتهم، مع مؤن يمكن تزويدهم بها من مصدر ما آخر.

١٥: وينبغي أولاً أن توضع ممتلكاتهم الموجودة في كل مكان على هذا الجانب من البحر المتوسط، تحت الوصاية هي ومواردها، وذلك لمدة ثلاث سنوات أو أربع ، وأخيراً ، أو على الفور، ينبغي تحويل هذا إلى وقف، إذا أمكن الوصول إلى ترتيبات شروط مرضية، ويمكن بهذه الوسيلة تحصيل مالايقل عن ثمانمائة ألف ليرة تورية سنوياً من الداوية والاسبتارية.

وينبغي احصاء الأموال التي جرى جمعها منذ سقوط عكا، واضافتها إلى الأموال الأخرى، ومن الممكن استخدام هذه الأموال لشراء سفن، ومؤن وبقية الحاجيات الضرورية الأخرى إلى المحاربين الذين سيقومون بعبور البحر، ويمكن بهذه الطريقة ضمان عبور حر ومريح في المستقبل، وسيكون ذلك متوفراً لجميع الذين يرغبون بالعبور، حتى بالنسبة إلى أفقر الناس، ويمكن للسفن أن تجلب معها من الأرض المقدسة مايلزم من منتجاتها وماهو مطلوب هنا، وحمل منتجاتنا إلى هناك، ذلك أنه سيكون من السهل آنذاك شحن البضائع من بلد إلى بلد آخر، وحين نأخذ هذه الأمر بعين التقدير، سوف يندفع المسيحيون الذين يعيشون على هذا الطرف من البحر، أو في مكان آخر، بشكل طبيعي للتفكير للدفاع عن الأرض المقدسة، ولحماية سلامتها، ومن الممكن أن يحمل بهذه السفن من المناطق الخصبة في الجزر وعلى سواحل البحر المتوسط كثيراً من المؤن والحاجيات الأخرى، وبذلك لن يعاني من النقص بالمؤن أحد من المحاربين أو من الذين تمركزوا في كل مكان قرب البحر، وينبغي إلقاء أعضاء التنظيمات المتقدمة الذكر، الذين شعروا حتى الآن أنه من غير الموائم لهم عبور البحر والعيش هناك، في ديرة طائفة السسترشيان وفي ديرة الطوائف الأخرى المزدهرة، لقضاء العقوبة على تجاوزاتهم، وعليهم أن يعيشوا هناك مع الرهبان، ولسوف تتلقى هذه الطوائف قليلاً من المساعدات، من أجل الانفاق على هؤلاء الداوية وسواهم، ويستمر ذلك حتى يأتي الوقت الذي يمكن تحريرهم فيه من هذا العبء، أي عبء دعم أعضاء هذه التنظيمات العسكرية والانفاق عليهم.

ولسوف يكون الدخل السنوي من هذا المصدر كبيراً، وبوساطة ضخامته سوف يكون سوء المعتقد لدى الداوية والاسبتارية واضحاً، وسوف يغدو مرئياً كيف أنهم قاموا حتى الآن، من أجل هذا الدخل،

بخيانة الأرض المقدسة، وأخفقوا بالقيام بواجبهم نحوها، وعندما تصبح الأمور موائمة وواضحة فإن هذا الدخل السنوي سوف يتضاعف بشكل فعال بوساطة تبرعات المؤمنين، والممتلكات المصادرة العائدة إلى الذين أثاروا الحروب العدوانية، ومن مصادر أخرى كثيرة، ولسوف يجري توضيح هذا أكثر فيما يلي:

١٦[10]: لقد كانت الأرض المقدسة حتى الآن سيئة التزويد بالمؤن بسبب الصراع الكبير بين الشعوب، ولهذا فإن الأب المقدس، الذي قيل بأن هذه القضية هي شغله الشاغل، سوف يقوم بحث كل نائب له أن يرسل إلى هناك أكبر عدد من المقاتلين، وذلك بقدر ما تسمح له موارده، وسوف يجري تصنيف هؤلاء بوساطة زي موحد متميز بالنسبة للفرسان وكذلك بالنسبة للرجّالة، وأن يجري تزويد كل فئة برنك واحد مع الراية العائدة إلى الحاكم الذي أرسلهم، وسوف يتولى السيد البابا الاشراف على تنفيذ هذا الأمر، وأن يلتزم بتنفيذه الأمراء العلمانيين، وأن يتولوا القيادة شخصياً إذا كان يمكنهم هذا بدون صعوبة، وإلاّ على كل منهم تعيين شخص مناسب يتولى قيادة القوات عوضاً عنهم، وأن يكون مجهزاً برنوك الإمارة وشعاراتها وأعلامها، وبهذه الوسيلة سوف تتمكن جميع الشعوب المحلية لمملكة أي أمير من الأمراء، بصرف النظر عن وضع الذين أرسلوهم إلى هناك، من تشكيل جيش واحد، وإذا لم تكن أعدادهم كافية لذلك، يتوجب أن يضاف إليهم أناس من الأقرب إليهم، الذين يفهمون لغتهم، وتكون الزيادة بأعداد كافية لتشكيل جيش، وينبغي تشجيع الرجال من كل مرتبة، لابل حتى النساء من الأرامل وكذلك ا لمتزوجات على إرسال رجال مجهزين بما فيه الكفاية يرتدون الزي نفسه مع الشعارات والرنوك ذاتها، وعلى الوكلاء أن يبعثوا بفرقهم النظامية للموسيقى العسكرية، للقيام بالمرور بالمدن، وبالبلدات والطواف مع أصوات الأبواق، وأصوات بقية الآلات

الموسيقيـة والأغـاني، وأن تكون معهم الـرايات البراقـة، فـذلك سـوف يحرك مشاعر الناس ويشجعهم جميعاً، ويؤثر عليهم بقوة من أجل عبور البحر، أو ارسال آخرين بتجهيـزات موائمة، وسوف يزيد هذا التجييش أعداد االمحاربين إلى ما فوق حدود التصور.

١٧: وينبغي اقناع الأمراء والأعيان الآخرين الذين يشاركون بالحملة بأن يتعهـدوا، أنهم إذا مـاتركـوا جيـوشهم بسبب الموت أو المرض، أو العودة إلى الوطن، أو مهما كان المحرض والسبب، أن يتركوا هناك عدداً محدداً من العسـاكـر مع أسلحتهم ورنـوكهم وراياتهم، ومع نفقـة حتى تمكنهم من العيش بشكل منـاسب، ولسـوف تتلقى هذه النفقـة زيادات حتى تصبح كافية، وذلك من مصادر التمويل العائدة للأرض المقدسة.

١٨: وينبغي اقناع أي شخص متمكن وقـوي من كـلا الجنسين، أن يعد بالقيام، بعد ضمان سـلامة الطريق، بارسال— على الأقل— نفقات العدد الذي يمكنـه من العساكر، وذلـك في السنوات التالية، مـع أموال لمساعدتهم أكثر، ويتوجب نقل هـؤلاء العساكر مع زوجاتهم، عبر البحر حتى يقـوموا بسكنى الأرض المقـدسة، وأن يشحنوها بالناس على قـدر الحاجة للاستيلاء على تلك البلاد والاحتفاظ بها.

١٩: زيادة على هذا ينبغـي أن يبقى فـرسـان ذوي تجربة، وحكماء، ونشطاء، بحيث يحملـون رنوك بعض الأمـراء الكاثـوليك، وأن يكون معهم حملة للرايات.

٢٠: وينبغي أن يسمح لكل مملكـة كـاثوليكيـة، لابل بـالحقيقـة لكل منطقة واسعة أيضاً، باحتـلال إحدى المدن، أو القلاع، أو المواقع الهامة هناك، مع بعض المناطق المتاخمة، وأن يكون حجم المنطقة المحتلة متماشياً مع عـدد الأتبـاع الذين شـاركـوا في الحملة، وبذلك يتمكن القـادمـون الجدد، بعدمـا انهكتهم مصاعب الطرقـات، ومختلف أنواع أماكن النوم،

والنقص في أشـياء أخرى، يتمكنون وقتـها من نيل البهـجة والسرور في أمـاكـن وأجـواء معتـادين عليهـا، وذلك بعـد حـزنهم، ومتـاعبهم، وأساهم،ومن الواجب تغيير أسماء تلك الامـاكن، واختيار أسماء جديدة لها بمـوافقـة الأكثـرية تحمـل ذكـرى، أو الاشـارة إلى المملكة أو المدينة الرئيسية، التي جاء منها السكان الجدد، وسيمنح هذا كثيراً من الطمأنينة إلى المتأخرين بالوصـول، بعد معاناتهم من التعب والشـدائد، وسيتمكن الضعفـاء من الواصلين، وسط هـذه الراحـة وهذا السرور، من استرداد عـافيتهم بسرعـة أكبر، أمـا الأقـوياء الـذين ألم بهم الضعف الطارىء فسـوف يستردون نشـاطهم بسرعـة أكبر، وسـوف يستعيـدون قـواهم الطبيعيـة وحماستهم، وعندمـا يعودون مـن القتال مـرضى أو جـرحى، سـوف يشفون بسرعـة بمسـاعدة الأطبـاء والجرائحيين، الذين يتـولون العناية بهم بحرص وتيقظ، وبفضل الراحـة والمنافع والأسباب الأخرى التي تقدم لهم، ولاسيما إذا مـا كانوا بين أبناء بلدهم، فوقتها سيتعـافون بسرعـة أكبر، بسبب الآمـال التي يقـدمهـا لهم أبنـاء بلدهم مع الراحـة والعناية، ولسوف يعودون إلى القتال وهم أقوى، وأكثر شجاعة، وبدون خوف بفضل الراحة التي نالوها.

٢١[11] : وفي سبيل تجنب أي خرق للنظام الجيد، أو للحقوق المتبادلة، فيما يتعلق بالتخطيط للحمـلات، وفي تعيين الأماكن للاستقرار في الأرض المقـدسـة، ينبغي أن يتقـرر، أن الذين نفيـوا بسبب إثارة الحروب، أو بعثوا إلى هناك عقوبة لهم للقيـام بأعمال مشابهة، مشاركتهم في الحملة الأولى، أو الحملات، وسوف تكون أماكن استقرارهم بالحري ـقريبة من الأـعداء، وفيما يختص بالذين ـجاءوا من بـعدهم، فليعين إلى هؤلاء الحدود الجبهوية نفسها.

٢٢: وخشيـة من قيام خـلافـات ونزاعـات بين الأمم حول مسـائل اختيـار المدن الكبيرة، مثل القـدس وعكا ومن ثم احتـلالها، يبـدومن

المواثم، ومن المنطقي، أن يسمح لأناس من مختلف البلدان بالدخول إليهما، لابل أن يسكنوا فيهما إذا مارغبوا بذلك، وستكون الترتيبات نفسها معقولة في حالة المواقع الهامة الأخرى على شاطىء البحر، أو القريبة من البحر، حيث تكون قد تجمعت هناك مختلف التجارات من مختلف البلدان.

٢٣: وينبغي أن يكون لكل مدينة مع المنطقة المعينة لها، قائداً عسكرياً مع قادة مئات أدنى منه، وتحت إمرته، ويتوجب تقسيم كل مائة رجل أوكلت قيادتها إلى كل قائد مائة إلى ثمانية حضائر، يكون في كل حضيرة بالعادة اثني عشر رجلاً، وفقط قائد المائة سوف يكون معه في حضيرته خمسة عشر رجلاً، وبهذه الطريقة سيعرفون دوماً إذا ما كانوا يمتلكون قواهم الكاملة، وعلى كل واحد أن يحرس الآخر بعناية، ويدافع كل واحد عن الآخر حتى الموت.

٢٤: وينبغي بعد هذا أن يتقرر كم عدد المقاتلين الذي يمكن أن تقدمه كل مدينة للجيش، وعلى قائد كل مائة أن يتفقد الرجال الذين تحت إمرته، ويتأكد أنهم قد تدربوا على استخدام السلاح، الذي يتوجب عليهم استخدامه وفقاً للتوجيهات الصادرة عن القائد الحربي لمدينتهم.

٢٥: وقد روي بأن التتار الذين يشنون الحرب وفقاً للطرائق والعادات التي كانت في أيام الاسكندر، (تبعا لسيرة الاسكندر، اعتاد القادة الفرس في تلك الآونة على مركزة كل أسرة من الأسر تحت السلاح) لايستخدمون المال، ولايشترون المؤن، وإنما يأكلون من الأسلاب التي يحصلون عليها من الأعداء، وعلى الميرة والأطعمة التي جمعوها من قبل، وعلى ما ينتجه الأعداء، وهم لم يتولوا قط إلقاء الحصار على موقع حصين، وفي احدى المرات تجمعوا خلال خمسة أيام أو ستة واحتشدوا من كل اتجاه في الساعات الأولى من النهار، للقيام بهجوم بمختلف الطرق وفقاً لأساليبهم، وظلوا كذلك حتى المساء،

فـوقتهـا عـادوا إلى أكـــواخهم وإلى أزواجهم، وأولادهم، وإلى ذويهم، وليس مـن المفيـــد الإصرار على مثل هذه الطـرائق، حيث ينبغـي تنوع التكتيكات وفقاً للزمان والمكـان، والعدو، وعسـاكـرنا وبقية الحقـائق، وذلك حسبما مارس قادة الحرب لدينا ويمكن أن يقرروا.

٢٦ [12]: وفي العادة يعتري التعب العساكـرمع مطاياهم، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للرحلات البحرية، وذلك لـعدم توفر مراكب قادرة على نقل أعداد كبيرة ـجداً من الناس في وقت واحد، كما ولاـيوجد ميناء في أي مكان من الممكـن أن يصعــدوا منه على عــدد مـن السفن في وقت واحـد، كما لايمكنهم النزول من السفن إلى الميناء في وقت واحد أيضـاً، ومن الممكن في ظل هذه الظـروف، أن يكون من السهل تمزيق الأعـداد القليلة التـي وصلت في وقت واحـــد من قبل العـــدو الشرس، الذي تسـاعده مـلائكة الشر التي تعـادي هذه الحملة التي تسعي إلى الحد من قواهم، وفي سبيل تجـب مثل هذه المأساة، يبدو أنه من المفيد اتباع طريقة ذلك المقـاتل الجبـار، وأعني به شـارلمان، بجعل الجزء الأكبر من الجيش يأخذ الطريق براً، وذلك بعد الحصول على الأذن من باليولوغوس -Pa laeolagus[امبراطور بيـــــزنطة— أندرنيكـوس الثــــاني ١٢٨٢— ١٣٢٨] ومن الأمـراء الآخرين الذين سـوف يزحف الجيش من خـلال أراضيهم، وينبغي أن يطلب من ـهؤلاء الأـمراء إعطاء ـمدخل آمن إلى بلادهم، وممر فيها ومخرج منها، وكذلـك السماح للمسافرين الأفراد، مع تمكينهم من الحصــول على ضمان تأمين الميرة والمأوى بالسعــر العـادي المتـداول، الـذي يدفعـه السكان المحليـون، كما يتـوجـب على الأمـراء المحليين السماح بدون مقابل، مع تسريع أعمال، نقل المؤن من كل اتجاه، إلى الطرق المختارة من أجل العبـور، وذلك بوساطة تعليق بعض، لابل كل، الضرائب، ومع أن هـذا الطريق طويل أكثـر، فـإن عـدداً كبيراً من الناس سيقع اختيــارهم عليــه ممن لايتجــرأون على السير على الطرق

الأخرى، أو هم غير قادرين على فعل ذلك.

ولسوف يكون من المفضل كثيراً توجيه الضربات إلى العدو من كثير من النقاط بدلاً من نقطة واحدة، ويمكن للألمان، وللهنغار، وللاغريق، ولكل الذين يعيشون إلى الشمال منهم، السير على هذا الطريق نفسه المذكور أعلاه، ولقد قرأت في «تاريخ القدس» بأن الامبراطور فردريك بربروسا قد سار على هذا الطريق، وهو الذي غرق في واحد من أنهار أرمينيا، بينما كان يستحم بسبب الحر، وقد حدث هذا في أيام صلاح الدين ملك الآشوريين [كذا]، الذي هرب من أمام الامبراطور، وتخلى له عن كثير من البلدان والمواقع الحصينة.

ومن الممكن قبول كل انسان من ممالك انكلترا، وفرنسا، واسبانيا، ومن جميع الذين يعيشون على هذا الطرف من الجبال، للانتقال بحراً، وكذلك اللومبارد، والتوسكان، والأبوليين، والغلاطيين، والصقليين، وذلك مع الذين يقطنون الجزر الأخرى من ذلك البحر، ويمكن للذين يخافون من البحر اختيار الطريق الأطول على حسابهم وبجهودهم.

٢٧[13]: وبديهي إن التعاون من أجل مهمة استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، أمر هام جداً، ويقتضي الأمر كذلك أن تكون قوى جميع أعضاء الكومنولث الكاثوليكي متوائمة وموحدة، وسيكون من الضروري بالدرجة نفسها، السعي من خلال الأدعية التقوية للكنيسة العالمية نحو الحصول على المنافع الكبرى للسلام، وعلى الاسترداد، والوقاية من الرب الذي تتدفق منه البركات، وهو الرب والمولى للجيوش، وهو وحده سبب السلام والنصر، ولايمكن مطلقاً استرداد الأرض المقدسة، والاحتفاظ بها، إذا ما عدّ قادة الحرب والعساكر الذين تحت امرتهم، أن الاعتماد على قواهم الخاصة كافياً للحصول على نصر عظيم من هذا النوع، والحفاظ على ثماره بشكل دائم، فبهذه الوسائط لن يكونوا قادرين مطلقاً على مقاومة ملائكة

الشر، الذين يناضلون ضدهم، ولن يكونوا قادرين أيضاً على مقاومة إغراءاتهم وإغواءاتهم، لأنه من المعتقد أنهم سوف يتمكنون ببراعتهم من إعاقة المقترحات، المطروحة أعلاه، بقدر ما يستطيعون .

ولهذا السبب يبدو أنه من الموائم السعي من خلال المجمع احداث إصلاح وتغيير في أوضاع الكنيسة المسكونية، بحيث يمتنع الأساقفة، من الكبير إلى الصغير، عن ممارسة المحظورات، التي حرمها الآباء المقدسون، ويمكنهم بذلك الإصغاء إلى مثل، وشرائع، وآراء الآباء، والأخذ بها ومراعاتها تماشياً مع قول النبي: «حد عن الشر واصنع الخير. اطلب السلامة واسع وراءها»[المزامير: ٣٤/ ١٥]، ووقتها عندما يتملكون السلام في قلوبهم، فإن جميع الكهنة، مع رجال الدين قاطبة، والناس الواقعين في عهدتهم، سوف يقومون بشعور روحي واحد بتشكيل جسد سياسي واحد، ووقتها سوف تتحقق كلمة الرسول: «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة» [أعمال الرسل: ٤/ ٣٢]، أو حسب تعبير الفيلسوف: «جميع الفضائل متحدة أقوى منها متفرقة وموزعة»، ويمكنهم وقتها من خلال تقواهم، وتواضعهم، وصلواتهم المتواصلة الحصول على هبة النصر الدائم على الكفار، من الرب، الذي عندما سأله سليمان منحه الحكمة وحدها، أعطاه أيضاً الذهب والفضة وبقية الثروات الدنيوية بحيث تفوق على جميع الذين سكنوا في القدس قبله.

وكون هذا الإجراء أمراً ينصح به، يمكن استخراجه من حوادث حروب يهوذا المكابي ذلك المحارب الرائع مع أخوانه، فطوال الوقت الذي اعتمدوا فيه على قواهم الخاصة استمروا في الاخفاق في القتال،لكنهم حصلوا على النصر عندما طلبوه من السماء، والتمسوه من الحاكم الأعلى على جميع الجيوش، وهكذا تحقق ما قاله الرسول:«لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»(روما: ١٥ / ٤)، وعلى هذا

يتوجب علينا الافـادة من حكمة الكتابات المقـدسة، وليس من حكمتنا الخاصة، وذلك تماشياً مع نصيحة سليمان حيث قـال:«يابني على فهمك لاتعتمد»(الأمثال:٣ / ٥)، وعلى هذا تأسس القانون الذي قال:«لايجوز لأي إنسان أن يعتمد على فهمه».

[15]: ولهذا ينبغي أن نسعى في سبيل سـلام عالمي، وأن نلتمســه من الرب، وبذلك يمكننا بوساطة الـسلام، وفي حقب السلام الحصول على فضيلة كـاملة، ومعرفـة، لايمكن بوسيلة أخـرى الحصـول عليها، وقـد أدرك الرسول هذا عندما قال:«وسلام الرب الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركـم»(فيلبي ٤ / ٧)، أفكاركم التي هي نفــوس منحت عقـلاً، والتي هي بالعـادة تتـدمــر بالحروب، ولاتنال الحماية، وكـذلك بالفـوضى، وبالتشـاحن المتـواصل في المحـاكم، الذي بالسـوء مثله مثل الحرب، ولهذا ينبغي على كل إنســـان جيــد أن ينأى بنفســـه عن هذه الشروط بقدر الإمكان وأن يتجنبها، وعندمـا يضطر الانسان إلى اللجوء إلى هذه الوسائل، لأنه يكون غير قادر على انقـاذ حقوقه بوسيلة أخرى، ينبغي أن يختصرها بقـدر الامكان، وأن ينشـد السلام وتحصيـل حقوقـه بهذه الوسـائل، بقلب سماوي فقط، وهذا مـا بشر به الفيلسـوف عندمـا قال:«الحرب هي وفي نفسهـا خطأ فادح، وشر مستطير، وكل من يسعى وراء الحرب من أجـل الحرب، يكون قـــد وصل إلى أقصـى حـــالة الشرور»، ومثل هذا، لكن ليـس بالدرجـة نفسهـــا من التطرف، شرور الصراعات الأهلية، والاضطرابات.

٢٨ — والهدف الذي نسعى إليـه الآن، والذي هو غـايتنا الرئيسيـة، هو السلام الـعالمي، وحسبما قال الفيلسوف:«غاية كل عمل ـقائمة أولاً في مقصده، وأخيراً في تنفـيذه»، وعلينا أن نقوم أولاً بإزالة ـكل عائق في وجـه الســلام العـالمي، واحتمالات فـرص هذه العـوائـق، وبذلك نتبع الأسس التي عبر عنها الفيلسوف بقوله:«على كل من يؤيد توكيد هرقل

أن يتخلى ويتنازل عن كل شيء سيتخلى عنه هرقل ويتنازل لو أنه كان حاضراً»، أي عن كل سابقة ومحصلة للتوكيد، لأن التنازل، أو التخلي، عن أي شيء معارض للاقتراح الأول، سوف ينتهي بدحض مشين جداً.

٢٩[15] : يشغل الأسقف الأعلى(أي البابا) — مرآة الدنيا كلها — منصب بطرس المبارك أو كرسيه، وبطرس المبارك هو أمير الرسل، ونائب ربنا يسوع المسيح،المخلص والأب للأرواح كلها، وإذا ما أراد البابا أن ينقذ الأرواح كلها، ويحفظها ومن ثم إعادتها إلى أبي جميع الأرواح، عليه أن يسعى جاهداً إلى إز الة كل حرب من الحروب، وكل ثورة، وكل نزاع، وأن يعلن أن هذا ما ينبغي القيام به، كما يتوجب عليه أن يبدأ بنفسه وبأخوانه الكرادلة، والأساقفة، أي أن يقوم بامتثال ما قد كتب وينفذه وهو:«يسوع ابتدأ يفعله ويعلم به»، (الأعمال: ١ / ١)، وكما قال الرسول:«دعونا نعمل الخير لجميع الناس، بقدر ما نعمله لأنفسنا، ولاسيما للذين هم من أهلنا من أهل الايمان»، (غلاطية :٦ / ١٠، بتصرف)، وعليه أن يتفحص البطاركة، ورعاة الديرة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، وبقية الكهنة والذين يشغلون مناصب دوقيات، أو كونتيات، أو بارونيات، مع بقية ذوي المناصب الدنيوية، وأن يعرف كيف يعملون، وكيف ينخرطون في أعمال القتال، وكيف هم أنفسهم يثيرون الحروب، التي فيها كما نرى، يلاقي الكثيرون الموت بمشاعر دنيوية — حسبما يحكم الناس — وأيضاً بمشاعر دينية، وأن يرى كيف أن الأساقفة الذين يتورطون بالحرب، يكرسون وقتاً طويلاً للعناية بحروبهم، ويهتمون بها، أكثر من اهتمامهم بخلاص أرواحهم، وأن يرى كذلك كيف أنهم يبددون الكثير من الوقت والمال على هذا النوع من الأشياء، وبالتالي يخفقون في مراعاة ما كتب، حتى في القانون المدني، من أن الاهتمام بمصالح النفوس البشرية هو الأولى بأن يعطى الأفضلية على

كل شيء آخر، وفي البلـدان التي لا ينشغل فيها هؤلاء الأسـاقفة بأعمال القتـال، كما هو الحال في إنكلترا وفرنسـا، يمكن للانسـان أن يرى كيف أنهم يوقفـون أوقـاتهم على النزاعـات الناشئـة عن الممتلكات الدنيـوية، وكيف أنهم أهملوا العنايـة بأرواحهم، وانصرفـوا نحـو أعمال التحكيم المتـواصلة، وإلى إدارات الأموال، وإلى الذين يحيطون بالأمـراء من أجل تعـويضات معتـدلة، وكيف أنهم يناضلون ويبذلون جهـودهم في سبيل سادتهم وأوليـاء أمورهم مع الخاضعين لهم لكي يبـددوا في هذه القضايا ممتلكات الكنيســة التي هـي ملك لفقـراء يســوع المسيح، وكيف أنهم يدفعـون تعـويضات وجـوائـز للمحامين، وللوزراء، ولقضـاة القـانون البشري أعلى بكثير مما يدفعونه إلى المختصين بالقـانون اللاهوتي، وكيف أنهم يهجـرون كنائسهم، ويترددون على القصور ورفقـة الملوك من أجل أن ينالوا البراعـة والخبرة في مناقشـات المنتـديات، وكيف أن التـلاميـذ الشبـاب، يقومـون بعد مشـاهدتهم لعـادات ولأعمال الأساقفـة، بإهمال دراسـة الفلسفـة، والقـانون الـلاهوتي، ويتـدفقـون جميعـاً على مـدارس القـانون المدني، ولاينالون في هذه المدارس: بوسـاطة البراعـة القانونيـة، المنافع الكبيرة فقط، بل الأسقفيــة العليـا أيضـاً، وهم بذلك إنما يحذون حذو الكثيرين الذين نجحوا في استحواذ الأسقفيات الكبرى من خلال معـــارفهم وممارسـاتهم للقـــانون المدني، أو لم نصل إلى نقطة بات فيهـــا الكهنة النظاميـــون الذين يمتلكون معــــارف في الفلسفـــة والشريعـــة اللاهوتية هم قلة فقط؟

أولا غـالبـاً ما يمضي الأسـاقفـة وقتـاً سنوياً أطول للعناية بالمسـائل الدنيـــوية والاهتمام بها، والعمل بمـــزيد من الوقت مـن أجل منافعهم الخاصة في هذه المسـائل أكثر من العمل من أجـل خلاص الأرواح التي عهد بها إلى عنايتهم؟ وعندمـا يكون هناك كاهن كـان قسيس كنيسة ثم صـار أسقفاً، كم من المرات نراه مكرسـاً طاقاته للاستحـواذ على منافع

دنيوية، بدلاً من أن يعمل أكثر من ذي قبل في سبيل خلاص الأرواح؟ أو لا يبقى الأساقفة، عندما ينشغلون بقضايا قضائية حول مسائل دنيوية، أقل نشاطاً أو بدون عمل تقريباً؟ أو لا يعيشون في رفاه عظيم، أعظم من رجال الدين الآخرين، وأعظم مما عاشوه هم أنفسهم قبل الوصول إلى منصب الأسقفية؟ وعندما يتولى الأساقفة الوعظ أحياناً والمطالبة بسلوك حسن، أو لا يحدث مراراً أن الشعب الذي يستمع إليهم، يقوم بتوجيه النقد إلى محبي القضايا القضائية المدنية واتهامهم، ومعهم المجرمين المدانون بالشره، والنهم، والظلم، أو لم يعتد الذين تعذبوا، أو أرغموا، على القول:«نحن نسمع هؤلاء الناس يتفوهون بكثير من الكلمات الطيبة، لكننا نراهم يفعلون العكس؟ ونستطيع نحن أن نشملهم بكلمات المخلص التي قال فيها:«على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون»(متى : ٢٣ / ٢ — ٤)و«من ثمارهم (أي من أفعالهم) تعرفونهم»(متى : ٧ / ١٦) وفي إشارة إلى هذا الموضوع قال الفيلسوف في كتاب القيم:«الذي يتفوه بكلمات طيبة ويصنع الشر يعبر عن نفسه ويعلن أنه معلم زائف».

٣٠[16]: ويتوجب على الأسقف الأعلى أيضاً أن ينتبه ويراقب كيف يقوم رعاة ديرة طائفة القديس بندكت — الذين يتوجب عليهم إدارة ممتلكات الدير والعناية بها — بالعيش بشكل عام في بيت الرب، وكيف يراعون بشكل عام أيمانهم حول الفقر،والرهبان الذين لايمكنهم الاستحواذ على أية ممتلكات خاصة من دون اقتراف ذنب عظيم، هم أثرياء، ويسعون وراء الحصول على الهبات في داخل الدير، وفي خارجه، ويعهدون بها إلى أصدقائهم، وعندما يموتون، يرث هؤلاء الأصدقاء الممتلكات مما يقود إلى دمار أرواح كل من المعطي والآخذ، ويعدّ الأكثر حكمة بين هؤلاء الرهبان، الرهبان الذين في أكياس نقودهم المال

الأكثر، وذلك مراغمة لأيمان رهبنتهم، ولدى هؤلاء الرهبان أيضاً خارج الديرة عدداً من الرعاة غير الديريين، يتعاملون برساميل كبيرة ويبذلونها، لصالح اثنين أو ثلاثة من الرهبان، فبعدما يزودوهم بالطعام وبالكساء، يقوم رعاة هذه الأماكن الملحقة بإيداع كل المتبقي في أكياس أموالهم، مع أنها من أملاك فقراء المسيح، ويستخدمون هذه الأموال الفائضة لتقديم دعاوى وشكاوى ضد رؤسائهم الديريين، أو لغايات شريرة، أو في أحسن الأحوال للحصول على إعفاءات من واجبات أخرى، حتى من أداء صلواتهم، فهم ماداموا يتولون مهام الرعاية،تراهم يتولون خرق أيمانهم وتعهداتهم، وهي ذنوب نادراً — أو مطلقاً — ما يقومون بالتوبة والاقلاع عنها أو بالاستغفار منها، في أوقات تالية.

٣١ : فضلاً عما تقدم غالباً ما يمارس الرهبان في هذه الديرة حياة كلها رفاهية، ومجون واحتساء للخمور، مع أشكال أخرى من حياة الفجور، وفي بيرغندي يترهبن أبناء النبلاء أحياناً، بقصد الحصول على الرعوية من هذا القبيل، ليتمكنوا ليس فقط من الحياة براحة لا بل حتى للحياة برفاهية في الجامعات، وقد سمع السيد البابا عن كثيرين ممن يفعلون هذا، ومن المعتقد أنه على دراية جيدة بهذه الممارسات من خلال حياته في المدن الجامعية، وكثيراً ما كان رؤساء الديرة مع المسؤولين الآخرين في الطائفة نفسها مهملين، تقاعسوا عن تقويم مثل هذه الشرور، وهم يترددون في تصحيح الأخطاء لخوفهم من المنازعات والخصومات مع الذين ينبغي أن لا يخافوا منهم.

٣٢ : زيادة على هذا، هناك عدد كبير من الرهبان الشبان، يثيرون المشاكل والخصومات، ومن ثم يكونوا راضين في إرسالهم إلى الزنزانات، فقط على أمل بعثهم إلى مثل هذه الديرة، حيث سيتملكون المزيد من الحرية ومن ثم ممارسة حياة كلها فسوق.

٣٣ [17] : وعلى السيد البابا أيضاً رؤية كم كثير من الحروب الكبيرة

والمرعبة، قد أنشبها أسلافه من البابوات، أو ما أن تفجر بعضها حتى أيدوها للدفاع عن ميراث بطرس المبارك، وكم هو كبير عدد الكاثوليك الذين أصدروا بحقهم أحكام الحرمان الكنسي والتكفير، لقيامهم بغزو هذا الميراث، وقد مات كثير من هؤلاء الكاثوليك وسط ذنوبهم، دون وجود أية علامة على التوبة والاستغفار، وعليه أيضاً أن يعرف كم هي المبالغ التي أنفقتها الكنيسة في مثل هذه الحروب، أو بسببها، ولربما تتطلع إلى إنفاق آخر في المستقبل.

٣٤ : وعلى البابا أيضاً أن يهتم بالأصوات التي ترتفع في كل مكان في الأراضي الخاضعة للكنيسة الرومانية، عندما يجري اتهام إنسان ما بالسيمونية.

أو لا ترون كيف يتقبل السيد البابا والكرادلة الهدايا من كل واحد أضفيت عليه المنافع، ولا سيما الذين منحوا منصب الأسقفية؟ وكيف يقومون من خلال عملائهم، بتدبر إقراض الأموال التي استخرجوها منهم، ولاسيما من الاعفاءات، إقراضها إليهم مقابل فائدة باهظة جداً؟ وألا ترون كيف، عندما يجري انتخاب اثنين إلى المنصب نفسه، وواحد منهما فقط يمكنه شغله، فيقومان بالعادة بتقديم التماس إلى مجلس الكرادلة، ثم بعدما يتحملان نفقات ثقيلة، ويمنحان الأعطيات، ويعانيان من المصاعب ومن المخاطر على الطريق، وعند الكرادلة، يجري رسم الاثنين وتسليمهما المنصب نفسه، وأحياناً يرغم أحدهما على التخلي عن حقه، ووضع القضية كلها بين يدي السيد البابا؟ وكيف اعتاد الناس على أن يؤمنوا للآخر كنيسة أو ديراً؟ وكيف أنه بات من عادة الذي هو من هذا القبيل، أن يستعد لأن يقدم إلى هيئة الكرادلة مبلغاً كبيراً من المال، يكون أحياناً سبعة آلاف، أو ثمانية آلاف، أو عشرة آلاف ليرة، يقترضه مقابل فائدة ثقيلة، يتولى تحصيلها، الذين يسمون أنفسهم بشكل مكشوف وكلاء البابا المصرفيين، ويقال بأنهم يتسلمون أموال

البابا، ويتولون العناية بها، ويقرضونها مقابل فائدة.

٣٥[18]: وعلى السيد البابا أيضاً أن يقدر أنه بما أن الكرادلة يشغلون مناصب عالية جداً، فإنه من الضروري بالنسبة لهم إنفاق مبالغ كبيرة من المال للمحافظة على مستوى العيش الحديث، وبالوقت نفسه ليس لديهم موارد البتة، تتناسب مع ألقابهم، لذلك بات من الضروري بالنسبة لهم — مثلهم مثل المرتزقة — أن يعيشوا من وراء السلب فكيف يمكن لهؤلاء الذين اعتادوا — أو أرغموا على التعايش مع مثل هذه الارغامات — أن يكونوا مقومين مناسبين للقاضي الأعلى، أو العمل قضاة تحت إدارته؟ ففي مثل هذه المسائل من المفترض أن يمارس الأغنياء استخدام سلطاتهم الرسمية بطريقة محمودة، والعكس هو الذي يمارس في قضية الفقير، لأن الفيلسوف قد قال«الأضداد تولد الأضداد وتسببها»، والذين يختلفون بشكل واسع يقدمون المتناقضات، وتفسد العدالة بشكل عام بوساطة الرشوة، والوساطات، والخوف، والكراهية ، والشره، وشرور مماثلة، وذلك حسبما تحدث آباء الكنيسة من خلال خبرتهم، وحسبما كتبوا في القانون الكنسي، وكل إنسان يعتقد ويقول:«الهدايا تقبل مشروطة»، ومثلما كتب المعلق على ابن رشد:«ما من شيء شاع بين الناس، كان كله زائفاً».

٣٦[19] :وهذه الذنوب والفرص من أجل اقتراف الخطايا، وكذلك الأشياء الأخرى تعرفها جلالتكم الملكية عظيمة التجربة، تمام المعرفة، وينبغي أن تجتث في المستقبل بشكل كامل،آخذين بعين التقدير الذي كتب في القانون الكنسي، والذي هو مقبول في كل مكان، والمقصود بذلك:«إن الذي يعمله الأساقفة يتخذ مثلاً يحتذى من قبل الرعية»، وإذا لم تعالج هذه الشرور، يمكن للظلم أن يظهر، عندما ينبغي أن تأخذ العدالة مجراها، ولسوف تهتز الأعمدة، وبذلك ستسقط الواجهة كلها، ولهذا كُتب:«إذا ما أذنب الكاهن المرسوم، فإنه سيؤدي بالناس إلى

الوقـوع بالخطأ»، ويمكن لـلأسـاقفـة، الذين ينبغي أن يبرهنوا على أنهم أنفسهم أطبـاء النفـوس بالقـول والعمل، أن يسببـوا انتشـاراً واسعـاً للمـرض نفســه الذي يتـوجب عليهـم معـالجتـه، فلمعــالجة مثل هذه الأمـراض أطلق عليهم اسم آباء الأرواح، وجـرت ترقيتهم إلى مناصب رفيعة، ومن ثم منحوا كل شيء جيد في هذا العالم.

افترض أن طبيباً تعين لمعالجة الابن الوحيد للملك وولي عهده،لا بد من أن يتلقى كثيراً من الجوائـز، والترقيـات، والتشريفـات، ومثله حـال أسقف من الأسـاقفـة حيث يتلقـى مـا يتلقـاه من أجل حفظ الأرواح، ولنفترض أن الأسقف وقتهـا سوف يجلس أمـام المريض الشـاب فمن خلال إهماله سيكون سبباً لمرضـه، ومن ثم سبباً لوفاته، عن طريق شربه أو أكله بحضــوره شيئاً رغب الطفـل بتناوله، غير أنه كــان قــاتلاً له، وافترض أن الصبي قام بتقليده، وخيل إليه خطأ أنه سوف يكون أقوى بتناوله الطعـام والشراب الذي يتمتع به الطبيب، أو أن يقوم بتـذوق ما هو محظـور، ويكون هذا سبباً لمنيته، فما هو وقتها واجـب الملك وحقه نحـو مثل هـذا الطبيب،ألا ينبغي أن يقـول له:«لقـد حــرمت على ابني تناول الطعام والشراب المميت الذي رغب به، لكن لأنك تذوقت ذلك بحضوره فإنه رغب بذلك أكثر من ذي قبل، لأنه وثق بأعمالك أكثر من وثوقه بكلامك، ولقد تذوق ذلك، ومات من هذا السبب، أو لا تعرف أن الذي يهيء الفرصة للأذى يعد مسـؤولاً وكأنه مارس الأذى بنفسه؟ وأن التعليم بالأفعــال أفضل من التعليم بـالكلمات؟ وأوليست قــوة الرغبـة عندما يكون مـوضوعهـا مرئيـاً، أكثر إثارة ودفعـاً منها عندمـا يكون مـوضوعها غير مـرئي؟ أو لم تلاحظ هذا الشيء في ميـول فحول الخيل والثيران نحــو الإناث مـن جنسهـــا؟ أو لم تقل الكتــــابات المقـدسـة:«رفقـة المرأة واصطحـابها ينبغي استبعـادهـا حتى يكونوا أقل رغبـــة»، ولقـد أجــزت نفسك لدي على أنـك بارع ومجرب، غير أنك

أذنبت بحقي في هـذا، فقـد أقمت الفـخ الذي تذوق فيـه ولدي هذا الطعام المميت، ومات منه، فأنت مسـؤول أخلاقياً من أجل موته، ولهذا ينبغي أن تموت»، فمن الذي يمكنه أن يقول بأن الملك حكم بشكل غير عادل في هذه المسألة؟.

أولا نرى بوـضوح بأن الأساقـفة غالباً ـما يكونون متغيبين ومهملين القيـام بواجـب العناية بالمسـائل الـروحيـة، بسبب إنشغـالهم بـالمسـائل الدنيـوية التي هي ذات محصـلات وفـوائـد قليلة، والتي بدونها سـوف يعيشون مهما كانت الأمور — بشكل جيـد؟ أولا تراهم يبدون اهتماماً أكبر وعناية أعظم بالذين يدافعـون عن مصـالحهم الدنيـوية، من الذين يهتمون بمـصالحهم الروحية، أو لا يجيزون هؤلاء بـجوائز أكبر، وهم لم يعتادوا على فعل ذلك بشكل علني؟.

(٢٠) وعندما يرى رعـاة الأرواح الأدنى مرتبة رؤسـاؤهم يتصرفون هكذا، أولا تراهم يميلـون إلى تقليـدهم وفعـل الأشيـاء نفسهـا، لكن بطريقـة فجـة أكثـر، أولا يتماشى هـذا مع مبـدأ أن اليقظة تجذب يقظة، وبالتالي يوّلد الإهمال الإهمال؟ أولم يـقل المخلص:«لأنني أعطيتكم مثالاً حتى كما أحببتكم أنا، تصنـعون أنتم أيـضاً»(يوحنا :١٣ / ١٥)، وإلى هذا أشـار الرسـول بقـوله:«ينبغي أن يكـون كل عمل من أعمال المسيح أمراً لنا»، أولايتوافق الـقانون المدني مع هذا عندما يقول:«ليس مهماً فيما إذا عبر الشعب الرومـاني عـن إرادته بالكلمات أو بالأفعـال نفسهـا، والحقـائق هي ذاتها»؟ أو لاينبغي على الأساقفـة أن يكونوا متيقظين — كما يقول القانون — من أجل أنفسهـم، خشية اقترافهم للخطأ، وخشية أن يبـدون صناعاً للخطأ، وبذلـك يجلبون لأنفسهم سمعـة سيئة؟ ومن أجل الذين عهد إليهم بأمـر العناية بهم، ومن أجل جيرانهم، وأقربائهم، خشية أن يقلدهم هؤلاء ويحذون حذوهم.

أولا نعـرف — تبعـاً لما بشر به الآباء المقـدسـون — أنه ينبغي أن

تتضمن أعمال الأساقفة الأشياء التالية، وهي قراءة الكتابات المقدسة وتعليمها، وأن يزيلوا بصلواتهم ذنوب الرعية التي وضعت تحت عنايتهم، وفي حالات الذين لا يكون هذا الاجراء كافياً، يتم اللجوء إلى اللوم والتأنيب، والتقويم، ومعاقبة الذنوب المعروف والمتداول أنها اقترفت، تاركين الذنوب الخفية إلى حكم الرب وحده؟ أولا نرى أن الأساقفة الكبار غالباً ما يتوقفون عن أداء واجباتهم ، لأنهم يكونوا مشغولين بالمسائل الدنيوية؟ أولا نرى أي نوع من أطباء الأرواح اختار هؤلاء الرجال ليكونوا معاونين لهم، وبأي اعتبارات قد تأثروا، مع أنهم يعملون في هذه القضية عوضاً عن الرب؟ ثم ما هي سمعتهم وما هو احترامهم؟ أو لم يحلوا روابط الدم، والروابط الاقليمية، والخدمات الدنيوية، فوق العقلانية، والحكمة، والخبرة، لدى الأطباء الذين عينوهم مكانهم؟، وبناء عليه أولايتبصرون ويرون كيف يمكنهم السداد إلى الرب الواحد، عندما يكونون مرضى تماماً، ويسعون لتأمين خدمات هذا الطبيب الفرد، وأولا يحق له الذي زودهم هكذا بالواحد المتوفر، أن يطلب تزويده بقبول الشرط الذي تسلموه من المسيح، الذي يرى الجميع؟.

افترضوا وجود ملك أو امبراطور كان على وشك الشروع بحرب كبيرة، فيها مخاطرة بفقدانه مملكته أو امبراطوريته، إذا ما أخفق بالحصول على النصر، وافترضوا أيضاً أنه يمكنه اختيار قائد فرد واحد من أجل هذه الحرب، وأنه سيعهد باختياره لواحد محدد من بين رجاله كان قد أعطاه عطايا كثيرة، مثل أنه كان رجلاً فقيراً جداً، فرقّاه لأن يكون رئيس أساقفة كرسي كولون بوساطة الامبراطور، ولنفترض أن رئيس الأساقفة ذاك، الذي سيكون اختياره ضرورياً للدعم — مهما كانت النتائج — سوف يرى أن قائد الحرب ذاك سيغنني كثيراً، وافترضوا أنه على هذا الأساس وقع اختياره على شاب قريب منه برابطة الدم، أو

بالخدمة، أو بالقومية، وأهمل بذلك رجلاً مسناً مجرباً، قد اعتاد على أعمال الحرب، لكنه لم تكن له روابط برئيس الأساقفة، لو أنه قام بهذا الاختيار، وفضل غير المجرب على الرجل المجرب، والجاهل على الرجل الحكيم، أو لن يلعن من قبل كل إنسان؟.

أو لم يعهد المسيح — أبو الأرواح كلها، وهو راغب أن يكونوا جميعاً منتصرين في الحرب ضد الشيطان — باختيار القادة لهذه الحروب التي هي من أخطر الحروب إلى الأسقف الأعلى، الذي هو نائبه الممنوح سلطات واسعة جداً، ودعا الأساقفة الآخرين كل حسب حصته من المهمة، وكل أسقف في أسقفيته الخاصة، وإذا ما قام هؤلاء الأساقفة بأعمال اختيار غير عقلانية حكيمة بسبب اعتبارات دنيوية، وإذا ما رفضوا الشخص المنتخب انتخاباً صحيحاً، من أجل تأمين العمل والمنافع لشخص آخر، يحبونه أكثر، أولأنهم يتوقعون أن ينالوا منه الجوائز، وإذا ما أخفقوا في تزويد الكنائس وإمدادها برجال أحسن، لأنهم يفضلون آخرين لأنهم يعلمون أنهم أقل فضلاً، وسمحوا لأنفسهم بأن تقتنع باعتبارات غير اعتبارات إنقاذ الأرواح، أولا يمكن للمسيح وقتها أن يدينهم بدون أدنى شك باقتراف جريمة عظمى ضد الرب؟ ولقد أغنى المسيح الأساقفة إلى حد كبير، إلى درجة أنهم لن يجدوا مسوغاً للحديث عن نقص بالممتلكات الدنيوية، ولا أن يتأثروا بأي مقدار للاتجاه نحو مثل هذا الاختيار، بموقف السواد الأعظم من الناس ورأيهم، أو ليس من الممكن للأسقف المتقدم ذكره، أو الدوق، أو الكونت، الذي اغتنى بمثل ذلك، لأنه الذي عهد إليه باختيار القائد، أن يعدّ منطقياً مجرماً ـ جريمة عظمى بحق الرجل وضده عندما يعاني قائد الحرب من هزيمة مأساوية، بسبب اضطرابه، وطريقته غير المجربة في تنظيم الجيش وقيادته؟.

٣٧ : أوليس صحيحا أو حقيقياً أن المؤامرات الخطيرة التي تفجرت

في كنيسة الرب، وبين الشعب المسيحي كله هي من نوعية طريقة الحياة التي مارسها الأساقفة المتقدم ذكرهم، والرهبان، والساقطين الآخرين والمتجاوزين؟ أولم يقل الرسول حول هذه المسائل:«إذا كان أخي يعثر، فلن آكل لحماً»(كورنثوس :٨ / ١٣) وأولم يستشر مصنف القانون كلياً بهذا فقال:«لكي تتجنب العثار، ينبغي أن يكون كل شيء يتوجب القيام به أو إسقاطه هو الذي يصنع أو يسقط من دون اقتراف ذنب عظيم»، ونقرأ في مكان آخر من القانون:«حتى ينقذ الانسان حياته الدنيوية على المرء أن يفعل كل مايمكنه فعله دون أن يعرض للخطر حياته الأبدية، لأنه لا يجوز لأي إنسان من أجل إنسان آخر، أن يعرض نفسه لاقتراف ذنب عظيم، يتلقى بسببه عقوبة أبدية».

إذا أمكن تجنب الفضائح داخل جماعة صغيرة، وإذا أمكن من أجل هذه الغاية أن يصنع ما ينبغي صنعه، أو أن يترك بدون صنع، الخ، كم هو أهم تجنب الناس الفضائخ في أسقفيه، أو في مقاطعة أو حتى في مملكة كاملة؟ أو ليس يظل أعظم أهمية أن يتجنب الناس الفضائح، أي جميع الناس الذين هم رعايا للكنيسة الرومانية، وأن يتجنبوا سوء السمعة، الأمر الذي يمنح الجميع الفرصة للتخلص من سوء ما اقترفوه؟

٣٨ [٢١] ومن هو هناك، عارف بشكل جيد بالأحوال الحالية في الكنيسة المسكونية ومدرك لأوضاعها الفوضوية في القضايا المعروضة أعلاه، والتي هي متباينة تماماً، وتختلف كلياً عن الأساس الذي وضعه أباء الكنيسة المتعلمون والمقدسون، ولايعتقد أن الصلوات الحارة والأدعية العالمية التي تتدفق على الرب من أجل عون الأرض المقدسة، سوف تكون فعالة أكثر بكثير من ذي قبل، لو أن الأوضاع المتقدمة الذكر في الكنيسة المسكونية جرى اصلاحها؟ ومن المؤكدأن الأدعية المخلصة للأساقفة، ورجال الدين والناس جميعاً هناك حاجة إليها من

أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، فالقدرة البشرية لن تكون كافيـة، ولا الأسلحة الدنيوية والسيوف، وهذا هو مقصـد القانون الذي حـذرنا بقـوله: «أعطي الناس بسبب ذنوبهم حكامـاً فاسـدين أحيـانا، وأساقفة أشراراً»، ولأن ذنوب الناس تقـف معترضة في الطريق، فهؤلاء الناس غير جـديرين بأن يكـون لهم حكامـاً صـالحين، ولا أسـاقفـة مستقيمين، وتتـوافق الشريعـة الربانيـة مـع هذه المقـولة، عندمـا تقـول: «بسبب ذنوب الناس، سأجعل المنـافق حـاكماً»، وبناء عليـه عندمـا نرى أمراء أشراراً، وأساقفة فاسدين، من المحتمل كثيراً أن هذا بسبب ذنوب الناس»، ومثل هذا، وللسبب نفسه، قد نكـون متأكدين أكثر، أن الناس أشرار، بسبب ذنوب الأسـاقفـة، والمثل الشرير الذي يضربونه،وذلك أن الناس يستندون إلى أفـعالهم أكـثر من استنادهم إلى أـقوالهم، وذلك على عكس ما شرعه الرب ودعا إليه عنـدما قال: «على كرسي موسى جلس الكتبـة والفريسيـون. فكل ما قـالوا لكم أن تحفظوه فـاحفظوه وافعلوه، ولكـن حسـب أعمالهم لاتعملـوا لأنهم يقـــــــولـون ولايفعلـون» [متى:٢٣/ ٢—٣] .

٣٩ [22]: إن مـا تقدم وكـذلك المناسبات الأخـرى من أجل هلاك الأرواح، وأيضـاً العـوائق التي تقف في وجه استرداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، معروضة أمام تقـديركم الدقيق، وإذا — كما هو معتقد بشكل عـام— كـان اقتراحكم للعمل بشكل فعـال مـن أجل مثل هذا الاسترداد والحفاظ، صـادر فقط عن حماسكم من أجل نيل جزاء أبدي، لعل يرضي جلالتكم الملكيـة العالية التجـربة، التلطف بطلب العون من الأب الأكثر قـداسة، كليمنت السيد الحاكـم، والذي هو بفضل الحكمة الربانية هو الحبر الأعظم للكنيسـة المسكونية الرومانية المقـدسة، والذي يعتقد أنه منصرف نحـو عون تلك الأرض والاهتمام بها أكثـر من جميع المسـائل الأخـرى، أرجـوكم، التمســوامنه، أن يكرس نفسـه لإصـلاح

أوضـاع الأسـاقفة، والناس جميعاً وكهنة المسيحيـة جميعـاً، من أجل أن يتحـدوا بفضائلهم الدينيـة والدنيوية، (وهذا مـا ينبغي أن يفعلوه)وأن يتكرسوا روحيـاً ودنيوياً، بالقتـال بشكل متواصل، فبـذلك سيكون من الممكن — بفضل الرب— تسريع نيـل تلك البـلاد بوسـاطة نصر يدوم بشكل مستمر، على أعداء الإيمان الكاثوليكي.

ومن مثل سليمان يبــدو أن هذا ممكن الصنع، بوســاطة سـؤال رب الجيوش إعطاء الحكمة الحقيقـية والوحيدة، ولسوف يمنحنا هذا، إذا لم نطلب— وينبغي أن لانطلب— المزيد من واردات الذهب والفضة، بل السـلام الحقيقي في القلوب والأجسـاد، ومن ثم سـلام المعـرفـة، وفهم وإدراك كامل، وكذلك فضائل أخلاقية.

٤٠ [23]: وينبغي أن يكون السعـي للوصــول إلى غــايـة اصـــلاح الأوضاع مسعى تقوياً عاليـاً، والحبر الأعظم مثقل جداً، ومشغول كثيراً بالعناية بالمسـائل الروحيـة، إلى حـد أنه من الصعب أن نتصـور أن لديه متسعاً من الوقت لإدارة أموره الدنيـوية من دون الحاق الضرر بواجباته الروحيـة، ولهذا يتـوجب أن يعهد بادارة شـؤون الحاصـلات، والموارد، والدخل الذي يبقـى بعـد أعمال الانفـاق وبعــد دفع الأجــور المعتـادة وحسمهـا، والذي يصله بشكل معتـاد، ويبقى بين يديه، إلى ملك كبير، أو أن تحول إلى أمير كبير، أو إلى أشخـاص آخـرين لتكون بمثـابة وقف دائم، ويتـوجب اتخاذ الاحتياطات المحكمـة، حتى يمكن التفكير باتخاذ ضمانات من أجل البابوات المستقبليين، بحصولهم على عطاء سنوي دائم وبدون نقصـــان، وينبغـي أن يحصل الدفع في أحـــواز ميراث الـوقف البطرسي، وذلك حسب الوقـت الذي يراه مناسبـا، أو يقـوم باختيـاره، وعندها ينبغي للبـابا، الصـانع للسـلام العـالمي والمرتقي به، أن لايقـوم بإثارة الحروب، وأن لا يكون سبـباً لموت الناس فجأة، أو للـموت في حــرب مـرعبــة، وسـوف يكون لـديه وقت وافـر للصـلاة، ولأعمال

الاحسان، وللدراسة، وللقراءة، ولتعليم الكتابات المقدسة، ومن أجل اصلاح الذين هم دونه، ووقت وافر لإدارة العدالة، ولرؤية أن العدالة تقدم إلى جميع الكاثوليك، ووقت وافر لتأمين سلام دائم إلى جميع المؤمنين بالمسيح، وبذلك يمكنهم العيش بسلام أحدهم مع الآخر، وأن يجاهد بأمانة من أجل استرداد ميراث الرب المصلوب وحمايته، ولن يجاهد البابا المقدس بعد هذا من أجل جمع الثروات، ولن يعاق في تأديه واجبه بالعناية بالأشياء الروحانية، ولسوف يمارس حياة تأملية، وكذلك حياة نشطة، بعون الرحيم معطي جميع الأشياء الجيدة.

٤١ [24] : على السيد البابا أن يتقصى أيضاً حول دخل الكرادلة والموارد المالية المتنوعة التي يتمتعون بها بلا مساءلة أو ريبة، أو فضائح أو عار، وعليه أن يفرد لهم— وهذا ما يستطيعه بكل سهوله— ما يكفيهم للعيش من وقف ميراث بطرس المبارك، في ظل شروط مشابهة لشروطه، وإذا ما تبرهن عدم كفاية ذلك، يمكن للسيد البابا أن يحصل لهم على تعويض كاف من أملاك الكنيسة المسكونية، وبالتحديد من أملاك الديرة المعفاة، وأملاك الأساقفة الذين يتلقون سيامتهم ومباركتهم من الكرسي الرسولي، ومقابل هذا يمكن لهؤلاء الكرادلة أن يوفروا على أنفسهم الانشغال بخدمات عديدة، وبنشاطات كثيرة، مما اعتادوا على القيام به في مجلس الكرادلة، وكذلك الاهتمام بقضايا الانفاق، مادام ذلك قد سحب من مجلس الكرادلة، ولن يعودوا بحاجة بعد الآن إلى مقاربة هذا الموضوع من أجل هذا الغرض، ويمكن أيضاً للكنيسة المسكونية أن تسهم في مسيرة معايير النظام الجديد الذي يجري تفحصه من أجل أن يكون نافعاً للكنائس، ولسوف يضع هذا حداً للقضايا المديدة المتعلقة بالمرشحين في الانتخابات والطلبات الأخرى لمجلس الكرادلة، التي غالباً ما يجري الاحتفاظ بها هناك لمدة طويلة بسبب الهدايا التي يستمرون بمنحها، ولقد اعتاد هؤلاء الكرادلة على

الانفاق على مراكزهم والاحتفاظ بها من خلال هذه الهدايا غير المنتظمة والرسوم.

٤٢[25] :وبعد تنفيذ هذه الاصلاحات، ينبغي اتخاذ قرار أنه إذا ما قام البابا أو الكرادلة بتحصيل هدايا أخرى إضافية، ينبغي انزال عقوبة قاسية بهم، كما أنه لايجوز لهم الاحتفاظ بالهدايا إذا منحت لهم، والمتوجب هو انزال أقسى العقوبات بمقدمي الهدايا وبالذين يتسلمونها، وينبغي أيضاً تحديد عدد المطايا مع الخدم لدى الكرادلة.

وينبغي أيضاً الإعداد بوجوب تخصيص جزء من ممتلكات وأوقاف جميع الكرادلة المتوفين والأساقفة، من الكبير إلى الادنى، وأن يكرس هذا الجزء ليضاف إلى التمويل المعدّ من أجل الأرض المقدسة، حتى يتم تحريرها بالكامل، وتحصينها كلياً، وإلى هذا ينبغي أن يضاف جميع الممتلكات العائدة إلى رجال الكهنوت الذين يتوفون بدون وريث أو وصية.

٤٣: وينبغي أيضاً أن يطلب من جميع رجال الدين المنتفعين إعطاء ربع ممتلكاتهم إلى التمويل المذكور.

٤٤: كما ينبغي أن يحول إلى التمويل المذكور جميع الأملاك المهجورة، أو التي ليست داخلة ضمن ملكية واحد من الأفراد، أو التي هي محولة إلى شخص غير معروف، أو هي ديون غير مقرر أمرها لأنها حق لأناس ميتين من غير الممكن ايجاد ورثتهم، أو هي منح صارت إلى أشخاص غير معروفين، وتركت بدون مالك محدد، وأملاك أخرى لايمكن بأية طريقة الاحتفاظ بها أو الحصول عليها من دون إلحاق الأذى بإنسان ما.

٤٥[26]: وينبغي أيضا العمل على تحويل وقف مواريث عدد من الأساقفة، لأن هذه الأوقاف قد استحوذوا عليها من أجل خدمات عسكرية، وأمكنهم المقاضاة من أجلها في المحاكم المدنية، نعم تحويلها

بالطريقة نفسها إلى لجنة وصاية وحفظ مناسبة، مقابل عائد مالي سنوي دائم، وإذا لم يمكن إيجاد المستحقين الحقيقيين لهذه الأوقاف على الفور، ينبغي تسلمها ووضعها مع دخولهم المقررة تحت الوصاية لمدة سنتين أو ثلاث سنوات، من أجل التمكن من معرفة قيمتها بشكل أفضل، وبذلك يمكن تجنب امكانية التزييف بتقدير القيمة من قبل الذين حولوا المواريث إلى شكل دائم، وعلى كل من يتسلم اقطاعات عائدة إلى أساقفة، أن يسجلوا أملاكهم الخاصة لتكون بمثابة ضمان إذا لم يقم بدفع الاعانة السنوية المتفق عليها، يجري تحويل الضمان إلى الكنيسة ليكون ملكاً دائماً لها، وسيضمن هذا الاجراء الكنيسة من التعرض للخسارة في دخلها بوساطة التزييف.

وفقط لو أن العدو القديم أخذ يعاني، من المتوجب تنفيذ هذه الاصلاحات، فوقتها سيرى أنه قد خدع بهذه الأعمال الإجرائية، وأن أحابيله، وإغواءاته قد أعيقت بذلك كثيراً، وإذا ما امتلك الأساقفة بوساطة هذه الإجراءات، دخلاً أقل من ذي قبل، فإنهم لن يخسروا شيئاً لأنهم سوف يوفرون أكثر بكثير— حتى من الجانب المالي— عن طريق رواتب المحامين، والوكلاء، وفي النفقات الشخصية من أجل رؤساء المحاكم، ومسائل أخرى كثيرة، هم بالعادة يثقلون بها بسبب أراضيهم الموروثة.

وبعد تفحص هذه الاقتراحات بعناية— مثلما فعل كاتب هذه الرسالة شخصيا، وتفكر فيها— لاشك أن الأساقفة سيكونوا قادرين على استغلال هذه الاصلاحات من أجل زيادة الموارد العظيمة التي تتدفق على أكياس نقودهم، إلى حدود لم يتمعوا بها حتى الآن، ومع ذلك سوف يتمتم بعضهم— وقد أثارهم الشيطان— ضد هذه الاقتراحات، ويسعون عبثاً للحصول على مسوغات وأعذار كلامية وفذلكات أخرى حتى يتمكنوا من تجنبهم: آمل من الذي يعرف الأشياء

جميعاً منذ الأبدية، أن يتفضل بنعمته بالقتال ضد هذه الاعتراضات.

وبهذا الاصلاح، سوف يجد بعض الأساقفة الذين اعتادوا على الانفاق على عشرين أو أكثر من عشرين من الحاشية والخدم، وعلى نفقات أخرى كثيرة، سوف يقتصرون على الانفاق على أربعة.

وسوف يكون بعض المحامين العاملين في المحاكم المدنية هم الأكثر خسارة بهذا الاصلاح، لأن الأساقفة، الذين سوف يستحوذون على أوقافهم من الآن فصاعدا على شكل مبلغ سنوي محدد، لن يكونوا بعد الآن مسؤولين عن الدفع لهم الرواتب المعتادة والنفقات الأخرى، التي اعتاد هؤلاء المحامون على تسلمها من مصادر كثيرة، وبطرق متعددة مباشرة وغير مباشرة.

٤٦[27]: وإذا ما تحققت هذه الاصلاحات فإن جميع مصالح ومنافع الذين يعبدون المسيح سوف تكون قد تأسست بمثابة هدف واحد هو ذلك الهدف، وبذلك يتجنبون نشوب النزاعات ووقائعها، ولسوف تتوجه جميع جهودهم نحو دعم الايمان المسيحي والرفع من شأنه، وسوف يكون هذا متماشياً مع المنطق لأن الفيلسوف يقول: « العالم هو وحدة، مثلما الجيش هو وحدة»، ويعدّ الجيش وحدة بسبب اتحاد تنظيمه، لأن هدف الجيش الذي يسعى إليه القادة، ويعملون من أجله هو النصر، وعلى كل رجل في الجيش أن يأخذ بهذا الهدف ويناضل بكل قواه من أجل الوصول إلى هذه الغاية، وإذا ما نفذ هذا كما ينبغي، فنادراً — إن لم يكن مطلقاً — ما سيخفق الجيش في مساعيه وتحقيق أهدافه.

ووفق هذه الطريقة ينبغي توجيه قوى العالم نحو هدف واحد، أي نحو الخالق الجبار للسموات وللأرض وللأشياء كلها، وحسبما يقول بوثيوس Bothius كل إنسان يسعى من أجل هذا الهدف، غير أن عدداً كبيراً من الأشخاص الأشرار يقترفون الخطأ، وينشدون ذلك

الهدف في الحانات، وفي بيوت الدعارة، وفي أعمال اللصوصية وفي النهب، وفي السيمونية، وفي الأعمال الأخرى غير القانونية، ويقترف هؤلاء الأشخاص الأخطاء باتساع، ومثلهم مثل الذي يسعى لاصطياد السمك في الجبال، ولصيد وحوش الأرض في البحر، والذي ينشد ذلك الهدف، ويبحث عنه حيث هو يجده، وبما أن هؤلاء هم — أو هكذا ينبغي — أكثر الناس كمالاً، مثل الأساقفة، عليهم السعي وراء هذا الهدف ونشدانه لا في الحروب، ولا في الأعمال القضائية، ولا في المشاحنات، ولاسيما حول المسائل الدنيوية، بل في قراءة الكتابات المقدسة وفي تعليمها، وفي الصلوات، والأعمال المتعلقة بيوم القيامة، وذلك حسب طرائق مريم ومرتا، والذي عليهم السعي في سبيله هو السعادة الدينية والدنيوية، وذلك حسب عبارة الفيلسوف، وإذا ما قاوموا الاصلاحات المقترحة، وناضلوا من أجل العودة إلى مشاحناتهم الدنيوية، ومشاغلهم الآنية، فإن الكلمة التي قالها المخلص عن مثل هؤلاء الناس يمكن تطبيقها عليهم، وأعني بذلك قوله:«ليس أحد يضع يده على المحراث، وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الرب»،(لوقا: ٩ / ٦٢).

٤٧ [28] : ولسوف يكون هذا الاصلاح ممجداً جداً، ومتوائماً مع أوامر الرب القدير،«الذي ينبغي أن يكون عمله أوامر بالنسبة لنا»، وذلك تماشياً مع قول الرسول، ذلك أن هذا العمل يمكن البرهنة على أنه حاسم.

وإنني أعتقد أن ما كتب في العهد القديم هو نموذج وأساس للعهد الجديد.

وأعتقد أبعد من هذا بأن الرب أعطى أرض الميعاد — التي صارت تعرف بالأرض المقدسة، لأنها تقدست بحضور الرب وعمله ودمه بها — إلى الأسباط الاثني عشر من بني إسرائيل، لأنهم خدموه، وحافظوا

على عقيدته، وشريعته ووصاياه.

وأعلن أيضاً عن إيماني بحقيقة أن أبناء لاوي من كهنة ولاويين، قد بشروا بشريعته وراعوها،وخدموا الرب بعناية أكبر من الآخرين، ومع هذا قضى الرب أن يكون لهم حصة في توزيع هذا الميراث، بل أمر يوشع بتقسيمه بين الأسباط الأحد عشر، وجرى تعيين سبط لاوي للقيام بعبادة الرب، وتوجب عليه أن يرضى بنيل عشر حاصلات الأسباط الأخرى، وقد فعل هذا حتى لا ينشغلوا ويبتعدوا عن عملهم اللاهوتي بالعمل في زراعة الأرض.

٤٨: وبناء عليه إذا ما حصل الأساقفة مقابل ميراثهم الوقفي على ما يكفيهم من المال للعيش — بالحقيقة بقدر ما كانوا يحصلون عليه من قبل بعد اقتطاع النفقات والرسوم المعتادة وإذا ما رفضوا هذا بسبب أنهم ربما يمكن أن يحصلوا على ثلاثة أضعاف أقل مما اعتادوا الحصول عليه في ظل النظام القديم،(وهذا ما لا أعتقده، لكنني مقتنع تماماً أنهم سيحصلون على دخل أكبر من ذي قبل)أو لن يكونوا غير متوائمين مع قواعد تعاليم الرب؟ وإنهم إذا ما وضعوا جانباً تعاليم الرب وحكمته، بسبب أن موقفهم يسير بالاتجاه المعاكس، أو هو مضاد لأعمال الرب ولتعاليمه، أو لن يرفضوا بحق من قبل الرب الذي سوف يقول لهم:

«لقد رفضتم الفرصة التي قدمت من أجل خلاص أرواحكم، وخلاص أرواح الذين أنتم مسؤولون عنهم، واخترتم طريق الهلاك لأرواحكم، ولأنكم هكذا، انظروا إلى الخلف، فأنتم لاتستحقون ملكوتي، وبتصرفكم هكذا أنتم لم تصغوا إلى أوامري، ومبادئي، وآرائي، وقد رفضتم أن تحبوني، وأن تحبوا جيرانكم من كل قلبكم، وسعيتم وراء تسويغ لإخفاقكم الواضح في أن تحبوا من صميم قلبكم، وإنكم لم تدركوا أن الفيلسوف، الذي يستخدم المنطق المجرد قد كتب:«الذي يقدر التهنئة من أجل سعادته التأملية، يستحق الطعام، واللباس،

والأشيـاء الأخرى الضرورية لقـوام الحيـاة، لكن لبس هناك من حاجـة لأن يكون سيد البر والبحر»، وإنكم حتى لم تـدركرا أنه في قانون الآباء المقـدسين، قـد ضرب مثل جيـد بسقـراط، ذلك الرجل الذي جـاء من طيبة، وألقى الثروات في البحـر، من أجل أن يتمكن من التفكر والتعبد وهو غير مشغـول البال، وهو لم يرفض الثـروات فقط، بل إنه لم تتوفـر لديه الرغبـة فيها، مع أنه كان مشغـولاً دوماً بالمشـاحنات، والمحاكمات، والحروب، ولقـد رفضتم ثـروة سـلام ستكون بدون أدنـى شك أقل إعاقة للتأمل».

فكيف يمكن للأسـاقفـة أن يجيبـوا، وكيف يمكن لهم أن يسـوغـوا أنفسهم، إذا ما رفضوا القيام بتنفيذ اقتراح الاصلاحات؟.

[29]: وإذا مـا جـرى تبني هذه الاقتراحـات، لن يتمكن أعـداء السـلام، كما يبـدو، من تقـديم مسـوغـات مقبـولة لإعـاقـة مثل هذه الاصـلاحـات، ولسوف يشعـرون بالاحـراج، ومن المحتمل كثيراً أنهم سيخدعـون برغباتهم، وذلك على الرغم من قـدرتهم على رؤية كل شيء وتذكـره في الحاضر، وفي الماضي منـذ بداية الدنيـا، وإذا مـا حـاول أي إنسان الاعتراض، سوف توجه إليه النصيحـة بأن يقوم بمحاولته بحجة تعدد القراءات، وأخطاء النساخ في الكتـابات المقدسة، علماً أنه لا يمكن نشر الكتـابات المقدسـة، من دون أن تكتب في أوقات مختلفـة، حتى من قبل الكاتب نفسـه، ولا من دون أخطاء إضـافـات أو حـذف، وذلك حسبما يقول القـانون المدني، ومرد هذا إلى وثام الحركـات في السموات، مع تبدل توجهـاتها، وكذلك إلى الأجسـام السماوية،ولكن بما أنه بالنسبة للهدف الذي ننشـده«لايوجد تغيير، ولا أثر للتبديل» فإن الأسـاقفة لن ينظروا إلى قراءات متنوعـة، وإذا ما رغبـوا في استخدام وسـائل المقارنة هذه، ولسوف يجري توجيههم من قبل المنطق الصحيح، وليس بالأمثلة، والقـول:«لقـد تولى آباؤنا المقـدسـون الكثيرون، وأسـاقفـة الكنيسـة

الرومانيـة المقدسة، والكنائس الأخـرى، والذين كانوا أقـدم منا وأكثر حكمة، تولوا إدارة المواريث الوقفية على هذه الشاكلة، ونحن نرغب في تقليـدهم بالعيش، في ولاية المواريـث الوقفيـة بالطريقـة نفسهـا»، ومن الممكن إجابتهم كمايلي:«هذا ليس بقيـاس، لأن الآباء المقدسين كانوا من ذوي العزم، وقد أداروا شؤونهم الدنيوية والدينية بشكل مقنع، وعندما تتبع المحـدثون مثلهم كـان مـا فعلـوه هو زيادة المشـاحنات زيادة كبيرة وذلك مع الأخطاء الانسـانيـة، ووفقـاً للقـانون المدني ليس علينا إعطاء اعتـبار«لما صنع في رو ـما، ولما لم يصـنع، بل علينا أن نهتم بما صنع، وبما ينبغي أن يصنع»، و«علينا أن لا نتردد في تبنـي طرائق جـديدة، عنـدمـا تكون فوائدها واضحة».

[30] أو لم يقل ابن رشـد بأن العـرب قد عـانوا من الشرور، لأنهم اعتقدوا بوجوب إطاعة شرائعهم عالمياً، ولا يجوز تعديلها بأي حال من الأحوال؟ أولم يتشكل كل قـانون وكل نظام للشريعة المدنيـة وفقاً لما هو جـيد ومفـيد؟ وفي الحقيـقة نادراً ـما يمكن إيجاد كل شيء في هذاالـعالم يمكن أن يكون جيداًونافعاً في كـل مكان، وفي كل زمان، ولكل إنسان، وعلى هذا تتنوع قـــوانين البشر وشرائعهم، وفقـــاً للمكان وللـزمـــان، وللحالات الفردية، وقد قال كثير من الفلاسفة بأن هذا ينبغي أن يكون هكذا عندمـا تتطلب المنافع ذلك بوضـوح، ولقـد غير الرب، الذي هو رب المـعارف كلـها، والذي هو معلم الآباء المـقدسين، والـفلاسـفة، في العهد الجديد أشيـاء كثيرة، كان قد أمر بها في العهـد القديم، ليعلمنا أن نعمل مثلها، وأن نفعلها من دون تحريف، وقـال القانون الرسولي، الذي جـرى إعلانه من قبل الآباء المقـدسين المتقدمي الذكـر، هذا في كثير من الكلمات من ذلك:«ينبغي أن لا نـــعد أنه أـمراً مشــجوباً، أن الـقوانين البشرية تتغير أحيـاناً مع تغير الوقت، لأنه حتى الرب نفسـه غيّر أشيـاء كثيرة في العهـد الجديد، كان قـد أمـر بها في القديـم»، وعرض القـانون

المدني الأمر وحدّده على الصورة التالية:«كل تحديد في القانون المدني هو خطير، لأن الذي لا يمكن تغييره هو غير كاف»، وتقول قاعدة أخرى:«في شريعتنا مبادىء عامة تتعدل بالاستثناء».

وبما أن الأمر كان هكذا، فينبغي أن يكون الأسلوب لوضع القوانين: بما أن القانون العام قد سنّ من أجل الصالح العام، فإنه إذا بدا أن أي شيء فيه كان قاسياً بلا مسوغ أو مختل، أو هناك نتائج ظالمة من تطبيق ذلك القانون بدقة في قضيةخاصة تحت القاعدة، لئن كان، وينبغي أن تكون القاعدة في مثل هذه الحالة، اتخاذ قرار مخالف مباشرة، خشية أن ينشأ ظلم من القانون العام، أي أن تقول ينبغي تطبيق قانون خاص على قضايا خاصة، وبحدود، وتعديل القانون المنشور بشكل عام عندما تستدعي ذلك حالة خاصة.

أولم يقرر القديس أوغسطين — معلم الانكليز، حسبما يُقرأ في قانونه — أنه لن يقوم بسيامة أي رجل دين، ما لم يقم هذا الرجل بالتخلي عن ممتلكاته، ومن ثم ممارسة الحياة الدينية بمثابة راهب؟ وقد وجد فيما بعد، أن عدداً كبيراً، كانوا من أجل أن تتم سيامتهم، يتظاهرون بأنهم سيفعلون ذلك، لا بل يفعلون،وبالفعل كانوا غير ذلك، ولهذا، ولكي يتجنب نتيجة النفاق الشريرة قال:«من المؤكد أنني أنا الذي قررت، أنه لن تجري سيامة أي واحد ما لم يفعل كذا وكذا، ولكن بما أنني علمت أن عدداً كبيراً هم مخادعين، اشهدوا أمام الرب، وأمامكم، أنني مغير لقانوني، وهكذا غير هذا الرجل القديس قانونه في وقت قصير، وتشريعه بسبب سوء تطبيقه،ولقد كان القانون قانوناً جيداً، فقط لو أن رجال الدين لديه راعوه بشكل جيد.

واعتاد كثير من الأساقفة على الدفاع عن مواريثهم الوقفية، متخذين ذلك حجة من أجل الانخراط في الحروب، وفي المحاكمات، ولقد أهملوا واجباتهم الروحية، أو على الأقل أعطوا إهتماماً أكثر لمواريثهم الوقفية،

وبسببهم تحملوا المزيد من النفقات، وبذلوا المزيد من العناية، والجهد، أكثر مما كرسوهْ لواجباتهم الروحية، فلماذا لا يعهدون بواجب الدفاع إلى آخرين، محتفظين بالدخل المعتاد لأنفسهم بعد دفع النفقات والأجور، ويكونوا بذلك مثل أولئك الأساقفة الذين عهدوا بمهمة صيد الحيوانات الضارية إلى آخرين، وعملوا من خلال آخرين، في حين احتفظوا بغنيمتهم؟.

٤٩[31]: وإذا ما اعترض إنسان قائلاً:«هناك بعض الأساقفة الذين لايهملون العناية بواجباتهم الروحية من أجل الدفاع عن أمورهم الدنيوية»، يمكن للانسان أن يرد على هذا بالقول: إن هذا مما لايحتج به، فقد اعتاد الذين تولوا صياغة الشرائع والقوانين على الاهتمام بالأشياء التي تحدث باستمرار، وليس بشكل نادر، وصحيح أن بعض الأساقفة يهتمون أكثر من آخرين بهذه الانحرافات، والذي يهتم أكثر وأكثر، وبمواظبة أكثر يكرس نفسه للحروب وللمحاكمات، والذي هو ممدوح أكثر في أعين العيون الدنيوية، إنه هو الذي حكمته جنون بنظر الرب، ومثل هؤلاء الناس قد دفعوا وتأثروا بهذه الاعتبارات إلى حد أنهم نظروا إلى مجدهم الدنيوي، على أنه جائزتهم الكلية، وقد اقتنع آخرون بتقليدهم بطريقة تستحق اللوم، وفي الوقت نفسه يتابع العدو القديم للسلام بكل الاعتبارات، وعدو الأرواح، يتابع أعماله وجهوده مع جيشه المتحد، ويبذل كل جهد مستطاع لديه من أجل تدمير أرواح الناس.

وإذا كان الشيطان يستثير الأرواح السبعة التي هي أسوأ منه شخصياً،من أجل جذب وإفساد فرد واحد، كم سيجمع من الحشود أكثر، ومن قوى جيشه، من أجل إعاقة هدف هذه الرسالة، التي سوف تقاوم فرصة عظيمة لا مثيل لها من أجل دمار الأرواح؟ فهو يرى كل شيء في الحاضر، ويتذكر كل ما حدث من قبل، وبارع في علم

استخـــلاص المستقبل من الماضي ومـن الحاضر، ولســـوف يكـون من الصعب جداً تجنب جيشه من الشياطين مع جميع إغراءاتهم، ومعيقاتهم، وإغـواءاتهم، لكن كما ذكـرنا من قبـل إن هذا لن يكون مستحيـلاً، لأن الشيطان نفسه الذي يعدّ والد الكذب، وجميع الكذابين هم أولاده،(مثلما الرب هو الصدق، والأشخـاص الصادقون، مادامـو كذلك هم أولاده) يكذب في كثير من الطرق عندمـا يتـولى إقناع الأسـاقفـة بمناقشـة من الواضح أنها متناقضـة، ويخدعهم من خلال الكذب، مثلما خـدع والدنيا الأولين، ومن المؤكد أن هذه أزمة أخلاقية، ولهذا فإن النتيجة الحقيقة لا يمكن الوصول إليـها بوسائل التظاهر والمراءاة، ولقد ـجرت العادة بين القوانين العامـة أولاً، ثم عندما ينجم أي تناقض أو ظلم مضر في قضية خاصـة تحت مبادىء أو قـواعد قـانون جـرى تطبيقه بحـذافيره، جرت العـادة صياغـة قـانون خاص يتـولى تعديـل القانون العـام، ومثل هذا، عندمـا تظهـر تناقضـات أو شرور أخرى تتبع وتـأتي عادة من مـراعـاة شريعة أو قـانون عالمي، ففي العادة، والأمـر الأفضل، إتمام إعادة النظر الدقيقـة من قبل الذي لديـه السلطة لفعل ذلك، وبناء عليـه على المشرع الأعلى للقـوانين أن يقـرر أولاً مـا هـو مطلوب من أجل تقـدم الأرض المقدسة، وإنقاذ المصالح العليا العامة للكاثوليك.

٥٠[32]: وتحتاج الأوضـاع بين الأساقفة أيضـاً إلى الإصلاح حيث ينبغي في المقام الأول، أن يقوم الأساقفة بالاستحواذ على جميع الادارات والأعمال ذات الطبيعة العلمانية، وأن يضعوها في أيديهم، وينتزعوها من الرهبـان، ثم أن يأمـروا بإدارتها من قبل هيئة إداريين علمانيين، يمكنهم أن يتولوا اختيارها بناءً على نصيحة ثلاثة أو أربعة من رهبانهم، ممن هـم حكماء ومجربين، ومتميـزين على البقيـة، وزيادة على هذا على الأسـاقفـة النظاميين، ومثلهم الأسـاقفة المدنيين — لأسبـاب قوية جـداً — عليهم فوراً وبدونً تأخير، تشكيـل هيئة وصاية على شؤونهم الدنيـوية، وسبب

هذا، أنهم اعتادوا مـن وقت إلى آخر أن يشغلوا أنفسهم حـول المحاكم، وبذلك ابتعدوا عن تأملاتهم الدينية.

٥١ : وإذا مـا احتج كل من الأساقفـة المدنيين والأساقفـة النظاميين، أنه مضر لمصـالحهم أن يقـومـوا بعمليـة التحـويل هذه إلى هيئة وصـاية دائمـــة، من الممكن إقناعهـم بالقبـــول مـن قبل أباطرتهم، وملـوكهم، وأمرائهم، حيث يمكن لهؤلاء النظر نحـو الخلف ومن ثم أن يروا بأنهم قد صرفوا شطراً كبيراً من دخلهم، ومنتجاتهم، وموارد ممتلكاتهم — في كل سنة ـمن السنوات — في إدارة أراضيهم، وفي الدـــفاع عنـــها، وفي مبـاشرة أمـــور العـدالة، وإصـدار الأحكام، ولقـــد سمعت أن مـوارد ومنتجات مملكة نافار، تصل إلى مبلغ خمسين ألف ليرة تورية، وبصعوبة بالغة قد يصل إلى ملك الفرنسيين — لأنه يحكم من خلال الآخرين — مبلغ خمسين ألف سولدي Solidi، بعد حذف نفقـاته، ونفقات الإدارة والدفاع.

٥٢ : وافترضوا أن واحداً من الناس قـال للملوك وللأمراء:«إذا كان أي واحد منكم طلب سن مثل هذا القانون ضد الأساقفة، عليه الالتزام بهذا القـــانون نفســه، ولنفترض أنكم أول مـن قـام بتحـــويل ممتلكاتهم الدنـيوـية، وبذلك ضربتم مـثلاً جـيداً للأـساقـفة، وإلاّ ـحافظوا على الصمت تجاه هذه القضيـــة، وربما يمكن أن يجيـب، إنه مثلما لا يستطيع الأسـاقفة الخلاص من مسـؤولياتهم بالعهـدة إلى آخرين بإدارة الأشيـاء الروحية، كـذلك الأمر بالنسبة إلى الأمراء فيما يتعلق بالأشيـاء الدنيوية، لأنه مثلما أعطيت ثروات الكنائس إلى الأسـاقفـة، وعهـد إليهم بها، من أجل تقديم العون بكل وسيلة لتوجيه الأرواح وقيادتها، كذلك أعطيت الممتلكات الدنيوية إلى الأمراء، وعهد بها إليهم، من أجل أن يتمكنوا في كل مكان من حـراسة السـلام في بلدانهم، والدفاع عنهـا، ومقاومـة كل شر مهما كان نوعه، وإصدار الأحكام، وممارسة العدالة بمكافأة المحسن

في كل مكان، ومعاقبة الشرير وتقويمه، والأمراء — لاسيما الذين لا يرون، ولا يعترفون بمن هو أعلى منهم على الأرض في المسائل الدنيوية لديهم سلطات قضائية، ولقد اعتادوا على التفوه بأحكام أشد قسوة في قضايا تتعلق بتقصير موظفيهم، وأعنف منها في قضية أي من الآخرين، فهم يرون عزل هؤلاء الموظفين من مناصبهم بسبب ذنوب صغيرة اقترفوها، وذلك وفقاً لطرائق الرهبان الذين هم في ظل الخوف من العزل،والعقوبات التي ينزلها المقومون والمحققون من خلال إجراءات قصيرة، ولايمكن إنزال مثل هذه العقوبات بشكل جاهز بالذين يشغلون مناصبهم بوساطة ولاية دائمة، ولهذا من الأحسن جعل مثل هذه التعيينات أكثر جاهزية للعقوبة، وأقل جدية في اقتراف الاعتداءات الجدية، مع تحريات أقل، ويمكن نقلهم باستمرار أكثر.

وحيثما كان الأساقفة متورطون، إنه أفضل بكثير أن يحكم عليهم من قبل آخرين بدلاً من أن يقضى عليهم من قبل أنفسهم، وأن يتولى ممارسة أعمالهم الادارية آخرون، فمن الممكن بيسر استخراج أدلة ضد شخص ما ممن يتولى ممتلكات لصالح الأسقف، من استخراجها من الأسقف مباشرة، وفي الحقيقة أصر عدد كبير ـمن الأساقفة في عدد كبير من القضايا على أنه لا يجوز معاقبتهم من قبل أمير دنيوي، من أجل جريمة، بسبب أعمالهم الشخصية(لابل إنهم يقولون بأنه لا يمكن معاقبتهم من قبل مثل هؤلاء الأمراء) بسبب أي عمل شخصي مهما كان نوعه.

٥٣ : فضلاً عما تقدم، إنه أسهل إبداع طريقة إجراءات قضائية ضد الآخرين الذين بين أيديهم ممتلكات لصالح الأساقفة، من القيام بذلك ضد الأساقفة أنفسهم، فالآخرون سوف يخافون خوفاً شديداً من النفقات، والغرامات، والعقوبات.

زيادة على هذا،سوف يبقى الأمراء بلا عمل، ما لم ينشغلوا بحكم

رعاياهم، وهكذا يمكننا أن نفترض أنهم غالباً ما سيمتلكون الوقت من أجل تبديده في الحروب وفي أعمال شهوانية مما يمارسه الناس الذين ليس لديهم أعمال، ومثل هذه الفرص ينبغي بالحري تجنبها، بدلاً من السعي من أجلها، واختيارها.

٥٤ [32] : وينبغي القيام بمحاولة استدعاء جميع الرهبان المتسكعين في الأماكن وفي الرعويات غير الرهبانية، للعودة إلى ديرهم، من أجل أن يمارسوا الحياة الرهبانية هناك، وخشية من أن تتناقص الصلوات في مثل هذه المؤسسات غير الرهبانية، ينبغي تعيين قسيس في كل واحدة من بيعهم، وينبغي أن يعيش هؤلاء القسس حياة متواضعة، كما عليهم تأدية الواجبات الدينية هناك كل يوم.

٥٥ — ما الذي ينبغي أن يصنع بممتلكات الرعويات غير الرهبانية، أو التي فيها مجرد ثلاثة رهبان أو أربعة فقط؟ فإذا كان الدير بحاجة إلى رعاية رهبانية كافية من أجل نقل الرهبان المقيمين إليه في بعض الأحيان، لأسباب محلية تتعلق بسوء السلوك في الدير، فلابأس من تأسيس دير رهباني مع مؤن قليلة جداً من أجل رهبانه، ووقتها سوف يخشى الرهبان من الإرسال إلى ها هنا، وسوف يسلكون ويتصرفون بشكل أحسن في ديرهم خوفاً من إرسالهم للعيش في دير، الدخل المعين له قليل جداً.

٥٦: لكن إذا كان الدير ليس بحاجة إلى مثل هذه الرعاية الرهبانية، وكان عدد رهبان الرعوية قليل جداً، من المتوجب تحويلهم إلى دير، ليتولوا خدمة الرب داخل الدير المغلق.

وينبغي أن يعين من أملاك الرعويات المحولة لصالح الديرة مبلغ يعادل النفقات الفعلية لعدد كبير معلوم من الرهبان كل سنة، وعلى هذا سوف تكون القداسات وتنفيذها بداية وممارسة ذات شكل أفضل،

ولسـوف تتمكن الديرة من استرداد أولادهـا الذين كـانوا يحومـون من خارج الديـر وإليه، فهم لن يعودوا بعـد الآن مثقلين بالمسائل الـدنيوية، ولسـوف يمارس الرعــاة والرؤسـاء كثيراً من العناية المفــرطة من أجل الخسائر الروحية، وسوف يتغلبون على متاعب كثيرة جداً.

وبهذه الطريقـة سـوف تكون جميع ممتلكات دير مـا بأيدي شخص واحـد، أي بأيدي الذي من واجبـه إدارتهم، وهو لن يخشى من تقـويم أبنائـه أو إرغـامهم على مـراعـاة النظام بسبب أمـوال مخبأة في أكيـاس أموالهم عن طريق الممارسـات المنحرفة التي تقدم ذكرها، فبـوساطة مثل هذه الأموال كانوا قد اعتـادوا على النضال، والعصيان والتمرد من أجل خلع رعـاتهم، وإثارتهم، والتشكي ضـدهم، فبهذه الطريقـة يكونوا قـد بددوا معظم الممتلكات الديرية، وأودعـوها في أكياس أمـوالهم، وذهبوا بها، بعدما يكونوا قـد كرسوها في خارج الدير، وغـالباً ما يخسرونها مع أرواح كل من المودع والمتسلم، وقـد حرضت هذه المخـالفات الروحيـة الكبيرة، كـاتب هذه الكلمات لأن يفكر، ولأن يكتب من أجل الصـالح العـام، مع أنه قـد تسلم، ولربما سـوف يتسلم في المستقبل أجـوراً كبيرة وكثيرة من مثل هذه الممتلكات، إذا ما أعطاه صانع الحياة حياة مديدة.

٥٧[34] : وما الذي سوف يصنع بممتلكات مثل هذه الديرة التي بقيت بعـد القيام بعمليـات الحسم المقترحة؟ قـد يجيب إنسان: إنه وفقـاً لمـبادىء الآباء المـقدسين، ليس رجـال الدين النظاميين وغير النظاميين أصحـاب أمــلاك لاهوتيـة، لكنهم يتــولون إدارتها فقط، ويمكنهم أن يتسلمـوا منها — بقـرار من الكنيسـة — الطعـام، واللباس، والأشيـاء الأخـرى الضرورية لقـوام الحيـاة، والمتبقي هو ملك للفقـراء، وهو من أجلهم، وكل الذي احتفظوا به عـن طريق الاداريين هو إجحـاف بحق الفقراء، أو أنه استخدام من أجل استعمالات غريبة، أو جرى الاحتفاظ به من أجل إيذاء المسيح والفقـراء الذين هم رعـاياه، وهذا كله سرقـة،

واختلاس، ودنس.

وتبقى الحقيقة هي أن هؤلاء الرعاة البعيدون، وتقريباً جميع رجال الدين يسيئون استخدام ذلك المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الكنيسة وإلى الديرة، وبناء عليه ينبغي أن يفقدوا طوال الوقت الامتيازات،أو — لنتكلم بصدق أكثر — فرصة إدارة ممتلكات من هذا النوع، وفقاً لرغباتهم، ولسوف يمنع هذا الكهنة العلمانيين من كنز مثل هذه الثروات الهائلة، من أجل إيذاء الفقراء الذين غالباً ما يرونهم قرب كنوزهم، غير أنهم لا يشفقون حتى على التعساء الذين ربما كانوا يهلكون من البرد والجوع.

ويتوجب أيضاً أن يطلب من المجمع المقدس أن يرسم بوجوب تحويل الجزء الأكبر من ممتلكات الأشخاص المتوفين، مع المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الرعاة المتقدمي الذكر، تحويلها إلى المراكز الواسعة المتقدمة الذكر، من أجل الأرض المقدسة وما يتعلق بها، مما يساعد على إصلاح الكومنولث الكاثوليكي كله، وتوحيده حقاً، وهذا الهدف ربما سيكون الأسرع تطبيقاً وفق الطريقة الموضحة أدناه.

[35] : لقد جرت أعلاه مناقشة الاجراءات المطلوبة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، لكن الاجراءات التي سوف تتطلب راحة سكان تلك البلاد لم يجر عرضها ولا بحثها.

ولنفترض أن الناس الذين سكنوا في تلك البلاد، عاشوا عيشة نكداء،(فقد كتب: لاتعطي الأمكنة الحصانة للناس، لكن الناس يعطون الحصانة إلى الأمكنة)، فكيف يمكن لمملكة ولسلطة مقترفي الشرور البقاء، ولنفترض أن الناس اجتمعوا هناك بشكل عملي من جميع أقطار العالم تقريباً، وشرعوا في ممارسة حياة شريرة، وعودوا أنفسهم على مثل هذا النمط من العيش؟ وعوضاً عن تغييره، ثبتوه بمثابة عادة، هي ذات

طبيعة أخرى، بما أنها تغير الطبيعـة، ومن أجل تجنب هذا الشر، يبدو أنه مفيد جـداً إلى كل إنسان أن يعثـر على من يعترف له، قادر على الحديث بلغته الخاصة، وعالي الثقافة، أي أن يكون طبيباً للأرواح.

٥٨ : وطبيباً أيضاً من أجل داخل الجسد وخـارجه كذلك، ونادراً ما يمكن العثــور على أنـاس من هذا القبيل بيننـا محنكين وبارعين في مثل هذه المسائل، وبسرعة ـسوف يصبح هؤلاء أثرياء بيننا، ولن يعبروا إلى هناك بأعداد كافية، لأنه لا يوجد حتى ما يكفي من أجلنا.

٥٩ [36] : ولســوف يكـون مفيـداً بالنسبـة للذين على رأس مملكة القدس أن يتـوفر لديهم كثيراً من الكتـاب الذين يعرفـون اللغة العـربية ويحسنون الكتابة بها، مع معرفة لغات العالم الأخرى، وقد قيل يوجد في البلدان الشرقيـة بعض الناس من الكاثوليـك، هم ليسـوا تحت طاعـة الكنيسـة الرومـانيـة، وهـم لا يتفقـون معنا في بعض أركـان الايمان التي تتمسك بها الكنيسة الرومـانية، ويدعى أسقفهم الأعلى الذيـن هم جميعاً تحت طاعتـه، مثلما نحن تحت طاعـة الأسقـف الرومــاني، البطريرك، ويحكى أن لديه تحت طاعته تسعمائة أسقف، وإذا صح هذا، يكون تحت سلطانه أكثر مما لدى السيد البـابـا، وسـوف يكون نافعـاً لو أن هؤلاء الأسـاقفة، قـاموا مع أتبـاعهم، وعدد كبير آخـر ممن ابتعد عن الكنيسـة الرومانية، ولم يعودوا مطيعين لها، بالسعي للاتحاد مع الكنيسة الرومانية، وتقديم الطاعـة لها، والدخول في حظيرتها الإيمانيـة، ولسوف يكون هذا الأمل عبثـاً، ما لم تمتلك الكنيسـة الرومانيـة كثيراً من الرجال، يجيـدون معرفـة لغاتهم، فمن خلال هؤلاء يمكنهـا التواصل معهم، ولن تستطيع الأرض المقـدسـة وحكـامهـا الحصـول على منفعـة كـاملة من عـونهم وتعاونهم مـا لم يستحوذوا أيضاً على عدد كبير من الأشخـاص المجيدين للغاتهم، أي مثلما قال أفلاطون حول هذا الموضوع:«أعطي الكلام لك، لأنه من خـلاله يمكن التـوصل بسرعة إلى تحقيـق موقف واحـد وإرادة

متبادلة».

ولقـد قضى الـرب وقـرر أن يكون الحبر الرومـاني، نائبــه، وخليفـة بطرس على الأرض، هو الرأس للكنيسة المسكونيـة، وأن يطيعه الجميع، وذلك حسبما أعلن المتحدث باسم الآباء المقـدسين وأوضح، وبناء عليه يتبع هذا أن الرب قـد قضى، ومـازال قـاضيـاً، بأن يتم تأمين كل شيء ضروري ويفضي للوصـول إلى هذه الـغاية، وإلاّ يكون ـما قضى به لم يتحقق تماماً، وإذا ما قلت العكس سوف تكون هرطقياً.

لكن كيف يمكن للحبر الرومـاني ـجذب هؤلاء الناس الشرقيين، إلى الوحـــدة، وهم أيضـــاً لا يمكنهـم، وكيف يمكنه إزالة الأخطـاء من قلوبهم، مـا لم يكن ذلك من خـلال مترجمين عقـلاء وأمناء، ينبغي أن يفهمـوا أولاً لغـة الجانبين، وأن ينقلوا الرغبـات المتبـادلة للطرفين؟ ويتـوجب على هؤلاء المترجمين أن يعـرفـوا كيف يمكنهم التجـاوب بعقـلانيـة كبيرة مـع اعتراضـات البرابـرة حتى يمكن تدمير مـواقفهم العـدوانيـة الخاطئة، وينبغي أن يكونوا قـادرين على إقناعهم بنقـاشـات وحجج لا تقبل الجدل، وبقوة جذب حقيقة الإيمان المسيحي.

وسوف تكون هناك إصـلاحات أخرى كثيرة تـوصل إلى هذه الغاية، وهي سوف تظهر مما سيأتي، وبوساطة الخطة التالية — مع معونة الرب — سيكون من الممكـن الوصــول إلى هذه الأهـداف أخيراً، لكن ليس على الفور.

وبما أن البابوات الرومـان يتسلمون بالعادة مناصبهم السـامية في سن متقدم، وهم منشغلون كثيراً بالعناية بالرعية الكبيرة التي عهد بها إليهم، ولا يمكنهم — بالإضـافـة لما لـديهم من أعمال — تعلم اللغـات مثل هؤلاء الناس، حتى لو أن البابوات كانوا يحسنون هذه اللغات، فإنهم لا يمكنهم الارتحال إلى هؤلاء الناس، كما لا يمكـن لهؤلاء الناس القـدوم

إلى عند البابا، هذا ولا يوجد ـتراجمة معدين من أجل هذه المهمة، كما لا يمكن تحصيلهم مقابل كل أموال الدنيا، ما لم يكن قد جرى إعدادهم من قبل، ولعلهم لن يكونوا قادرين على إظهار أية نتائج فعالة خلال حياة الذي بدأ بتنفيذ هذه الخطة، وهكذا فعل موسى، فهو لم ير أرض الميعاد، بل — كما كتب — عمل من أجل الاستيلاء عليها من الخارج، وعلى كل حال، ينبغي — على هذا — على الحبر الأعظم عدم إهمال وضع هذه الخطة المرحب بها موضع التنفيذ، ولو أن الرب سبب الإصابة بالأمراض، وبعث بالموت بسبب الذنوب، هل سيقوم أبو الرحمة — لسبب قوي — بإطالة حياة الذي باشر هذه الخطة، لأن أهدافها وغاياتها جديرة بالثناء، أو لم يكتب :«تعلم وكأنك ستعيش أبداً، وعش كأنك ستموت غداً».

٦٠[37] ويسعى الأب الأعلى قداسة، السيد بابا روما، كليمنت الخامس من أجل إقامة وحدة حقيقية للديانة المسيحية، الأمر الذي لايمكن تحقيقه على الفور بجهود الناس، ومن أجل الحصول على هذه المنافع، ومنافع أخرى لايمكن تعدادها، ولايمكن تصورها كلها مسبقاً وذكرها، ولعله يرضيه أن يأمر — بعون الرب — بزيادة المقترحات التالية، وإتمامها، أو تغييرها، وذلك حسبما يرى الأمر مناسباً هو مع مستشاريه العقلاء، الذين يعرفون تمام المعرفة أوضاع العالم.

ويتوجب تأسيس مدرستين أو أكثر من أجل الأولاد، والعدد نفسه للبنات، في كل مقاطعة، وذلك وفقاً للامكانيات المتوفرة والمتاحة من أجل هذا الهدف، وحسب حجم السكان، على ممتلكات ديرة أمثال الداوية والاسبتارية، فهناك ينبغي تأسيس هذه المدارس التي هي أفضل شيء مناسب لهذا الهدف، والطلاب الذين سيجري اختيارهم للتعلم هناك، ينبغي أن يكونوا في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم، ويجري اختيارهم من قبل فلاسفة عقلاء، يمكنهم إدراك إمكاناتهم الطبيعية من

أجل التقـــدم في تعلم الفلسفــة ودراستهــا، وينبغــي أن يقبل في هذه المدارس أطفـال من أصل نبيل من الجنسين، إذا مـا وجـدوا، وبقدر مـا يمكن توفرهم، ويجري بعـدهم قبول الأطفـال الآخرين، وهؤلاء ينبغي تعليمهم بشكـل متــواصل، وفـق المنهج المبين أدناه، وهو منهـج يمكن تغييره، وإتمامه، وتحسينـه من قبل رؤوس حكيمة، وسـوف يجري قبول هؤلاء الأطفال مع شرط أنهم لن يعودوا مطلقاً إلى أبويهم، ما لم يسددوا جميع النفقات التي أنفقت عليهم، وسيجري إرسال بعضهم من مدرسة إلى ـمدرـسة، وأخيراً إلى الأرض المـقدـسة، وإلى أراضي أـخرى تـتولى الكنيســة الرومـانية المقـدسـة تحديدها، من خـلال الذين جـرى تعيينهم للقيـام بهذا العمل، وسيجـري الانفاق على الطلبـة وعلى أسـاتذتهم من أملاك الديرة المذكـورة، ومن خلال مراكز الأمـوال الموقفة على الأرض المـقدـسة، والتي ورد ذــكرها من قبل، ويجري تعيين الاداريين المشرفين على المراـكز المالية، ـمن قبل رؤساء الأـساقـفة المحليين، وذلك بناء على نصيحـة الأسـاقفـة المسـاعـدين، ذوي الخبرة، فهـؤلاء سيرون من هو مناسب للعمل.

٦١ : وأول مـا ينبغي تعليمه إلى هؤلاء الأطفـال هو اللغة اللاتينيـة، حتى يتملكوها بشكـل جيـد، أو على الأقل حتى يحسنوها، وبعــد هذا ينبغي تدريب بعضهم على تعلم اللغة الاغريقية، تدريباً دقيقاً، وبعضهم على اللغة العـربية، وهكذا بالنسبـة إلى اللغات الأخـرى، لاسيما اللغات المستخدمة من قبل الشعـوب الكاثوليكية في الشرق، وسيكون بالامكان في النـهاية، بمساـعدة هؤلاء الشـباب، الذين تدربوا على الحديث وعلى الكتابة بلغـات جميع الشعوب، للكنيسة الرومانيـة، وللأمراء الكاثوليك أيضــاً، الاتصـــال من خــلالهم بجميع النـاس، وجــذبهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وإلى الاتحاد مع رأسها.

وينبغي تدويـن أسماء جميع الشبــاب الذين تـدربوا على النحــو، مع

تفضيل للأصغـــر سناً، وإذا مـا تـوفـر بعض الذيـن تدربوا على المنطق، فـذلك هو الأفضل، وينبغي اختيار بعض هؤلاء وتعليمهم بكل سرعـة مبـادىء الإيمان، والقداسـات، والعهد القـديم والعهد الجديد، ومـا أن يكملوا دورة الدراسة هذه حتى يمكن إرسالهم إلى الأرض المقدسة، من أجل التقدم في دراسـة الكهنوت، وبذلك يتولون العناية بالأرواح، ومن بين صفوفـهم يمكن تزويد الكنائس والناس فبعضهم ينبغي تدريبهم في ميدان الطب، وآخـرون في كل من الجراحة الإنسـانية والحيـوانية، وبهم يمكن تقديم العون إلى الجيش، وإلى جميع السكان من كلا الجنسين.

[38] : وينبغي تعليم الفتيات الطب والجراحة، والمواضيع الضرورية التي تشكل مقدمة إلى هذا، ومع هذه التدريبات، ومعرفة الكتابة، سوف يجري تبني هذه الفتيات، اللائي من أصـل نبيل، والأخريات اللائي هن متميـزات بالبراعة، واللائي هن جميـلات وجـذابات بالوجه وبالقـوام، تبنيهن كبنات أو حفـيدات ـمن قبل الأـــمراء الكـبار في بلدانهن، وفي الأرض المقـدسـة، وفي البلدان الأخـرى المجـاورة لها هناك، وبعـد هذا يجري إلباسهن على حسـاب المراكز المالية المتقـدمة الذكـر، حتى يظهرن كأنهن بنات أمـــراء، وإثـر هذا يمكن تزويجهن بشكل مــوائـم من قبل الأمراء الكبـار، ورجال الدين، والأعيان الأغنيـاء الآخرين،وعليهن أن يعـدن ويتعهدن أنهن بعـد أن يتزوجـن من هؤلاء الرجال القيـاديين أو الأعيان الآخرين، سـوف يقمن — أثناء حياتهن إذا كان ذلك ممكناً — بتسديد المبالغ التي أنفقت عليهن، إلى المراكز الماليـة المتقدمة الذكر، وإذا كن غير قـادرات على فعل ذلك، ينبغي أن يوافقن على إعـداد ترتيبـات للتسـديد، أو تســديد أي جـزء ترك من دون دفـع عند مـوتهن، وبهذه الوسيلة يمكن لهذه المراكـز الماليـة أن تتـزايد بدون حـدود، ويبـدو أنه سيكون أمـراً رائعـاً بالنسبـة لـلأسـاقفـة الشرقيين أن يتخـذوا مثل هذه الزوجات، لأن من عـادتهم الزواج، ولم يرتضوا مطلقاً بتقليـد الرومان

وبقية رجال الدين الغربيين في التخلي عن امتيازاتهم بالزواج.

وزوجات قد امتلكن مثل هذه الثقافة، واستحوذن على أسس الإيمان مع الأسرار المقدسة وفقاً للاستخدامات الرومانية، لا شك أنهن سيتولين تعليم أولادهن وأزواجهن من أجل الارتباط بالايمان الروماني، وللاعتقاد والتضحية وفقاً لها، ولسوف يستخدمن المناقشات ويستغللن الفرص بشكل فعال أكثر ومؤثر من الخداعات التي مورست من قبل زوجات سليمان عليه، الذي مع أنه كان أحكم الرجال وأعقلهم، قدنه نحو عبادة الأوثان، وعلى هؤلاء النسوة، القيام — من خلال حبهن لأوطانهن الأصيلة — باتخاذ ما يلزم من ترتيبات من أجل زواج عدد كبير من الفتيات من هذه المدارس، من أولادهن، ومن شخصيات قيادية أخرى في البلاد، وبشكل خاص إلى كهنة سوف يترقون في المستقبل إلى مرتبة الأسقفية، وينبغي أن يكون لديهن شمامسة يتولون أعمال القداسات والغناء وفقاً للطقوس الرومانية، ولسوف يتولين بوساطة هذه الأساليب ويتمكن من جذب السكان في تلك المناطق إلى الطقوس الرومانية، وهن سوف يؤثرن بشكل خاص على النساء، اللائي سوف يتلقين مساعدتهن من خلال ممارسة الطبابة والجراحة، ولاسيما في أحوال وهنهن السرية واحتياجاتهن، ومن غير الممكن أن يحدث سوى — وقد تفوقن على غيرهن من العقائل، وكن أكثر نبلاً وثروة، وبتن معروفات في كل مكان ومشهورات بمعارفهن في الطب والجراحة، والعلوم التجريبية — أن يجذبن سيدات القوم اللائي بحاجة إلى مشورتهن، وينلن إعجابهن لبراعتهن وفوائدهن لهن، فيحببنهن لهذه الأسباب، ومن ثم يقمن بجذبهن، أو بالحري للاتصال بهن، ومن ثم سوف يكن مسرورات بالاتحاد معهن والتوافق على الأخذ بأركان الإيمان والقداسات.

٦٢ [39] : وأيضاً على أي بابا مستقبلي، عندما يحين الوقت وتتيسر

الأمـور، ويصير لديه أشخـاص يتقنون لغـات الكاثوليك الشرقيين، أن يقوم باستخدام عدة أفـراد من هؤلاء في مجلس الكرادلة ممن تتوفر فيهم الفـصاحة والمقدرة الأدبية، فمن خلال هؤلاء يمكنه أن يكتب إلى الأساقفـة، وإلى الشخصيات القيادية الأخـرى في تلك البلاد، هذا ومن الممكن بسهولة الحصول على متدربين علمياً بالاغريقية، فعندما يتوفر في بعض المدارس البعيـدة، عـدد من التلاميـذ المؤسسين بشكل جيـد بالاغـريقية واللاتينيـة، وقتهـا يتوجب اختيـار الذين يبـدون بينهم أنهم واعـدين أكثـر، ولديهم قـابليـة أكبر للتعلم من الآخـرين، اختيـارهم للدراسـة والسماع، وفيها بعـد لتعلم مـواضيع أخـرى، بحيث يتعلم بعضهم القانون الكنسي والقانون المدني، وآخـرون للفلك مع عدة علوم في ميـادين الرياضيـات والطبيعيـات، وآخـرون بالطبـابة، وآخـرون باللاهـوت، وينبغي فصل المدارس المكرسـة لهذه العلـوم إحـداها عن الأخـرى، خشية أن يعقن بعضهن بعضـاً من خـلال التحاسـد، أو من خلال أمور أخرى، لأن الفيلسوف قـد قال في كتاب الخطابة:«الفلاسفة متحاسـدون بشكل طبيعي»، ووقتها إذا مـا أراد البابا أن يرسـل واحداً من النواب، في مهمة صعبة إلى بلاد الإغـريق — وأعتقد أنه ينبغي تبني السياسة نفسها في حالة اللغات الأخرى والبلدان — عليه أن يبعث في الوقت نفسه مع النائب اثنين أو عدد أكبر من الأشخاص البارعين جداً في كل فرع من فروع المعارف، فهؤلاء سيتفوقون على خبراء تلك البلاد في المناقشـات، وفي تقديم النصـائح، والمبـاحثات، وفي كل سبيل آخـر، وبذلـك لن يكون هناك مـن يستطيع أن يتصـدى لحكمـة الكنيسـة الرومانية، وسوف يقـوم الذين يعتمدون في الشرق على المنطق، بامتداح حكمـة الرومـان والخوف منهـا، مثلما أطرت ملكة الشرق(سبأ) حكمـة سليمان.

٦٣ [40] : وإحدى نتـائج تأسيس مدارس من هـذا النوع، وإرسال

أشخاص متعلمين من كـلا الجنسين، وإرسالهم إلى الشرق، سـوف توفر إرسـال السلع الثمينة، الوافـرة في تلك المناطق، لكن النادرة بيننا وذات القيمـة العظيمـة، ولسـوف تشحن إلينـا إلى الغـرب، بكميـات كـافيـة، وبأسعار معـقولة، وسيكون هذا فور غدو العالم ـكاثوليكياً، وهناك كثير من المنتجات التي تعدّ نادرة وثمينة، لعدم تـوفرها لدينا، هي وافرة جداً في أماكن أخرى، وينظر إليها هناك على أنها قليلة القيمة.

وإذا ما سعى الانسـان إلى معرفة سبب هذه الحقيقـة، سيجد الجواب هو نفسه الذي ـقدمه الفيلسوف حول ـما يتعلق بأسباب وضع العناصر الأربعة بقوله:«لم يقض الرب المبـارك والممجد، الذي خلق للانسان كل مـا هو مـوجـود في العـالم السفلي، بأي شيء عبثـاً، وهكذا تولى توزيع هباته في هذا العالم».

وإذا مـا أراد إنسان، إرضـاء ً لرعـونته، وتنفيـذاً لإرادته الشرهة، أن يمتلك في هذا العالم كل شيء أراده، سوف يفضل البقاء هناك بالأسفل، بدلاً من التحليق نـحو وطنه في الأـعالي، لأن رغبـته ستكون مثبـتة على المركب الأكثر انخفـاضاً، وهكذا سـوف يمارس الانسان من هذا القبيل حيـاة مضطربة، لأنه لم يجر توجيهـه نحـو الخالق، أولم يوضح بوثيـوس Boethius هذا جيـداً عندما قـال:«إن الذي ينبغي أن يعترف بوجـوده لوحده في العالم هو الذي يبقي على النظام ويحافظ على الطبيعة»؟ وبناء عليه قـال بهذا الصدد: شرار الناس غير موجـودين بالفعل، والذنب هو لا شيء، ومن هنا قرر أحكم الرهبـان توماس الأكـويني — كما سمعته يقول في إحدى مواعظه:«كل من يقترف ذنباً هو عبد للذنب، وكل عبد هو أدنى من سيـده، وبما أن كل ذنب هـو لا شيء، فإن كل مـذنب أقل من لا شيء»، وعـرض الفيلسـوف هذا كمايلي بقوله:«العـالم هو وحـدة بسبب توحـد منظمـه، مثله في ذلك مثل جيـش»، فـواجب الذي يدمج جيشاً في وحدة أن يفعل ذلك من خـلال وحدة الهدف الذي يسعى من

أجله ويناضل، وهو النصر، وهذا من حيث المبدأ يقع على كاهل قائد الجيش ورئيسه، ومثل هذا إن واجب جعل العالم وحدة، يقع بشكل رئيسي على كاهل ملكه.

[41] : وعلى كل حال، إنني أشك أن يكون هناك رجل ذي عقل سليم يمكن أن يعتقد في هذه الأيام، وفي هذا الجيل، يمكن توفر ملك دنيوي واحد لكل العالم، يمكنه أن يحكم كل شيء، ويمكن للجميع أن يطيعوه على أنه رئيسهم الأعلى، وإذا ما توفر ميل نحو هذا الاتجاه، سوف تكون هناك حروب، وثورات، وتمزقات بدون نهاية، ولن يكون هناك أحد قادر على قمع هذه الاضطرابات بسبب كثرة الناس، ومسافات المناطق المتورطة، والفوارق المحلية، وميل الناس الطبيعي نحو الصراع، ومع أنه كان هناك أشخاص أطلق عليهم اسم ملوك الدنيا، أنا لا أعتقد أنه وجد أي إنسان قد أطاعه الناس جميعاً منذ أن شغل بنو البشر الأرض وسكنوها، وكما أعتقد، ما من إنسان قرأ أن الغربيين على هذا الجانب من بلاد الاغريق قد كانوا رعاياً للملك الاسكندر، أو خضعوا لسلطانه، لكن من المعقول بالنسبة للمسائل الروحية، يمكن أن يوجد — لابل ينبغي أن يوجد — أمير واحد، وملك، يمكنه أن يسوس بمشاعر روحية ممانعة سلطوية في الشرق، وفي الغرب ،وفي الجنوب، وفي الشمال، ولايمكنني أن أرى كيف لهذا أن يحدث، مالم تتوفر الاعدادات من أجل تعلم اللغات، إما وفق الطريقة التي عرضت أعلاه، أو وفق طريقة ما أفضل، حتى الرب القدير نفسه الذي قد ضرب لنا مثلاً عندما علم بالأعداد وبالأمثلة وأنواع أخرى من الأحاجي، قد أعطى في موعظته لحوارييه ورسله، معرفته بجميع اللغات وبجميع أنواع الحكمة، لأن هؤلاء -كانوا سيتولون التبشير بالانجيل إلى جميع الناس، وقد قال لهم:«عندما ستظهرون أمام الملوك والحكام لا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تعطون في تلك الساعة

ما تتكلمون به»[متى :١٠ / ١٨ — ٢٠ ، باختزال].

٦٤ : لم يوجد، ولا يوجد، ولن يوجد، أي واحد إلى جانبه، يمكنه أن يعطي مثل هذه الأعطيات العظيمة، ومثل هذه الفضائل العظيمة، فله وحده حفظت قدرة صنع المعجزات، وبالنسبة له مامن شيء مستحيل، يمكن أن يتماشى مع طبيعة الأشياء، وطبعاً هو لا يمكنه صنع أي شيء يكون في الوقت نفسه موجوداً وغير موجود، لكن وجود الافتراضين المتعارضين في الوقت نفسه أمر صحيح، وكذلك تعارضهما بالنسبة إلى الحقيقة، وفي الحقيقة، لم يوجد قط مخلوق كان بإمكان ذاته صنع أقل المعجزات، لكن الرب القدير، أعطى بطريقة إعجازية المبشرين الذين اختارهم ليرسلهم إلى جميع أرجاء العالم، معرفة جميع اللغات والقدرة على التحدث بها، كما لو أنهم كانوا من السكان المحليين لعدة مناطق، وفعل هذا من أجل أن يجعل الناس جميعاً يؤمنون، ويتعمدون، ومن ثم ليكونوا رعايا لبطرس، أمير الرسل، جاعلاً من جميع المؤمنين كومنويلساً واحداً.

٦٥ : لايمكن لخليفة بطرس، نائب المسيح، والذي دون سواه المقلد الوحيد له، أن يمنح المعرفة بشكل مفاجيء وإعجازي، فلماذا إذن لا يقوم بإتخاذ إجراءات للتزويد بالمعارف اللغوية والقدرة على التحدث في أي منها، بعدما أطلع على وسائل لجعل الطلاب يعرفون، ويفهمون، ويمكنهم التكلم بجميع اللغات، حتى يجري إرسالهم إلى الخارج للقيام بأعمال التبشير؟ وهذه الوسائل لن تكون متوفرة له فقط، لا بل من السهل الحصول عليها، وقليلة التكاليف، وفيما يتعلق به، قليلة المتاعب، وسيقدم هؤلاء إلى الناس الذين سيبشرون بينهم منافع أخرى، وفوائد ليس فقط إلى أرواحهم بل أيضاً إلى أجسادهم، التي سوف تنتفع بشكل خاص من الطبابة ومن الجراحة، ولسوف ينال مؤسس ومنظم هذا العون وهذه الخدمة أعظم جائزة أبدية وسيتمتع بها، حتى وإن لم يكمل

— أو لم يصل إلى — هدفه المنوي بقيام اتحاد كامل للمسيحيين بالايمان وبالطاعة، ولسوف تبارك الرحمة السماوية بداية هذا العمل ومتابعته، وإكماله.

٦٦ : ومن أجل أن يحقق مصمموا هذا المركز الموصوف به أهدافهم، ينبغي إصدار أمر بوجوب تلاوة مزمور كل يوم في كل واحدة من مدارس المركز على انفراد لصالحهم، شرط أن تكون تلاوة معتدلة، ومثل هذا قداس للأحياء وآخر للأموات، وبذلك يأمل كل واحد من المؤسسين ومن الموصين من الأحياء ومن الأموات بنيل غفران يومي.

٦٧ [42] : ولسوف تكون المنافع الاقتصادية الناتجة عن المركز المقترح ذات فوائد عظيمة لجماعات سكان تلك البلدان الشرقية، فهم سوف يصدرون منتجاتهم، وبذلك سوف يربحون من ذلك أكثر بكثير مما لو كرست هذه البضائع بشكل تقوي إلى الفقراء، الذين إن وجدوا سوف يكونوا نادرين، آخذين بالتقدير من جانب أول العدد الهائل للمعدمين، ومن جانب آخر ندرة التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى التي نحتاج إليها، وسوف يجري تأمين هذه السلع إلى جميع الكاثوليك بأسعار معتدلة، ولسوف يتم صنع هذا دون مضايقة أي إنسان وإيذائه بشكل فعال، لأن كثيراً من المخاطر المعروفة والمصاعب في البر وفي البحر سوف تتوقف، فبعد إتمام سحق العدو في الأرض المقدسة، والقضاء عليه بنعمة من الرب، يمكن لحاكم تلك البلاد، أن يأمر — وأن يشرف على التنفيذ — بشحن جميع منتجات تلك البلاد بمراكبها إلى هذا الجانب من البحر، وبذلك تصبح التوابل وبقية المنتجات متوفرة، وبالمقابل من الممكن نقل منتجاتنا إلى هناك، ويمكنه أيضاً تنظيم أسعار الشراء وأجور النقل، وبذلك يكون بالإمكان تقدير أسعار عدد كبير من السلع، وكذلك الحد من زيادة الأسعار اليومية مع جشع التجار.

٦٨ : ويمكن للسيد البابا، والكرادلة، ورجال الدين الكبار، وكذلك الملوك والأمراء الذين ستوضع المدارس في مناطقهم، وأيضاً رعاة الديرة الذين من ممتلكاتهم سوف ينفق جزئياً على هذه المدارس، يمكنهم من خلال طلبة هذا المركز تحصيل ليس التوابل فقط، بل كل شيء نادر وثمين يرغبون بالحصول عليه من الشرق، وبالنظر لما تقدموا به من قبل من كرم وإحسان، سوف يجري تزويدهم بهذه المنتجات بدون تكاليف تقريباً.

[43] : لماذا علي أن أكتب حول منافع هذا المركز، إذا كان مؤسسوه وطلابه يرغبون بالانتفاع منه ومن امتيازاته في توزيع المنتجات، فمن غير الممكن أن يتصور إنسان حي لوحده جميع منافعه أو أن يكتب عن ذلك، مثلما قال الفيلسوف:«لا تتكاثر الشياطين بشكل طبيعي، بل بطرائق غير طبيعية».

٦٩ : في الوقت الذي يتبع فيه بعضهم سياسة إنزال الأذى بالمسلمين، بشن الحرب ضدهم، والاستيلاء على أراضيهم، وسلب ونهب ممتلكاتهم الأخرى، لعل الفتيات المدربات في المدارس المقترحة، يمكن أن يعطين بمثابة زوجات إلى القادة المسلمين، إنما مع احتفاظهن بإيمانهن، خشية من مشاركتهن أزواجهن في الكفر، وبجهودهن — مع عون الرب — وبتبشير الرسل — وبذلك يمكن أن ينلن مساعدة من الكاثوليك، لأنهن لا يمكن لهن الاعتماد على المسلمين — يمكن أن يتمكن من إقناع أزواجهن ، وجرهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وهكذا قليلاً قليلاً، من الممكن جعل عقيدتنا معروفة بينهم، ولسوف تناضل زوجاتهن بحماس شديد من أجل هذا، لأن لدى كل واحد منهم كثيراً من الزوجات، فجميع الأثرياء وذوي السلطان بينهم يمارسون حياة شهوانية، هي لغير صالح زوجاتهم، اللائي ترغب كل واحدة منهن أن يكون لها زوج خاص بها(وهذا مالا يجب أن نندهش منه) بدلاً من

مشاركة سبعة زوجات أو أكثر في زوج واحد، ولهذا السبب — حسبما سمعت مراراً من التجار الذين يترددون على بلادهم — من الممكن بسهولة التأثير بقوة على نساء تلك الطائفة، وجذبهن نحو طرائق الحياة لدينا، من أجل أن يكون لكل رجل زوجة واحدة.

٧٠ [44] : عندما يتحقق إقامة سلام عالمي ووئام بين جميع الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية، وفق الطريقة المقترحة، وعندما تتناقص الحروب والمخاصمات بالوسائل التي سيأتي شرحها، وكذلك من خلال التأثير الذي قضى به موجد الأشياء كلها، سوف يكون إثر هذا الكاثوليك في أوضاع أكثر قدرة فيها على إخضاع الأمم المختلفة، فهم لن يكونوا بعد الآن قادرين على شن الحرب أحدهم على الآخر، ولن يخشوا من إمكانية مثل هذه الحروب، بسبب العقوبات القاسية المعدّة لهم، والمعني بذلك: فقدانهم لأراضي أسرتهم مع ممتلكاتهم الأخرى، ولهذا السبب، من المحتمل كثيراً، أن يقوم الأمراء المتحمسون، على الفور، بدمج قواهم وتوحيدها ضد الكفار، أو على الأقل إرسال جيوش لا تحصى من المحاربين من جميع الاتجاهات، حتى تبقى بمثابة حاميات دائمة في الأراضي التي سوف يتم الاستيلاء عليها، وبهذه الطريقة سيزداد كومنولث الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية زيادة عظيمة جداً، في وقت قصير،وذلك في مواجهة جميع الآخرين الذين يفتقرون إلى تنظيمات اتحادية، وإحسان نحو الرب، ونحو جيرانهم.

ولا شك أن الاهتمام بدراسة الفلسفة، والحض عليها بقوة في جميع أرجاء كومنولثنا، من الممكن أن يسهم كثيراً في الوصول إلى هذه الغاية، فلقد شايعت زهرة الروح العسكرية التعلم والتمذهب من مملكة إلى مملكة: من الهنود إلى الآشوريين، ومن الآشوريين إلى الإغريق، ومن الإغريق إلى الرومان، ومن الرومان إلى شعوب شمالي الألب (Cismon tane)وذلك حسبما نقرأ في تواريخ الأقدمين، وإذا ما قامت الطائفة

الكاثوليكيـة بتكويـن كـومنـولث واحـد في جميع الممالك والأمـاكن، وشجعت الدراسـة في جميع الأمـاكن الموائمـة، ينبغي أن تكون النتيجـة امتـلاك هذا الكومنولث خـلال مـدة من الزمن السلطة على العـالم كله، وستتعـاظـم هذه السلطة وستـزداد صـلابة مع مـرور السنوات، ومن المؤمل — لا بل من الممكن التحقيق — أن هذا سيتبلور في ظل المملكة الروحية وطاعتها وليس في ظل المملكة الدنيوية.

٧١ [45] : من الممكن — لا بل من المتـوجب — أن يحدث طلاب هذه المؤسسات تقـدماً كبيراً أكثر من الآخـرين، وهذا واضح من حقيقة أن أساتذة المركـز البارعين والمجـربين، سوف يبحثـون عن تبني برنامج متسـارع بسماته، وبطرائقه، وبدراسـاته، وبوسائل الحصـول على الخبرة، ويتـوجب اختيـار صبيـان في الرابعـة، أو الخامسـة، أو السـادسـة من أعمارهم، أو أسن مـن ذلك، تكون رؤوسهم حسنة الشكـل والتكوين، وهم أهل للتـقدم، على شرط أن يكونوا ممن لن يـعادوا إلى آبائهم، إلاّ بإذن من المركـز، ويتوجب أن يتلقى مـائـة، أو أكثر من هؤلاء الصبيـان تدريباتهم في مكان واحد، مجهز بشكل جيد من أجل هذه الغاية

وأن يدرسوا أولاً ويتـدربون على ترتيل المزامير، وأن يقومـوا فيما بعد في الجزء الثـالث من النهـار، بالغناء وبأعمال قـريبـة من ذلك ومشـابهة، ويتوجب تعليمهم في ساعات أخرى من النهار مبادىء النحو اللاتيني(الدوناتيـزية Donatus) وأن يكون ذلك وفق الطـرائق والعـادات الرومانية، وأن يتعلمـوا أيضاً الفروع الأخرى من فـروع النحو، وعندما يستمع أحـد الصبيان كتاب كـاتو Cato وكتب نصوص صغيرة أخـرى، عليـه أن يحضر أربعـة دروس طويلة في اليـوم، أو إنهاء هذه الدروس، وعليه أن يصغي إلى بعض النـصوص الرئيسية، وبعد هذا إلى واحـد آخر يقـوم بإعـادتها، وعليه أن يردد وراء المعيـد، مثلما يفعل إزاء النصـوص التي يتقنهـا، والـذي ينبغي أن يقـرأ له أولاً تصريف الأسماء

وأحكام اللهجات، وبعد هذا عليه أن يعيد تلاوة كل ما يطلب منه، وأن يفعل ذلك على الفور، وفقط في المساء يقوم بكتابة مواضيع إنشاء باللاتينية.

وعندما يبدأ الصبيان في إحراز قليلاً من التقدم في هذا، عليهم أن يتكلموا دوماً باللاتينية، فيعوّدوا أنفسهم على هذا في جميع الأوقات والأماكن، وبعد الانتهاء من النصوص الصغيرة، يتوجب عليهم سماع التوراة في أشكال أولية، وليكن ذلك ثلاث مرات أو أربع مرات في اليوم الواحد، وأن يكتبوا مواضيع إنشائهم من مؤرخيه ومن شعرائه على التوالي، بما أنهم سيكتبون مجرد تدريبات، وعندما تحل الأيام المعدة للإعراب، عليهم أن يعربوا أولاً [أغاني] Gradualما بعد الـ Bre-viary ، إنما ليس الـ Missal، باستثناء ما هو موجود في التوراة، وبعد الانتهاء من الـ Breviary عليهمّ إعراب الحكايات الذهبية للقديسين[ليعقوب دي فورين Voragine المتوفى حوالي سنة ١٢٩٨]، وبعض الأشعار القصيرة، المنتخبة من حكايات الشعراء، وعليهم كتابة مقالات قائمة على هذه الحكايات، ويظل أفضل نقلها إلى اللاتينية مرة ثانية، وبهذا سوف يكونوا أكثر اعتياداً عليهم في المستقبل، أكثر من التمارين المعتادة التي هي بلا فائدة، وبهذا لن يكونوا قد ضيعوا وقتاً حتى الآن، ولسوف تكون المقالات التي كتبوها ذات فوائد دائمة بالنسبة لهم، وبعدما يكونوا قد فرغوا من سماع التوراة كلها، عليهم أن يعيدوا اثنتي عشرة صفحة منه كل يوم، ومثل هذا حكايات القديسين، وبالنسبة للشعر عليهم نظم بعض الأبيات البسيطة، لكن ليكن ذلك لوقت قصير، وعندما يأتي الوقت أخيراً، ويصبحوا جاهزين لسماع المنطق يتوجب إسماعهم الأعمال الشعرية خلال ثلاثة أشهر الصيف، وليكن ذلك أن يستمعوا في اليوم الأول كاتو Cato، وفي اليوم الثاني ثيودولوس Theodulus ، وفي الأيام الثلاثة التالية توبياس

Tobias ، وهكذا بالنسبة للشعراء الآخرين، وعليهم الاستماع لستة دروس في كل يوم من أستاذين، وينبغي عليهم فهم هذه الأشعار من قبل أنفسهم، كلهم تقريباً، وذلك بسبب أن القصص والشروح سوف تقدم بلغة بسيطة، لأن الذي هو مطلوب من هذه الكتب تراكيب الجمل فقط، وأشكال من المعرفة صالحة لأي شاب، عندما يبدأ بصنع بعض التقدم، ويمكنه أن يقرأهم ويفهمهم، ولديه الجاهزية لتقبلهم كأشعار رومانسية، وإذا ما أبدى بعض الشباب الاستعداد للتقدم، عليهم العمل في هذا المجال ليلاً ونهاراً لمدة سنة كاملة، إنما باستثناء الأوقات المخصصة للراحة، ولسوف يتمكن معظمهم، بعون الرب، من إكمال هذه التدريبات في جميع فروع المعرفة قبل وصولهم إلى سن العاشرة، أو على الأكثر سن الحادية عشر، وآخرون في سن الثانية عشر على الأكثر، وفي أثناء دراسة الموضوعات الموصوفة آنفاً، على الصبيان سماع[رسالة] دكتورنيل Doctrinale [النحوية]، وليكن ذلك في أوقات يختارها أساتذتهم، وليركزوا بشكل خاص على ما يتعلق بالضمائر والأفعال، وآخر ما عليهم تعلمه هو [رسالة] Graecismus [النحوية حول التفاعيل السداسية]، وليقتصر ذلك على فهم معانيها الأدبية، لكن من دون الإصرار على أية جوانب أخرى.

٧٢ [46] : ولدى إكمال الطلبة لهذه الدراسات، ينبغي تحويلهم إلى مدرسة أخرى، حيث يبدأون دورات تعلم المنطق، وعليهم أن يشرعوا في الوقت نفسه بتعلم الإغريقية أو العربية، أو أي لغة أخرى، حسبما يوجههم المؤسس الجديد للمدرسة ويختار لهم، ولدى دراستهم لأي لغة جديدة، عليهم أن يتعلموا أولاً أشكال كلماتها، مع بنائها النحوي.

أما فيما يتعلق بالمنطق، فعليهم أن يتعلموا أولاً الرسائل المعيارية، والشروح الموجزة لها، وينبغي اتخاذ احتياط أن يتولى شخص بارع بهذا

الفن اختصارهم لهم وايجازهم، وأن يوضح المسألة الإشكالية التي طرحها الفيلسوف في كل واحد من كتبه حول المنطق، وأن يكون هذا الايضاح محكماً، وبذلك لن تحتاج الرسائل بعد سماعها خلال دورة الدراسة مرتين أو ثلاثة، إلى شرح مكتوب، وبعد هذا يتوجب أن يستمعوا إلى الكتب مرة أخرى على شكل محاضرات منتظمة، وينبغي إنجاز هذا كله مع بلوغهم الرابعة عشرة من العمر .

وليشرعوا بعد هذا بتعلم العلوم الطبيعية، وبسبب إسهاب هذا الموضوع وعمقه يستحسن اعتماد كتاب«الطبيعيات للراهب ألبيرتوس[ماغنوس Magnus]، الذي يحتوي فعلياً جميع ما فكر به الفلاسفة مع إضافات كثيرة، واستطرادات، وينبغي اختصار هذا الكتاب بقدر الامكان، إنما شريطة أن يكون هذا الاختصار واضحاً بقدر يستطيع فيه الانسان المهتم أن يفهم هذا المختصر، من دون العودة إلى النص الكامل، وعلى الشباب الاستماع لهذا المختصر كاملاً خلال العام الأول على شكل أربعة محاضرات في اليوم، من دون أسئلة، ثم يستمعون إليه مرة ثانية مع أسئلة، ثم يقومون بعد ذلك بسماع الكتب حسبما جرت العادة بقراءتهم في المدارس.

ولسوف يكون أيضاً مفيداً لهم أن يتوفر لديهم أسئلة مختارة من كتابات الراهب توماس[أوف كانتمبري Cantimpre ، نشط ما بين ١٢٢٨ — ١٢٤٤] وسيغر [دي برابنت، ت ١٢٨٣] وباحثين آخرين، وينبغي أن تدمج كتاباتهم كلها في مصنف واحد، حول المسائل الأساسية: أشكالها، وتكوينها، وعمومياتها، وفسادها، وحول جميع مشاعرها ووظائفها، وحول مزايا الأرواح، وأعمالها وطبيعتها، وحول عناصر الطبيعة وأعمالها، وحول الأجسام السماوية، وطبيعتها، وتأثيراتها، وحركتها، وبعض المواد وفق هذا التسلسل واستيعابها بسبب ترتيبها، ولسوف يكون من الصعب ـجداً ترتيب المادة وفق هذه الطريق، علماً

بأن ذلك سوف يكون مفيداً جداً على الطريق إلى التعلم، هذا التعلم الذي من الممكن تحصيله بسهولة، وفي وقت قصير، بهذه الوسائل، وما أن يحصل الانسان على هذا التعلم، سوف يتمكن من الاحتفاظ به، وتذكره بعقله متى شاء.

٧٣: وعندما تكتمل هذه الدراسات، عليهم الشروع بسماع محاضرات في علوم القيم والأخلاق، والمقصود بهذا : القيم (المونوستيكا -Mono stica)، والأخلاق، والخطابة، والسياسة، وتكون هذه المحاضرات مثلما تقدم فيها خلاصات واختصارات، فلقد رأيت الأخلاق في عشرة كتب اختصرها المعلم هيرمان الألماني(كان نشطاً سنة ١٢٥٠)، وبعد هذا العرض المبدئي، سوف يستمعون إلى نصوص الكتب التي تشكلت من قبل من محاضرات، مع أسئلة أعدت مثلما حدث من قبل بالنسبة للأسئلة الطبيعية، وذلك مع قليل من المناظرات قد كتبت من كل واحد من العلوم، لأن الحشد من المحاضرات قد يفضي إلى الفوضى في الثقافة وفي إصدار الأحكام الصحيحة، أكثر مما يقود إلى المعرفة.

٧٤ : وبعد إكمالهم لهذه الدراسات خلال عام واحد، عليهم الشروع بالاستماع إلى محاضرات بنصوص التوراة المشروحة، مرتين في اليوم، وذلك مع كتاب الـ Summae في الصباح، مع أسئلة متجاوزة الأسئلة المتعلقة بالطبيعيات، ويتبع الذين سوف يصبحون مبشرين هذه الدورة التعليمية لمدة عامين أو ثلاثة أعوام، وإذا ما قام بعضهم بذلك، سيكون كافياً للآخرين اتباع هذه الدورة مرة واحدة لمدة سنة، أو حتى لمدة أقصر، وبعد هذا يتوجب على بعض الأفراد استماع محاضرات بالقانون لمدة عامين، مما يمكنهم من سماع المجلدات الخمسة كاملة، وعليهم بعد هذا استماع نص الـ Decretum والـ Decretals الـ Decretum مرتين في اليوم، والـ Decretals مرة واحدة، ويمكن للذين خططوا ليعيشوا بمثابة رجال دين في بيت الرب، التخلي

عن دراسة القوانين، لكن لا يجوز لهم التخلي عن الـ Decretum والـ Decretals، ويمكن للذين خططوا لحياة مدنية التخلي عن دراسة الطبيعيات، وأن يهتموا أكثر بالقيم، وبالقانون المدني والقانون الكنسي، وعلى كل من أراد الاستماع إلى محاضرات بالطب، أن يفعل ذلك بعد الفراغ من محاضرات الطبيعيات، مع أنه سيكون مفيداً أن يتجاهلوا التوراة والـ Summae، بما أن هذين الكتابين يتعاملان مع المبادىء التي هي أسس جميع العلوم، وحسبما قال الفيلسوف:«جميع العلوم متداخلة»، ولسوف يكون مفيداً جداً أن تكون عارفاً بمبادىء جميع فروع المعرفة، أو على الأقل أن لا تكون جاهلاً بها جهلاً تاماً، علماً بأنه سيكون مفيداً جداً لو أنهم حملوا الكتب معهم، وعلينا أن نفترض أن بعض المستمعين سوف تكون الكتب معهم، وأن بعض هؤلاء الذين ليست لديهم الكتب سوف يحصلون عليها، زيادة على هذا، لأنهم امتلكوا أساساً ممتازاً في العلوم، سوف يتقدمون كثيراً من خلال الكتب التي تعلموها اعتماداً على أنفسهم، بعد تركهم المدرسة.

٧٦ : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة للطلاب الذين نالوا تدريباً قصيراً، والذين سوف يكونون قضاة وحكاماً لمدن كبيرة ولشعوب، أن يكون معهم قوانينهم في مجلد واحد، كتبت فيه القوانين بشكل واضح ومختصر، وبوضوح لمرة واحدة من دون تكرار للقضايا المتشابهة، ويحتوون على أقوال باتة، من الممكن قراءتها وفهمها من دون شرح أو تعليق، ومن الممكن صنع هذا، بوضع جميع القوانين التي هي من نوع واحد تحت عنوان واحد، بطريقة يتمكن فيها أفراد ذوي ثقافة جيدة من فهمهم وتملكهم من دون أستاذ، وسيكون مفيداً امتلاك الـ De-cretum والـ Decretals بشكل مختصر، بحيث يتمكن الطلاب الذين لديهم وقت قصير من تناولهم وفهمهم بشكل مختصر، بعيداً عن القو انين المتداخلة والمضطربة، والقوانين العامة والقوانين الخاصة حول

أي موضوع من المواضيع مهما كان، وسوف يتمكنون بمساعدة هذه المختصرات، مضاف إليها الخبرة، من حكم أنفسهم والآخرين بمثابةمواطنين جيدين بتوافق مع القوى العامة والخاصة المثبتة بوساطة العادات، ومع الإفادة من هذه الخبرة، يمكنهم متابعة دراساتهم حتى الاكتمال وذلك بعد حصولهم على كتب القانون.

ولسوف تكون هذه المختصرات والمختارات بمثابة كناشات للطلاب الفقراء، وللذين هم بالعادة منشغلين بفروع المعارف الأخرى، مثل الفلسفة واللاهوت، ممن لا يمكنهم تكريس الوقت المعتاد والضروري من أجل تملك مواد مجلدات كبيرة، فحياة الانسان حقبة قصيرة، ونادراً ما تسمح له مشاغله بالمسائل الروحية والمسائل الدنيوية بإكمال دراسته ومعارفه حول التفاصيل الكثيرة جداً المتعلقة بالقانون المدني والقانون الكنسي، وذلك بالاضافة إلى الفلسفة واللاهوت، ومع هذا يمكن لأشخاص تحقيق إكمال ما يصبون إليه من معرفة، بمتابعة دراساتهم، وفق الطريقة المقترحة من قبل، ويستطيعون قبل وصولهم إلى سن الثلاثين أن يصبحوا بارعين جداً في القانون المدني، والقانون اللاهوتي، وخبراء بطرائقهم في الوعظ، وعندما تكون دراسة الكتابات عن العهدين القديم والجديد، وحياة القديسين قد استكملت في مرحلة الطفولة، ثم جرى تكرارها في محاضرات رسمية حول كتاب الـ Summae لمدة سنة، وقتها يمكن حسبما تقدم الوصف، بعد دراسة الفلسفة، أن يصبحوا منذ الطفولة جاهزين بشكل كبير لفهم، ولتقديم، ولتنفيذ ما يلزم في عدد من طقوس أعمال الوعظ، في كثير متنوع من أيام الأعياد، ولسوف تصبح طرائق الوعظ لديهم عادية جداً إلى حد أن تصير وكأنها طبيعة ثانية، وينبغي أن يترافق هذا ويتماشى مع الأ خذ بما جاء في القصة الفلسفية التي حكت كيف درب أ فلاطون الأطفال على أعمال الفضائل، حتى غدت هذه الأعمال بمرور الأيام طبيعة ثانية لهم،

وقد اندفعوا للقيام بهم وتنفيذهم، وكأن ذلك عملاً طبيعياً، وقد أوضح ذلك بقوله:«العادة طبيعة أخرى»، أي أنها تغير الطبيعة.

[48] : لقد أعلنت عدة قوانين مقدسة عن الخبرة، أنها سيدة الأمور، وقد وضح أنها هي التي توجب على الأساقفة الذين هم قادة الكنيسة، أن يتدربوا بشكل دقيق في الفلسفة وفي اللاهوت،وفي القانونين، وفي استخدام وفي ممارسة المعرفة من هذا النوع وهذا واضح بالنسبة للذين لاحظوا عجز الأساقفة الذين تعلموا، وبشكل متقن جداً، القانون المدني فقط، من دون القانون الكنسي، والشريعة اللاهوتية.

٧٧ : ويصح الشيء نفسه وينطبق على الذين أتقنوا فقط القانون الشرعي، مثل اتقان بعضهم فقط للقوانين الناظمة للرهبان.

٧٨ : وينطبق الحال نفسه ويصح بالنسبة للذين حصلوا على معرفة الفلسفة واللاهوت، ويتوجب على الأسقف القيام بهذا شخصياً، وليس من خلال الآخرين، وذلك من أجل ممارسة الأعمال التي لها علاقة بالتأمل، والأعمال المفيدة، من أجل أن يكون أكثر تأثيراً، وتهذيباً، وأن يكون أكثر خشية، وتوافقاً مع كلمات الانجيل:«يسوع ابتدأ يفعله ويعلم به»[أعمال : ١ / ١]، ومع أنه كتب من قبل المحامي الأعظم:«فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها»،[لوقا : ١٠ / ٤٢]، إن هذا لا يكفي من أجل الأساقفة في علاقتهم مع الخاضعين لهم وتحت طاعتهم.

وإذا ما أراد أسقف أن يتفرغ كلياً للتأمل وفق أسلوب مريم وطريقتها، عليه أن يدخل في إحدى طوائف الرهبنة الديرية، أو أن يعيش في الصحراء، تاركاً للآخرين عصا الأسقفية، وإذا ما كان بعض الأساقفة مكرهين على أن يكونوا عاملين في منحيي الحياة، وأن يتباركا وفقاً لهما، يتوجب عليهما أن ينالا من التدريب ما فيه كفاية من أجل

حاجتيهما في المسائل المرتبطة باتجاهي الحياة هذين، وذلك بقدر ما يمكن للطبيعة البشرية أن تتفهم وتحصل من مبادىء المعرفة، ولا يجوز لأي إنسان عندما يحصل على ما يكفي من معلومات، أن يحدد غايته النهائية بالحصول على الكمال، حتى يستريح عندما يصل إليها، لأنه لا يمكن أن يوجد في العالم إنسان بهذا الكمال، بل الذي يوجد هو الذي يحصل المزيد من الفائدة من المزيد من التعليم، والرب وحده هو الذي يمكنه تحقيق الوصول إلى غاية الكمال.

٧٩ [49] : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة لبعض طلبة هذا المركز أن يتعلموا في مجال علوم الرياضيات — بقدر ما يراه الاختصاصيون في هذه العلوم موائماً وكافياً، وبشكل مختصر — بسبب كثير من تطبيقاتها العملية — وينطبق هذا بشكل خاص على المسائل التي تناولها الكتاب الصغير الذي صنفه الراهب روجر بيكون، بعنوان«حول منافع الرياضيات»، وبيكون من رهبان طائفة الـ Minorites ، ويتوجب الاهتمام الزائد والخاص بالموضوعات التي يمكن أن تكون ذات فائدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن المتوجب على كل كاثوليكي، خاصة المتعلمين، أن يعرفوا مظهر، ووضع، ومكان العناصر، وحجمها وسماتها، وتراكيب الأجرام السماوية وحجمها، وسرعة الشمس وحركتها وتأثيرها، وكذلك القمر، والنجوم الأخرى، وأن يعرفوا كم الأرض صغيرة، إذا ما قورنت بها، وكم هي عظيمة إذا ما قورنت بالانسان، وهذا كله من أجل الانسان عندما يتعجب من هذه الأشياء، يمكنه أن يحمد خالقها، وأن يقمع رغباته الدنيوية وأن يتشامخ ويتكبر بسبب الأشياء الدنيوية، لأن جميع الأشياء في هذا العالم، والأشياء التي هي هنا من تحت، تعدّ لا شيء عندما تقارن به، وهكذا ينبغي أن تقدر.

٨٠ [50] : لنفترض أن أحدهم سوف يعترض، وسيقول مثل عدد

كبير آخر: «إن طرائق التعليم التي اتبعت حتى الآن كانت كافية لآبائنا، الذين ربطات أحذيتهم، الكاتب الحالي لهذا العمل غير جدير بفكها»، وسيكون الجواب: الاقرار بأني بالفعل غير جدير بفكها، ومع هذا إنه قد تحرك برغبة طبيعية من أجل استرد د الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وغالباً ما قام كاتب هذا العمل بالتذكر والتأمل حول ما هو ـضار وـما هو مفيد لهذا المقصد، مثل ـحدائقي ـقام أولاً بتدمير النباتات الضارة، ثم الأشواك، ثم الأعشاب، وقام بعد ذلك بزراعة الحبوب ومزروعات أخرى، استهدف أن يحصدها عندما ستثمر، ولهذا بحث بهذه المسائل، وبالطرائق المتقدمة الذكر المتعلقة بالتعليم، كوسائل مفضية للمساعدة على الحفاظ في الأرض المقدسة، وللإستيلاء عليها، ففي تلك البلاد سوف يكون الطلاب غير قادرين على نيل أي تقدم، أو القدرة على امتلاك الوسائل من أجل إحداث التقدم، حتى تصبح البلاد غير مضطربة ومتحررة من الحروب، وأيضاً لن يتمكنوا بسهولة من إيجاد أساتذة يقومون بتدريبهم من أجل إحداث تقدم سريع في ميادين العلوم العملية النافعة، لأن كل أستاذ سوف يرغب[في ظل النظام القائم]بأن يبقي الطلبة يتعلمون منه لوقت طويل.

وسيعتقد كل أستاذ بشكل عام بأن موضوعه هو الأكثر أهمية ومنفعة من جميع الموضوعات الأخرى، وفوق هذا يعتقد كل واحد بشكل عام بأن المعلومات التي يمتلكها، والتي يرغب بتملكها بشكل كامل هي كافية لأن تقوده هو شخصياً مثلما هي كافية للعالم أجمع، ولقد نسي أنه ليست المعارف العظمى لوحدها ضرورية لقيادة العالم بل أيضاً الخبرة العملية.

كما أن معرفة موضوع من المواضيع مشفوعة بالخبرة العملية لموضوع آخر لن تكون كافية، ـمالم يكن الموضوعان متصلان ببعضهما بعضاً، ولا يمكن تحقيق هذه القرابة والصلة، مالم يتم اختزال طريقة الدراسة

ووقتهـا، للسماح للذين لديهم معلومـات نظرية بالحصـول على الخبرة العمليـة بسرعـة كبيرة حتى يتمكنوا من تملكهـا واستخـدامهـا لوقت طويل، قبل أن يبـدأوا بالعمل بشكل أحمق من خـلال انحـدار قـواهم العقليـة، وقدرتهم على إعطاء حكم سليم، فقـد قال الفيلسـوف:«تشيخ أدوات المشاعـر، لكن الفضائل لا تشيخ»، ولهذا علينا أن نكـون قادرين على إدراك ضرورة الاحتراز ضـد الأحـلام المجـردة، علماً بأن المعـرفـة ليست أدوات طاقة، بل هي حـاجات للأدوات، وتنحدر هذه الأدوات وتضعف بسرعـة من الرطوبة ومن البرد، وهي تضعف أكثـر في البلدان البـاردة، من ضعفها في البلدان الدافئة، ولهذا يمتلك الشيـوخ في المناطق الدافئة مشاعر عامة أكثـر، وقدرة أفضل على التذكر، وتجميع الأمور من الذين يعيشـون في بلدان باردة، وبين جميـع المناطق، المناخ المعتـدل هو المفضل، بما أن التطرف في المحيط يضعف القوى العقلية للانسان.

٨١ : وللأسـباب المذكورة من قبل، يتـقدم الشباب بسر عة كبيرة في العلوم ويصلون إلى الخبرة العملية بنشاط كـامل، ومع توقع حياة مديدة توافقـاً مع مسلمات القـانون، والطبيعـة، وبعـد نيلهم أولاً للمعلومـات النظرية، وبعـد ذلك للخبرة العمليـة، المسـاندة للمعلومـات النظرية، سوف يكونوا وقتـذاك قادرين على حكم عقول وأجسـاد الآخرين، لمدة طويلة، بسبب تـدريبهم الخاص من أجل المهمـة، لأنه كما كتـب«مـا من أحد يصبح متفوقاً بشكل مفاجىء».

٨٢ : يتوجب على الوقحاء أن لا يكونوا متـشوقين لعدم الموافقة على الشروع بمثل هذه التحسينـات العظيمـة، بل الـذي بالحري عليهم — بفضل نعـمة الرب — السعي ـجا هدين لتحسين وإكمال العمل غير الكامل من أجل المنفعة العامة، أو إذا مـا طرحنا القضية جانباً، يتوجب عليهم وقتها بذل الجهد في سبيل شيء أكثر مواءمة، وأكثر فائدة عملية، بقـدر مـا يسمح الهدف الأسـاسي، وعليهـم الحث على ذلك بلطف

وفصاحة، وقد قال الفيلسوف مؤيداً لهذا — مع أنه قد اكتشف شخصياً بالبراعــة طرق الحكمـة، ومبــادىء رفض القيــاس المنطقي — :«من الصعب اكتشاف مبادىء أساسية، إنما ما أن يتم اكتشافها سوف يكون من السهل الإضــافـة إليهــا»، وتماشياً مـع هذا وتوافقـاً قــال المشرع القانوني:«إن الذي يقوم ببراعة بتحسين الـذي جرى اكتشافه، ليس أقل جدارة بالمدح من الذي عمل الاكتشاف أولاً».

٨٣[1 5] : ولسوف يكون مفيـداً إبقاء الضعفاء جـداً، غير القادرين على عبور البحـر، في كل مدرسة من مدارس هذا المركـز، وعندما يتعلم هؤلاء أكثـر من برامج الدراسـة الموصـوف، وذلك بقـدر مـا تسمح به الظروف، يمكنهم القيــام بتعليم الآخــرين، وأن يصبحـوا في النهــاية رؤســاء للمــدارس، وينبغـي طلب عـدد كبير من أسـاتذة الاغــريقيـة والعـربية والكلـدانية، مع أسـاتذة آخـرين للغـات أخـرى تعدّ مفيـدة، وعليهم القيـام بتعليم آداب لغاتهم إلى أكثـر طلابنا ألمعية، وإلى آخـرين، يمكن أن تكفيهم دراســات أدنى لـلأدب وإلى اللغـة الأم، بقــدر مــا يمكنهم من العمل كمترجمين ــكلاميين لغير المتعلمين، وأعتـقد، أنه كما نرى بين لاتينياتنا عدة لغات أم متنوعـة، موجودة تحت آداب كل لهجة، سـوف يكون مفيــداً بالنسبـة للذين يرون أن لـديهم القـدرة على تعلم اللغات الأجنبية، أن يتعلموا اللغات العمـومية الأكثر بين هذه اللغات، مثل الفرنسية بين لاتينياتنا.

٨٤[52] : وينبغي تعليم التـلاميذ الأشد بنيـة بين تلاميذ هــذا المركز الفنون العسكرية، وبالنسبـة للآخـرين الذين يتبين مع مـرور الأيام أنهم متخلفين في دراسـة الآداب، ينبغي تعليمهم الفنون الميكانيكيـة، خاصـة الفــروع النافعــة منهــا، والمفيـدة لفن الحرب، مثـل فن الحدادة، وفن النجـارة، ذلك أن الفيلســوف يقـول:«فن الحرب أكثـر نبــلاً من جميع الفنون الميكانيكيـة، وذلك بسبب نبل الهدف الذي يسعى مجتهداً نحـوه،

والذي هو السلام»، وينتمي إلى فن الحرب أكثر من سواهم: الحداد. ومنتج الأسلحة، ومثل هذا واضح أن فن النجارة من أجل فن الحرب يعتمد على هذين الفنين.

وينبغي أن يتعلم كيفية صناعة مختلف الأدوات، مثل المرايا المحرقة، والأدوات الأخرى المفيدة في أثناء القتال، واعتماداً على الاقتراحات التي وردت في الكتاب الصغير المتقدم الذكر، أي كتاب«حول منافع الرياضيات»، من الممكن تحقيق هذا وصنعه بمعونة كل من فني الرياضيات والعلوم الطبيعية، فبوساطة هذه الفنون يمكن صنع أشياء لم يسمع بها قط في هذه المناطق الغربية.

ومن الممكن أيضاً أن يتدربوا على كثير من الحرف اليدوية المفيدة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والاستيلاء على المناطق المجاورة لها، لأن عدداً كبيراً من الرجال البارعين وذوي الخبرة في هذه المسائل قد ارتؤي أنه ـمرغوب فيهم، ومن غير الممكن أن يكون إنساناً واحداً ـقادراً على إتقان هذه الحرف اليدوية كلها، وهذا واضح مما رأيناه دوماً نحن وأجدادنا.

ومن المؤ كد والواضح لكل ذي بصيرة، وما لا يمكن لانسان أن لا يلاحظه، أ نه من النادر و جود إنسان بارع في حرفتين يدويتين، ولم يوجد قط من أتقن ثلاثة حرف، فكيف على هذا أن يوجد إنسان بارع في جميع الحرف، التي هي بيننا لا يمكن تعدادها؟ وإذا ما انعدم هذا في الحرف اليدوية، انعدم أيضاً في جميع مقاصدها، وأسبابها، وتنوعها، ويتبع هذا القول أنه لا يمكن لإنسان واحد أن يتولى تدريس جميع الحرف اليدوية، أو أن يكون مؤلفاً لها جميعاً، ويبدو أن مرد هذا وسببه هو أن صانع الطبيعة، قد رغب في إزالة كل مناسبة من مناسبات التشامخ والرغبة في السعي وراء الأشياء المتوفرة في هذا العالم، وأن يعطي تسويغاً، وسبباً، ومناسبة لكل إنسان، لاحتمال أن يكون هو

نفسه ممتلكاً لممتلكات ومخترعاً لحرف يدوية من دون توفر المزيد من الشره والحسد، فوق الحد المقبول، وبذلك جعل الأشياء اللامحدودة مسؤولية إنسانية، مثلها في ذلك مثل اللغات — والآداب وكذلك العاميات — والأماكن والمناطق، وضاعف أيضاً الحرف إلى حد أن لا إنساناً واحداً، ولا مائة، ولا ألفاً، ولا مائة ألف، ولا مائة مرة ألف ألف، يمكن أن يكون فيهم كفاية للصالح العام، والازدهار العام، في إطار المعنى العام للعبارة، لن يكون رجال منطقة واحدة، أو مملكة، أو ثلاث ممالك، أو عشر ممالك فيهم كفاية لبعضهم بعضاً.

وهذا صحيح، إلى حد يبدو الأمر فيه أن جميع رجال هذا العالم هم بشكل عام مسهمون بشكل متبادل في خيرهم العام، ويتبع هذا أن على الناس أن يكونوا متسامحين، وبلا شره ولا حسد لأي إنسان في حظه السعيد الطبيعي، وأن يكونوا مثل الحيوانات الأليفة التي تتسامح مع بعضها بعضاً، وهكذا قام مخلص الأرواح جميعها بالتعبير عن إرادته، عن طريق أفعاله أكثر منه عن طريق أقواله، وقد وجهنا بكلمته وفعله بما يتطابق ويصح مع ما قاله الرسول:«كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون توجيهاً لنا»(من روما : ١٥ / ٤)، وقد جاء حول رسالته، وكتب حول تعليمه:«ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به»(أعمال: ١ / ١)، وقد حذرنا القانون المدني بقوله:«ليس مهماً كيف عبر الشعب الروماني عن إرادته، سواء أكان ذلك بالكلام، أم بالأوامر والأفعال ذاتها».

وبناء عليه ينبغي تعليم تلاميذ المركز مختلف أنواع الحرف التي ستكون ذات فا ئدة في استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، وفي سعادة سكانها، بحكم كونهم المؤسسين لنظام يكون مناسباً في أوقات الحاجة الماسة، وعلى هذا التجهز وشراء معدات من مناطق نائية عبر البحر، تكون مفيدة جداً لتلك البلاد، وهي معدات نادراً ما توجد — إن وجدت — في داخل حدودها، ولقد قيل بشكل عام أن كل شيء

نادر، يعدّ ثميناً، ويحدث أن جميع الأشياء الضرورية والمفيدة لوجود الانسان ولسعادته، قد تتوفرْ بكثرة في بعض الأماكن وتنعدم في مناطق أخرى، فهكذا خلق الرب العظيم والرائع جميع هذه الأشياء للانسان، وهكذا وزعهم حتى لايجعلهم الانسان المعاق بالأضاحي هدفاً له، ورغبة لأن يعيش دائماً هنا بالأسفل.

٨٥ [53]: وينبغي تعليم جميع فتيات المركز، مثلهن مثل الذكور، النحو اللاتيني، والمنطق بعد ذلك، ولغة أجنبية واحدة، وينتقلوا بعد هذا إلى تعلم أسس العلوم الطبيعية، وأخيراً إلى الجراحة والطبابة، والذي أعتقده أن مثل هذه التدريبات — باستثناء النحو و الجراحة — ينبغي أن تعطى إلى الفتيات اللائي يظهرن أكثر قابلية للتعليم، ولديهن امكانات أفضل من سواهن، وينبغي أن يتعلمن أيضاً من كل علم من العلوم الأجزاء التي لها علاقة بالطبابة وبالجراحة، وبطريقة قابلة أكثر للفهم، وأكثر وضوحاً، وأكثر سهولة أيضاً، آخذين بعين التقدير ضعف جنسهن، ولأنهم ينضجن بسرعة اكبر من الذكور، ويحصلن بسرعة أعظم على مثل هذا الكمال، مما هو ممكن للذكور، ونرى الشيء نفسه في الاشجار وفي النباتات الأخرى، ويؤيد هذا ماقاله الفيلسوف، لدى حديثه عن هذه القضية في كتابه«حول الحيوانات» : «ينضج الذين أعمارهم أقصرْ بسرعة أكبر» .

ويمكن لبعض البارعات من هؤلاء الفتيات اللائي يظهرن أنهن قد لايتحملن عبور البحر، البقاء هنا بشكل دائم حتى يتولين المسؤولية عن الأخريات، وبمساعدتهن يمكن الاهتمام بالأخريات بإخلاص أكبر، وأن ينلن قسطاً وافياً أكبر في تعلم كل المعارف النظرية و العملية المتعلقة بالجراحة وبالطبابة، وبالمسائل التي يعرف أنها ذات علاقة بفن، وبحرفة التمجيد والتأليه.

٨٦: بالنسبة للفتيات المقرر أن يتزوجن ممن غير آخذ بمبادىء

ايماننا، التي تتمسك بها الكنيسة الرومانية، وتبشربها، وتراعيها، ينبغي أن يتعلمن المبادىء حسبما تأخذ بها الكنيسة الرومانية، وأن يحملن معهن جميع المبادىء مختصرة، وقد كتبت بوضوح، وبطريقة يمكنهن فهمها بها فيه الكفاية، ولن تكون المعرفة نفسها مضرة لا بل قد تكون مفيدة، لعدد كبير من تلاميذ المركز المتقدم الذكر، الذين لم يتلقوا تعليماً وافياً في اللاهوت، زيادة على ما تقدم، سوف يكون مفيداً أن يبقى في المدارس العديدة الخاصة بالطبابة والجراحة، التي تأسست من أجل الفتيات،، فتاتين، برعن في تعلم الطبابة والجراحة أكثر من البقية، وغدون أكثر خبرة في هذين الفنين، أن يبقين للقيام بالخدمة، ولسوف يتولين تعليم الأخريات في كل من الأمور النظرية والتطبيقية، وبذلك عندما تقوم الفتيات بمغادرة المدرسة، يمكن وقتها أن يمتلكن بعض الخبرة العملية، وذلك بالإضافة إلى المعارف النظرية، ومن الممكن لهن أن يتعلمن في المدرسة — وليس بعد ذلك — بسهولة أكبر، وأن يحصلن على كثير من الخبرة، التي بدونها سوف تكون المعارف النظرية ذات فوائد ضئيلة، ويؤيد هذا ما قاله الفيلسوف:«لقد رأينا في الشؤون البشرية أن الذين لديهم خبرة من دون معارف نظرية يتقدمون أكثر من الذين لديهم معارف نظرية في موضوعهم، من دون خبرة تطبيقية».

٨٧[54]: وبالطريقة نفسها سوف يكون مفيداً إذا ما نال الطلبة الذكور لهذه الموضوعات بعض الخبرة العملية فيهم، وهم ما يزالون في المدرسة، وينبغي إقامة حانوت صيدلي هناك، حيث يجري إعداد الأدوية، حتى يتعرف الطلبة إلى الأعشاب والعقاقير الطبية الأخرى، وإلى كيفية إعداد الأدهان، واستخراج الزيوت، والوصفات الأخرى العامة، وبذلك عندما يتركون المدر سة سيكون لديهم الاستعداد الكافي لممارسة هذه الخبرة.

٨٨ : ويتوجب إعطاء طلاب المعارف اللاهوتية بشكل خاص،

فرصاً وافرة لممارسة ذلك الفن بالقيام بوعظ رفاقهم الطلبة، وبتقديم القداسات إلى الأسن منهم، وبعقد المقارنات القصيرة بين النصوص بين آونة وأخرى.

٨٩[55] : وقد يسأل الانسان كيف يمكن إعطاء طلاب القانون في وقت قصير ما يكفي من الخبرة العملية التي تمكنهم من إصدار الأحكام ورفع الالتماسات، وهذا يحتاج إلى وقت طويل خاصة للحصول على مثل هذه الخبرة، فهذا ما يعرفه تماماً الذين أنفسهم يعملون بالممارسات هذه، وإذا لم يكونوا من العاملين، لا بد أنهم قد رأوا أعمال الآخرين، وقدموا الاهتمام الأعظم من أجل التعلم منهم، وهذا واضح ومشروح من قبل رأي هوغتون Hugution المعروف كثيراً، ذلك أنه كان أستاذ قوانين كبير، حيث قال:«سعيد هو الذي يجعله رعب الآخرين حذراً».

ويبدو من الصعب جداً إيجاد مخرج فيه كفاية ومواءمة، يكون سهلاً وليس ثقيلاً جداً، ومع هذا إنه من الممكن الانجاز، لكن مع صعوبة، ولهذا قال الفيلسوف:« ليس للمسألة المبدئية شكلاً في ذاتها، لكنها هامة بالنسبة إلى جميع الأشكال»،وبناء عليه استفاض وزاد فقال:« المسألة هي التي في حال الفعالية، وهي التي تشكل الفعل والاتمام لأي شيء جرى ترتيبه بانتظام»، فنحن نرى مصباحاً من الشمع، مهما كان شكله، يتلقى جميع اشكال الفعالية الهامة بشكل متعادل من خلال براعة النحاتين، وليس من خلال تقديم الأشكال الأخرى.

٩٠: وهكذا قضى خالق الأشياء كلها، أنه بالنسبة للفعالية في كل شيء، من الممكن تملكها في وقت قصير عن طريق خبرة قصيرة تأتي بو ساطة ممار سة للمسائل و للأسباب، روحياً ودنيوياً، وذلك مثلما الحال في كثير من الأشياء الأخرى التي -ماكانت بسبب انعدام الفنيين أن تأتي إلى الوجود، ويستهدف الإسراع بالحصول على الخبرة العملية،

في إصـدار الأحكام، وفي تقـديم الالتماسـات، ويتطلع نحـو ازدهار الأرض المـقدسة مع سكانها، ومع أنه مناسب وصحيح أن يستولي على تلك البـلاد أناس من كثير من البلدان، لكـن إذا مـارغب كل إنسـان وسعى إلى تطبيق عـاداته وشرائع بلاده التـي جـاء منهـا، أن يمارس إجراءاتها القانونية، سوف يحدث اضطراب عظيم بين السكان، ولسوف ينجم عنه مناسبات لاعـدّ لها ولا حصر من الخلافات، وإنه لأمـر مقرر بشكل عام أن يفضـل كل إنسان تفضيلاً عظيماً، شرائع بـلاده التي جاء منها، وعاداتها، ونظمـها، مع أنها قد تكون أقل مواءمة ـمما هو عائد إلى بلد آخر، وهذا ما عبر عنه أوفيد بقوله:

لست أدري بأي سحـر جميل، الموطن يجذب جميع الناس، ولا يسمح لهم بنسيانه

وقد كتب الفيلسوف يقول:«كل شيء ليـس هو عادة مؤلم»، ولسوف ينظر الإنكليز، والألمان، والإسبان، بعين عدم الـرضا، إذا ما جرى تبني عادات الفرنسيين وطرائقهم المتعلقة بالقضـاء، وستنجم خلافات لا عدّ لها ولا حصر من التباينات بين عادات ومذاهب الإجراءات، وفي النهاية ـسوف تتفـجر الحروب بين الأـخوة، الذين ينبغي أن يكونوا واـحداً في المسيح، وعلى وفاق مع ما قاله الرسول:«وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة»، [أعمال:٤ / ٣٢].

ولهذا، يبـدو من الموائم مـن أجل تجنب منـاسبـات الاضطـرابات والحروب، التخلي عن العـادات الخاصة والطرائق العـائدة لأية شعـوب هاجرت إلى هناك حديثاً، واستبـدال ذلك بطرائق للإجراءات القضائية، هي قبل كل شيء سهلة، وأقل إرهاقـاً، وأقل تبديداً[للجهـد وللوقت]، وأقصر، ويمكن لسكان الأرض المقدسة — المتمـركزين في وسط أعداء السـلام — أن يجدوها أسهـل من الجميع بالفهم والتـذكـر، والتـدرب عليهـا، ومن الممكـن من خـلالها الحصـول بسرعـة على خبرة عمليـة،

ويمكنهم بعد هذا اتباع طريقة الإجراءات القضائية نفسها في المحاكم المدنية واللاهوتية، ويمكن وقتها تحديد الأسئلة وفقاً للشرائع المكتوبة، والقوانين المدونة، كما يمكن إزالة المعيقات، والحيل، وإطالة الإجراءات القضائية الموجودة بالعادة في كل مكان آخر، إزالة كاملة.

وبوساطة هذه الطريقة — التي سيجري شرحها بالتفصيل أكثر فيما بعد — يمكن لطلاب هذا المركز، الحائزين على خبرة في ممارسة القانون — حسبما تقدم البحث — أن يصبحوا على الفور قضاة لديهم ما يكفي من الخبرة، ومرافعين عن قضايا في أية محكمة من المحاكم، وهذا أمر لم يسمع بمثله من قبل، ويمكن بوساطة هذه الطريقة لذوي المراتب من الكهنة أن يكونوا مستشارين ومرافعين في بعض القضايا القانونية، وأن يفعلوا ذلك أثناء مكوثهم في كنائسهم، أو في منازلهم، ومن دون أن يدخلوا إلى أماكن المحاكمات، ولن يتمكن المرافعون العموميون من إفراغ أكياس أموال المتقاضين، كما هي العادة في كل مكان آخر، ولن يأخذ البت في القضايا أمام المحاكم وقتاً طويلاً، قد يتجاوز عمر الانسان، كما أنهم لن يكونوا قادرين لمدة طويلة على إعاقة الاهتمامات بالعلوم وبالفضائل، وبالأعمال الأخرى المتعلقة بالسلام.

٩١[56] : وسوف أقوم الآن بشرح هذه الطريقةالموائمة -جداً في متابعة القضايا القضائية: على أي صاحب ادعاء في قضايا هامة، أن يقوم بعد استدعاء الدفاع إلى مكان القضاء، أن يضع أمام القاضي نقاط الاتهام نقطة نقطة، مما يود أن يبرهن على صحته، ومثل هذا في القضايا الأقل أهمية، عندما يكون الدفاع قد استدعي وهو موجود:

لقد ادعى«ب» ويريد أن يبرهن على صحة دعواه ضد«ت»، ويطلب أن يصدر حكم من قبلكم على«ت» نفسه، إلى حد ما يستطيع البرهنة عليه، أي أن«ب» نفسه قد أقرض«ت» المذكور مبلغ مائة مارك من الفضة الاسترلينية بعد ما عدّ المبلغ وسلمه إياه.

٩٢: بند: ــقام«ت» المذكور بحضور«ب» المذكور، بالاعتراف في أوقات أخرى بأن ما ورد أعلاه صحيح. بند: أقر «ت» المذكور، أنه سوف يعيد إلى«ب» المذكور مائة مارك استرليني صحيح، للسبب المتقدم. بند: لقد رفض«ت» المذكور إعادة دفع المال نفسه، مع أنه قد طولب به مراراً.

٩٣: هذا هو جوهر الشكاية كلها، ومن الضروري الانتهاء عند هذه النقطة، حيث يتوجب على القاضي نقل بنود الشكاية إلى الدفاع، من أجل أن يقوم بعد استعراض القضية كلها، بالإقرار بالجرم، أو برفض التهمة بالطريقة التي يرغب بها،فإذا كانت التهمة زائفة بسبب أن المال لم يجر تعداده قط ولم يجر بالتالي دفعه إلى المتهم، فوقتها يمكنه إنكار كل التهم، وينتظر من المدعي تقديم البراهين.

فإذا كان المال قد جرى إقراضه بالفعل، وتمّ الدفع بالفعل، لكن القرض قد ألغي، وهناك إيصال به، وقد سدد، أو تمت ترتيبات أخرى مع أشخاص آخرين، مع نية تجديد القرض ، يمكن للدفاع أن يقول: إن«ت» مقر بأن قرضاً مقداره مائة مارك من الفضة، قد دفع له منذ سنة خلت، وأنكر بالوقت نفسه جميع التهم الأخرى، وقال إنها غير صحيحة من جوانب أخرى، حيث عزم على أن يبرهن ضد«ب»، أنه دفع من بعد وسدد القرض إلى«ب» نفسه أو أن«ب» قد أعفاه من الدين، بنية جعله هبة، أو أن «ب» قد حلله من جميع التزا مات الماضي أو أنه عين مثل هذا المبلغ نفسه إلى آخر، مع نية تجديده وبذلك فرض على نفسه عدم المطالبة بالدين المذكور، وعلى هذه الشاكلة يسير الاستئناف وذلك وفقاً لما تتطلبه طبيعة الحقائق.

وإذا مارغب المدعي تقديم أي شيء عن طريق الدفاع، عندما يكون رد واستئناف الدفاع قد قدم إليه، على هذا المدعي القيام بتقديم إضافات إلى دعواه، وتقديم هذه الإضافة إلى الدفاع، ووفق الطريقة

نفسها يمكن للدفاع أن يضيف مايود إضافته، سواء أكان سنداً لقضيته أو غير ذلك، وتقديمه إلى المدعي، وأخيراً يتوجب على القاضي التأكد أن الحقائق نفسها لم تقدم بشكل مكرر، وأنه لم يتقبل مسائل لاعلاقة لها بموضوع الدعوى أو مقحمة فيها، وإذا وجد شيئاً من هذا القبيل، عليه رفضه، مع أية عبارات غير لائقة أو فيها إهانة، أضيفت من قبل المحامين، بعد هذا ينبغي تقديم البراهين ذات العلاقة من قبل الطرفين:أولاً بعرض الاتهام، ثم الاتهام المعاكس، وليتم ذلك تحت القسم، وبعد هذا يأتي دور تقديم الشهود ووثائق البرهان، وإذا ما أراد الطرفان المتنازعان، تقديم أسانيد إضافيه، بعد تقديم هذه الوثائق و الشهادات، ينبغي السماح لهما بفعل ذلك للمرة الثانية، التي ستكون بالفعل الإبراز الثالث للشهادة من كلا الطرفين، ولدى اكتمال هذه الاجراءات، على القاضي إصدار الحكم.

٩٤ : وقد يقول إنسان:«من الواضح أن طريقة الاجراءات هذه بعيدة عن الموائمة، وأدنى من الطريقة المعتادة التي كانت متبعة بشكل عام فيما مضى، ولا يبدو أن تحصيل الخبرة العملية في طريقة الاجراءات الجديدة من الممكن نيلها بسرعة»، وأنا مقتنع أن ذلك ممكناً، وأننا بتبني الطريقة المقترحة سنوفر كثيراً من الوقت، ومن خدع المحامين، ومن الواضح من جانب واحد فقط أن قصر الأمور على الكتابة، يجعل شكوى مكتوبة واحدة كافية للادعاء، وللمناقشات ولفحص الشهود، ومع إمكانية إبداع طريقة رسمية لرفع الشكاوى فهي لن تطوي المناقشات، والنقاط التي حولها سيجري فحص الشهود، وقد تعوّد الطلبة على التعايش بسهولة أكبر مع الشكايات، وأسرع من القدرة على استيعاب المناقشات والشهادات، ويمكن لهذه الأمور كلها أن تصبح معروفة بالطريقة نفسها، عن طريق المذهب المقترح.

٩٥ : فضلاً عن هذا: من الممكن للقضايا التي تقدم بها الطرفان أن

تدخل في الكتـاب السنوي للقضاة، ومـن الممكن صنع نسخة منه، بعـد إدخال الخلاصـات النهائيـة فيها، لتخصص للاستخـدام من قبل رجال الإدعـاء، وأخرى من قبل رجـال الدفـاع، وبهذه الطريقة نفسهـا يمكن توفير نسختين إضافيتين، وجعلهما تحت تصرف الشهـود من أجل إيداع شهـاداتهم، حيث من الممكن فحص الشهـود العـائـدين لكلا الطرفين، وأخذ شهاداتهم في الوقت نفسه.

٩٦: وسـوف تكون هذه الطريقـة في تسيير الأعمال القضائيـة مفيـدة جداً للشـاب في تحصيل الخبرة العملية في وقت قصير، بلا جهد تقـريباً، وإذا كـان السيـد المقـدس الحبر الرومـاني يرغب في الأخـذ بطـريقـة الاجراءات هذه، فإن كاتب هذه الرسـالة على استعداد لتقديم إجراءات للإدعـاء والدفـاع في كل قضيـة قـد ناقشهـا اللورد روفـريدوس -Rof fredus في كتابه الصغير حول القـوانين، وذلك مع جميع القضايا المثارة من قبل، ولم يتعين لها حـل، أو من حـوادث نجمـت حتى الآن، وهذه الخطة عـرضـة للتصحيح من قبل الـرؤوس الحكيمـة بالمسـاعـدة مع المصنف، وإذا مـا استكملت ووضعت للتنفيـذ، فإن الأرض المقـدسـة سوف تنال المنفعـة عن طريق أن يصبح سكانها جميعـاً متعلمين للقانون بشكل جـيد، وخبراء في أعمال الإدعـاء، وفي إصـدار الأحكام، وفي الوعظ، وفي التـألق بالحكمـة اللاهوتيـة، ويمكنهم الحفـاظ على هذه الدرجـة العـاليـة من الكفـاية لمدة طويلة، في الحقيقـة للجـزء الأكبر من حياتهم، وذلك عوضاً عن الإخفـاق بسرعة، فقط لدى الشروع بالتقدم، كما رأينا مراراً في الماضي، وما زلنا نرى.

ولسـوف تسهم الخطة المقترحـة بتملـك العلوم واستخـدامهم بشكل يختلف عن الطرائق المستخـدمة حتى الآن، وذلك بتقديم تأثير كبير على الوئـام في إدارة الأرض المقدسـة، وبعـد إعطاء التقدير المستحق لجهـود هذه الخطة، والاهتمام الزائـد بالتدريبـات والخبرة العملية التي تعطيهـا،

وذلك مع فوائدها، وبعد تكريس المزيد من الجهد لها أكثر مما يقدره أي إنسان، إنني أعتقد — أنه بعون الرب — أن الكومنولث الروماني كله، لاسيما الخاضعين إلى الكنيسة الرومانية، سوف يتبنون هذه الطريقة لاختصار الاجراءات القضائية، وتلطيفها بقدر ما يراه أكثر الناس حكمة مفيداً.

٩٧[57] : ومن الممكن حشد حججاً قوية ضد هذا الاقتراح — وهو احتمال قد يتمتن بخدع الشيطان وحيله، مع معاونيه الذين لا عدّ لهم ولا حصر — ومع ذلك على سبيل المثال :«أنك بالطريقة المختصرة التي وصفتها، والتي شددت على التوصية بها بمثابة طريقة مختزلة من أجل تسريع الأعمال القضائية، إنك تقوّم عن سابق تصور وإصرار كثيراً من القوانين التي سنت بعد صعوبات جمة، فهي ستصبح وقتها بلا فائدة، وبدون هدف، ولا حاجة لشغلها صفحات الكتب».

ومن الممكن مواجهة هذه الحجة بطرق عدة، فبعض القوانين قد أظهرت كيف يمكن بها تسوية القضايا القضائية، فهذه لم تتغير، وكذلك لم تتغير صلاحياتها، ولم تدمر عدم فائدتها بهذه الخطة، لكن هناك قوانين أخرى، تميل نحو إثارة المشاحنات، وتسبب لأسباب أخرى إثارة التناقضات، ويتبع ذلك عدد لا يحصى من الاحراجات التي تتولد من تطبيقها في أيامنا، ومن المفترض أن يتولد المزيد في المستقبل، لأن الشرور لدى بني البشر في تزايد، ومثل هذه القوانين سوف تمحق بوساطة هذه الخطة، إذا ما وضعت قيد التنفيذ، إنما لن يجري محق القوانين التي هي موجودة في«مجموع القوانين المدنية»، فهؤلاء يشكلون قاعدة جيدة من أجل الحجج القانونية، وهي أفضل من القوانين التي سوف تلغى، بكل ما تعنيه الكلمة، وهؤلاء أيضاً سيكونون موائمين كثيراً لعدد كبير من القضايا القضائية، هذا ولن يكون انحرافاً، في ظل مثل هذه الظروف، الابتعاد بعض الشيء عن بعض المواد النظامية في

هذه الشرائع والقوانين.

وبهذه الخطة سوف تصبح سلطات هذه القوانين عظيمة جداً في الأرض المقدسة، لأنهم لن ينالهم التعديل بوساطة العادات بالمحاكم المدنية، مثلما حدث للقوانين حتى الآن هناك، ولسوف يحافظون على مكانهم أكثر من ذي قبل، لأنهم سوف يتغلبون على العادات، وسوف يجري اتباع الطريقة نفسها من الاجراءات في كل من المحاكم اللاهوتية والمدنية، وسوف تكون الطريقة الاجرائية في تسيير القضايا القضائية رسمية واحدة في جميع أرجاء تلك البلاد، لأن تسوية القضايا القضائية، وسن القوانين التي سوف تحكم بموجبها مثل هذه المسائل سوف لن تتغير، ولسوف تتم المحافظة على صرامة القانون دونما إفساد أو تلف، ولن يجري تحديد المواد التي تستخرج منها الأحكام، ولن يسمح لهذه الأحكام بالصدور ما لم تصدر عن براهين هذه المواد، محصلاتها وبراهينها التالية، وهكذا يمكن للجدليين المنطقيين أن يقولوا عن القياس المنطقي، عندما يطرحون القاعدة المطلقة بأنه لا يمكن الوصول إلى نتيجة عندما يمكن لمحصلة معاكسة الوقوف مع السابقة، وإليكم ما يقوله المشرعون : من مائة برهان يظل خمسون يتوالدون أو بكلمات أخرى، ولنستخدم هنا تعبيراً عاماً:«الحقيقة المفقودة، لا يبرهن فقدانها على أنها موجودة».

وعلى الانسان مراعاة هذه القاعدة بدقة، كلما كان من الضروري إصدار حكم، سواء استمرت الشكاية أو جرت البرهنة على صحة ما قاله المدعي أو ما قاله الدفاع، وإذا ما تركنا إصدار الحكم يعتمد على الحظ، نكون قد اقترفنا غلطة بحق طبيعة الحكم بالذات، وإذا ما ظهرت هذه الغلطة، يصبح الحكم الصادر لاغياً بوساطة القانون نفسه، ولهذا قال الفيلسوف:«في قليل حداً من القضايا تكون الأصداء وبالتالي الأحكام منطقية، وتظهر بشكل جيد»، وهذا واضح من حقيقة أن كل

محاججـة تنبني وتتبرهن بناء على قـوة القيـاس المنطقـي، والذي ينهي المحاجـجة هو الأشد اختصاراً بينها جميـعاً، وتأتي بالضرورة بالقضية إلى محصلة ذات شكل وبنيـان ينتمي إلى جميـع المحـاججـات، ولهذا السبب طرحنا من قبـل أن على طلاب هذا المركـز أن يتعلمـوا فن المحــاججـة والمناظرة، مع قليل من الفلسـفة، حتى يمكنهم مـعرـفة طبيـعة البراهين وفن المقارنة، مع كيفية إيصال القضايا إلى محصلاتها، بمقارنة المحصلات التي عرضها المتشاركون، وأن يعـرفوا كيفية تقرير فيما إذا كانت الأسس صحيحـة، وفيما إذا كـان من الممكن أن نستخـرج من صحــة الأسس صحـــة المحصلة التي من الضروري أن تتماشـى مع الأحكام المقـــررة أعلاه، ومن هذا المنطلق حدث أن كثيراً من القضاة البارعين في القانون، لكن غير القادرين على دراسـة العديد من القضايا القضائيـة، قد اعتادوا على إحالة القضايا إلى آخرين أقل براعة وأقل خبرة، وهكذا بعدما تقدم إليهم تقارير حولها، يصدرون أحكـامهم على أساس الخلاصات الموجزة للاقتراحـات وللبراهين، وبذلك يفـرضون حكماً متسـاوقـاً مع البرهان، ومتناسباً.

لأنه كما يـــقول الفيلـــسوف:«العـقل البشري بسيط وغير مجزأ، وإلى حيث وجهت اهتمامـه توجـه بشكل كلي»، ولهذا السبب يفهم في وقت واــحد شيـئاً واــحداً فقط، أي في كل لحـظة من اللحظات، ولهذا على الانسان أن يقـدر السبب وراء طلب الانصاف القضـائي، وفيما إذا كان هذا الطلب قـانونياً، ومتسـاوقـاً مع القانون وغير متعـارض، ثم فيما إذا كـان قـد بني على حقيقـة، وأخيراً، إذا مـا تبرهنت صحتـه، هل صحـة المحصلة المطلوبة والمستخـرجـة من الضروري اتباعهـا؟ وبوسـاطة هذه التحريات والتقديرات لا يمكـن للعقل البشري أن ينخدع لدى إصدار الحكم، عنـــما تكون الشكاوى، والبراهين، والالتمــسات الواردة في المحصلة قد عرضت وفق هذه الطريقة.

ولقد قيل بأن معظم الأحبار الرومان الأعظم قداسة، قد اعتادوا على التفوه بالأحكام مرفقة بالمنطق الأصح، وبالبراعة الفلسفية، مع أنهم لم يتولوا قط دراسة القضايا القضائية، ولعل سبب هذا أنها أعطيت إليهم وسلمت من الأول الذي بدأ يفعل ذلك، أو أن ذلك ولد فيهم، أو وهب إليهم بنعمة ربانية.

٩٨: ومع أن المنطق يجهز ويعلم طرائق صحيحة للتعلم، وللفهم، ولمعرفة جميع العلوم، ولتعليمها، مع ذلك يحدث في حالات نادرة، أن إنساناً ما، بحكم مواهبه الطبيعية، يمكن أن يمتلك حكماً صحيحاً صادراً عن منطق طبيعي، إلى حد أن قدرته القضائية، وطريقته المنطقية في التفهم هي متفوقة، وأكثر سمواً من براعة الآخرين، أو مساوية لها، ومن الممكن سوق برهان على صحة ذلك مما قيل بأن جالينوس قد كتب به إلى أبوقراط قائلاً:«ما من إنسان يمكنه، أو أمكنه، فهم فن الطبابة، ما لم يعرف المنطق أولاً، باستثناء أبوقراط وحده لأنه متفوق جداً بالذكاء».

وينبغي على الملوك، والأمراء الآخرين الكبار، والقضاة، التفوه بالأحكام وفقاً لنظام منطقي ما، وعليهم -عدم الاصغاء إلى المشاكسين المنحرفين والمخادعين، ولا إلى الخدع المتغيرة للمدعين، ولا إلى كلامهم المعسول والبارع الذي يتفوهون به بطلاوة وبراعة، مع طرائقهم الخاصة بالكلام وبالضحك، ولا بحركاتهم وبإيماءاتهم التي تنم عن التوسل، أثناء أحاديثهم، والتي إذا ما دونت سوف تصل إلى شيء لا يتجاوز كلاماً أجوفاً وفارغاً قصد به التأثير، وترافق مع تغيير بالنبرات، مثل الصراخ الذي يشبه الرعد أحياناً، وعوضاً عن هذه الطرائق، إنه أفضل بكثير أن يجري تحري القضية من خلال، وبوساطة سجل مكتوت بشكل دائم، وذلك بدلاً من الاعتماد على الكلام العابر، فوقتها يمكن تقديم جواب محدد لشكاوى محددة وليس مجرد كلام انبعث على الفور

ثم زال وتبدد.

٩٩ [58]: تقدست الأرض المقدسة بالدم الثمين، وبالأعمال، وبالحضور الجسدي لمولانا يسوع المسيح، ولهذا من المناسب بأن تكون آمنة مستقرة أكثر من غيرها جميعاً، لأنها الأقرب والأحب إلى ملك السلام، الذي يقال بأنه أعطى لا شيء سوى السلام إلى حوارييه وإلى أخوانه، وعندما بفضل نعمة ورحمة ذلك المخلص نفسه، سوف تتوقف الحرب في تلك الأرض، لا بل حتى مع استمرار الحرب، يبدو من المناسب كثيراً أن تتوقف المشاجرات بين الكاثوليك المقيمين هناك بوساطة الطريقة المتقدمة الذكر، أو بطرائق أقل إرهاقاً وأذى، وأكثر فعالية وسرعة.

وجميع مساعي إعاقتهم وتأخيرهم مساعي شريرة، ويوجد الآن شرين أو أكثر، أحدهما لا يمكن تجنبه، والأقل هو الذي ينبغي أن يفضل، ولهذا يتوجب بموجب ذلك على الأب الكبير، أن يتفحص، وأن ينتخب وأن يتبنى نظاماً للاجراءات القضائية يكون أسهل وأقصر، وأقل كلفة، وإرهاقاً وأذى لأبنائه، وفي ضوء هذه الحقيقة، وبما أن السكان الجدد للأرض المقدسة لن يكون لديهم لا شرائع، ولا عادات، ولانظم خاصة بهم، يتوجب على الحبر الروماني المقدس، الذي هو الأب لجميع الكاثوليك، أن يتفضل ويتلطف بتأسيس النظام المتقدم الذكر إليهم، أو نظاماً أفضل، يتولى تسوية جميع خلافاتهم في أي محكمة من المحاكم، وبهذه الوسائل يكون قد فعل ما ينبغي لإخماد خلافاتهم، ثم عليه أن يغتنم الفرصة التي تهيأت بوساطة الاقتراحات المعروضة أعلاه، فيسعى للاقلاع بإصلاح عام روحياً ودنيوياً للأوضاع داخل الكومنولث المسيحي، وذلك حسبما يلهمه أبو الضياء، وينبغي أن يقوم بإصلاحاته بطريقة تعيش فيها هذه الاصلاحات لجميع الأوقات.

وإذا كان من المتوجب عليه إزالة الخلافات وإقامة السلام في مدينة

واحدة أو أسقفية،أو أكثر في مقاطعة، أو حتى أكثر في مملكة، أو ربما في عشر ممالك — كم عليه أن يعمل من أجل سلام دائم: روحياً ودنيوياً بين جميع الكاثوليك؟ ومن غير الممكن تحقيق هذا الاقتراح العظيم والرائع إلاّ من خلال الملك المحب للسلام، بما أنه صادر من عند الرب العظيم، ومن خلال الذي عهد إليه وحده بكامل قواه على الأرض، وبهذا الخصوص قال المانح المشهور للقانون المدني:«لأننا كنا مشغولين بالاهتمام بالكومنولث كله لم يقع اختيارنا على شيء هام جداً» ، إلخ.

١٠٠[59] : على الرغم من حقيقة أن الكاتب الحالي لهذه الرسالة سوف يتخلى عن المبلغ الكبير الذي يأتيه من خلال عمله مستشاراً في القضايا التي تخص السيدين الملكين الرائعين، ملكي فرنسا، وإنكلترا، وفي قضايا قضائية لاهوتية أخرى، وسوف يضطر لعدم الاستمرار في موطنه الأصيل، إنه على الرغم من هذا كله على استعداد للقيام بتنظيم القضايا المذكورة أعلاه، لا سيما المدارس العائدة للمركز المقترح، وبمعونة الرب، وفضله سوف يقدم المساعدة في هذا العمل بكل ما أوتيه من قوة، لعله يكون شريكاً مسهماً في هذا المقصد الهام جداً، ومن ثم يغني مع المزمور قائلاً:«أنا رفيق لكل الذين يتقونك ولحافظي وصاياك»[مزامير : ١١٩ / ٦٣]، وأتفق مع الرسول عندما يقول:«فلنعمل الخير إلى جميع الناس بقدر مانستطيع»[غلاطية : ٦ / ١٠ بتصرف]، وأتفق أيضاً مع الذي اقترح القانون بقوله:« على الانسان أن يعمل كل مايستطيعه لإنقاذ الحياة الأرضية لإنسان آخر، دون أن يعيق خلاصه الأبدي».

١٠١ : وإذا ما بدا أنه من المناسب إقامة حلف للسلام العالمي، وفق الطريقة التي جرى شرحها، ينبغي أن يكون هناك قراراً جماعياً من قبل مجلس للأساقفة وللأمراء يقضي -بوجوب أن يحلف جميع الأساقفة مهما كانت مراتبهم، وكذلك الفرسان، العلمانيون حسب خدماتهم، أن يحلفوا

أيماناً مهيبة بالمحافظة، بكل ما يملكونه من قوة، على حلف السلام هنا، وعلى فرض عقوباته، ومراعاتها بكل سبيل من السبل، وكل من يتمنع، أو يهمل هذا القسم، ينبغي أن ينال عقوبة الحرمان الكنسي الرئيسية، ويتولى فرض ذلك عليه بوساطة السلطات الرسولية، وبوساطة المجمع المقدس، وكل من يخرق في المستقبل حلف السلام هذا يتوجب مهاجمته بكل ـحدة بقوى جميع فر سان العساكر الدنيوية والروحية، حتى لا يمكنه المقاومة.

١٠٢ [60]: وبعد الانتهاء من هذه المسائل، إن الهم الثقيل الثاني للكاتب الحالي، متركز حول توجيه راهبات طائفة القديس بندكت، وهي جماعة من الممكن أن تتملص من إصلاح أحوال الكنيسة المعروض أعلاه، فبعد تقويم عادي للمخاطر الناجمة عن حياة العزوبية، وتكاليف الحفاظ على أرواحهن، وعلى التبريكات غير العادية التي يمكن أن يحصلن عليها، يبدو أنه من الموائم أن يقوم الحبر الأعظم، بناء على طلب من الأمراء الذين غالباً ما أسسوا الديرة من أجل الراهبات المكرسات، أو قدموا الهبات لهن، أن يقوم باتخاذ قرار في المجمع، إنه في الوقت الذي تتوفر فيه نفقات كافية للديرة الحاوية للعذراوات المعترفات، ينبغي إنقاص أعدادهن حتى لا يكون في المستقبل في الدير الواحد أكثر من ثلاث عشرة راهبة.

ومن المتوجب إنفاق الهبات المخصصة لديرة من هذا القبيل لصالح الفتيات اللائي سوف يتدربن وفق الطريقة التي تقدم عرضها، وينبغي إضافة أعداد الفتيات اللائي يحسن القراءة والغناء إلى أعداد الراهبات، ولسوف يكون هذا العدد كبيراً جداً، وبذلك لن تعاق القداسات اللاهوتية مطلقاً، ما لم يتناقص العدد وفقاً لطريقة طائفة المبشرين، وينبغي حماية المنح المعطاة إلى هذا النوع من الديرة والدفاع عنها، بوساطة المسؤولين داخل المركز العتيد المقترح، ومن المتوجب استخراج

مبلغ كاف لتقـديمه للانفـاق على الراهبات وعلى رؤسـائهن حسبما كان الأمـر من قبـل، لكن ينبغي إيقـاف جميع النفقـات التـي يمكن تجنبهـا، وكذلك النفقات التي هي بلا فائـدة، وعلى الفتيات ذوات الحياة المدنية، اللائي يتبعن النظم المدرسـية التي أوجدـها مديروا المرـكز، المشار كة في الصلوات الصباحية وفي القداسـات، ومن الممكن إعفاء الفتيات اللائي يبرهن أن تعليمهن أسهل من هذا الواجب.

وســوف تضع السمــة الأخيرة لهذه الخطة حــداً لكثير من الشرور المعتادة، ولا سيما ممارسة قبول الراهبات مقابل دفع المال، أو لاعتبارات أخـرى، وكــذلك اختيـار الديـر لشخصيـات ذكيـة ليكـن راعيـات أو رئيسات، والترخيص بعدد كبير من التجاوزات الطبيعية وغير الطبيعية، وينبغي الاستمرار بالطقوس التعبدية في الديرة كما هي من قبل، وإجراء هذه الطقوس خارج الديرة بمساعـدة الفتيات المغادرات للدير، وينبغي استخـراج ما يزيد على ثلاثين ألف ليرة تـورية سنوياً إلى صالح المركـز المذكــور، وإذا جــاء المبلغ المستخــرج أقل من هذا المبلـغ العظيم، من الممكن، لدى وفــاة الولاة الحاليين، ردفــه من المبـالغ المخصصــة لهذه الديرة، وذلك بعد حـذف نفقات نواب الأساقفـة، وكذلك من واردات ومنتجات كثيراً من الكنائس الغنية، التي تحت إشراف هؤلاء.

ومن الممكن أن يحاول إنســان — بنـاء على تحريض من الشيطان — تعطيل ـهذا الاقتراح على أنه اقتراح شرير، ـــقــائلاً إنه ـمن هذا الشر ســوف تنبع شروراً أخـرى كثيرة، وإذا مــا أراد أن يدعم معـارضتــه بوساطة مثل هذه المحصـلات غير الممكنة، والمتناقضة، وغير المهمة، من الممكن إجــابتـه بإقـرار أن كثيراً مـن الشرور يمكن أن تنجم عن شيء جيد، إنما مع هذا، لا يجوز للانسان تجنب فعل الخير.

وحسبما ذكرنا من قبل، إنه لمن الواضح من آراء جميع الفلاسفة الذين علـقوا على هذه المـسائل، أنه من غير الممكن وـجود ـصلاح ـكامل بين

الناس الذين يستخدمون قدرة حرية الارادة الممنوحة إليهم من قبل الخالق، ولهذا من المستحيل صياغة قانون عام يمكن من خلاله عدم اتباع كثير من الشرور، علماً بأن القانون بحد ذاته هو خير.

[61] : ويمكننا بوساطة إجراءات بارعة وحكم منطقي، أن نقرر أياً من هذين الخيارين سوف يكون أكثر مواءمة، وأعظم خيراً، ولنفترض أن لدينا بيتاً للداوية وبيتاً آخر للاسبتارية، ورعوية تابعة للقديس لعازر، وديراً للفتيات، مثل الذي رأيناه حتى الآن، ولنقم من جانب أول بتقويم الخير الذي يمكن أن يصدر عنهم، والشرور التي ترافق سوء استخدامهم، ولنقم من الجانب الآخر، بالطريقة نفسها، بتقويم الخير والشر الذي سوف يصدر عن الخطة التي تقدم وصفها، أو يمكن افتراضاً أن يصدر، ثم دعونا بعد هذا نعقد مقارنة بين شرور وشرور، وبين خير وخير، وبذلك يمكننا أن نختار بين شرين أو بين شرور أكثر — مهما كان عددها — الشر الأقل، وأن نختار بين سمات الخير المتنوعة أحسنها وأفضلها.

وبمناقشتنا المسألة بهذه الطريقة، ولدى وصولنا إلى محصلة من خلال المحاكمة المنطقية، وبعدما قدرنا الخير والشر تقديراً صحيحاً وعادلاً وصادقاً، ألن يقع اختيارنا وفقاً لهذا المنهج على الشر الأقل والخير الأكثر؟ وما من أحد يمكن أن يكون صالحاً ما لم يقم أولاً بالتخلي عن جميع الشرور، وفعل الخير بعد ذلك، ولهذا دعونا نقدر الخيروالشر الذي يمكن أن يصدر عن هذا الجانب وعن ذاك، ومن الممكن أن نعهد بسلطة الحكم والاختيار إلى طائفة الواعظين، وإلى طائفة القلة، لأن رجال هاتين الطائفتين، أكثر من سواهم من بين الناس الأحياء معرفة بأوضاع الجانبين، فبعد الاصغاء إلى الحجج المختلفة من كلا الجانبين، وبعد تفحص جميع الوثائق، والبراهين الاضافية، التي باتوا عارفين بها، إنني أعتقد أن من الممكن أن نحصل منهم على الرأي المعتمد والأكثر

-٣٣٤٠-

صحة، وبهذه الطريقة — كما أعتقد — يمكننا الحصول على أصح الأحكام المنطقية، وذلك بقدر ما تسمح قوانا البشرية الهشة به.

وبالتمسك بهذه الطريقة من الاجراءات، يبدو من غير المحتمل إيجاد أي شيء، وتقديم أي شيء يثار ضد الكتّاب، والرغبات الطيبة لهذا الاقتراح بالتغيير.

ومن المؤكد أن الذين يختارون الالتزام الدائم بمقترحات القانون اللاهوتي حالهم أكثر كمالاً من الذين اختاروا الالتزام بظلاله فقط، ومن المؤكد أيضاً أنه جيد بما فيه الكفاية الالتزام تماماً بظلاله، لكنه شر الالتزام بأقل من المقترحات، وعليه يذنب الذين لا يلتزمون تماماً بهذه المقترحات ويسقطون، ولذلك ينبغي أن لا يختار الانسان موقع الكمال التام، ما لم يعدّ نفسه قادراً بشكل صحيح على الالتزام به تماماً، ونتيجة لهذا على بني البشر في أيامنا — لا سيما من عنصر النساء لضعفهن المشهور — أن يختاروا الجزء الأسلم، خشية أنه في غياب الراعي وعصاه سوف تتيه الشياه قرب الغابة، فيفترسها الذئب إذا ما دخلت إليها، لكن إذا بقيت في الخارج فسوف تتلقى المدح والمكافأة، وإذا لم تفعل ذلك فسوف تفترس، فأين هو الانسان العاقل والمجرب الذي سيتطوع بإخضاع أولاده وتعريضهم لمثل هذا الخطر وهذه العقوبة؟

وكما قال الفيلسوف: «الحركات الأولى ليست في قدرتنا»، ففي الوضع الحالي للمشروع المرغوب به، من النادر أن يتمكن أي إنسان من مقاومة طغيان الشهوانية وقدرتها، ومقاومة الأقلية أدنى احتمالاً بتعويض أرض الآباء السماوية من انعدام المقاومة من قبل عدد كبير من المحتمل قيامهم بإلحاق الضرر بها، ولوفقط أن الآباء المقدسين — قبل إقامتهم لهذه المصائد — التي صنعوها بمقاصد طيبة، عندما زادت من الذنوب وضاعفتها بحيث تجاوزت تعاليم كل من العهدين القديم والجديد ـ لو أنهم فقط رأوا آنذاك هذه المصائد كما يرونها الآن، وهي مصائد نصبوها

متطوعين، وكذلك لو رأوا أعداد الـذين أدينوا بسببها!، وبما أن الطبيعة البشرية نزاعـة للابتعـاد عـن الإيمان، وميـالة نحـو الاعتـداءات، ينبغي الابتعـاد عن إغواءات الوقـوع بالذنب، وأيضـاً عن تدمير قطيع المسيح من خلال الابتعاد دوماً عن الذنب.

وبناء عليـه يبـدو أنه مـن الموائم تقـديـم حل لطيف ومسـاعـدات لطوائف الـرهبـان المتسـولين — مع أنهم لا ينشـدون ذلـك — من ممتلكات الكـومنولـث لكل مـن رجـال الـدين والعلمانيين، وبـذلك يتحـررون من كثير من الأفعـال التي يقومـون بها تحت ضغط الحاجـة، ويمكنهم بذلك الحصـول على الوقت مـن أجل التأمل، ويتـوقفـون من الآن فصاعداً عن التسول، فقـد أمر الرب بتأمين موارد العيش إلى سبط لاوي، دون أن يكون لهم نصيب في ميراث آبـائهم، مع أنهم استحقـوا ذلك أكثـر من الآخـرين، وحبـذا لو تقـوم الكنيسـة بتـزويد الرهبـان المتسولين بالخبز، والخمرة، وبما يكفي من الألبسة، والأحذية، مع فرصة نيل بعض الأعطيات، فلعل ذلك يكون كـافياً لسد حاجـاتهم الأخرى، آخذين بعين التقدير، العقل، والحكمة، والخبرة لدى بعض أفرادهم.

ولعله يكفي إتيـاننا على ذكر هذه المسـائل، وطرح الوسائل الوحيـدة بالتخطيط بشكل فعـال للوصول إلى الغـاية التالية، ذلـك أن يقوم ذوي العقـول الحكيمـة بينهم، بتقـدير الشر والخير النـاجم عن فقـرهم، وأن يختاروا الحل الأسلم، ومن ثم يضعونه أمام المجمع في ضوء معلوماتهم، وعندمـا يتناقش المجمـع المقـدس حـول مستقبل الأمـور غير المؤكـدة، يمكنه أن يقرر المنهج الأكثر فائدة.

١٠٣[62] : وإذا ما أخفق المجمع في اتخاذ إجراء تهدئة للصراع الذي تفجـر بين ورثة مملكة كـاستيل، فقـد يعيق ذلك فعليـاً استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليهـا، وقد قيل بأن الذي يتملك المملكة الآن، موقفه غير عـادل تمامـاً، فقـد عقـد اتفـاق بين الابـن الأسن للملك— الذي

انتخب امبراطوراً في أيـام الصراع — وبين ابنة القـــديس لـويس، ملك فرنسا، وكان قد عقد اتفـاق، وجرت تسوية، أنه إذا ما مات ذلك الولد قبل والده، فإن الحفيد ينبغي أن يتولى العرش، وقد وافق على هذا الملك نفسه، وأساقفة وبارونات مملكته، ومـراغمة لهذه الاتفاقية، لابل مراغمة للعدالة العامة وللقـانون الطبيعي والإلهي، عندما مات هذا الولد، مخلفاً ولدين، قام الأب نفسه، أي جـد الولدين،فتوّج ابنه الحي، وبذلك حرم حفيـديه، وخـرق تعهده، وحنث بعهـده وبكلمـة الشرف التي أعطاها، فـذلك الابن المتوج لا حق له شرعيـاً بالمملكة، وهو متمسك بها بشكل مضر لخلاصه الآ ـخروي ولخلاص المؤيدين له، وفي ذلك إيذاء أيضاً إلى الوريث الحقيقي.

وهذا الذنب العظيم، واضح من خـلال جميع أدلة الحقيقة ذاتها، وهو مـشاهد بو ضوح من قبل جميع الذين يقـفون إلى جانب المغتصب، ولا يمكن لأي منهم ادعـاء الجهل، ولهذا عمل والدهـم الروحي، الذي هو غير جاهل بالحقائق، ومن واجبه تقديم حل، خشية أن يطلب دمهم من يديه، وربما يمكن إنجـاز هذا بسهـــولة، ومن دون أي اضطراب، باتهام المغتصب بذنب الاغتصاب العظيم، وبأنه يقـوم يمراعاة المسلمين الذين يتـولون مملكة غـرناطة بتفـويض منه، مقـابل الجزية، والذين غـالبـاً مـا يقـومون بقتـل المسيحيين، ويمكن للمولى البـابا أن يقـول لهذا الذي هو تحت هذه التهمـة الشديدة، والمهدد:«مـن أجل صالح الأرض المقـدسة، نحن نرغب بمختلف الوسائل أن تقيموا السلام فيما بينكم».

ويبـــدو أن هذا الخلاف من الممكن فضـــه بكـل سهـولـة:بأن نجعل الحفيد الأول ولادة يتولى مملكة غرناطة، وأن يتولى أخاه مملكة البرتغال، أو مملكة أخـــرى مـن الممالك الكثيرة التي هي بيـــد المغتصب، ويمكن للمغتصب الاحتفاظ شخصياً بمملكة كـاستيل، بشرط أن يقوم بما لديه من قوات من الفـرسان والرجالة بتقديم العـون إلى مملكة غرناطة لطرد

جميع المسلمين منهـا، ولمقاومـة المنفيين أينما تطلبت الحاجـة، وعليـه الالتزام بهذه الشروط تحت تهديد فقـدانه لمملكة كاستيل أيضـاً، وسوف تكون خطة مفيـدة القيام بإقناع الملوك المجـاورين لتلك البلاد، وأقصـد بذلك ملوك أراغـون، ونافار، ومايـروكا، والحكام الآخريـن حيثما كانوا في إسبانـيا، بمساعدة ملك غرناطة الجديد، والقـيام بمحاصرة المسلمين والضغط عليهم من كل اتجاه، وبذلك يمكن طردهم بكل سرعـة، وإثر هذا يترك الآخـرون من ملوك إسبـانيـا وأمرائهـا، ملك غـرناطة ليقـوم بالدفـاع عن بلاده، ويقـومـون هم، مثلما هو مطلوب من الآخـرين، بالعبـور إلى الأرض المقـدسـة، وتقـديم مسـاعـدة كبيرة هناك، وبهذه الوسيلة من الممـكن للانـغدوك حـشد جيش كبير، يمكنه العـبور إلى سردينيـا، ليحررها من فـردريك صـاحب أرغـون، الذي يتوجب عليـه وقتها إعادة مملكة صقلية إلى ملكها الشرعي.

١٠٤[63] : ومن أفضل الطـرق لتنفيـذ هذا المشروع القيـام بتنظيم أربعة جـيوش، تتوجـه ثلاثة منها وتـسافر بحراً، أـما الرابع وهو الأكبر فيتـوجـه عبر الطريق البري، وبذلك يحذو حـذو شـارلمان، والامبراطور فردريك الأول، وغودفري دي بولليون، ولقد قام أعداء الإيمان بحصار عـدة أمـاكن والتضييق عليهـا، ولهذا فإن قـواهم متفـرقـة، ولذلك من الممكن طردهم بسرعـة أكبر، ومن المحتمل أنهم عندما يسمعـون بأخبار حلف السلام المذكور من قبل، وأنه قد أقيم من أجل محقهم، وأن هناك حشـوداً عظيمة من النـاس تزحف ضدهم وسـوف تزحف، وقتهـا من المحتمل أن يتخلوا عن طواعيـة عن جميع أرض الميعاد بلا حـرب، وإذا مـا فعلوا هذا من دون تدمير للقـلاع ولأماكن السكنى الأخـرى، ومن دون سلب الكنائس ونهب مـا فيهـا من آثار وآنيـة مقـدسـة، يمكن إعفـاءهم من نيل موت عنيف، والعكـس سوف يكون إذا مـا أبدوا أية مقاومة، فوقتها سيجري سحقهم كلياً، ولن يترك لهم مكان في البلاد.

وبعـد هذا، سـوف يحسـن الأمـراء صنعـاً، في أن يتركـوا في الأرض المقدسـة قوة كافيـة للدفاع عنها، وأن يعـودوا عبر طريق بلاد الاغريق، فوقتـها سوف يكونون — بناء على نصيـحة الكنيسة الرو-مانية — على استعداد للقتال بشدة لصالح اللورد شارل أوف فاليوس، ضد المغتصب غير الشرعي باليولوغـوس[أندرونيكوس الثاني — ١٢٨٢ — ١٣٢٨]، مـا لم يكـن على استعـداد للتخلي عن السلطة، وينبغـي أن يكون هناك اتفاق سلفي، بأن يقوم اللورد شارل — بعد الحصول على النصر، وبعد تملكه للامبراطورية الاغريقيـة — بمنح فرصة لمعونة الأرض المقـدسة، والدفاع عنهـا، كلما قامت الحاجة، لأنه سوف يكون الأقـرب إليها من غيره من الأمـــراء،وعلى هذا سـوف يكون حملـه أخف بكثير، من حمل الأمـراء الأبعـد مسـافـة منه، كما سيكون مفيـداً لملـك ألمانيـا، ولجميع الحمـلات المستقبليـة المسيحيـة التي سـوف ترسل لمسـاعـدة الأرض المقدسة، حيث أيضاً من الممكن تنظيمها بشكل أكثر فعالية.

١٠٥ : وعندمـا — بنعمـة من الرب — تكون هذه المشـاريع قـد نفذت، ـسوف يكون الكاثوليك من العقلية نفسها ـقد صاروا متملكين لشاطىء البحر المتوسط كله، الممتد من الغرب طوال الطريق إلى الشرق على الطر-يق الشمالي، مع الجزء الأعظم المـصاـقب لأرض الميـعاد في الجنوب،ووقتها لن يكون بمـقدور العرب الإزدهار بشكل ـمادي، ما لم يشـاركوا مع الكاثوليـك في تجارات منتجاتهم، وينطبق هذا على أحـوال الشعوب الشرقية وعلى منتجاتها.

١٠٦[64] : ويتـوجـب أولاً فحص هذه الخطة المتصـورة من قبل المشرعين المسيحيين مع نائب المولى يسـوع المسيح على الأرض، وخليفـة المبـارك بطرس، أمير الرسل، وسوف تصل إلى حـد الكمال بتوجيـه من الرب الذي هو قـائـد الجيـوش، ولعلـه يرضي صـاحب الجلالة الملكيـة المجربة، فيتلطف بعد انتهـاء هذه الحروب بنجاح، أن يطلب بصنع هذه

الأشـياء، وأن يشرف على تنفيذهـا، مع الأفكار الإضافـية التي ـقد تأتي إلهاماً من ينبوع الحياة، الذي عنه تصدر جميع المباركات.

ويبـدو من المرغوب فيـه، من أجل تنفيـذ هذا المشروع، الالتماس من البابا أن يعقد مجمعاً عـاماً على هذا الجانب من الجبال، من أجل تفحص هذه المسـائل، وعليـه أن يدعــو إلى هذا المجمع الأسـاقفـة، والأمـراء الكاثوليـك المطيعين له، لا سيما الملوك والآخـرين الذين لا يعترفــون بسيـد لهم على الأرض، دون أن ينسى الباليـولوغوس المغتصب لعـرش القسطنطينية، ومغتصب مملكة كاستيل، وولدي أخيه اللذان يناضلان في سبيل العرش، وملك ألمانيا وناخبيه، فمن هؤلاء سوف يتلقى المشورة، والعـون، والاقتراحــات المسـاعـدة في قضيــة الاسترداد، والاصـلاح، والحفاظ على الأرض المقـدسة، وكذلك حول كل مـا يفيد الكومنولث المسيحي العالمي.

وبعــد تحسين هذا الكتــاب الصغير مـن قبل العقــول المفكرة لخيرة الخبراء من قـادة الحرب، ينبغي تقـديمه إلى المولى البـابا، من قبل رجـال عقــلاء جـداً، وخبراء بالشــؤون الانســانيـة، يمكنهـم الرد على جميع الاعتراضات، وتجنب تحريضات ملائكة الشرور، ويتوجب اتخاذ التدابير التي تضمن أن يعرض فقط على الخبراء والمستشـارين المقربين من السيد البابا، لأن من المؤكـد أن هذا الكتاب التقـوي الصغير، سوف يلقى — بتحريض من الشيطان ومن حشده الشـائن — كثيراً من الخصوم الذين لا قيمـة لهم، والذين سـوف يعـارضـونه، ولسـوف يقـاتل الشيطان مع مؤيديه بشراسة ضد هذا الاندحار، الذي هو أعظم ما عانوه منذ حادثة آلام، وقيام الكلمـة المجسدة، ولا أعتقد أن الطبيعـة البشرية لأي إنسان حي مستعصيـة على مثل هذه الإثارات مـا لم تلق الدعم من أبي الضيـاء الأبدي، من خلال ثبات ونشاط قدرته التي لا حدود لها.

وسوف يلاقي هذا المشروع، الذي هو بحدود طبيعة الأشياء الممكنة،

النجاح، إذا — بنعمة من الرب — ما تعاون بحرارة، من أجل تحقيق هدف هذه الخطة، ولدى تنفيذها، الوصي الرئيسي على سلامة الكومنولث هنا على الأرض[البابا]، وأكثر الأمراء خبرة في فن الحرب، وفي استخدام وممارسة الأعمال العسكرية[إدوارد الأول]، وذلك من أجل إطالةعمر، ليس فقط الحياة الروحية بل أيضاً الحياة الدنيوية، ومن أجل الرغبات السعيدة للانجاز لدى هذين الاثنين اللذان يحافظان بتقوى عظيمة على مصالح الأرض المقدسة، ويعتنيان بها، وسط كثير من مشاغلهما واهتماماتهما، وينبغي على كل واحد يهمل في سبيل هذا الهدف الرائع الاستمرار على الاعتماد بقلوب مؤمنة تقية وبصوت واحد، على الخالق الأعلى للحياة، الذي من خلال نفوذه وعنايته وحفظه تعيش جميع الأشياء وتستمر تبعاً لطبائعها، وبالاستمرار بالأخذ بالنهج الذي منحهم كل الفضائل التي يمتلكون.

١٠٧[65] : وبعد الفراغ من هذه المسائل، تقفزبحدة إلى الذهن حقيقة أن الناس سوف يشعرون بعدم الرضا، وسوف يتمتمون، لأنه لا في الماضي ولا في الحاضر، بدا أن الهبات التي منحت إلى الأرض المقدسة مع المبالغ الأخرى التي جمعت من أجل عون الأرض المقدسة باسم الداوية والاسبتارية، وبطرق أخرى متنوعة، بدا بوضوح أنها لم تستخدم لصالح ما جمعت من أجله، ويستحسن إلغاء، أو توزيع المنح التي أديرت بإهمال،بشكل نهائي.

ومن أجل إيقاف هذه المخالفات، سوف يكون مفيداً إقامة صندوق تبرعات عام في الكنيسة الكاتدرائية لكل أسقفية، أي إنشاء غرفة خزينة، يجري فيها حفظ الأموال التي كرست لهذا الهدف، وحيثما توفرت الحاجة لأية مساعدة، من الممكن تقديم الأموال ومنحها إلى المقاتلين الذين يستعدون للذهاب إلى تلك الأرض، ويكون ذلك بناء على توصية من الأسقفية المحلية، ومن إدارة المركز المتقدم

الذكر،والمقصـود بالمقاتلين هنا، المقاتلين الذين ينتمـون إلى الأسقفية، أو إلى أسقفيات أخـرى، وهم على نية عبور البحـر، وينبغي أن يبقى أعيان الناس في تلك الأسقفيـة، أو المقاطعـة، أو المملكة، على دراية بالأمـور، وأن تجري استشـارتهم مـع الأسقفيـة،وإذا مـا جـرى تنفيـذ هذه الاصلاحات، سـوف يجري تقديم المزيد — لا بل الكثير الكثير — من الهبات إلى المرـكز المتقدم الذـكر، وينبغي إخراج الديون المستحـقة له إلى النور، وهي الديون التي كانت قـد فقدت من قبل نظراً للسكوت عنها، وبالنظر لـتزايد الأموال ـسوف يمكن العثور على المـقاتلين الجاهزين في كل مكان، وعندما تتوفر الحاجة إليهم.

ومن أجل تحقيق نتائج أكثر جـاهزية، ينبغي اتخاذ قرار داخل المجمع يقضي بأن يعمل الأساقفة المحليـون، وغيرهـم من الأساقفة، والمبشرون، والـ Minorites، على حث وإقناع كل الناس مهما ـكانت مشاربهم في الحيـاة، على تطويع الناس البـارعين من كـلا الجنسين المفيـدين للأرض المقـدسـة، ومن حيثما جـاء هـؤلاء الناس،يجب إرسـالهم إلى السـواحل مجهـزين بجهاز حسـن على حساب الذين طوعـوهم، أو إذا تعـذر ذلك ليكن على حسـاب بعض المحسنين الأتقيـاء، وهبات أخـرى، ولسـوف يجري إرسـالهم عبر البحـر على حسـاب المركـز المتقـدم الذكـر، وينبغي إرسالهم على شكل مجموعـات في كل مجموعة مائـة رجل، قد ارتدوا زياً مـوحـداً، والأعـلام فـوق رؤوسهم، والأبواق تصـدح أمـامهم، وبهذا يمكنهم الذهـاب بشجـاعـة وحماسـة، وبذلك يـؤثرون على كثير من الآخرين حتى يلحقوا بهم، ويتوجب على الذين ينتمون إلى المدينةنفسها وإلى الأسقفية ذاتها، الاحتشاد في وقت واحـد ومكان واحد، وفي مكان واحـد فيها بعد للذين هم من الاقليـم الواحد نفسـه، وعلى الذين معهم زوجـاتهم، الاحتشـاد في جماعـة واحـدة، وينبغي أن يكون لكل جماعـة ضابط رئيس واحد، يقدم الجميع إليه طاعة مطلقة.

وإذا ما كان لدى بعض الذين يودون العبور بعض الأطفال الصغار، عليهم إرسال القابلين للتعليم منهم إلى المركز المذكور حتى يتعلموا فيه على حسابه، وعندما يكملون تدريباتهم ويتعلمون، يمكنهم اللحاق بآبائهم ومن المتوقع أن تكون مختلف المقاطعات، والمدن، والأماكن متشوقة للاستيلاء على المناطق التي ستمنح لهم في الأرض المقدسة، وأن ترسل عدداً كبيراً من المستوطنين لكي يستولوا عليها ويستقروا بها بكل سرعة، ومن أجل أن يكون هؤلاء كافين للدفاع عنها، وينبغي أن يكون جميع الذين أرسلوا إلى هناك مدربين، حتى يكونوا قادرين على الفور القتال بكفاءة كجنود رجالة.

١٠٨ [66] : ولدى توزيع المدن والمناطق، سوف يكون مفيداً عدم نسيان المبادىء التالية،وذلك من أجل الصالح العام، والمعني بهذه المبادىء أن يكون هناك اتفاق في داخل المجلس من البداية،أن يجري تخصيص المدن الحدودية والحصون القائمة على الجبهة في الأرض المذكورة، إلى الرجال الأعظم نشاطاً، والذين اعتادوا في مواطنهم على القتال[ضد المسلمين] من أمثال الإسبان وآخرين كثر، وبذلك فإنهم بقتالهم من وراء الدفاعات ضد العدو — بقدر ما تتوفر الحاجة — يمكنهم حماية حدود الأرض المقدسة، ومدنها، وحصونها، وأن يكونوا مستعدين دوماً لاستدعاء النجدات من الآخرين، إذا ما اقتضت الحاجة، وهكذا عندما تحاط الأرض المقدسة بسياج من المقاتلين الشجعان، من الممكن الدفاع عن حدودها بشكل فعال وتتمكن المناطق الداخلية من الازدهار، ويتوجب أن تحكم الأرض المقدسة — بمعونة الرب — بعناية وتقوى فيما يتعلق كلياً بالسيفين: الروحي والدنيوي، وباحترام الأماكن المقدسة كما ينبغي، وبإجلالها، وبإقامة القداسات فيها بشكل متواصل، سوف يكون من الممكن تهدئة غضب مخلصنا، الذي، برحمته غير المحدودة، ارتضى أن يعاني الموت جسدياً هناك، من أجل

إنقاذ الجنس البشري.

[67] : إنه لمن الواضح، ومما يمكن البرهنة عليه من الكتابات المقدسة، وبوساطة حجج دامغة، أن إصلاح الأوضاع الخلقية والقيم في الكنيسة العالمية ضروري، وذلك إذا ما أريد إيقاف الحروب، واسترداد الأرض المقدسة — ذات السحر الخاص الذي تبرهن الكتابات المقدسة صحته — وإسكانها من قبل المسيحيين.

إن ذنب إنسان واحد هو سبب ضعفه، ومن خلال التكرار، سيكون سبب موت المذنب، ومن الممكن البرهنة على هذا من خلال كلمة الرب عندما قال إلى الإنسان المريض:«لا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشرّ»[يوحنا : ٥ / ١٤]، وبوساطة الفتوى المبنية عليها، وللسبب نفسه إن ذنب مدينة، أو ذنوب شيوخها هو سبب الخلافات، والحروب، والموت، والشيء نفسه ينطبق على ذنوب المناطق، والممالك، والامبراطوريات، لأنه مهما كانت العلاقة بين جزء وجزء، كذلك العلاقة بين كل وكل هي نفسها، والعكس هو صحيح، وحيث تتوفر الأسباب نفسها يتوفر الحق نفسه، وحيث يكون السبب نفسه، يكون التأثير نفسه، وذلك حسبما تعلن الشرائع، ويناضل منطق الفيلسوف في سبيله، وحسبما قال الرسول:«لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»،[رومية: ١٥ / ٤]، ونحن نرى أن الكتابات المقدسة، التي هي وسائل الفهم، الذي هو، إيمان، تحتوي في سفري المكابيين أنه لمدة تزيد على سبعين سنة كانت هناك ذنوب كثيرة، وموت كثير، وأحزان عظيمة، كلها قد حدثت من أجل الخير، بسبب ذنوب الناس الأشرار، فكيف يمكن لرئيس الكهنة، الحاكم على الكنيسة كلها، الشاغل لكرسي بطرس، نائب مولانا يسوع على الأرض، الذي ناضل بحماس من أجل خلاص المذنبين،كيف يمكن له أن يفكر أن الأرض المقدسة يمكن استردادها وإسكانها من قبل المذنبين وذلك في الوقت الذي كتب فيه

من قبل النبي:«الأماكن لا تمنح القدسية للناس، لكن الناس يمنحون الأماكن القدسية»؟.

أولا يرى أن الكتابات المقدسة، التي تمقت الحروب، والوعاظ الذين يعلنون هذا بالطول وبالعرض، أنهم غير مؤثرين الآن، كما كانوا في الماضي؟ ولو أنهم كانوا مؤثرين الآن وفيما بعد، أو لن تكون هذه الأمثلة نادرة جداً، لو أن جميع العالم الخاضع له أخذ بعين التقدير؟، أولا تظهر أعداد لا تحصى من إيضاحات الماضي وتجاربه منذ بداية خلق الدنيا، وتري وتبرهن — ما حرمه الرب — على بصيرة النظام الذي في الرؤوس الرئيسية لمثل هذا العدد من الأعضاء؟ ولسوف تستمر هذه الحالة المتردية من الأوضاع، ما لم يسعى في سبيل — ويحقق بأقصى سرعة ممكنة إيجاد — سلام صحيح، وكامل ومستمر، وإصلاح لأوضاع الكنيسة العالمية، وجميع كومنولث المسيحيين الخاضعين له، بحكم كونه أبوهم الأعلى، ولقد جرى تقديم خطة محكمة إليه، ومع أنها غير كاملة ومختصرة، من الممكن إيصالها إلى حالة الكمال من قبله، أو أن يقدم بإلهام رباني خطة أخرى أفضل منها،

١٠٩ [68]: يتوجب على الكاهن الرئيس، الراعي لجميع الناس، بحكم واجبه المتقيد به، أن يؤسس، وأن يضاعف جميع الروابط الممكنة لإتمام السلام، بين أبنائه، فذلك سوف يليه قيام سلام عالمي دائم، ومن الممكن البرهنة على الصحة المطلقة لهذا الاقتراح، ليس فقط بوساطة الاصلاحات اللاهوتية، بل أيضاً بوساطة الاصلاحات الفلسفية، لأن من المعروف أن الفلاسفة يعتمدون على القانون الطبيعي، ويرفضون القانون الموسوي، الذي منح روحياً إليهم من قبل بني إسرائيل، وبقياسهم الأمور منطقياً للوصول إلى محصلة ضرورية، وبإقامتهم مناظرتهم على السبب والتأثير، توصلوا إلى محصلة لا يمكن دحضها، بأن هناك فاعل أو رئيس، هو الذي يتولى تحريك جميع الأشياء لكنه لا

يحرك من قبل أحد منها، وهو المسبب لجميع الأشياء، وهو نفسه غير مُسبب، قد حقق وجوده فقط من خلال ذاته، وهي ذات خيرة، وبتوزيعها لخيراتها — وليس بشكل آخر — جعلت كل الأشياء تتسلم الخير منها وتشارك به، ومن جوهرها جاءت جميع الأشياء الخيرة والصادقة، والشيء نفسه ينطبق على جميع الفضائل التي قدرت في المحصلة، وندعو هذا الرئيس والمسبب الأول باسم الرب.

وفي أثناء حديث الفيلسوف في كتابه On meteors عن الرئيس، وحيث اقترح سبباً لتكوين العناصر قال هو الرب،وقال:«هكذا أوجدهم الرب الرائع والعظيم»، وقال في كتاب«حول السماء والأرض»:«لا يوجد شيء خلف السماء الأولى، غير مكان إقامة الرب، والأرواح، والفضيلة، والمجد إلى أبد الآبدين»، وأعتقد أن الرسول جيمس هو الذي قال عنه:«الذي معه لا يوجد تغيير، ولاأثر للتبديل»، والآن إنه هو الملك وصانع السلام ووالده، والشيطان هو والد وصانع الخلافات، والآثام، والكذب، ويتبع هذا بالضرورة أن جميع محبي السلام، والناس ذوي الفضائل، مهما كانت طبيعة الفضيلة أو سموها الخلقي، التي حصلوا عليها أو تمثلوها، يدعون أفاضل لأنهم شركاء في فضيلة الرب نفسه، وقد وصلوا إلى هذه الغاية قرباً أو التصاقاً تبعاً للدرجة التي شابهوه فيها، وشاركوه فيها بطبيعته، التي هي غاية بالبساطة، ومع هذا تحتوي وتتضمن جميع الأشياء ليس بسبب أنها كاملة، بل لأنها الأعظم كمالاً، والآن بسبب الاسم نجد أن الكمال هو الذي لا ينقصة شيء، ولهذا السبب القوي إن غاية الكمال، فريدة، لأنها تنطبق على واحد فقط، وذلك حسبما جاء في تعريف متفوق في الكتاب الخامس من«الميتافزيك»« يحتوي الكمال على كل شيء دونما نقصان».

ولهذا اعتقد جميع الفلاسفة أن جميع الفضائل في الرب في جوهره نفسه، والفضائل معه، وتصدر عنه، ويتشارك بها الناس من خلال

شبههم به، لكـن الفيلسـوف يقـول:«الفضيلـة عـادة ليـس من السهل تغييرها»، ونجـد شهـادة على صحـة ذلك في الكتـابات المقـدسـة حيث جـاء«في حين يقــارب الجميع الفضـائل من أجل المكـافأة، الذي يحافظ عليها وحده يتوج»، فقليلة هي المنفعة التي يحصل عليها المخفق في صنع أعمال جيدة بما أن المقترف في نقطة واحدة يعد مذنباً بالجميع.

ليقم أبو الأرواح جميعاً، الرسول الرئيس، بقراءة كيف أن الناس، منذ بداية الخليقة حتى الوقت الحالي، قـد حرضوا بكل سهـولة وأثيروا نحو الآثام والحروب، فهل يرغب بجعل جميع الكاثـوليك يعيشون بسـلام، وأن يكونوا بالتالي أبناء الرب، وأن يبتعدوا عن الخضوع للشياطين؟ وبما أن الوعظ والعقوبات المعتادة غير فعـالة، عليه أن يمعن التفكير، بحكم الوظيـفة المسندة إلـيه، وأن يسعى في سبـيل ـسلام ـشامل، ثابت ومتين الأحـوال، في كل مكان من العـالم، سـلام يمكن أن يستمـر وأن يعيش أبداً، وعليـه أن يقـوم بتثبيت العقـوبـات من أجل خـرق السـلام، وأن تكون عقــوبات يخشى منهـا، لكـن أن تكون عمليـة، ونافعــة، وقليلة الأذى، بالنسبـة لاسترداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، وأن تفيـد بالوقت نفسه كمذكر ومحذر دائم.

[69] : إذا كانت عقوبة النفي الدائم، وفقدان جميع الممتلكات سوف تكون مخشية أكـثر من أي شيء آخر، لأنها ـسوف تطبق ليس على فاعلي الحروب بل على آبائهم، وأولادهم، وزوجاتهم،، وإذا كـانت ستزيد من تقديم الرغبـة المقترحة لمعونـة الأرض المقدسة، دعـونا إذن نختار رباط السلام، نظراً لتفـوقه على غيره جميعـاً، وإذا ما وجـد رباط آخر أفضل، ليتم اختياره ،وكان بريسشان Briscian [النحوي ٥٠٠ ق.م] قد قـال:« إنني أفترض أن مـا مـن شيء في النوازع البشرية يمكن أن يكون كاملاً من جميع الجوانب»، وأعلن الفيلسوف العظيم في كتابه«السياسة»، أن هذاالذي ينبغي أن يفعل، وذلك عندمـا قال:«لأن مـا ناله الناس من

معلومات ومن قناعات حول ما هو جيد وما هو عادل، لم تكن كافية، لقد وجد أنه من الضروري أن يتأسس في الدول قوة القسر لدى القاضي، من أجل أن يفعل الناس ما هو جيد وعادل لجيرانهم ولمعاصريهم، والذي قاله الفيلسوف نفسه في كتاب الأخلاق ويتماشى مع هذا هو:«لو أننا جميعاً أناساً عادلين(شرح: من الواضح أنه أراد الشعور الداخلي بالعدالة، الذي هو هبة وكمال العقل المنطقي) لما احتجنا إلى العدالة،(شرح: من الواضح أن العدالة في العلاقات الخارجية هي إجبارية من خلال القوة العسكرية)».

وهكذا لم تستطع لا أقوال الكتابات المقدسة، ولا وعظ الواعظين المستخرج من الكتابات المقدسة، ولا النحيب المتدفق، ولا صراخ الوعاظ، ولم تنجح في إيقاف الحروب المتوالية للكاثوليك، مع الموت الروحي والمادي لعدد كبير من عظماء الرجال، الناجم عنها، فلماذا لا يتبرهن أن اقتراح تقديم العون إلى الأرض المقدسة في النهاية هو مخرج جديد لاستخدام القوة العسكرية، وهذه عدالة من الضروري فرضها، كما هي، حسبما رأينا من الفرضيات الموضحة، ومما شهدت به الكتابات المقدسة إنها موجودة منذ بداية الخليقة؟.

وهذا طرح من المستحيل إجابته، متحدثين أخلاقياً وأدبياً، لأن«المناقشة ينبغي أن تكون متوافقة مع القضية قيد المناقشة»، فهذا ما قاله الفيلسوف، وجرى عرضه في القانون المدني، وعلى هذا الأساس قال الفيلسوف:«يخطىء الذي يطلب برهاناً واضحاً من الكلام المنمق، وحجة منطقية من الهندسة»، ولدى استخراج برهان ما من خلال الأسباب، من الضروري الاستخلاص والوصول إلى نتيجة، والنتيجة هي«عَرفَ»، إنما لدى الحديث بأدب من خلال فرضيات منطقية نحن نستخرج«حدساً» من الماضي والحاضر نحوالمستقبل، فلقد قال الفيلسوف:«يحدد أي شيء بأنه جميل جداً عندما يعطى تحديد الأشياء

بشكل متوافـق مع السمات الظاهرة إلى جميع العقول»، ونقـرأ في القانون المدني:«في القضايا غير المؤكدة هناك مكان للحدس»، ويفترض أن ذلك ليس في جميع القضـــايا بشكل مطلـق، بل فقط في القضـــايـا المنطقيــة والممكنة.

ونحن نرى أنه وفقاً للسبب العادي المتوفـر للطبيعة الناس الفاسدين وميـولهم نحـــو الشر، والانغماس باللذات، والشره هم دومـــاً بازدياد، وذلك في مقابل أننا نجد أن التقوى، والفصاحة، وتأثير معارف الوعاظ الذين يمقتون الحروب دوماً في نقصـان، وإذا لم تتمكن تقوى، ومواعظ وفصاحـة الآباء المقدسين من وضع حـد للحروب المرعبـة للكاثوليك، كيف يمكن لـلأب الرسـولي أن يفترض أن بـلاغـة ومـــواعظ رجـــال الكنيسة الحاليين والمستقبليين، سـوف تتمكن في المستقبل من وضع حد للـــحروب، وللانغماس باللذات وللشره الذي تسبـــبه الحروب؟ وإذا لم يمكن إيجاد بعض العقـوبات الأخـرى التي من الممكن أن تكون مخيفـة أكثـر، وأعظم نفعـاً، ينبغي تطوير هذه العقـوبة ووضعهـا قيـد التنفيـذ، فبـوساطتهـا سـوف يزودنا ملك الســلام بفضله ورحمتـه برجال عقـلاء ومجربين، وبالقداسات المستمرة، وبالصلوات الدائمة المقدمة من الكنيسة المسكونية، ويمكن للمجمع المقـدس للأساقفـة، والأمراء أن يجتمع من أجل مناقشـة، وإكمال، وتعديل، وتغيير هـذه المقترحات، بشكل مـوائم جداً في طولوز، وذلك تفضيلاً لها على أية أماكن أخرى.

[انتهى هنا جـزء الرسـالـة الذي جـرى توجيههـا إلى أدوارد الأول، وجرى توجيه الجزء التالي إلى فيليب الجميل].

القسم الثاني

استرداد الأرض المقدسة

القسم الثاني

١١٠ : أرسلت الوثيقـة المتقدمـة إلى السيد ملك إنكلترا، مع رسـائل مختومـة، تلفت انتباهه باختصار إلى فـوائدها في المسائل الروحيـة، وتحثه على أن يقـوم بفحصها باهتمام وبسرية، من قبل رجـال حكماء ومخلصين له وللـرب، ويمكن أن يكونـوا من المبشرين أو مـن القلة « Minorites »، ومن الممكن حذف كل ما ينبغي حذفه أو إسقاطه،وأن يضاف كل ما يبدو موائماً إلى جلالته الملكية المجربة والحكيمة، وإلى مستشاريه العقلاء، الذين بعقـلانيـة سيطلب منهـم —بفضل من الرب — وسيعهـد إليهم بمهمـة الفحص، والتصحيح، والتقـويم، وعليه بعـد هذا أن يقـوم من دون تأخير بتحـويـل هذا المشروع، مع مشـورة كـاملة مـن قبل سفـراء مخلصين، وعقـلاء، ومجربين إلى السيد البـابا، وأن يكون هؤلاء السفـراء سريين، والغـاية من هذا الإرسـال أن يستفيـد منه المجمع الذي سـوف يعقد وفق طريقة جرى شرحها بما يكفي في الوثيقة المتقدمة.

١١١[70] : لدى الكاتب مـوهبـة ربانيـة طبيعيـة بالميل نحـو سرعـة الخاطر، التي هي — تبعـاً للفيلسوف — البراعـة في إيجاد المصطلحات الوسيطة، أي أسبـاب الأشيـاء التي ما زلنا نراهـا عقلياً فقط، ولسـوف يذكـر فقط وبشكل محدد المنافـع التي ينبغي أن تحصل من الاقتراحـات المتقدمة الذكر، وترتبط بالمشجعين الرئيسيين لها، وأعني بذلك أصحاب السيـادة: البـــابا، والملك الفـرنسي، وأخـوانـه وأولاده، وملكي صقليـة وألمانيا، وفردناند صاحب إسبانيا وأخيه[ألفونسو].

وعندمـا تنتهي الحروب بالوسـائـل المقترحـة هنا، وعندمـا من جهـة أخـرى يعهـد — مقـــابل عطاء سنوي مضمـون — بحكومـــة البـابا، وبممتلكاته، وبما يشغله بالأمـور الدنيـوية، بشكل دائم إلى السيـد ملك فرنسا، لتدار من قبل أخوانه وأولاده حسبما يراه مناسباً، وعندما تتوقف المؤامرات المؤذية للرومان واللومبـارد، وقتها من الممكن جداً، أن يكون السيد البـابا قادراً على أن يتمتع بحياة سليمـة طويلة في موطنه الأصيل،

الذي هو مملكة فـرنسـا، وأن يمتلك الـوقت الكافي ليكرس انتبـاهه إلى حكم الأرواح فقط، ويتجنب بهذا أجـواء روما العـاصفة، التي لم يعتـد عليها منذ ولادته، وسوف يكون في هذا منفعـة لا يمكن تقديرها، وهي دائمة، إلى جميع أصدقـاء السيد البابا، وجيرانه وأقربـائه، وبشكل خاص إلى مملكة فــرنسـا كلهـا، بما أن رجـال الدين الطليـان لـن ينالوا دخل المصالح الغنية العائدة إلى الكنائس الفرنسية والألمانية — حسبما كانوا في الماضي — من أجل بناء قــلاع لأنفسهم ولأقـربائهـم، بسلب الكنائس حتى على حساب القداسات الربـانية، كما أنهم لن يتابعوا الاشراف على هذه المصـالح الغنية، التي لن يستحـوذ عليها بعـد الآن رجال الكنيسـة الكبار، عـوضاً عن الفرنسيين، حسبما كـانت العادة من قبل بسبب دهاء الطليـان وبراعتهم الطبيعيـة،وهؤلاء الطليـان راغبـون في تشـامخهم أن يدوسوا على إنسانيـة الفرنسيين، ولقد حاولوا أن يقـوموا بما لم يسمع به قط من قبل، والادعـاء بالحق الدنيـوي لحكم المملكة الفرنسيـة، ولحكم أميرها الأعلى، يريدون من وراء ذلك تعـريـض هذه المملكة التي تعيش في سلام وفي وئام إلى فتنة دائمة، وعصيان مستمر، ولحسن الحظ خمدت العـاصفة التي ثارت مع هذه التطلعـات، لأن ملك السـلام منح وفاقـاً عظيماً، وأخمد هذه الخلافات.

وبما أن البابا الروماني قـد أساء استخدام سلطاته، وفعل ذلك بسبب الرومـان، إنـه لمن الأفضل والأصح، ومما يتـوافق كـذلك ويتماشى مع رغبات ومراسيم الآباء المقدسين، أن يقوم الرومان في سبيل حفظ المجد البـــابوي وزيادتـه بالسماح — ولو مكرهين — بـأن يجري التمتع بهذا الشرف العظيم بشكل دائم من قبل أفـراد لن يكونوا راغبين بالسرقـة، على حســاب الفخـار الأســاسي لأعظم الأمــراء المسيحيين، الذي لن يتجاوز الحدود التي أرساها الآباء المقـدسون، والذي سوف يسمح لأي قيصر أن يحكم في مملكته، ولأن يدير ممتلكـاته وأن يتمتع بها، وقد علمنا

مخلصنا هذا وقـال بوجـوب فعله، حسبما جاء ذلك مـوثقـاً في الانجيل، فهـو قـد قـام حتى يتجنب الخلاف، بتـوجيـه بطرس لدفـع الضريبـة المستحقـة عنه شخصياً وعن بطرس، وقـد أخبر بطرس بالمثا ل التـالي ليبقى إلى خلفائه حيث قال:«أعطوا لقيصر الأشياء التي لقيصر، وللرب الأشيـاء التي للرب»(متى : ٢٢ / ٢١)، وعندمـا قـام بغسل أقـدام حـوارييه قـال:«لأني أعطيتكم مثـالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعـون أنتم أيضاً»(يو حنا :١٣ / ١٥).

وبسبب انفعـالات مـا قـد طرح، قـد يواجـه كـاتب هذه الكلمات معارضـة، وقد توقع هذا عندما تعرض لهذه المسـائل في كتابه«حجج لا تدحض»، الـذي كتبـه في باريـس في يوم السبت الذي تقـدم على يوم الأحد الذي شهد نشر مرسوم البابا الظالم[Ausculta Fili]، وأرسل في اليـوم نفسـه إلى صديقـه[رتشـارد لينيفـو] الذي هو الآن أسقف بيـزير Bezier [في ذلك الكتـاب المذكـور] يقول بأن القـاضي الأعلى، الخفيـة قـراراته، قد قضى بوسـائل مشاحنات الرومـان، أن يسند منصب الحبر الأعظم إلى رجل بمثل هـذه الأخـلاق العـاليـة، حتى يتم من خـلاله سحب هذه السلطة التي توجب سحبهـا منذ زمن طويل من أشخـاص أشرار بسبب ذنوبهم وطغيـانهم، وأن يبقى مع آخـرين ليسـوا متشـوقين لسرقـة حريات الآخـرين وانتـزاعها، وبعـد هذ ا عليهم أن يدركـوا أن السلطة التي منحـت على الأرض إلى بطرس أمير الرسل، قـد سحبت بهذه الطريقة منهم بسبب ذنوبهم البغيضة، لأن الملك شـاول عندما جاء تعيينه بأمر الرب، ومسح ملكاً، لم يصغ إلى الرب، ولم يأخذ بأوامره، بل استخدم منطقـه، عوضـاً عن منطق الرب، أو منطق الكتابات المقـدسة، فكان أن تلقى أمراً خاصاً من الرب بفقدانه مملكته.

ويصدر الـرب الآن مثل هذه الأوامر من خـلال الكتابات المقـدسة، ومن خـلال تفـاسيرها، ففيهم، وبوسـاطتهم ينبغي أن ننشـد الأسبـاب

المعقولة والممكنة لجميع المحصلات التي ينبغي أن نراعيها، ويتماشى هذا مع ما قاله الرسول:«لأن كل ماسبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»[روما : ١٥ / ٤]، فلماذا غالباً ما نقرأ في الكتابات المقدسة نصوصاً تبين كم هي عظيمة ومتنوعة الشرور التي وقعت بسبب مختلف الذنوب، وإذا لم نخف من أمثلة مثل هذه الأحداث، من اقتراف ذنوب فإن الشرور، لا بل الأسوأ منها، سوف يتبع؟، لأنه كما قال الفيلسوف:«إذا كنا جميعاً عادلين(أي بمعنى الشعور الداخلي بالعدل) سوف لن نحتاج إلى العدل(أي بمعنى العدل الخارجي)»، وبسبب الذين لم يمنعهم الخوف من الرب ولاحبه من الشر، والذين لم يرغمهم على الابتعاد عن الشر، العصا الفولاذية مطلوبة لهم أحياناً،وهي التي بعث بها الرب — حسبما جاء في كلماته:«أنت سوف تحكمهم بقضيب من حديد»[المزامير :٢ / ٩]، والذين لا يصغون إلى أسباب مثل هذه القضبان، هم يشبهون فرعون بقسوة قلبه، ولهذا سوف يعاقبون دنيوياً، وفي النهاية أبدياً، وذلك إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، ولهذا يتوجب علينا التحري بإخلاص حول جميع الأسباب الممكنة لجميع المحصلات التي نشهد وقوعها، وليكن هذا تماشياً مع القول المشهور الذي حذرنا فيه هوغوتون:«سعيد هو الذي يمكنه فهم أسباب الأشياء».

وقال الفيلسوف:«لأنهم بدأوا يتساءلون، بدأ الكهنة في مصر أولاً يشغلون دور الفيلسوف، فطلبوا الأسباب المعقولة، ومن ثم النتائج المحتملة لما رأوه، ولقد أذنبوا ضد مبادىء ما جاء في الكتابات المقدسة، التي تعزو الشرور إلى الفرص وليس إلى الذنوب، أو لم يقل الرب:«بسبب ذنوب الناس سأجعل الفاجر يملك»[أيوب : ٣٤ / ٣٠ بتصرف كبير]، وكذلك ألم يرد في القانون الأوغسطيني:«بسبب ذنوب الناس أعطيوا أحياناً ملكاً شريراً، وأسقفاً شريراً»، لأن الناس لا يستحقون أميراً جيداً ولا أسقفاً جيداً؟ وللسبب نفسه ينبغي الخوف من

الأمـراء ومن الأسـاقفـة خشيـة من جعل الناس أشراراً بسبب ذنوبهم، ومن ثم يثـورون ضـدهم، فعلى كل إنسـان أن يتهم نفسـه، ولا يسـوغ أعماله.

١١٢ : وإذا بقي السيد البابامدة طويلة في مملكة فرنسا، ربما سيتمكن من إيجاد عـدد كبير من الكرادلة من تلك المملكة، وبذلك سـوف تبقى البابوية معنـا، ونتخلص كلياً من أيدي الرومـان،وسيكون هذا واضحاً، حتى ينتبهـوا في المستقبل ويتجنبوا انتـزاع حقـوق الآخرين والاستيـلاء عليها، خشية أن يحل بهم مصيراً أسوأ.

١١٣ ٧١[ ]: ومن البديهي أن ملك صقليـة سوف يحصل على منافع كبيرة من الترتيبـات المقترحة، ولسـوف تكون مملكة القدس ذات قيمـة أعظم، بالنسبـة له، من جميع مـا يمتلكه الآن، لأن جميع الأراضي يمكن وضعهـا تحت جـزية سنوية، والمملكة سـوف تنـال الدعم من ممتلكات الداوية، والاسبتـارية، والآخـرين الذيـن ورد ذكـرهم مـن قبل، وهو سيسترد أيضاً مملكة صقلية، ومملكة سردينيا سوف تكون من نصيبه بعد تحريرها من فردريك[أوف أراغون]، حسبما ذكرنا من قبل.

١١٤ : ولسـوف يمتلك ملك ألمانيـا الذي هـو الآن ملك مـؤقت وبشكل عـابر، المملكة، ومنصب الامبراطور الشرفي لنفسـه ولورثتـه بشكل دائم.

١١٥ — ويمكن للورد شارل[أوف فـاليوس] عندمـا تنتهي حروب المسيحيين الخاضعين للسيـد البابا، أن يستـولي — بعـون الرب — على امبراطورية القسطنطينية، ووفق الترتيبات المقترحة سيكون لديه مقاتلين لهذه الغاية، ومن المحتمل أنه من دون ذلك لن يكون لديه أحداً.

١١٦ وإذا ما وقعت هذه الأمور كلها هكذا بشكل موائم، هي الآن، وستكون من بعـد أعظم فائـدة لمولانا السـامي، ملك فرنسـا، ولأولاده

ولأخـوانـه،ولازدهاره العـام، وسيكون هذا الازدهـار أعظم مما يمكن كتابته، وإذا مـا جرى تنفيذ هذه الاقتراحات بنجـاح، سيكون قادراً على التحـالف مع جميع الملوك والأمـراء الخاضعين للكنيسـة الرومـانيـة، والتحـالف سيكون معـه شخصيـاً، ومع أخيه، الـذي في ضوء فـرصـة الاستيلاء على امبراطورية الإغريق، مـن دون اضطراب في مملكة فرنسا، عليه أن لا يتأخر في الشروع في الحرب ومواصلتها حتى الموت.

ولسوف يكون مصدراً لكثير من المجـد والمنفعة إلى المولى ملك فرنسا إذا ما تمكن من الحصول على مملكة ألمانيـا وامبراطوريتها لأخيه، ولأبناء أخيـه بشكل دائم، وسيكون مفيـداً تحقيق اتفـاق حـول هذه المسألة مع الملك الحالي، قبل أن يسمع بالخطة الجديدة للسلام.

وحسبما جرى — كما قيل — الاتفـاق من قبل في مكان آخـر، وقتها سيحصل الملك لنفسه ولورثته على جميع المنطقة القائمة على هذا الطرف من الرايـن عند كـولون، أو أن يحصل في جميع الأحـوال على سيـادة مبـاشرة، وإشراف على مناطق بروفـانس، وسـافـوي، مع جميع الحقـوق التي يمارسهـا الامبراطور في لومبـارديا، وفي مـدن ومنـاطق جنوى والبندقيـة، وبهذه الطريقـة سـوف يحصـل السيـد الملك على ممر حـرّ إلى لومبارديا، وينبغي عقـد هذه الاتفاقيـة بشكل سري بين ملك الفرنسيين وملك ألمانيا، مع موافقة البـابا وتأييده، وهكذا عندما يجري الاتفاق على هذه الصورة، ويتأكـد، سوف تتأكد تبعيـة الامبراطورية إلى ملك ألمانيا، وسيكون ذلك لصـالحه ولازدهاره، ومن الممكن تقـديم الأعطيـات إلى نـاخبـي[الامبراطـور] أو على الأقل إلى النـاخبين العلمانيين، مـن أجـل الحصـول على مـوافقتهم ويمكن للبـابـا بنجـاح أن يطلب من الناخبين اللاهوتيين تقـديم الموافقـة، ذلك أنه سيكون لصـالحهم من كثير من الجوانب أن تتوقف الحروب المعتادة للامبراطورية ولرعاياها.

ثم يقوم البـابا، مقابل الحصول على عطـاء سنوي دائم، بتحويل جميع

الميراث الـوقفي للكنـائس إلى المولى الملـك، مع الاشراف الـدنيـــوي القضائي على الأتبـاع الإقطاعيين لهذا الميراث، الذين سيكون بينهم كثير من الملوك، ويمكن أن يشترط ويتـم الاتفـاق على أن يقـوم المولى الملك بتعيين واحـداً من أخـوانه أو أولاده سيناتوراً رومـانيـاً وسيكون هذا الفرد، في أثناء غياب الملك نفسه، هو السلطة القضائية العليا في الميراث، ومن الممكن تقديم استئنافـات ضد قراراته إلى السيد البـابا، الذي يقوم بعـد تفحصه للاجـراءات في القضايـا التي يحق له التدخل فيهـا، بنقض القرارات، أو تأكيدها، أو أن يتولى تعديلها.

وإذا مـا كـان اللومبـارد، والجنويـون، والبنادقـة غير راغبين بتقـديم الطاعــة إلى الملك، وبدفع الجزية والضرائب التـي كـانوا يدفعــونها إلى الامبراطور من قبل، ينبغي على الفور منعهم من التعامل مع الكاثوليك المطيعين إلى المولى البـابا، والذين يـراعـون تطبيق خطة السـلام الجديدة ونظامها، ولسـوف يحظر عليهم أيضاً المتاجـرة بجميع البضائع، ويمكن للملك أن يدخـل بحـريـة إلى لومبـارديا عبر طريق سـافـوي، ويأتي السيناتور، والامبراطور، وملك صقلية من الاتجاهات الأخرى، وبذلك يخضعـونها تمامـاً، وينبغي بعـد هذا إرسـال المتمـردين إلى منفى دائم، وبسبب نظام السلام الجديد، المحظور انتهاك حرمته، والذي تأسس من قبل الخلفـاء، سوف لن تستمـر رعـونتهم المعتـادة، لكنها سـوف تسقط بالضرورة، ومثل ذلك رعــونة الرومـــان، والتـوسكان، والشـامبنيين، والأبوليين، والكالبريين، والصقليين، وجميع الممالك الأخرى والمقاطعات المطيعة للبابا.

وبهذه الوسـائل سيكون ملوك إنكلترا، وأراغـون، ومايوركـا طائعين للمــولى الملك، مثلما هو مطلوب منهم الآن طـاعـة البـابا في المســائل الدنيوية، ومن الممكن عقد اتفاق مع الملك المستقبلي لغرناطة، فهو أيضاً ينبغي أن يطيع الملك، وبـالمناسبـة يمكن اتخاذ إجــراءات في المجمع بأن

يقوم المغتصب ظلماً لمملكة كاستيل — مع احتفاظه لنفسه بتاج كاستيل وبمواردها — بالقبول بالالتزام بتحكيم البابا، الذي يمكنه آنذاك صنع بعض الترتيبات من أجل الآخرين،لأن المغتصب قد أذنب ذنباً عظيماً ضد ابن أخيه البكر لأبيهما، باحتفاظه بالمملكة مراغمة للعدالة العامة، لا بل حتى مراغمة للاتفاقيات التي عقدت بين الملك القديس لويس، وبين والد المغتصب المتهور، والأساقفة والبارونات في مملكة كاستيل، وكان قد تقدم عقد اتفاق زواج فيما بين الولد البكر لملك كاستيل، والأميرة بلانشي، ابنة القديس لويس، اشترط فيه أن تكون ولاية العهد في المملكة إلى أولاد الولد البكر، إذا — كما حدث — ما مات أبوهم قبل جدهم.

ثم تترك كاستيل لمتملكها المتهور، الذي يمكنه أن يعطي مملكة غرناطة إلى ابن أخيه الذي خرق الاتفاقية معه، ومملكة أخرى إلى ابن أخيه الآخر، على شرط أن يطيعا الملك الفرنسي من أجل الحصول على مساعدته ضد المسلمين، وبهذه الطريقة سيصبح الملك الفرنسي في وضع يمكّنه من احتلال مملكة كاستيل، وسوف لن يكون غريباً إذا ما سعى ملك فرنسا — مع استثناء السيادة الصحيحة لإسبانيا — نحو الحصول على ولاء وإخلاص بلاد، حصل عليها جده شارلمان لدى طرده المسلمين، والتي تحق له أيضاً بالوراثة من أم القديس لويس، وبالنسبة لهذه القضية سوف يقوم البابا باتخاذ قرار نهائي حول مصير مملكة كاستيل، وذلك بعد تثبيت الترتيبات الأخرى، وسيقوم في الوقت نفسه السيدان فرناند[دي لى سيردا Cerda] وأخوه بالاستيلاء على مملكتيهما بدون عوائق، وسوف يبتهج المولى الملك في تملكه المتبقي من الأراضي المستولى عليها والمتقدم ذكرها.

١١٧ [72]: وفي المجمع ينبغي أن يسعى السيد الملك مع أخيه، بقدر ما هو ممكن في طلب، وفي تأكيد التحالف مع جميع الأمراء الذين

اجتمعـوا هناك، من أجل الحصـول على معونة الجميع في الحصـول على امبراطورية الاغـريق، وذلك بعـد فتح طريـق إلى الأرض المقـدسـة، وسـوف يكون ملك صقليـة — أو ينبغي أن يكون — أول من يفعل هذا، وهو راغب تماماً، ومعه جميع قـواته، ولا سيما لصالح الذين سوف يقدمون لمساعدته بالشكل الرائع الذي تقدم ذكره، ويمكنه أن يفعل هذا بوساطة الوعد بتقديم العون بجميع قوى سفنه، ورجاله، وإمداداته.

ووقتها سـوف يميل الجميع للوعد، ومن ثم لتقديم العـون بجاهزية أكبر مما كانوا سيفعلونه لو أن التعهد العام لم يصنع مطلقاً.

وعندما تهدأ الحروب المعتـادة بين الكاثوليك وتتوقـف، وقتها يمكن بسهـولة أكبر إقناع رجـال الحرب، الذيـن بقيـوا بالحري بدون عمل في بلادهم، بالاستعـداد لتقديم العـون الحربي إلى بلاد نائية، وإذا مـا جرى تبني الاقتراحات المتقدمة الذكـر، من الممكن للذين يعيشون بين الغرب وبين بلاد الاغـريق، على هذا الجانب من البحـر المتـوسط — أو على الأقل الذين قرب الساحل — أن يحشدوا المقاتلين لديهم مع التجهيزات البحرية.

وسيكون مفيـداً مهـاجمة بلاد الاغـريـق وامبراطوريتهم من كثير من الاتجاهات براً وبحـراً، وذلك باتبـاع تفـاصيل التكتيكات الشـاملة التي جـرى شرحها مطـولاً في الكتاب الصغير الذي عنوانـه«حول اختصـار الحروب والتكتيكات المتعلقـة بها»، فقد جـرى إعـداده من قبل الكاتب الحالي، وقـد بعث به إلى صـديق الملك المخلـص والمحنك، جين دي فـورت، وكان ذلك في طـولوز، عندما كـان صـاحب الجلالة الملك مع أخيـه شـارل[أوف فـاليـوس] هناك، وصنـع هذا بمقصـد إقناع اللورد شـارل ومستشـاريه وأصـدقـائـه، للقيـام بتقـديـر هذه التكتيكات، والاقتراحات الأخرى المتعلقة بها، بدرجة من الاهتمام، ومن ثم تبنيها.

وبعد فحص ذلك الكتاب الصغير، واغتنام الفرصة المناسبة التي يوفرها، ينبغي على جلالة الملك وأخيه شارل، ومعهما الأصدقاء المتدربين على ممارسة الحروب والبارعين في فنون القتال، عليهم توجيه بعض الرجال الحكماء والخبراء والمخلصين لهم للاشراف بعناية وباستمرار على جميع الترتيبات التي أعدت لهذه الغاية، وواضح مما تقدم من قبل، ومن الكتاب الصغير المشار إليه، أنه سيكون من الصعب الإقامة في بلاد لغتها الأدبية، وجميع اللهجات المتحدث بها، غير معروفة إلى جميع الفرنسيين، وسيكون من الصعب أيضاً طلب صداقة وتحالف السكان المحليين، الذين بشكل طبيعي يكرهون اللاتين، ومن ثم حكمهم إذا ما خضعوا، والاختلاط بهم، وينبغي على الأمير الجيد أن لا يستهدف تدمير جميع الناس، وإذا ما كانت هذه غايته، فإن قضيته لا تستحق النجاح، ثم إنه لن يكون قادراً على تحقيق هدفه والوصول إليه.

فكيف على هذا يمكن للانسان أن يحصل على حب الذين بقيوا أحياء؟ وكيف يمكن أن يحكموا من قبل الذين لا يفهمونهم، أكثر من فهمهم لصياح الطيور في الهواء،ولزئير الوحوش، ولفحيح الأفاعي، ولن تتحقق الكفاية بالمترجمين الأجانب للغاتهم، بما أنه سيكون خطراً الوثوق بهم، كما أنه لن تتوفر الكفاية في الأشخاص إن عدداً أو حكمة، من أجل إدارة امبراطورية، وسيكون الناس من البلاد الأجنبية — الذين يعدون برابرة في أعين الفرنسيين، مثلهم في ذلك مثل جميع الناس الذين يفهمون لغة الإغريق — متأثرين تماماً، وقد ارتشوا، من أجل خيانة و خداع الذين أيضاً يعدون من قبلهم برابرة في تلك البلاد.

وقد عرف بولص المبارك مع الرسل الآخرين — الذين كانوا جميعاً يهوداً — اللغة العبرية فقط، التي كانت اللغة الأدبية، وكذلك لغة الحديث في المنطقة المحيطة بالقدس، فكيف استطاعوا الوعظ والتبشير بإنجيل الرب بشكل معقول إلى جميع الشعوب البربرية، لولا أن الرب

نفسه قد منحهم القدرة على استخدام جميع اللغات؟ حيث لم يكن بإمكانهم التفاهم بوسيلة أخرى مع البرابرة، وينصح بكل سبيل من السبل، لا بل هو أمر ضروري، الحصول مقدماً على أناس يجيدون اللغات وقد نالوا تدريبات جيدة فيها،ولايمكن الحصول على مثل هذا التدريب وابتياعه بالذهب والفضة أو بالأحجار الكريمة، لذلك من المرغوب اتخاذ إجراء قبل أن تتوفر الحاجة، إما وفق الطريقة التي عرضت من قبل، أو وفق طريقة أخرى أسهل وأحسن.

١١٨[73] : وفيما يخص السيد الملك شخصياً، من المؤكد أن كثيرين سوف يعترضون، ويتمتمون، بأنه لا يمكنه بشكل جيد تحمل متاعب القيام بمثل هذا العدد الكبير من أعمال الاستيلاء، ولا إخضاع هذه الكثرة الكثيرة من البلدان المحبة للحروب، ولهذا عليه عدم القيام بمثل هذه المشاريع العملاقة، ويمكن للانسان أن يرد منطقياً ويجيب بأن من المرغوب به للملك أن يكرس الوقت من أجل المسائل الهامة، وأن يقلع بها، آخذين بذلك بالمبدأ الذي أعلنه المشرع جستنيان في بداية كتابه حيث قال:«على الرغم من أننا كنا مشغولين بالعناية بالكومنولث كله، فقد اخترنا عدم عدّ أي شيء ليس هاماً» إلخ، ولو أن كل أمير، كان — كما هو متوجب — سامي التفكير، وشهماً، وكريماً، من المؤكد أن هذا الأمير ينبغي أن يكون هو أكثر من الآخرين بين هذا النوع، وصحيح أنه من الصعب، وقضية خطيرة، بأن يقوم مثل هذا الملك العظيم شخصياً بتجهيز الحملات، وأن يشترك في المعارك العامة، حيث يمكن لواحد من أخوان هذا الأمير، أو أبنائه أو أقربائه، القيام بذلك وفعله بنفقات أقل، ومخاطر أدنى مما لو قام هو بذلك، وبعدد أصغر من المقاتلين — النصف أو الثلث أو ما يقارب ذلك — لكن لن يكون أمراً سلبياً ولا ينصح به محاولة القيام بذلك، إلا بالارتباط مع الخطة المقترحة من أجل سلام عالمي شامل.

ومن المستبعد أن يجد العصاة حلفاء، لأن الجميع سوف يعانون من العقوبة ومن الحرمان الكنسي، وسوف يكون قادتهم ومقدميهم مجرمين بالحنث باليمين، وعلى هذا سوف يوصمون بالعار، وبسبب ذلك سوف يسقطون في ازدراء أبدي، وينبغي عدم الاعلان عن الاستيلاء على الأراضي — باستثناء تحويل ميراث المبارك بطرس — قبل تسوية مشكلة الأرض المقدسة، وعليهم الالتزام بروابط السلام العالمي الدائم، الذي أعلن في كل مكان، وذلك بشكل تلقائي، وذلك بسبب الحماس والضغط من أجل الذهاب إلى معونة الأرض المقدسة، ولسوف يقسم على روابط السلام من قبل جميع الأمراء،والأساقفة والنبلاء، وتصبح سارية بموجب وثائق رسمية، بطريقة تربط ورثتهم وترغمهم على أداء أيمان مشابهة، وعندما تجلب هذه الوثائق إلى قاعة الخزينة التابعة للكنيسة الرومانية من أجل حفظها، وتدخل في السجل العام وتدون فيه، وقتها يمكن للحملة إلى الأرض المقدسة أن تبدأ، وأن تلقى بمعونة الرب نهاية ناجحة.

ثم يمكن لأصحاب السيادة البابا والملوك إنذار جميع الرعايا في المناطق المستولى عليها حديثاً بوجوب طاعة الأحكام الملكية، وإلاّ سوف يتعرضون إلى جميع العقوبات التي يمكنهم فرضها، وسوف ينال المتمردون طبقاً لميثاق السلام العقوبة على الفور وبالقسوة الممكنة، وهكذا يتدبر الأمر بأن تلقي العقوبة المفروضة على عدد قليل الرعب في قلوب الكثيرين، وبذلك يصبح جميع الناس جيدين: الذين لديهم الاستعداد الجيد بالترغيب بالجوائز، والأشرار بالخوف من عقوبة دائمة لهم شخصياً ولجميع ذريتهم.

ويتوجب على الأمير المسؤول المباشر إخضاع الذين قاتلوا ميثاق السلام، وإرسالهم إلى الأرض المقدسة للدفاع عنها، والعمل الفوري لهذه الغاية ضروري، حتى لا يتجرأ آخرون، على تقديم المساعدة لهم،

وذلك خوفاً من العقوبة، ويبدو من غير المحتمل أن يقدم عن طواعية جميع الأساقفة والنبلاء العائدين لأي منطقة، على اقتراف مثل هذا الخرق، ومن الممكن — على هذا — أن ينقسموا ضد بعضهم بعضاً بوساطة المعلمين والمستشارين العائدين للملوك الآخذين بالسلام:«فكل مملكة منقسمة على نفسها سوف تتمزق ولن تدوم»، فهذا ما حدث عندما تحالف الامبراطور[فردريك الثاني] مع حزب المعارضة في كل مدينة من مدن لومبارديا رفضت طاعته، ودعا حزبه باسم حزب الغبلينيين، ودعا الحزب الآخر الذي وقف إلى جانب البابا باسم حزب الغولف، ولقد تمكن بمساعدة الحزب الذي تحالف معه، بكل سرعة، من إخضاعهما معاً، ويتضح من هذه الحادثة أن حزب الغبلينيين، الذي تعاون مع السيد الحقيقي،كان أعقل من الحزب الذي أخضع نفسه إلى البابا، وابتعد عن الخضوع وتقديم الطاعة إلى أميره.

وحدث أيضاً، منذ وقت طويل مضى، أن قام اللومبارد بسبب رعونتهم، وثروتهم، والدفاعات المتوفرة في مدخل بلادهم، بالانفصال، وبادروا بتهور إلى إعلان العصيان، وأنكروا الخضوع إلى الامبراطور، دون أن يتمكنوا من الحصول على استثناء قانوني، وبذلك خرقوا بشكل عنيف وجدي قانون السيادة اليولياني، ولقد استحقوا لهذا العدوان هم وذريتهم جميعاً العقوبة بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما غامر البابا، في ضوء جريمتهم العظمى بالدفاع عنهم ضد الأمير، الذي هو راعيه ومؤسس ومعطي جميع الميراث الوقفي الكنسي، سيبدو البابا وقتها — إذا جاز القول وجازت الكتابة — عاقاً، مقترفاً لجناية ينبغي أن ينال تجاهها عقوبة قانونية.

١١٩[74]: وسوف يكون متماشياً تماماً مع المنطق، أن يبقى السيد الملك بدون نشاط، ليمتلك الوقت من أجل إنجاب الأولاد، ومن ثم القيام بتنشئة أولاده وتعليمهم، وللتفوه بالأحكام، وليتولى شخصياً

فض القضايا الهامة، والتعامل مع المسائل الخطيرة، أو أن يأمر آخرين بالقيام بها، وأن يوجه الحملات من خلال توكيل أقرب القادة العسكريين إليه، وأكثرهم ثقة، وأن يجهز الجند، وأن يوفر الامدادات الضرورية والنافعة لمتابعة الحرب، وهذا واضح مما قاله الفيلسوف في كتابه«السياسة»:«الرجال ذوي الذكاء الوقاد هم بشكل طبيعي الحكام والسادة على الآخرين»، كما قال أيضاً في الكتاب السابع من«الفيزيك Physic » :«يصبح العقل الهادىء منطقياً وحكيماً»، وهكذا مكث القديس داود بدون نشاط، متمتعاً بالوقت من أجل التأمل، وأرسل بالوقت نفسه بني إسرائيل لمباشرة الحملات العسكرية.

ويمكن لقادة الحرب الذين أرسلوا وفق هذه الطريقة أن يقوموا بالحركات العسكرية بسرعة، وأن يبدأوا القتال بشكل مفاجىء، وأن يزحفوا ببراعة، يتنقلون من هنا إلى هناك بالنهار وبالليل لمضايقة العدو، وأن يعتمدوا إلى أبعد الحدود في الانفاق على أنفسهم من أسلاب العدو، ولا يمكن لملك عظيم أو أمير أن يفعل هذا، لأنه لا يليق به أن يذهب إلى الحرب لصالح قلة، فيهمل إدارة عدد كبير لا يقارن من الناس، وسيكون مؤذياً أن يقوم أمير عظيم من هذا القبيل بإهمال واجباته الادارية الهامة والكثيرة جداً، وأن يعرض نفسه للخطر، ولإمكانية الموت من خلال حادث مفاجىء من الحوادث، خشية«أنه عندما يصاب الراعي بتحريض من الشيطان تتفرق شياه القطيع».

ومن المفيد جداً للأمير عندما يرسل جيشاً إلى إحدى المقاطعات بهدف إخماد ثورة ما، أن يأمر، أنه إذا ما صدف ومات القائد، أو جرح، أو وقع مريضاً، أو بات عاجزاً بشكل ما آخر، بقيام آخر بالحلول محله على الفور: بدون شرط أو تراجع إذا ما كان القائد قد مات، لكن إذا كان عاجزاً فقط، يكون ذلك حتى يشفى.

وعلى القائد البديل متابعة النشاط على الفور، وفي الوقت المناسب،

تبعاً لخطة متفق عليها، ولسوف يكون عيباً قاتلاً في الأوضاع التنظيمية لجيش كبير، أن يبقى بدون نشاط ومشلولاً وممزقاً، بسبب عجز فرد واحد.

وقال بيوثيوس Boethius :«في هذا العالم يجري الحديث فقط عن المحاسن التي أمرت بها الطبيعة، والتي تخدمها»، ومثل هذا قال الفيلسوف:«مثلما العالم هو وحدة، من خلال وحدة المطلب الذي يستهدفه الجميع، والذي ندعوه بالمقام الأول باسم الرب، كذلك الجيش هو وحدة بموجب هدفه، الذي هو النصر، الذي يسعى من أجله قائد الحرب، والذي يتوجب على كل رجل في الجيش أن ينشده»، وكان مفيداً للأمير أن يوجه طاقاته نحو هذا الهدف، أي هدف الحصول على سلام دائم، لأنه في وقت السلم يمكن للناس أن يمتلكوا وقتاً كافياً، وحراً، وتاماً، للحصول على الفضائل وعلى العلوم، وقد بين الفيلسوف أن«الذي يطلب الحرب من أجل الحرب فقط هو الغاية في الشر»، والذي ينشد بتواضع النصر والسلام بوساطة قدرة الرب، وليس بوساطة جهوده، سوف يجد السلام في الرب، الذي هو كما قال الرسول:«يفوق كل عقل»[فيلبي: ٤ / ٧].

١٢٠ :إذا لم يمتلك أمير عظيم مثل ملك فرنسا سوى ولد واحد ليخلفه على العرش، لا يجوز أن يعينه قائداً لحرب خطيرة، من دون مواجهة خوف عظيم من إمكانية تعرضه لمكروه، لكن إذا ما جرى تعيين مثل هذا الولد الوحيد، عليه عدم مقاربة رعب الحرب من دون اهتمام وتفكر، وكأن لديه عدة أخوة، ولهذا ينبغي أن يتملك الملك وابنه البكر الوقت لانجاب الأولاد، وأن يجري تعيين الأبناء الآخرين والأخوة قادة للحرب، فقد قال الفيلسوف:«الشجاعة التي تجعل جميع الجنود رائعين وجيدين، وممتازين، هي الاقتراب من رعب الحرب، ومن تهديد الموت، من أجل الصالح العام، وليس من أجل صالح فرد فقط»،

وزاد على هذا فقال في كتاب «السياسة»:«إن أميراً يحكم من أجل منفعته الخاصة وليس من أجل المنفعة العامة ينبغي أن لا يدعى أميراً، بل طاغية»، لكنه إذا ما توجه بتواضع نحو الرب، وأراد من خلال قدرته، الصالح العام، أي سلامة الكومنولث وحده، فإن منافعه الخاصة ومصالحه سوف تتبع، مثلما جاءت جميع الأشياء الجيدة في العالم إلى سليمان، وكذلك الحكمة التي طلبها لوحدها من الرب.

[75] : لقد طرحت هذه المسائل مع وسائل اختزال الحروب في العصور الحديثةوجعلها أقصر مما كانت عليه من قبل، في كتاب«حول اختزال الحروب والدعاوى القضائية في مملكة فرنسا، وإصلاح أوضاع الكومنولث العالمي للمسيحيين»، فهناك كتبت هذه الاقتراحات، ليس بسبب أنني اعتقدت أنها تغطي كل شيء، بل من أجل إعطاء الرجال الحكماء والمجربين الفرصة لإنجاز عمل كامل حول هذه المواضيع والمواضيع المرتبطة بها، وقليلة هي الأشياء في هذا العالم التي صنعت بشكل جيد، حيث لا يمكن أن يخطط ولا ينفذ بكمال أكثر، ولا بطريقة موائمة أحسن مما نفذ، ولسوف يرى المولى الملك هذا، إذا ما توقف عن التفكير كم سيخفف عن نفسه وعن شعبه عندما يشن الحرب، إذا ما اتبع ونفذ الخدمة العسكرية التي هي حق له وفق الطريقة التالية، وليس وفق الطريقة المعتادة.

١٢١[76] : صحيح أن واجب الخدمة العسكرية من أجل الدفاع عن المملكة قد ألقي على عاتق الاقطاعيات الأكبر والأهم، فهذه الخدمة العسكرية هي الواجب الإقطاعي المعتاد، المفروض على كل من لديهم إقطاعات، أو بواسطة أناس آخرين مناسبين، ليس بشكل منتظم كل سنة، بل فقط عندما تتطلب الحاجة، ومسؤولية الدفاع عن المملكة هي مسألة لا تخص فقط المولى الملك، والذين بأيديهم إقطاعات مقابل مثل هذه الخدمة، بل تخص أيضاً الأعداد الكبيرة من الآخرين الذين بأيديهم

إقطاعات حـرة غير مثقلة بخدمـات خاصـة، وهي أيضاً تخص — لكن ليس كثيراً جداً — كل الذين بأيديهم إقطاعـات، هي في معظم الأحيان أقل قيمة، وهي أيضاً مثقلة بمبالغ تدفع سنوياً، وهذه المبالغ في كثير من الأحيان تساوي القيمة الإجمالية تقريباً للإقطاع سنوياً، أوتساوي نصف القيمة.

١٢٢: والدفـاع عن المملكة هـي أيضـاً مسـألة تخص رجـال الدين الأدنى مـرتبـة بسبب امتيـازاتهم المعتبرة روحيـاً ودنيـوياً، وهكذا ينبغي استدعاء جميع المتوجب عليهم أداء خدمات عسكرية لمقصدين ولسببين، لهما وزنهما من أكثـر من جانب، والمقصـود بذلك هو أن عليهـم أداء هذه الخدمـة عندما تستـدعي حالة الطـوارىء، فهم قد نالوا مـا بأيديهم من إقطاعات مقابل أداء هذه الخدمة، وكان السيد الملك آنذاك الذي منحهـم إقطاعيـــات، قـــد منحهم إيّاهـا وفق هذا الشرط، وهو قـــد دافع — ومطلوب منه أن يدافـع — عن كل واحـد منهم، ضـد أي واحـد قـد هاجمهم بقـوة السلاح، ولذلك إنه لصـالحهم تقديم كل خـدمة متـوجبة عليهم، لأنهم بدون ذلك لن ينالـوا السـلام، كما أنهم لن يحظوا بالوقت للتمتع بممتلكاتهم والحصول على محاسن العلوم وفضـائلها،ولهذا عندما يقوم تهديـد بحالة طوارىء، ينبغي استـدعاؤهم أولاً، وإذا كـان العون الذي عليهم تقديمه هو — أو يعتقد أنه — كاف، وقام الملك باستدعاء الذين ليس متـوجبـاً عليهم شرف خدمتـه، يكون بهذا العمل قـد سعى بالحري إلى إلحاق الضرر بهم، بدلاً من تقـديـم العـون إلى نفسـه، ويتبع هذا، إنه بموجب مواد القانون، يعـد ذلك عدواناً لا يغتفر، ويصبح هو مذنباً بجرم عظيم، لأنه استـدعى وتحكم بهؤلاء الذين كان من المتوجب عدم استدعائهم، لأنهم ليسوا خاضعين للتكليف.

١٢٣ : وإذا ما عمل السيد الملك وفق أفضل النصـائح المتوفرة، عليه أن يقنع أن عـون جميع الذين يدينون له بـالخدمـة العسكرية هي كـافيـة،

ويمكنه أن يقوم بعملية استدعاء Levee en masse ، أي أن تقول العون الأول للذين بأيديهم إقطاعيات حرة، وإذا كان ذلك كافياً عليه أن يقنع، وإذا كان غير كاف، عليه استدعاء عون الشعب، أي جميع الذين يقفون خارج العلاقات الاقطاعية، إلى الحد الذي يرى فيه تقدير أمين أنه قد حصل على حاجته.

[77] : وإذا ما افترض أن موارد السيد الملك والاقطاعيين الآخرين الذين يدينون له بواجب الخدمة، مع الذين ذكروا أعلاه ممن بأيديهم إقطاعات حرة، سواء أكانوا يدينون له بواجب الخدمة أم لا يدينون، افترض أنها غير كافية من أجل الدفاع، وقتها في أحوال الضرورة للدفاع عن المملكة — وخروجاً على القانون — يمكن للملك أن يفرض ضرائب على ممتلكات الكنائس وعلى المؤسسات اللاهوتية، أو الاستيلاء عليها، وذلك بحدود ما يحتاجه من وسائل من أجل الدفاع الكافي، وهذا هو المصدرالنهائي والأخير الذي يمكن للملك أن يلجأ إليه، وكون كفايته واضح من حقيقة أنه نادراً — أو مطلقاً — ما جرى الاستيلاء على مثل هذه المساعدة من الكنائس ومن المؤسسات اللاهوتية، ومرد هذا إلى سبب أنها في أية مرة جرى الاستيلاء عليها، جاء هذا الاستيلاء مضاداً للموقف العام، وموقف القانون الكنسي وموقف القانون المدني، ولهذا يعد هذا العمل جناية عظمى، ما لم يتوفر قانون، يمكن بموجب فضيلته ومنطقه القيام بمثل هذا الاستيلاء، ولا يوجد هنا سوى قانون واحد فقط، وأعني به الضرورة الملحة للدفاع، وهذه الضرورة ليست حتمية، بمعنى أنها ضرورية من أجل أن تشرق الشمس، إنها مشروطة، بمعنى أن التغذية للحيوان شرط ضروري إذا ما أريد إنقاذه، وبقائه حياً، وهذا ما نقرأه في الكتاب الخامس من الـ Analytics في فصل«حول الضروريات».

١٢٤ : وبناء عليه إنه من حق الملك، ومن واجبه أن يطلب

الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة من أجل الدفاع عن المملكة، على أن يكون ذلك الملاذ الأخير، عندما يتبرهن أن موارده، ورديفها من الضرائب الاقطاعية ومن الـ Levee en Masse غير كافية من أجل المهمة، لكن دعونا نفترض أن مائة ألف مارك فضي كافية من أجل هذا الدفاع، وأن الملك سوف يستولي على مائتي ألف مارك، فهل يمكنه أن يفعل ذلك دون اقتراف لجناية عظمى؟ من المؤكد لا، لأنه عندما يتوقف السبب تتوقف المؤثرات، فجميع العلوم توافق على هذه النقطة وتضفي عليها الشرعية.

ونتيجة لما تقدم، عندما يصبح سبب الاستيلاء هذا غير شرعي، فإنه لا يجوز للملك الاستيلاء على شيء، ما لم يكن راغباً بشكل مكشوف أن يسرق وينهب، وبالمنطق نفسه، إذا ما كان بحاجة إلى مائة ألف مارك من الفضة أو من الذهب، وقام بالاستيلاء على الأكثر، فإنه يكون قد مارس النهب والسرقة، بكلمة مزيفة وبفعل أخرق، عندما ادعي وجود حاجة ضرورية وهي لم تكن موجودة، وإذا ما فعل الملك هذا وهو على دراية كاملة بواقع الحال، يعدّ كاذباً، وبسبب ذلك الكذب — الذي يحرمه الرب — تنكر للرب وصار ابناً للشيطان، الذي هو والد الكذب، وجميع الكذابين أولاده: مثلما يدعي الذين يقولون الصدق — في هذا المجال — أبناء الرب.

وقد تبرهن هذا في عدد من نصوص الكتاب المقدس، خاصة في الرسالة إلى تيطس، ومن ثم عدّ ذلك قانوناً شرعياً، وهكذا جاء في السبب ٩، والسؤال ٣ والفصل [٧٨]:« يفسد الحكم بأربعة طرق» وكذلك في الفصول التالية، ومن الواضح إلى جميع المرتبطين بالإيمان الكاثوليكي، أن استخراج الضرائب فوق الحاجة جنايةعظمى، لا يمكن غفرانها، ما لم ترد الأموال المستخرجة لغير الضرورة، وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى جميع المال المستخرج، إنه على هذا صحيح أيضاً

بالنسبة للجزء، لأنه حسبما جاء في تحذير القانون المدني «هناك العلاقة نفسها بين الكل والكل كما هي بالنسبة للجزء إلى الجزء».

[78]: وواضح مما تقدم أنه صعب جداً بالنسبة للسيد الملك أن يحكم بإنصاف في قضية الضرورة هذه، وصعب بالدرجة نفسها بالنسبة لمساعديه ومستشاريه أن ينصحوه بشكل عادل حول هذه القضية، باختيار حل وسط تبعاً لحصص الهندسة الحقيقية وليس تبعاً لحصص الرياضيات.

وإذا ما قضى الملك بشكل صحيح في هذه المسألة، وقدم له مستشاروه نصيحة عادلة وصحيحة، فإنهم بذلك يفعلون خيراً وفضيلة، إذا لم يكن بعض الشّر قد أضرّ بهم من جهة أخرى، وبما أن الخير والشر شيئان متضادان، حسبما قال الفيلسوف، لايمكنهما التعايش والوجود في الموضوع نفسه، وبناء عليه يفسد شر واحد ويدمر جميع الفضائل العائدة للموضوع الذي وجد فيه، ولهذا قدّر الفيلسوف تقديراً عالياً ما قاله هرقل، وعبر عن ذلك بشكل جيد عندما كتب:« تضيء الفضيلة دوما عندما تكون المجريات صعبة جداً»، وأضاف قائلاً:«إنه بالنسبة لنا صعب جداً أن نكون جيدين»، وينبغي بالنسبة لناأن نلتزم بدون انحراف بالطريق الوسط، متجنبين الإسراف الشديد، والعوز، وأيد الفيلسوف هذا بإشارة مشابهة بقوله:«هناك مسلك واحد، هو المسلك المستقيم، الذي يأخذ السهم إلى هدفه، والخطوط التي تتشعب من الخط المستقيم، هي معوجة وهي غير محصورة العدد ،وقال إنه بناء على ذلك، أن يلتزم الانسان بالخط الوسط في ممارسة الفضيلة هو صعب بقدر صعوبة إطلاق سهم، يقوم بخرق الهدف، ولا ينحرف عن الخط المستقيم.

١٢٥ : وبعد لفت الانتباه الدقيق لما تقدم، ربما سيرغب صاحب الجلالة الملكية، لأن يقدّر، ولأن يحكم بعدل، بدون إلحاق ضرر بأي

إنسان، فيما إذا من الممكن إبداع وسائل أخرى، يمكنه بها بشكل عادل وقانوني أن يستخرج بقوة من الناس المتمنعين العون العائد لـ Levee en Masse ، وللكنائس.

١٢٦ : ومن البديهي أن السيد الملك، الذي هو مسؤول بعمق أكثر، وبطرق أيضاً أكثر، لا بد له من الدفاع عن مملكته، وعليه أن يكون مستعداً للدفاع عنها عندما يهددها الخطر، وأن يقاتل ليس تقديراً لمملكته فقط — كما فعل أجداده من قبل — بل كما يليق برتبته، وبتقدمه، وبثروته.

١٢٧ : ومن الممالك، والدوقيات، والكونتيات، والبارونيات، والقلاع، والاقطاعيات الأخرى، التي استحوذ عليها الملك في هذا الجانب[من الألب] في ماضي مئات السنين، منها جميعاً ينبغي أن يطلب على الأقل العدد المقرر من العساكر المتوجب على أوضاعهم حسبما تقضي بذلك حقوقه الاقطاعية، وعلى السيد الملك إجبار كل واحد من أتباعه الاقطاعيين والدوقات والكونتات، والبارونات، وأصحاب القلاع، والفرسان، وبشكل عام كل واحد يدين له بخدمة ثابتة، إجبارهم جميعاً على تقديم هذه الخدمات وتأديتها دونما غش أو نقصان، وعليه أن لا ينقص أو أن يتخلى عن أي جزء من هذه الخدمات أو إهمال فرضها، وذلك بغية معاقبة الذين تتوجب دعوتهم فقط من خلال Levee en Masse .

١٢٨ : غير أنه يحكى بأن السيد الملك غير متفكر بهذا، وقد أودع نفسه وأحكامه بأيدي مستشاريه، الذين اعتاد على دعوتهم لمساعدته في الحرب، أحياناً على حسابه، هذا وينبغي على هؤلاء الكونتات، والبارونات، والفرسان، والأتباع — بحكم وجوب تقديمهم خدمات عسكرية — أن يقوموا بحملات على حسابهم، وأن يسددوا تعويضات بخدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم فضلاً عن هذا، يقوم الدوقات،

والكونتات، والبارونات، والفرسان، والآخرون المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية، يقومون غير راغبين بأداء الحملات وتقديم الخدمات وحدها، فاعتادوا على أن يأخذوا معهم، وعلى أن يستبقوا بخدمتهم آخرين كثر على حسابهم، في حين أن المتوجب على هؤلاء تقديم خدمات على حسابهم مستحقة عليهم، وفي هذا يتركون بدون عمل آخرين من الشجعان ومن النبلاء الأقوياء يكونون مسرورين بالقيام بحملات على حساب الآخرين لو جرى استدعاؤهم لذلك.

وفي ظل هذه المعطيات حدث مراراً، أن يقوم الفارس الذي عليه أداء خدمة عسكرية، بإرسال واحد من أولاده مع ثلاثة أو أربعة من الرجال، ويبقى هو شخصياً في مسكنه مع خيوله وسلاحه، ويقوم الابن الذي يتولى أداء الخدمة المتوجبة على أبيه، وعلى حساب هذا الأب، باستخراج مال يدفع له من فارس جار لأبيه، ليتولى أيضاً أداء واجباته عنه، وعلى هذا نراه قد عمل عوضاً عن نفسه وعن جاره، ونراه فيما بعد ينجح في وضع نفسه في خدمة مدفوعة لدى واحد من الكونتات أو البارونات، وكذلك على حساب واحد من النبلاء يقوم باستقباله، وعلى هذا تراه يقوم بتأدية واجب خدمة عسكرية مزدوجة عن كل من أبيه وجاره، وبذلك يحصل على أجر مضاعف.

وبمثل هذا التراخي والإهمال في الالتزام بالحقيقة، وفي التهرب من الخدمة العسكرية من قبل عدد كبير ممن يتوجب عليهم ذلك، وقيامهم في كثير من المناسبات باستهلاك نفقات الخدمات المدانين بها إليه، قام السيد الملك بفرض الـ Levee en Masse ، في حالات توجب فيها عدم الدعوة، وعدم الفرض، وبقيام الملك بغض النظر عن الخدمات المتوجبة، وبإيجاب الخدمة على الذين غير متوجبة عليهم، يثقل بذلك نفسه روحياً بشكل رهيب، ويثقلهم دنيوياً، ومثل هذا حدث بالادعاء بوجود ضرورة في قضية الكنائس، فبناء على ذلك الافتراض استخرج

العـون منهم، مع أن الحقيقـة معروفـة، حيث لم تتـوفر الحاجـة، أو على الأقل لم تكن حـالة الطـوارىء عظيمـة بها فيـه الكفـاية، وهكذا اقترف جناية عظمى باستخراجه العون بدون حاجة.

١٢٩ : فكيف على هذا، يمكن لأمير أن يستفيـد من الحرب، وكيف يمكنه الاحتفـاظ بالممتلكات التي صـادرها من أجل حـروبه، في وقت تجاهل فيه أحكام القانون والعادات، بقيـامه بظلم عدد كبير من الناس، وبالتخلي إلى الأثرياء — غير شـاكرين له، لعدم فهـم الأوضاع — عن الجزء الأعظم أو عن كـل الذي استخـرجـه مـن الفقـراء ؟ ومع أن الكنيسـة لم تدرك هذا كله، مع هذا عـدّت نفسهـا متأذية، فتـوقفت عن تقـديم صلواتها المعتادة لصـالح السيـد الملك، ومع أن الملك لم يتبع هذا الطريق برغبة ذاتية منه، بل اقتيد إليـه من قبل مستشاريه، يبدو لي أنه ما كـان له ليفعـل ذلك، بسبب أن عليـه أن ينجح أمـام الرب الذي يرى الجميع، ذلك أنه كان مهملاً، بـالأخذ بنصيحة رديئة، وأخفق في السعي وراء مشـورة صحيحة جيـدة، بالتنازل إلى المدانين له عما استخرجـه من الذين غير مـدانين له، وهكذا يتـوجب طلـب عـون الـ Levee en Masseوعـون الكنيسـة، وتسلم ذلك، فقط عندمـا يسمـح مـذهب الاجراءات الموصوف أعلاه ويجري اتباعه.

١٣٠ [79] : وواضح مما تقـدم أن عليـه أن يسير وفق الخطة التـاليـة التي عليه تبنيها، لأن من المتـوجب وجود نظام في كل مكان(باستثناء في جهنم، حيث كما قـال القـديس : لاترتيب، بل رعـب مقيم دائم — أيوب :١٠ / ٢٢)، فعندمـا توجد حـالة طوارىء، ولكي يتجنب الملك ظلم رعـاياه، عليـه أن يسعى أولاً للحصـول لنفسـه على مـا يكفي من العساكر الاقطاعية والتجهـز بهم، مثلما اعتاد أجداده على تزويد أنفسهم قبل حصولهم على دوقية نورماندي ومـا شابهها من الدوقيات الأخرى، والكونتيات، والبـارونيات، والاقطاعيات التي تم الحصـول عليها قبل

وصـولـه إلى العرش، وإلى هؤلاء ينبغـي أن يضاف الضرائب الاقطاعيـة المفـروضة على المناطـق التي حصل هو عليها شخصيـاً في أثناء حكمـه، وعليـه بعـد هذا أن يجهـز من الاقطاعيـات التي سيتم عليهـا الحصـول الآن، مثلما سوف يفعل الدوقـات، والكونتات، والبـارونات، ويجهزون أنفسهم، لو أنها مـا زالت في أيديهم، وعليـه أخيراً ستـدعـاء الذين غير المتوجب عليهم تقـديم الخدمة العسكرية، لكن وفق طريقـة لا يبدو بها مضراً برعيتـه، ولامنزلاً الظلم بها، أي بطلبه عـونها في وقت لا حاجـة لذلـك فيــه، وعلى الانســـان أن لا يخاف من فعل الشر فقط، بـل من التظاهر بفعل الشر، وعنـدمـا يكون قـد استعـد بشكـل وافـر يمكنه أن يستدعي إلى حربه النبلاء، والكونتـات، والبارونات، وأية رجال آخرين مدربين.

١٣١ : وينبغي على الملك أيضاً أن يتنبه إلى جميع رعاياه الذين عليهم تأدية خدمـات مسلحة، أن يظهـروا مع العساكـر كلها من أجل ضرورة تأدية واجب الخدمـة العسكرية الملـزمين به، أي أن يجندوا وفق طريقـة، بحيث مـا من أحد يدخل في الوحـدة التي عليـه تأدية الخدمة فيهـا على حسـابه الشخصي، أو أن يكون بدلاً عـن آخـر، وباتبـاع هذا الاجـراء، وباستخـدام كاف فقط لسلطاته العليـا والملكية، سـوف يكون مع الملك جميع — أوتقريباً جميع — نبلائه، ولن يستولي بوسائل الـ Levee en Masseعلى مـا اعتـاد أن يتنازل عنه إلى الذين عليهم تأدية خـدمـات مسلحة، وكذلك لن يثقل كـاهل الكنيسة، ولن يتوقف الناس عن تأدية صلواتهم المكرسة، بفضله وحده — وليس بقـواهم — الذي اعتاد قادة الجيوش على نيل النصر.

١٣٢[80] : وإذا مـا رغب أي إنسـان في إدانة هذه الطريقـة في تعبئة جيش من الجيوش — لأن أجـداد السيد الملك لم يعتادوا في الماضي على فرض الخدمة العسكرية بهذه الطريقة — من الممكن أن نجد الجواب في

تحذير القانون المدني بقوله:«على الانسان أن لا يولي الاهتمام لما حدث في روما، بل لما ينبغي أن يحدث»وقوله ثانية:«على الانسان أن لا يحكم بناء على الأمثلة، بل بموجب الشرائع»، ويتماشى هذا مع ما قاله أستاذ الفلسفة الكبير، المعلم سيغر دي برابنت، الذي كنت تلميذه آنذاك، وقرره على قاعدة أرسطو في«السياسة»:«إنه لأفضل بكثير أن تحكم الدولة بشرائع عادلة، من أن تحكم برجل عادل مستقيم»، ذلك أنه لم يكن، ولا يمكن أن يكون هناك رجل مستقيم إلى حد لا يمكن إفساده فيه بالغضب، وبالكراهية، وبالحب، وبالخوف، وبالجشع، فهذا ما نبهنا إليه قانون الشريعة في السبب ١١،السؤال ٣، الفصل[٧٨] بقوله:«يفسد الحكم بأربعة طرق»، وكذلك بما قاله في الفصول التالية، ووافقه الفيلسوف عندما قال في كتاب «السياسة» المتقدم الذكر أعلاه:«حكمت في البداية بعض الدول من قبل الملك، أي بإرادة شخص كان السيد بينهم، لكن بما أن الملوك يعاقبون أصدقائهم بعقوبات خفيفة، وأعداءهم بعقوبات ثقيلة عندما يعتدون، من هنا انبعثت الشقاقات والحروب، ولهذا، ومن أجل إنهاء هذه الشرور بدأ الناس يحكمون بشكل أكثر عمومية بوساطة القوانين والنظم التي لا توفر أحداً.

١٣٣ : ومرة أخرى الناس في هذه الأيام أكثر شرهاً وسوءاً مما كانوا من قبل، وأكثر دهاء وبراعة في المكر،وقد قال الفيلسوف في«السياسة»: « يفكر الرجل الحكيم الذي استسلم إلى الشر، بمختلف أنواع الشر، ويمارسها».

١٣٤ : وقال ثانية في الكتاب نفسه:«تبلغ العداوة أسوأ أوضاعها لدى اللجوء إلى السلاح»، أي سلاح الحكمة، وجاء في مدونة الامبراطور جستنيان:«لايوجد أسوأ من إنسان حكيم استسلم إلى الشر، فهو لا يمكن نصيحته»، ولهذا من التدبير الحسن اللجوء إلى وسائل معالجة جديدة ضد الأعمال الشريرة للناس المتوجب عليهم القيام بخدمات

عسكريـة، لكنهم لا يقـــومـــون بها، مما يلحق الضرر الكبير بـأميرهم الرئيسي وبالعـدد الأكبر من أتباعهم، ثم إن هذه الخطيئة العظيمـة، التي سوف يصدر عنهـا كثيراً من الذنوب، والأخطاء، وأعمال الظلم، سوف تتوقف في المستقبل، وسيتم أيضـاً محق العدوى المهينة لهذه الخطيئة، التي أصابت عدداً كبيراً جداً من الأرواح، بمـوافقة من السيد الملك، ورجال الديـن والشعب، وسيكون هناك بعـض التعـــويض للمظلـومين ، لكن ليس للظالمين.

١٣٥[81]: من إيقـاف الخدمـة العسكرية، عندمـا تبدو الحاجـة أنها قامت لذلك، ومن توفر الحاجة إلى إنقاص عيار العملة في المملكة، التي يتسلم كل إنسان في المملكة بها دخله، فإن الأكرية سوف تفقد في البداية ربع قيمتهـا ودخلهـا، ثم الثلث، وبعـد ذلك النصف، وأخيراً الثلثين، ولقد حسبت أنا كاتب الرسالة الحاليـة، وعرفت من خلال تناقص سعر العملة المستمر، أنني قد فقدت على الأقل خمسمائة ليرة تورية، وكان هذا بعـد الشروع بإنقاص عيـار العملة، وإذا مـا قدرنا كل شيء، أعتقـد أن السيـد الملك قد فقـد، وسـوف يتابع الفقـدان والخسـارة بإنقاص عيـار العملة أكثـر بكثير مما حصله من منـافع أويمكن أن يحصله في المستقبل، وبسبب إنقاص عيـار العملة هذا، ارتفعت أسعـار الحاجيات كثيراً، إلى حـد أن الأسعار ربما لن تنقص وتعـود إلى المستوى القـديم، ومن أجل التعـويض على الناس الذين عـانوا من هذه الشـدائـد العامـة، يتـوجب معاقبـة الذين خططوا، وصنعوا، ونفذوا مثل هذا الحل، وأنقصـوا عيار العملة مراغمة لجميع مبـادىء وقواعد القانون، وأيضاً مـراغمة لعادات مملكة فـرنسـا التي تبرهن أنها ظلت بـلا خـرق منذ مـا قبل مـا يستطيع الناس الأحياء أن يتـذكروه، وسيكون مفيداً لفت انتبـاه صاحب الجلالة إلى هذه المسألة: ذلـك أن التجـاهل بلاهة وغبـــاء، ولايمكن مطلقـاً أن يكون تسويغاً مقبولاً للخطيئة، لأن الجريمـة الكبرى موجودة على معيار

مع نية شريرة.

وفي الحقيقة، هناك لـوم عظيم بالبقاء جـاهلاً بما يعرفه الجميـع بلقبه، وذلك حسبما حذرنا القانون المدني، وأنـا لا أعتقد أن إنساناً بعقل سليم يمكنه — أو ينبغي — أن يعتقـد أن الملك كـان سيقـوم هكذا بتغيير نقوده وإنقـاص عيارها، لو اعتقد أنه سيصـدر عن ذلك مثل هذا القدر من الشرور، ثم لأنه نشأ وسط رفاه عظيم، وثراء كبير، واعتاد دوماً على ذلك، لايمكنه أن يدرك شخصيـاً تماماً النقص والحاجة، وأنواع العـوز والفقـر التي لا تحصى، وهـو على هذا مثل الذين عـاشـوا زمناً طويلاً دون المعاناة مـن أي مرض، ولهذا ليس لديهم ميل للخـوف من أسباب المرض ومن مصادره، لأنهم لم يتذوقوا الطعم المرّ للمرض.

ولقـد قـرأنا عن عـدد كبير من الأمـراء الذين حصلوا على الخبرة، بتجريب جميع ألـوان الحياة من أجل ا لوصول إلى معـرفة أحـوال العالم وأوضاعـه، وصحيح ما قاله الفيلسـوف أن«الحكمة الدنيـوية» التي أكد أنها ملكة جميع الفضـائل الخلقيـة، لأنها تتضمنهم جميعـاً«نحصل عليهـا بالتجـربة»، لكن هناك حـاجة إلى وقت مـديد للحصـول على الخبرة في الشؤون الانسانيـة، وعلى هذا خلص إلى القول بأن ما من عقل صحيح يختـار الشبـاب قـادة، بسبب أنه لم يعـدّهم حكماء، لأنهم لا يمكنهم الحصول على تجربة واسعة ومعرفة كبيرة في وقت قصير.

١٣٦[82]: ولهذا إنـه على الملك أن يـدرك وأن يتـأمـل ميـــول مستشـاريه، نحـو فـرض الخدمـة العسكرية، وكيف أنهم يقـومـون سراً بشطبهـا عن الذين يتـوجب عليهم القيـام بها، ويستخـرجـون مـا ليس ضرورياً من خلال الـ Levee en masse ومما فرض على الكنيسة، ومن آخرين، مـا كان من المفترض استخراجـه من الذين عليهم واجب أداء الخدمة العسكرية،وعليه أن يبحث عن الذين أغنوا أنفسهم بوساطة هذه الاعفاءات، وعن الذين مع أنه متوجب عليهم القيام بحملات على

حسابهم، وأن يؤدوا خدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم، قاموا بحملات على حساب جيرانهم الذين بقيوا في مساكنهم، وعن السادة الذين دعوهم لاكمال تعداد مقاتليهم، وبعدما حصلوا على كثير من المال بهذه الطريقة، وبعدما أثروا أنفسهم من أثاث الفقراء، عادوا أخيراً إلى نسائهم، ومن الطبيعي أن أمثال هؤلاء الناس يرغبون بأن يقوم الملك دوماً بحشد جيش كبير، وإذا ما أراد السيد الملك التحري بدقة حول صدق الأمور المتقدمة الذكر، سوف يجد أن هذه الممارسات قد طبقت.

ولا أريد أن يعرف بأنني حرضت على القيام بمثل هذا التحري، بسبب أنني أعتقد أن ذلك إذا ما بات معروفاً فلن أنجو من التآمر ضد حياتي شخصياً، وأنه سوف يجري التأثير بشدة على أصدقائي ليكونوا ضدي، ومع هذا أردت عرض هذه القضايا وإثارتها، آخذا بمذهب الفيلسوف الذي قال:«على الذين يؤمنون بالصدق أن يلتزموا بقوة وبقرب بالصدق، وليكن ذلك أكثر من الصداقة»، وكذلك بمبادىء الانسان العاقل اللذين هما مبدآن: أولهما أن لا يتكلم بشكل زائف عما يعرفه، والثاني أن يكون قادراً على كشف الذي يتكلم بشكل زائف»، وقد قرأنا في القانون:«أن تعاني من الذل في سبيل الصدق أفضل من نيل المنافع عن طريق النفاق».

ومن المؤكد أن جميع الذين يزيفون من أجل ضرر آخرين، يقترفون إثماً عظيماً، وهم أبناء الشيطان، وهم ينكرون الرب بأعمالهم، مثلما قال الرسول وأكد بأنهم مثل الذين يعترفون بأنهم يعرفون الرب، لكن ينكرونه بكل عمل شرير من أعمالهم، وعلى العكس يدعى جميع الذين يقولون الصدق، بأبناء الرب، وبما أنني محامي استئناف لقضايا الملك،ومرتبط به باليمين، سوف أعدّ نفسي مقترفاً لذنب عظيم، لدى سكوتي عن حقيقة ما تقدم بالنسبة للضرر الروحي والدنيوي لمولاي وللعدد الذي لا يحصى من رعاياه، لأنه كما قال

الفيلســوف:«الشجاعــة»التي هي فضيلة نبيلة، وتليق بشكل خــاص بالأمـراء، وبالفرسـان هي:«الهجوم على الأوضـاع المرعبة، حيث يتـوفر التهديد بـالموت، وذلك من أجل الصالح العـام»، وقد جـاء في الكتاب المقـدس:«حينما يحفظ الـرجل القـوي بلاطه، تكون جميـع الأشيـاء التي يتملكها بسلام»[لوقا : ١١ / ٢١ — بتصرف].

١٣٧ : الذي وقع في الماضي لا يمكـن إعــادته، وذلك حسبما قــال القـانون:«ما أن تتقـرر القضـايا لا يمكن إعادة فتحهـا من أجل خـاطر العـدالة»، وينبغي على كل حـال على السيـد الملك أن يفهم الماضي وأن يتعلم منه، وعليه أن يتبنى سياسة جديدة حتى لا تتكرر المخالفات التي ورد ذكرها أعلاه في المستقبل، وعليه شخصياً، بناء على نصيحة الكنيسة وأعقل مستشـاريه، أن يعـد بتعـويض رجــال الدين والشعب،فبـذلك يقنعهم بعدم متـابعة إيقـافهم تزويده بصلواتهم الحارة، وبذلك سيتمكن من إنهاء غضب الرب، حيـث أننا نقـرأ في القــانون:«الخوف من الاثم دليل على قلب جيــد، حتى حيث لا يوجـد إثم»، وإذا مــا ابتغى أمير الحصول على الحكمـة وسعى من أجلها، في سبيل حب خالقـه، وإذا ما كـرس جميع طاقـاته من أجل تقـديم العـدالة في وقتها، وإذا مـا مـارس الرقابة على قضاته من أجل البت بالقضـايا بسرعة وبعدل، وبذلك يوفر برحمة على رعايـاه الأذى، والاضطرابات والنفقات،وقتهـا سوف يكون مثل سليمان، الذي تلقـى جميع خيرات هذه الدنيــا، مع هبــة الحكمــة الحقيقية والعدل، ولسوف يتحرك الناس نحو غفران جميع الأخطاء التي عانوا منها.

وسيكون مثل هـذا الحل مــرغــوب به كثيراً، لأنـه سيكون من غير الممكن التقــدير تمامــاً مــدى الضرر الذي عــانى منه كل واحــد من التجاوزات التي ورد ذكرها أعلاه، وأعتقد بشكل أكيد أن رجال الدين والناس بشكل عـام سوف يكونون على استعـداد للمـوافقة على إجـراء

يقوم بموجبه السيد الملك — من أجل خلاصهم — بتكريس جميع ما استخرجه من رعاياه فوق واجباتهم، من أجل مصلحة الأرض المقدسة، وذلك ما يعادل جميع الأضرار التي ألحقها بهم بإتباعه آراء الآخرين، ومن السهل الحضول على موافقتهم بالدعوة إلى حمل الصليب، مع منح الغفران المطلق من السيد البابا.

١٣٨ : ويمكن أيضاً للسيد ملك إنكلترا، والأمراء الآخرين، والأعيان، والذين سوف يعبرون إلى الأرض المقدسة، أو يرسلون آخرين إليها، يمكنهم أن يسعوا من أجل تسوية مماثلة، وأن يضعوها قيد التنفيذ، وليكن ذلك مع جميع الذين لهم ديون عليهم لم تتم تسويتها، والتي هي غامضة، أو غير محددة لأي سبب آخر، ووفقاً لقواعد إيماننا، لايمكن غفران ذنب من الذنوب ما لم تتم إعادة ما سلب، وإذا كان الذين سيذهبون للقتال من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، كانوا مثقلين وموسومين باحتفاظهم بممتلكات الآخرين، ولهذا واقعين في شرك ذنب عظيم، فإن ذنوبهم سوف تعيق أعمال الآخرين الجيدة.

ولهذا يتوجب على التائب الحقيقي والمعترف، أن يقوم قبل كل شيء بالانفاق هناك لصالح المدان لهم، وأن يسدد لهم كل ما يطلبون تسديده، وبهذه الوسيلة يمكن لكل إنسان أن يمتلك الغفران، وبذلك سوف تكون جهود الجميع مؤثرة وقتالهم فعالاً، وسيمكن وقتها إزاحة العدو القديم وطرده، وهو الذي يمسك بيديه بسجلات مثل هذه الآثام ويحتفظ بها، ويؤخر ويعيق محوها بقدر ما يمكنه، وذلك خشية أن تنجو الأرواح من مصائده، وإنني أعتقد بشكل جازم أن كل إنسان سوف يصغي إلى الوعظ المرتبط بالغفران البابوي سوف يغفر للسيد الملك كل ما يدعيه ضده.

وإذا ما وجد هناك أي واحد أراد أن يقلد فرعون بقسوة قلبه،

وسـوف يرفض التخلي عن ادعـاءاته، على أساس أنه يستحـق تعويضـاً أعظم، على القضاء الملكـي المحلي الموجود لهذه الغاية، مـع محاكم أخرى يجري تعيينهـا للقيـام بهذه المهمة، عليهـا القيـام بتسجيل أسماء المدعين، وبمطالبهم، وبالأسباب، وبذلك يمكن القيام بتعويضهم بقدر ما يكون ذلك مرضياً وعادلاً، وينبغي عدم إرغام أحد من الناس على التخلي عن دعواه من أجل تقديم العون إلى الأرض المقدسة.

١٣٩[83]: كـان جند المملكة الفــرنسيــة حتى الآن، ومن المفترض استمـرارهم بأن يكونوا، الحقيقـة الدائمـة في استرداد الأرض المقـدسـة والحفـاظ عليهـا، ولايمكن لهذه القــوات البقـاء هناك إذا — لا سمح الرب — ما مـات الملك، مثلما حدث للقـديس لويس، أو أن ينتقل إلى الرب أثناء الزحف، أو أن يعـود إلى الوطن لسبب مـا، ولهذا ارتأيت أنه سيكون من الأفضل، والمرغـوب به، بقـاء الملـك وابنه البكر في الوطن، لامتـلاك الوقت من أجل إدارة المملكة، ولانجـاب الأولاد، ولتربيتهم وتدريبهم، ومن أجل تجهيز النجدات السنوية لإرسالها عبر البحر، لدى توفر الحاجة لذلك، وبسبب أعمال الاستيلاء التي تمت الإشارة إليها من قبل، وكثـرة وتنوع واجبـاتها الادارية، سوف يكون مفيـداً للسيـد الملك ولابنه البقـاء طويلاً في مملكتهما، والموت فيها، بدلاً من الوفـاة في أرض أجنبية، وينبغي عليهما إنجاب أولادهما في المناطق المجاورة لباريس، من أجل أن يلدوا هناك، وهناك يتربـوا، لأن من المعـروف أن تلك المنطقـة واقعـة في ظل مؤثرات أجسـام سماوية أكثـر فـائدة من أي مكان آخـر، ولهذا السبب، حسبما لوحظ في الماضي، إن الرجـال الذين تمّ الحمل بهم هناك وولدوا كذلك هناك هم أفضل تكويناً، واختصاصـاً، وموهبة، من أي من الذين ولدوا في مناطق أخرى.

١٤٠ : وسـوف تكون خطة جيـدة أيضاً، عندمـا تتـوفر الحاجـة، أن يقوم الملك بتـوجيه حملته، بقيادة الجيش من خـلال شخص أخ آخر له،

أو من خلال ابن أصغر له، من أجل أن يتجنب إمكانية تقصير حياته، وذلك في ضوء الحوادث والأسباب التي سرّعت موت أجداده الثلاثة الأواخر(١)، فعلى مثل هذا الأمير عدم تعريض نفسه لمخاطر الصدف والحظوظ، ولا يمكنه القيام بحملة من دون كتلة كبيرة من العساكر، كما لا يمكنه تحريك قواته والزحف بسرعة مثل الآخرين، الذين يعملون أحياناً ليلاً ونهاراً، ثم إننا لا نمتلك في الأرض المقدسة، لا مدناً ولا حصوناً،ولا أماكن أخرى معدّة، حيث يمكن فيها الإتقاء من أشعة الشمس المحرقة، وأشعة المريخ والنجوم الأخرى، والاحتماء من المناخ المتقلب الذي لن يكون موائماً لهم البتة.

١٤١: وقد يعترض إنسان فيقول :«إنك بهذا تعيق تقدم الأرض المقدسة»، وله أجيب قائلاً: لن تكون هناك إعاقة، ما دام السيد الملك سيكون قادراً، وسوف يطلب إرسال جيش كبير مع أخوانه أومع ابنه الثاني، وكأنه هو شخصياً سيذهب، ويمكنه أن يرتب استلام عدة قادة الإمرة أحدهم بعد الآخر، وذلك إذا ما مات أحدهم، أو أصيب بالعجز لسبب ما، فوقتها يمكن لآخر أن يتسلم الإمرة على الفور، وسيطيعه الجميع وكأنه الملك بذاته، ويبدو أنه لن تكون هناك مخاطرة ظاهرة إذا ما ذهب ملك إنكلترا، أو ملك آخر إلى هناك، خاصة الملوك الشيوخ الذين توقفوا إلى أبعد الحدود عن إنجاب الأولاد، وإذا ما مكث السيد ملك فرنسا في الوطن، يمكنه أن يتولى تجهيز فرق العساكر الموعودة، المكونة من كل من الرجّالة والفرسان، وتقديم السلاح أيضاً وفقاً لطلبات وتقديرات قادة جيشه، ومن الصعب على الملك الذي ولد في قصر فخم، ونشأ في مناخ معتدل، أن يتحمل مشاق الحملات،

١ — توفي لويس السابع بالاسهال في سنة ١٢٢٦، أثناء عودته من حملة صليبية ضد الألبينيين Albigensians ، وتوفي لويس التاسع بالطاعون سنة ١٢٧٠، عندما كان محصوراً في معسكره في تونس، وسقط فيليب الثالث نتيجة إصابته بالحمى في سنة ١٢٨٥ أثناء حملته ضد بدرو الثالث صاحب أراغون.

في أراض متغيرة الأنواء، وبذلك يتعرض — من دون حماية كافية — إلى أشعة الشمس المباشرة،وإلى الأجسام الأخرى، ولم أذكر أنني قرأت عن أي أمير قام بحملات في بلدان أجنبية أو نائية غير شارلمان الذي قام بحملات شخصية لمدة مائة عام وأكثر، وبذلك لم يكن له نظير، فبعدما حصل على البراعة في القتال من خلال الخبرة الطويلة، تقدم كثيراً خلال الاثني عشر عاماً التي أمضاها امبراطوراً للامبراطورية الرومانية، وكان ذلك أكثر مما عمله خلال الأربعين سنة المتقدمة، وذلك حسبما تشهد على أفاعيله أكثر من منطقة.

١٤٢ : على الملك أن يقوم بشكل خاص باستعراض الماضي، واستباق الحاضر وتوقعات المستقبل، أي مستقبل أوضاع المملكة، ومعرفة أي السبل يرغب في اختياره، بين جميع السبل النافعة والمتوفرة لديه، من أجل الحملة إلى الأرض المقدسة، ومن أجل مملكته، وذلك وفقاً للخطة التي تم عرضها هنا، وينبغي استكمال هذه الخطة وتعديلها من قبل أكثر مستشاريه وأعيان دولته حكمة وعقلاً، وعليه أن ينتهز الفرصة، التي توفرت بسعادة له وبوساطة الخطة المتقدمة الذكر، وأن يناضل في سبيل سلام ثابت ودائم في جميع أرجاء الكومنولث المسيحي، وذلك وفق الطريقة المقترحة، أو وفق طريقة أخرى أفضل، وعليه القيام — بعد الحصول على موافقة البابا وجميع الأمراء الآخرين — التلطف في السعي الحثيث في أن تكون الارادة الطيبة وسلطة الكومنولث الكاثوليك المطيعين للسيد البابا، موجهة نحو الاسترداد السعيد للأرض المقدسة والحفاظ عليها، وكذلك الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية، وأن يتقرر الوصول إلى الهدف المنشود بكل سرعة تحت قيادة الرب قائد الجيوش كلها.

ملحق

رأي واحد يحث ملك فرنسا للعمل على الاستيلاء على مملكة القدس، وقبرص، من أجل الثاني من أولاده، ومن أجل غزو مملكة مصر.

١: قال الرسول:«كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون من أجل تعليمنا، وكل ما تقدم فكتب كتب لأجل تعليمنا»[روما : ١٥ / ٤، ثيموثاوس : ٣ / ١٦، بدمج وتصرف]، ونقرأ في السفر الأول من أخبار الملوك، أنه عندما طلب شعب إسرائيل — الذي أحبه الرب أكثر من غيره من الشعوب — من الرب أن يعطيهم ملكاً، أعطاهم الرب شاول ليكون ملكاً عليهم، فتشامخ برأسه وكتفيه فوق جميع الشعب،وقد عرف الرب أنه لن يكون مطيعاً له، ولهذا السبب لن يعيش ملكه طويلاً، ويبدو أن الرب قد تحرك لإختياره من أجل أن يعطينا حجة واضحة من أجل توجيهنا، أي عندما يتوجب اختيار ملك، قد نقوم نحن الذين نجهل حوادث المستقبل بين الناس، والذين في أذهاننا، التميز الرائع، والتقوى المفترضة والكامنة في السمات الحسنة، قد نقوم باختيار وتسمية شخص مماثل للملكة العظمى للقاهرة ومصر، التي تدعى مملكة الآشوريين، ونترك الباقي لإرادة الخالق وترتيبه، فهو الذي يعرف جميع الأشياء من البداية، ومثل هذا الشخص هو المولى فيليب، الابن الثاني ولادة للمولى ملك فرنسا، وسيبدو أمراً بعيداً عن السعادة إذا لم يدع لتسلم واحد من المناصب الشرفية لهذا العالم.

وبما أنه كتب في القانون:«ينبغي أن لا يأخذ إنسان الشرف لنفسه، بل ليأخذ ذلك الذي يُدعى من قبل الرب، مثلما كان هرون»، وقد ارتأى واحد من محبي سلامة الكومنولث المسيحي كله، أن فضائل العالم المذكورة أعلاه، وفضائل أخرى كثيرة، ينبغي أن توضع قيد الاستخدام، لأنها تساعد كثيراً، وهي مرئية بشكل طبيعي، فهو قد وضع الصالح العام قبل سلامته، ومربحه، كما سوف يظهر من كتاباته الكثيرة، فبعد التأمل في هذه القضايا، وتقليبها في ذهنه، قد رغب في عرض أفكاره

وتقديمها، بسبب قلقه من أجل الملك المذكور، ومع تجنبه الأطناب، رغب في الوقت الحاضر أن يكتب باختصار، وأن يبرهن بشكل مقنع ضد أي خصوم، بأن السيد الملك يمكنه بسهولة تشريف ابنه الشريف وإغنائه، وجعله أعلى من جميع الناس الأحياء من دون أن يؤذي أحداً من الناس، وأن يتجنب بالوقت نفسه اقتراف ذنب عظيم، كما ينبغي أن يفعل في كل نشاطاته.

٢ — ومن المعروف بشكل جيد أن مملكة عكا شاغرة منذ وقت طويل، ذلك أن كونت دي إيو هو المتوقع، وقد أهمل هذا الكونت وأجداده قد أهملوا الآن ومنذ وقت طويل حكم هذه المملكة، ولذلك السبب يمكن القول بأنهم فقدوا الحق في مواردها، لكن لتجنب أي شك، يمكن للملك أن يسأل الكونت، الذي لن يخيبه، بل إنه سيتنازل لابن الملك عن أي حق من حقوقه، إذا كان لديه أية حقوق، وهو أمر يعتقد بعدم وجوده، ولدى اكتمال التخلي،يمكن للملك أن يتدبر مسح ابنه وتتويجه ملكاً من قبل البابا، ومن الممكن أن يتنازل له سراً عن ملك عكا، والقاهرة، ومصر وآشور، ما لم يكن السلطان على استعداد لإعادة الأرض المقدسة إلى الكنيسة الرومانية والتنازل عنها بشكل سلمي، وأن يشمل التنازل التخلي عن الإشراف القضائي على سكانها، مع ثمن وارداتها ومنتجاتها التي حصل عليها بشكل غير عادل.

ولدى الفراغ من هذه الترتيبات، أو عندما يبدو أنها سوف تترتب بشكل جيد، على السيد الملك أن يسعى، لابل أن يبذل غاية جهده من أجل عقد مجمع يضم الأمراء الكاثوليك والأساقفة، من أجل العمل على استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، وإيجاد حكومة جيدة لها، ولاتخاذ قرار حول هذه الأمور، ولوضعه قيد التنفيذ باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لذلك، وينبغي تبني هذه الإجراءات، ليس فقط حسبما وضعت في الرسالة إلى البابا، والتي أرسلت إلى الملك في شينون

أثناء الاحتفال الأخير بصعود الرب، بل يبقى من الأفضل بكثير ما يراه السيد الملك أنسب للتبني بناء على نصيحة الرجال الحكماء والمجربين.

٣ : بالاضافة إلى المقترحات الواردة في الرسـالة المشار إليها، يبدومن الموائم، في ضوء الادعاء الذي يدعيه ملك صقلية بالنسبة لمملكة القدس بحجة شرائه حقوق الأميرة مريم المقدسية، تأمين تعويض كبير يخصص له من قبل المجلس، مقابل ادعائه ونفقاته، وينبغي أن يكون هذا التعويض مناسباً مع أنه قد قيل، بأن بارونات المملكة يرون بأن بيعاً من هذا القبيل كان غير قانوني، وأن الحق بالمملكة يعود إلى ملك قبرص.

ومن أجل الصالح العام للعالم كله، من المفيد دمج طائفة الاسبتارية بالطوائف الأخرى التي وجدت لمصلحة الأرض المقدسة،في طائفة واحدة، باستثناء الداوية ، ومن المتوجب تأجير جميع ممتلكات الداوية في الأرض المقدسة وقبرص إلى المستأجرالذي يدفع أكثر، مقابل أجر دائم، وينبغي إقناع ملك قبرص بالانضمام إلى الطائفة المقترحة، وأن يتخلى لها عن جميع ممتلكاته، ولاسيما ادعائه — إذا كان له أي ادعاء — بالحق في مملكة القدس، وينبغي إحلال طائفة رهبان عسكرية ملكية محل الطوائف المذكورة، وأن يوضع ملك قبرص في القيادة، حسبما ورد في الرسالة المشار إليها، وأن تؤول القيادة من بعده إلى أي ملك كاثوليكي للقدس، هو من أفراد الطائفة، ويتوجب على مثل هذا الملك — بناء على توجيه من البابا ومن ملك فرنسا — أن يستخدم جميع قواته من أجل تقديم العون إلى ملكي القاهرة، وعكا والملوك الكاثوليك الآخرين، في الحروب ضد جميع الكفار والمنشقين، وعليه أن يقدم سنوياً حساباً حول المبالغ المتبقية، أي أية مبالغ زائدة عن نفقات الطائفة الملكية، وبذلك لن يثقل رهبان الطائفة — مثل يهوذا المجنون — الذين لديهم أكياس مال، وكاهل الطائفة، وكذلك من أجل تجنب إلحاق الأذى بكومنولث المسيحيين، والملوك المذكورين، وأيضاً عدم إثقال

الممتلكات الصحيحة المكرسة من أجل حفظ الكومنولث وبقائه.

٤ : وأما بشأن الممتلكات التي قيل بأنها عائدة إلى الداوية، أي بضائعهم القابلة للتحرك، ودخولهم، ومستحقاتهم بالنسبة للسنوات الخمس أو الست المقبلة، فمن الممكن أيضاً تكريسها لمساعدة الطائفة الجديدة، ومن الممكن مضايقة السلطان بوساطة مائة غليون أو أكثر مع قوة مناسبة من الجنود المجهزين بشكل جيد، وأيضاً حماية البحر، ويمكن أيضاً بذلك مضايقة المناطق القريبة من البحر وإفقارها، وهي المناطق التي قيل بأنها تمتد ما يساوي رحلة ثلاثين يوماً، وبهذا العمل لن يتمكن السلطان من مقاومة الحملة العامة التي سوف تأتي، وفي الوقت نفسه، بما أن الأعداء سوف يكونون من دون المساعدات التي تأتيهم عبر البحر، ومن دون البضائع التي اعتادوا على تلقيها بوساطة الماء، وقتها سيكون بالإمكان — بعون الرب — هزيمتهم بكل يسر وقهرهم ، ويقول الفرسان المحنكين والعقلاء من الذين ولدوا في تلك المناطق، والذين هم على دراية بأحوال القاهرة ومصر، وسكانهما، سيقولون بعد تفحص دقيق لهذه الخطة، بأنها خطة ممكنة.

٥ : ويبدو مفيداً — مع نصيحة المجمع — القيام بتدمير طائفة الداوية كلياً، ذلك أن محصلات العدالة تقضي بحلها تماماً، وتكريس ممتلكاتها لصالح الحملة العامة حسبما ورد أعلاه.

٦ : يبدو أنها مسألة صعبة، إحداث ترتيبات دائمة حول تملكات أراضي من هذا النوع بعد الحملة، مع تجنب النزاعات والخلافات بين الأمراء المحليين، ويبدو من المفيد بالنسبة للوقت الحالي، بعد تقرير قيمة مثل هذه المناطق القيام بعرضها للايجار بشكل دائم، وينبغي إيداع ريع الايجار الذي يأتي من هذه الممتلكات في أماكن خاصة، فعندما تهدد حالة طوارىء ملوك مصر، وعكا، والقدس، أوأي ملوك كاثوليك آخرين خاضعين بتقوى للكنيسة الرومانية، ينبغي اختيار عساكر

مناسبين في كل مملكة، ومقاطعة أو إقليم، ويتوجب تزويد هؤلاء الجند من الأموال المذكورة أعلاه بأسلحة جيدة، وبوسائط نقل تتوافق مع رتبهم، وهم في حالة ابتهاج مع الأبواق ومع عتاد مناسب، إرسالهم إلى الأرض المقدسة، أو أية مناطق أخرى عبر البحار، مع تمويل كاف لرحلتهم، وبالنسبة لممتلكات العساكر الذين يموتون أثناء الزحف أو خلال حملة عسكرية، ينبغي أن تكرس كاملة إلى الأحياء، وبذلك يمكن الاستمرار في تحويلها لتستخدم لصالح الحملة.

وسوف يجمع الملوك الشرقيون بوساطة هذه الخطة — إذا ما عاشوا بسلام لسنوات طويلة، ثروات كبيرة جداً على هذا الجانب من البحر، في قبرص وفي أرض الميعاد، فإذا ما قامت حالة طوارىء، وقتها لن يعانوا من قلة المال، بل على العكس سوف يحصلون من كل منطقة للداوية فيها ممتلكات، على نجدات تتكون من حشود كبيرة من المقاتلين الشجعان، ومن كميات هائلة من السلاح، وينبغي أيضاً أن يتم الاتفاق بين الملوك المعينين حديثاً بمساعدة أحدهم الآخر بعدد محدد من المحاربين، وبحصة من أساطيل كل واحد منهم، وعليهم أيضاً إعداد أماكن على طول السواحل حيث تتوفر أخشاب رائعة، وحيث هي ليست متملكة من قبل أحد، وتخصيص هذه الأماكن لبناء الغلايين ومراكب التحميل، ليجلب بها الحديد والمنتجات الوافرة الأخرى من الشمال، والتي هي نادرة وغالية الأسعار في الجنوب، وعلى هذا يمكن جلب هذه المنتجات من هناك، وكذلك الأسلحة غير الجاهزة، لكن من السهل ابتياعها من هناك، مع أشياء أخرى مناسبة للعيش وكذلك للقتال بكفاية، وعلى هذه المراكب حمل العساكر في أوقات السلام، خشية أن يبقوا كسالى، ويمكنها أن تحمل معها في طريق العودة توابل عطرية، وحاجيات أخرى مفيدة لنا.

٧ : وإذا ما اعترض معترض وقال بأنه سوف يكون من الصعب

مهاجمة القاهرة ومصر، سيجيبه الرجال الحكماء والمجربين بأن ذلك لن يكون صعباً، بما أن الرجال الذين ولدوا في تلك البلاد متخلفين في استخدام السلاح، ومشهورون بأنهم بلا شجاعة، وسهل فقط وصول الجيش إلى تلك البلاد بوساطة البحر، فمصر التي تمتد مسافة عشرين يوماً سفراً، والتي عرضها على محاذاة النيل أربع مراحل أو أكثر في بعض الأماكن، هي مطوقة بصحارى غير مسكونة، ولا يمكن اجتيازها، إلا باتجاه أرض الميعاد، وآنذاك سيكون ذلك وسط مصاعب كبيرة ومخاطرة، لأنه لمدة سفر ستة أيام هناك لا يمكن الحصول على أية أطعمة باستثناء الماء، ولهذا إنه من الأفضل مهاجمة تلك البلاد بوساطة البحر وذلك بجيش كاف، وذلك بعد أن يكون قد جرى أولاً توجيه جيش كبير نحو عكا، وبذلك يصبح من السهل الاستيلاء على بلاد القاهرة ومصر، وذلك عندما يجري تجريدها من العساكر، وما أن يتم الاستيلاء عليها حتى ستكون ذات فائدة عظيمة إلى السيد الملك، أكثر منها لمملكة فرنسا، بما أن جميع سكان الأرياف هم عبيد، والبلاد خصبة جداً.

٨ : ولا يحتاج السيد الملك إلى التردد بإصدار الأمر بمهاجمة هذه البلاد، وذلك خشية منه أنه لن يرى ابنه ثانية، ذلك أن هذا الولد يستطيع أن يعود إلى أرض أبيه، حيث يترك قائد الجيش هناك، لأن تلك البلاد سيكون من السهل الدفاع عنها، لاسيما بعدما يكون قد جرى إخضاع أرض الميعاد، واستولى عليها الكاثوليك.

٩ : وإذا ما تم الاتفاق على ملاحظات السلام الدائم، حسبما جرى اقتراحها في الرسالة المشار إليها، سوف يكون مناسباً للسيد الملك البقاء في مملكته، ومع أنه قد يكون قد حمل الصليب، فبإمكانه أن يرسل إلى هناك أخاه اللورد لويس، كبديل عنه، مع جيش كبير، ومعه ابنه المتقدم الذكر(فيليب الذي صار فيليب الخامس، ١٣١٦ — ١٣٢٢)، وسيكون

هذا المنهج مسوغاً لأسباب كثيرة، فالسيد الملك الذي تزوج ثانية، عليه أن يمتلك الوقت، بأسرع وقت ممكن، من أجل إنجاب الأولاد، وتربيتهم، وتدريبهم، وعليه البقاء في مملكته من أجل إدارتها، مثل ملك بلاد التتار، الذي لم يغادر بلاده قط، بل عين ملكاً من الجيش، وأعطاه البلاد التي عليه احتلالها، ويمكن للسيد الملك بهذه الطريقة أن يزود أخاه وابنه بالعساكر، لترسل إليهما بين وقت وآخر، وذلك حسبما يجد ذلك ضرورياً.

وبسبب خطر الموت، والمرض، والفوضى في إدارة مملكته، ارتؤي أنه نافع أكثر، وأكثر سلامة إلى الملك، أن يبعث، ولايذهب شخصياً، وفي تلك الحالة من الضروري جداً البقاء في الوطن، وذلك تبعاً للفيلسوف الذي قال:«نحن نحصل على الحكمة في هذا العالم من خلال الخبرة في الشؤون، وتحتاج الخبرة إلى وقت طويل»، ولهذا سوف يكون خطراً جداً بالنسبة لمملكة فرنسا — مثل أي مملكة أخرى — أن تحكم من قبل رجل شاب، ويتوافق هذا مع قول آخر للفيلسوف نفسه:«ما من أحد يختار الشباب قادة، لأنه لا يعدهم حكماء»، وعلى الأبوين الملكيين، اللذان يحبان أولادهما الشباب، أن يسعيا لإطالة عمريهما، خشية أن يتركا إلى الفتيان مخاطر واجب الحكم.

وعلى الملك ما أن يجد الوقت، أن يقوم على الفور بقراءة الرسالة المشار إليها، وأن يأمر بتصحيحها، وبتغييرها، وإتمامها من قبل واحد أو أكثر من اللاهوتيين المتفوقين في ميادين المعرفة، ممن لا يتطلعون إلى مناصب الأسقفية، ويؤيد هذا القانون الأوغسطيني، ذلك أن الشهوة تفسد وتشوه الحكم المنطقي، وإذا ما جرى الأخذ بالمقترحات الواردة في تلك الرسالة، سيكون من الواضح تماماً أن المقترحات المتقدمة يمكن بسهولة وسرعة وضعها موضع التنفيذ، وينبغي أن تكون ذات ديمومة، حتى يكون بإمكان السيد الملك، بهذه الطريقة، تأمين الإمدادات إلى

الأرض المقدسة من خلال ميناء صغير وبنفقة ضئيلة، وما أن يجري تأمين الإمدادات هكذا بشكل جيد، وبأن تدوم — بعون الرب — أبداً دائماً، سيكون ذلك بالنسبة إلى المستقبل، له فائدة أعظم لجميع بني البشر، روحياً ودنيوياً، ولكي يعيشوا بسلام ووئام، أعظم من كل ما قرأنا حوله، أو جرى تنفيذه، أو تصوره منذ بداية الدنيا، ولسوف تدوم ذكرى ذلك الأمير الذي أثار، ونفذ مثل هذا المشروع الواسع جداً، وستبقى إلى الأبد من خلال صلوات المؤمنين.

١٠ : وبات من السهولة بمكان أن يرى كل إنسان أعطي تقديراً للأحداث الممكنة في المستقبل، أن التخلص من الممتلكات التي منحت، إلى الداوية لهدف لم يتحقق، أمراً مسوغاً، ولهذا السبب إنها منحة يتوجب إبطالها، ولا يجوز تحويل هذه المنحة إلى استخدامات مدنية، بل ينبغي أن تستخدم بدون تردد في سبيل غرضها الأصيل، وسيكون هذا له منافعه إلى الأساقفة، وإلى جميع الناس عن طريق تعويض النفقات التي تحملوها لدى قيامهم بتنفيذ مشروع إزالة الطائفة ومعاقبة أفرادها، وإن فحصاً للعشور وللمساعدات الخيرية، مع القيام بالتقدير المعتاد للقيام بحملة صليبية، يري أن مشروع معونة الأرض المقدسة سيمتلك وقتها الوسائل لدفع المرتبات، أوتأمين ما هو ضروري للعساكر، ولن يحتاج الأمراء الكاثوليك من بلدان نائية إلى الارتحال إلى هناك، وبالتالي إهمال إدارة أراضيهم، وتقصير حيواتهم، وذلك كما يحدثنا التاريخ، وكما وقع مراراً، وقد تحملت مملكة فرنسا نفقات هائلة على مثل هذه الحملات، التي أنجزت قليلاً، لأن أعمال احتلالاتهم الجزئية لم تدم، هذا وإن المبالغ التي سوف تجمع من وقت إلى وقت، من أجل الأرض المقدسة، في ظل الخطة المقترحة، سوف تكون ذات فائدة إلى الأمراء المحليين، فإذا ما كانوا بحاجة إلى المال، عندما تتفجر الحرب بشكل مفاجيء، يمكهنم الاعتماد على المبالغ المجموعة والسحب منها، وعليهم

أن يكونوا متيقظين أنه عندما يطلب منهم إعادة الدفع، يدفعون، وسيكون إرسال الجند إلى جيرانهم من دون تكاليف، وستكون هناك مساحات تفريج ومجالات للشباب الذين لم يجدوا مجالاً للقيام بحياة شريفة في البلدان التي ولدوا فيها.

وسيكون من الممكن بسهولة، بوساطة الطريقة المقترحة، تحويل أفراد الشعب المصري إلى العقيدة الكاثوليكية، وبذلك يتحررون من العبودية ويرتقون إلى الحرية، فمن خلال نشاط يوسف وبصيرته — الذي جمع الحبوب خلال سبع سنوات خصبة — كان فرعون قادراً بوساطة خزنه للحبوب، أن يضع الآباء والأبناء على أرضية متساوية، ومن ثم أنزلهم إلى مرتبة العبيد، ولهذا السبب يتسلم الناس كمية ضئيلة فقط من الأطعمة والألبسة، من بين الكميات الوافرة لمنتجات لتلك البلاد الخصبة، وقال الذين كانوا هناك بأن السلطان يتسلم من الشعب، كل سنة أكثر من ستمائة ألف دينار ذهبي، كل دينار منها يساوي قيمة ستة فلورينات.

وبعدما يجري الاستيلاء على أرض الميعاد من قبل الكاثوليك، وبعد حكمها بكفاءة من البديهي إمكانية حراسة مصر بعدد قليل من الرجال، وبنفقات معتدلة في غياب صاحبها، لأن العدو سوف يكون قادراً فقط على دخول البلاد بوساطة البحر قرب القاهرة، نظراً لحصانة القلاع في الصحراء، وحسبما جرى التبيان في الرسالة، عندما يجري إقامة السلام بين الأمراء الكاثوليك، ويتم تأمين مساعدات متبادلة ونجدات في وقتها، ما من أحد سوف يتجرأ على شن أية حرب ضدهم، وإذا ما فعل أحد ذلك، سوف يحاصر، ويرغم على الفرار بوساطة عدد كبير من الحملات من أماكن مجاورة له، وسوف يحصل ملك مصر على العون من طائفة الرهبان الملكيين ومن الأمراء الآخرين، ولسوف تتدفق عليه حشود من العساكر الجبارة من أجل الحصول على الثروة، لأنه بانعدام

الحروب في الوطن سوف يجلسون بلاعمل في أراضيهم المحلية، غير قادرين على العيش بشرف، بدون فقر، وسوف يتمكن — بعون الرب — من أن يضع تحت إشرافه الشعوب الشرقية، حتى الذين يعيشون فيما وراء البحر المتوسط حتى الغرب، وأن يجذبهم إلى العقيدة المسيحية، هذا وإن إيجاد العلماء الذين تقدم ذكرهم في الرسالة المتقدمة، سوف يكون له فائدة كبيرة في هذا المجال.

وبسبب التأثير الطيب للوئام السماوي، فإن الذين حمل بهم، وولدوا، ونشأوا في مملكة فرنسا، خاصة في أحواز باريس، سيكونون بشكل طبيعي متفوقين بالسمات، وبالشجاعة، وبالقوة، وبالأخلاق، وبالجمال، على الذين ولدوا في بلدان أخرى، وعلى هذا ينبغي بقاء ابن ملك فرنسا — الموهوب طبيعياً والمتفوق على جميع الآخرين — في فرنسا بشكل دائم، حتى يكون، قبل مماته، قد ترك عدداً كبيراً من الأولاد، من أجل تنشئتهم وتدريبهم هناك، وقبل أن يموتوا يكونوا أيضاً بدورهم قد فعلوا مثل متقدميهم، وبهذه الطريقة من الممكن حمل، وولادة، وتنشئة، وتعليم ملكي عكا ومصر، وامبراطور القسطنطينية — إذا توفرت الرغبة بوجود خلفاء للامبراطور الحالي — في فرنسا، ولسوف يحظون بشكل دائم بحصة من الأجواء الرائعة لملك فرنسا، ومن شجاعة وجمال السكان المحليين، ولسوف يحبون ملك فرنسا، وأميرها الرئيسي، وأولاده، وجميع الفرنسيين من بارونات وشعب، ولسوف يبذلون أقصى جهودهم لتأمين البضائع الشرقية الثمينة وتجهيز المملكة كلها بها، ولهذا قيل يمكن للابن أن يعود إلى السيد الأب، دون التعرض لمزيد من المخاطر، ويمكن لحفيد أن يخلف أباه في قيادة الجيش، وبناء عليه سوف تحظى شعوب الشرق بأن يكون حاكمها في ريعان شبابه وجماله الطبيعي، وسيرغبون فوق كل شيء برؤيته، ولسوف يخافون منه عندما يرون الشاب المتألق يقوم بحملة شجاعة مثل رجل بالغ تماماً.

١١ : وإذا ما قال إنسان :« ربما سيرفض ملك قبرص الأخذ بالمقترحات المتقدمة أعلاه»، يمكن إجابته بأن هذا مستبعد تماماً، بما أن ليس لديه لا زوجة ولا ولد،وهو يعيش مثل راهب في بيته، وقد اعتاد على ممارسة حياة التأمل،وأخوه وخليفته المتوقع إذا ما مات ملفوظ وليس له وصية، لأنه سرقه، ونهب الثروات التي جمعها ذلك الملك من أجل استرداد الأرض المقدسة، وقد بذل دوماً أقصى جهوده من أجل غزو تلك المملكة ومن أجل انتزاعها وسرقتها، جاعلاً بذلك نفسه آثماً، وغير مؤهل شرعياً لخلافة أخيه، فقد تآمر مراراً من أجل إماتة ذلك الملك، وحاول أن يتدبر اغتياله، وبناء عليه سوف يكون مفيداً أن يتم الاتصال بملك قبرص هذا، بسرعة وبسرية لصالح السيد البابا، بوساطة رجل عاقل مع وكيل الملك الموجود داخل هيئة الكرادلة الرومان، الذي اسمه الفارس بومندوس Bomundus الذي يدعى بونين Bonin ، وهكذا من الممكن صنع كل شيء باتفاق عام، مع تجنب كامل للخلاف، وبعد دخول الملك في الطائفة والتخلي عن ملكه، سيكون مفيداً منح أخو الملك منطقة جيدة في أرض الميعاد أو في مكان آخر، حتى يبقى هادئاً، وإذا ما رفض ملك قبرص الدخول في هذا المشروع، يمكن وقتها للملك صقلية أن يمارس حقه، أو أن يحوّله إلى إنسان آخر، أو أن يقوم كونت أوف بريين بالسعي وراء حقه الذي قيل بأنه يمتلكه في مملكة قبرص، إذا كان ما يزال موجوداً، ففي ذاكرة الناس منذ وقت طويل أن مملكة قبرص حق لهذا الكونت لو أنه ذهب إلى هناك، وبعد الاستيلاء على مملكة القدس من قبل ملكها والكاثوليك الآخرين — إن شاء الرب — وبمعونة ملك صقلية، يمكن لملك صقلية هذا، بالإضافة لنيله ثمن مملكة القدس، أن ينال وعداً بنيل مملكة تونس، القائمة على مقربة كبيرة من صقلية، إلى حد أنه لا بد لواحد من هذين البلدين من الاستيلاء على الآخر.

وبعد وضوح ردة وكفر الداوية، الأمر الذي كان ظاهراً منذ تأسيس هذه الطائفة، ولهذا يبدو أنه سيكون عملاً مشرفاً جداً، وله فوائد دائمة وعظيمة لمملكة فرنسا ولملكها — الذي برهن بنفسه وبأعماله أنه أكثر المسيحيين دعماً للكنيسة — أن يقوم بشكل شرعي وقانوني بإزالة الهرطقة الفاسقة للبابا بونيفيس، ولايمكن لخليفة بونيفيس أن يعلن بوضوح بأن بونيفيس هذا كان مهرطقاً، إلاّ من خلال مجمع عام، وبناء على نصيحة ذلك المجلس وموافقته، ويبدو أن هذا الإجراء لا يمكن اتخاذه قانونياً بطريقة أخرى، لذلك يبدومن المناسب عقد مجمع لهذه الغاية، وسيكون في الوقت نفسه مفيداً إعدادا الشهود، ومواد الشكوى التي ينبغي برهنتها، لأنه بذلك عندما يكون كل شيء قد جرى تحضيره بشكل جيد وبات جاهزاً، من الممكن التوصل إلى محصلة بكل سرعة، وسيغدو مثل هذا الظلم مرعوباً من قبل الجميع، أما المحرض على تدمير الهرطقة فسيكون محموداً في كل مكان، ومن قبل كل إنسان، ويمكن بسهولة أكبر تحقيق مطالبه، مهما كانت نوعية هذه المطالب.

وقد قيل أنه بينما كان بونيفيس المذكور يلفظ أنفاسه، كان هناك أربعة رهبان يتولون رعايته، وقد قال أحدهم له على مسمع من الآخرين: «أبانا المقدس، أودع روحك في أيدي العذراء مريم المباركة»، فأجابه: «الزم الصمت أيها الشقي، نحن لا نثق بتلك الأتان ولابفلوها».

ويحكى أنه تلقى خمسين ألف فلورين حتى يلزم الصمت تجاه خطيئة الداوية، التي كان على دراية بها، ولذلك ينبغي قبل أن يموت الداوية، أن يجري إحضارهم واتخاذهم شهود عيان على ذلك، خشية أن يختفي البرهان معهم، أي مع الذين على دراية بهذه المسألة وبمسائل أخرى.

ولأن البابا[كليمنت الخامس] يقترح الانسحاب من السيد الملك، لعله يرضي ذلك السيد الملك أن يجعل نفسه على الفور عارفاً بالحقائق المقدمة هنا، وهكذا إذا ما رأى مناسباً يمكنه أن يتحاور مع البابا

-٣٤٠٧-

ويتشاور حول هذه القضـايا، وليكن ذلك بينهما على انفراد، وعلى شكل معلن، تماشيـاً مع كلمـة ربنا يسـوع الـذي قـال:«سيروا مـا دام لكم النور»[يوحنا : ١٢ / ٣٥].

جريدة المصادر المعتمدة

List of Works Cited

I. THE WRITINGS OF PIERRE DUBOIS

[1300] *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicis expedicionis et abreviacionis guerrarum ac litium regni Francorum.*
From the Cod. Lat. No. 6222C, fols. 1–34, in the Bibliothèque nationale. Edited by Hellmut Kämpf. Leipzig and Berlin: Teubner, 1936. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' ed. W. Goetz, Vol. IV.

Summary: The first part deals with the art of war, to which the author's attention was attracted by the disastrous expedition of Philip III against Aragon in 1285. After suggesting improved war tactics, he points out the advantages of his new method to the king and people of France. By following the precedent of Charlemagne the king might make himself master of Italy, assume the temporal power now wielded by the pope, and then go on to make himself master of Germany, eastern Europe, and the Greek Empire.

The second and longer part is devoted to a discussion of various reforms. Ecclesiastical infringements on civil jurisdiction should be halted; specific suggestions are made for accomplishing this. Considerable space is devoted to improved and shorter methods of court procedure. These reforms may readily be effected by royal decree, models for which are included. Ecclesiastics are scolded for their hypocrisy; their lives are in sharp contrast to their moral preaching. If the king will only enforce the suggested reforms, the French people will enjoy peace and prosperity.

[1302] *Raciones inconvincibiles.* Lost.

Known only through a brief summary in chapter 111 of the *De recuperatione.* Written at Paris 'on the Sabbath day preceding the Sunday of the publication of the papal iniquity [the bull *Ausculta fili*],'[1] and entrusted to Richard Leneveu, bishop of Béziers, for transmission to the king.

Summary: The Supreme Judge, because of the wickedness and avarice of the Romans, will withdraw the papacy from them and grant it to a man of high character who will not emulate his predecessor (Boniface VIII) by snatching at others' liberties. For similar disobedience to divine precepts King Saul was punished by the loss of his kingdom.

[1] The bull *Ausculta fili* was dated December 5, 1301, but did not reach France for formal publication there until 1302. Its bearer, the archdeacon of Narbonne, sought to present it formally to Philip IV on February 10, but was interrupted. From this chronology of events it seems fair to assign the composition of the tract to 1302.

The title appears in the manuscript, but in another ink and another hand. Lizerand entitled it *Populi Franciae ad regem supplicatio*.[3]

Summary: A difference has arisen between the king and the pope in the matter of punishing the Templars. Certain laws have been cited in support of the papal position, but these laws apply only to those who with some show of reason are separated from the Roman Church, such as the Greeks, and not to manifest heretics. Moses followed the proper procedure when, without the consent of the high priest Aaron, he put to death twenty-two thousand for worshiping the golden calf. The king should follow his example. The Templars are all homicides, guilty of consorting with apostates and assassins; by apostolic example all should be punished so that the punishment of one may rouse fear in others. Moses was a lawgiver, not a priest, for a priest would not have put the people to death. The Lord forbade David to build the temple, because he was a man of blood. One should not listen to those who pervert Scripture for their argument; one should rather apply to the most Christian king the beatitude, 'Blessed are they that keep judgment and do justice at all times' (Ps. 105:3).

[1308] [A revised version of the *De recuperatione*.] Lost.

It was addressed to the pope and forwarded to Philip IV during his stay at Chinon. Dubois referred to it briefly in chapters 2 and 9 in the document translated as an Appendix in the present volume, and also in the *Pro facto Terre Sancte*.

Summary: Repeats the suggestions in the *De recuperatione* for the recovery and maintenance of the Holy Land, the establishment of peace among Christians, and the foundation of schools for the training of prospective colonists. The only new point is the recommendation for the unification of the military orders under the headship of the king of Cyprus.

[1308] [*Pro facto Terre Sancte*].

From the MS Lat. 10919, fol. 109*v*, in the Bibliothèque nationale. Edited

[3] There is some question about the tracts against the Templars. Langlois, in his Introduction, p. xii, refers to *three* tracts of 1308 against the Templars, citing Boutaric's article in *Notices et extraits*, XX, 175–81, as his source. But these pages contain only *two* tracts, the *Remontrance* and the *De facto Templariorum*. *Pro facto Terre Sancte* (pp. 186–89, Document No. XXX), the third tract which Boutaric attributed directly to Dubois, makes no mention of the Templars. These three tracts are found in the MS Lat. 10919. Boutaric also edited another tract of 1308 against the Templars (pp. 182–86, Document No. XXIX), which he entitled *Quaedam proposita pape a rege super facto Templariorum*. This is not found in the MS Lat. 10919, but in a manuscript which Boutaric identified as Or. Arch. de l'emp. J 413, No. 34. It purports to be a letter addressed by Philip IV to the pope, but is obviously not by Philip, for it speaks of the king in the third person, and does not close with the date and provenance as a genuine letter would. Renan (*Histoire littéraire*, XXVI, 483 f.) ascribed it to Dubois; Boutaric is noncommittal. In my opinion it is not by Dubois, despite the fact that it includes Dubois' favorite reference to *Leviathan testiculi*. The style is terse and direct, well organized, unlike the diffuse style characteristic of Dubois. I have therefore concluded to reject it.

by Boutaric in *Notices et extraits*, XX (1862), Part II, 186–89, Document No. XXX.

Written during the interregnum between the death of Emperor Albert I (May 1, 1308) and the election of Henry VII (October 28, 1308).

Summary: The king of France, with the support of the pope and the cardinals, might readily gain the Empire for himself and his heirs. The pope could suspend the power of the electors; they should be punished for having elected emperors hostile to the Church, just as the imperium was taken from Constantinople and given to Charlemagne. The archbishops can be coerced by the pope, who has the right to withdraw the elective power from the other electors; their goodwill may be secured by the grant of lands and money from the tithes of German churches. The electors would probably not refuse such terms; the new Emperor could recover any losses from Lombardy, Genoa, and Venice. This would give him a land route to the Holy Land, necessary because of the shipping shortage. The establishment of universal peace through the means suggested elsewhere by the author would make it possible for the French king to govern both France and the Empire. He ought also to take over the papal patrimony, thereby gaining suzerainty over the pope's vassals. The proud Italians would be humbled. Germany, teeming with people, would populate the Holy Land and Greece with loyal citizens. If conquered, the Holy Land can be maintained only by a large influx of people; for such an influx the land route through Germany, Hungary, and Greece is necessary.

[1308] [*Oppinio cujusdam suadentis regi Franciae ut regnum Jerosolimitanum et Cipri acquireret pro altero filiorum suorum, ac de invasione Egipti.*]

From the MS Lat. 10919, fols 82*r* to 86*r*, in the Bibliothèque nationale. First published, with an omission, by Baluze, *Vitae paparum Avenionensium* (Paris, 1693), II, 186–95, from which Langlois republished it, with further omissions, as an Appendix to the *De recuperatione*. It is given complete in Mollat's edition of Baluze (Paris, 1914–27), III, 154–62.

The title is in a fifteenth-century hand and is therefore not contemporaneous with the manuscript. The tract is translated in its complete form as an Appendix to the present volume.

[1313] *De torneamentis et justis.*

From the MS Reg. Lat. 1642, fols. 41*v* to 42*v*, in the Vatican Library. Analyzed and edited in part by C. V. Langlois, 'Un Mémoire inédit de Pierre Du Bois, 1313: *De torneamentis et justis*,' *Revue historique*, XLI (1889), 84–91.

Summary: A bull has recently been issued prohibiting tournaments under pain of excommunication. The royal family and the nobility ask for its temporary suspension. If not suspended, grave scandal will arise, for the French knights will ignore the prohibition and others will follow their example. The projected crusade will fail if led by men under

the ban. Of two evils, choose the lesser. Tournaments should be permitted, just as excessive eating is permitted on the approach of Lent. Ecclesiastical discipline should aim to chastise and heal rather than to precipitate into error; those who have concubines are not required to abjure them lest they may, at the devil's instigation, return to fornication and thus become perjurers. The Church should make exceptions; kings are not to be treated like other men. If an unbearable burden is placed on a youth's shoulders, he either drops it or breaks under the strain. The prayers of a king should be listened to, for the wrath of a king is the messenger of death. Tournaments are not *per se* illicit, and the prohibition is not founded on canon law. Tournaments prepare the knights to fight the infidel; why not reserve the privilege for prospective crusaders? Let the penalties remain in force as a caution against killing men or injuring souls. The pope need not fear to change his mind; God changed much in the New Testament which He had commanded in the Old. Even St. Paul changed his mind on circumcision of the Jews.

II. WORKS ON DUBOIS AND HIS TIMES

Adamson, John William. 'The Illiterate Anglo-Saxon' and Other Essays on Education, Medieval and Modern. New York: Macmillan, 1947.
A sprightly summary of Dubois' ideas, pp. 77–91.

Aegidius Romanus. De ecclesiastica potestate. Ed. Richard Scholz. Weimar: H. Böhlaus Nachfolger, 1929.

—— De regimine principum. Ed. Jerome Samartanius. Rome: Bartholomaeus Zannettus, 1607.
A thirteenth-century French version has been edited by Samuel P. Molenaer (New York and London: Macmillan, 1899).

Alexander de Villa-Dei. Das *Doctrinale* des Alexander de Villa-Dei. Kritisch-exegetische Ausgabe, mit Einleitung, Verzeichnis der Handschriften und Drucke nebst Registern. Ed. Dietrich Reichling. Berlin: Hofmann, 1893. 'Monumenta Germaniae paedagogica,' Vol. XII.
One of the textbooks recommended by Dubois.

Andrieu-Guitrancourt, Pierre. Eudes Rigaud et la vie de l'église au XIIIe siècle, d'après le *Registrum visitationum*. Paris: Librairie du Recueil Sirey, 1938.

Atiya, Aziz S. The Crusade in the Later Middle Ages. London: Methuen, 1938.
A significant contribution to the history of the later crusades and of the theorists who proposed new crusades.

Bacon, Roger. Opera quaedam hactenus inedita. Ed. John S. Brewer. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1859. 'Rolls Series,' No. 15.
Includes the *Opus tertium*, the *Opus minus*, and the *Compendium studii philosophiae*.

Works Cited

—— The *Opus majus* of Roger Bacon. Ed. John H. Bridges. New ed. 3 vols. London: Williams & Norgate, 1900.

Vol. III of the new edition contains a revised text of the first three parts as they appeared in the Oxford edition of 1897, with corrections, emendations, and additional notes. The English translation by Robert Belle Burke (2 vols.; Philadelphia: University of Pennsylvania Press; London: Humphrey Milford, Oxford University Press, 1928) is based on the revised text. My citations are to the edition of 1900 and to Burke's translation.

Baeumker, Clemens: *see* Siger de Brabant.

Baluze, Etienne. Vitae paparum Avenionensium; hoc est, Historia pontificum Romanorum qui in Gallia sederunt ab anno Christi MCCCV usque ad annum MCCCXCIV. Ed. Guillaume Mollat. 4 vols. Paris: Letouzey et Ané, 1914–27.

Originally published in 1693. Mollat consulted the original manuscripts, which enabled him to rectify certain errors and omissions in the original edition.

Baudouin, Adolphe: *see* Philip IV.

Beazley, Charles Raymond. The Dawn of Modern Geography: A History of Exploration and Geographical Science. 2d ed. 3 vols. London: H. Froude; Oxford: Clarendon Press, 1905–6.

Originally published in two volumes (London: J. Murray, 1897–1901). Volumes I and II of the second edition were published by Froude; Volume III was published by the Clarendon Press.

Beck, Henry J. G. 'William Hundleby's Account of the Anagni Outrage,' *Catholic Historical Review*, XXXII (1946), 190–220.

William of Hundleby served as procurator at the Roman *curia* for John Dalderby, bishop of Lincoln, 1300–20. He wrote this letter September 27, 1303. Latin text with English translation.

Berthier, André. 'Les Ecoles de langues orientales fondées au XIIIe siècle par les Dominicains en Espagne et en Afrique,' *Revue africaine*, LXIII (1932), 84–103.

Beugnot, Arthur A., Comte, ed. Les Olim, ou registres des arrêts rendus par la cour du roi sous les règnes de saint Louis, de Philippe le Hardi, de Philippe le Bel, de Louis le Hutin, et de Philippe le Long. 3 vols. Paris: Imprimerie royale, 1839–48. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 65.

Bientinesi, Giuseppina. 'Vincenzo di Beauvais e Pietro Dubois considerati come pedagogisti,' *Atti della reale accademia delle scienze di Torino*, LI (1915–16), 1411–30; LII (1916), 191–207.

Bigwood, Georges. 'La Politique de la laine en France sous les règnes de Philippe le Bel et de ses fils,' *Revue belge de philologie et d'histoire*, Brussels, XV (1936), 79–102, 429–57; XVI (1937), 95–129.

A thorough study of export dues, a chapter in the financial history of the reign of Philip IV.

Works Cited

Boase, Thomas S. R. Boniface VIII. London: Constable, [1933]. 'Makers of the Middle Ages.'

Bongars, Jacques. Gesta Dei per Francos sive orientalium expeditionum et regni Francorum Hierosolimitani historia, a variis, sed illius aeui, scriptoribus, litteris commendata. 2 vols. in 1. Hanover: John Aubrius, 1611.

Although almost wholly superseded by the magnificent *Recueil des historiens des croisades*, there are still a few writers whose works are not available in any edition later than that of Bongars. Copy in the New York Public Library.

Borrelli de Serres, Léon. Les Variations monétaires sous Philippe le Bel et les sources de leur histoire. Paris: Picard, 1902.

Boutaric, Edgard Paul. La France sous Philippe le Bel: étude sur les institutions politiques et administratives du moyen âge. Paris: H. Plon, 1861.

—— 'Les Idées modernes chez un politique du XIVe siècle: Pierre Du Bois,' *Revue contemporaine*, sér. 2, XXXVIII (1864), 417–47. (Whole number, Vol. LXXIII.)

A reprint of his paper read before the Académie des inscriptions et belles-lettres on February 5, March 4 and 11, 1864, which appeared under a different title in the Academy's *Comptes rendus*, VIII (1864), 84–106. Dubois' ideas are discussed in the light of contemporary events in Italy and the Near East.

—— Institutions militaires de la France avant les armées permanentes, suivies d'un aperçu des principaux changements survenus jusqu'à nos jours dans la formation de l'armée. Paris: H. Plon, 1863.

—— 'Mémoire sur la vie, les œuvres et les doctrines politiques de Pierre Dubois, légiste du quatorzième siècle,' *Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, VIII (1864), 84–106.

An analysis, with historical background, of the *De recuperatione*.

—— 'Notices et extraits de documents inédits relatifs à l'histoire de France sous Philippe le Bel,' *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale et autres bibliothèques*, XX (1862), Part II, 83–237.

Includes the earliest, and sometimes the only, edition of certain minor pamphlets by Dubois.

Brandt, Walther I. 'Pierre Dubois: Modern or Medieval?,' *American Historical Review*, XXXV (1930), 507–21.

Contends that nearly all of Dubois' ideas may be found in the writings of his contemporaries or near predecessors.

Bréhier, Louis. L'Eglise et l'Orient âu moyen âge: les croisades. 4th ed. Paris: Lecoffre, 1921. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'

Useful for an account of the later crusading efforts. The edition of 1928 was not available.

Brocard. Directorium ad passagium faciendum per Philippum [VI]

Works Cited

regem Franciae in Terram sanctam anno 1332. Ed. Kohler, in *Recueil des historiens des croisades, documents arméniens*, II, 367–517.
Callery, Alphonse. 'Les Premiers États Généraux: origine, pouvoirs et attributions,' *Revue des questions historiques*, XXIX (1881), 62–119.
Holds that summoning the estates was a recognition of feudalism, not a denial of it.
Capitanovici, Georgius J. Die Eroberung von Alexandria durch Peter I von Lusignan, König von Cypern, 1365. Berlin: R. Heinrich, 1894.
Carlyle, Sir Robert W., and Alexander J. Carlyle. A History of Mediaeval Political Theory in the West. 6 vols. Edinburgh and London: Blackwood & Sons, 1903–36.
Carter, Thomas F. The Invention of Printing in China and Its Spread Westward. Rev. ed. New York: Columbia University Press, 1931.
Cato. The Distichs of Cato: A Famous Medieval Textbook. Translated from the Latin by Wayland W. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1922. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 7.
One of the textbooks recommended by Dubois.
Chartularium universitatis Parisiensis. Ed. H. Denifle and E. Chatelain. 4 vols. Paris: Delalain, 1889–97.
The standard collection of source material on the medieval University of Paris.
Chénon, Emile. Histoire générale du droit français public et privé, des origines à 1815. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1926–29.
Relies heavily upon the earlier work of Tardif.
Christensen, Heinrich. Das *Alexanderlied* Walters von Châtillon. Halle: Buchhandlung des Waisenhauses, 1905.
Chronicles and Memorials of the Reign of Richard I. Ed. John S. Brewer. 2 vols. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1864–65. 'Rolls Series,' No. 38.
Chronicles of the Crusades, Being Contemporary Narratives of the Crusades of Richard Cœur de Lion, by Richard of Devizes and Geoffrey de Vinsauf, and of the Crusade of St. Louis, by Lord John de Joinville. London: H. G. Bohn, 1848.
Colonna, Egidio: *see* Aegidius Romanus.
Corpus chronicorum Flandriae. Ed. J. J. de Smet. 4 vols. Brussels: M. Hayez, 1837–65. 'Collection de chroniques belges inédites,' ed. J. H. Borgnet *et al.*, No. 3.
Corpus juris canonici. Editio Lipsiensis secunda post Aemilii Ludouici Richteri curas ad librorum manu scriptorum et editionis Romanae fidem. Ed. Aemilius Friedberg. 2 vols. Leipzig: Tauchnitz, 1879–81.
My citations are from the 1928 reprint.
Corpus juris civilis. Ed. P. Krüger, T. Mommsen, *et al.* 3 vols. Berlin: Weidmann, 1872–95.
This standard edition of Roman civil law comprises the *Institutiones*,

the *Digesta*, the *Codex*, and the *Novellae*. It has frequently been reissued in whole or in part.

Coulton, George G. Five Centuries of Religion. 4 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1923–50.

Crowley, Theodore. Roger Bacon: The Problem of the Soul in His Philosophical Commentaries. Louvain: Institut supérieure de philosophie, 1950.

Written in 1939. See especially chap. i, 'Roger Bacon's Life and Works,' pp. 17–78.

Curley, Sister Mary Mildred. The Conflict Between Pope Boniface VIII and King Philip IV, the Fair. Washington, D.C.: Catholic University of America, 1927.

A useful feature is the English translation of a number of documents not otherwise readily accessible.

Delaville le Roulx, Joseph M. La France en Orient au XIVe siècle: expéditions du maréchal Boucicaut. 2 vols. Paris: E. Thorin, 1886. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' fasc. 44–45.

Valuable for the later crusading movement. Based in part on manuscript materials as yet unedited.

Delhaye, Philippe: *see* Siger de Brabant.

Delisle, Léopold Victor. 'Le Clergé normand au XIIIe siècle, d'après le *Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis*; Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen, 1248–1269,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 479–99. (Whole number, Vol VIII.)

—— 'Mémoire sur les opérations financières des Templiers,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXXIII (1889), Part II, 1–246.

Pages 95–246 comprise documents, with brief explanatory notes. Sets forth the important role played by the order in the public finances of France in the thirteenth century.

Della Vigna, Piero: *see* Piero della Vigna.

Devic, Claude, and Jean J. Vaissete. Histoire générale de Languedoc. Ed. Edouard Dulaurier *et al.* 16 vols. Toulouse: E. Privat, 1872–1904.

Digard, Georges A. L. Philippe le Bel et le Saint-Siège de 1285 à 1304. Ouvrage posthume publié par Françoise Lehoux. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1936.

Sums up the results of a generation of research.

Documents historiques inédits tirés des collections manuscrits de la Bibliothèque royale et des archives ou des bibliothèques des départements. Ed. [J. J.] Champollion-Figeac *et al.* 4 vols. Paris: Firmin Didot frères, 1841–48. 'Collection de documents inédits publiés par ordre du roi et par les soins du ministre de l'instruction publique. Mélanges historiques.'

Donatus. The *Ars minor* of Donatus: For One Thousand Years the Leading

Works Cited

Textbook of Grammar. Translated from the Latin by Wayland J. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1926. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 11.
One of the textbooks recommmended by Dubois.

Dupuy, Pierre. Histoire de la condamnation des Templiers, celle du schisme des papes tenans le siège en Avignon et quelques procès criminels. Ed. M. Gurtler. 2 vols. Brussels: Foppens, 1713.
Copy in the Library of Congress.

[——]. Histoire du différend d'entre le pape Boniface VIII et Philippes [*sic*] le Bel, roy de France, où l'on voit ce qui passa touchant cette affaire, depuis l'an 1296 iusques en l'an 1311 sous les pontificats de Boniface VIII, Benoist XI & Clement V; ensemble le proces criminel fait a Bernard evesque de Pamiez l'an MCCXCV; le tout iustifié par les Actes et mémoires pris sur les originaux qui sont au Tresor des chartes du Roy. Paris: Sebastien Cramoisy, 1655.
This compilation is not readily accessible, but it is nevertheless indispensable for a study of the period. It includes the only edition of two of Dubois' pamphlets. The pagination is confusing. It begins with a narrative account of the affair in French and in Latin, each paged separately. This is followed by an elaborate table of contents, of ten unnumbered pages. The all-important Actes et preuves' begins with a third separate numbering, which extends through the sources for Boniface VIII, Benedict XI, and Clement V, and continues unbroken through the sources for the trial of Bishop Guichard and the *Quaestio de potestate papae*, at one time attributed to Dubois. It is generally catalogued under 'Dupuy,' although his name does not appear on the title page. Copy in the Harvard Library.

—— Traitéz concernant l'histoire de France; sçavoir la condamnation des Templiers, avec quelques actes; l'histoire du schisme; les papes tenans le siège en Avignon; et quelques procez criminels. Paris: Dupuy, 1654.
Copy in the New York Public Library.

Duval, Frédéric Victor. De la paix de dieu à la paix de fer. Paris: Paillard, 1923. 'Gesta pacis. Etudes historiques sur la question de la paix.'

Easton, Stewart C. Roger Bacon and His Search for a Universal Science: A Reconsideration of the Life and Work of Roger Bacon in the Light of His Own Stated Purposes. Oxford: Basil Blackwell; New York: Columbia University Press, 1952.

Eberhard of Béthune. Eberhardi Bethuniensis Graecismus. Ad fidem librorum manu scriptorum recensuit lectionum uarietatem adiecit indices locupletissimos et imaginem codicis Melicer sis photolithographicam. Ed. Joh. Wrobel. Breslau: Koebner, 1887. 'Corpus grammaticorum medii aeui,' Vol. I (no more published).
One of the textbooks recommended by Dubois. Copy in the Columbia University Library.

Works Cited

Ehrle, Franz. 'Ein Bruchstück der Acten des Concils von Vienne,' *Archiv für Literatur- und Kirchengeschichte des Mittelalters*, hrsg. von H. Denifle und F. Ehrle, IV (1888), 361–470.

Includes a number of pertinent documents illustrating the jurisdictional strife between the secular and ecclesiastical authorities.

Esmein, Adhémar. A History of Continental Legal Criminal Procedure, With Special Reference to France. Trans. John Simpson. Boston: Little, Brown, 1913. 'Continental Legal History Series,' [Vol. V].

—— Le Mariage en droit canonique. Ed. Robert Génestal and Jean Dauvillier. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1929–35.

Originally published in 1891.

Fawtier, Robert. 'L'Attentat d'Anagni,' *Mélanges d'archéologie et d'histoire* (Ecole française de Rome), LX (1948), 153–79.

Contends that Nogaret was not responsible for the violence at Anagni. Fawtier's position is challenged by M. Melville, 'Guillaume de Nogaret et Philippe le Bel.'

—— Les Capétiens et la France: leur rôle dans sa construction. Paris: Presses universitaires de France, 1942.

—— L'Europe occidentale de 1270 à 1380: première partie, de 1270 à 1328. Paris: Presses universitaires de France, 1940. 'Histoire générale, publ. G. Glotz; Histoire du moyen âge,' Vol. VI, No. 1.

Integrates English, French, and Spanish history. Criticizes the chief theories as to the origins of national assemblies. Contends that Philip himself was the directing force in French policy, that Philip actually considered Boniface VIII to be a usurper, and that the Templars were guilty as charged.

Figgis, John N. 'A Forgotten Radical [Pierre Dubois],' *Cambridge Review*, XXI (1900), 373–74.

Finke, Heinrich. Acta Aragonensia: Quellen zur deutschen, italienischen, französischen, spanischen, zur Kirchen- und Kulturgeschichte, aus der diplomatischen Korrespondenz Jaymes II, 1291–1327. 3 vols. Berlin: W. Rothschild, 1908–22.

An invaluable collection of documents, mostly from the archives of Barcelona. Vols. I and II are paged continuously, Vol. III separately.

—— Aus den Tagen Bonifaz VIII: Funde und Forschungen. Münster: Aschendorff, 1902. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. II.

Useful for the number of documents printed in full.

—— Die Frau im Mittelalter; mit einem Kapitel, 'Die heiligen Frauen im Mittelalter,' von Dr. Lenné. Kempten: J. Kösel, 1913.

—— Papsttum und Untergang des Templerordens. 2 vols. Münster: Aschendorff, 1907.

Hans Prutz took issue with some of Finke's conclusions, and a lively

literary controversy ensued. Bibliography in E. Zeck, *Der Publizist Pierre Dubois*, pp. xi–xvi.

—— 'Die Stellung der Frau in Mittelalter,' *Internationale Wochenschrift für Wissenschaft, Kunst und Technik*, IV (1910), 1243–58, 1285–1302.

Based on lectures delivered by the author in Freiburg-im-Breisgau during the winter of 1909–10.

—— 'Zur Charakteristik Philipps des Schönen,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXVI (1905), 201–24.

Fliche, Augustin. Etudes sur la polémique religieuse à l'époque de Grégoire VII: les prégrégoriens. Paris: Société française d'imprimerie et de librairie, 1916.

Fournier, Paul. 'Guillaume du Breuil, juriste.' In *Histoire littéraire*, XXXVII (1938), 120–46.

—— Le Royaume d'Arles et de Vienne (1138–1378): étude sur la formation territoriale de la France dans l'est et le sud-est. Paris: Picard, 1891.

Funck-Brentano, Frantz. 'Mémoire sur la bataille de Courtrai (1302, 11 Juillet) et les chroniqueurs qui en ont traité, pour servir à l'historiographie du règne de Philippe le Bel,' *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des inscriptions et belles-lettres de l'Institut de France*, sér. 1, X (1893), 235–325.

—— Les Origines de la guerre de cent ans: Philippe le Bel en Flandre. Paris: Champion, 1897.

Extensive bibliography, pp. xi–xxii.

Funke, Paul. Papst Benedikt XI. Münster: H. Schöningh, 1891. 'Kirchengeschichtliche Studien,' hrsg. von Knöpfler *et al.*, Vol. I.

Gautier de Châtillon. Alexandreis. Ed. Friedrich A. W. Müldener. Leipzig: Teubner, 1863.

An older edition is reprinted in Migne, *Pat. Lat.*, CCIX, 463–572. From this poem Dubois derived much of his knowledge of ancient history.

Gewirth, Alan. Marsilius of Padua: The Defender of Peace. Vol. I. New York: Columbia University Press, 1951. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XLVI.

A detailed analysis of Marsilius' ideas in the light of medieval philosophy; a supplementary volume will comprise the translation of the *Defensor pacis*.

Gilles de Rome: *see* Aegidius Romanus.

Giordano, Carlo. *Alexandreis*, poema di Gauthier de Châtillon. Naples: Federico & Ardia, 1917.

Gmelin, Julius. Schuld oder Unschuld des Tempelordens. Kritischer Versuch zur Lösung der Frage. Stuttgart: Kohlhammer, 1893.

Goldast, Melchior, ed. Monarchia s. Romani imperii. 3 vols. Hanover and Frankfort: Conrad Biermann, 1611–14.

This excessively rare publication is still the only source for editions

of a number of treatises illustrative of late medieval political thought. Copy in the Columbia University Library.

Gottron, Adam. Ramon Lulls Kreuzzugsideen. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1912. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXIX.

Grabmann, Martin. 'Neu aufgefundene *Quaestionen* Sigers von Brabant zu den Werken des Aristoteles (Clm. 9559).' In *Miscellanea Francesco Cardinale Ehrle*, I, 103–47.

—— 'Neu aufgefundene Werke des Siger von Brabant und Boetius von Dacien,' *Sitzungsberichte der bayerischen Akademie der Wissenschaften, philosophisch-philologische und historische Klasse*,' Jahrgang 1924, Part II, 1–48.

Graefe, Friedrich. Die Publizistik in der letzten Epoche Kaiser Friedrichs II: ein Beitrag zur Geschichte der Jahre 1239–1250. Heidelberg: C. Winter, 1909. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXIV.

Grauert, Hermann. 'Aus der kirchenpolitischen Traktatenliteratur des 14. Jahrhunderts,' *Historisches Jahrbuch*, XXIX (1908), 497–536.

A detailed discussion of the anonymous *Tractatus de iurisdictione imperatoris et imperii*, also known as *Determinatio compendiosa de iurisdictione imperii*.

—— 'Dante und die Idee des Weltfriedens,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 112–38.

Originally a 'Festrede' delivered before the Academy on December 14, 1907. Also issued separately in revised form: Munich: K. b. Akademie der Wissenschaften, 1909.

—— [A lengthy critical review of Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historisches Jahrbuch*, XII (1891), 807–15.

Grosseteste, Robert. Roberti Grosseteste episcopi quondam Lincolniensis epistolae. Ed. Henry R. Luard. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1861. 'Rolls Series,' No. 25.

Grundmann, Herbert. Alexander von Roes, *De translatione imperii*, und Jordanus von Osnabrück, *De prerogativa Romani imperii*. Leipzig: Teubner, 1930. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' Ed. W. Goetz, Vol. II.

Jordanus von Osnabrück expressed a German patriotism quite as blatant as the French chauvinism of Dubois.

Gualterus ab Insulis: *see* Gautier de Châtillon.

Guilhiermoz, Paul E. 'De la persistance du caractère oral dans la procédure civile française,' *Nouvelle revue historique du droit français et étranger*, XIII (1889), 21–65.

—— Enquêtes et procès: étude sur la procédure et le fonctionnement du Parlement au XIVe siècle. Paris: Picard, 1892.

Guillaume le Maire. Livre de Guillaume le Maire. Ed. Célestin Port. In *Mélanges historiques*, II, 189–537. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 52.

Works Cited

Guillaume le Maire, bishop of Angers, died in 1314. The volume includes his *De reformandis in ecclesia.*

Guillaume de Nangis. Chronicon, et continuator prior. In *Recueil des historiens des Gaules et de la France*, ed. Bouquet, XX, 544–646.

Habel, Edwin. 'Johannes de Garlandia, ein Schulmann des 13. Jahrhunderts,' *Mitteilungen der Gesellschaft für deutsche Erziehungs- und Schulgeschichte*, XIX (1909), 1–34, 118–30.

Haller, Johannes. Papsttum und Kirchenreform: vier Kapitel zur Geschichte des ausgehenden Mittelalters. Berlin: Weidmann, 1903.
Planned as a longer work, but only Vol. I appeared.

Hamilton, George L. 'Theodulus, a Medieval Textbook,' *Modern Philology*, VII (1910), 169–85.

Haskins, Charles H. Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge: Harvard University Press, 1924.

Hauréau, Jean B. '*De recuperatione Terrae Sanctae:* traité de politique générale par Pierre Dubois, publié par Ch. V. Langlois, 1891,' *Journal des savants*, 1894, 117–23.
A lengthy review of Langlois' edition of the *De recuperatione.*

—— 'Richard Leneveu, évêque de Béziers.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 539–51.

Hearnshaw, Fossey J. C.: *see* Power, Eileen.

Heber, Max. Gutachten und Reformvorschläge für das Vienner Generalconcil, 1311–1312. Leipzig: Fischer & Wittig, 1896.

Hefele, Karl Joseph von. Conciliengeschichte: nach den Quellen bearbeitet. 2d ed. 9 vols. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1873–90. Vols V and VI edited by A. Knöpfler; Vols. VIII and IX by Cardinal Hergenröther.

Heidelberger, Franz. Kreuzzugsversuche um die Wende des 13. Jahrhunderts. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1911. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXI.

Henri d'Andeli. Battle of the Seven Arts. Ed. and trans. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1914. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 1.
This thirteenth-century trouvère lists a number of the textbooks which Dubois recommended for his 'modern' curriculum.

Henry, Abel. 'Guillaume de Plaisians, ministre de Philippe le Bel,' *Moyen Age*, V (1892), 32–38.

Hervieu, Henri. Recherches sur les premiers états généraux et les assemblées représentatives pendant la première moitié du XIVe siècle. Paris: Thorin, 1879.

Heyck, Eduard. 'Moderne Gedanken im Mittelalter,' *Die Grenzboten*, LI (1892), Part II, 18–27.
A popular and superficial analysis of the *De recuperatione.*

Heyd, Wilhelm von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Edition française refondue et considérablement augmentée par l'au-

teur, publiée sous le patronage de la Société de l'Orient latin, par Fourcy Raynaud. 2 vols. Leipzig: Harrassowitz, 1885–86.
Reprinted in 1923.

Hill, Sir George: A History of Cyprus. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1948.

Histoire littéraire de la France. Paris: Imprimerie nationale, 1733—.
Vol. XXXVIII appeared in 1949. Title and imprint vary.

Höfler, Constantin R. von, 'Die romanische Welt und ihr Verhältnis zu den Reformideen des Mittelalters,' *Sitzungsberichte der kaiserlichen [Wiener] Akademie der Wissenschaften, philosophisch-historische Klasse* XCI (1878), 257–538.
A brief summary of Dubois' ideas, pp. 318–22.

Holtzmann, Robert. Französische Verfassungsgeschichte von der Mitte des neunten Jahrhunderts bis zur Revolution. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1910. 'Handbuch der mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. III.

—— 'Philipp der Schöne von Frankreich und die Bulle *Ausculta fili*,' *Deutsche Zeitschrift für Geschichtswissenschaft*, Neue Folge, II (1897), 16–38.
Contends that the bull was publicly burned.

—— Wilhelm von Nogaret: Rat und Grosssiegelbewahrer Philipps des Schönen von Frankreich. Freiburg-im-Breisgau: J. C. B. Mohr, 1898.
A detailed and well documented account of the part played by Nogaret in his royal master's struggle with the papacy.

Huberti, Ludwig. Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden. Ansbach: C. Brügel & Sohn, 1892.
One of the best treatments of the general subject.

Humbertus de Romanis: *see* Michel, Karl.

Jacobus de Voragine. The Golden Legend of Jacobus de Voragine. Trans. and adapted from the Latin by Granger Ryan and Helmut Ripperger. 2 vols. New York and London: Longmans, Green, 1941.
This late thirteenth-century author was recommended by Dubois for study in his proposed schools.

Jarrett, Bede. Social Theories of the Middle Ages, 1200–1500. London: Benn, 1926. 'The Library of European Political Thought,' ed. Harold J. Laski.
Reprint: Westminster, Md.: Newman Book Shop, 1942.

John of Garland. *Morale scolarium* of John of Garland (Johannes de Garlandia), a Professor in the Universities of Paris and Toulouse in the Thirteenth Century. Ed. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1927. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 2.
Includes a prose paraphrase in English, which is virtually a translation. The Introduction and wealth of footnotes provide much information about schools and textbooks of the thirteenth century.

Works Cited

John of Paris. Tractatus de potestate regia et papali: Interdum contingit. In M. Goldast, ed., *Monarchia s. Romani imperii*, II, 108–47.
Brief selections from this pamphlet by a contemporary of Dubois are translated in Carlyle, *Mediaeval Political Theory*, V, 428*n*, 434*n*.

Jordanus von Osnabrück. 'Des Jordanus von Osnabrück Buch [*De prerogativa Romani imperii*] über das römische Reich, herausgegeben von G. Waitz,' *Abhandlungen der königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, historisch-philologischen Klasse*, XIV (1869), 1–91.
Text and Introduction.

Jourdain, Charles. 'Un Collège oriental à Paris au treizième siècle,' *Revue des sociétés savantes des départements*, sér. 2, VI (1861), 66–73.

—— 'Mémoire sur les commencements de la marine militaire sous Philippe le Bel,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXX (1881), Part I, 377–418.

—— 'Mémoire sur l'éducation des femmes au moyen âge,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXVIII (1874), 79–133.
Reprinted in his *Excursions historiques et philosophiques à travers le moyen âge* (Paris, 1888), pp. 463–509.

Kämpf, Hellmut. Pierre Dubois und die geistigen Grundlagen des französischen Nationalbewusstseins um 1300. Leipzig: Teubner, 1935. 'Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' hrsg. von W. Goetz, Vol. LIV.
The title is a misnomer. Actually, it is a study of the rise of French national consciousness, illustrated by numerous citations from contemporary writers, among them Dubois.

Keil, Heinrich G. T.: *see* Priscian.

Kelsen, Hans. Die Staatslehre des Dante Alighieri. Vienna and Leipzig: F. Deuticke, 1905. 'Wiener staatswissenschaftliche Studien,' Vol. VI, No. 3.

Kern, Fritz, ed. Acta Imperii, Angliae et Franciae ab anno 1267 ad annum 1313: Dokumente vornehmlich zur Geschichte der auswärtigen Beziehungen Deutschlands, in ausländischen Archiven gesammelt. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.

—— Die Anfänge der französischen Ausdehnungspolitik bis zum Jahr 1308. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.

—— Grundlagen der französischen Ausdehnungspolitik. Leipzig: Hirschfeld, 1910.

Kervyn de Lettenhove, Joseph B. M. C. 'Etudes sur l'histoire du XIIIe siècle,' *Mémoires de l'Académie royale des sciences, des lettres et des beaux-arts de Belgique, classe des lettres*, XXVIII (1854), 1–105.
A lengthy footnote on p. 84 comprises the text of the false bull *Quia nonnulli*, in which Boniface VIII is supposed to have abolished the principle of clerical celibacy.

—— Histoire de Flandre. 6 vols. Brussels: Vandale, 1847–50.
There is a fifth edition: 4 vols. Bruges: Ch. Beyaert, 1898.

Works Cited

Memoirs of the Crusades, by Villehardouin and Joinville. Trans. Sir Frank Marzials. London and Toronto: J. M. Dent; New York: E. P. Dutton, 1908. 'Everyman's Library,' No. 333.

Merriman, Roger Bigelow. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New. 4 vols. New York: Macmillan, 1918–34.

Meulen, Jacob ter. Der Gedanke der internationalen Organisation in seiner Entwicklung. 2 vols. in 3. The Hague: Nijhoff, 1917–40.
I, 101–07 on Dubois. Cites a few passages of the *De recuperatione* in German translation.

Meyer, Emil H. Die staats- und völkerrechtlichen Ideen von Peter Dubois. Marburg: Adolf Ebel, 1908. 'Arbeiten aus dem juristisch-staatswissenschaftlichen Seminar der königlichen Universität Marburg,' hrsg. von Walter Schücking, Vol VII.
Despite its title, of minor importance.

Meyer, Hermann. Lupold von Bebenburg; Studien zu seinen Schriften: ein Beitrag zur Geschichte der staatsrechtlichen und kirchenpolitischen Ideen und Publizistik im 14. Jahrhundert. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1909. 'Studien und Darstellungen aus dem Gebiet der Geschichte,' Vol. VII, Nos. 1, 2.

—— Textkritische Studien zu den Schriften von Lupold von Bebenburg. Munich and Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1908.
Lupold von Bebenburg was a doctor of canon law, who became bishop of Bebenburg in 1353; died 1363.

MGH: *see* Monumenta Germaniae historica.

Michel, Karl. Das *Opus tripartitum* des Humbertus de Romanis, O.P.: Beitrag zur Geschichte d. Kreuzzugsidee und d. kirchliche Unionsbewegung. 2d ed. Graz: Universitätsbuchdruckerei, 1926.
This is the *Libellus* written for the use of the council of Lyons (1274).

Migne, J. P., ed. Patrologiae cursus completus. Series latina. 221 vols. Paris: J. P. Migne, 1844–64. Cited as Migne, *Pat. Lat.*

Mirbt, Carl. Die Publizistik im Zeitalter Gregors VII. Leipzig: Hinrichs, 1894.
One of the earliest studies of pamphleteering during the Middle Ages.

Miscellanea Francesco Ehrle: scritti di storia e paleografia pubblicati sotto gli auspici di S. S. Pio XI in occasione dell'ottantesimo natalizio dell' e.mo Cardinale Francesco Ehrle. 5 vols. Rome: Biblioteca apostolica Vaticana, 1924.

Möller, Richard. Ludwig der Bayer und die Kurie im Kampf um das Reich; Forschungen. Berlin: E. Ebering, 1914. 'Historische Studien,' Vol. CXVI.

Mohler, Ludwig. Die Kardinäle Jacob und Peter Colonna: ein Beitrag zur Geschichte des Zeitalter Bonifaz' VIII. Paderborn: F. Schöningh, 1914. 'Quellen und Forschungen aus dem Gebiete der Geschichte,' Vol. XVII.

Works Cited

Mollat, Guillaume. 'Guichard de Troyes et les révélations de la sorcière de Bourdenay,' *Moyen Age*, sér. 2, XII (1908), 310–16 (whole number, Vol. XXI).

—— Les Papes d'Avignon, 1305–1379. 2d ed. Paris: Lecoffre, 1912. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'
A ninth edition appeared in 1950.

Monumenta Germaniae historica. Deutsche Chroniken, 1877—; Leges, 1835—; Scriptores, 1826—; Scriptores rerum Germanicarum, nova series, 1922—.

Moranvillé, Henri. 'Les Projets de Charles de Valois sur l'empire de Constantinople,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, LI (1890), 63–86.
A group of documents bearing on the subject.

Moser, Max. 'Der Brief *Realis est veritas* aus dem Jahre 1304,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXIX (1908), 64–87.
Material on Richard Leneveu, pp. 84–87.

Müller, Eugen. Beiträge zur Kenntnis der öffentlichen Meinung während des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1912.
Part of his longer work on Peter of Prezza, below.

—— Peter von Prezza, ein Publizist der Zeit des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1913. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXVII.

Müller, Ewald. Das Konzil von Vienne, 1311–1312: seine Quellen und seine Geschichte. Münster: Aschendorff, 1934. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. XII.

Müller, Karl. [Review of Francesco Scaduto, *Stato e chiesa negli scritti politici dalla fine della lotta per le investiture sino alla morte di Ludovico il Bavaro, 1122–1347*, and of Baldassare Labanca, *Marsilio da Padova*], *Göttingische gelehrte Anzeigen*, 1883, Part II, 901–26.
Discusses the authorship of certain pamphlets attributed to Dubois.

Mullally, Joseph P.; *see* Peter of Spain.

Neumann, Wilhelm A. Ueber die orientalischen Sprachstudien seit dem 13. Jahrhunderte, mit besonderer Rücksicht auf Wien. Vienna: A. Hölder, 1899.

Norden, Walter. Das Papsttum und Byzanz: die Trennung der beiden Mächte und das Problem ihrer Wiedervereinigung bis zum Untergange des byzantinischen Reichs, 1453. Berlin: B. Behr, 1903.

Notices et extraits des manuscrits: *see* Boutaric.

Oman, Charles W. C. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. Boston: Houghton Mifflin, 1924.

Palestine Pilgrims Text Society. The Library. 13 vols. London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897 [1890–97].
English translations of accounts by western travelers to Palestine during the Middle Ages.

Works Cited

Pasolini, Pier Desiderio. I tiranni di Romagna e i papi nel medio evo. Imola: Galeati, 1888.
Peers, Edgar Allison, trans. A Life of Ramón Lull, Written by an Unknown Hand About 1311. Translated from the Catalan with Notes and an Appendix. London: Burns, Oates & Washbourne, [1927].
—— Ramon Lull: A Biography. London: Society for the Promotion of Christian Knowledge, 1929.
Peter of Spain [Pope John XXI]. The *Summulae logicales* of Peter of Spain. Ed. J. P. Mullally. Notre Dame, Ind.: University of Notre Dame, 1945. 'Publications in Mediaeval Studies,' Vol. VIII.
Edition and translation of the seventh and final tract.
Petit, Joseph. Charles de Valois (1270–1325). Paris: Picard, 1900.
Philip IV (the Fair). Lettres inédites de Philippe le Bel. Publiées par l'Académie des sciences, inscriptions et belles-lettres de Toulouse. Ed. Adolphe Baudouin. Paris: Champion, 1887.
Picot, Georges M. R., ed. Documents relatifs aux états généraux et assemblées réunis sous Philippe le Bel. Paris: Imprimerie nationale, 1901, 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 35.
Piero della Vigna. Petri de Vineis judicis aulici et cancellarii Friderici II imperatoris epistolarum, quibus res gestae ejusdem imperatoris aliaque multa ad historiam ac jurisprudentiam spectantia continentur libri VI. Ed. Joh. Rudolphus Iselius. 2 vols. Basle: Joh. Christ, 1740.
This collection of letters left by the chancellor of Frederick II was available in the French royal archives in Dubois' day, and may possibly have offered hints to Philip's propagandists. Copy in the Columbia University Library.
Pirenne, Henri. 'La Version flamande et la version française de la bataille de Courtrai,' *Bulletins de la Commission royale d'histoire de Belgique*, sér. 4, XVII (1890), Part I, 11–50.
Also printed separately. Brussels: Hayez, 1890.
Poole, Reginald Lane. Illustrations of the History of Mediaeval Thought. 2d ed. New York: Macmillan, 1920.
First published in 1884.
Portable Medieval Reader, The. Ed. James B. Ross and Mary M. McLaughlin. New York: Viking Press, 1949.
Includes English translation of chapters 1–4, 13, 27, 101, 104–07, 111, of the *De recuperatione*. Confuses Edward I with Philip IV by ignoring the fact that the work is in two parts.
Potthast, August, ed. Regesta pontificum Romanorum inde ab anno post Christum natum 1198 ad annum 1304. 2 vols. Berlin: R. de Decker, 1874–75.
Power, Eileen. 'Pierre Du Bois and the Domination of France.' In F. J. C. Hearnshaw, ed., *The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers* (London: G. Harrap, 1923), pp. 139–66.

Works Cited

An otherwise excellent essay, marred by the contention that Dubois' ideas were 'modern' and not in harmony with his age.
Powicke, Frederick M. 'Pierre Dubois, a Medieval Radical.' In Thomas F. Tout and James Tait, eds., *Historical Essays* (Manchester: Manchester University Press, 1907), pp. 169–91.
An excellent essay, conceding that many of Dubois' ideas were not original with him.
Priscian. Institutiones grammaticae. In H. Keil, ed., *Grammatici latini* (Leipzig: Teubner, 1857–80), Vols. II and III.
Prutz, Hans Georg. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin: G. Grote, 1888.
—— Die geistlichen Ritterorden: ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin: Mittler & Sohn, 1908.
—— 'Zur Genesis des Templerprozesses,' *Sitzungsberichte der Bayerische Akademie der Wissenschaften zu München, Philosophisch-philologischen und der historischen Klasse*, [XXIV] Jahrgang 1907, 5–67.
Raoul Glaber: *see* Rodulphus Glaber.
Rashdall, Hastings. The Universities of Europe in the Middle Ages. Ed. F. M. Powicke and A. B. Emden. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, 1936.
Originally published in 1895. Powicke and Emden preserved the original organization, making their revisions and corrections principally by means of footnotes.
Recueil des historiens des croisades. Documents arméniens. 2 vols. in 3. Paris: Imprimerie impériale, 1869–1906.
Recueil des historiens des Gaules et de la France. Ed. Dom Martin Bouquet *et al.* 24 vols. Paris: Aux dépens des librairies associés, 1738–1904.
Some volumes have been reprinted from time to time. Publisher varies. The work is sometimes cited by its Latin title, *Rerum Gallicarum et Francicarum scriptores.*
Registres de Boniface VIII, Les: Recueil des bulles de ce pape publiées ou analysées d'après les manuscrits originaux des Archives du Vatican. Ed. Georges Digard *et al.* 4 vols. Paris: Boccard, 1904–39. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' 2 sér., Vol. IV.
Issued in 16 fascicles. Fasc. No. 1 of Vol. I was issued in 1884. Publisher varies.
Reinach, Salomon. 'L'Enigme de Siger,' *Revue historique*, CLI (1926), 34–46.
Renan, Ernest. 'De divers pièces relatives aux différends de Philippe le Bel avec la papauté.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 371–81.
Some of this material is on Pierre Flotte.
—— Etudes sur la politique religieuse du règne de Philippe le Bel. Paris: C. Lévy, 1899.

Works Cited

A reprint of the author's articles on William of Nogaret, Pierre Dubois, and Bertrand de Got, in *Histoire littéraire*, Vols. XXVI, XXVII, and XXVIII.

—— 'Guillaume de Nogaret, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 233–371.

— — 'Pierre Du Bois, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 471–536.

A long and brilliant study, with detailed summaries of several of Dubois' pamphlets. Dubois' authorship of a few of the treatises here attributed to him has been repudiated by later scholars.

—— 'Un Publiciste du temps de Philippe le Bel, 1300–1308 [Pierre Dubois],' *Revue des deux mondes*, XCI (1871), 620–46; XCII (1871), 87–115.

A reprint, without citation of authorities, of the article in *Histoire littéraire*, XXVI.

Ribbeck, Walter. 'Gerhoh von Reichersberg und seine Ideen über das Verhältniss zwischen Staat und Kirche,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXIV (1884), 3–80.

—— 'Noch einmal Gerhoh von Reichersberg,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXV (1885), 556–61.

Gerhoh von Reichersberg, who lived *ca.* 1150, had ideas on the confiscation of ecclesiastical property which resemble those of Dubois.

Richard, Jules M. Une Petite-Nièce de saint Louis, Mahaut, comtesse d'Artois et de Bourgogne (1302–1329): étude sur la vie privée, les arts et l'industrie en Artois et à Paris au commencement du XIVe siècle. Paris: Champion, 1887.

Dubois spent his last years in the service of the countess.

Rigaud, Eudes. Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis [1248–69]: Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen. Ed. Th. Bonnin. Rouen: A. le Brument, 1852.

Presents a picture of monastic life in the thirteenth century which affords some justification for the criticisms leveled against monasticism by Dubois.

Rigault, Abel. Le Procès de Guichard, évêque de Troyes, 1308–1313. Paris: Picard, 1896. 'Société de l'Ecole des chartes, mémoires et documents,' Vol. I.

Rivière, Jean. Le Problème de l'église et de l'état au temps de Philippe le Bel: étude de théologie positive. Louvain: Spicilegium sacrum Lovaniense bureaux, 1926. 'Spicilegium sacrum Lovaniense; études et documents,' fasc. 8.

Rocquain, Félix. La Cour de Rome et l'esprit de réforme avant Luther. 3 vols. Paris: Thorin & fils, 1893–97.

—— 'Philippe le Bel et la bulle *Ausculta fili*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, XLIV (1883), 393–418.

Contends that the story of the burning of the bull lacks adequate documentary evidence.

Works Cited

Rodulphus Glaber. Raoul Glaber: Les cinq livres de ses histoires, 900–1044. Ed. Maurice Prou. Paris: Picard, 1886. 'Collection de textes pour servir à l'étude et à l'enseignement de l'histoire.'

An account of the Peace of God in France in 1034 is found in IV. iv, v.

Ross, J. B., and M. M. McLaughlin: *see* Portable Medieval Reader.

Rymer, Thomas, ed. Foedera, conventiones, litterae, et cujuscunque generis acta publica inter reges Angliae et alios quosvis imperatores, reges, pontifices, principes, vel communitates: ab ingressu Guilelmi I in Angliam A. D. 1066 ad nostra usque tempora habita aut tractata. Ed. Adam Clarke and Fred. Holbrooke. 4 vols. in 7. London: G. Eyre & E. Strahan, 1816–69.

Sandys, John Edwin. A History of Classical Scholarship. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1903–8.

Vol. I, which covers the Middle Ages, is in a third edition (1921).

Sanudo, Marino, senior. Secreta fidelium crucis super Terrae Sanctae recuperatione et conservatione. In J. Bongars, *Gesta Dei per Francos*, II, 1–288.

Part XIV of Book III is translated in Palestine Pilgrims Text Society, *The Library*, XII, 2–70.

Sarti, Mauro, and Mauro Fattorini. De claris archigymnasii Bononiensis professoribus a saeculo XI usque ad saeculum XIV. Ed. C. Albicinius and C. Malagola. 2 vols. Bologna: Merlani fratres, 1888–96.

Originally published 1769–72.

Sarton, George. Introduction to the History of Science. 3 vols. Baltimore: Williams & Wilkins, 1927–48.

Schlauch, Margaret. Medieval Narrative: A Book of Translations. New York: Prentice-Hall, 1928.

Includes a version of the Alexander legend, pp. 281–331.

Schnürer, Gustav. 'Das Projekt eines internationalen Schiedsgerichts aus den Jahren 1307/8,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 279–84.

Quotes chap. 12 of the *De recuperatione* in German translation.

Scholz, Richard. Die Publizistik zur Zeit Philipps des Schönen und Bonifaz, VIII. Stuttgart: F. Enke, 1903. 'Kirchenrechtliche Abhandlungen,' Vols. VI–VIII.

The outstanding study of pamphleteering during the reign of Philip IV. Pp. 32–129 were published separately under the title *Aegidius von Rom* (Stuttgart, 1902).

'Studien über die politischen Streitschriften des 14. und 15. Jahrhunderts,' *Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken*, XII (1909), 112–31.

Includes some unedited material on William of Ockham.

Unbekannte kirchenpolitische Streitschriften aus der Zeit Ludwigs des Bayern (1327–1354). 2 vols. in 1. Rome: Loescher, 1911–14. 'Bib-

liothek des kgl. preuss. historischen Instituts in Rom,' Vols. IX–X.
Schottmüller, Konrad. Der Untergang des Templer-Ordens. Mit urkundlichen und kritischen Beiträgen. 2 vols. Berlin: Mittler & Sohn, 1887.
Schraub, Wilhelm. Jordan von Osnabrück und der *Tractatus de praerogativa Romani imperii.* Heidelberg: C. Winter, 1909.
An extract from his longer work, published in 1910.
—— Jordan von Osnabrück und Alexander von Roes: ein Beitrag zur Geschichte der Publizistik im 13. Jahrhundert. Heidelberg: C. Winter, 1910. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXVI.
Schücking, Walther. Die Organisation der Welt. Leipzig: Alfred Körner, 1909.
Chap. iii deals with Pierre Dubois and George Podiebrad as forerunners of pacifism.
Schulte, Johann Friedrich von. Die Geschichte der Quellen und Literatur des canonischen Rechts von Gratian bis auf die Gegenwart. 3 vols. Stuttgart: F. Enke, 1875–80.
A work of fundamental importance.
[Scott, Samuel P.]. The Civil Law, Including the Twelve Tables, the Institutes of Gaius, the Rules of Ulpian, the Opinions of Paulus, the Enactments of Justinian, and the Constitutions of Leo. Translated from the Original Latin, Edited and Compared with All Accessible Systems of Jurisprudence, Ancient and Modern. 17 vols. in 7. Cincinnati: Central Trust Co., [1932].
Siger de Brabant. Die *Impossibilia* des Siger von Brabant: eine philosophische Streitschrift aus dem 13. Jahrhundert. Ed. Clemens Baeumker. Münster: Aschendorff, 1898. 'Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters; Texte und Untersuchungen,' Vol. II, No. 6.
—— Questions sur la Physique d'Aristote, texte inédit, par Philippe Delhaye. Louvain: Edition de l'Institut supérieure de philosophie, 1941.
The complete commentary on Books I–IV and VIII of the *Physics.* Comprises a total of 141 questions.
Souchon, Martin. Die Papstwahlen von Bonifaz VIII bis Urban VI und die Entstehung des Schismas 1378. Brunswick: Goeritz, 1888.
Useful for lists of the promotion of cardinals.
Steenberghen, Fernand van. Siger de Brabant d'après ses œuvres inédites. 2 vols. Louvain: Editions de l'Institut supérieur de philosophie, 1931–42.
Based on the materials discovered by Grabmann in 1923.
Strayer, Joseph R. 'The Laicization of French and English Society in the Thirteenth Century,' *Speculum,* XV (1940), 76–91.
Strayer, Joseph R., and Charles H. Taylor. Studies in Early French Taxation. Cambridge: Harvard University Press, 1939. 'Harvard Historical Monographs,' Vol. XII.

Works Cited

'Consent to taxation under Philip the Fair,' pp. 3–105, discusses the various financial expedients adopted by the crown.

Stubbs, William. The Constitutional History of England in Its Origin and Development. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, [1926–29].

A new impression of a work originally published 1874–78. Each volume has gone through several editions.

Tardif, Adolphe. Histoire des sources du droit français: origines romaines. Paris: Picard, 1890.

—— La Procédure civile et criminelle aux XIIIe et XIVe siècles, ou procédure de transition. Paris: Picard, 1885.

These studies by Tardif are useful in judging the significance of Dubois' proposed legal reforms.

Taylor, Charles Holt. 'Some New Texts on the Assembly of 1302,' *Speculum*, XI (1936), 38–42.

Taylor, Henry Osborn. The Mediaeval Mind: A History of the Development of Thought and Emotion in the Middle Ages. 3d (American) ed. 2 vols. New York: Macmillan, 1919.

Theodulus. Theoduli Ecloga. Ed. Joannes Osternacher. Urfahr: Verlag des bischöflichen Privatgymnasiums am Kollegium Petrinum, 1902. 'Jahresbericht des bischöflichen Privat-Gymnasiums am Kollegium Petrinum in Urfahr,' Vol. XV.

One of the textbooks recommended by Dubois. Theodulus wrote in the ninth century.

Thorndike, Lynn. A History of Magic and Experimental Science. 6 vols. New York: Macmillan, (Vols. I-IV), Columbia University Preco (Vols. V-VI), 1923–41.

—— University Records and Life in the Middle Ages. New York: Columbia University Press, 1944. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XXXVIII.

Includes English translation of chapters 60–63, 71–76, 79, 83–88, of the *De recuperatione*, which deal with education.

Throop, Palmer A. Criticism of the Crusade: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda. Amsterdam: Swets & Zeitlinger, 1940.

A study of the loss of papal prestige from the failure of the crusades. Limited to the thirteenth century. Has neither bibliography nor index.

Tosti, Luigi, conte. History of Pope Boniface and His Times, with Notes and Documentary Evidence, in Six Books. Trans. Eugene J. Donnelly. New York: Christian Press Association Publishing Co., [1911].

Originally published in 2 vols. (Paris, 1854). The translator has made no attempt to bring the scholarship up to date.

Tout, Thomas F. The History of England from the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216–1377). London: Longmans, Green, 1905. 'The Political History of England,' ed. William Hunt and Reginald L. Poole, Vol. III.

Tout, Thomas F., and James Tait,: *see* Powicke, Frederick M.

Works Cited

Vehse, Otto. Die amtliche Propaganda in der Staatskunst Kaiser Friedrichs II. Munich: Verlag der Münchner Drucke, 1929. 'Forschungen zur mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. I.

Verdier, Fernand. 'Origine et influence des légistes,' *Mémoires de l'Académie de Nîmes*, sér. 7, XVIII (1895), 179–201.

Traces the origin and rise of the lawyer class to the time of Louis IX.

Vesnitch, Milenko Radomir. 'Deux précurseurs français du pacifisme et de l'arbitrage internationale,' *Revue d'histoire diplomatique*, XXV (1911), 23–78.

Compares Pierre Dubois with Emeric Crucé, author of *The New Cyneas*, published 1623.

Vigne, Pietro delle: *see* Piero della Vigna.

Villani, Giovanni. La cronica di Giovanni Villani annotata ad uso della gioventú. Ed. Celestino Durando. 5 vols. Turin: Libr. Salesiana, 1879.

Selections from the first nine books have been translated by Rose E. Selfe (2d ed. London: Constable, 1906).

Vinogradoff, Sir Paul. Roman Law in Mediaeval Europe. London and New York: Harper, 1909. 'Harper's Library of Living Thought.'

Wailly, Joseph Natalis de. 'Mémoire sur un opuscule anonyme intitulé *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicis expeditionis et abbreviationis guerrarum ac litium regni Francorum*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 273–315 (whole number, Vol. VIII).

A paper read before the Academy at the séances of February 5 and 12, 1847. The same paper also appeared in *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XVIII (1849), Part I, 435–94. Marks the nineteenth-century 'discovery' of Dubois.

Walter of Châtillon: *see* Gautier de Châtillon.

Wenck, Karl Robert. Clemens V und Heinrich VII; die Anfänge des französischen Papstthums: ein Beitrag zur Geschichte des XIV Jahrhunderts. Halle: Niemeyer, 1882.

—— 'Französische Werbungen um die deutsche Königskrone zur Zeit Philipps des Schönen und Clemens' V,' *Historische Zeitschrift*, LXXXVI (1901), 253–69.

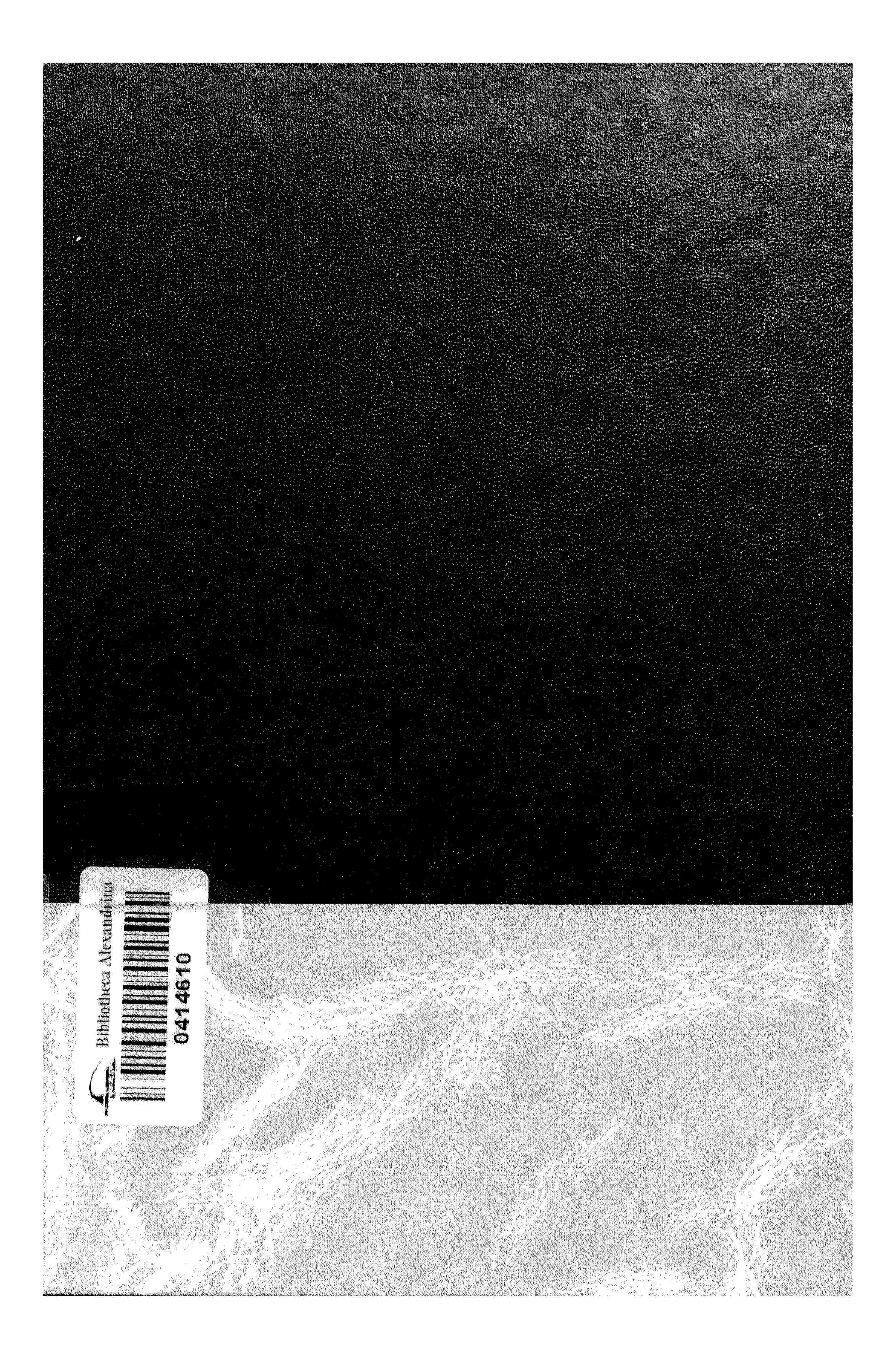
—— Philipp der Schöne von Frankreich: seine Persönlichkeit und das Urteil der Zeitgenossen; im Anhang, urkundliche Beiträge zur Geschichte der Erwerbung Lyons für Frankreich. Marburg: Elwert, 1905.

—— [Review and comment on Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historische Zeitschrift*, LXXI (1893), 151–56.

—— 'Staat und Kirche am Ausgang des Mittelalters,' *Zeitschrift für allgemeine Geschichte*, I (1884), 592–606.

Wieruszowski, Helene. Vom Imperium zum nationalen Königtum: vergleichende Studien über die publizistischen Kämpfe Kaiser Friedrichs II und König Philipps des Schönen mit der Kurie. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1933. 'Beiheft der Historischen Zeitschrift,' No. 30.

المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0414610

الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء الثامن والثلاثون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء السادس والثلاثون دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

(٢)

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

— ٢ —

من كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال:

أحدث تحرير عكا سنة ١٢٩١ أثراً هائلاً شمل الغرب الأوربي كله، وهنا شرع رجال الكنيسة، ورجال السياسة والحكم، ورجال الفكر والقلم، كل بدوره يعمل في سبيل الإعداد لمشروع حملة صليبية جديدة، تتوفر لها سبل النجاح، وتوفرت هناك قناعة شاملة أن الطريق إلى فلسطين يمر الآن عبر مصر، وهذه القناعات كانت قد تأسست بالفعل منذ أحداث الحملة الثالثة، ومعروف أنه جرت عدة محاولات لاحتلال مصر جبهوياً، كلها باءت بالاخفاق، ولهذا وجد من اقترح الهجوم على مصر جانبياً، وهذا ما حاوله لويس التاسع، لدى نزوله القاتل له، على الساحل التونسي، وراجع الأوربيون خططهم أكثر من مرة، وسعوا إلى الاستفادة من دروس ما وقع خلال قرنين من الزمن، وسلف لنا في القسم الأول أن تعرفنا إلى«كتاب الاسترداد» الذي كتبه المحامي الفرنسي بيير دوبوا، ورأينا مشروع هذا الكتاب مشروعاً أكبر من استرداد الأرض المقدسة، مشروعاً قصد بالفعل إقامة دول كاثوليكية ليس في أوربا الشرقية، بل بالمشرق العربي كله مع تونس في المغرب، وأن ترتبط هذه الدول كلها مع باريس، مقر المملكة الفرنسية، وأراد دوبوا أيضاً تحويل البابوية من روما إلى فرنسا لتكون حكراً على الفرنسيين.

وندع دوبوا ومشروعه الاستعماري الهائل لنتحول نحو إيطاليا، ففي إيطاليا عاصر دوبوا كاتب من رعايا البندقية اسمه مارين سانوتو Marino Sanuto وشهر بلقب تورسيللو Torsello, كتب بعد تحضيرات استمرت سنوات طوال كتاباً اسمه«كتاب الأسرار للصليبيين

الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» قدمه في سنة ١٣٢١، إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين، (ويذكر أحياناً باسم الثاني والعشرين).

ولد سانوتو[١٢٧٠ — ١٣٤٣] في مدينة ريفوالتي Rivoalti من أعمال جمهورية البندقية، في منطقة سينت سيفرو Seivero ،وكان والده من وجهاء البندقية وعضواً في مجلس شيوخها، وقد شغل أدواراً هامة في حياة البندقية وشؤونها البحرية.

ونشأ سانوتو نشأة دينية، وغالباً ما مارس العزف في الكنيسة على آلة موسيقية جديدة، ألمانية المنشأ عرفت باسم تورسيللوTorsello ،ولاختصاصه بالعزف على هذه الآلة بات يعرف بلقب تورسيللو.

وتقلد سانوتو عدة مناصب، من ذلك مستشاراً في محكمة بلرم ثم في البندقية نفسها، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام بالحروب الصليبية وبأوضاع الأرض المقدسة، وازداد هذا الاهتمام منذ سنة ١٣٠٧، أيام البابا كليمنت الخامس، وإلى هذا البابا قدم مذكرة حول أفكاره وما يراه من مشاريع وكان ذلك سنة ١٣٠٩، وتقدم ورأينا من قبل، في المدخل إلى كتاب دوبوا أن هذا البابا عدّ فرنسياً، وفي فرنسا عاش، وكان قد وصل إلى عرش البابوية سنة ١٣٠٥، أي أن سانوتو تحرك بمشروعه بعد بيير دوبوا بوقت قصير، وعلى هذا عبر مع دوبوا عن تيارات جيلها، ولا بد هنا من افتراض وجود مؤثرات متبادلة غير مباشرة بين الرجلين.

وكان ملك فرنسا آنذاك — كما رأينا — فيليب الجميل، حفيد القديس لويس، وصحيح أن هذا الملك لم يعرف جده، لكنه حاول أن يتلبس شخصيته، ولا سيما في المجال الديني، والمشاعر الصليبية، وقد

وصف نوغاريت الذي كان المستشار الرئيسي لفيليب من ١٣٠٣ حتى ١٣١٣، مليكه بقوله: «كان مليئاً بالنعمة، محسناً، تقياً، ورحيماً، يمارس دوماً العدل ويتبع الصدق، ولم يكن بذيئاً في كلامه، مؤمناً متحمساً، ومتديناً في حياته، ويبني الكنائس، وينشغل في أعمال التقوى»، ويذكرنا هذا الوصف بأوصاف جوانفيل للقديس لويس، وكان جوانفيل قد كتب كتابه أيضاً في هذه الآونة.

وكان فيليب الجميل في الثالثة من عمره عندما توفي جده، وقد تسلم العرش سنة ١٢٨٥ وهو في السابعة عشرة من عمره، وحين تسلم السلطة كانت المملكة الفرنسية مثقلة بالديون، وتحتاج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لوفاء ماعليها، لهذا عمد إلى إنقاص عيار العملة، وإلى فرض ضرائب ثقيلة على البورجوازية في مملكته، وإلى محاولة مصادرة ممتلكات الكنيسة، وقام بتصفية طائفة الداوية واستولى على ثرواتها، وفعل ذلك وهو يتذكر كيف تمنع الداوية عن مساعدة جده في دفع المتوجب عليه من فدية بعد فكاك أسره من المنصورة.

وأدت أعمال فيليب هذه، وصراعاته مع إدوارد الأول ملك إنكلترا، ونشاطاته الأخرى في سبيل الاستقلال الدنيوي إلى الصراع مع البابا بونيفيس الثامن، وإلى تبادل التهم والرسائل القاسية، لا بل إلى محاولة اعتقال هذا البابا في سنة ١٣٠٣ في أناني، وكتب فيليب في إحدى المرات إلى بونيفيس يقول: «من فيليب، بفضل الرب ملك فرنسا، إلى بونيفيس العامل بمثابة حبر أعظم، قليلاً من الصحة أتمنى لكم، أو لا شيء، لتكن حماقتكم العظمى معروفة واعلموا أننا في المسائل الدنيوية لا نخضع لأحد أبداً».

وقام البابا بونيفيس بحرمان الملك الفرنسي كنسياً، وقد مرت بنا بعض تفاصيل أخبار الصراعات بين البابا والملك، وكان البابا «يمارس الجنس بنوعيه، ولا شك أنه كان كاثوليكياً في تذوقه الجنسي، فقد

احتفظ بامرأة متزوجة مع ابنتها بين العاملين على خدمة فراشه، وحاول أن يغوي عدداً من الشباب ذوي الطلعة البهية، والقوام الممشوق، ويبدو أنه نجح في ذلك إلى أبعد الحدود، وقد نقل عنه قوله في تعريف الجنس وممارسته، أن هذه الممارسة(لا يتعدى إثمها قيامك بفرك يديك ببعضهما)، ولا شك أن بونيفيس قد مارس الزنا واللواطة»، وكانت هذه الممارسة القاعدة التي استند عليها نوغاريت في حملته عليه، وقد رأينا أصداء ذلك لدى دوبوا، وفي التشدد على ضرورة الاصلاح الكنسي الشامل، وأن هذا شرط أساسي لاسترداد الأرض المقدسة.

ولا شك أن سانوتو الايطالي الذي عمل في الكنيسة قد عاش هذه الأجواء، وتأثر بها، لكن ذلك لم يثبط من عزيمته، على أساس أن الدعوة الصليبية كفيلة بإحداث التغييرات الداخلية الشاملة في العالم الكاثوليكي، وفي سبيل مشروعه ارتحل سانوتو إلى بلدان المشرق، فزار أرض الشام والاسكندرية، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ثم منطقة القبائل في الجزائر الحالية، وعرف الأراضي البيزنطية واهتم كثيراً بدولة أرمينيا في كليكية الشامية، وأثارته حملات السلطان بيبرس ضدها.

واكتمل مشروع كتابه سنة ١٣٢١ حيث قدمه إلى البابا، فشكل البابا لجنة لفحص هذا الكتاب، الأمر الذي حدثنا سانوتو عنه في مطلع كتابه، وبعد ذلك تابع عمله، وقدم نسخاً عن كتابه سنة ١٣٣٣، إلى بعض ملوك وحكام عصره.

وكنا لدى التعامل مع كتاب بيير دوبوا، قد عددناه مرآة لعصره، وقلنا أنه من الصعب الحديث عن تأثير هذا الكتاب على السياسة الفرنسية الرسمية، لأن دوبوا عجز عن الدخول إلى دائرة المستشارين الملكيين، وعلى عكس دوبوا، أثر كتاب سانوتو على السياسة البابوية وعلى مشاريعها الصليبية، ومثلما وضح لدينا أن أفكار دوبوا قد نهلها من مصادر عصره وسواه ولم يبتكرها، كذلك نجد أن سانوتو قد نهل

من كتابـات معاصيه، ولاسيما مما كتبـه الراهب الفرنسيسكاني فيـدانزيو دي بادوفا Fidenzio de Padova, الذي كتب عن تحرير الأرض المقدسة.

هذا وتزوج سانـوتومتأخراً، ورزق بولد واحد، كما أنـه كتب رسائل أخرى مع بعض الكتب غير كتاب الأسرار، وجاء كتاب الأسرار بمثابة موسوعـة كبيرة ليس كل ما فيها يهم موضـوع الحروب الصليبية بشكل مباشر، لذلك وقع الاختيـار على المهم من الكتاب، إنما جـرت المحافظة على ثبت محتوى الكتاب كاملاً، وكان قد جعل كتابه في ثلاثة كتب، كل كتاب منهـا في عدة أقسام وفصـول، ولعله يكفي القول أنه توجب على العرب التعـرف إلى هذا الكتاب منذ زمن طويل، فنحن نـرى فيه أسس المشروع الصهيوني الذي طبق في مشرقنا العربي، كما نرى فيه نصاً أخطر بكثير من«بروتـوكـلات حكماء صهيـون»، وليس من الغلـو بمكان أننا نرى فيـه مخططاً تاريخيـاً لما حـدث في كامب ديفيـد، ومـا يحدث في هذه الأيام.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين

وموضوعه الحفاظ على المؤمنين وطرد الكفرة واضمحلالهم، وكذلك العمل من أجل استراد الأرض المقـدسة، والمحافظة عليهـا هي ومناطق أخرى كثيرة، وإبقاء الجميع بسلام وأمان .

المؤلف هو مـارينو سانوتو، المعـروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة ريفوالتي، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

في ٢٤ أيلول لعــام ١٣٢١، أدخلت أنا مــارينـو سـانـوتو، الملقب بتورسيللـو، من البندقية، بنعمـة غامرة، إلى حضرة أبينـا، قداسة البـابا، وقدمت له نسختين من رسالة حـول استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ على المؤمنين، نسخة مغلفـة باللون الأحمر، والثانيـة بصليب، وقدمت له أيضـاً أربعة مصـورات أرضية، الأول عن البحـر المتوسط، والثـاني عن الأرض والبحر، والثالث عن الأرض المقدسة، والرابع عن أرض مصر، وكل مـا كنت عـازمـاً على قـوله لـه، سلمتـه إياه مكتـوباً، كما هو وارد فيمايلي:

وقبل الأب الأقـدس كل الذي ذكرته أمـامـه، بكل لطف وعرفـان، وأمر بـأن تتلى عليه المقدمـة،وجزء مـن المحتوى وبعضاً مـن النصوص بحضوري، ولم يكتف بهذا بل سألني عن عـدد من القضايا واستوضح حولها، وقد أجبته على كل مـا سألني عنه، وفي الختام قال لي مايلي:«أريد إخضاع هذه الرسـالة للفحص»، فأجبته بكل احترام:«هـذا ما يطيب لي على أن يتسم الفـاحصـون بالأمـانة»، فأجـابني:«لا يسـاورك أدنى شك حـول هـذا الشأن»، وأضـاف مطمئناً لي يقــول:«يمكنك الذهاب حيثما ترغب»، وعندها غـادرت، وتلطف بـذاته فـاستـدعى بوانتيـودي است Boentio de Ast ،وكان من رهبنة الدومنكان، ونائبـاً أسقفياً في بلاد أرمينيـا، ويعقـوب دي كـامـرينوJacob de Camerino ،من رهبنة طائفـة الفرنسيسكان الملتحين، وكان عـائداً من زيارة لأخـوانه في بلاد فارس، ومتى القبرصي، وبولينو مـن التابعين للبندقية، وكـانا أيضاً من طائفة الرهبـان الفرنسيسكان، وناولهم نسخة الرسـالة المغلفة بشكل

صليب، وطلب القيام بتفحصها بكل دقة، وأن يرفعوا تقريراً حولها إليه، وانصرف الجميع نحو دراسة الرسالة بدقة وأمانة، وأكبوا على عملهم في بيت بولينو Paulino ، وكتبوا تقريرهم ورفعوه بالاجماع، وبعد مضي ثلاثين يوماً، من تسلم البابا التقرير، وفي يوم السبت من بعد الظهر استدعى الرهبان المذكورين، ثم قابلني أنا أيضاً بترحاب، وسأل الرهبان المذكورين مراراً:«هل أنتم على رأي واحد بهذا الصدد»؟ فأجابوه باحترام:«نعم أيها الأب الأقدس، نحن على رأي واحد، ومتفقين وقد كتبنا رأينا حول الموضوع»، وسألهم البابا أسئلة أجابوه عليها، وأجبت أنا على بعضها، ثم أنهى الجلسة بقوله:«لقد تأخر الوقت، اتركوا تقريركم الخطي هنا، ولسوف نستدعيكم من بعد»، وهكذا غادرنا وبقيت الرسالة عنده مع التقرير.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من تابعية البندقية، أتقدم إلى قداستكم بكل تواضع وتقوى، بشأن الموضوع الذي مثلت من أجله في حضرتكم، وهو الموضوع المتعلق بشكل خاص بالصالح العام للمسيحية جميعاً في الماضي والحاضر، وأنا لست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير، أو جماعة، أو محرض من قبل أي شخص على الاطلاق، بل مدفوعاً بمحض إرادتي ورغبتي، ذلك أنني بعد التأمل ملياً حول الخير العميم، وحول المحصلة التي من الممكن لقداستكم تحقيقها بنفقة زهيدة، لابل من دون أية نفقة أو إنفاق، والتمكن من إذلال كبار أعداء الايمان المسيحي وإبادتهم، وخاصة سلطان القاهرة، وأزبك خان التتار المتحكمين بالبلاد الجنوبية، وهوالذي انتشر خبره لدى عدة شعوب على أنه قوي جداً، ومثله الترك الذين هاجموا بلاد الامبراطورية البيزنطية حتى تخوم جزيرة المورة، التي هي تحت حكم اللاتين، يضاف إلى هذا أنه من الممكن مساندة سلطان التتار الحاكم في توريز(تبريز)، وفي بلاد العجم، ذلك أنه عدو لكل من سلطان القاهرة وخان الجنوب، وقد حدث فيما مضى أنه دافع بكامل قدرته عن مملكة أرمينيا ضد المسلمين المعتدين.

ولقداستكم تقدير ضرورة إبادة الأمة الإسلامية، التي نشرها محمد(ﷺ)، ولتعلم قداستكم أن هذا أمر ممكن تحقيقه، حسبما سيتضح الأمر لكم من خلال ما جاء في هذا الكتاب، وسترون أنكم ستتمكنون — بعون الرب — بسهولة ويسر من احتلال أرض الميعاد المقدسة، ومعها باقي المناطق المجاورة، وسيكون بإمكان قداستكم إعادة الاغريق

وباقي الهراطقة إلى حضن الكنيسة الرومـانية الأم، وأستطيع أنا أن أقول بكل تأكيد: لقد تشوقت نفسي إلى مثل هذا اليوم، اليوم الذي أُجاب فيه إلى مـا أنتظر، وأستطيع فيه المثـول أمـام حضرتكم، لأهدي إليكم كتبي كلها.

وكنت، في سبيل مشروعي هذا، قد عبرت البحر خمس مرات، حيث ذهبت مـرة إلى قبرص، وثانيـة إلى أرمينيـا، وثالثـة إلى الاسكندرية، كما ذهبت إلى رودس، وكنت قبل أن أقوم بهذا كله قد أقمت مدة طويلة في كل من الاسكندريـة وعكا، وذلك دون خـرق للحظر الذي فـرضتـه الكنيسة، وقضيت على كل حال وقتاً طويلاً من أيام حياتي في جزر بلاد الاغريق، ولهذا أعدّ نفسي مطلعـاً بشكل جيد على أحوالها، ولاسيما على الأوضـاع في إمارة المورة، وقـدمت الآن حتى أضمن وضع هذه الكتب أمـام قـداستكم، مـن البندقيـة، عبر طريـق البحـر إلى بروغـو Brugu ،ثم أخـذت طـريقي براً إلى بلاطكـم، وكلي أمل أن تنظر قـداستكم في أمر هذه الكتب، أو تتكرمـوا بتسليمها إلى من يتفحصهـا، كما يطيب لكم، راجيـاً من الخالق العلي، ومن علمكم الشـائع، ومن لطف قـداستكم المعروف في كل مكان، أن تعملـوا ما هو نافع وصـالح في هذا المقام.

أيها الأب الأعظم قداسة، لقد صليت دومـا ًوما برحت أصلي وأدعو طالباً من خـالق الجميع، أن يتلطف فيحفظ قداستكـم طويلاً في كنيسته المقـدسـة، وأن يمنحكم النعمـة لتنجـزوا بتـوفيق الذي هو نافع لمجـده ولحمده، ولانتشار الإيمان المسيحي.

وبالنسبـة لي إنني خـاضع لأوامركم دومـاً، حسبما هو متـوجب على مسيحي مؤمن، آمين.

تقرير الأخوة الرهبان

حول رسالة مشروع الأرض المقدسة

حول موضوع الكتاب الأول:

أيها الأب الأقدس: بعد تفحصنا الرسالة بكل دقة، اتضح لنا أنه اعتماداً على محتوى الكتاب الأول، من الممكن تجهيز كل ما هو لازم، بطريقة لائقة، من أجل ركوب البحر، والعبور إلى مصر، ولاشك أن موارد السلطان ستضعف، وستنشل قواه ومقوماته، هذا وإن المواد التي نستوردها من البلدان الخاضعة للسلطان، من الممكن الحصول عليها من بلدان أخرى، وعندنا أن هذا سهل تحقيقه، إذا ما نظرنا إلى الماضي، وإلى ما برح يحدث الآن، ذلك أنه من الممكن الحصول على تلك المواد من توريز ومن بغداد، عبر البحر الكبير، وبراً عبر أرمينيا الصغرى، ويبقى السؤال متعلق بمادة الكتان، حيث لا نعلم هل ينبت الكتان في غير مصر أم لا.

وبين الكتاب أنه للوصول إلى الهدف يتوجب الأخذ بثلاث إجراءات:

الاجراء الأول : أن تكون أوامر الحرمان الكنسي أشد مما اعتيد عليه، وقد تظهر الأوامر متشددة للغاية، غير أن ذلك هو الأنفع، وقد طالب المؤلف في القسم الرابع — الفصل الثاني ، بملاحقة المخالفين، مثلما يلاحق الهراطقة، وأن تطبق على من يدعمهم أو يمنحهم المأوى والحماية العقوبات نفسها التي تفرض بحق الهراطقة، ولانجاح المشروع، ينبغي تعيين مفتشين يتولون ملاحقة أمثال هؤلاء الناس، وإنزال العقوبات بهم.

وبشأن ما قاله في الفصل الخامس من القسم عينه:«ليكن محظوراً على أي إنسان — تحت طائلة العقوبات الواردة أعلاه — شراء أية بضائع يخمن — أو يعرف — أنها قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان» فالذي نراه أن هذا الاجراء سوف يسدد ضربة ماحقة لبلاد السلطان، كذلك كان قد قال في«المختصر الوجيز» بوجوب إلزام أي عامل، أو وكيل، أو جماعة(كومونة) بملاحقة من يخالف قرارات الكنيسة، تحت طائلة الحرمان الكنسي الكبير، وهنا نجد من الضروري التشديد على عبارة«جماعة»، لأن من النادر أن تقوم مدينة بكامل عناصرها بالمخالفة، ثم إنه لم تجر العادة بإنزال العقوبة بمجموعة بشرية كلها، يضاف إلى هذا أنه ورد في المكان نفسه : أن على كل من اطلع على هذا الأمر وجوب التشكي على كل مخالف للقوانين تحت طائلة الحرمان الكنسي، ونحن نرى أن هذا قاسٍ جداً، حيث لم يستثن أية حالة خاصة أو وضع منفرد.

الاجراء الثاني : يتعلق بقوله في الفصل السابع من القسم الرابع بوجوب إعداد عشرة غلايين لمراقبة البحر، ثم يخفض العدد وينزل إلى سبعة غلايين تتولى مراقبة البحر لمدة ثمانية أشهر فقط، والذي نراه أن عشرة غلايين هي بلا ريب ضرورية وأيضاً كافية، لأنه ينبغي مراقبة البحر على مدار أشهر السنة كلها، حيث تعود الناس في أيامنا على ركوب البحر في الشتاء أكثر مما كانوا يفعلونه فيما مضى.

الاجراء الثالث: هو المتعلق بتعيين قبطان واحد يكون رجلاً صالحاً مجرباً، وعظيم المقدرة، والذي نراه أنه من الضروري بسبب الطوارىء التي تحدث بكثرة يومياً تزويد هذا القبطان بمستشارين أمناء، وصالحين، ورجالاً ذوي خبرة ومعرفة بشؤون البحر، وبعادات التجار، وأن يعمل كل شيء بعد التشاور معهم، ذلك أنه إذا ما حدث حدث ما، بدافع من التعجرف، أو الشره، أو لسمة شريرة وجائرة، وعمد إلى

استخراج الغرامات من غير حق من التجار الشرفاء، قد تنهار التجارة بكل سهولة، وقد تطرق المؤلف إلى هذا الموضوع في الفصل الأول من الكتاب الثاني، والذي نراه أنه يكفي أن يكون في كل غليون رجلاً نزيهاً يتولى عمل المشرف الأعلى.

حول موضوع الكتاب الثاني:

نرى أنه بالنسبة لما جاء في الجزء الأول، أن الحل الأمثل هو أن على قائد الجيش الثاني، أي الجيش المكون من خمسة عشر ألف رجل، مع ثلاثمائة فارس، أن«يختار قاعدة له في أحد المراسي المصرية، حتى يستقبل هناك جماعات العابرين بحراً»، وبهذا المقام نتساءل:أي مرسى سيكون هذا المرسى، على الرغم من سماعنا عن شواطىء تتوافق مواصفاتها مع التي وردت في الكتاب؟

ونحن نقرّ الجزء الأول، باستثناء قوله:«أن تتم الدعوة للحملة الصليبية في السنة الثانية أو الثالثة»فالذي نراه وجوب الشروع بذلك الآن على الفور، وطبعاً بعد الإعداد الموائم.

وفيما يتعلق بما قاله في خاتمة الجزء الثاني من أنه«ينبغي عدم قيادة جيش الرب مباشرة بطريق البر إلى المرسى المصري المشار إليه أعلاه»، نرى وجوب أن يضاف هنا إلى ما تقدم أن الملك القديس لويس، لما عبر البحر في المرة الأولى، أخذ طريق قبرص، في حين أنه لما قام بحملته الثانية كان — بعدما اختبر ما هو الأفضل — عازماً على قصد مصر مباشرة، غير أنه بدّل الطريق واتجه نحو تونس، ومن هناك عبر إلى السماء، وكان سبب ذلك أنه لم يؤمّن وصول الميرة والامدادات الأخرى، وحصل الشيء ذاته مع الأمير إدوارد ، الذي صار فيما بعد ملك إنكلترا، فإننا نقرأ أنه بعد تفحص الأماكن والشؤون البحرية، وقع اختياره على ما اختاره[الملك الفرنسي]، مع أنه كان أيضاً عازماً في

البداية على الاستيلاء على الأرض المقدسة، وأن يقوم في مرحلة لاحقة بالاستيلاء على مملكة القسطنطينية وتاجها.

وبشأن قوله في خاتمة الجزء الثالث:«على المقاتلين المسيحيين بعد التمركز والتحصن البقاء بشكل دائم»، يبدو لنا أن هذا صحيحاً، إذا ما تحقق ما قيل من قبل حول المرسى المصري.

وتضمن الجزء الرابع وصف أساليب القتال، وأنواع الأسلحة والاحتياطات البحرية، وهذه أمور لا خبرة لنا فيها، ولسنا مؤهلين بما فيه الكفاية لإصدار الرأي حولها، ويبدو لنا — مع ذلك — أن ما قيل عنها متوازن ومرتب ترتيباً حسناً.

حول موضوع الكتاب الثالث:

الكتاب الثالث كتاب تاريخي، رسم الماضي لإعطاء تحذير للمستقبل، وجاء في القسم ما قبل الأخير وصف للترتيبات المتعلقة بمملكة سورية ومصر، وخاصة الأرض المقدسة، وحوى الجزء الأخير أمثلة كثيرة تعلقت بالجيش وبالاحتياطات المتوجب اتخاذها أثناء الحرب، وجاء في النهاية عرض لقانون ملوك القدس.

ويساعد كل ما تقدم على المحافظة على البلاد، أكثر مما يساعد على الاستيلاء عليها، وأبحاث الكتاب أبحاث طويلة ومسهبة جداً، مما دفعنا إلى عدم تفحصها كلها، ومهما يكن الحال، الذي نراه هو أن الأسلوب أسلوب جيد، وجدير بالثناء.

أسرار الصليبيين الحقيقين

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

مذكرة مرفوعة إلى جلالة الملك، بكل احترام وخضوع، من قبل مارينو سانتو، المعروف بلقب تورسيللو، من البندقية، الذي قدم إلى جلالتكم الكتب والمصورات الأرضية من أجل احتلال الأرض المقدسة والمحافظة عليها مع المناطق المجاورة لها، وهو يقول: إنه لن يكون لجلالتكم مجد من جراء الاستيلاء على العالم ونيل الفردوس، أدنى مما ناله الاسكندر الذي استولى على العالم، ويمكن أن يتم لكم ذلك باتباع الترتيب التالي، والطريقة الموضحة فيمايلي:

أولاً: على جلالتكم الشروع برحلة عبور البحر، وفق الطريقة المعدة، أو وفق أية طريقة قد تروق لجلالتكم، وإذا ما تعذر تنفيذ ذلك فوراً مع عدد كبير من الناس، فليكن ذلك — على الأقل — بوساطة عشرة غلايين، كل غليون منها مشحون بمائتين وخمسين رجلاً، للتحكم بالبحر ومراقبته، وثلاثمائة فارس، وألف من الرجالة الشجعان للحفاظ على بلاد أرمينيا، ذلك أنه سيكون أذى عظيماً وعاراً كبيراً على المسيحية كلها، إذا ضاعت تلك البلاد.

ثانياً : ينبغي إعداد ترتيبات مع قداسة البابا كي يرسل موفدين من قبله، مع مبعوثين من قبلكم إلى جميع البلدان المسيحية،لإبلاغها أنه إذا ما توجب الاحتفاظ بالأرض المقدسة تحت السلطة المسيحية، فإنه مطلوب من كل بلد منها الاسهام، وسوف يخصص لكل بلد منها نصيب من البلاد بقدر ما كان قد ساهم به، وجميع المكاسب التي سوف تتجمع من جراء ذلك، سوف توضع في مكان آمن ومضمون، ولا

يصرف شيء منها، إلاّ لتمويل العبور المقدس.

ثالثاً : حبذا لو تلطفت جلالتكم بعقد ميثاق صداقة مع دوج البندقية وحكومتها.

رابعاً : وأتمنى أن تعينوا من قبلكم قائداً للجيوش، ممن ترونه لائقاً، على شرط اتباع الترتيبات الموضوعة في الكتب التي رفعتها إلى جلالتكم، وإذا ما أنجزت — بعون الرب — جلالتكم هذه الترتيبات، فإنني أعتقد أن الملك روبرت، والملك فردريك صاحب صقلية، وامبراطور القسطنطينية سيكونوا طائعين لكم في كل ما هو معقول، وبهذه الطريقة ستتمكنون من احتلال الأرض المقدسة والبلدان المجاورة لها، لابل كل ما بقي من العالم لن يستطيع الصمود أمام جلالتكم، ويمكنكم التأكد من هذا كله من خلال الكتب ومصورات الأرض المشار إليها من قبل.

وبخصوص البند الأول، إنه إذا ما اعترض معترض وقال بأن القوة المسلحة سوف تكون ضئيلة جداً، فإن مارينو سانوتو يجيب بأن تلك سوف تكون — بعون الرب — كافية للقيام بهذه المهمة، لأنها سوف تجد في قبرص وفي رودس وفي غيرهما من جزر اليونان نحو عشرة غلايين جيدة التسليح سوف تنضم إلى أسطولكم، فضلاً عن هذا، يمكن للجزر المذكورة تجهيز عشرة غلايين أخرى في زمن وجيز، ويضاف إلى هذا، إنه غالباً ما يوجد في ذلك الجزء من البحر عدد من السفن العائدة للتجار، من الممكن الاستعانة بها لا يقل عن عشر سفن منها، شريطة التحكم بالبحر بشكل جيد، بعون الرب.

أما جزيرتا قبرص ورودس فيمكنهما بيسر تأمين ثلاثمائة وخمسين فارساً، يتولون بلا انقطاع حماية منطقة أرمينيا، وعندما سيسمع المسيحيون بالأمر، فإن عدداً كبيراً منهم سوف يهبون لتقديم العون

والنجدات.

وهكذا نجد بشكل منطقـي أن بلاد أرمينيا وقبرص ورودس وغيرها من جـزر البحر، ستنـال حراسـة كـافية، وبذلـك سوف تتضـاءل كثيراً مـوارد السلطان ولسـوف يلحقه ضرر عظيم من جـراء ذلك، وستجـد الشعـوب المسيحيـة القـانطة مـن رؤية أي عمل مفيـد، تشجيعـاً كبيراً، ولسـوف تتبرع بما لديها بسخـاء أعظم للتفـريج عن الأرض المقـدسـة ومساعدتها، وإذا لم تتم المبادرة باتخاذ إجـراء سريع وفعال، سوف يلحق الشعـوب المسيحيـة اليأس، وسيحـدق بالمسيحيـة كلهـا خطر عظيم، وخـاصـة بالمسيحيين القـاطنين في تلك البقعـة من البحـر إذا لم تبـادر جلالتكم(*) فتتلطف بتقديم العون وسبل الخلاص.

* — يرجح أن هذا الخطاب قد رفع إلى فيليب الجميل ملك فرنسا.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

هناك في الوقت الحالي ثلاثة إجراءات ملحة لصالح المسيحية هي:

١ — المحافظة على منطقة أرمينيا.

٢ — إحداث تنظيم على الأرض وفي البحر بشكل دائم لليوم وللمستقبل، والقيام بملاحقة المخالفين. وتعيين مشرفين لهذه الغاية.

٣ — شحن غلايين لمراقبة البحر، مع وجوب تطبيق عملها حسبما هو موضح ضمن هذا الكتاب.

وقد يسأل سائل:«كم من الجند سوف يلزم للحفاظ على أرمينيا»؟ وله أجيب باحترام، أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو من البندقية قائلاً: إنه يلزم للحفاظ عليها ثلاثمائة فارس وألف من الرجالة، وعشرة غلايين، جيدة التجهيز، تمولها الكنيسة الرومانية بالاشتراك مع مملكة قبرص وجزيرة رودس، وجزر بلاد الاغريق، لأنه إذا ما تأمنت الحراسة البحرية بوساطة الغلايين المذكورة، وغيرها من أنواع السفن التي تكون هنا وهناك، سوف يكون بإمكان مملكة قبرص أن تؤمن باستمرار إرسال الامدادات إلى أرمينيا، هذا وفيما يتعلق بفرسان الاسبتارية، إنه بسبب إنخفاض النفقات التي تقتضيها حماية جزيرة رودس ، وبسبب الامدادات المرسلة من قبرص ومن أرمينيا، يمكنهم بيسر تأمين نفقات مائة وخمسين فارساً من المجهزين للذهاب إلى أرمينيا، وسوف يبادر العديد من الكاثوليك من بلدان عدة — لدى سماعهم بالعون الذي تقدمه الكنيسة — إلى المساهمة، وكذلك سيفعل الأرمن حسب إمكاناتهم، ذلك أنهم سيتوقفون وقتها عن دفع الجزية إلى

السلطان، ويسخرون من جهة أخرى إمكاناتهم لتجهيز جيش خاص بهم.

ومن الممكن عقد آمال عالية — دون الخشية من الانتكاسة — بالحصول على موافقة التتار، ومساعدة الذين يحكمون في بلاد فارس وفي بلاد الكلدانيين، حتى وإن كانوا بغالبيتهم من أتباع تلك العقيدة المنبوذة، ذلك أن المرجح هو تطلعهم أولاً إلى ما هو مفيد لصالحهم قبل صالح الآخرين.

وللوصول إلى غاية هذا كله، سوف تتكلف الكنيسة مبلغ مائة وخمسين ألف فلورين ذهبي، وبالمقابل سوف يلحق بالسلطان خسارة سنوية مقدارهامليون فلورين ذهبي، فضلاً عن بقية الأضرار التي سوف يتحملها هو والشعوب التي تحت سيطرته، شريطة أن تستمر الكنيسة بملاحقة المخالفين بوساطة المشرفين التي تولت تعيينهم.

وإذا ما سئلت لماذا يقوم سلطان مصر بشن هذا العدد من الحملات ضد منطقة أرمينيا، طالما أنه يتسلم من الأرمن جزية أعظم من المبالغ التي يجبيها من مملكته ومن الخاضعين له، فضلاً عن أن هذه الحملات، تستدعي الكثير من النفقات؟ أجيب إن لذلك أسباب ثلاثة:

أولها : إنه بعمله هذا يقوم بتحويل طريق التجارة التي كانت تمر عبر أرمينيا إلى أراضيه.

وثانيها : هو أن أرمينيا تقع فيما بين تركيا المدعوة بآسيا الصغرى، وبين الأراضي الخاضعة للسلطان، فإذا ما استولى عليها سوف تتضاعف قدرته وإمكانات الأتراك وغيرهم من المسلمين الموجودين في بلدان مجاورة، ويجعله هذا يضمن أن بمقدوره الوقوف في وجه التتار، المتسلطين على بلاد فارس وبلاد الكلدانيين، ولهذا السبب حاول العديد من المسلمين مراراً توحيد كلمتهم، وقد ساعدهم في ذلك بعض التتار

مع بعض الأرمن.

وثالثها: الرغبة في تدمير قوى المسيحيين الموجودين في الجزء المقابل من البحر، فإذا لم نبادر ونتخذ أسباب الحيطة، فإن أرمينيا لن تتمكن من البقاء طويلاً تحت سلطان المسيحيين، ولن تكون الوحيدة في مواجهة هذا المصير، بل ستتعرض للمخاطر نفسها قبرص ورودس وما تبقى من جزر بيزنطة.

وإذا ما حدث — لا سمح الرب — وتحالف — كما هو متوقع — السلطان والأتراك فإنهم سينالون العون من التتار الذين يحكمون بلاد الخزر(القبيلة الذهبية) وغيرها من المناطق الجنوبية، ذلك أن إرادتهم اليوم غير موحدة، ومع ذلك يخشى أن يتبدل حالهم في المستقبل، لهذا نتمنى على قداستكم إيجاد العلاج المناسب الذي ترونه.

الألقاب التي تطلقها رعايا السلطان عليه

السلطان الأعظم، السيد الأجل، السلطان الناصر، الشاهنشاه، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، سلطان الاسلام والمسلمين، فلان الدنيا والدين، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ولي أمير المؤمنين، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، وهازم جيوش التتار، اسكندر الزمان، ومولى الاحسان، ملك البحرين، مملّك أصحاب المنابر والأسرة والتيجان، سيد الملوك والسلاطين محمد ابن السلطان الملكي، سلطان البسيطة، السلطان الملك قلاوون».

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

أول رسالة كتاب الأسرار للحفاظ على المؤمنين، ولطرد الكفرة ولاضمحلالهم، وللعمل كذلك من أجل استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، هي وغيرها من المناطق، وإبقاء الجميع بسلام وأمان.

إلى قداسة مولانا البابا، الحبر الأعظم للكنيسة المسكونية الرومانية، من مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة البندقية، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بعد لثم قدميكم المقدستين بتواضع واحترام.

في سبيل مجد الرب القدير، وإكراماً لمولانا يسوع المسيح، ومن أجل إعلاء شأن الايمان المسيحي، قد أخذت على عاتقي القيام بعمل شاق، وقد سهرت الليالي الطوال كي أعثر على سبيل يقود إلى استرداد أرض الميعاد المقدسة، والحفاظ عليها، بشكل أعظم ضماناً من الماضي، ففي تلك الأرض جرى خلق العالم، وفيها كان خلاصه حسبما جاء في الكتابات المقدسة، ففي الخليل(حبرون) تكوّن آدم، الأب الأول للبشر، وفي القدس صلب الرب لفداء العبد والبريء بدلاً من المذنب، وبدّل الرب الطينة، وهناك أيضاً كما ذكر يوئيل قول الرب :«أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط، وأحاكمهم» [يوئيل : ٣ / ٢].

ومرد هذا كله محبة الأرض المقدسة في كل قلب لامس شغافه حب الرب وحب موطنه، واسترداده وزيارته، وخير الرب وجلالته واحترامه، والخوف والرعشة الدنيوية، وأداء الحساب الأخير.

لأول عشق سحر خاص وجاذبية، وهكذ يبحث المولود حديثاً عن أمه وعن ثدييها، وكذلك ترجع الأنهار إلى البحار، أي إلى حيث

خرجت، وأيضـاً يجذب المغناطيس، لأن في المغناطيس طاقـة تجذبه دوماً إلى القطب الذي جاءت منه بدايته.

ومثل هذا لا يستطيع المؤمن صم أذنيه لدى سماعـه الرب وهو يقول ليعقـــوب:«قـم اخـــرج من هـذه الأرض وارجـع إلى أرض مـيـلادك»[خـروج:٣١ / ١٣]، فبـدلاً عـن ذلك عـادت إلى هناك تلك الأمة الآثمـة المفسدة، التي لم توجه قلـوبها قط نحو الرب، ولا أسلمت إليه عقولها، بل مثل الصل، أصمت آذانها.

ويتـوجب الآن على المسيحيين الحاليين التحـرك بـدافع العـرفـان للمخلص وإكرامـاً له، فهو الذي صعـد على الصليب، مثلما يصعد على سفينة، وكان قد أوضح للذين فـداهم بدمه ضرورة حمل الصليب ذلك أنه هو الذي قال:«من لا يحمل صليبـة ويتبعني ليس جديراً أن يكون لي حـوارياً»، ولهذا عندمـا صعـد إلى السفينة(لحقـه حـواريوه) وكـان ذلك صـورة ورمزاً ليسـوع الذي صعـد السفينة، ثم ذهب إلى مدينتـه(حسبما سيأتي في الفصل الثـاني)، وهكذا لن نتمكن من الذهاب إلى تلك المدينة إلاّ على سفينة الصليب، والخوف والرعشـة من الحساب الصـارم سوف تخيم علينا عندما يأتي الديان غاضبـاً، وعندما يأتي يكون كل شيء أمامه مكشوفاً ومعـرى بها في ذلك القدس حيث قال:«ويكون في ذلك الوقت أني أفتش أورشليم بالسرج»[صفنيا : ١ / ١٢]، فهل يا ترى سيبقى أي شيء مغطى في مصر، عندما يفتش الرب بسرجـه كل شيء في القدس،؟ ولسوف يدعو صوت الملاك جميع الخلق إلى وادي شعفاط منادياً:«قوموا أيها الموتى، وهلمـوا إلى الحسـاب»، فلنبـادر بالذهاب إلى هناك، إمـا شخصياً، أو بالمساهمة بما نتبرع به، ومن الأفضل أن نمضي إلى هناك قبل أن نسبق، ولنبذل قصارى جهدنا للحصول على قطعة من تلك الأرض، إما بالحرب، أو بالمال، حتى لا نكون يوم القيامة ضيوفاً وغرباء بل من سكان بيت الرب وأتبـاع القديسين، لأنه كما قـال زكريا:«من لا يصعـد

من قبــائل الأرض إلى أورشليم ليسجــد للملك رب الجنود، لا يكون عليهم مطر»[زكريا : ١٤ / ١٧].

وبالنسبة لي لقد أثارتني هذه الأمـور، فكان أن عمدت إلى كتابة هذه الرســالة حول أرض الميعـاد المقـدسة، ونسقـت كتبها ورتبت أجـزاءها لأرفعها إلى صاحب الكرسي الرسـولي المقدس، حتى ينظر إلى محتوياتها، ويستـدرك مـا فيهـا من نقـائـص ويصلحهـا عند الضرورة، ويقـرر مـا سيكون نافعاً لمجد الرب، ولمجد كنيسته المقدسة.

وإكراماً للثـالوث الأقدس قمت بتقسيم هذه الرسالة إلى ثلاثة كتب، لأنه عندما يكون الجسم عليلاً يعطى ثلاث وصفات سريعاً:

١ — بلسم لتحسين أوضـاعه، لأن الدواء لا يعطي مفعـولاً، إلا إذا كانت استعدادات المريض موائمة.

٢ — الدواء الموائم، لإزالة المرض، وإعادة الصحة.

٣ — وللمحافظة على الصحة يعطى راتباً غـذائياً موائماً، يتجنب فيه كل ما هو مضر حتى وإن كـان شهياً، ذلك أن علينا اختيار مـا هو مفيد للصحة حتى وإن كان مراً.

وبناء عليـه يحتوي الكتـاب الأول على نوع من الشراب، أي على مـا يلزم لتحـرير الأرض المقدسـة ومعـالجة أمورها، ذلك أنها رازحـة منذ زمن طويل كـالسقيم المقعد تحت سلطان شعب فـاسد، ويقـود الكتاب الثاني إلى الصحة، وإلى التحرر التام، وأما الكتاب الثالث، فهو يرشد إلى كيفية العمل للمحافظة عليها حتى لا تقع مجدداً تحت حكم الكفار،

والكتب مقسمة بدورها إلى أقسـام عامة، تسهل استيعـاب مضمونها بسرعة وإيجاز، ومثل هذه الأقسام مجزأة إلى فصـول تساعد على فهم كل موضوع يجري بحثـه بوضوح وبدقة، وهكذا نجوز مما هـو شامل إلى ما

هو مفصل، أمـا محتـوى تلك الكتب والأقسام، والفصـول فقـد رتبناها كمايلي:

الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

ويحتوي على الاجراءات والاستعدادات المتوجبة لاسترداد الأرض المقدسة، وهو في خمسة أقسام:

القسم الأول: ويشتمل على طرق إضعاف قدرة السلطان، وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، وتقدير للأذى العظيم وللأضرار الكبيرة التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

الفصل الثاني : إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان، يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

الفصل الثالث: تبيان طريقة لمنع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة، من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الإتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

الفصل الرابع : ذكر للأضرار التي سوف تلم بالسلطان وبالشعب الخاضع له في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة التي ستتوجب على السلطان وتنزل به إذا أُوقف تصدير المواد الغذائية، والمنتجات المتنوعة، من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

الفصل الســادس : وصف بلاد مصر، وتبيــان الضرر العظيم الذي ســوف يلم بمصر إذا مــا انقطعت عنهــا السفن مع بـاقي الأصناف المحتاجة للملاحة البحرية.

القسم الثـاني: ذكـر كيف أن أحـدى المناطق الخاضعـة للسلطان قـد تعرضت للضعف، وهو في فصلين:

الفصل الأول: شرح كيف تضـاءلت ثروة إحــدى المناطق الخاضعـة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعـة خلف البادية وكذلك في بعض أرجاء سورية.

الفصل الثـاني : يوضح كيف أن عــدد السكان وخـاصــة الرجـال المقاتلين، قد تضاءل في الأراضي الخاضعة للسطان .

القسم الثالث: ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا في فصلين:

الفصل الأول: الأسبـاب الداعيـة لمنع تصـديـر السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة إلى المسلمين في مصر.

الفصل الثاني: تبيان للطـرق والاجراءات التي يتخذهـا المسلمون في مصر للمحـامـاة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخـرى على الغلمان والجواري.

القسم الرابع: وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الاجراء الحالي، وكيفية إعـداد الغلايين اللازمة للدفـاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحـر، وبالوقت نفسـه لتدمير المسلمين، وكيفيـة العمل لمنع أية أعمال تجارية على الإطلاق مع البـلاد الخاضعـة للسلطان عبر البحـر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول : لماذا يتــوجـب منع أي اتجار مع المسلمين الخاضعين

للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

الفصل الثـاني: لماذا يتـوجب على جميـع المسيحيين مطاردة المخـالفين لأوامـر الكنيسة في هذا المجـال، في كل مكان، وليس فقط في البحـر بل وفي البر.

الفصل الثالث : وجوب إغـلاق الطرق في وجه البضـائع التي اعتاد التجـار على نقلها من الأراضي التـابعة للسلطان، عبر أفـريقيا كلهـا، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان حتى آني Annia .

الفصل الخامس: الأسبـاب المسـوغـة لمنـع أي مسيحي من شراء أية بضـائع مجلوبة من البلـدان الخاضعـة للسلطان، مهما كـانت الطرق التي جاءت منها.

الفصل السادس: العقوبات المتـوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعـات التي لا تلتزم بهذه الإجـراءات، فتستقبل تلك البضـائع في مراسيها، أو في أراضيها.

الفصل السابع : مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

القسم الخامس: الأسبـاب المسـوغـة لتـوجب يقظة الكنيسـة في هذا المجال وهو في ثلاثة فصول :

الفصل الأول: الحث على متـابعة تنفيـذ هذا المشروع بعد الإقـلاع به مباشرة.

الفصل الثـاني: التـوجـه بشكل ملح بنداء نحـو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول.

بدايةالكتاب الثاني من هذه الرسالة.

ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها والوسائل

المتوجب استخدامها لاسترداد الأرض المقدسة

وهو في أربعة أقسام

القسم الأول : تنظيم الجيش المسيحي الثـاني وشكله، وهو في أربعـة فصول:

الفصل الأول : وجـوب وجـود قبطان واحـد، مـع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

الفصل الثاني : الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

الفصل الثالث: الإعداد للإبحـار، والتجهيزات الواجب تهيئتهـا من أجل عبـور مجمـوعـة من الجنود، وتحضير الامـدادات، وسبل اكتسـاب صداقة التتار.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألفاً من الرجالة وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

القسم الثاني: تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسـة، وتسميـة أفضل طريق بحـرية للوصـول إلى مصر، وهو في عشرة فصول.

الفصل الأول : في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

الفصل الثاني : ردّ رأي القائلين بوجـوب.رفع هذه الراية على أرض أرمينيا أو سورية أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

الفصل الثالث: رفض رأي القائلين بوجوب الإنزال البحري في قبرص، أولاً.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تم في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها.

الفصل الخامس: مثل رمزي يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي ترويها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء الأتقياء الذين لم يريدوا ولا أرادوا ومازالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تمّ ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدسة، وهو برهان مقتبس مما جرى بين أهل البندقية، والسيد بطريرك أكويلا أثناء الخلاف حول النمسا.

الفصل التاسع: سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس اللاتين.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقون — بعون يسوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

القسم الثالث: بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: حـول الوسيلـة التي يستطيع المسيحيـون بوسـاطتهـا الاستمرار في تحصينات مصر البحـرية، وذلك وفقاً لما قـامت به البندقية التي تمكنت من الصمود في وجـه الغاليين حين زحفوا ضـدها، وكذلك في وجه الأفارقة والقبارصة وأتيلا، واللومبارد، وسواهم.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكـن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

الفصل الثـالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعـزعـوا أركـان مصر، ضرب مثل بما تمكن من صنعــه البنادقـة وأصحـــاب المدن، والأمـاكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

القسم الرابع: ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثهـا في حال نشوب المعـارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقـدسـة بنجاح، وفيـه إيضـاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: مـا يثار من اعتراضـات حول قـدرة الجيش المسيحي، وحول العـوائق المفترضة، التي قـد تحول بينه وبين الوصـول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانيـة أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

الفصل الثـالث: المثل الذي ضربه قــورش ملك الفــرس، ووثائق الجيش الصليبي.

الفصل الرابع: التساؤل عما إذا كـان عدد المراكب التي عند المسلمين

على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

الفصل الخامس : حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

الفصل السادس : ما يفترض أن تكون عليه السفن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامدادات وباقي الأشياء المناسبة للجيش سواء عن طريق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحول كيفية الملاحة في المياه العذبة، وحول ما هو أكثر فائدة لإنجاز المشروع المذكور.

الفصل الثامن : أصناف الأسلحة وتعدد أشكالها من دفاعية وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش، وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

الفصل العاشر: كميات الميرة، والطرق المتبعة لدى أهل البندقية لتوزيع الميرة على العاملين في غلايينهم، وعدد الأفراد المستخدمين، والزمن،والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي، وأشكالها، في أعماله البحرية لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها ولتكون أسرع وخاصة المجاذيف.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذين

سيعبرون البحر فيما بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لإيصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها. وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة لاتناسب ولا تفيد.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه للا بحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم لقاء عطاء، حتى يتحقق هذا المشروع.

الفصل السادس عشر: حول شكل تبديل عناصر الجيش وطريقة ذلك، وحول المشافي للمرضى، وكيف ينبغي تأمين كل شيء سلفاً، وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرامل والورثة وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

الفصل السابع عشر : حول المناطق الأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة مثلما في البحار.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الإسهام في إنجاح الحملة .

الفصل التاسع عشر: حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال، وأعمالهم، والمرتبات،

والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس وأجورهم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطىء مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

الفصل الرابع والعشرون : إعدادات متقدمة وتنظيمات واحتياطات موائمة تماماً تتعلق بالأسطول البحري.

الفصل الخامس والعشرون : وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان وأسماء الشواطىء والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر مع وصف للشواطىء التونسية التي هي امتداد بحري لها.

الفصل السادس والعشرون : وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت سيطرة أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

الفصل السابع والعشرون : حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطىء المصري،وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل، وتبيان لكيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن يبلغ تعداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجوبة حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين: أي هل سيستطيعون بعد إخضاع أرض مصر مجابهة قوات السلطان، لابل وقوات المسلمين جميعاً، ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية، وإيجاد حلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمراء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحروب.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على

أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة

مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،

في سبيل مجد الرب وشرف الكنيسة الكاثوليكية

ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً

القسم الأول: حول الأمم المتعددة التي توالت على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: تبيان الأسباب التي جعلت أرض الميعاد المقدسة عرضة لهجمات جميع الأمم، ولماذا حدث لأهلها أن نكبوا مراراً، وطردوا من أرضهم.

الفصل الثاني : كيف بدأ أبناء حام بزراعة أرض الميعاد، ولماذا طردوا منها.

الفصل الثالث: كيف زرع بنو إسرائيل المنحدرين من سام من خلال إبراهيم، لوض الميعاد، بعدما طردوا منها أبناء حام أو استبعدوهم.

الفصل الرابع: كيف كـان سلوك بنو إسرائيل في أيام القضاة الأربعـة عشر.

الفصل الخامس: كيف أخـذ الشعب ينصب لنفســه ملوكـاً، وكيف انقسمت المملكـة إلى مملكتين، مملكة يهوذا، ومملكة الأسبــاط العشرة، ونهاية المملكة الثانية.

الفصل السادس: تطور مملكة يهوذا — أي القدس — ونهايتها.

الفصل السابع: مـوت إرميا وحـزقيـال، سبي من بقي من يهوذا إلى بابل، وكيف احتل قورش بابل.

الفصل الثـامن: نهاية السبي، والعـودة أيام الكاهن يشـوع، والشروع بإعادة بناء الهيكل.

الفصل التاسع: أخبار يهوديت، وعزرا، ونحميا، وإستير ومآ ثرهم في أيام الكاهن الأعظم يواكيم إيليا، وفي أيام يهوذا.

الفصل العاشر: الضغينةا لتي أظهـرها الكاهن يوحنا ثم خلفه جـاد، وموت الاسكندر أيام أونيا، اضطهاد بطليموس لليهود، وترجمة الكتاب المقدس على يد السبعين مترجماً أيام الكاهن الأعظم أليعازر.

الفصل الحادي عشر: الخلافات بين اليهـود أيام أونيا، والحروب التي شنت عليهم من سـوريـة ومن مصر، واضطهـاد سلوقس وأنطيخـوس ملكي سـورية لليهـود، وخلع أونيـا ومــوته، وكـذلك أخبـار المكابيين وبطولاتهم.

الفصل الثاني عشر: عودة حكم الملوك إلى أرض الميعاد.

الفصل الثـالث عشر: الجريمـة الفظيعــة التي اقترفهـا اليهــود لدى ملاحقتهم للمسيح ولرسله.

الفصل الرابع عشر: دمار القدس، وطرد اليهود ونفيهم من تلك الديار على أيدي الرومان أبناء يافث.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: البداية المجيدة للكنيسة الشرقية.

الفصل الثاني: فتور الحماس الأول في الكنيسة، وما تبع ذلك من أحزان على يد كسرى.

الفصل الثالث: انتصار هرقل على كسرى.

الفصل الرابع: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: وقوع هرقل في الهرطقة، واحتلال عمر خليفة محمد(ﷺ) للأرض المقدسة.

الفصل الثاني : بداية ظهور محمد(ﷺ) وكيفية استيلائه على البلدان.

الفصل الثالث:حياة محمد(ﷺ) وموته واقتسام إرثه.

الفصل السادس: حملة شارلمان للتفريج عن الأرض المقدسة.

الفصل السابع: رجوع شارلمان ومعه الآثار المقدسة.

الفصل الثامن: تدهور أوضاع أرض الميعاد المقدسة، لا سيما بعد اندحار امبراطورية القسطنطينية.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: ابتهال من القلب من أجل الخلاص، وبداية الخلاص

المؤمل.

الفصل الثاني: معاودة الاحتشاد بسرعة من أجل العبور إلى الأرض المقدسة.

الفصل الثالث: زيارة غالتيري Gualteri للقدس، ومواكبته حتى القسطنطينية.

الفصل الرابع : الحج الذي قاده بطرس الناس حتى القسطنطينية وضم حشداً كبيراً من الناس.

الفصل الخامس: أخبار الحجاج ومآثرهم أثناء وجودهم في الضفة الأخرى من بحر الروم المسمى ذراع القديس جرجس(البوسفور).

الفصل السادس : تدمير الحشود الفوضوية التي قادها إلى الحج الكاهن كاندسكوكو Condescauco.

الفصل السابع : الاخفاق التام للحشود الشعبية التي توجهت إلى الحج بدون أن يكون على رأسها قائد مسؤول.

الفصل الثامن: حج هيوج الكبير ووقوعه بالأسر، وكيف أن بوهيموند قد عزم على التوجه إلى الحج.

الفصل التاسع : حج غودفري دي بولليون، وإطلاق سراح هيوج الكبير.

الفصل العاشر: شجار بين الحجاج وبين امبراطور القسطنطينيةثم مصالحة.

الفصل الحادي عشر: زحف بوهيموند نحو القسطنطينية.

الفصل الثاني عشر: حملة كونت طولوز(صنجيل) مع أتباعه وما جرى له مع الامبراطور.

الفصل الثالث عشر: الاستيلاء على مدينة نيقية، ووصول بقية البارونات.

الفصل الرابع عشر: الانقسامات بين صفوف الحجاج وهجوم التركمان عليهم.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاقات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: انتصارات تانكرد وبلدوين، اللذان وصلا قبل سواهما، ونشوب خلاف بينهما، ثم مصالحتهما.

الفصل الثاني: انتصارات ناجحة يحققها بلدوين في الشمال.

الفصل الثالث: زحف الجيش الأساسي ضد أنطاكية.

الفصل الرابع: وصف مدينة إنطاكية، وحصارها.

الفصل الخامس: التحصينات المتنوعة عند المهاجمين وعند المدافعين، والحملات المتبادلةبينهما.

الفصل السادس : سقوط إنطاكية، واكتشاف حربة المخلص التي طعن بها جنب المسيح، وهزيمة كربغا.

الفصل السابع: زحف الحجاج نحو القدس.

الفصل الثامن: حصار القدس وسقوطها.

القسم السادس : تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: اختيار غودفري دي بولليون ملكاً على القدس، وغيرته على الدين.

الفصل الثاني: نصر وهبه الرب للحجاج على حشود لاتعد من الأمة الماكرة.

الفصل الثالث: عودة الحجاج وبقاء عدد ضئيل منهم، وشجاعة مدهشة في الاستيلاء على يافا، ورام الله، وغزة، وكيف حصل بطريرك القدس على ربع المدينة المقدسة.

الفصل الرابع: تتويج بلدوين الأول، والاستيلاء على أرسوف، وقيسارية، وانتصار مزدوج على المصريين، والاستيلاء على كل من طرطوس وعكا.

الفصل الخامس: وقائع وأحداث في كونتية الرها، وفي إمارة أنطاكية، وفي طبرية.

الفصل السادس: الاستيلاء على جبيل وعلى طرابلس، وعصيان بلدوين، وموت تانكرد، وبرترام.

الفصل السابع: نجاح جوسلين، وانتصار روجر على التركمان.

الفصل الثامن: بناء قلعة الشوبك، والحصن المسمى اسكندرون، وموت الملك.

الفصل التاسع: انتخاب بلدوين ملكاً.

الفصل العاشر: انتصار التركمان على الملك، ووقوعه بالأسر، وأسر الكونت جوسلين.

الفصل الحادي عشر: انتصارات على التركمان، ومعاهدة بين السريان وبين دوج البندقية.

الفصل الثاني عشر: وصف لأوضاع صور ولموقعها والاستيلاء عليها.

الفصل الثـالث عشر: إطلاق سراح الملك، وانتصـارات كبيرة على التركمان.

الفصل الرابع عشر: موت الملك بلدوين، وتنصيب فـولك ملكاً ثالثاً على القدس.

الفصل الخامس عشر: الموت المشرف لجوسلين، وانتصـــار كبير للملك، وبناؤه الحصنين.

الفصل السـادس عشر: مـوت كـونت طـرابلس، وزحف امبراطور القسطنطينية نحو أنطاكية.

الفصل السـابع عشر: بعض الطرق التي سلكهـا الامبراطور ومـوته، والاستيلاء على مدينة بانياس.

الفصل الثامن عشر: الثناء على الملك فولـك وعلى انتصاراته، تنظيم المنطقة الساحلية كلها، وموت هذا الملك .

الفصل التاسع عشر: بعض مآثر الملك بلدوين الثـالث ملك القدس، وقدوم الامبراطور كونراد، والملك لويس ملك فرنسا، وإنجازاتهما.

الفصل العشرون: موت أمير أنطاكية وكونت طرابلس، وموت الملك بلدوين وحملات متكررة قام بها التركمان.

الفصل الحادي والعشرون: انتصار عمـوري على المصريين، والمعاهدة معهم ضد سلطان دمشق، وبعض مـا جرى في أنطاكية، واغتيـال خليفة مصر.

الفصل الثاني والعشرون: حصار كل من القاهرة ودمياط.

الفصل الثالث والعشرون: حماسة الملك عمـوري وغيرته على الملك، وكيف أراد الموارنة العودة إلى الإيمان الصحيح.

الفصل الرابع والعشرون: مآثر الملك بلدوين المجذوم الذي نصب ملكاً سابعاً، وظروف الانشقاق من أجل تنصيب غي ملكاً ثامناً.

القسم السابع : صورة الأوضاع المزدهرة في الأرض المقدسة أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

الفصل الأول: كيف أثمرت أرض الميعاد بأمراء وببارونات.

الفصل الثاني: كيف أثمرت الأرض المقدسة، أرض الميعاد، برجال دين وبأساقفة، وتقديم وصف لمدينة القدس.

الفصل الثالث:كيف أثمرت الأرض المقدسة، أرض الميعاد، برهبان، ومتقشفين وبنساك.

القسم الثامن: أسباب دمار أرض الميعاد المقدسة، وفقدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

الفصل الأول: الطقوس الدينية لدى الروم السريان من سكان أرض الميعاد.

الفصل الثاني: عادات الذين يدعون باسم البوليسيين، وكذلك الموارنة.

الفصل الثالث: الطقوس الدينية لدى الجورجيين والأرمن وعاداتهم.

الفصل الرابع: الطقوس الدينية لدى اليعاقبة والنساطرة والمستعربين.

الفصل الخامس: انحطاط أخلاق كثير من الغربيين الذين قدموا إلى الأرض المقدسة.

الفصل السادس: تدهور أحوال رجال الدين والرهبان.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه ثمانية فصول.

الفصل الأول: عقاب الرب العادل الذي أنزله بالسكان الفاسدين في الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: كونتية الرها، وأسر كونتها وحاكمها الشقي، وقلعة عرقة ومدينة بانياس.

الفصل الثالث: كيف تمكن صلاح الدين من التملك على مملكتين هما، مملكة مصر ومملكة دمشق.

الفصل الرابع: حظر مجمع اللاتيران لنقل الأسلحة وما شاكلها إلى المسلمين. مذبحة مروعة اقترفها صلاح الدين بحق الشعب الصليبي.

الفصل الخامس: ضياع المنطقة الساحلية بكاملها تقريباً.

الفصل السادس: خسارة كل من مدينتي القدس وعسقلان.

الفصل السابع: بكاء راثي لضياع مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: كيف حاصر صلاح الدين مدينة صور.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.،

الفصل الأول: ردات الفعل المدهشة التي عبر عنها الغربيون، واهتمام الحبرين الأعظمين بتنظيم حملة جديدة.

الفصل الثاني: سفر امبراطور روما، وموته[غرقاً]، وأيضاً حصار عكا من قبل غي ملك القدس.

الفصل الثالث: وصول نجدات إلى الصليبيين وإلى المسلمين سواء، ووقوع وقائع هائلة.

الفصل الرابع: وصول كل من ملكي فرنسا وإنكلترا، والاستيلاء

على مدينة عكا.

الفصل الخامس: الأوضاع البحرية في المنطقة، ونشوب خلافات مؤسفة بين الملكين المسيحيين، وعودة ملك فرنسا إلى بلاده.

الفصل السادس: خطة الحشد الصليبي لحصار القدس، ثم تراجعه عن متابعة تنفيذ المشروع، وإعادة بناء عسقلان، والطنطورة.

الفصل السابع: إعلان غي ملكاً على قبرص.

الفصل الثامن: عودة ملك إنكلترا نحو بلاده، وتتويج أول ملك على أرمينيا، حج الألمان، وموت صلاح الدين، والحكم في الأرض المقدسة حتى تسلمه من قبل عموري ملك قبرص.

الفصل التاسع: خلافات وانقسامات بين المسلمين، ونص اتفاقات الهدنة.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها وتقلب الأوضاع، وتداول الحكم فيها منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

الفصل الأول: انطلاق أعداد كبيرة من الصليبيين إلى الجانب الآخر من البحر، بفضل دعوة فولكون Fulcone.

الفصل الثاني: خرق الهدنة من قبل المسلمين.

الفصل الثالث: تمزقات داخل الجيش الصليبي، وإعادة النظر في الهدن. موت الملك عموري، وعقد مؤتمر من أجل زواج وارثة العرش.

الفصل الخامس: وصول جين دي بريين وتتويجه، وهجوم المسلمين على عكا وعلى من فيها من الصليبيين.

الفصل السادس : الحشد العام للعبور إلى عكا، والذي أنجز في أرض الميعاد.

الفصل السابع: حصار دمياط،و الصراع بين النائب البابوي والملك، ثم فقدان مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: الاستيلاء على دمياط، وسرعة الانغماس في الرذيلة والآثام.

الفصل التاسع: اشتباكات متفرقة، وخيبة الحشد الصليبي، وخسارة دمياط.

الفصل العاشر: قلق الحبر الأعظم واهتمامه مع الكرادلة بإرسال الامدادات إلى الأرض المقدسة، انتقال مملكة القدس إلى كونراد بن الامبراطور فردريك الثاني.

الفصل الحادي عشر: عبور الامبراطور على رأس قوة صغيرة، على الرغم من معارضة الكنيسة، والذي صنعه في قبرص.

الفصل الثاني عشر: أعمال الامبراطور في الأرض المقدسة، وتجديد الهدنة.

الفصل الثالث عشر: تقديم طلب إلى الامبراطور بإرسال ابنه كونراد إلى مملكة القدس. ونقل النائب الفاسد.

الفصل الرابع عشر: نقض المعاهدة المعقودة بين[أهل الأرض] وبين الامبراطور فردريك حول مملكة القدس.

الفصل الخامس عشر: عبور ملك نافار إلى الشرق، وإعادة النظر في بقية الهدن.

الفصل السادس عشر: عبور رتشارد دي كورنبي أيضاً، وانتقال ملك

مملكة القدس إلى أيدي الملكة إليزابث.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملتيه، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقـدسـة، حتى طرد الصليبيين منهـا، وفيهـا اثنان وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: كيف حمل لويـس ملك فـرنسـا الصليـب، معـارك الصليبيين في الأرض المقدسة، ضياع القدس المدينة المقدسة.

الفصل الثاني: عبور الملك لويس واحتلاله لمدينة دمياط.

الفصل الثالث: وقوع الملك لويس بالأسر، وإعادة دمياط.

الفصل الرابع: أوضاع الأرض المقدسة يوم كان القديس هناك.

الفصل الخامس: خلافات بين أهل جنوى وأهل البندقية والبيازنة.

الفصل السادس: حروب التتار ضد المسلمين،وضد المسيحيين أيضاً.

الفصل السـابع: مطالبـة إليـزابث بمملكة القـدس من النائب هناك. تدمير بعض المناطق من قبل الصليبيين ومن قبل المسلمين.

الفصل الثـامن: حملات متفـرقـة لسلطان مصر ضـد الصليبيين، ومؤامرات متبادلة بين الجنويين وبين البنادقة.

الفصل التـاسع: حملات متفـرقـة من البنـدقـداري ضـد الصليبيين، وفقدان مدينة أنطاكية.

الفصل العاشر: عبور ملك فرنسـا، القديس لويس إلى تونس وموته. معاهدة فيها بين ملك صقلية وبين ملك تونس.

الفصل الحادي عشر: حملات البندقـداري ضـد الصليبيين، وكيف حرض الصليبيون التتار ضده، ومحاولة للتهادن غير موفقة.

الفصل الثاني عشر: مغادرة الأمير ادوارد لـلأرض المقدسـة. إرسال بعض الامـدادات من قبل الكنيسـة ومن قبل ملك فـرنسـا، وحـوادث متفرقة.

الفصل الثـالث عشر: اهتمام مجمع ليـون بإرسـال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الرابع عشر: خـلافـات داخليـة وخـارجيـة بين المسيحيين في الغرب حول إرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الخامس عشر: البـلاط الرومـاني يضع حداً للخـلاف مـا بين ملك قبرص والآنسة مـريم، وتنازل الأميرة مريم عن حقوقهـا لصالح شارل ملك صقلية.

الفصل الســادس عشر: وصـول نائب عـن الملك شـارل إلى عكا، وتقديم أهل المدينة الولاء له.

الفصل السـابع عشر: حـروب وموت البنـدقداري، شقـاق بين أمير أنطاكية وبين الداوية، ومحاولة ملك قبرص الاستيلاء على عكا.

الفصل الثامن عشر: مؤتمر للصليبيين والمسلمين في المرقب.

الفصل التـاسع عشر: مـوت هيـوج ملك قبرص وهو في طريقـه إلى صور، وحصول ابنه هنري على عكا.

الفصل العشرون: ضياع اللاذقية وطرابلس.

الفصل الحادي والعشرون: ضياع مدينة عكا.

الفصل الثاني والعشرون: ضياع باقي أجزاء الأرض المقدسة.

القسم الثالث عشر: بعض الأحـداث والنتائج التي أعقبت الفقـدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً:

الفصل الأول : انتقام السماء من المسلمين .

الفصل الثاني: خلافات بين الأمراء البحرية الذين لم يغادروا البلاد.

الفصل الثالث: الأصل المخزي للتتار وبداية الحروب.

الفصل الرابع: انتصار التتار على الأتراك.

الفصل الخامس: توسع مملكة التتار باتجاه الغرب وباتجاه الجنوب.

الفصل السادس: قبول منغوخان المغول للعماد بوساطة ملك أرمينيا، وإرساله لأخيه هولاكو ضد المسلمين.

الفصل السابع: استيلاء هولاكو على بلاد فارس وقتله لخليفة بغداد، واستيلائه على شطر من سورية.

الفصل الثامن: مسلك خلفاء هولاكو مع المسيحيين ومع المسلمين.

الفصل التاسع: سمات التتار ومهارتهم في الحروب.

الفصل العاشر: بعض بطولات القبارصة ضد المسلمين. حملة غازان ضد المسلمين والمقاومة التي جوبه بها.

الفصل الحادي عشر: انتزاع حكم قبرص ظلماً من الملك هنري.

القسم الرابع عشر:وصف أوضـــاع الأمـــاكـن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة.

وهو في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول: وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: المنطقة الساحلية لسورية كلها.

الفصل الثالث: وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة.

الفصل الرابع: أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيها وراء الأردن نحو الشرق .

الفصل الخامس : وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن.

الفصل السادس: مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة.

الفصل السابع: الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس.

الفصل الثامن: الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون.

الفصل التاسع: الحج إلى الأماكن المقدسة من حول القدس.

الفصل العاشر: الحج إلى الأماكن المنسية في القدس.

الفصل الحادي عشر: الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل.

الفصل الثاني عشر: أوضاع مملكة مصر.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرةالتي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: الإجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

الفصل الثاني: الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

الفصل الثالث: ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

الفصل الرابع: أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها.

الفصل الخامس: كيفية إقامةالمخيم.

الفصل السادس: توضيحات وأمثلة تدلل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

الفصل السابع: مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

الفصل الثامن: الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

الفصل التاسع: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

الفصل العاشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حال إصابته بانتكاسة.

الفصل الحادي عشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

الفصل الثاني عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على العدو.

الفصل الثالث عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لإخفاء الكمائن.

الفصل الرابع عشر بعض الاجراءات الضرورية اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

الفصل الخامس عشر: طرق متعددة لإلقاء الحصار، والإجراءات الاحتياطية اللازمة.

الفصل السادس عشر: توصيات مفيدة للعساكر والتعليمات.

الفصل السابع عشر: وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء

على أرض الميعاد.

الفصل الثامن عشر: يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل.

الفصل التاسع عشر: الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

الفصل العشرون: كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

الفصل الحادي والعشرون: كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية، وتأمين الثروات الوافرة.

الفصل الثاني والعشرون: اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياه.

الفصل الثالث والعشرون: تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته.

الفصل الرابع والعشرون: عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

الفصل الخامس والعشرون: إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة.

بداية الانجيل المقدس للقديس يوحنا

«في البـدء كـانت الكلمـة، والكلمـة كـانت عند الرب، وكـان الرب الكلمـة، هذا كـان في البـدء عند الرب.كل شيء به كـان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيـه كانت الحياة، والحيـاة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه.

كان إنسـان مرسل من الرب اسمـه يوحنا. هذا جاء للشهـادة ليشهد للنور لكي يؤمـن الكل بواسطتـه. لم يكن هو النور، بـل ليشهـد للنور. كـان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسـان آتيـاً إلى العـالم. كـان في العـالم وكون العالم به، ولم يعرفه العالم. إلى خـاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما كـل كل الـذين قبلـوه فأعطـاهم سلطـاناً أن يصيروا أولاد الـرب، أي المؤمنون باسمـه، الذين ولـدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسـد، ولا من مشيئة رجل، بل من الرب.

والكلمة صـارت جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لـوحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً»[يوحنا: ١ / ١ — ١٤]

من إنجيل مرقس

قال يسوع في ذلك الزمان لحوارييه:

«فأجـاب يسـوع وقـال لهم، ليكن لكم إيمان بالرب.لأني الحق أقـول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحـر ولايشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقـوله يكون، فمهما قال يكون له. لذلك أقـول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم. ومتى وقفتم تصلون فـاغفـروا إن كـان لكم على أحـد شيء لكي يغفـر لكم أيضـاً أبوكم في السموات زلاتكم. وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السموات

أيضاً زلاتكم»[مرقس : ١١ / ٢٢ — ٢٦].

من إنجيل لوقا

قال يسوع في تلك الأيام لحوارييه:«وأنا أقول لكم اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم».[لوقا : ١١ / ٩]

من إنجيل متى

«لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس(بانياس) سأل تلاميذه قائلاً: من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟. فقالوا، قوم: يوحنا المعمدان وآخرون إيليا، وآخرون إرميا، أو واحد من الأنبياء، قال لهم:وأنتم من تقولون إني أنا؟. فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الرب الحي. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السوات. وأنا أقول لك أيضاً : أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات».[متى : ٦ / ١٣ — ١٩].

ارحمنا يا رب، أبانا الذي في السموات

«أمل أذنك يا إلهي واسمع، افتح عينيك وانظر خربنا والمدينة التي دعي اسمك عليها لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعنا أمام وجهك، بل لأجل مراحمك العظيمة. يا سيد اسمع، يا سيد اغفر، يا سيد اصغ واصنع، لا توخر من أجل نفسك يا إلهي لأن اسمك دعي على مدينتك وعلى شعبك».[دانيال : ٩ / ١٨ — ١٩].

بسم الأب والابن والروح القدس

آمين

سنة الرب ١٣٠٧.

في سنة ١٣٠٧ لتجسيد ربنا يسوع المسيح، الذي هو نورنا وحياتنا، وفي شهر كانون الثاني، باشرت بتصنيف هذا الكتاب، وبالملخص الموجز الأول المتعلق بالأرض المقدسة، لأن الحقيقة هي من الروح القدس، وغير مهم على لسان من يعلنها.

في سبيل إضعاف قوى السلطان مع الشعب الخاضع له، يتوجب تطبيق الحظر بجدية أكبر وبفعالية أعظم مما كان عليه الحال في الماضي، بحيث أن لا يتمكن أي إنسان من الوصول إلى البلدان الخاضعة للسلطان، حسبما سنري فيمايلي في الفصل الأول من القسم الرابع، على أن يسري ذلك ليس على البحر فقط، بل على البر أيضاً، كما سنبين في الفصل المقبل، وأن يجري إنزال عقوبات بالذين يخالفون وكذلك بالذين يتعاملون معهم، لا سيما في حقل التجارة، وأن تكون هذه العقوبات مثل التي تطبق ضد الهراطقة، وليكن على الجميع محرماً تحت طائلة عقوبة مماثلة، تسلم بضائع واردة من أفريقيا، لابل حتى من إسبانيا من المناطق المقطونة من قبل المسلمين، وكذلك أية سلع قادمة من الهند عبر المناطق الخاضعة للسلطان كما سنرى في الفصل الثالث من القسم الرابع.

وليكن محرماً بالطريقة ذاتها على أي إنسان شراء المنتوجات المذكورة أعلاه من البلدان الشمالية، الممتدة من حدود أرمينيا إلى تخوم آني، كما سنوضح في الفصل الرابع من القسم الرابع.

وليحرم أيضـاً، بالشكل نفسه على أي إنسـان شراء أو تسلم البضائع التي مصـدرها الأراضي الخاضعـة للسلطان، سـواء أتـم ذلك في بلاد اليـونان أو جـزرها، أو في أي بقعـة مـن العـالم، وأن يشمل ذلك أيضـاً البضـائع التي تـأتي تسللاً، وذلك كما سنوضح في الفصـل الخامس من القسم الرابع.

وليكن هذا أيضـاً محظوراً، تحت طائلة العقـوبة الجسيمـة التي يتم تحديدها، والتي ينبغي إنزالها بحق سـادة المناطق والجماعات والتكتـلات البشرية، وبحق كل من يخالـف مـا رسمتـه الكنيسـة، وينبغي مـلاحقـة هؤلاء وعـدّهم هراطقـة، ومـلاحقـة كل من يود دعمهم بمسـاعـدة أو بمشورة، أو بمنح امتياز، حسبما هو وارد في الفصل السادس من القسم نفسه.

وليصدر أيضاً أمر بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق كل من يعرف بوجود أفـراد أو أشخاص خالفوا هذه الأوامـر، ولم يبادروا إلى الإبلاغ عنهم بأسرع ما يمكن، وبطريقة مشروعة.

ويشترط هنا بشكل مطلق عـدم إفشـاء اسم الشـاكي لا للمشتكى عليهم ولا لأي إنسـان كان، وإذا صـدر الحكم بعـدم وجـود ما يدعـو لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي، أو مهما كان الأمر، ينبغي إعطاء الشاكي ثلث مـا ينتـزع من المشتكى عليـه، ومهما يكن من أمـر يبقى سريان الالتزام بالسرية كما بينا أعلاه.

وإذا راق لقداسة الحبر الأعظم التنفيـذ الفعلي لهذه القرارات، فليعمد إلى تطبيق الأمـر الكنسي بكل دقـة، ودونما إهمال من قبـل أي إنسـان، وذلك بأن يعلن عنه في جميع المدن البحريةفي أيام الآحاد والأعياد، لأننا نرى بالواقع أن الأوامـر المتقدمة التي صـدرت عن المجامع المقـدسة أو عن البـابـوات، طواها الزمن ونسيت، لأنه لم يعلن عنهـا في الكنائس،

حتى أن رجالاً مثقفين ما برحوا يعتقدون أن تصدير البضائع العادية إلى البلدان الخاضعة للسلطان أمراً جائزاً.

والطريقة الأفضل للاعـلان عن ذلك القرار الكنسي، كما نرى هو أن يجري ذلك بعـد تلاوة الانجيل، وقبل الشروع بالصـلاة، فهـذا أجـدى وأنسب، فهو الوقت الذي يكون الشعب بالعادة مجموعاً به ومهيئاً أكثر.

ولتنفيذ هذا المشروع هناك حاجـة إلى غلايين، كما هو مبين في الفصل السـابع من القسم الرابع من هذا الكتـاب، ومن الضرورة بمكان تعيين مشرفين رسميين يتولون إنزال العقوبة بحق من يخالف هذه القرارات.

بسم الرب الأزلي
آمين

سنة الرب ١٣٠٦

في السنة ١٣٠٦ لميلاد مولانا يسوع المسيح، وفي شهر آذار، وبشكر للرب الكلي القدرة، وفي سبيل مجد اسمه القدوس وإكرامه، ومن أجل كرامة سيدنا وأبينا البابا الحبر الأعظم، وأيضاً من أجل رفع شأن الإيمان المسيحي، ولخزي السلطان وكل من يتبع محمداً(ﷺ)، وفي سبيل عودتهم ورجوعهم إلى الكنيسة الأم الحنون، ومن أجل ازدهار الإيمان بالصليب الفادي المحبوب، باشرت العمل بهذا الكتاب، بنعمة منه تعالى، أنا مارينو سانوتو، المشهور بلقب تورسيللو، من منطقة سينت سيفرو، ومدينة ريفوالتي من أعمال البندقية، وأنا أيضاً خادم أمين متواضع، كنت ملتحقاً من قبل بخدمة أبينا ومولانا في المسيح، الطيب الذكر، الذي كان معيناً كردينالاً شماساً على كنيسة القديس يوستاكي Eustachii.

فلقد ظل يقلقني طوال حياتي همّ واحد هو القيام بإجراء أبحاث حول المعطيات التي وجدت فيها الأرض المقدسة مع باقي مناطق ما وراء البحر، سواء في البحر أو البر، وهذا ما سأعرضه بكل نشاط ومحبة، منحنياً بتواضع عميق، جاثياً على ركبتي، كمسيحي أمين.

بداية الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

وهو يتضمن الترتيبات اللازمة والاستعدادات لاسترداد الأرض المقدسة وهو في خمسة أقسام.

القسم الأول

ويشتمل على طرق إضعاف السلطان،
وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح
الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار
إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان،
وتقدير للأذى العظيم والأضرار الكبيرة
التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا
توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم
في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيـــان للأرباح التي يجنيهـــا السلطان وشعبـــه من المنتجـــات القـــادمـــة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيـث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

ينبع القسـط الأكبر من العظمـة والهيبـــة، والمداخيل التـي ينعم بها السلطان والشعوب الخاضعـة له، من كون الأصناف النـادرة، والبضائع الكثيرة، لا تنتج كلهـا في أراضي السلطان والبلدان الخاضعـة له، بل في بلاد الهند وأراضيهـا، وهي تعبر من المحيط الهندي نحو الغـرب بطريق البحر،ولهذاالمحيط في تلك المناطق مرسيـان هما: المليبار، وكولم، ذلك أن الأصنـاف النادرة والمنتجــــات الـواردة من الهنـد ترسـل إلى هذيـن المرسيين،ومن هناك تحمل من جـديد على مـراكـب من أجل تصـديرها نحـو الغرب، انطلاقـاً من أربعة مـراسي، ثلاثة منها واقعـة في الأراضي والشواطىء التي يسيطر عليها التتار سـادة بلاد فارس، وواحد من هذه

المراسي موجـود على اليابسـة، واسمه هرمز، والثـاني موجـود في جزيرة صغيرة اسمهـا كيش، والثـالث عند مصـب النهـر النازل من بغــداد، وكـانت الكمية الأكبر من الأصناف النـادرة ومن المنتجات التي كـانت تصدر في الماضي نحـو الغرب، تمر عـادة ببغداد، ومن هناك إلى أنطـاكية وكليكيا على البحر المتوسط، وكانت الأصناف النادرة في ذلك الزمن مع غيرها من منتجات الهند، تصل بكميـات أكبر، وبأسعار أرخص مما هي عليه الآن.

أمـا المرسى الرابع فهو الذي اسمـه مرسى عـدن، وهو قائم في شبـه جــزيرة ثابتــة في بلاد المسلمين، وتشحن الأصناف النادرة والبضــائع القـادمـة من الهندمجدداً من ذلك المرسـى، وترسل من هناك عبر أراضي المسلمين في رحلة تستغرق تسعـة أيام على ظهور الجمال، حتى تصل إلى مكان اسمه قوص، وتنقلهـا القوافل من هناك إلى القاهرة عن طريق نهر النيل خـلال خمسـة عشر يومـاً، ويفيض النيل في حـوالي تشرين الأول ولهذا فإن الأصناف النادرة والبضائع النازلة إلى القاهرة عبر ذلك النهر، تنقل عبر تعـرجـات طولها مـا بين القـاهرة والاسكندرية حـوالي المائتي ميل، وتسهيلاً للسفر تواكـب المراكـب الضفة اليسرى التي يسيطر عليها المسلمون، ومن القاهرة تتوجه الأصناف النادرة وغالبية البضائع القادمة من الهند، إلى الغـرب، عبر طريق الاسكنـدرية، ويستـوفي السلطان عند مختلف مواقع التعشير مبالغ تساوي ثلث مـداخل خزينته، هذا عدا عن المرابح والمنافع التي يجنيها التجار والشعب.

وهناك كميــة أقـل من الأصناف النادرة ومن البضـــائع المرسلة إلى الغـرب، تنزل الآن باتجاه المراسي الثـلاثة المذكـورة أعـلاه، والواقعـة في المناطق الخاضعـة للتتار، ومن هناك تـرسل إلى بغداد، ومن بغـداد هناك طرق كثيرة يمكن لتلك البضـائع أن تنقل عبرها نحـو البحر المتـوسط، وهذا ما يجري الآن فعلياً، دون المرور مطلقاً بالمراسي أوبالشواطىء، أو

بالأراضي الخاضعة للسلطان.

وبناء عليه ينبغي الوقوف في وجه الذين يسعون نحو بلاد السلطان لابتياع الأصناف النادرة، وبقية أنواع البضائع، ومن ثم نقلها عبر البحر المتوسط، ومن المتوجب منع هؤلاء، حسبما تقدم الذكر في الموجز، ففي هذا الموجز جرى التركيز على وجوب منع أية بضائع قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان، بشكل قطعي ودقيق، وقتذاك سوف تتحول جميع هذه الأصناف النادرة والبضائع عن مساراتها المعتادة، لتسلك طرق بلاد التتار، لأنه مثلما تنساب المياه طبيعياً إلى الوديان، كذلك تتدفق البضائع عبر الطرق التي يوجد عليها عدد أكبر ممن يشتريها، وبناء عليه سيجد الشعب المسيحي الكميات الكافية من كل ما يلزمه من تلك البضائع، ويجني التجار نصيبهم الكامل من الأرباح.

ثم ماذا بعد هذا؟ بعد هذا يمكن للتجار المسيحيين سلوك ذلك الطريق، أي الاتجاه إلى الهند عبر طريق بلاد التتار، وبالفعل يمكن لكثيرين القيام بهذه الرحلة، ذهاباً وإياباً، ذلك أن السلطان لا يسمح لمسيحي واحد بالمرور بأراضيه إذا كانت لديه نية بالذهاب إلى الهند، والذي يحدث الآن فعلياً يبرهن لنا على صحة هذا الطرح، فعندما توضع عراقيل في وجه انتقال البضائع، وحواجز تحول دون وصولها إلى مكان ما عن طريق واحد، نجد التجار، وهم الساهرون على مصالحهم الذاتية يفكرون ويبحثون عن طريق آخر يمكن ركوبه،حتى يتمكنوا من توصيل بضائعهم إلى ذلك المكان ذاته، وقد قيل:«التاجر الصالح هو المدرك للمصالح»،فهو لا يمنح نفسه طعم الراحة مالم يكتشف طريقاً للوصول ببضائعه إلى حيث الحاجة إليها أكبر، وبالتالي إلى حيث يمكنه جني أكبر قدر من المرابح، ويمكن لقداستكم أن تتبين بشكل جيد ما أعنيه، فكل واحد يعرف أنه من جهة التتار، أي عن طريق بغداد وتوريز كانت البضائع تسير منذ زمن بعيد ولاتزال تسير حتى اليوم كل

البضائع تقريباً نحو البحر المتوسط، ولاسيما البضائع التي خفّ وزنها وارتفع ثمنها، من أمثال التوابل والقرفة والجوز هندي وغير ذلك.

أما ما تبقى من بضائع هي أكثر وزناً وأقل ثمناً مثل الفلفل والزنجبيل والبخور والقرفة وغيرها فإنها تحمل من عدن إلى الاسكندرية، بكميات أكبر من تلك التي تحمل عبر الطريق الآخر المشار إليه من قبل.

هذا وإن البضائع المحمولة عن طريق بلاد فارس والكلدانيين — حسبما أشرنا من قبل — هي أفضل نوعية بها لا يقاس من البضائع التي تحمل إلى الاسكندرية، وخاصة الزنجبيل والقرفة أيضاً.

وواقع الحال أن الزنجبيل المحمول عن طريق التتار هو من نوع أفضل وأعلى ثمناً من ذلك المحمول إلى الاسكندرية وذلك بنسبة تتراوح ما بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة، وسبب ذلك هو أن البضائع الأعلى جودة تحمل عن طريق التتار، لأن حمل تلك البضائع عبر ذلك الطريق وإن استوجب نفقات أعلى للحمل والنقل غير أن المكوس ضئيلة، في حين أن نفقات نقل البضائع من جهة مصر زهيدة،لأن المراكب تسير على محاذاة الضفة اليمنى للنهر بكل سهولة، لكن المكوس التي تدفع إلى السلطان هي أعلى.

ولهذا يختار التجار للطريق الأول بضائع أعلى جودة، لأنهم يعرفون جيداً جميع هذه الميزات، ويعرفون أن نفقات النقل هي هي سواء أكانت البضائع ثمينة أم لا، فضلاً عما تقدم، إن الزنجبيل المحمول إلى الاسكندرية مجفف وفيه كثير من التلف والتسوس، وهذه النسبة أعلى منها بالنسبة لما يحمل عبر الطريق الآخر، ويعتقد أن مرد ذلك هو أن الطريق البحري أطول من طريق بلاد التتار، لأن من المعروف أن الزنجبيل صنف يتعرض للفساد بسهولة.

الفصل الثاني: إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

يبلغ إنتاج الحرير والسكر من بلدان السلطان كميات كبيرة لا يستهان بها، ويجني السلطان ومثله المسلمون من ذلك أموالاً كثيرة كرسم مرور وكضرائب فإذا توقف المسيحيون عن استيراد ذلك، فإن هذا يلحق بالسلطان، وبالمسلمين ضرراً كبيراً بالغاً، لاسيما وأنه من الممكن إنتاج الكميات التي نحتاجها من السكر في قبرص، ومن هنا يمكن للمسيحيين تأمينها، يضاف إلى هذا يجري إنتاج السكر في رودس والمورة ومالطة، وكذلك في صقلية وغيرها من البلدان، وعلى هذا يمكن تأمين ما نحتاجه من سكر وإنتاجه إذا ما تمّ الاهتمام بالموضوع، ومن الممكن كذلك إنتاج الشرانق في أبوليا وفي صقلية، وكريت وجزر اليونان وقبرص، وذلك بكميات وافرة، وإذا ما طبق أمر الحظر بشدة أكبر مما جرى في الماضي، وقتها من الممكن إنتاج الشرانق بكميات أكبر في هذه المناطق وفي غيرها من البلدان التي من الممكن أن يعيش فيها دود القز، وبناء عليه إذا ما أمعنا النظر في الأمور، يمكن للمسيحيين إنتاج ما يكفيهم من الحرير، ولن يعانوا كثيراً في سبيل تأمين ما يلزم من سكر.

الفصل الثالث: تبيان طريقة منع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الاتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

ينبت الكتان في مصر بكميات كبيرة، ومنه تصنع أنواع كثيرة من الأقمشة، كما أنهم ينسجون الكتان ممزوجاً بالحرير، وتصنع ثياب الحرير الخالص في مصر، مع أن مصر لا تنتج الحرير، هذا وتحمل تلك الأقمشة مع الكتان والبضائع المذكورة أعلاه، باستمرار عبر تركيا أو عبر أفريقيا على مراكب مسيحية وإسلامية حتى البحر الأبيض الكبير

والبلدان الأوربية، ومع أن الكتان متوفـر بوفرة في البلدان المسيحية،غير أنه أدنى جـودة من الكتـان المصري الذي يصـدر إلى الغـرب، وبما أن الكتـان المصري هذا من غير الممكن إنزاله إلى السوق بشكل مـربح عبر المتوسط، إذا مـا طبق الحظر بشكل دقيق، وكانت هناك مـراقبة صـارمة للبحـر، وبذلك سـوف يتكبـد السلطان مـع مسلمي الأندلس خسـائـر جسيمة، ولنتذكـر هنا أيضاً أن الأراضي الخاضعة للسلطان تنتج بشكل خـاص الأفـاوية والقـرفـة بكميـات كبيرة في مصر، ويصـدر من هذه الأصناف كميات كبيرة جداً إلى بلدان مختلفة من العالم عبر المتوسط.

الفصل الرابع: ذكـر للأضرار التي سـوف تلـم بالسلطان، وبالشعب الخاضع له، في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

بما أنه لا يوجـد في البلدان الخاضعـة للسلطان لا ذهب ولا فضـة خـالصة ولا قصـدير ولا معادن أخـرى، يضـاف إلى هذا لايوجد فيهـا لا مـرجـان ولا عنبر فكل هذه الأصناف تصـل إلى بلاده عبر الطرق البحرية، ويفرض السلطان عليها في الاسكندرية مكوساً عالية.

وكان الرسم الذي يستـوفى في الماضي على الذهب الواصل إلى السكة ستة وثلاثين بالمائة، وحيث أن أسعار الذهب عالية جداً في الغرب، فقد جـرى في هذه الأيام إهمال الـذهب، والاعتماد على الفضـة التي ازداد استيرادها، ويستـوفى في الاسكندرية عن تجارة الفضة رسم يبلغ أربعـة ونصف بالمائة، لكن حصل بعض التجـار في أيامنا هذه على امتياز أن لا يدفعوا عـن الفضة سوى رسم مقـداره ثلاثة ونصف بالمائـة، ويتقاضى السلطان على جميع الفضـة المستـوردة لصـالح السكـة في القـاهرة رسماً مقـداره العشر، أما النحـاس فإن الرسم المستـوفى عليـه في الاسكندرية وغير الاسكندرية من المركز قد يصل إلى مـا يقارب الربع، أما القصدير فإن الرسم المفـروض عليـه في مختلف مـراكـز التعشير فقـد يصل إلى

الخمس، هذا وبالإضافة إلى ما يستوفيه السلطان من مكوس عالية على القصدير والفضة الصرفة، ويستوفي أيضاً مثل ذلك على المرجان والعنبر، ويجري توزيع هذه البضائع كلها في مصر امتداداً إلى الحبشة وإلى الهند.، ولا شك أن في هذا مرابح وافرة لصالح السلطان والتجار لديه ولشعبه.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة، التي ستتوجب على السلطان وستنزل به، إذا أُوقف تصدير المواد الغذائية والمنتجات المتنوعة من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

فضلاً عما تقدم يحمل التجار إلى الإسكندرية وإلى الأراضي الخاضعة للسلطان كميات كبيرة من الزيت والعسل والأعلاف للمواشي، واللوز وأنواع الصمغ، وباختصار إن عائدات السلطان في مختلف مراكز التعشير هي الربع، ويحمل التجار أيضاً الحرير والأقمشة والصوف، والمنسوجات الحريرية أو المنسوجات الكتانية مع أشياء أخرى كثيرة كلها يدر على السلطان وعلى شعبه أرباحاً وفيرة وقد يحدث في بعض الأحيان قصور بفيضان النيل، وبذلك فإن الأراضي التي لا يلحقها الفيضان لا تعطي غلالاً، وذلك مثلما حدث بعد مدة قصيرة من سـ عكا وسورية، ولولا إمدادات القمح التي بعثت إلى المصريين لاضـ وقتذاك في غالبيتهم إلى الموت أو ترك البلاد.

الفصل السادس: وصف بلاد مصر، وتبيان الضرر العظيـ سوف يلم بمصر إذا ما انقطعت عنها السفن مع باقي الا المحتاجة للملاحة البحرية.

لما كانت الأخشاب غير متوفرة في مصر، وأيضاً لا يوجد فيه ولا القار، وهذه هي المواد التي تتحكم بتطور الملاحة البـ وبجودتها، وبما أن المسلمين لا يقدرون على الحصول عليها ...

المتوسـط، فإنه إذا لم تكن لديهم سفن فمن الصعب أن تتمكن مصر من الصمود، ولا سيما القاهرة، ومثلها في ذلك مثل المناطق المكتظة بالسكان في بلادهم.

ومرد ذلك إلى أن القاهرة قائمـة على ضفاف نهرالنيل، والمسافة من القـاهرة إلى البحـــر تبلغ قـرابة المائـة ميل، ونهر النيـل يصب في البحـر المتوسط، وله أربعة فروع، واسم الفرع الأول منها فرع تنيس، من جهة الصحـراء، واسم الفـرع الثاني فـرع دميـاط، واسم الفرع الثـالث فـرع البرلس، وأمـا الفـرع الرابع فهـو فـرع رشيد، وفـرع رشيـد قـريب من الاسكندرية وهو من جهتها، وبين هذه الفروع الأربعة اثنان أكبر حجماً وأهميـة وهما فرعـا دمياط والبرلس، ولأحـد الفرعين الآخـرين المسمى فرع تنيس حـوض أعمق، وهو قادر على استقبـال السفن الأكبر حجماً، والأكثـر ثقلاً، حيث يوجـد داخل الحوض بحيرة كبيرة وفسحة واسعـة تسمح لعـدد كبير من السفن أن ترسـو فيهـا، والميناء مـوجـود في الميـاه المالحة، وأمـا الفرع الآخـر المدعـو البرلس، فإن حـوضه أقل عمقـاً من الثـلاثة الآخرين، ويستقبل سفناً أقل ضخـامة، هذا وتستطيع الغـلايين دخوله في موسم الفيضان، وبعده بمسـافة وجيزة بحيرة ثانية، واحد من أجـزائها تارة عـذباً وتارة أخرى مـالحاً، ويبلغ داخل الزوايا الأربع لهذه الفـروع نزولاً من الدلتا حتى البحـر مائـة وعشرين ميلاً، وإذا مـا سرنا من دمياط إلى الاسكندرية بمحـاذاة البحر فـالمسافة مـائتي ميل، وإذا ما سايرنا مجرى النيل من القاهرة نحو الجنوب، يقال إن الذي تحت سيطرة السلطان يبلغ مسافة مائة ميل، وللنيل الواقع تحت حكم السلطان فروع عديدة، حولها بحيرات كثيرة، ومستنقعات وتشعبات وأقنية كثيرة تجري في أرض مصر وتتدفق فيها وتسقي الأراضي وتؤمن ريها.

وعلى ضفـاف النيل وفـــوق ميـاهه عــدد كبير من المحطات، ولهذا السبب تنقل البضـائع والأغذية، ومختلف أنواع البضـائع والمنتجات على

السفن، وحركة النقل والتجـارة هذه نشطة جداً، هذا ويستوفي السلطان مكوساً على الأخشاب والحديد والقار التي تحملها السفن هنا وهناك ما يعادل ربع قيمتها، ولا شك أن هـذا مبلغاً كبيراً، ويستوفي السلطان على كل مـركب مبحر سـواء أكان كبيراً أم صغيراً ثلاثة دنانير ذهبيـة، وهي تعادل ثلاثة فلورينات ذهبية ونصف فلورين.

ويتضح من هذا كم هو مهم عدد السفن التي تمر في مـوسم الفيضان عندمـا يجري حمل القمـح إلى القـاهرة، فـوقتهـا تزداد كثـافـة حـركـة الملاحةعلى النيل وعلى بحيراتـه ذهاباً وإياباً، وإذا ما تأملنا كثـافة حـركة الملاحة وكثرة الرحلات، نرى بالفعل ما يثير الدهشة.

ويسكن في القاهرة مجموعـات كبيرة من التجار والحرفيين، ويحكم في قلعـة القـاهرة السلطان ويقيم بها قادتـه وأعوانه، وتمتـد سلطتـه لتشمل مساحـة قدرها نحـو ألفي ميل، وأعداد المسلمين في مصر كبيرة، وبما أن سلطة السلطان متمـركزة في مكان واحـد، فهو على ذلك السيد الـوحيد الذي يحكم مصر كلهـا مع الصحـراء والمناطق التي خلفهـا امتـداداً إلى أرمينيا والميـاه الباردة المتاخمة للأراضي الخاضعة للمغـول، وهكذا إذا ما حرم المسلمون من القدرة على الملاحـة، لن يعود بالإمكان نقل البضائع والمؤن والامـدادات لا إلى القـاهرة ولا إلى القلعـة، لأنه وقتـذاك تصبح كلفـة النقل أعلى من ثمن تلك البضـائع، آخـذين بعين الاعتبـار أنه لا يمكن نقلها عن طريق البر.

ولهذا إنه مـن المناسب أن يتشتت سكـان القـاهرة وجند القلعـة، والشعب الموزع بينهم، في جميع أرجـاء مصر، التي هي مناطق شـاسعـة واسعة، فإذا تشتتوا في أنحاء مصر، يغـدو من الطبيعي وقوعهم منطقياً تحت حكم سلطات متعـددة مما يثير المنازعـات بينهم، وحيث يستبـد التشتت تسود التفرقة، وقد كتب«كل أمة منقسمة على ذاتها تخرب».

القسم الثاني :

ذكر كيف أن إحدى المناطق الخاضعة للسلطان قد تعرضت للضعف وهو في فصلين:

االفصل الأول: شرح كيف تضاءلت ثروة إحدى المناطق الخاضعة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعة خلف البادية، وكذلك في بعض أرجاء سورية.

كانت — فيما مضى — المناطق الخاضعة لحكم السلطان خارج مصر، فيما وراء الصحراء باتجاه أرمينيا، وصولاً إلى المياه الباردة، الموجودة على حدود البلاد الخاضعة للتتار، أكبر، وأقوى، وأغنى منها اليوم، أي لما كان الصليبيون يسكنون في عكا وسورية، وأسباب هذا التراجع عائدة إلى أن منتجات السكان المحليين وبضائع وتجارات غيرهم من الشعوب، التي كانت تعبر من عكا ومن سورية قد بقيت في كانها في البلاد الاسلامية، لأن الذين كانوا يستلمون تلك البضائع نوا من المسيحيين،ولأن شعب المسلمين شعب خامل كسول.

الفصل الثاني: يوضح كيف أن عدد السكان، وخاصة الرجال المقاتلين قد تضاءل في الأراضي الخاضعة للسلطان.

لقد تفضل الرب وتكرم في تنصيب رجل حازم سيداً على أرمينيا هو الأخ يوحنا، من رهبان طائفة الفرنسيسكان ليذل السلطان والمسلمين وليردعهم، فقد عمل بدهاء ولمدد طويلة من أجل تحريض التتار وإثارتهم ضدهم، وكانت محصلة ذلك حرمان أرض المسلمين الممتدة إلى مصر، لحقب طويلة من عدد كبير من الرجال، ومن كميات لا تحصى من الثروات، وكانت المحصلة ضياع وتشتت غالبية جنود السلطان، وإفلاس الشعب المسلم، لأن الكثيرين منهم غادروا البلاد، وباتت الأحوال في الوقت الحاضر ووصلت إلى حد أنه لم يعد في هذا الجزء من

البلاد لا رجال ولا ثروات، مقارنة بما كـانت عليه الأوضاع فيما مضى، ولولا المساعدات التي يبعث بها السلطان إلى هناك، لما كان قد بقي أحد أو أي شيء على الاطلاق.

القسم الثالث

ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا القسم في فصلين:

الفصل الأول : الأسباب الداعية لمنع تصدير السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة، إلى المسلمين في مصر.

يمكن لكل إنسان أن يرى بكل وضوح ما حدث في الماضي عندما قررت حكمة سلفكم تعميم قرارها الرسمي بحظر تصدير الأخشاب والحديد والقار إلى بلاد المسلمين لأن الايرادات والأرباح من الرسوم التي يستوفيها السلطان في أرض مصر، كانت بالكامل وما تزال مرتبطة بالذين يديرون أعمال الملاحة، وبفضل هذه الملاحة نال السلطان وما برح ينال ثروات ثمينة، وإذا ما تمعنا بالدراسة، نتيقن بأن سلطته قائمة فقط بفضل المرابح التي يجنيها من أعمال الملاحة.

الفصل الثاني: تبيان للطرق والاجراءات التي يتخذها المسلمون في مصر للمحاماة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخرى على الغلمان والجواري.

فضلاً عما تقدم إن الناس الذين يولدون في أرض مصر وأحوازها غير صالحين إطلاقاً لحمل السلاح، مقارنة بالمجلوبين من مناطق أخرى، فقد استغل السلطان والقادة لديه الثروات المجنية من وراء الملاحة بالبحر، وأخذ السلطان يرسل تجاراً يشترون من عدة بلدان غلماناً مسيحيين، ووثنيين سواء، وذلك من أي مكان يستطيعون ابتياعهم فيه بالمال، وكانوا بعد الحصول عليهم يدربونهم على استخدام السلاح، ويعلمونهم فنون القتال، وهم الآن بالفعل سادة المناطق المصرية، والبلدان الخاضعة للسلطان، وبهم يحفظ السلطان بلاده ويحميها،

-٣٥١٧-

وبفضل قـــوتهم طرد السلطان الصليبيين من أرض الميعــاد، ويجلب في الوقت نفســه إلى البلدان الخاضعة للسلطان جـواري من مختلف المناطق سواء أكـانت مسيحية أم وثنيـة، فهم يحصلون عليهن للمتعة الجسـدية، ويخضعوهن — هلاكاً لأنفسهن — لشريعة محمد(ﷺ).

القسم الرابع

وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الإجراء الحالي، وكيفية إعداد الغلايين اللازمة للدفاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحر، وبالوقت نفسه لتدمير المسلمين، وكيفية العمل لمنع أية أعمال تجارية على الاطلاق مع البلاد الخاضعة للسلطان عبر البحر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول: لماذا يتوجب منع أي إتجار مع المسلمين الخاضعين للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

للاقلاع بها العمل المقدس الهادف إلى استرداد الأرض المقدسةالتي روّاها بدمه الغالي مولانا يسوع المسيح، الابن الوحيد للرب الحي، ولإكمال ذلك من الضروري تماماً أن يعمم الحظر رسمياً في العالم كله، أي الاعلان بشكل عام إنه ممنوع أن يرسل إلى هناك الخشب والحديد والقار، وأن يؤخذ من هناك بشكل عام أي صنف من الأصناف، وسبب ذلك هو مايلي:

عندما يود المسيحيون استلام المنتجات الخاصة والسكر والحديد، ومختلف أنواع البضائع من المشرق، يذهبون إلى هناك، ويعودون، ومعهم البضائع التي من المؤكد أنها غير مخالفة للحظر، وهنا يحدث أن المسيحيين المخالفين ومثلهم كذلك المسلمين، الذين يمتلكون هم أيضاً سفناً خاصة بهم، أنهم يقدمون إلى الغرب محملين بالبضائع ومن ثم يعودون وهم يحملون على سفنهم الأخشاب والحديد والقار، والرقيق، إلى مصر والأراضي التابعة للسلطان، وهكذا يحدث أن المسيحيين الذين يريدون أن يكونوا طائعين للكنيسة، يتورطون في تقديم المساعدة إليهم، وإنه لمن الأفضل لهؤلاء المسيحيين المخلصين أن يتجمعوا على البحر أو

على اليابسة، في المراسي، أو في أي مكان، وأن يحتشدوا سوية مع سفن المسيحيين المخالفين، وهناك لا بد من وجود المسلمين مع سفنهم المحملة خشباً وحديداً وقاراً، ورقيقاً، وإذا ما غضوا النظر عنهم، يكونوا قد ساعدوهم وأنقذوهم وسهروا على سلامتهم، ودعموهم.

وإذا ما تصرفنا على عكس ذلك، يتوجب إلقاء القبض على الأشخاص التابعين للبلدان والأراضي الخاضعة للسلطان، ومصادرة بضائعهم، ووقتها لن يتجرأوا ثانية على ركوب البحر من جديد.

وبناء عليه يتضح تمام الوضوح أنه في حال الاعلان الرسمي عن هذا الحظر في العالم كله، وفي حال تطبيقه بشدة، أي أن يكون واضحاً تماماً لكل من يعمل في قطاع البحر،أنه ممنوع تمام المنع السفر إلى الأراضي التابعة للسلطان، وأن كل من يخالف هذا الحظر، خرقاً لأوامر سادتهم وجماعاتهم سينال العقاب، ولسوف يلقى القبض على المسيحيين المخالفين وعلى المسلمين غير الملتزمين بهذا المشروع المقدس، ووقتها سيكون الذين أوكلت إليهم أمور الإشراف والرقابة على البحر على استعداد لتأدية مهامهم طواعية وعن طيبة خاطر، ومن ثم فرض الالتزام بهذا التدبير المفيد.

وعلينا على كل حال أن نتذكر أنه لما ضاعت عكا وسورية أعلن رسمياً الحظر على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، أو الذين يعودون منها محملين بالبضائع، وكان الحظر قد قضى بالإعلان بأن الذين يخالفونه هم سفلة، ويعدّون محرومين من الوصية، أي إنهم لا يستطيعون كتابة وصاياهم، ولا وراثة ما ترك لهم في وصايا غيرهم، مع الإعلان أنهم غير مؤهلين للقيام بأي حصر إرث سواء أكان ذلك من جهة المعطي أو من جهة المستفيد، ثم طردهم من جميع الوظائف العامة التي يشغلونها، ومنع منحهم أية وثيقة شرعية، وبشكل عام يتوجب مصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما ألقي القبض عليهم يتوجب إبقاءهم

سجناء تحت حراسة الذين ألقوا القبض عليهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر:

كان الحظر فيما مضى يطبق في مجالات البحر فقط، أي كانت تجري ملاحقة المخالفين بحراً لا براً، والآن إذا قررت قداستكم بإلهام من الروح القدس تنفيذ الأوامر المذكورة أعلاه، وأعلنت أنه مقدس وموائم تماماً التشدد في تطبيق هذا الحظر — أقول بكل تواضع بشكل دائم — على الأرض وفي العالم كله، وقتها من الممكن تطبيق إجراء ملاحقة المخالفين بشكل أشد وأكثر جدوى، ذلك أن مراقبة البحر لوحده لا يكفي، ولا يمكن منع هذا أو ذاك عن الابحار كلياً، أو عبور البحر حتى الأراضي التابعةللسلطان، ومرد ذلك إلى أن الغلايين لا يمكنها البقاء في عرض البحر أمام العواصف، ولا حتى عندما يكون البحر هادئاً، ثم إنه في بقائها في فصل الشتاء ليلاً خارج الميناء خطر، يضاف إلى هذا لايمكنها البقاء في فصل الصيف لأيام طويلة في عرض البحر، من دون التردد على الشاطىء للتزود بالماء للشرب وللاستخدامات الأخرى، هذا ومن غير الممكن مراقبة البحر مراقبة عامة مجدية بوساطة البوارج حتى وإن شحنت بالمقاتلين، لأن البحر واسع جداً، وما أن تبتعد عن الشاطىء إلى عرض البحر حتى تتمكن سفن المخالفين من الابحار أيضاً، ومن ثم في مرسى من مراسي بلاد السلطان ترسو به ، وستجد الترحيب والمعاملة الطيبة، لأن الناس هناك بحاجة إليها، ومثلما يكون بمقدور هؤلاء المنافقين الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، يكون أيضاً بمقدورهم العودة منها إلى بلادهم، وبناء عليه إذا أردنا أن يعطي الحظر النتائج المتمناة، يجب إيقاف أي تحرك تجاري نحو الأراضي والأماكن الخاضعة للسلطان وفوقها أيضاً، والقيام من ثم بمطاردة

المخـالفين ومصـادرة بضـائعهـم سـواء في البر أو في البحـر، ونظراً لأن هؤلاء المسيحيين المنافقين الآثمين، كـانوا في تلك الأزمـان — أي لما بدأ العمل بـذلك الحظر — لدى عـودتهم إلى بلدانهم سبباً للأذى ولمحنة شيطانيـة لجماعات عـديدة، فبسبب كثرة البضـائع والأرباح التي كـانوا يعـودون بها، جـاء عملهم بمثـابة محرض لغيرهـم لكي يخالفـوا مثلهم، وذلك لهلاك أنفسهـم، ومن جـراء ذلك أقـدم العـديد على المخـالفة وراحـوا ورجعوا عـدة مرات،وبذلك افتتحـوا المسيرة اللعينة لهذه العـادة البـائسـة، لذلك فإن هؤلاء يستحقـون أن يعـاملوا معـاملة الهراطقـة لمخـالفتهم هذا الأمـر المجيـد، كما ينبغـي مـلاحقتهم هم وبضائعهم في العالم كله كيلا يصبحوا مثلاً شريراً يقتدى به، وكيلا يدفع مـوقفهم أناساً آخـرين إلى التشكك، وذلك بسبب ما اقترفـوه في الماضي من شرور، ولهذا يتوجب معاقبتهم عقاباً رادعاً ليكونوا عبرة لمن اعتبر، ولاشك أن الرعب سـوف يحل في قلـوبهم إذا مـا جـرى نشر عـدد من الغلايين التي ترفع علم الكنيسـة، ويساعـد هذا على تنفيذ هذا المشروع المقدس والمفيد.

الفصل الثالث: وجـوب إغلاق الطرق في وجـه البضائع التي اعتـاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

من الموائم إيقـاف حركـة نقل البضائع القـادمة من الأراضي التـابعة للسلطان، وبناء عليـه من الضروري منعهـا مـن المرور من جبـال برقـة المجاورة للأراضي الخاضعـة للسلطان، وكذلك من أراضي ملك تونس، ومن الأراضي الـواقعـة تحت سيطـرة المسلمين في الأندلس، وكـل من يتجـرأ على تسلم أية بضـائع أو أصنـاف نادرة أو منتجـات قـادمـة من الهند، أو شرانق الحريـر أو السكر أو الكتـان، ينبغي إنـزال العقـوبات نفسهـا المقررة على من يتلقى بضـائع واردة من أراضي السلطان وبلاده،

وبذلك لن يتجرأ هؤلاء المسلمون المغاربة من الجنوب على ركوب طرق أراضي السلطان لكي يبتاعـوا منها تلك الأصناف والبضـائع، وهذا ما وقع في الماضي يوم كان تطبيق الحظر تطبيقاً شديداً وأكثر دقة.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان وصولاً حتى آني:

وأيضاً ليكن من جهة الشمال عند تخوم كليكية، المدعوة في هذه الأيام أرمينيـا، من النهر المسمى سيحـان، مروراً حتى الشـاطىء التركي الذي كـان فيما مضى تابعـاً لبيـزنطة، ونـزولاً حتى آني، ليكن محظوراً على أية بضائع قادمـة من الهند أو من أراضي السلطان المرور، وبالطريقة نفسها هذه المتقدمة الذكر بخصوص بلاد المغرب، وينبغي أن يكون ذلك تحت طائلة الحرمـان الكنسي، وسبب ذلك أنه في تلك المناطق حـركـة نشطة، وخـاصـة في منطقـة كـلايا وأضـاليـا، لبيع الخشب والقـار والرقيق من الغلمان والجواري من المسيحيين والوثنيين، وكـذلـك الحرير وغير ذلك من البضـائع التي تنقل جميعـاً إلى هناك من الأراضي التابعـة للسلطان، وبشكل خـاص من مصر، ذلك أن هذه البضـائع تفـرغ هناك، ومن ثم يعاد تصديرها وبيعها، وإرسالها مجدداً إلى تركيا، كما يجري إرسال السكر والكتان والتوابل وأصناف أخرى كثيرة، فبهذه السلع يجري إغراق تلك المناطق، ونظراً لوفـرتها يجري شحن الفـائض منهـا بحـراً نحـو البلدان الأوربية.

وكما تقـدم بنا القــول، وإنه نزولاً من آني يقضي بالـوصــول حتى سكوتاري Scutari الواقعـة في الوسط مقـابـل القسطنطينيــة، لأن الأتراك — الذين هم أسوأ الخلق بين المسلمين — قد استولوا على جميع البلاد الواقعة فيما وراء أويدوس Auedos شرقاً، وقد قتلوا العديد من الاغريق، وأسروا الكثيرين، وباعوهم في أسواق النخاسة،فضلاً عن هذا عاد أولئك الأتراك من جديد، فأخذوا يمخـرون عباب البحر، وقد

دمروا جزراً عديدة في المنطقة بكل وحشية مذهلة، إلى حد أن تلك الجزر قد خربت تماماً.

ويلزم الانتباه إلى أن الشخص الذي سوف تتولى كنيسة الرب المقدسة، الأمر بتعيينه قائداً، قد يتمكن من أن يوجب على المسلمين القاطنين في تلك المناطق الامتناع عن تصدير أو استيراد أية سلعة من الأراضي التابعة للسلطان، وسوف يلتزم هؤلاء بالأوامر، لأنهم أنفسهم يحتاجون إلى القمح وبضائع غيرها كثيرة، فضلاً عن هذا سيخافون من الغلايين المسيحية، وإذا لم يلتزموا، يتوجب تطبيق الحظر ذاته المطبق تماماً ضد كل مسيحي يتجرأ على الذهاب إلى الأراضي التابعة للسلطان، على الذين يقدمون على قصد المناطق التركية وسيلحق هذا بالأتراك أذى عظيماً، لأن الأتراك هم أسوأ المسلمين الذين لهم علاقة بالمسيحيين الأشرار ويتعاملون معهم تجارياً، مخالفين بذلك قرارات الكنيسة ومعطلين لأوامرها أكثر من أي شعب آخر في العالم.

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

ينبغي ألا يتجاسر أحد من الناس، في أية بقعة من بقاع الدنيا، ولا سيما في بلاد الاغريق، وفي الجزر التابعة لها على شراء أو تسلم أية أصناف نادرة أو بضائع من الهند، ولا شرانق حرير ولا سكر ولا كتان، إذا ما خمن، أو تأكد أنها مجلوبة بحيلة أو وسيلة من الأراضي التابعة للسلطان، وإذا فعل تنزل عقوبة الحرمان نفسها، وسبب ذلك أنه في الماضي عندما كان المسيحيون يمتنعون من الذهاب إلى بلاد السلطان، أكثر مما يفعلوه اليوم، كانت جزراً ومناطق بحرية كثيرة تستقبل المهربين الواصلين محملين بضائع من بلاد السلطان، ونجم عن ذلك أن غالبية من التجار المسيحيين في المناطق البحرية، كانوا يحملون — في ظل هذه

الأوضاع — البضائع الموائمة، ويستخدمون الأراضي التابعة للسلطان، فيعبرون إلى تلك الجزر والمناطق، وكانوا من هناك يسمحون لأنفسهم — بضميرهم الواسع — بإرسالها إلى البلدان المسيحية في الغرب.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الاجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

ومن أجل أن تطبق هذه القضية المقدسة تطبيقاً كلياً لمجد سيدنا يسوع المسيح، وحمده، ولكي تنزع من أمام الجناة فرصة الخطيئة، ليتلطف الأب الأقدس وليوافق على أن يزاد على هذا الحظر: إن على كل حاكم أو مسؤول عن منطقة أو أي شخص معهود إليه القيام بمثل تلك المهمة، أن يتعهد ألا يقبل بأي شكل من الأشكال على أراضيه أو أراضي أتباعه، الذين ينتهكون هذا الحظر، أو حدوث شراء لبضائعهم هناك، أوأن يقدم لهم النصح أو أي عون أو منحة أونجدة،أو بأن يدعموا بأية طريقة من الطرق، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، التي يستحقها الذين يدعمون فساد الهراطقة أو يشايعونهم.

فإذا ما تم ذلك كله، فإن الرب سوف يفتح الطريق لتحقيق هذا المشروع كله، أما إذا لم يرق لقداستكم إنزال هذا النوع من العقوبة بحق هؤلاء الناس، فإنني أعتقد أننا لن نستطيع قهر الكفرة غير المؤمنين ونفيهم، ومثلهم أيضاً المنافقين الذين اغتصبوا من المؤمنين ملكية الأرض المقدسة، ما دمنا غير قادرين على إلزام حتى التابعين لنا بالتنفيذ، وعاجزين عن منعهم بأن يحملوا إلى أعدائنا مثل هذه المساعدة، وهذا الامتياز، لكن إذا راق لقداستكم فرض هذا الالزام، وهذا الحظر، فكل شيء يمكن أن يتم بسهولة ويسر.

الفصل السابع: مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني

الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

ما أن توافق قداستكم على الحظر المذكور في الموجز المتقدم، أتمنى أن تتكرم قداستكم بالهام من الروح القدس، أن تأمروا بالاعلان عن ذلك في كل مكان، من أجل مراقبة البحر، لملاحقة المسلمين والمسيحيين الآثمين الذين يروحون ويغدون من وإلى الأراضي التابعةللسلطان، وكل من يخرق هذا الأمر المحق تماماً، من أمثال هؤلاء، ينبغي أن يتولى مطاردتهم في كل مكان، وبشكل دائم القائد الذي تعينه كنيسة الرب المقدسة، وعلى ذلك القائد اتخاذ التدابير الكفيلة بعدم دخول الحديد وبقية أنواع البضائع إلى أرمينيا، وذلك عندما يتأكد أنه من الممكن إعادة تصديرها من هناك إلى البلدان الخاضعة للسلطان، والسبب هو مايلي: إن أرض ملك أرمينيا متاخمة لبلاد السلطان وبلاد غيره من المسلمين، ومن المتوجب إعطاء قبطانكم — أقول دوماً بكل تواضع — عشرة غلايين، يوجهها إلى الجهة التي تأمر بها قداستكم، وذلك من أجل العبور الكبير، ويشترط تسليح تلك الغلايين، ويقصد منه إنجاح مشروعكم لحمد الرب ومجده، وعلى هذا ينبغي أن يتحلى الذي سيكون القبطان بمؤهلات لا تدع مجالاً لأي مسيحي مطيع القيام بمعارضته مطلقاً.

ويتوجب شحن تلك الغلايين لمدة تسعة أشهر وتزويدها بطاقم مدرب وأن تكون أحوالها جيدة، فيها كل ما يلزم من مؤن وسلاح، وينبغي على القبطان القيام بمراقبة البحر لمدة سنة، وأن يمنح امتياز أن كل ما يستولي عليه هو ورجاله الذين تحت إمرته يكون له ولهم، وبهذه الوسيلة سيزدادون يقظة، وغيرة من أجل الكشف عن كل من تسول له نفسه مخالفة هذا الأمر المقدس وملاحقته، ونيل هذه الأسلاب أمر ضروري لهم تماماً من أجل الانفاق على عيشهم، وأداء مهمتهم.

وإذا ما رغبت قداستكم في معرفة كم سيكلف هذا كله، نجيب أن

شراء الغلايين وشحنها بالعتاد والسلاح سوف يحتاج إلى مبلغ خمسة عشر ألف من الفلورينات، مقابل الرواتب ونفقات الأطعمة وبعض الحاجيات الأخرى على أساس أن يكون على ظهر كل غليون مائتين من الرجال مع مشرف أعلى يكون شهماً وكفئاً، يمكن للقبطان أن يجد لديه، وقت الحاجة، النصيحة والمساعدة والدعم، ويضاف إلى المجموع مبلغ ألفين وخمسة وتسعين من الفلورينات، وإذا ما أضفنا إلى هذا كله رواتب تسعة أشهر ، يصبح المجموع سبعين ألفاً من الفلورينات، على أساس أن كل فلورين يساوي سولديين من نقود البندقية الفضية.

وجدير بالأخذ بعين التقدير، أننا إذا ما أردنا أن نكون مسلحين بشكل جيد، وأن تكون طواقم الغلايين مدربة بما فيه الكفاية حول شؤون البحر والملاحة فمن الضروري الشروع بتوقيع العقود منذ أيام عيد الميلاد، وفي الحقيقة تبدأ كل المؤسسات التي تريد إرسال سفن إلى بلدان مختلفة باكراً باختيار الطاقم المناسب، وهكذا إننا إذا ما تأخرنا نحصل على عناصر أدنى كفاءة، ويزيد مثل هذا التأخير في كلفة الغلايين.

وإذا رأت قداستكم في البداية أن نفقات هذه الطواقم عالية جداً، فبإمكانكم الاكتفاء بسبعة غلايين ضمن المواصفات والشروط المبينة أعلاه، وإذا شكك أحدهم بإمكانية توفر قبطان يتمتع بالمؤهلات المطلوبة، نجيب بأنه من المنطقي العثور عليه، لا سيما عندما نغريه بالراتب وبالحصة التي سينالها من الغنائم، التي نقدر عقلانياً سوف تكون كبيرة جداً على الأرض، وفي البحر، وبذلك تكون كلفة هذا الجيش نحواً من خمسين ألف من الفلورينات، ما عدا كلفة الغلايين وتجهيزها وتسليحها، والمهم في الأمر أن يحقق المشروع النتيجة المتوخاة.

ومن المؤكد أن هذه الغلايين ستكون ضرورية جداً للدفاع عن الأراضي الأوربية نفسها، ولضمان سلامة المؤمنين الساكنين فيها،

وللانطلاق بنية مهاجمة المسلمين، وبشكل خاص الذين يركبون البحار ويتاجرون مع المناطق التابعة للسلطان، ولملاحقة المسيحيين المخالفين والمنشقين والمسلحين وجميع أنواع الكفرة المتبقين، لمنعهم من استيراد السلع والتجارات إلى الأراضي المذكورة، أو تصديرها، ولسوف تكون النتيجة أعظم فعالية إذا طبقت الإجراءات ذاتها على البر، وإذا عمل بالأسلوبين معاً، فوقتها ستكون النتيجة أفضل بكثير، وباختصار إنني كلما تفحصت المسألة وتأملتها ملياً، وتفكرت بالفوائد والمنافع التي ستنتج عن الالتزام بهذه الاجراءات على الأرض، وعن ملاحقة من يخالفها مع بضائعهم، وإذا ما أخذنا بعين التقدير العون الذي يمكن أن تقدمه الغلايين التي تستطيع قداستكم الحصول عليها من جزر اليونان وقبرص وغيرها، وإذا ما رسمت قداستكم الرسولية السامية هدفاً أولياً ورئيسياً لتحقيقه، أعتقد أنه بخمسة غلايين فقط، سيكون — كما تقدم وقلنا — من الممكن في الوقت الحالي، الحصول على النتيجة المرتقبة، بما فيه الكفاية.

وستبلغ نفقات هذه الغلايين الخمسة خمسة وثلاثين ألفاً من الفلورينات كل سنة، دون أن نحسب ثمن الغلايين وتجهيزها وتسليحها، وفي الحقيقة إذا كانت الغلايين مسلحة بشكل جيد، وإذا ما أنزلت الكنيسة أوامر حرمان كنسية أشد مما كان في الماضي، فمن الممكن بيسر الحيلولة دون نشوب خلافات ونزاعات بين رجالات الأمراء والجماعات البحرية وبين الكنيسة، وذلك حسبما توقع الكثير حدوثه، مثلما وقع ما بين فرسان الاسبتارية وأهل جنوى في أيام الراهب فولكونيس دي فيلاريتو Fulconis de Vilareto الذي كان يشغل آنذاك منصب المقدم الأعلى للفرسان الاسبتارية، وبدون ذلك لن يكون تنفيذ مراقبة البحر أمراً ممكناً، وبناء عليه سيكون تطبيق هذه دون تلك ناقصاً، وهذا ما أوضحناه في القسم الرابع.

أما بخصوص الغلايين اللازمة في البلدان الأوربية:

إنه إذا ما رغبت قداستكم في تنفيذ المشروع على الأرض، ومن ثم إرسال بعض الغلايين التي جرى الحديث عنها من قبل، من أجل حراسة البحر، وأن يمتلك القبطان الذي يتسلم إمرة الأسطول، الصلاحيات المطلقة للعمل أين يرى وكيف يتدبر، من الممكن له بسهولة تأمين العدد الكافي والجيد من الغلايين، حيث يمكنه الحصول على غليون من جنوى من عند آل زكريا، الذين هم سادة جزيرة كايوس القريبة من تركيا، وعلى غليون آخر من البندقية من عند السيد وليم سانوتو، وآل غيزو Guise الذين هم في الجزر المجاورة، ويؤمن الغليون الثالث من بطريرك القسطنطينية مع إكليروسه، وبعض سادة جزيرة نغروبونتي Negroponte ، إذا طلب منهم ذلك على أن لا تكون شروطهم أقسى من الشروط التي وضعوها في الماضي، أما الاسبتارية فإنهم سيقدمون اثنين من الغلايين، وذلك من الجزر التي بحوزتهم، وسيتولى رئيس أساقفة كريت تسليح الغليون السادس بمعاونة إكليروسه والأعيان الذين في الجزر المحيطة بهم، ومعهم رجال الاقطاع وسواهم من أهل كريت، إذا ما طلب ذلك منهم خطياً، وإذا ما منحوا الغفران المعتاد منحه في الأحوال المماثلة، وفيما يتعلق بجلالة ملك قبرص وأساقفة الجزيرة وأعيانها، فيمكنهم منطقياً القيام متطوعين بتسليح أربعة غلايين، فهذا أمل معقود عليهم، ذلك أنهم سلحوا فيما مضى أكثر من أربعة غلايين، هذا ولا يمكن للذين يتولون تسليح هذه الغلايين الادعاء بأي حق عليهم، والمفهوم أنهم قد تخلوا عنها لصالح الجميع ولخدمتهم، وبفضلها يمكن تأمين سلامة أعظم ضد غارات الأتراك، وضد النشاط العدواني لغيرهم من المسلمين، كما يمكنهم التحصن ضد الحلف المعقود بين الكاتالانيين وغيرهم من الأشرار المجرمين.

وسوف يكون كل واحد من هذه الغلايين مجهزاً بطاقم يتكون من مائتين وخمسين رجلاً، وهي لن تكلف خزينة الكنيسة الرومانية أية نفقات ،لأن صيانتها واقعة على عاتق من جهزها وقدمها، ويمارس القبطان المعين من قبل الكرسي الرسولي سلطانه على هذه الغلايين وعلى سواها، ويستطيع في المستقبل ملك قبرص والاسبتارية وباقي سادة الجزر اليونانية — إذا دعت حاجة كبيرة وواضحة — تأمين غلايين أخرى وفرساناً ورجالة لبعض الوقت، يضاف إلى هذا من الممكن العثور في تلك المناطق على غلايين يتولى تسليحها التجار، وهذه يمكن في بعض الأحيان وبعض المناسبات استخدامها، لاسيما عندما تلتحق كلها بباقي الغلايين، وهكذا يمكن بعون من بيده تدبير كل شيء وإرادته تحقيق خير كبير، شرط أن تتولى قداستكم تشغيل هذه الغلايين، بقيادة قبطان جيد.

القسم الخامس

الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال، وهو في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به مباشرة.

إذا حسن في ناظري قداستكم الوصول إلى الغاية المتوخاة مما تقدم، فإن ذلك سيكون مؤشراً واضحاً على أن الرب شاء الشروع بتحقيق استرداد الأرض المقدسة، تلك التي رواها بدمه الثمين مولانا يسوع المسيح، وأنه بالفعل قد بدأ بذلك بشكل ملموس، فبناء على طلب صاحب أرمينية، ذلك المسيحي الصالح قامت دولة غريبة، ووجهت ضربة صاعقة إلى السلطان وإلى المسلمين، نعتقد أنها انتقام من عند الرب، بسبب القسوة المتناهية التي ارتكبها السلطان والمسلمون بحق المؤمنين بالمسيح في كل من عكا وسورية، عندما اجتاحوهما، ودمروهما، وخربوهما، وسبوا الكثيرين من أهلها، ويدلل ما حدث على أن الرب — كما قيل — قد شاء الشروع بتدمير قسم كبير من أرض السلطان وبلاد المسلمين، فأنتم أيها الأب الأقدس، يا من تمثلون الرب، سوف تبذلون كل جهد مستطاع بغبطة وسرور، ونحن واثقون من أن ذلك لاسترداد الأرض المقدسة التي تئن وتنوح بمرارة، ذلك أنها ميراثكم الحي، وميراث الدين المسيحي بأجمعه.

وهذا ما ينتظره أيضاً المتبقي من المناطق التي احتلها السلطان وما يزال يحتلها مع المسلمين المجرمين، وإنني أعلن بكل احترام أيها الأب الأقدس أن في التأخير خطر، ونحن نجد مثلاً ونقرأ:«إن تأجيل ما كان جاهزاً ما كان قط جائزاً»، هذا ومن الضروري التمعن بأمر، وهو أن

المناطق التي يسكنها الكاثوليك تتقلص باستمرار.

ففي آسية لم يعد ممن يؤمن بالمسيح غير كليكية، التي يدعوها عامة الناس باسم أرمينيا، وهي على كل حال في وضع كئيب وتعيش في ظل خطر عظيم،وذلك حسبما سنوضح الوضع في الفصل الرابع، هذا ولا يزال في أماكن متفرقة هنا وهناك من آسية مسيحيون، أما في إفريقية فلم يعد في حوزة المسيحيين غير جزيرة جربة، ومع هذا ما يزال هناك بعض المسيحيين يسكنون في أفريقيا، وهم مكبوتون تحت نير المسلمين، ويحتل المسلمون في أوربا عينها مملكة غرناطة، ويوجد في أجزاء كبيرة من أسبانيا التي يسكنها المسيحيون الكثير من المسلمين واليهود، وإن كانوا يعيشون تحت سلطان المسيحيين وحكمهم، ويعيش في جزر اليونان الروم المنشقون، لكن زمام الأمور والحكم هناك في بعض المناطق هي بأيدي المؤمنين.

ويتبع البلغار وملك صربيا عقيدة الروم، لكن يعتقد بوجود بعض الكاثوليك في ألبانيا وبعض مناطق الشاطىء، إنما عددهم صغير مقارنة بعدد غيرهم من الطوائف الأخرى، والبوسنة هي وكر الهراطقة، وتابع الروتان Ruteniالانشقاق، ويعيشون مع غيرهم من الملل تحت نير تتار بلاد الخزر المتاخمين لمسيحيي بولونيا والمجر، ويحكم الليتوان مع رئيس أساقفة ريجنسي Rigensi. والأسرة الألمانية المالكة أراضيهم بأنفسهم، وبهذا يتضح لنا كم تبقى من الأراضي التي يسكنها الكاثوليك، وألفت النظر بشكل خاص إلى أنه لم يبق ولا واحد من الكراسي البطريركية الهامة في حوزة المؤمنين بالمسيح.

الفصل الثاني: التوجه بشكل ملح بنداء نحو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

نلتمس من حنانكم وعطفكم التلطف بإلقاء النظر على مملكة المؤمنين

الأرمن الرازحين تحت نير أنياب أربعة وحوش ضارية:

فمن الجهة الأولى هناك الأسد — أي التتار — الذين يستوفون من ملك أرمينيا جزية كبيرة، ومن جهة ثانية هناك الفهد — أي السلطان — الذي يبدد في كل يوم المسيحيين والمملكة،وهناك من الجهة الثالثة الذئب — أي الأتراك — الذين يدمرون الممالك والممتلكات، وهناك من الجهة الرابعة الأفعى — أي قراصنة البحر المتوسط — الذين يهشمون يومياً عظام المسيحيين شروعاً من أرمينيا.

ولتتلطف قداستكم أيضاً بإلقاء نظرة فيها شفقة، على المسيحيين الرازحين منذ زمن طويل، وهم يعانون من العبودية في أراضي السلطان، ومن الشقاء بعد سقوط عكا وسورية.

ولتتلطفوا أيضاً بالنظر إلى المسيحيين الساكنين في النوبة وفي الحبشة، التي هي أبعد أراضي السلطان، والذين هم العبيد السود، الذين لاقوا ومازالوا يلاقون من السلطان الاضطهاد والويلات.

ولتتكرم تقواكم بإلقاء ناظريها على جزيرة قبرص، حيث يعيش أولادكم المؤمنون في خطر كبير من قبل الكفار، وأيضاً على جزر اليونان حيث يلاقي اللاتين الضيم على أيدي الأتراك، ويرغمون على دفع الجزية إليهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول:

بناء على ما تقدم إنه إذا ما أعلن قداسة مولانا البابا ذلك الحظر المقدس حسبما بيناه أعلاه، وإذا ما أُخذ بهذا الحظر في العالم كله، وإذا ما أرسلت الغلايين لمراقبة البحار من أجل هذه الأهداف المبينة، فإن قوة السلطان والأتراك — بعون النعمة الربانية — سوف تضعف، وسيكون بالإمكان منع السفارات والبعثات والاتفاقيات الثنائية بين امبراطور الروم والسلطان، وكذلك منع تبادل الهدايا الكبيرة التي تجحظ لرؤيتها

عيـون العقلاء، وتجتـذب قلوب الأبرار، وتوهنهـا ،ذلك أن الامبراطور والسلطان كثيراً مـا يتبـادلان الهدايا كالسـلاح، وشقق الحرير والكتـان، والسكر والعطور، والجواهر والـذهب، والفضـة، والحجـارة الكريمـة وغيرها من المجـــوهرات، ومن الممكن بسهــولة مـــداهمة هذه الهدايا والاستيــلاء عليهـا، فبــوســاطة هذه السفــارات والبعثـات المتبـادلة والمراسـلات توصل السلطان إلى استمالـة خـاقـان التتـار المدعـو أزبك، الذي يحكم بلاد الخزر وباقي البلدان الشماليـة إلى درجـة أن هذا الحاكم قد اتبع شريعة محمد(ﷺ) وأخـذ قسم من شعبه يميل إلى الفساد نفسه، ومن ثم صـارت الخشية كبيرة إذا مـا استمـرت هذه الحالة طويلاً بينهم على هذا الوضع، فإن تلك الشريعة المفسـدة ستنتشر بشكل تصاعدي في تلك المنـاطق الشماليـــة، وفي هـذا ضرر كبير وخطر بالنسبـــة للإيمان المسيحي، ذلك أن مصـادر موثوقـة تؤكد أن أزبك هذا يمتلك أعـداداً هائلة من الخيـول، وجيشـه مقسم إلى مجمـوعـات، كل عشرة أفـراد في مجمـوعـة، وإذا مـا أخذنا فقـط ثلاثة أعشـار ذلك الجيش يتكون عندنا جيش جـرار، يمكن تعبئـة بشكل يصعب تصـديقـه، فإذا قطعت جميع المواصـلات البحـرية بينهما وأغلقت كما تقـدم وبينا، نكون قـد وجـدنا الدواء الفعال والكـافي، ذلك أنه أسهل على المرء المقاومة في البـداية من أن يتمكن من تبـديل مـا ترسخ بعـد بدايتـه على مـرور الزمن، ووقتهـا سيكون البحر مع المؤمنين الـذين على هذا الجانب من البحر أكثـر أماناً، وسيجني المنافع من ذلـك مسيحيـو شـواطىء البحـر المتـوسط، لا سيما الأقوى بينها والأنشط، وهي التي يسافـر سكانها بحراً أكثر من غيرهم، وستكون هذه المنافع كثيرة، وبـذلك سـوف يبـدلون مـواقفهم الخاطئة، وكذلك سيفعل العلمانيـون والأكليروس والرهبان، فهؤلاء أيضـاً سوف يجنون من وراء ذلك خيراً عظيماً.

ولسوف تكون حقيقـة الأوضاع حسبمايلي: إذا مـا تعذر الذهاب من

الأراضي المسيحية بحراً مع الذهب والفضة والمجاذيف والنحاس، والزعفران والصموغ وشقق الصوف والحرير والكتان وغير ذلك من البضائع، لإيصالها إلى الأراضي التابعة للسلطان، بسبب الحظر الذي أعلنه الكرسي الرسولي، وإذا أيضاً لم يعد بالإمكان الحصول من أراضي السلطان على الشرانق والسكر والكتان والتوابل، وباقي الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، وإذا ما عُرف في كل مكان أن الذين ينقلون تلك البضائع ويتداولون فيها، باتوا عرضة للملاحقة والمحاكمة وإصدار الحرمان الكنسي بحقهم من قبل قداستكم، فإن غالبية الساكنين في الأراضي الساحلية سيبقون في وضع خطير بسبب المشاحنات المتواصلة فيما بينهم وبين من تقدمهم من المخالفين الأوائل.

وفي جميع الأحوال ستزداد أرض أرمينيا ازدهاراً، لأنها تنتج بدورها كميات كبيرة من الشرانق، ولأن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، ستمر من مدينة بغداد نحو شواطىء المتوسط، سوف يجني نصارى أرمينيا من وراء ذلك مرابح كبيرة، تساعدهم في الدفاع عن مملكتهم ضد المسلمين أعداء الكنيسة.

ونظراً لتدمير قسم كبير من أراضي السلطان على أيدي التتار، حسبما أوضحنا من قبل، فإن هذا مؤشر، أنه بعون الرب، وبرضى قداستكم من الممكن تدمير أرض مصر وغيرها من الأراضي في وقت قصير، وسيكون من السهل عبور الحملة الصليبية لتحويل السلطان والمسلمين[إلى الكاثوليكية] ولاسترجاع مدينة القدس التي هي مدينة الرب المقدسة، وإعادة عمارتها، وكذلك لمواساة أولادكم المسيحيين الذين يعيشون في تلك البلدان، ولنيلهم الحرية، وكذلك من أجل ازدياد الإيمان المسيحي في كل مكان.

ومن أجل هذه الأهداف جميعاً، إنني أصلي بتواضع وإخلاص، وأسأل الرب القدير على كل شيء،والعذراء مريم، والرسل القديسين:

بطرس، وبولس، وأندراوس، والقديس مـرقص، وكل المجمع اللاهوتي السماوي، أن يؤول كل ما تعملونه في هذا المجال وفي غيره من مجالات، لحمـــد اسم ذلك الرب القـــدير ومجده، ولكرامتكـم أنتم يا ســـادتنا القـديسين، ومن أجـل خـلاص نفـوس ذويكم كلهم، وجميـع رفـاقكم أحياءً وأمواتاً، آمين.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

ليرحمنا الرب وليبـاركنا، ولينير بوجهه ويتجلى علينا، حتى نعـرف في الأرض طريقك، وفي جميع الأمم خـلاصك، ولتعترف لك الشعـوب يا رب، لتعترف لك جميعها، ولتفـرح الأمم، ولتغني لأنك تدين الشعوب بالاستقـامـة وتهدي الأمم في الأرض، لتعترف لك الشعــوب يا رب، لتعترف لك جميعهـــا، الأرض أعطت ثمــرتها، فليبـــاركنـا الرب إلهنا، ليباركنا الرب، ولتعم خشيته أداني الأرض وأقاصيها.

المجد للأب، إلخ .... ارحمنا يارب، أبانا الذي في السموات.

-٣٥٣٧-

مدخل إلى الكتاب الثاني

لتمجيد مولانا يسوع المسيح أصلي، وأسأل القـديسة مريم البتول أمه والقــديسين:بطـرس وبولس، والقـــديسين يوحنا المعمــــدان، ويوحنا الانجيلي والقديس مـرقص، والقديس جرجيوس ونيقـولا، وكل الحشد السماوي، أن يصلوا إلى الرب ليمن عليّ بنعمتـه حتى أكتب وأقـول في هذه الصفحات مـا يفضي إلى تمجيد اسمه وتكريمه، ومـا يرضي مسامع قداستكم، ويؤدي إلى ازدهار الإيمان المسيحي وترسيخه.

وقد تبدو جـرأة من عبد حقير مثلي واعتداد، أن يذكّر مـولاه السامي بأمـور شاقـة شديدة، لكن إيمانـه وتقواه يدفعـان عنه هذه الملامة، وقـد تقـدم لسلفكـم القـديسين المثـابرة وهـم يتطلعـون إلى استرداد الأرض المقـدسـة، وذلك حسبما أعلن عـن هذا رسميـاً، ونحن أيضـاً على ثقـة ويقين أن قداستكم تواقة إلى ما يصبو إليه كل مسيحي ورع.

وبقيت أنا مـارينـو سـانوتو، المعـروف بلقب تـورسيللو، ابن السيـد مـاركو سـانوتو، من منطقـة سينت سيفرو، ومـن مدينة ريفـوالتي، من أعمال البندقيــة،أفكروأتأمل حتى تمكنت مـن وضع كتـاب ثان حـــول شـؤون الأرض المقدسـة، وكـان ذلك خـلال شهر كـانون الأول لعـام ١٣٠٨، وهو متمم للكتـــاب الأول، ومثبت له وداعم، مـوضحـــاً فيـه الوسيلة والأسلوب لاسترداد الأرض المقـدسـة، من أجل تسبيح الرب، وفي سبيل مجد كنيسته المقدسة ومجد قداستكم .

وقد فـرغت من تصنيف الكتاب، في شهر كـانون الأول لعام ١٣١٢ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، في مدينة كلارنسيا Clarentiae .

بداية الكتاب الثاني من هذه الرسالة
ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها
والوسائل المتوجب استخدامها لاسترداد
الأرض المقدسة. وهو في أربعة أقسام

القسم الأول

تنظيم الجيش المسيحي الثاني وشكله. وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوب وجود قبطان واحد، مع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه، والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

عندما قررت وضع هذا الكتاب، وقمت بتنفيذ العمل فيه، كان السبب والمقصد والدافع: إضعاف قدرات سلطان مصر، والحيلولة بين كثيرين وبين فرصة التعاون مع أعداء الصليب مراغمة لأوامر الكنيسة، وأيضاً من أجل استرداد الأرض المقدسة، وذلك بمطاردة المخالفين على الأرض، وفي سبيل تسليح تلك الغلايين العشرة أو السبعة، كما تقدم وأوضحنا، وذلك بهدف منع أي تعامل تجاري بين هاهنا وهناك، ويمكن أن تتلطف قداستكم بإصدار الأوامر بهذا الشأن، في الوقت، وحسب الشكل الذي يراه تدبيركم البابوي، بتوجيه من الروح القدس، فإذا عزمت قداستكم على أن تدخل تلك الأوامر حيز التنفيذ، وراق ذلك للأب الأقدس، من أجل التدمير الكلي للسلطان، وبعد انقضاء السنة الثانية أو الثالثة من اتخاذ ذلك التدبير، الذي يحدد المواد التي جرت العادة بحملها إلى أرض السلطان مراغمة لأوامر الكنيسة المقدسة، من الضروري اختيار رجل نشيط، يخشى الرب، وحسن السمعة وعاقل كتوم، وكريم واسع الأفق، وقوي ثابت، وحاسم عادل وعامل لما فيه الصالح العام للمسيحية جميعاً، ومفضل لمصلحتها على مصلحته الذاتية، وأن يكون حائزاً على صداقة أهل البندقية ورضاهم، حتى يتمكن وإياهم من إجراء أعماله، ولكي يجد بالقرب منهم النصيحة والمساعدة.

ويحتاج هذا القبطان إلى ما مجموعه خمسة عشر ألفاً من الرجّالة،

وثلاثمائـة من الفرسـان، بشرط إذا غـاب منهم واحد قـام مقـامه آخـر، وينبغي أن يكونوا جميعـاً مأجورين، يتقـاضـون أجورهم من الكنيسـة، وكذلك ميرتهم، ولوازمهم في البحـر، وكل ما هو ضروري لهم، وينبغي اسناد القيـادة إلى قبطان واحـد فقـط، لأن العمل المنضبط يتطلب رأسـاً واحداً، ويتـوجب أن يقود القبطان هؤلاء جميعـاً إلى الشواطىء المصرية، حتى يستـولي هناك على بقعـة من الأرض، وفيهـا يتولى إقـامـة معسكر حسب النصيحـة التي ينالها من قـوم خبراء، حيث عليه أن يتـولى هناك حشد أسطول بحري ونهري، كي يتمكن بوسـاطته من الانقضاض على أعداء الايمان في الزمان والمكان الذي يراه موائماً.

الفصل الثاني: الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

أمـا مـا يتعلـق بقبطان ذلك الأسطول، أي قـائـده الـوحيـد، فينبغي اختيـــاره من أي مكان نحصـل عليــه بسهـــولة،لأن عنـاصر الجيش والغلايين وسفن النقـل إذا اجتمعوا وهـم مسلحين من جهـات متعددة، لايمكن ضبطهم بسهولة ،وانسجام بعضهـم مع بعض بيسر، وتحمل كل فـريق منهم الفـريق الآخـر، وهكـذا سرعـان مـا تقع بينهم الخلافـات، وتكون نتيجة ذلك إحباط المهمة كلها.

والـذي نراه أن ذلـك الأسطول ينبغـي أن يكـون بشكل رئيسي مـن رجال البندقية لأسباب عديدة:

أولاً: لأن أهل البندقيـة رجـال صـدق، وليس لهم مثيل في العـالم في تنفيذ ما يعدون به بشكل جيد.

ثانياً: لأنه يوجد في البندقيـة وفي أحوازها عسـاكر وبحارة للمـلاحة البحـرية وللملاحـة النهـرية سـواء، وبأعداد أوفـر من أي مكان آخـر، وتعمل هذه الكثـــرة من البحـــارة لصـــالح البندقيـــة، ليس فقط في أراضيهـا،وإنما أيضـاً في أحـوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات،

أراضيهـا،وإنما أيضـاً في أحـوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات، ولذلك هناك وفرة بالبحارة الماهرين في الملاحة النهرية.

ثالثـاً: لأن مـا يحتـاجـه الأسطول ســواء للمـلاحــة أم لغيرها من الحاجيات من الممكن توفرها في أي وقت من الأوقات في البندقية، وفي أراضيها وأحوازها بكميات كبيرة.

رابعاً : لأن أهل البندقيـة ولدوا على الماء وعلى الماء تربوا، وغالبـاً ما تعـاملـوا مع جيرانهم عبر الماء وبوسـاطـة الماء، لذلك لهم في ذلك خبرة ومهارة، ويمكن لكم يا صـاحب القداسة التأكد من ذلك من خـلال ما صنعـوه مع جيرانهم ومـا زالوا يصنعـون، وعلى هذا إنهم إذا مـا جـرى تكليفهم بتنفيذ مشروعنا الحاضر بنجاح، لا شك أنهم سينجحون.

خامسـا : أهل البندقيـة بين أهل البحـر الموجودين في الغـرب، وبين الذين يصلحـون لمثل هذا العمل، هم أكثـر من تعـوّد على الملاحة نحـو بلدان المشرق، إمـا لقلة البحـار عندهم، أو لقصر طـريقهم إلى هناك، ولأن لهم مـراسي موزعـة هنا وهناك، حتى في جـزر اليـونان، وطرقهم البحرية قصيرة جداً، ولاسيما في الشتاءبوساطة غلايينهم.

سادساً: لأنه يوجد في مقـاطعة البندقية، في مــدينة كلوغيا Clugia (هي اليـوم شيوغيـا Chioggia) رجـال ذوي بأس شديد، بأعـــداد كبيرة،، لهم خبرة ودراية وأهليـــة للحفــر ســواء في اليـــابســة أو في المستنقعـات، وبجـرف الأتربة من الأمـاكن المائيـة، وبإيصـال الميـاه إلى الأماكن الجافـة، ولهؤلاء فوائد جمة بالنسبة للاستعـدادات ولتنفيذ المهمة المذكـورةأعـلاه، ذلك أنهم رجـال مـلاحـة صـالحون للعمل في الأنهار والبحيرات، وهـم أيضـاً عساكـر مهـرة في استخدام الأسلحـة، ويمكن الاستعانة بجيرانهم،أي أهـل بادوفا Padova وأهل فراريا Ferraria، وخـاصـة أهل سـاروي Cerui وكـذلك أهل كلوغيـا Clugia ، من

أجل تنفيذ المهمة المذكورة.

سابعاً: بسبب أن الشواطىء البحرية، أي شواطىء البندقية من غرادو Grado، وبالتحديد من القلعة المسماة بلفورت مسايرة للشاطىء حتى مدينة فراريا، ومن الشواطىءالمنطلقة من رافينا Ra-vennae ، وسيرفيا Cervia وصولاً إلى أريمينوم Ariminum ، وطول جميعها مائتين وسبعين ميلاً، تشبه الشواطىء المصرية كثيراً، سواء أكان ذلك على ضفاف البحر أو في البحيرات والسباخ والخلجان.

وبناء عليه إنه لكثرة ما اعتاده أهل البندقية من الذهاب والإياب يومياً على تلك الشواطىء، فإنهم في المناطق المصرية أفضل من يمكن استخدامه، وهم جديرون ومؤهلون للاستيلاء على أرض مصر أكثر من أي شعب آخر، يمكن إرساله إلى هناك.

وعلى الرغم من هذا كله، ومع الاقرار حتى بحقيقة ما ذكرته هنا عن أهلية أهل البندقية، إذا رأى مقامكم الرسولي السامي أن هناك شعباً آخر مؤهلاً للإرسال، فلا مانع من ذلك، لأن المهم هو أن يتم بعون الرب نجاح المهمة المطلوبة، شرط أن لا يكون ذلك الشعب مكوناً من جنسيات متنوعة، لكل منها عاداته المختلفة، أو من سلوكه شائن في بلاده، لأنه إذا كثر التباين اشتدت الخلافات، ولأن الشيطان الحسود لكل عمل ناجح، لن يتوقف عن إثارة أسباب الخلاف في داخل الجيش.

الفصل الثالث : الإعدادات للإبحار، والتجهيزات الواجب تهيئتها من أجل عبورمجموعة من الجنود، وتحضير الإمدادات، وسبل اكتساب صداقة التتار.

بعد إعداد هذا كله، سوف يكون من المناسب أن يعمد القبطان المذكور وجماعته إلى تجهيز أكبر عدد من المراكب، وخاصة الزوارق النهرية ، وذلك على نفقة الكنيسة وبرضاها، وأن يؤمنوا الميرة وجميع ما

يحتاجه الذين سيقدمون فيما بعد من الغرب، وقتذاك، إذا ارتأت قداستكم، يمكن الدعوة إلى الحملة الصليبية، في السنة الثانية أو الثالثة، وعندما يجري حشد عدد كبير من الرجال الأشداء الجاهزون للذهاب إلى هناك، فإنهم سيجدون أنه قد تم تحضير الميرة والمعسكر والمراكب للانقضاض على الأعداء،، الذين تقدم إضعافهم في البر وفي البحر، وبهذه الطريقة يمكن الاستيلاء على أرض مصر، لاسيما أن المسيحيين السود الساكنين في النوبة، وفي غيرها من المناطق في صعيد مصر وما وراءها، عندما يشاهدون هذه النجدة القوية القادمة إليهم، لاشك أنهم سينقضون من جانبهم، وسيفعل مثلهم التتار، فيهجمون من مناطق سورية، ولهذا سوف يكون مفيداً جداً اكتساب صداقة التتار، والمحافظة عليها بكل عناية، بوساطة تبادل الهدايا والرسائل الطيبة والتحيات.

فإذا ما طبق هذا المنهج، لابد ـ بعون الرب — أنه في خلال أربع سنوات أو خمس من الاقلاع بهذه المهمة المجدية، ستكون أرض مصر قد أخضعت لسلطانكم، ووقتذاك يمكن لقداستكم تسليم إدارتها إلى الذي — أو الذين — تريدون، وفي أغلب الظن أنه إذا ما أُخضعت مصر، فإن أرض الميعاد المقدسة ستعجز بدورها عن الصمود، ومن ثم ستسقط بدورها تحت سلطتكم، وفضلاً عن هذا كله، سوف تستسلم لسلطتكم أيضاً باقي الأراضي التي اعتادت في الماضي أن تكون للفرنجة، وستتحرر من سلطة المسلمين، لأنه إذا اجتثت الجذور يبست الأغصان حتماً.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألف من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

وإذا ما رغبت قداستكم أن تعرف كم ستبلغ سنوياً نفقات أولئك الخمسة عشر ألفاً من الرجالة، والثلاثمائة من الفرسان لإبحارهم ولمؤونتهم ولباقي حاجياتهم، والكلف الموائم صرفها في هذا السبيل على

التتار، أجيب بدقة:

إنها ستبلغ إحـــدى وعشرين مــرة ضعف مبلـغ مــائـــة ألف من الفلورينات، على أســاس أن كل فلورين يسـاوي سـولـديين من نقـود البندقيــة، أي مـا يعــادل ستمائـة ألف من الفلورينـات الذهب، وذلك لتغطية نفقـات الرجالة والفـرسان والطعـام المناسب مع المبالغ التـي قد تتوفر الحاجـة إليها للمحافظة على صداقة التتـار، حسبما تقدم بنا الذكر، وعلى أسـاس أن النفقـة ستكون هي ذاتها في كل سنة، وكـذلك سـوف تبلغ النفقات اللازمـة للسفن، والحبال، والعدّة، وكل مـا سوى ذلك مما هو ضروري لبناء المسـاكن وسواها، مما قـد يستوجبـه القتال وتعـويض الخيــول التي تعقــر أ و تنفق أثناء الخدمــة، ستبلغ ثلاثمائــة ألف من الفلورينات الذهب للمدة المذكـورة، وبناء عليه سيبلغ مجمـوع النفقات إحــدى وعشرين مــرة ضعف مـائــة ألف من الفلـورينات، وفي تلك السنوات الثـلاث، أي سيكون لكل سنة سبعمائــة ألف فلورين، وذلك شروعاً من السنة الأولى وما بعد.

وبعـد أن يكون المسيحيون قـد استـولوا في مصر البحرية على مـوقع يعسكرون فيـه ويتخـذونه مقـراً لهم، يمكـن لقـداستكم الاستفـادة من مداخيل يمكن تحصيلها من أرض مصر ومن مياهها.

أما بشأن باقي المؤن، ولوازم الملاحة اللازمة للحشد الذي سيأتي من الغـرب حسبما بينا، لابد من العمل وفق مـا تكون قداستكم قـد اتخذته من إجـراءات، وإذا رغبت قـداستكم أن تعـرف فيما إذا كـان بالإمكان إنجـــاز هذه المهمـة بمثل هـذا العـدد الصغير من الناس، وبهذا القـــدر الضئيل من النفقات، أجيب بتـواضع واحترام، أنه ممكن، لكن إذا قدرنا أن شـــؤون الحرب تتطلب الضمانة الكليــة الممكن تـوفيرها لها، وأنه لا يجوز التـوفير في هذا المضمار حتى تتـوفـر الضمانات، وإذا مـا قـدرنا أن قـداستكم ستكون قـادرة على تـأمين هذا القـدر من النفقـات، وإذا مـا

تأكدنا من ضرورة كون الرجال المكلفون بتثبيت موقع السكن — أو مواقع — وتحصينه، أشداء وذوي خبرة في العمل في المياه المالحة، وفي المياه العذبة، فإنني أعلن بكل تأكيد أن الذي تكون له السيطرة في المناه العذبة، ويستطيع أن يذهب إلى هنا ويعود من هناك حسب هواه مع قلة من الرجال، الذين يمكنه بشارة منه أن ينزلهم إلى اليابسة، هذا بلا شك قادر بدون رادع أن يكون مسيطراً على الأرض أيضاً في وقت قصير.

وسبب إعلاننا هذا هو أن معظم أرض مصر موزعة حول نهر النيل، وهي أرض طويلة جداً وضيقة، بحيث لا يمكن حمايتها مهما بلغ تعداد الناس الموجودين فيها، وكذلك لا يمكن منع الدولة المهاجمة عن طريق الماء والحيلولة بينها وبين الاستيلاء عليها، والاحتفاظ بها، أو تدميرها.

القسم الثاني

تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسة، وتسمية أفضل طريق بحرية للوصول إلى مصر. وهو في عشرة فصول:

الفصل الأول: في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

إنه لمن الواضح والجلي مما تقدم، ومما سيأتي تبيانه بشكل خاص، أنه ليس من الضروري لجيش الحملة أن يسلك طريق البر، كما صنع فيما مضى بعض القادة الأبطال، ولا مجال للذهاب براً بسبب عقبات عدة وعوائق قد يتعرض لها الجيش، وبسبب طول الطريق ووعورته، وبسبب تعداد البلدان والحواجز والعقبات التي يمكن أن تنشأ على الطريق في وجه العابرين، وأيضاً بسبب الشح بالأغذية، وغيرها مما نعرفه ضرورياً للجيش، ورب قائل قد يقول: لقد تم بنجاح عبور الراهب بطرس الناسك، ومثله الأمير غوْدفري دي بولليون عن طريق البر، فأنا أجيب أن نجاحهما لم يكن بفضل التدابير أو القوة البشرية، بل

بفضل توجيه من عون الرب، ونجز ذلك بفضل نعمة من عليين .

الفصل الثـاني: ردّ رأي القـائلين بوجـوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا، أو سورية، أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

قـد يرى بعض الناس نزول جيش الحملة المسافـر بحراً، في أرمينيـا، لأنه يوجـد هناك مـرفأ صـالـح، ومناخ معتـدل، وإمكانيـة للاستراحـة والاستجمام، ومن هناك يتم استئناف الزحف لخوض الحرب في منطقـة أنطاكية وسـورية، والدخول من هناك إلى الأرض المقدسـة، وحول هذا أقول: إنه لا يجوز النزول في أرمينيا لأسباب كثيرة:

أولها: أرض أرمينيـا أرض موبوءة، وسينجم خطر انتشـار الوباء في الجيش وموت عـدد كبير من المقاتلين، وهنا مـن الضروري التذكير بأن التتـار قـد تدفقـوا مـراراً عن طريـق البر، واستـولوا على معظم مناطق سـورية، إنما لاستحالة عبـورهم إلى مصر إلاّ عن طريق الصحـراء التي تؤدي إلى هنـاك، ولتعـــذر اقترابهم من المنـاطق المصريـة، اضطروا إلى التخلي عن الأراضي التي استولوا عليها، وهكذا كان السلطان يستعيدها في كل مرة، وهو ما يزال مستوليـاً عليها ويتولى حكمها كما كان الوضع في الماضي، وإذا ما قيل بأن التتـار أرغموا على التخلي عما استـولوا عليه، بسبب أنهم لم يستطيعـــوا في أيام الصيف البقـاء لشـــدة الحر، ولهيب المناخ،وبسبب نقصـــان المراعـي وانعـــدامهـــا حيث حـــرمت خيـــولهم وقطعانهم ومواشيهم الكلأ، في حين يستطيع المسيحيون إرسال إمدادات الطعـــام وغير ذلك من الحاجيـــات يوميـــاً عن طريق البحـــر، كما أنهم قادرون على بناء القلاع والحصون.

أجيب متسائلاً أولاً: كيف يستطيع المسيحيون فعل ذلك، ومقابل أية مخاطر، وأية نفقـات، لابل حتى لـو أنهم توصلوا إلى ذلك، مـا عسـاهم يفعلون؟

فبداية من الضرورة بمكان عدم الاستهانة بقدرات السلطان، فالكل يعلم أنها عظيمة، وخاصة في تعداد العساكر، وإذا رغبت قداستكم في معرفة كم عدد العساكر التي يُقدّر أنها اليوم تحت إمرة السلطان، إنها حسبما يجمع العارفون تبلغ ستين ألفاً من الفرسان، وهؤلاء وإن كانت مهاراتهم متفاوتة فإن ما لا يقل عن عشرين ألفاً هم من النخبة، وعشرين ألفاً من مرتبة الوسط، والمتبقي من النوع الأدنى، كذلك لدى السلطان في مناطق سورية حشوداً عديدة من المسلمين المدربين والماهرين في فنون الرماية: منهم فرسان نبالة، ومنهم رجالة، وسيتقاطر هؤلاء على الحدود الرئيسية للتصدي لجيش المسيحيين.

لذلك من المنطقي أن يكون لدى المسيحيين الموجودين هناك قوة كبيرة من الفرسان ومن الرجالة، وعدداً كبيراً من المراكب تحمل المؤن والقمح اللازم إليهم، بحراً، بوفرة، بغية تمكينهم من مجابهة قوى السلطان، بدون أي عوز، حتى يحتلوا أرض سورية بكل شجاعة، وأن يبنوا فوقها الحصون والقلاع، وهذا كله لا يمكن إنجازه من دون نفقات كبيرة، وخسائر جسيمة بالأرواح، حتى وإن افترضنا أن التوفيق قد حالف المسيحيين في هذا كله، واستطاعوا إخضاع تلك المناطق كلها لسيطرتهم، وقتها ترتاح خواطرهم، وسيقلعون عن مطاردة أعدائهم، ومن المنتظر أن الشطر الأكبر منهم سيعود إلى بلاده، وستبقى أرض مصر تحت سلطة السلطان، فما عساه سيحل وقتها بالمسيحيين الذين تخلفوا في تلك المناطق؟ من المؤكد أنهم سيعيشون والمخاطر تحيق بهم، وستستبد بهم مشاعر الخشية من أن يطردهم السلطان والمسلمون مثلما طردوا غيرهم، وألقوا بهم خارج تلك المناطق ونفوهم، ولهذا لا يصح أبداً أن يحدث الانزال في منطقة أرمينيا أو في سورية، بل يتوجب أن يكون ذلك في أراضي مصر البحرية، حسبما أوضحنا من قبل.

وهناك عامل آخر أيضاً: وهو أن احتلال مصر سيجعل المسيحيين

الموجودين في الشرق أكثر استعداداً للحرب، والشعوب الأوربية أعظم حماساً لتقديم المساعدة، عندما توضع أمامهم المرحلة الأساسية من المشروع، ألا وهي استرداد الأرض المقدسة، ويعرفون أن المهمة المقدسة سوف تنجز بوساطة رجال الحرب، ورجّالة الجيش، مع عدد لابأس به من الفرسان، وبقدرة الذي يتم هذا العمل لمجده، وسينجز ذلك بنفقات أقل، وبضمانة أعظم، لأنه من غير الممكن تعرض المسيحيين لخوض معركة في ظل المخاطر، إلاّ على الماء في وقت خارج عن إرادتهم، فضلاً عن هذا إنه مثلما الرجال في سورية أشداء ومهرة في فن الرماية، ومدربون على القتال، في المقابل رجال مصر ضعفاء وخاملون، ومع هذا إذا حسن لقداستكم حراسة مملكة أرمينيا وحمايتها، بإرسال فرق من الفرسان والرجالة من أجل ذلك فليكن، ويبقى الخير الأعظم والمنفعة الأكبر التي يمكن جنيها تتمثل في إيقاف دفع الجزية إلى سلطان مصر وإلى قواده وموظفيه، ولسوف نحكي في الكتاب الثالث المقبل أخبار ما حدث في الماضي لمدينة عكا ولسورية بكاملها، عندما كان المسيحيون يقطنون تلك البقاع، فتاريخ الماضي أفضل معلم لصنع المستقبل، فعوضاً عن الناس المزمع إرسالهم لحراسة تلك المملكة وحمايتها، والذين سيتعرضون للوباء المنتشر في ذلك الإقليم، والذين سيتغير عليهم نمط الحياة، من الممكن اللجوء إلى الطريقة التي يأخذ بها الأمراء المقيمون محلياً، وهي قضاء فصل الشتاء في الساحل، وما أن يطل الصيف حتى ينتقلون إلى الجبال حيث الينابيع العذبة، والمياه الصافية والباردة على الرغم من شدة الحر، وحيث الأعشاب الوافرة والمراعي الخضراء والهواء المنعش، وإذا ما اضطر أولئك القوم إلى النزول إلى الساحل في أيام الصيف فليتجنبوا ضربة الشمس، وعليهم الالتزام بالاعتدال في المآكل وفي شرب الخمرة، وفي المضاجعة في أوائل الخريف وقت تسميد الأرض وهذه النصائح مفيدة جداً سواء في آخيا Achaia أو في الجزء الأكبر من مناطق بلاد اليونان.

ولنعد الآن إلى مشروعنا، لنقول: إن مملكة أرمينيا،جديرة — على كل حال — أن تنال من سموكم الرسولي، عناية أكبر، ذلك أنها الأرض الوحيدة في آسيا كلها، أي في الجهة الشرقية من البحر، التي بقيت في هذه الأيام تابعة للإيمان الكاثوليكي.

الفصل الثالث: رفض رأي القائلين بوجوب الانزال البحري في قبرص، أولاً.

هناك من يرى وجوب أن يأخذ العبور الكبير طريق البحر، ويتجه أولاً إلى قبرص، للاستراحة هناك والاستجمام بعد كثير من المتاعب والمشاق التي يكون الجيش قد تكبدها أثناء الابحار والعبور، ويباشرون بعد ذلك محاربة أعداء الايمان، ويستندون في هذا إلى رأي الملك القديس لويس وتجربته في الأرض المصرية، لابل ربما في أراضي سورية التي لا تبعد كثيراً عن جزيرة قبرص، وعلى هذا أجيب بكل احترام: إنه لا يجوز سلوك ذلك الطريق، لأسباب هي:

أولاً: أرض مصر أسلم صحياً من أرض قبرص، ومياهها أفضل، وفيها كميات وافرة من الأسماك لتغذية الشعب.

ثانياً: إذا انعطف الجيش نحو قبرص أولاً، ليستأنف من هناك سفره إلى الأراضي المصرية، وذلك قبل أن يتولى مهاجمة الأعداء، فالأفضل له الذهاب مباشرة إلى الأرض المنوي الاستيلاء عليها.

أما بشأن فكرة العبور من خلال إسبانيا، والانتقال منها عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة، ومنها إلى تونس، أو عبر أي جزء من بلاد المغرب، فإني أوثر عدم الوقوف عندها، فإنه انطلاقاً مما قلناه، ونقوله، وما يمكن أن يقال، إن هذه الطرق غير مناسبة، وغير صالحة للسفر نحو الأرض المقدسة، وبالتالي إلى احتلالها، خصوصاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها، ومن جانب آخر، حدث أنه عندما أبحر الملك النبيل

القـديس لويس، ملك فـرنسـا، إلى تونـس هو وابنه جين تريستـان، مع نائب الكرسي الرسولي، ومعهم عـدد كبير من الأمراء من مرتبـة كونت وبارون، حدث أنهم وقعـوا ضحية الوباء الـذي أودى بهم، وبعدد كبير من الشعب المسيحي، حسبما سنذكر ذلـك بالتفصيل، في الفصل العاشر من القسم الثاني عشر من الكتاب الثالث.

وكثيرة هي الطرق التي جـرى الكـلام حـولها من أجل استخـدامهـا لمهـاجمة أعداء الإيمان الكاثوليكـي، ولاسترداد الأرض المقدسـة، والذي نراه هـو: إن الطرق التي وصفناهـا من قبل هـي الأفضل والأجـــدى، ولذلك قيـدتها وقـارنت فيما بينهـا وبينت أن الطريق البحـرية إلى مصر هي الأفضل، لكنني أدع دوماً لفطنة قداستكم تقرير اختيار الطريق.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقـاتها، وحــديث حــول التفكير الدأوب لدى البـابا ولدى أخـوانه بشأن حشـد هذا الجيش من رعيتـه ومن المؤمنين بغيـة ضمان التحصينات، والـذي تمّ في الماضي للاستيـلاء على تلك التحصينات، ومـا ينبغي الآن القيام به للغاية نفسهـا، مع مثل رمزي يلزم تطبيقه حول موضوع قلعة من المتوجب احتلالها.

هناك قلعة كبيرة جـداً، وجميلة محصنة بأسوار وأبراج، وحولها حفـائر وخنادق كبيرة وسواتر رمليـة، والقلعةمشحونة بالرجـال، ويدافع عنها وعن الخنادق والسواتر عناصر ممتازة مـن الرجّالة، وأبراج القلعة محصنة وتشرف على جميع الخنادق والسواتر، وهذه القلعـة مجهزة بممرات تربط مـا بين الأبـراج والخنادق، ومن الممكن سلـوكهـا ذهابـاً وإياباً، ولهذه الممـرات أبواب حديدية قـوية، وإلى جـانب ذلك لتلك القلعة باشـورة كبيرة، يبقى الباب خلفها لوحده مفتوحاً بشكل دائم، ينقل عبره حراس القلعة كل ما يحتاجون إليه، ولا سيما الضرائب والجزية، والأتاوات التي

يدفعها الملوك والبارونات والفرسان، والأعيان الأثرياء يومياً، وكذلك البضائع التي يجلبونها.

وهناك أيضاً سيد قديس، يمتلك عدداً من الأخوان والأبناء والأتباع والمؤمنين، وهو كان ومابرح يفكر مع إخوانه المذكورين، ويسهر ليله ويقضي نهاره وهو يفكر ويتأمل كيف سيتمكن من حشد جيشه، ومن ثم كيف يمكنه الذهاب إلى تلك القلعة للاستيلاء عليها، طالباً من المؤمنين ومن أتباعه المعونة والمشورة، ليعرف أي طريق يركب، وأية خطة يطبق، حتى يتمكن هو وشعبه من الاستيلاء على تلك القلعة.

فماذا نجيب، وما الذي نقوله، ومن أي منطقة يمكن أن نذهب للاستيلاء على تلك القلعة؟ وإذا قيل لنا علينا الذهاب من الجهات التي فيها الخنادق والسواتر الرملية والممرات، لن يكون من الصعب مطلقاً القول علناً بأن ذلك سوف يكلف مشقة كبيرة، لأن عبور الخنادق والسواتر بغية الوصول إلى الأسوار والأبراج خطير جداً، ويكلف المهاجمين كثيراً، وسيجد أولئك السادة القديسين أنفسهم متعبين ومرهقين في النهاية، بسبب المشاق التي تكبدوها أثناء عبور الخنادق والسواتر، للحملة على تلك الجماعات ببسالة، ولو أنهم كانوا في داخل القلعة لهانت عليهم العملية والمحاولة، ولكان أقل خطراً عليهم، وأدنى ضرراً مما لو أنهم خسروا كل ما كانوا قد ربحوه، فهذا ما تمت البرهنة عليه، وصار واضحاً من خلال هذا المثل.

وأوضح من هذا كله هو أن نزاهة الذين تقدموا وبسالتهم مكنتهم من دخول تلك القلعة المنيعة، إنما أرغموا على الانسحاب، بسبب النصح الفاسد، وبسبب انعدام النظام لاحقاً، وهكذا خسر ورثتهم كل ما كانوا قد ربحوه تقريباً، وأرسل السيد الأقدس مجدداً أفواجاً من النبلاء والسادة ليقدموا النجدة إلى الذين تقدموهم، ولكي يساعدونهم

على اقتحام تلك القلعة، وقد توقف بعضهم عند الشروع بالمحاولة، ومضى آخرون لاسترداد القسم الأكبر مما كان متقدموهم قد فقدوه، ثم رجعوا إلى أهليهم وإلى ممتلكاتهم، ودخل بعضهم الآخر إلى القلعة من الباب، لكنهم لم يأبهوا بالنصيحة الحكيمة التي قدمت إليهم، ولم يسيروا حسب النظام المقرر، فألقوا بأنفسهم بين أيدي أعدائهم، وعجزوا عن الاستيلاء على القلعة، وأرسل بعد ذلك الأب الأقدس، إمدادات بشرية عديدة، على دفعات متوالية، لكن الجميع عجزوا في النهاية عن الدفاع، وهكذا خسروا كل ما كانوا قد اكتسبوه.

ولهذا توجب القول، أنه كان عليهم الدخول من باب الباشورة الذي كان وما برح مفتوحاً، لأنه الطريق المتوجب سلوكه طالما لا يوجد أي عائق يعترض السبيل، ووجب بعد ذلك حراسة ذلك الباب، بشكل يحول بين الضرائب والأتاوات والبضائع وجميع الحاجيات، وبين الوصول إلى تلك القلعة، وبذلك لن يستطيع حماتها وسكانها تجديد أسلحتهم.

وإذا ما أعطى الرب السيد الأقدس نعمة عظمى تمكنه من حشد ما يريده من العساكر والجنود القادرين على المرور بانتظام وثقة من ذلك الباب، ومجابهة الأعداء، ومحاربتهم برجولة وببسالة شبراً شبراً، فإن ما كان يبدو مستحيلاً سيغدو ممكناً إذا ما تقرّر تنفيذه، ولهذا سيكون السيد الأقدس محموداً إذا ما استمع إلى نصيحة العقلاء وأخذ برأيهم، بإرسال من يقتحم القلعة من الباب المذكور، فذلك أفضل بكثير، وأضمن وأيسر بها لا يقاس من أن نذهب إلى تلك القلعة من الجوانب، التي فيها الخنادق والسواتر حيث ستكون المقاومة شديدة.

الفصل الخامس: مثل رمزي آخر يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي يرويها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء

الأتقياء الذين أرادوا وما زالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تم، ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

كانت هناك شجرة عظيمة جداً، وارفة الأغصان، وكثيرة الأوراق، وكانت الأغصان وارفة ممتدة كثيراً، تغطي بأوراقها الأرض، وتروي تلك الشجرة ينابيع لا تنضب، ويغذيها بشكل خاص نهر، يعطيها باستمرار الغذاء الغزير، ولولا ذلك النهر لما كان بإمكان تلك الشجرة البقاء بسهولة على حالها، ولا تعطي تلك الشجرة أية ثمار، لكن تنبت تحتها وتنمو ثمار كثيرة طيبة، ومع ذلك من رغب بالذهاب إلى هناك لقطف بعض تلك الثمار، فإنه يسير أشبه بمغمض العينين، لأن تحت تلك الشجرة ظلمات كبيرة، غير أن جودة الثمار اجتذبت العديد من الناس للذهاب إليها، وبالفعل توجه كثيرون إلى هناك، وكثيرون هم الذين يرغبون بالذهاب إلى هناك، ومع أنهم لا تدفعهم أية ظروف شخصية أو مصلحة، مع ذلك يذهبون.

ولقد فكر السيد الأقدس مع أخوانه وأبنائه وأتباعه المؤمنين الخاضعين له باقتلاع تلك الشجرة واجتثاثها، حتى يكون ممكناً الذهاب على ضوء وبحرية لجمع الثمار الموجودة تحتها، وكان أبناؤه أيضاً وأتباعه، والمؤمنون الخاضعون له يرغبون بالذهاب هم أيضاً، وامتلاك ثمار تلك الشجرة من دون معارضة، ولذلك التمس العون والمشورة لاجتثاثها من جذورها، وتبديدها، فأشير عليه بإرسال رجال ذوي خبرة كبرى إلى هناك مع فؤوس مشحوذة ومناشير، وأدوات أخرى تمكنهم من التعامل بيأس مع تلك الشجرة، وهذا ما حصل.

وشرع الرجال يقطعون ما أمكنهم من أغصانها، وتجريدها من أوراقها، وأتوا على شطر كبير منها، واقتربوا كثيراً من جذعها، غير أن هؤلاء الرجال الذين تولوا العمل وباشروه تعبوا والتمسوا الاستراحة، وتوقفوا عن العمل، فكانت النتيجة أن عادت تلك الشجرة التي

تسقيهـا الينابيع المذكـور، وخـاصـة ذلك النهـر باستمـرار وحيث هناك خيرات كثيرة، وحيث أن سـاقها قـائم في أرض طيبـة وخصبة، عـادت تلك الشجرة للنمو والامتداد، واستعادت وضعها كما كانت من قبل.

وعـاود السيـد الأقدس الكرة وأرسـل مجدداً المساعـدة والنجـدة إلى الذين تقـدم وأرسلهم لقطع تلك الشجـرة، وعـاودوا هم عملهم من جديد يقطعونها ويقطعون أغصانها ويبترون أوراقها، ويحفرون الأرض التي تغطيهـا تلك الشجـرة، وحدث في النهـاية أن هؤلاء أيضـاً، الذين أرسلوا مـؤخـراً، وجـدوا أنفسهم متعبين، وقـد عـادوا إلى البـلاد التي ولدوا فيها، قبل إنجاز العمل، ناشدين للراحة من العمل.

وتكرر المسلـك نفســه على مـــر الأيام مع غيرهـم كثيرين، غير أن الشجـرة التي قلنا بأنها مـروية بدون انقطاع، وخـاصـة من ذلك النهـر الكبير ، وأن جذوعها غارقة في أرض خصبـة وجيدة، عادت إلى حالتها الأولى، مثلما تقدم وعملت مراراً، والآن ماذا نقول؟ وأية نصيحة يمكن أن نسديها إلى السيـد الأقدس، الذي يطلب تقديم العـون له والنصيحة لاجتثاث تلك الشجـرة من أصولها؟ والرأي الأفضل هـو تغيير الطريقة المتبعةحتى الآن، بنسيان الأسلوب الذي جـرى تطبيقه، وهذا واضح مما جـرى ، طالما أن رجـالاً أشـداء تقـدم وذهبـوا إلى تلك المنطقـة بهدف اجتثاث تلك الشجـرة وإزالتها كليـاً، وأخفقوا في الوصـول إلى مآربهم، علماً بأنه يصعب اليـوم وجود رجـال لهم مزاياهم، فأية نصيحـة نعطي بعدما عجزت تلك القوة البـاسلة عن القيام بإنجاز ما أسند إليها؟ ومن الضروري إرسـال مساعـدة إلى تلك القـوة، وهذا يتطلب علماً وبراعـة، وإذا توفـر هـذان العنصران، فـالأمل بالرب ستجتـث تلك الشجـــرة بكاملها.

وبالطريقـة الجديدة، ووفق الشكل الجديد الذي نقترحـه، ينبغي أولاً قطع ذلـك النهـــر الكبير الذي روى تلـك الشجـــرة، ولا يـزال يرويها

باستمرا ر.

ويجب بعد هذا توفر رجل واسع الخبرة، يتدفق بالأصالة، غير ميال إلى الطمع بمكاسب مادية، يسانده رفاق صالحون، يقوم — بنعمة من الرب وبمهارته — فيحمل معه كميات كبيرة من الديدان، فيضعها على جذوع تلك الشجرة وفروعها، وأن تكون نوعية تلك الديدان، بحيث أنها وقت وصولها إلى هناك، تبدأ بقضم جذع تلك الشجرة وفروعها، والأمل بالرب كبير، بأن تفقد تلك الشجرة في وقت قصير جذعها وفروعها، وتسقط بسرعة مع أغصانها وأوراقها.

وبعد يمكن لقداسة البابا أن يأمر بأن يتولى كل واحد انتزاع مايريده من جذع تلك الشجرة، ثم إفساح المجال للشعب الخاضع لقداسته لقطف الثمار التي كانت تنبت تحتها، دون أن يعترض سبيلهم معترض، وأن ينعموا بها بسلام، ويحتفظوا بها على الدوام، وليقدنا إلى ذلك من يحيى ويملك إلى أبد الآبدين، آمين.

إن ما قيل، وسرد ، وعبر عنه برموز وأمثال دامغة وصادقة ومتشابهة تماماً، من شأنه حملنا على إظهار الحقيقة التالية: إن الطريق البحرية إلى مصر هي بكل تأكيد أفضل الطرق جميعاً، وهو الباب الصالح الذي ينبغي الدخول منه لإبادة ملة محمد(ﷺ)، بادئين ذي بدء بقطع الدرب والمنبع الذي تصل منه الموارد المالية باستمرار حسبما ذكرنا من قبل، وذلك عن طريق ملاحقة المخالفين، وتسليح الغلايين، وذلك حسبما سنوضح في الفصول التالية:

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

ولتجنب إثارة أي شك، فإنني أوضح باحترام وخشوع واعتذار قصدي من كل ما أخبرت به قداستكم في الأمثلة المتقدمة، فقد عنيت بالقلعة المشار إليها أرض مصر، التي ظلت منذ زمن بعيد الحصن

الحصين في المشرق للذين يتبعون ملة محمد(ﷺ)، وقصدت بالدهاليز والستائر الرملية الصحراء الشرقية التي تحيط بأرض مصر من جهات مملكة القدس وسورية، ومثلها الصحراء الغربية من جانب أفريقيا، والتي لها تخوم مع مملكة تونس ومن ثم الصحراء الكبرى، أما الأسوار العالية والأبراج الكبيرة والستائر التي حولها،ففيها إشارة إلى تلك الصحراء الواسعة وإلى أن عبورها يوازي بمشقته تلك الأسوار والأبراج، وهو عبور مرهق، وصعب وشاق جداً، وهكذا الحال بالنسبة لعبور الصحراء الممتدة على مسافات طويلة، وكما ذكرنا من قبل أن سلوك تلك المعابر، مرهق وخطير جداً بالنسبة لأي جيش كان وعالي التكاليف، أما الخنادق ونقاط الدفاع في تلك الأرض، فمن الممكن تسميتها قلاع سورية وتركية المشحونة بعناصر جيدة من الرجّالة هم أمهر من الذين في مصر، أما أسوار القلعة المذكورة، والمشرفة على الخنادق ونقاط الدفاع، فالمقصود بها صحراء مصر التي ضمنت دوماً في الماضي أمن القلعة وسلامة حاميتها، وقد سيطرت هذه الحامية في الماضي وما تزال تسيطر اليوم على خنادق ونقاط دفاع هي حصون مملكة القدس وسورية، فهذا ما اتضح من خلال حملات الفرنجة الذين قدموا في الماضي إلى مملكة القدس وسورية، ويتجلى هذا بشكل أبين مما جرى للتتار.

والمقصود بالعبّارات والجسور التى تربط بين الخنادق والأبراج، الطرق والمسالك التي تربط ما بين الصحراء وبين مملكة القدس وسورية، وعلى هذه الطرق اختزن المصريون ببراعة كميات كافية من الماء، اعتادوا على الاحتفاظ بها لحاجتهم، فقط عندما يضطرون إلى عبور تلك الصحراء.

أما الأبواب الموصدة بمغاليق حديدية فهاكم تفسيرها:

عندما يريد أولئك السكان إخفاء تلك المياه أو إتلافها حتى لا

يكتشفهـا الأجـانب، يفعلون ذلك كلما أرادوا، ومن الواضح أنه يتعـذر على أي إنسان عبور تلك الفيافي مع جيشه من دون ماء، وهذا هو الذي دفعني إلى تسمية تلك المعابر بالأبواب الحديدية.

وأمـا باب القلعة الكبير الذي يبقى دومـاً مفتـوحاً، فإنني أؤكـد أنه مصر البحـرية، الذي تصل عبره إلى المصريين جميـع الحاجيـات المناسبـة وخـاصة الضرائب والرسـوم والبضائع التي يرسلهـا الأمراء والأعيـان والعسـاكر من جميع بلدان العـالم وشعـوبه، ولا سيما أصحاب الثـروات الذيـن يأتون بالشكـل والأسلوب الذي ســوف أتحدث بكل تـواضع ومنطق عنه، ذلـك أنه من المعــروف، ومما لا شك فيــه أن جميع السلع والمنتجات التي اعتاد التجار على إنزالها يومياً إلى الأسواق لعرضها على مستهلكيها، يدفع عنها التجـار القادمون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان رســومــاً كبيرة في مصر، وينفقــون أيضــاً مبـالـغ كبيرة لحماية سفنهم ومــراكبهم، ويتحمل هذا كله مستهلكي تلـك الأصناف، حيث يضطر التجـار إلى بيعهـا بأثمان مرتفعـة جـداً، وهكذا يمكن القـول بأن الذين يقدمون من عند ملوك الأرض والأمراء والأعيان يحملون إلى السلطان ضرائب مـالية كبيرة جمعت من الرسـوم والمكوس التي يستوفيهـا منهم عن البضائـع التي تخرج باستمرار من تلك القلعـة، وتستهلك في أجزاء عــديدة من العــالم، لابل بالحري أن نقــول: تستهلك من قبل المؤمنين الخاضعين للكنيسـة الرومانيـة المقـدسـة ذلك أن مناطقهم هي بلا شك أكثر عدداً، وأعظم ثروة من المناطق الغربية، وهي تستهلك كميات أكبر من الأقمشــة ومـن الأصناف النادرة والبضــائـع الواردة من الأراضي التـابعـة للسلطان، وهي أكبر مما يستهلكه أي شعب من شعـوب العـالم الأخرى.

وإذا مـا طلب مني أحـد أن أوضح عن أي بضـائع ومنتجـات تدفع تلك الضرائب من قبل أتبـاع الكنيسة الـرومانيـة المقدسـة إلى السلطان،

أستطيع أن أبين بأنها تدفع في الوقت الحالي عن: الفضة، وألواح القصدير، والرصاص، والفضة الصافية، والزيت، والأعلاف، وشقق الصوف، والحرير، وأقمشة الكتان، والمرجان، وأثواب المنسوجات، والزعفران، وغير ذلك من البضائع التي لم نذكر هنا، لكن أسهبنا في ذكرها في الكتاب المتقدم.

ويستخدم المصريون هذه السلع، وهي عندهم بوفرة، أما الفائض من الفضة، والقصدير، والزعفران، والمرجان، وأثواب المنسوجات، فكلها تنقل إلى الهند، حيث يتاجر بها المصريون، ويشترون التوابل وأنواعاً من الأصناف النادرة، ويعودون بها إلى أرض مصر للمتاجرة بها، وهكذا يتضح بشكل جلي أن الفضة والمواد المتقدم ذكرها تستبدل بغيرها، أي أن تلك المعادن وسواها تسمح للمصريين بالحصول على التوابل والأصناف الهندية الأخرى مقايضة، ومن ثم تشحن كلها إلى قلعة المصريين المذكورة، وللحصول عليها يسافر التجار إلى هناك حاملين معهم من بلدان الشمال — عبر البحر الكبير — الغلمان والجواري، الذين يسميهم المصريون المماليك، فضلاً عن هذا يحمل التجار معهم من البلدان المذكورة ولاسيما من جزر اليونان وبلاد الصقالبة[السلاف]: الخشب والحديد والقار، ويعبرون بهذه البضائع البحر، ويقايضون بها في القلعة المذكرة، أي أنهم يحصلون عوضاً عنها على السكر والكتان، وعلى التوابل بشكل خاص، وكذلك على أصناف نادرة من الهند، وهذا ما يصنعه التجار من كلايا وأضاليا، ذلك أنهم يحملون بشكل كبير أكثر من سواهم الغلمان والجواري إلى أرض مصر، وغالباً ما يأخذونهم من أرض اليونان، وبات الآن واضحاً أكثر من ذي قبل، أن الفضة والقسم الكبير من البضائع التي يصدرها المؤمنون الساكنون في الغرب تطلب يومياً في مصر، لأنها تتحول لصالح تجارة المماليك المرعبة، ذلك أن المماليك عبارة عن جواري وغلمان من أصل مسيحي أو وثني، ومثلها

تجارة الخشب والحديد والقار، وهي البضائع التي تصدر بشكل دائم إلى ذلك الحصن الذي هو أرض مصر، ولأجل ذلك تتضح صوابية رأي الذين أشاروا بحظر وصول الذهب والفضة والنحاس والقصدير والمرجان إلى أرض مصر، ذلك أنه من المؤكد أن هذه السلع سوف تنتقل إلى المقاطعات المصرية، دون الاكتراث بالحظر الصادر عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وبرأيي أنه بسبب حاجة مصر للسلع التي تأتي من مصر، فإنها تنتظرها دوماً، ويقوم السلطان والخاضعون له باستمرار بأخذ قسم كبير منها، مما هو لازم لقوتهم ولحياتهم، وبدون الاتجار بها لا يمكنهم الحصول على التوابل، ولا على غير التوابل من الأصناف النادرة، وغير ذلك من بضائع الهند، وكذلك لن يمكنهم الحصول على المماليك والحديد والأخشاب والقار، وإذا ما حصلوا على ذلك، يكون ذلك دون الكميات المرغوبة، وبناء عليه إن الذي يتأمل بالطريقة الموائمة حتى يمنع ويحول دون نقل المماليك والحديد والأخشاب والقار إلى هناك، عليه أولاً أن يحظر شحن الذهب والفضة وصفائح القصدير والنحاس، والزعفران، والمرجان، وما شابه ذلك، إلى مصر، لأن أهل مصر يبادلون هذه البضائع، بالسلع، والأصناف، والمنتجات الهندية، وإذا قيل: ألم يتقدم وأصدرت الكنيسة الرومانية المقدسة أوامر حظر وعقوبات بحق من يخالفون إجراءاتها؟ أجيب بأنني موافق على هذا، فلقد صدرت قوانين وقرارات وأوامر ومراسيم وغير ذلك، وهي بالفعل كلها مقدسة وصالحة، وبدأت تعطي بعض النتائج المفيدة، والذين أصدروها آباء روحانيون صالحون وقديسون، وحكام وسادة علمانيون شرفاء، إنما هذه التشاريع لا تجدي نفعاً إذا لم يوجد من يكلف بتطبيقها وفرضها، ولذلك يمكن أن أقرر حولها الحكم التالي: إنه على الرغم من أوامر الآباء القديسين والمبجلين، وعلى الرغم من العقوبات الصادرة بحق من يخالفونها، فيسافرون بحراً مع سلعهم وبضائعهم، إلى الأراضي الخاضعة إلى السلطان، فإنه لم يوجد أبداً بين أولئك الزعماء

الروحيين أو العلمانيين ، من سعى إلى تطبيق تلك العقوبات أو أوامر الحرمان، وتنفيذها، ولذلك إنني أستطيع أن أقول بكل صراحة وتواضع إنه كان في ذلك ليس فقط احتقاراً للكنيسة المقدسة، بل أيضاً إهانة بحق الخالق، وضرراً عظيماً لشعبكم، وأذى للمؤمنين الذين يفترض على الأب الأقدس تدبر ما يراه أنسب لهم وأسلم، وإذا اعترض أحدهم متسائلاً:

هل جرى تعيين أحد وتكليفه بتطبيق تلك الاجراءات الرادعة وتنفيذها؟ أجيب بكل احترام وتواضع وتقوى: إنه لم يوجد أحد قط تولى مطاردة مخالفي تلك التدابير مطلقاً، لا في البحر ولا في البر، وخاصة على الأرض، ولهذا بما أن العدل لم يأخذ مجراه أبداً في هذا السبيل، كثيرون — لا بل بالحري — ما أكثر الذين ذهبوا إلى هناك، لذلك من الموائم أن تعمد قداستكم، أيها الأب الأقدس، إلى معاملة جمهورهم بشدة وبالطريقة الموائمة لخلاص أنفسهم، ولصالح استرداد الأرض المقدسة.

وفي الحقيقة، إذا أمرت قداستكم بتنفيذ ما جاء في كتابنا الأول، وأعلنت رسمياً أوامر الحظر والحرمان، وسلحت الغلايين، حسبما بينا أيضاً، وقتذاك الذي يكون قد سقط في تلك الخطيئة، بذهابه إلى الأراضي التابعة للسلطان، وبعودته منها أيضاً، أو تكون قد وجدت بحوزته بعض البضائع المستوردة من هناك، تتخذ بحقه الاجراءات المقررة دونما شفقة، وحسبما ترى قداستكم أنه محق ومنطقي، وبما أن«الطامع بخيرات هذه الدنيا يخشى من العقاب الآني أكثر من العقاب المقبل»، لذلك إن من لا يردعهم خوف الرب ويمنعهم من مقاربة الشر، من الواجب والضروري ردعهم وصدهم عن الخطيئة بوساطة العقوبة الدنيوية.

وإنه بالنسبة للأب الأقدس، السيد المبجل الذي له إخوة كثر وأبناء

عـديدون، أعني قـداسة أبينا ومـولانا البـابا، الذي مع إخـوته الكرادلة المكرمين، ومع أسـاقفة كنيسـة يسـوع المسيح، يسهر ليـلاً ويعمل نهاراً، ويصلي طالباً باستمـرار العـون والنجـدة من المؤمنين ومن أتبـاعـه من الملوك والأمـراء والبـارونات، وبشكل عـام من الشعب المسيحي كله، حتى يتمكن من اقتحام تلك القلعـة، لاسترداد أرض آبائه، أي الأرض المقدسـة، التي وطئها السيد المسيح بقدمـه، ورواها بدمه الثمين، ليغسل خطايانا ويمحوهـا، إنه بالنسبة إليه أية نصيحـة أفضل نقدم إليـه؟ لقد ضربنا في الماضي مثـلاً حـول نتيجـة المرور من جهـة الخنـادق وأمـاكن الدفاع، أي عبر سـورية وتركيا، لما عبر خـلالهما الراهب بطرس الناسك والدوق غودفـري دي بولليون، مع غيرهما من الكونتـات والبارونات، واحتلوهما، وأخضعـوهما — بنعمة من الرب — أيضـاً المدن والحصون حتى صحـراء مصر، وبلغت بعـد هذا قـوة عمـوري الألماني الذي تولى عـرش القدس بعـد بلدوين، وبراعته وبسـالته، أنه اقتحم تلك القلعـة، ودخل القـاهرة، وضرب الحصـار الشـديد على الجيـزة، ولولا مشـورة خـاطئة لكـان استـولى عليهـا مع أرض مصر كلهـا، وذلك كما ورد في كتاب الاسترداد، وفي الحقيقـة لقد أخذ بنصيحة خـاطئة، فكان أن دحر وطرد خارج تلك القلعة، وفي النهـاية خسر الذين خلفوه المدن والقلاع وكل ما كان بأيديهم في مملكة القدس وسورية.

فضـلاً عن هذا،انطلق الامبراطور السـامي والمعظم فـردريك عبر طريق البر بقـوة جبـارة، وعلى رأس جيش عمـلاق من المقـاتلين، فعبر تخوم ألمانيـا إلى بلاد المجر ثم إلى بلغـاريا واليـونان، ونفذ خـلال أراضي المسلمين بذراع قـوية ممدودة، واستـولى على قـونيـة، وعلى فيلومليـون، وعدد كبير آخر من المدن حتى وصـل إلى أرمينيا، وهناك في حر الصيف ذهب ليستحم في نهر يسميـه السكان«النهر الأسود»، فغـرق واختنق في الماء، وكانت تلك خسارة هائلة للمسيحية جمعاء، وعقاباً للخطايا.

وبعد مرور بعض الوقت عبر عن طريق البحر سادة عظام شرفاء مثل فيليب ملك فرنسا، وكذلك السيد رتشارد دملك الانكليز، وكان معهما عدداً كبيراً من الدوقات والكونتات والبارونات، وقد نفذا كثيراً من البطولات حسبما قرأنا في كتاب الاسترداد، غير أنهما عادا إلى بلديهما تاركين المسألة معلقة غير منتهية.

ومثلهما فعل عدد كبير آخر من كونتات وأمراء وبارونات، فقد قدموا إلى هناك — كما تحدثنا كتب التاريخ وأخبار الأيام — وظلوا يتدفقون إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي ألقى الحصار على مدينة دمياط، وشدد الخناق عليها ومعه عدد لا يحصى من المقاتلين، ومع هذا أنحني باحترام وأقول: هلكت غالبية ذلك الجيش، لأنه افتقر إلى المهارة والنظام، وكان آنذاك في أشد الحاجة إلى ذلك، وبالتالي لم يتمكن من الاستيلاء على تلك القلعة.

ووجه الأب الأقدس بعد ذلك، مراراً وتكراراً، النجدات والاعانات، والعديد من المحاربين الأبطال والشرفاء، وجه هؤلاء نحو الأرض المقدسة للاستيلاء عليها، ولانتزاعها من أيدي الكفرة، لكن في النهاية ضاع كل شيء، وخسروا كل ما سلف واحتلوه.

وبناء عليه أعاود القول: إنه لمن الضروري مهاجمة تلك القلعة، لابل اقتحامها بجرأة وإقدام من الباب الكبير — أي من مصر البحرية — فهذا الباب هو الذي بقي دوماً مفتوحاً، وإنه لموائم كثيراً، أن يقتحم بشكل يحقق إيقاف وصول البضائع إلى سكان تلك الأرض، وتحصيل المكوس عليها، ومن ثم منع المصريين من مقايضة تلك البضائع بغيرها من الحاجيات اللازمة لهم، ومنعهم أيضاً من إعادة تسليح شعبهم.

ومن الممكن أن يتم هذا في وقت قصير، إذا ما جرى الأخذ بما جاء في الكتاب الأول حول ملاحقة المخالفين، وحول تسليح الغلايين، وإذا

طاب لخالق الجميع منح هذه النعمة إلى نائب يسوع المسيح، فيأمر بحشد ذلك العدد من العناصر، حسبما هو وارد في مطلع الكتاب الثاني هذا، ذلك أن الفرسان والرجّالة سوف يتمكنون من عبور الباب الثاني — أي شاطىء مصر — بنظام جيد، وهم مزودين بإرشادات أفضل وبكل ما يلزم أو يناسب أولئك الفرسان والرجّالة، وأيضاً متنبهين إلى ضرورة الالتـــــــزام بذلك الترتيب، وبذلك الأسلوب الذي وضعناه،ووصفناه في هذا الكتاب الثاني، ونحن على ثقة بالرب، ومتوكلون عليه حقاً، وواثقون بأنه سيمن بنجاح هذا المشروع السعيد والحميد.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها:

ملة محمد(ﷺ) هي الشجرة المشار إليها أعلاه، وهي العقيدة التي نشرها في أيامه، ويُراد بها أيضاً شعبه والبلدان التابعة لهم، وهذه العقيدة هي الجذور والأساس الذي تغلغل في أرض مصر وترسخ فيها، وأما أغصان تلك الشجرة، فهي البلدان والقادة التي يحكمونها خاصة في تركيا وسورية، وأرض الميعاد، لابل في المغرب في مملكة تونس، وعلى طول شاطىء أفريقيا كلها، وفي سائر بلدان العالم التي تدين بعقيدة محمد(ﷺ) وتخضع لشريعته، أما أوراق تلك الشجرة، فهي شعوب تلك البلدان الساكنة فيها، وضخامة الشجرة وقدمها هي تجذر المصريين وقوتهم، فمصر ظلت دوماً هي الأقوى بين جميع أتباع تلك العقيدة، وخاصة في الشرق، أما الينابيع التي تروي الشجرة وتغذي جذورها وفروعها، فهي بدون شك المنتجات والثمار التي تستخرج من أرض مصر، أما النهر الذي يروي تلك الشجرة، ويجعلها موئلاً للجميع، فهو المعبر الذي تنقل الخيرات بكثرة خلاله إلى السكان وسواهم، مما يجعلهم اليوم يمتلكون جميع الأصناف النادرة، وبضائع الهند، التي لولاها لما كان بإمكان السكان المقيمون في مصر تأمين سبل عيشهم، أو تنظيم

شؤون حياتهم، واستهدفنا من قولنا بأن الشجرة لا تعطي أية ثمار، تبيان أنه لا يمكن أن يقطف من عقيدة محمد(ﷺ) أية ثمار صالحة، أو ينتج أي عمل صالح، أما الثمار الجيدة التي تنبت تحت الشجرة فهي الثمار التي تنتجها البلدان التابعة للسلطان والخاضعة لسيطرته، والبضائع التي تنزل في هذه البلاد يومياً،ذلك أن هذه البضائع بحد ذاتها صالحة، أما الذين ينتقلون وعيونهم مغمضة، ويقبعون في الظلمات الدامسة، فهم بدون شك الذين يعطلون بصائرهم وأبصارهم عن رؤية أوامر الحرمان والعقوبات التي فرضتها كنيسة يسوع المسيح، ويختلف عنهم الذين لا يريدون الذهاب إلى هناك لكونهم صالحين، وقد وضعوا نصب أعينهم حب الرب ومخافته، وطاعة يسوع المسيح.

أما ذلك السيد القديس، فهو أبونا ومولانا قداسة البابا، وأخوانه هم السادة الكرادلة المبجلون والأساقفة، والأبناء هم المؤمنون، والخاضعون لقداسته هم الملوك، والكونتات والبارونات، لابل جميع الشعب المسيحي من رجال دين وعلمانيين، ممن يلتزمون بسبل كنيسة الرب المقدسة بأمانة وتواضع، ويفكرون ليلاً ونهاراً حول كيفية إزالة تلك الشجرة، أي عقيدة محمد(ﷺ)، واسترداد مملكة القدس، وانتزاعها بشدة من أيدي أولئك الأشرار، وهم يلتمسون باستمرار ويتوسلون لإرسال النجدة والعون وفق الطريقة المبينة أعلاه، لزعزعة تلك الشجرة ومن ثم لاجتثاثها من جذورها مع أغصانها وفروعها كلياً، حتى يزول من على وجه الأرض ذكرها، وأما ساق تلك الشجرة فهي أرض مصر، وأما أغصانها فباقي البلدان التابعة لمن يعتنقون تلك العقيدة ويتبعونها، أي البلدان وشعوبها، وقد قدمت فيما مضى منذ زمن بعيد النصيحة إلى الأب الأقدس، لكي يرسل رجالاً مدربين، ومقاتلين أشداء، لاجتثاث تلك الشجرة، تمهيداً لاستنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المنافقين، وإعادتها إلى ملكية المسيحيين بشكل سليم وآمن، وهكذا كان إرسال

الراهب بطرس الناسك، وغودفري دي بولليون وغيرهما ممن تبعوهما فيما بعد، ولقد ذهبوا مزودين بالفؤوس والمناشير — أي بالأسلحة — واقتطعوا بعضاً من الشجرة، واستولوا ببسالة على جذعها، وجاء من بعدهم عموري ملك القدس، الذي كان مستقيماً وشجاعاً وبطاشاً، ومحطماً للأعداء، وقد قيل بأنه زحف حتى يحتل القاهرة، أي القلعة — لكن بسبب سوء النصيحة التي أسديت له، أخفق هو أيضاً في إخضاع القاهرة — أي القلعة — وسائر مصر، وأن يجعلهم تحت سلطانه — حسبما سنرى في الكتاب الثالث — ولما عجز ذلك الملك العظيم الباسل، ومعه خاصته والقادة في جيشه وباقي المقاتلين الشرفاء، عن اجتثاث جذور تلك الشجرة، وانتزاعها من أيدي الكفرة، عادوا إلى القدس، وكانت النتيجة أن استرد السلطان ذلك الينبوع الكبير — أي البحر — حراً سالكاً، واستعاد قدراته إلى حد أنه تمكن بعد أمد وجيز من استرداد جميع الأرض التي خسرها، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى حرب السيد العظيم غي لوزغنان، ملك القدس، واقتاده معه أسيراً، وهذا مما نقرأ عنه أيضاً في كتاب الاسترداد المذكور.

ومجدداً عمد الأب الأقدس إلى إرسال النجدات والمساعدات إلى هناك، أي أرسل صاحب الجلالة والسمو، فردريك امبراطور الرومان، وكذلك ملوكاً آخرين عظماء وشرفاء مثل جلالة فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد ملك إنكلترا، وكان معهما شخصيات كبيرة، كما سلف بنا الذكر، وقد قطع هؤلاء أغصاناً عديدة من أغصان تلك الشجرة ومن فروعها، أي أنهم احتلوا ببسالة مدينة عكا وغيرها من مدن وقلاع في تركيا وسورية، وفي أرض الميعاد، حسبما بينا في الكتاب المذكور.

وإنما مات بعضهم في النهاية، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنه واحداً تلو الآخر، وذهب بعد ذلك إلى هناك عدد كبير من الأمراء والبارونات والسادة، واستمر ذلك إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي عبر

البحر للاستيلاء على دمياط وإخضاعها لسلطة المسيحيين، ومآثره مدونة أيضاً في المصدر نفسه، وتوجه بعده أيضا كثيرون لكن دونها محصلة، فقد ظلت الشجرة التي ذكرناها ذاهب ساقها وجذورها في الأرض الطيبة، وظلت مروية بدون انقطاع بذلك الينبوع الكبير، أي البحر الذي ظل ينميها، لأنه بقي مفتوحاً بشكل دائم، وسالكاً تماماً، تعبر عليه ذهاباً وإياباً الخيرات الكثيرة، من ذهب وفضة وصفائح قصدير ونحاس، وغير ذلك من المعادن ومن المرجان والزعفران، والصموغ، وأثواب الأقمشة ، وشقق الحرير وغيرهما مما يشبهها أو يختلف عنها ، وإليها يحمل المماليك والحديد والقار، وكذلك الأخشاب، وسمح هذا كله للسلطان بتنمية قدراته التي ازدادت فأعطت إلى أغصانه وفروعه قدرة وعزة، حتى أنها عادت إلى متقدم أوضاعها، أي أن السلطان قد استرد مدن: طرابلس، وعكا، وصور، ودحر حكامها الأشراف، وأعاد كل ما تبقى من الأرض المقدسة، فوضعه تحت سلطانه.

وهكذا بعدما جرى إرسال ذلك العدد الكبير من الرجال الأشراف والمقاتلين الشجعان إلى هناك، ولم يتمكنوا من تحقيق الهدف الذي كان مطلوباً وضرورياً، كما ذكرنا من قبل، وبما أنه يصعب جداً إيجاد من يضاهي أولئك بأساً وجلداً، يتضح لنا اليوم أمر وهو وجوب اللجوء إلى أسلوب آخر، ومنهج جديد، لتحقيق مشروع لإسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، يكون من شأنه أن يقدم إلى قوة المسيحيين وبسالتهم عوناً ودعماً، باعتماده على كل من البراعة والفن، فإذا ما جمعا معاً — والأمل بالرب كبير، والاتكال على عونه — إن تلك الشجرة سوف تجتث وتقتلع دون الخوف من أن تنبت مجدداً في المستقبل، شريطة أن يتم العمل على هذا النحو ووفق الطريقة التالية: ينبغي أولاً وعلى الفور قطع ذلك الينبوع الكبير المتقدم ذكره أعلاه، وهو الذي روى ومازال يروي تلك الشجرة بغزارة، ومن الممكن أن يتم هذا بسهولة،

بمنع الدخـول والخروج البحري نحـو الشجرة المذكـورة، ويتحقق هذا كلياً عندمـا يتم تنفيذ مـا جاء في الكتاب الأول حـول الحظر والملاحقة، وكذلك حـول الغلايين، ويلزم بعد هذا العثـور على ذلك الرجل النزيه المتميـز بالأخـلاق الحسنة، وبالدمـاثة والحكمـة والنزاهة، وذلك حسبما أوضحنا في مطلع كتـابنا الثـاني هذا، لأن الشعب كله يدار بشكل جيـد حين يوجد حاكم نزيه وعاقل، وإلاّ فإنه يصير إلى الدمار، ويتوجب على هذا القبطان المعين بنعمـة من الخالق أن يحمل معـه الديدان الكثيرة، أي المراكب والرجــال البـارعين في فن الملاحـة في الميــاه المالحة، وفي الميـاه العذبة، والقادرين على أن يمدوا بعضهم بعضـاً بجرأة وإقدام، في البحر وفي الأنهار، وأن يحمل معه غير ذلك من العتاد المناسب، حسبما جاء في الكتاب الثاني.

وعلى هؤلاء الرجـال — فـرساناً ورجّـالة سـواء — التصرف بفطنة ومقــدرة أثناء طوارىء الحرب، وغير ذلك من الظـروف، بحيث يكون بإمكانهم — بعون الخالق وبمهـارة القبطان — الابحار نحـو الشاطىء المصري، ومن ثم النزول هنـاك، كما يفعل المقـاتلون البــارعـون وذوو الاقدام، وبعـد هذا يذهبون لاجتثاث جذور وأصـول تلك الشجرة — أي القاهرة والقلعـة — فيلقون الحصار عليها، ويقتحمـونها ويخضعون لسلطانهم بلاد مصر بكاملها.

وهكذا — مع الأمل بالرب والتـوكل عليه — سوف تتسـاقط جميع أغصان الشجرة وأوراقها ستيبس، وبعدما ينفذ هذا كله ليتلطف قداسة أبينا ومـولانا البـابا، نائب يسـوع المسيح، وليصـدر أوامره، وليـوضح إرادته، وليبين مــاذا يريد أن يعمل بجــذع تلك الشجـرة، أعني بعـد إخضـاع مصر، إلى الشعب الخاضع للحبر الأعظم، ذلك أنه مما لا شك فيه — بتوجيه من الرب القديـر — سوف تنهار سورية ومملكة القدس وأفريقيـة، والأجزاء المحتلة من إسبـانيا،وباقي مناطق العـالم التي يحتلها

أتباع محمد(ﷺ) وستضمحل — بعون الرب وقدرة نائبه — وسيواجه الروم المنشقون المصير نفسه.

وللوصـــول إلى الأهداف — التي ذكـرنـاها — في مصر، ولقطف ثمارها بوفرة، وللتمتع بها بحرية، ولاحتلالها دوماً بسلام، يجب التفكير ملياً، والتقدير بوجوب إخضاع الأرض للمسيحيين، وبشكل خاص إلى أهلها الأصليين والموجودين فيها، وكذلك للغربيين، الذين يمكنهم التجول فيها لقطف ثمارها بكل حرية، وليوصلنا إلى ذلك، نحن وكل الذين يتمنون كرامة الكنيسة الرومانية، الرب الذي يملك ويحيى إلى أبد الآبدين.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا مـا أردنا استرداد الأرض المقدسة، وهو برهـان مقتبس مما جرى بين أهل البندقية، والسيد بطريرك أكويلا، أثناء الخلاف حول النمسا.

ارتأى المبجل بطريرك أكويلا ومعه كونت غريسيا أن ينتزعا من أهل البندقية مدينة يوستنبولي، في بلاد النمسا، وقد جرى تنفيذ ذلك، حيث هاجم بعـد أربع سنوات — أي سنة ١٢٨٢ — البطريرك والكونت تلك المدينة بجيش كبير، مع أنها كانت تابعة في الماضي للبندقية، وهنا ازداد الاضطراب في بلاد النمسـا، فعمـد الزعيمان إلى حشد قوات عسكرية براً وبحراً، وجرت صدامات كثيرة ومتوالية، ومن منطقة فاروجولي Faro Julii — حيث المقر البطريركي — كان البطريرك، ومثله كونت غريسيا يستقدمان التعزيزات والامدادات مرتين أو أكثر كل عام، وكانا يلحقان الشرور والأضرار الجسيمة بالمدن وبالقلاع التي كانت من قبل بحوزة البندقية، وهما تحملا أيضاً مع شعبيهما الكثير الكثير، كما هي الحال في جميع الحروب، وقد حدث لهما أن منيا بالهزيمة أحياناً، وهكذا تتابعت الحملات لمدة عشر سنوات و أكثر، ومع

الحملات أعمال النهب والحرائق والتدمير، وما شاكل ذلك، ليس على الأرض فقط بل وفي البحر أيضاً، ولم يتمكن البنادقة طيلة تلك المدة من وضع حد للشرور، وفي الوقت الذي كانت الأمور تتأزم فيه هكذا في النمسا، حدث أن بعض أشراف كامينو Camino اضطروا إلى الدفاع عن موقع لهم، كان قائماً على نهر لكيونسيا Liquentia، واسمه لاموتا Lamota ضد خصومهم سادة ترويزيو Teruisio فاستنجدوا بالبندقية، وكان هذا الموقع في أول مقاطعة فاروجولي، وتدخل البنادقة وأجروا مصالحة بين أولئك الأشراف وخصومهم، وشرع أهل البندقية يمارسون نشاطهم، فبعثوا إلى لاموتا عساكر من الرجالة والفرسان، يعملون خلال فاروجولي لمهاجمة خصومهم، ولما رأى البطريرك المذكور، ومعه كونت غريسيا وسادة فاروجولي، أن بلادهم تتعرض للحرائق، ومدنهم للنهب، وأرزاقهم ومواشيهم للسلب،لم يتحملوا السكوت على هذه التجاوزات في الداخل، المشابهة للأضرار التي كانت تقع في الخارج في النمسا، فاضطروا في ذلك العام إلى التفاوض مع أهل البندقية.

ومثل هذا إن أرض الميعاد مجاورة لمصر، مثلما أرض فارو جولي مجاورة للنمسا، ومثلما لدى بطريرك النمسا رجّالة صالحين، ويفتقر إلى الفرسان، هكذا لدى السلطان في سورية رجّالة صالحين، وهو يفتقر إلى الفرسان،ولدى السلطان في مصر نخبة من الرجّالة لكن فرسانه من النوع الرديء، لذلك إن مهاجمة السلطان في مصر مثل مهاجمة البطريرك في فاروجولي ، لأن مصر هي الدولة الأساسية للسلطان، إذا قهر فيها تحطم كلياً، وإذا لم يغلب كلياً، فإنه بسبب الضائقة القريبة منه بهذا الشكل، والواقعة في داخل مملكته، سوف يطلب الصلح مرغماً، حسبما رأينا في المثل المعروض أعلاه، وكما سنرى في الفصل المقبل.

الفصل التاسع : سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس لويس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس

اللاتين.

كان السشعب المسيحي قد هاجم مصر مراراً من جهة دمياط، وكاد أن ينجح ثلاث مرات لو أنه لقي النصائح السديدة، ولم يفتقر إلى المؤن وإلى غيرها من الحاجات الضرورية.

وكانت المرة الأولى أيام جين ملك القدس، الذي كان كونت بريين، وأيام بيلاغيو نائب البلاط الروماني، فبعد حصار دام سنة وسبعة أشهر جرى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩، وتقدم الصليبيون بحرية من هناك إلى فرع النيل الذي اسمه تنيس، والمنحدر من هناك إلى دمياط، لكن الشح في المؤن — وأكثر من ذلك خطاياهم وما استحقوه من عقاب، كما ورد في الفصل التاسع، من القسم الحادي عشر من الكتاب الثالث — جعلهم ينسحبون، وبعد ذلك في أيام القديس لويس، ملك فرنسا، جرى الاستيلاء على دمياط مجدداً عام[١٢٤٨]، وأراد السلطان كسب رضى الملك، فقدم له الهدايا الكثيرة، وعرض عليه معاهدة يتخلى له بموجبها عن دمياط وعن الأرض المجاورة لها ليعطيها للمسيحيين العديدين الساكنين في أرض مصر، والذين يعرفون باسم مسيحيي الطوق، وتخلى له أيضاً عن أماكن كثيرة في القدس وفي سورية، لكن الملك لويس رفض الاصغاء إلى مثل هذه الاقتراحات، ذلك أن هدفه كان الاستيلاء على مصر بكاملها، فتابع مسيرته المظفرة حتى المنصورة، كما هو مذكور في الفصلين الثاني والثالث من القسم الثاني عشر من الكتاب ذاته، وقد أعمى المحاربين المسيحيين من جانب الطمع بالمال، ومن جهة ثانية ضايقهم الشح في المؤن، وتوالت عليهم هجمات الأعداء، ولخوفهم من نفاد الطعام اضطروا إلى التراجع.

وبعد أن سقط الملك بالأسر، فكر المصريون بفداحة المخاطر المحيطة بهم إذا بقيت دمياط في أيدي المسيحيين، فعرضوا عليهم بأن يطلقوا سراح الملك والبارونات والقادة المسيحيين كافة، وأضافوا بعد هذا إلى

عـروضهم شروطاً أخـرى كثيرة لمنفعـة المسيحيين — كما هو واضح في المصـدر نفسـه، وهذا أيضاً مشروح في كتـاب«مـرآة التـاريخ» للمصنف فنسنتي Vincenty ، في المكان الذي وصف فيـه أسر القـديس لويس السعيد الذكر مع إخوانه، ثم إطلاق سراحهم.

وحـدث قبل هذا أن زحف عمـوري ملك القدس ضـد مصر، لكن السلطان استغـواه بالمال، فـاستمع إلى النصيحـة السيئة التي قـدمهـا له ميلون دي بلانتي، فرفع الحصار وانسحب(الفصل الثاني والعشرون — القسم السـادس — الكتـاب الثـالث)، ومثله فعل هنري ملك إنكلترا، فبعدمـا درس الأوضاع على الأرض قـرر أن يهاجم مصر أولاً(الفصل الأول — القسم الحادي عشر — الكتاب الثـالث)، وكذلك كـان البابا إنوسنت قد قرر توجيه جيش مسيحي إلى مصر.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقـون — بعون يسـوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

إنها لحقيقة مقررة أن كل شيء هو في قدرة الخالق، لذلك ينبغي دوماً التماس العـون والنصح من عنده لحمـده ولشكره ومجده، وإننا نستطيع على ضـوء الماضي أن نحكم على المستقبل، وأن نقـرر مـا هو ضروري للغد، وكل عمل نبـدأ به ينبغي أن يقود إلى النتيجة الصـالحة والحميدة، لذلك أقول — وأنا أستميح العذر من قداستكم — إذا تلطفتم فقررتم الأخـذ بما جـاء في الكتـاب الأول، ليعمل بمـوجبـه بحـزم فيما يتعلق بملاحقة المخالفين، وبتسليح الغـلايين، فإن الكثيرين ممن خالفوا أوامر الكنيسـة المقـدسـة ويخالفـونها، سـوف يتـوبون — بعـون الرب — أو يعودون إلى الطريق القـويم، ويقرعون باب قداستكم طالبين منهـا تنفيذ قـرار احتـلال الأرض المقـدسـة، هذا وإنه لـواجب وضروري إرشـاد أولئك النـاس في الوقت الحالي، حتى يعـودوا هـم أنفسهم فيما بعـد ملتمسين من حلمكم، لابل متـوسلين بتـواضع كلي، الاسراع في تنفيـذ

ذلك المشروع دونما إبطاء، وبذلك تكون النهاية مناسبة لإجراء مصالحة بين المؤمنين المختلفين مع بعضهم بعضاً، وهذا هو تقديرنا، بعون من يد العلي الأعلى.

وفي الحقيقة يمكن أن نقول بصدق بهذا الخصوص الكلمة التي قالها الرب في سفر رؤيا يوحنا:«من غضب إثمها — أي مصر —شربت جميع الأمم»، فلمعالجة هذا المرض العضال، والوباء الذي تفشى دون تمييز بين الجميع، حيث شارك الجميع بالمحرمات بدون ورع، وليس هناك من دواء يمكن مزجه في الطعام ليشفي من هذا الداء، لأنه إذا ما أعطي المريض دواء مضراً، سيكون الوضع أسوأ، ومن النادر أن يتمكن المرضى من استعادة صحتهم، وعلى العكس من ذلك، إنهم إذا ما التزموا بحمية عن المأكولات، فغالباً ما يتعافون، ولهذا إذا امتنع المؤمنون عن تناول ذلك الطعام المضر، كما سلف وبينا، فإنني متيقن تماماً ومؤمن أن الرب سوف يهب المسيحيين بهذه النعمة، وسوف يزيل بشكل خاص الخلافات من بينهم، وبما أن السلطان وشعبه ينالون من جراء ذلك الطعام، العون والاستفادة، كما هو واضح في الكتاب الأول، وفي الكتاب الثاني هذا، ليكن معلوماً أن كل من يشتري البضائع المجلوبة من أرض السلطان، أو يستهلكها، يقدم للمخالفين سبباً للذهاب. وابتياع الحاجيات الضرورية، والأصناف النادرة، وشتى أنواع البضائع من أراضي الكفرة، والخاضعين للسلطان، لنقلها من هناك إلى البلدان الغربية.

وبناء عليه إذا ما امتنعنا عن شراء البضائع واستهلاكها، لن يعاود المخالفون الذهاب إلى هناك للتبضع، وإذا ما سقط المخالفون في الخطيئة، فإن كل واحد يقدم لهم فرصة للسقوط في الخطيئة، ينصب نفسه شريكاً في الخطيئة، لذلك أقول — بكل تواضع وتقوى — إنه لمن الضروري، إما منع هذا الاتصال كلياً — كما تقدم وبينا — وأن لا

يكون هناك أي تأخير في ذلك مطلقاً، وإما أن نتغاضى عن الموضوع كلياً، أي أن يسمح لمن أراد بالذهاب والإياب بحرية، وأن يبتاع ما طاب له من بضائع من الأراضي التابعة للسلطان، وأن نتوقف كلياً عن ذكر استرداد الأرض المقدسة،والذي أراه أن هذا سوف يكون شراً أخف من أن يبقى المؤمنون على الوضع الحالي، لأن هذا الوضع خطير جداً، على جميع المسيحيين المؤمنين، فلتقرر قداستكم — بنعمة من الرب — الذي تراه مناسباً بهذا الشأن.

وعلى كل حال، إذا وافقت قداستكم على الشروع بتنفيذ ما جاء في الكتاب الثاني، فليتم تعيين — من قبل قداستكم — رجل صاحب بأس واستقامة يكون قائداً لحشدكم، ليذهب إلى مصر البحرية بغية الاستيلاء على قطعة من الأرض هناك، وليكن معه خمسة عشر ألفاً من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، حسبما ورد في القسم الأول من الكتاب الثاني، وليشرع هناك ببناء الحصون، وتشييد البيوت، وبذلك يُحرم المصريون آنذاك مما هو ضروري، ومن تصدير بضائعهم ويتعرضون لمضايقات ومناوشات من أعدائهم بحراً ونهراً وبراً، ووقتها سوف يشعرون بالضيق العظيم الذي حاق بهم، وكما علمتنا تجارب الماضي، أي لما أخضع المسيحيون دمياط لحكمهم، خاصة لما استولى القديس لويس ملك فرنسا عليها، وحسبما ورد في هذا القسم، من المؤكد أن سلطان مصر سوف يطلب خلال مدة لن تزيد عن السنة، عن طواعية عقد معاهدة ثابتة تتعلق بإعادة أرض الميعاد إلى قداستكم بكاملها نهائياً، وأن يلتمس من قداستكم عدم متابعة العمل على تحطيمه، وهذا التحطيم قد يجعل السلطان وشعبه معه يرتدون إلى الايمان.

وفي الختام، وكما يؤكد القدامى، عندما يداهم خطر الموت فجأة واحداً من الناس، فإن الطبيعة بحذاقتها تهب على الفور إلى مساعدة مصدر الحياة، أي القلب، فتسحب الدم من الأطراف، وتقدم له الدعم

والحماية، وهـذا يوضـح لنا لماذاعندمـــا يعتري النـاس الخوف تشحب وجوههم، وترتعـد أطرافهم، لأنها فرغت من الـدم، وهذا ما سيحصل للمسلمين، لأن مصر هي قلب المسلمين ومـركـز حيـاتهم، وإذا مـا هوجمت ستلاقي الدعم على الفور، والمسـاندة من أطرافها، من غرناطة، مثلاً ومن مناطق أخرى، لكن تلـك الأطراف لن تتلقى بعد الآن العون والمساعـدة من القلب — أي عندما ينقطع عنهـا المال الذي تحصل عليه حالياً— وبالتالي سـوف تبقى وكأنها خائرة ترتجف بلا قوى، وإذا تزامن ووجد واحد من ملوك إسبانيـا المؤمنين، فاستغل هذه الظروف الموائمة، وهاجم إحدى تلك الأطراف، فإنه سوف يصل إلى الغاية المنشودة بكل سهـولة، ويحقق المرغوب به، ولهذا السبـب لن يستطيع المسلمون نجـدة قلبهم، الذي هو مصر، كما سنبين في القسمين الثالث والـرابع من كتابنا الثاني هذا.

وأملنا دائماً بالرب، واتكالنا على عـونه، بأننا سنصل قريبـاً إلى النهاية الصالحة والحميدة والسعيدة، فهـذا هو رأيي، ما لم يخالفه رأي أصحاب الخبرة، شرط أن لانتأخر بالمباشرة به، فإن من لا يبدأ، لن ينتهي مطلقاً، وستخفق النهاية حيث لا توجد بداية.

القسم الثالث

بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: حـــول الوسيلة الأمنيـــة التي يستطيع المسيحيـــون بوســـاطتهـا حماية أنفسهم في مصر، ضـــد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

كنا قـد تعرضنا فيها تقـدم — الفصل الثـاني من القسم الأول — إلى الشبه الكبير القـائم ما بين مصر البحـرية، وشواطىء البندقيـة البحرية، لذلك من المؤكد أننا نستطيع النظر — كما في مـرآة صافية — إلى وضع الناس الذين يبنون ويقطنـون الجزر في ميـاه البندقيـة، وفي مستنقعـاتها، لنتعرف إلى كيفية يمكن للذين يبنون البيـوت ويشيدون القلاع في أرض مصر البحرية أن يصدوا هجمات المسلمين(انظر أيضاً الفصل الثالث من القسم الأول من الكتاب نفسه).

وحسب عهـدة رواة التـاريخ، كـان الاغـريق أول مـن سكن جـزر البندقيـة وكـانوا من أهل طـروادة، ففي سنة ١٧٨٤ لخلق العـالم، قـدم جمهـورهم تحت قيـادة بريام الثـاني ابن لامـدونتيس Lamedontis أخت الملك بريام الأول، وقـد قـدموا بالسفن، وعند وصـولهم إلى تخوم البحر الأدرياتيكي، شـاهدوا الجزر، ومن حولها اليـابسة الثابتـة، فقرروا حفاظاً على حـرية تعودوا عليها، بناء مساكنهم فـوق الجزر، مقدرين أنه لا يجوز أن تكون جماعتهم معرضة لأن يحكمهـا الآخرون، ولم يخفقوا في مسعاهم لذلك حق لهم القول:

«إننا ... لم نستعبد لأحد قطّ»[يوحنا : ٨ / ٣٣]، فاختاروا لأنفسهم قائـداً هو الرب وحده، ولم نقرأ قط أن أحـداً سواه بسط سلطانه عليهم

يوماً، وقد مرت جماعات الغاليين بذلك الجزء من البندقية البحرية، يتقدمهم قائدهم برينو Breno ، وكان ذلك سنة ٣٥٧٥ لخلق الدنيا، فتركوا القسم المسكون سالماً واحتلوا كل ما بقي من حولها، وبنو فينيسيا، وفيرونا، وتريدنت، وبريكسيا، وبرغاما، وكوماس، ومديولانا Mediolana ، وسيناس Senas وسنغاليا، وذلك بعدما قتلوا شعب روما، وأحرقوا المدينة، وذبحوا أعضاء مجلس الشيوخ وهم على مقاعدهم، ومن بعدهم جاء كذلك الأفارقة الذين قدموا من الجنوب والسيبرورو Cybroru ، الذين زحفوا من الشمال، ومن شواطىء ألمانيا، وقد انقضوا مثل العاصفة على المدن الإيطالية، لكنهم لم يتعرضوا للبندقية، وهكذا جرى مع أتيلا الأوسدروبالي Osdrubalis ، ابن ملك المجر، وولي العهد فيها، فقد كانت شراسته صورة للزلزال وللصاعقة، وبعد أن دمر بلاد الغاليين التفت نحو إيطاليا، فوقع الرعب على المدينة وعلى العالم، ذلك أنه وصل على رأس خمس وتسعين ألف مقاتل، وعندما وصل إلى تخوم المستنقعات والجزر التابعة للبندقية، لم يترك هذا الوحش الضاري شيئاً إلا وافترسه، قبل العودة إلى حيث اعتزل، ومع هذا لم يستطع إلحاق الضرر بالأجزاء المبنية على المياه، لابل لم يتمكن أيضاً من إلحاق أي أذى لا بالسكان ولا بأرزاقهم ولا بقدرتهم، حتى أن أهل أكويلا مع البطريرك والأمهات مع أطفالهن، بادروا مسرعين واحتموا في قلعة غرادو Grado ، ثم إنهم خرجوا من كونكورديا Concordia ، وبنوا كبرالاً Caprala على شاطىء البحر، ومن ألتينو Altino — التي كانت تدعى أنتيريورايدز Anterioraides ، لأن الذي بناها هو أنتيريورايدز — وبنى الذين هربوا إلى الجزر مدناً جديدة هي إسول تورسللو Esul torsello ، وبورانو Burano ، ومازوربو Mazorbo ، ومورانو Murano ، وتوزعت جماعتهم بين ثلاث أسقفيات ما تزال قائمة حتى اليوم، وبطريركية، وقد لجأ أيضاً إليها عدد كبير من بادوا،

ومن ريفوالتي، ومن ماتاموكو Mathamauco، وغدت هذه المدن الأربع المجاورة لمدينة البندقية وشواطئها، مدناً مشهورة، لكنها دمرت من أساساتها، أما الذين كان يسكنون في الجزر، فقد ازدادوا قدرة وعدداً، وشرعوا يتخذون لأنفسهم قادة، وذاع صيتهم، وقدرتهم، حسبما نرى ذلك اليوم، وبالحري ليس اليوم فقط بل على أيام ايزلينو Ezelino ،عندما دمرمنطقة ماركا Marcha ، وترويزو -Terui so وقسماً من لومباردیا، فالذين تعرضوا للاضطهاد، نجوا إلى البندقية، ومكثوا فيها بأمان تام، ولم يتمكن الطاغية من أن يلحق بهم أدنى أذى حتى ضرب المثل بهم، وصار يقال:«أمن خصومه لأنفسهم حمى في الشاطىء»، ودمرت في أيامنا هذه منطقة بادوا على يد«الكلب الكبير الذي قدم من سكالا Scala »، وقد هرب شعبها إلى تلك المناطق سنة ١٣١٨، وبقي سالماً، وقد حل الأمر نفسه بشعب ترويزينا Teruisina في السنة ذاتها، وهرب هذا الشعب، ولجأ إلى المنطقة البحرية نفسها.

وكان اللومبارد — الذين عرفوا من قبل باسم غينولي Guinuli — قد قدموا من جزيرة اسكندنافيا إلى أقاصي شواطىء ألمانيا، ووصلوا إلى بانونيا Pannonia ، ثم استولوا بعد ذلك على الجزء المتاخم لجزر البندقية، على أيام ملكها ألبينو Albuino وكان ذلك في سنة ٥٧٢ لتجسيد الرب، وعاثوا بإيطاليا كلها، ومع ذلك لم يتمكنوا من إلحاق الأذى مطلقاً بالبندقية، ولولا تدخل القوات الفرنسية في أيام ببينونانو Pipino nano ، لما كان بإمكان البابا ستيفن إطفاء مطامع ملكهم أستيلفو Asttulfo الذي أراد فرض جزية على كل شخص فرداً فرداً.

واضطر البابا هدريان، أثناء تضييق الخناق على إيطاليا من قبل دزيدرو Desiderio ابن أستيلفو، إلى طلب العون من شارلمان،

لحماية ممتلكات الكنيسة ولدحر الطاغية، وأسفرت الأمور عن نفي دزيدرو مع زوجته وأولاده إلى داخل فرنسا، وبذلك سقطت مملكته في سنة ٧٧٤ لتجسيد الرب، ولما غضب شارلمان نفسه على البندقية، قاد قواته حتى شاطىء ماتاموكو ، ولم يستطع قطع الامدادات عن البندقية.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

ولم يبق سكان الجزر المذكورة آمنين فقط ضد الشعوب الهمجية التي اجتاحت إيطاليا، بل أيضاً ضد الشعوب التي كانت تتعامل دوماً معها، حاسدة لها منذ القدم، ما كسبته من مجد ورفعة، وكانت تبحث دوماً عن طرق ووسائل لإيذائها، ومع هذا تمكنت هذه من درء أذيتها، ورد هجماتها، ونكتفي بضرب مثل بأهل بادوا، فقد حشدوا جيشاً كبيراً وحاصروا برجاً قائماً في مكان اسمه بايبا Byba ، فقد كان يخيل إليهم أنهم سيتمكنون من القتال، لكنهم وجدوا أنفسهم في وسط مياه البحر، وكان مثل ذلك في سنة ١٢١٥، تماماً ما حدث للصليبيين في مياه النيل(انظر الفصل التاسع من القسم الحادي عشر، من الكتاب الثالث)، هذا وقد أرغم أهل بادوا على الاستسلام إلى أهل البندقية، ومثلهم فعل الصليبيون مع المسلمين في ظل شروط معينة، ومؤخراً أراد أهل بادوا أن يعملوا لأنفسهم ملاحات قرب كلوغيا Clugia على بعد قرابة أربعة أميال، وبناء حصن بالقرب من السباخ لحمايتها، لكن أهل البندقية أقاموا تلة في وسط المياه عند مصب أحد الأنهار، ولم يكتفوا بذلك بمنع وصول المياه المالحة إلى الملاحات، بل حولوا إليها المياه العذبة، وفي النهاية تفجر خلاف، واحتشد أهل بادوا لإزالة تلك التلة، فدحرهم قلة من أهل البندقية، واستنجد أهل بادوا بأهل فينيسيا، وفيرونا، ومانتوا، وبعيداً استنجدوا كذلك بأهل باليستاري لكن ألفاً وخمسمائة من أهل البندقية تمكنوا من مقاومة ثلاثين ألفاً من الجنود المهاجين، وعندما

أشرفـوا على احتلال الحصن فـرضـوا عليهم في قلب أراضيهم الشروط التي أرادوها، وكان ذلك سنة ١٣٠٥.

وقبل ذلك ببعـض الوقت، أي في سنة ١٢٧٠، تجمع أهل بولونيا واحتشـدوا ومعهم أعـداد كبيرة من جميع مـدن رومـانديولا Ro-mandiola تقريبـاً، وهاجموا قلعة للبنادقـة قريبـة من نهر البو(بادوم Padum)، وكانت تبعد عن البحر ثمانيـة أميال، فلم يفلحوا، وقرر أخيراً أهل بولونيـا ومن معهم — أخـذاً بنصيحـة أحـد الناس — بناء حصن مقابل مصب ذلك النهـر، لمنع أهل البندقية من الذهاب والإياب إلى قلعتهم عبر النهـر، لكنهم أخفقـوا في منعهم، مع أنهم دفعـوا بكل قواتهم، وقامـوا بمحاولات عديدة خلال ثلاث سنـوات وخمسة أشهر، وتركـوا بعـد ذلك الحصن الذي شيـدوه شـاغراً، وعـادوا مـرغمين إلى بلادهم، وكالعادة استولى أهل البندقية على الحصن الذي بناه سواهم.

وهناك أيضاً قلعـة للبنادقة اسمهـا«رأس شقعة Caput Aggeris » كـانت قـائمـة على نهر أتيسنسيتـو Aticensito التي ينحـدر من فيرونا إلى البحـر، وقد تجمع لاحتـلالها جماعـات ورجالات لومبـارديا، ومـاركيـا Marchia ، وترويزيو Teruisio، فلم يفلحـوا في انتـزاعهـا من أهل البندقيـة، وعلى الرغم من بعـد تنتـو Tento عن البحر حوالي أحد عشر ميلاً، فقد صمـد أهلها في وجه خصومهم بعدد قليل من المقاتلين وبنفقـات زهيدة، مقارنة بما أنفقه خصـومهم، وهم ما برحوا صامدين حتى اليوم في وجه كل تحد، لابل إنهم لم يكونوا قادرين على حماية أنفسهم وممتلكاتهم فحسـب، بل تمكنوا من إجبـار القـراصنة على الخضـوع لسلطـانهم، حسبما نرى في معظم أرجـاء البحـر الجنوبي، وخاصـة في البحر الأدرياتيكي، حيث كـان القراصنة يعيثـون فساداً كما تذكر كتب التاريخ، وأكثر من هذا كـان البنادقة قد مدوا سلطانهم بعيداً نحو أجـزاء نائية وشرقيـة، وهم وحدهم اليـوم لا يحمون أنفسهم فقط

مع أرزاقهم، بل ويحمون أيضاً ما هو لغيرهم.

مما تقدم نستطيع أن نرى على ضوء أوضح، أي أمان يمكن أن يحصل عليه الشعب المسيحي، إذا ما بنى قلاعاً في مصر البحرية، ومدى القوة التي سيضمنها لنفسه لدحر المسلمين، وأية نجاحات سيلقى في احتلال الأراضي.

الفصل الثالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعزعوا أركان مصر، ضرب مثل بها تمكن من صنعه البنادقة وأصحاب المدن، والأماكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

لقد ضربنا أمثلة مقنعة، تظهر مدى الأمان — بعون الرب — الذي سيكون به جنود الكنيسة، إذا ما بنوا قلاعهم في مصر البحرية، ويمكننا بالتالي أن نرى من خلال المرآة، أو من خلال المثل ذاته، كم سيكونوا مؤهلين لإلحاق الأذى بأعداء الصليب والإيمان المسيحي، فالبنادقة، إذا ما نشبت خصومة بينهم وبين مدينة من مدن لومبارديا، أو ترويزيو، أو ماركيا، فإنهم يلحقون الأذى بأعدائهم بطريقتين:

الأولى وهي الطريقة الأخف: لا يستولون على أسلحتهم، ولايتعرضون للأشخاص، ولا ينهبون ممتلكاتهم، بل يمنعون كلياً وصول المؤن والبضائع إلى أية مدينة من مدن تلك المناطق، أو إلى أي مكان واقع تحت سيادتها، أو أن تنقل إليها من أي مدينة أو منطقة تابعة للبنادقة، ولا يتخيلن أحد أن هذا لن يجدي نفعاً، فكثيراً ما يحدث أن تصاب تلك المدن في لومبارديا وترويزيو وماركيا بالانهاك، ومن ثم تقوم بإرسال مفاوضين إلى البندقية، وتضطر مرغمة على التعايش معها وفق شروط محددة.

وسيكون هذا الأسلوب للاضرار بالمسلمين في مصر فعالاً، وسيضعف قوة السلطان، وقد شرحنا ذلك بإسهاب في الكتاب الأول

المتقدم أعلاه.

أما الطريقة الثانية: فهي أعظم خطورة، وستكون لدى مناصبتهم الحرب بالرجال وبالعتاد، وبما أنهم معتادون على القتال، ولديهم قدرة على صنع السفن المناسبة والآلات الحربية حسبما تقتضيه أوضاع الأماكن وأنواع المعارك، فإنهم سيقتحمون بالطرق الموائمة، المواقع التي بنيت على الأنهار أو في السباخ، وهكذا وجدناهم في سنة ١٢٣٩، قد انتزعوا — بطلب من الكنيسة — مدينة فراريا من أيدي سالينغويرا Salinguerra ، وأعادوها إلى السيد غريغور، مندوب الكرسي الرسولي، مع أنه كان قد تقاطر على ذلك المكان مقاتلون من أماكن عديدة، ومع ذلك لم يتمكنوا من دون أسطول البنادقة ومهارتهم من إنجاز شيء، وكانت المحصلة أن المعاهدات والامتيازات التي كانت للبنادقة في فراريا قد ترسخت وازدادت قوة.

ومثل هذا حدث في الماضي البعيد، عندما تمكنت الكونتسة ماتيلدا من استرداد فراريا بمساعدة أسطول البندقية، واتضحت مؤخراً فعالية البنادقة في سنة ١٣٠٨، في حادثة فراريا، بالسيطرة على الأنهر، وكان من المذهل رؤية ذلك العدد الصغير من المقاتلين يسرح ويمرح في بادوم Padum ، وليس هناك من هو قادر على صدهم ومنعهم من تهديم المواقع المجاورة، وتحويل مجرى مياه النهر إلى أراضيهم وتخريب الممتلكات بالماء والنار.

ومثل هذا يمكن لجيش الرب أن يروح ويجيء فوق نهر مصر حتى القاهرة والقلعة، وأن يستولي على كل شيء حسبما يريد، وسوف يكون وضعه أفضل، كلما كان مجرى النهر أوسع، والذي يسيطر على النهر ويتصرف عليه بحرية، يمكنه أن يسيطر بسهولة على الأرض — كما بينا في الفصل الرابع من القسم الأول — فما هو دور أهل البندقية في هذا المشروع؟ ونجيب على ذلك: إنه لما وقع إثم ضد جمال العدالة، وتجاسر

واحد على أن يحصد ثمار غيره، أي لما احتل الكافر إزلينو Ezelino ، منطقة ماركيا وترويزيو وغير ذلك من مناطق لومبارديا، لبى البنادقة طلب موفد الحبر الأعظم، سماحة رئيس أساقفة رافينا، المطران فيليب، فانقضوا من سباخهم ومن موقع بابيا، الذي تقدمت الإشارة إليه، وقادوا عن طريق النهر الذي حشده ذلك الموفد، وأمدوه بالرماة والميرة بكثرة، وكان ذلك سنة ١٢٥٦، واستولوا على كل ما حول النهر، ولم يكتفوا بذلك بل تقدموا حتى مدينة بادوا، وبعد معارك طاحنة استردوها من يدي إزلينو.

ولقد سقنا هذا كله على سبيل المثال، لنبين المدى الذي سيكون فيه جيش الرب بأمان في مصر البحرية، ومقدار ما يمكن أن يحققه من إنجازات ضد أعداء الإيمان.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

هناك من يشكك بإمكانية قيادة جيش الصليبيين عبر النيل، حتى القاهرة، بسبب طول المسافة، وأجيب هنا على هذا التشكيك، بأن أهل البندقية قد قطعوا طريقاً أطول، عندما دخلوا مجرى نهر أدوا Adua ، بسفن محصنة وبرماة، وقد حطموا بعنف ست سلاسل ضخمة جداً، ونسفوا الجسر الذي عبر عليه إزلينو لاحتلال ميديولانو Medio-lano، واحتلوا كل شيء بشدة، مما جاء مقدمة لأسر ذلك الطاغية، وموته، فإنه حيل بينه وبين الوصول إلى مآربه، ولدى عودته، شرع بحصار الجسر المحصن بكل عناية، وقتذاك أصيب بسهم في رجله ففقد قدرته المعتادة على قيادة الجيش، وهزم بالحرب، ومات بالأسر سنة ١٢٦٠ لتجسيد المسيح.

أما القول بأننا ببناء قلاع وتحصينات نكتفي بمنع المواد الغذائية وغيرها من الوصول إلى المسلمين في مصر، فإنني أجيب : إن من

الممكن وصـــولها عبر طريـق البر، وأضيف، إن القــائلين لهذا الكلام يجهلون مـوقع الأرض المصرية، حيث يوجد من البحـر المتوسط امتـداد على طول الشاطىء نحو الجنوب، من الجهة الشرقيـة ومن الجهة الغربية على السواء صحارى واسعـة شبه خالية، بنى فيهـا الآباء القديسون — خـاصـة في الجهـة الغـربيـة — أديـرة، وعـاش بعضهم في حيـاة نسك وانعـزال، هذا ومـن جهـة الغـرب، أي من مملكـة تونس، لايمكن حمل البضائع من هناك، بسبب سعة الصحـراء ووحشتها ولا يمكن الحصول على شيء من جهـة الشرق، باستثناء التـوابل، وتفتقـر المنطقـة من جهـة الجنوب إلى كل شيء تقـريباً، ويقطن هنـاك مسيحيو النوبة، وهم أعـداء لهم، وقـد تقدمت الإشـارة إلى ذلك في الكتـاب الأول، وأما من جهـة الشمال، أي من جهة مملكـة القدس وسورية، فيمكـن الحصول — لكن بمشقـة — على بعض الكميـات من: الشرانق، والصـابـون، والتفـاح، والإجاص، وعلى كميـة من الزيت، وبناء عليه صحيح مـا قلناه، إننا إذا أغلقنا أمـامهم طـريق المتـوسط، نكون قـد أقفلنا بوجــوههم الأغـذية ومختلف أنواع البضائع ما عدا التوابل، وقد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن للمسيحيين الحصــول على مـا يكفيهـم من المواد الغـذائيــة، إذا احتشـــدوا في أطراف مصر البحـرية، وذلـك إذا تفشى الجوع بين الذين يسكنون أرض مصر؟ وأجيب على هذا بسهـولـة: سـوف تتقـاطر المواد الغـذائيـة وباقي الحاجيـات على المنطقـة البحـرية، إذا توفـرت المداخيل والأمـوال اللازمة للشراء، مثلما نرى في مـدينة البندقيـة نفسها، فعندمـا ينتشر القحط في الأراضي اليـــابســة المجـاورة، يحملـون المؤن وجميع الحاجيـات عن طريق البحـر، ويوزعـونها على كل من يحتـاج إليهـا من جيرانهم.

القسم الرابع

ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة بنجاح، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: ما يثار من اعتراضات حول قدرة الجيش المسيحي، وحول العوائق المفترضة، التي قد تحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

ويمكن لأحدهم أن يعترض على ما عرض أعلاه فيقول: لقد شاهدنا من خلال الأمثلة التي ضربت عن البندقية، بأية أعداد يمكن احتلال أرض مصر البحرية والإقامة فيها، وأنه بإمكان هذه الأعداد البقاء هناك آمنة من شرّ القاطنين في أرض الكفرة، ومع ذلك لن يتمكن المسيحيون من إلحاق الأذى بالمسلمين، إلى درجة يمكنهم فيها إذلالهم وإخضاعهم بعد إلحاق الهزيمة بهم، للأسباب التالية:

أولاً: إذا أردت صعود نهر النيل مع أسطولك المسلح، فإن في ذلك النهر نقطة يضيق فيها كثيراً، بحيث يمكن رشق السفن بسهام حارقة من كلا الضفتين، مما يعرض سفنك وعساكرك لخطر عظيم.

ثانياً: قد يمدّ المسلمون السلاسل، أو قد يرمون بحسك الحديد أو بقطع حديد مدببة طويلة، أو قد يبنون الجسور فوق الممرات المائية، مثلما حدث في فرانكولينو Francolino في منطقة فراريا، وقد يتدبرون هذا الأمر بيسر بأن يتحصنوا على إحدى ضفتي النهر، ويرفعون من الجهة المقابلة رأس جسر ينزلونه متى شاءوا، ويؤمنون

بالوقت نفسه حراسة شديدة على الضفتين معاً، وهكذا إذا ما اقتربت مجموعة مسيحية بسفنها من سلسلة أو من جسر عائد إلى المسلمين، فإنهم ينزلون رأس الجسر المعلق، وبذلك يصير جسر المسلمين على مستوى مجرى ماء النهر، وبذلك تتوقف سفن المسيحيين عنوة، وتجنح نحو الأرض، وهكذا يصبح بمقدور المتحكمين هناك بالأرض قتل رجال تلك السفن كما يشاؤون، وعلى هذا نردّ أيضاً:

ونقول بالنسبة للنقطة الأولى أولاً:

على شعبك التبصر والتنبه، وأخذ الحيطة، وأن يحمل معه كل ما يلزمه لإطفاء النيران، بحيث إذا ما أطلقت عليه سهام محرقة يتمكن من إطفائها، وينبغي إطفاءها، حيث لايجوز لجيش المسيحيين التوقف لهذا السبب عن الذهاب والمجيء، وإنجاز مهامه.

ونجيب على النقطة الثانية فنقول:

إذا وضع المسلمون تلك السلاسل، أو قطع الحديد المدببة أو الجسور، فلا بد لهم من تجهيز حراسة مشددة حولها، ومركزة عدد غير قليل من العساكر لحراسة تلك الجسور والسلاسل وقطع الحديد المدببة من على الضفتين، وفي مناطق عديدة، وخاصة على ضفاف النهر العائدة لفرعي دمياط ورشيد، لكونها عريضة، وعلى كل حال، عندما يريد المسيحيون المضي نحو تلك العوائق الحديدية، أو السلاسل أو الجسور مع أسطولهم ومعداتهم، عليهم عدم الذهاب عندما يكون النهر فائضاً، وسريع الجري، بل على القبطان مثله مثل أي إنسان مدبر، أن ينتظر حتى تكون مياه النهر منخفضة وغير سريعة الجريان، وعندما تهب رياح قوية من جهة البحر، بحيث تعمل لصالحه، وتدفع بمياه البحر إلى الدخول إلى مصبات الأنهار، لأن جريان النهر يكون في تلك الآونة بطيئاً، تخف سرعته أو تنعدم كلياً إلى أبعد الحدود، ووقتذاك عليه أن

يستغل الريح المناسبة، فيرسل، بعض سفنه المجهزة والمشحونة، حتى تتمكن من الاقلاع بسرعة كبرى وهي منصوبة الأشرعة، وأن يكون مع هذه السفن جميع تجهيزاتها، فتنقض وقتها على الجسور المذكورة وعلى السلاسل والعوائق الحديدية بكل عنف فتحطمها وتدمرها كلياً، وعندها من الممكن متابعة تحركهم إلى حيث أرادوا، فسيسيطرون على ذلك النهر، ويخضعوه لارادتهم — بحراسة من الرب وعونه — وقد تقدم لغيرهم من الصليبيين أن فعلوا ذلك في دمياط، ولا بد لنا من أن نتذكر أن فرقة الكرسي الرسولي سوف تكون مشكلة من خمسة عشر ألفاً من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان المأجورين، وبعدما يكون هؤلاء قد اتخذوا لأنفسهم موطىء قدم على الأرض، وقبل انتهاء السنة يكون قد لحق بهم خمسة آلاف غير مأجورين، ولسوف يبادر هؤلاء إلى هناك مسرعين مع المواد الغذائية، ومع كل ما يلزم ويفيد، وسيكون هؤلاء جميعاً متأهبين للعمل متى وحيثما يناسب، ومن الممكن القول بأن عددهم سوف يفوق العشرين ألفاً، ومما لاريب فيه أن جماعتكم ستحقق الكثير بعون الرب.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

إضافة لما تقدم، إذا اعترض أحدهم وقال. لدى ذلك السلطان أعداد غفيرة من البشر، وعنده إمكانات كبيرة ليصنع الكثير، من ذلك مثلاً:

أولاً : قد يستطيع تحويل مجرى النيل، ومنعه من الصب في البحر المتوسط، وأن يجعله يصب في المحيط، وهكذا لن يعود هناك أي مجال للذهاب على رأس أسطول يسلك طريق المياه العذبة.

ثانياً: إنه إذا لم يشأ، أولم يستطع تتميم ذلك، فإن بإمكانه أن يصنع شيئاً آخر، وهو: بعدما يكون الجيش الصليبي قد بنى لنفسه أماكن

سكنى، وبعض الحصون قريباً من أطراف نهر النيل، يمكنه تحويل مجرى النهر، فيجعله يصب بعيداً عن معسكر الجيش الصليبي لأن الشواطىء البحرية المصرية منبسطة ومتسعة، وبناء عليه إن في تنفيذ هذه الخطة إنزال أضرار ليست بالقليلة.

ثالثاً : يستطيع السلطان أن يصنع ما هو أسوأ من ذلك بكثير، حسبما يلي: بعدما يتحرك قائد المعسكر المسيحي النازل في مصر البحرية، ويجهز أسطول غلايينه، ويصعد رجاله بالمجاذيف إلى سفنهم فوق مياه النهر، وقتها سيكون بإمكان السلطان ورجاله العمل على تحويل مجرى النهر، من حيث يكون الأسطول قد انطلق، وجعله يصب في نقطة أخرى، ويكون الحال أن أسطول الصليبيين، سيجد نفسه — بعد انعدام الماء — محجوزاً فوق الأرض اليابسة ولن يكون بإمكانه الصمود أمام الحشود والقوات التي سيدفع بها السلطان ولن يكون أمامه من منجاة من بين أيادي الكفرة إلا بالموت أوبالأسر.

وعلى الاعتراض الأول يمكن أن نجيب:

من المستحيل أن يستطيع السلطان تحويل مجرى نهر النيل، ويمنعه من أن يصب في البحر المتوسط، وجعله يصب في البحر المحيط، ولوافترضنا أن ذلك ممكناً، فقد تقدم لنا أن بينا بوضوح — في الكتاب الأول — أن أرض مصر سوف تتدمر كلياً، وتصير قفراً، ومن غير الممكن تصور أن الكفار سوف يرضون بتدمير أنفسهم، طالما بإمكانهم تجنب ذلك بسبيل آخر من السبل.

ويمكن على الاعتراض الثاني الوارد أعلاه أن نجيب:

ينبغي أن تكون الحصون والمساكن التي ستقام فوق أرض مصر البحرية بادىء ذي بدء من الحبال والخيم فقط، بحيث تكون المستنقعات والمياه مصدر منعة تلك المساكن والحصون، وهكذا عندما

يشرع المصريون بتحــويل فــرع من فــروع ذلـك النهــر، حيث نصب الصليبيـون حصنهـم، يمكنهم فـوراً الانسحـاب مـن هناك بسفنهم مع جميع أمتعتهم، والتوجـه نحو نقطة يرونها تفيـدهم، وتناسبهم أكثر، علماً أنه من باب المستحيل أن يتمكن الكفـار من تحويل فرع النهـر الذي هو في دميـاط أو في رشيـد كليـاً، وبذلـك لن يستطيع المسلمـون — بعـون الخالق — إلحاق ضرر يذكــر بالصليبيين، لابل حتى وإن استطـاعــوا تحقيق شيء من هذا القبيل، سـوف يتكبـدون مضـار وأذى أعظم بكثير من الصليبيين.

ومن الممكن الإجابة على الاعتراض الثالث بمايلي:

يتوجب على القبطان ويليق به أن يكون متنبهاً لكل شيء، وأن يكون حكيماً، وإلاّ تكبد المسيحيـون ضرراً جسيماً لغفلته وقلـة حكمته، والمراد بهذا أن لا يبـاشر بالابحـار، ولا أن يدفع نحـو الأمـام جماعتـه بأعـداد كبيرة، قبل التأكـد من أوضاع أعـدائـه وأحوالهم، وقبل أن يتعـرف على المستجـدات، حتى يتصرف بحذر فيما سيتخـذه من تدابير، فحيثما يكون الخطر أعظم، تلزم الحيطة أكثـر، ومع هذا لو افترضنا أن القبطان اكتفى فقط بالبقـاء متحصناً مع قـواته في مصر البحـرية، فإنه يكون قـد حقق الجزء الكبير من مهمتــه، ولا حــاجـة إلى التسرع، فعلى مـن يطبق هذه الخطة، وهـذا الأسلوب أن يبحث دومـــاً عن المعلومـــات الجديدة، والأكيدة والصادقة عن أعـدائه، ولا بد له — بعون الرب القدير على كل شيء — من الوصول إلى النتيجة الصالحة والمفيدة.

الفصل الثالث: المثل الذي ضربه قورش ملك الفرس، ووثائق لجيش الصليبين.

ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة ما جـاء في الكتاب المقدس، من أن قورش ملك الفرس والميـديين ، قرر بعدمـا مدّ سلطانه على الشرق بأكمله، أن

يحاصر بابل عاصمة تلك المملكة، ليستولي عليها، وبينما كان مرة مع واحد من جنوده يعبر نهر الغانج — الذي يقال بأنه واحد من أنهار الجنة الأربعة — جرفته قوة التيار، فغرق الجندي، وقد حزن قورش لهذا المصاب، وأراد أن ينتقم من النهر، فجفف أربعمائة وأربعين فرعاً من فروع ذلك النهر وروافده، حتى جعل المواشي نفسها تعبر قاع النهر مشياً.

وحول بالطريقة ذاتها مجرى نهر الفرات، الذي كان يمر في وسط مدينة بابل، وهكذا استولى على تلك المدينة، وكانت أقوى المدن جميعاً، وجاء استيلاء قورش عليها بعد مرور ألف وأربعمائة سنة على بنائها، وهنا لست أدري هل يمكن لسلطان مصر تقسيم نهر النيل إلى أنهار كما فعل قورش؟ وعلى افتراض أنه قرر وأراد صنع الشيء نفسه بنهر النيل، فإن ذلك لايمنع من متابعةمشروع الذهاب إلى أرض مصر البحرية، والاستيلاء عليها كما قلنا، للسبب الذي سنعرضه، لأنه على افتراض أن السلطان كان بمقدوره تحويل مجاري فروع ذلك النهر، فإنه سيعجز عن إزالة البحيرات والسباخ التي في المنطقة، أو تجفيفها لأنها تمتلىء باستمرار من مياه البحر، فضلاً عن هذا سيكون بإمكان المسيحيين تكوين سباخ أو بحيرات اصطناعية حيثما شاءوا، وذلك بأن يقيموا سدوداً طويلة، مثلما فعل أهل البندقية في أثناء الحرب التي وقعت بينهم وبين أهل بادوا بخصوص الملاحات — حسبما ذكرنا في القسم الثالث من كتابنا الثاني هذا — وستكون هذه السدود مجهزة بأبواب صالحة، حتى عندما ترتفع مياه البحر وتجري بغزارة أكبر، يسهل عليها الدخول دون أن ترجع من جديد، وبذلك تتجمع هذه المياه البحرية مع المياه النهرية المتدفقة باستمرار من أرض مصر، وبذلك تبقى في المستنقعات وفي غيرها من الأماكن المذكورة، وبهذه الطريقة تزداد هذه المياه وتفيض في تلك الأماكن فتزيد تلك الأبواب منعة، وتحول دون أن يحطمها

أحد، وإلى داخل هذه السباخ، وإلى داخل البحيرات أيضاً يمكن للسفن الدخول والتجول حسبما يرى قائد الجيش، وذلك بغية إلحاق الأذى والضرر بالكفار، وإذا لم يتمكن من تحقيق هذا الهدف بالشكل المذكور، ووفق الطريقة المقترحة، فإنه سوف يحتاج إلى عدد أكبر من الفرسان والرجّالة، مما لو كان النهر سالكاً ومفتوحاً كما هو في الوقت الحاضر، ويمكن للقائد توزيع هذه الأعداد من الفرسان والرجّالة على أماكن محدودة قرب المرسى مع السفن، ويبقون هكذا إلى أن يحين الوقت ويصير ممكناً لهؤلاء الفرسان والرجّالة الصعود نحو القاهرة والقلعة من أي جهة من جهات النهر، يتبين لهم أنهم لن يلاقوا فيها أية عوائق أو مقاومة، ولدى توجه هؤلاء القوم بالاستعدادات اللازمة لتحقيق الهدف المرجو لدى وصولهم إلى القاهرة والقلعة لحصارهما، من المنطقي يلزمهم — بعون من يسوع المسيح— السيطرة على ذلك النهر، حتى يتصرفوا به كلياً حسبما يريدون، وإذا ما تم ذلك، وتحقق المشروع بنجاح — فأملي بالرب الذي أضع فيه كامل ثقتي — بأن الكفرة لن يتمكنوا من الدفاع عن أرض مصر، ولن يحولوا دون سقوطها — بفضل قوتكم — بين أيدي الصليبيين.

الفصل الرابع : التساؤل عما إذا كان عدد المراكب التي عند المسلمين على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

إضافة إلى ما تقدم إذا أراد أحدهم أن يقول معترضاً: لدى المسلمين أعداد كبيرة من الناس والمراكب، ويمكنهم مجابهة جيش الصليبيين عسكرياً في النهر؟.

نجيب كما قلنا من قبل: لايصلح الشعب المصري إلاّ قليلاً، أو بالحري لايصلح بتاتاً، لحمل السلاح وممارسة الحرب، ولا مجال للتخوف منه إطلاقاً، وإذا ما جلبوا فرساناً لهم وحشوداً من سورية عبر الجهة الثانية من الصحراء، أجيب بأنهم غير صالحين لهذا، وأن هذا

الشعب غير معتـاد لا على الميـاه ولا على المراكب، وإذا أراد أحـد أن يقول: إنهم سوف يستـدعون بعض المسلمين من أفريقيا أو مـن إسبانيا، أو من مناطق أخرى يكون فيها بحـارة ومقاتلون مناسبون، أجيب: بأن هذا بعيـد المنـال، وإذا استقـدمـوا بعضهم، فإن شعبكـم — نظراً لاستعداداته وخبرته ونزاهتـه، وقد عبر عن ذلك في مناسبـات عدة — سـوف يقـاتلهـم بشـدة ويوقفهم عند حـدهـم بعـون الرب، وذلك إذا تعرض لمجابهتهم ، علماً بأننا لا نعتقد أنهم سوف يفعلون.

وأضرب لكم مثلاً حول هذا في واقعة فراريا عندما احتشد الكثيرون ضـد أهل البندقية، ولم يكـونوا وقتها أكثـر من ستـة آلاف، وحققوا مـا عـرفتـه قـداستكم وكـان ذلك عقـاباً من عند الرب ضـد أولئك لأنهم تمردوا ضـد الأوامر الرسـولية، ومعـروف أنه لا يمكن لأحد أن يسـوغ أمـام الرب، ولا قـدرة لأحد ضـد إرادة الرب، ذلك أن الذين يقفـون ضـد الكنيسـة هم بلا شك يقفـون في وجـه الرب، وهكذا للتقـديرات ذاتها، يتوفـر الأمل، بأن شعبكم سوف يصل إلى غايته المقـدسة ويتغلب عليهم في تلك المناطق.

الفصل الخامس: حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

من المفضل لأجل قـوة الجيش الصليبي وسـلامته، أن يتـدبر القبطان أمره، فيشحن في الغلايين عـدداً كافياً من الرجال، بقـدر ما تستطيع أن تستـوعب، وكلما انحصر مكان عسكرة ذلـك الجيش زادت قـوته، ومن الضروروي التطلع إلى نوعيـة الغلايين، أكثـر من النظر إلى عـددها، فأنا أفضل أن يكون لدي غـلايين قليلة وجيدة التسليح، مع عناصر مـدربة، على أن يكون عـددها أكبر، لكن بدون هذه الصفـات، سيكون الرجـال الموزعـون في غـلايين قليلة أقـوى وأفضل سـواء إن كـان للدفـاع أو للهجوم مما لو كانوا كثرة ومتفـرقين، كذلك من المفيد أن يكون القبطان قـادراً على استبـاق الأمور، فيكون اسطولـه قادراً ومـدرباً على الملاحـة

ومنظما بكل دقـة، وأن يكون سريع الحركـة والتنقل، ذلك أن سرعـة الغلايين ورشـاقتها عندما تدفع بالمجـاذيف تؤدي إلى نتيجة أضمن وإلى سلامة أكبر، كذلك ينبغـي أن نبين أن الملاحة في النهر، عليها الانطلاق صعـوداً على عكس التيار وبمـواجهته بقـوة، وبقدرة المجـاذيف، لذلك يتـوجب أن تكـون الغـلايين المسيرة بالمجـاذيف مـدربة على النمـوذج الثـلاثي، أي أن يكون على كل مقعـد ثلاثة مجذفين ينسقـون حـركـاتهم بالتوازن.

ولاحـاجـة لأن نكرر هنا ماتقـدم وذكـرناه من أن يكون كل غليـون مجهـزاً ببحارة على المجـاذيف، يكون كل ثلاثة منهـم على مقعد واحـد، ومع هذا من المناسب أن نذكـر على سبيل الاعـلام، أنه في سنة ١٣١٦، أجـرى أهل البندقية اختبـاراً جعلوا بمـوجبه عـدد المجذفين أربعـة على نسق واحد، فـوق كل مقعد، ونجح الاختبار وعد مفيـداً سواء للسفينة أو لطاقمهـا، وثبت أن الملاحة مع أربعـة مجذفين على نسق واحد، فـوق كل مقعـد، أسرع وأرشق من الملاحـة التقليـدية التي تعتمـد الاسلوب الثـلاثي للمجذفين، وقـد عقـدت شخصيـاً مشاورات بهذا الصـدد مع الذين اختبروا هذه الطريقة، ومع بعض المهندسين والمعلمين والملاحين، وتأملت شخصيـاً أنا بذلك، فـوجـدناها صـالحة تماماً ومفيـدة شرط أن يرضى بها مستشـاروا القبطـان المذكـور، أي أن تكون جميع الغـلايين والسفن الكبرى المعـدة للميـاه العـذبة— التـي تستيطيع حمل الشعب المذكـور— مجهـزة وفق هذه الطريقـة، بأن يكون على كل مقعـد أربعـة بحارة يجذفون على نسق واحد، خاضة وأن المراكب الكبيرة سوف تسير على الماء صعـوداً، ضد مجرى التيـار، وبذلك يلزمهـا ثلاثة صفـوف من المجذفين، لابل أربعة.

وسبب ما تقدم وقلناه:

هو أن المطلوب من الغـلايين المدفوعـة بالمجاذيف أن تكون سريعـة،

وأن يتحكم بها الذيـن عليهــا، وأن يكون بإمكـانهم الشروع بمحــاربة أعدائهم متى أرادوا، ويمكنهم تجنبهم فجـأة متى أرادوا، وبذلك يتقون مخاطر كثيرة يمكن أن تحدق بهم في وقت قصير من الـزمن بسبب هيـاج البحـر وعواصفـه، ولاسيما من أجل عبـور البـوارج الممرات التي فيهـا تيـارات، والتي نادراً مـا تخلو من الخطـر، ولكي يصل من يسـافـر على متنهـا إلى المرسى بسلام، ولهذا كله لما رأيت المحـاسن الكثيرة، وتأملت الضمانات التي يمكن أن يحصل عليها طاقم السفن، أكدت على جودتها، متمنياً أن يصـادق عليها قبطان قداستكم، وبناء عليـه محمود كثيراً، وإنه لأمـر ينصح به بإلحاح، أن يكون المجــذفـون على كل مقعـد ليس فقط أربعة بل خمسـة، إذا كان ذلك سهل التطبيق، وممكنا، مـن أجل الإبحار على ظهــر المراكب الكبيرة، ويفترض بالقبطان أن يطلب المشــورة وأن يتبع مـا يـراه هو الأفضل، بخصـوص الغـلايين، وكــذلك بخصـوص الملاحة في الميـاه العذبة، ومن المعـروف أنه في سنة ١٢٩٠ كانت تقـريباً جميع الغـلايين التي تعبر البحـر، تستخـدم مجذفين اثنين على كل مقعـد، وأدرك بعد ذلك رجـال أكثر حذاقـة بأنه يمكن استخدام ثلاثة مجذفين، وهذا هو الاسلوب المتبع اليـوم بشكـل عـام، وليس لأحـد أن يرى أنه ضرر إذا وضعنا أربعـة أو خمســة على نسق واحـد فــوق كل مقعـد في السفن الكبرى، وذلك بعــد مـاجـرى اختبــار فعـاليــة هذا الاسلوب وجـودته، وبالفعل توجـد في كتـب الأقـدمين أنه كـان في أيام الرومـان يجلس ثلاثة رجال للتجـذيف على كل مقعد، وقد ورد في كتـاب ريجتيو Regetio حـول الشـؤون العسكرية، والذي تناول المعــارك الكبرى في البحر، أن مـلاحاً اسمـه ليبورناس Liburnas ، كان يصف المجذفين واحداً واحـداً، وعلى المراكب الأكبر بقليل أجلسهم اثنين اثنين، أما على المراكب الاكبر— وكل حسب قياسها— فقـد رتب المجذفين فيها ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، أو حتى خمسة خمسة، والذي أراه أنه لايجوز القول إن في هذا مبالغة كبيرة، عندما نقرأ أنه اشتركت في معارك الأيام الماضية

سفن أكبر بكثير من سفن هذه الأيـام، وذلك وفق الطريقـة التي رتبهـا فيها الشيوخ القدماء.

الفصل الســادس: مــا يفترض أن تكون عليــه السفــن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

وفيما يلي شكل السفــن اللازمــة واسلـوبها لتسهيل نجــاح المهمـــة المذكورة.

أولاً: إن أفضل السفن لعبـور البحـر هي الغـلايين، التي تعتمـد على التجـذيف، وهي مـراكب خشبيـة مستديرة، تماثـل تقريبـاً مـا يستعمله البنادقـة في هذه الأيام، أي هي غلايين ضخمـة، تنقل أكبر حمولة ممكنة، وذلك بقدر مـا تستطيع المجاذيف أن تلبيهـا، ويضاف إليهـا أيضاً سفن أصغـر حجماً، تسير أيضاً بالتجـذيف، وعلى كل حـال إن أية سفينة من حجم آخر تفيد أيضاً، إذا كانت من صنع جيد، وتسير أيضاً بالتجذيف، لكن ينبغي أن تكون رشيقـة وسريعـة، هـذا ومن الممكن ادخـال بعض التعـديلات على تلك السفن من أجل تحسين وضعهـا، وأخص بالذكـر السفن التي تسير بقوة دفع المجاذيف، ومن هذه التعديلات، نصب برج في وسط كل منهـا يبلغ طوله عشرون قـدمـاً، ويكون عـرضـه بمقـدار عرض السفينة التي تحمله، ويكون علوه بقدر يسمح بمرور الرجال من تحته مع المسلحين، وهم منتصبوا القامة، ومفيد أن يوضع في مؤخرة كل سفينة بعض المعدات الحربيـة، وليكن ذلك حسب نصيحة أناس حكماء وخبراء في هذا الحقل، مثل أنواع مـن الحسك المدببـة الرؤوس، وتصف هذه من المؤخرة حتى الأمام وحول جوانب السفينة، هذا وجرت العادة بوضع بعض آلات الرمـاية على مقدمة المقـاعد، بأي عـدد يعد ضروريا ومفيـداً، ويتـوجب ترتيب جميـع آلات الرمي والبرج والحسك ومختلف المعدات الحربية بطريقة فنية، وبشكـل يسهل معه ازاحتها وإعادة نصبها حسب المقتضى، ونـرى أن يجري اختيــار بعض هذه السفــن من النوع

الكبير الحجم، لها مستودع في باطنها، ولها بـاب يفتح في مؤخرتها، لنقل المؤن، ولتسهيل إصعـاد الخيول إليهـا، هذا ويحتاج اسطول الغـلايين إلى بعض السفن الكبيرة جـداً لنقل الميرة، والعتـاد، والذخـائـر، والخيـول اللازمة للجيش، وأفضل أنواع السفن لحمل المواد الغـذائية والأخشاب هي السفن المربعـة التـي يستعملهـا الآن أهل جنوى في بيرا Pera لأن حمولتهـا كبيرة، وعـدد بحـارتها قليل، ويمكنهـا أن تنشر أشرعتهـا بكل سرعة ومن ثم تمخر عباب البحر، لكن من الواضح أن المراكب الطويلة التي اسمها أورسا orsa لها قدرة على الصمود أفضل وهي عندما تهب عليها الرياح المناسبة موائمة أكثر من السفن القصيرة.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامـدادات وباقي الأشياء المناسبـةللجيش سواء عن طريـق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحـول كيفية الملاحة في الميـاه العذبة، وحول ما هو أكثر فـائدة لانجاز المشروع المذكور.

أقترح تخصيص سفينتين يحتـاجها الجيش للملاحة عبر النهـر، بشكل أنهما تنصبـان أشرعتهما، وتنـدفعـان بشـدة، حتى تتمكنـان من تحطيم الجسور المنصـوبة على النهر والموانع الحديدية والسـلاسل، أو أي هدف آخـر مقـام، ولاحظت أنه بين مختلف أنواع السفن المخصصـة للميـاه العذبة، أن النوع المستخدم على نهر البو Po، قد برهن أنه أفضل وأكثر نجـاعة، وأحسن نتـائج مما عـداه، خـاصة بينهـا النوع المسمى بلاكتـارا Plactara وهو نوع يستخـدم للشحن على نهر البـو، لكن ينبغي أن لايبلغ علو رؤوسها العلو المعهـود، بل أن تكون هذه الرؤوس مبسوطة أكثر للمـلاحة في المياه العـذبة، ويجب على كل حال أن تكون أجسـامها أطول، وبخصـوص عددهـا ينبغي تأمين ما يكفي لحاجـة نقل الخيـول، ويتـوجب دوماً مـراعـاة شرط أن تكون هذه السفن بحالة جيـدة، وأن تكون صـالحة للسير بوساطة المجـاذيف، وأن يكون لها في المقدمـة دقل

يعمل بمثابة دفة، وأهم من هذا كله لابد أن تكون هذه السفن مغطاة ما عدا من جهة المقدمة والمؤخرة، من أجل أن يكون الرجال المكلفون بالعمل بالمجاذيف محميين كليا من مخاطر نشاب العدو، وتوضع الخيول في أقبية تلك السفن، وتوضع فوق الظهر الأبراج بمهارة واحدها فوق الآخر، كما يتوجب تزويد بعض السفن بآلات، وأيضاً مركزة بعض المهرة من الرماة بالقرب منها.

وألح دوما على أن تكون السفينة والأبراج والآلات بحالة جيدة، ومع هذا كله هناك حاجة مؤكدة تقضي بتأمين مراكب أصغر، وأيضاً مراكب أصغر بكثير، يمكنها دخول فروع النهر، على أساس أن الكمائن إذا نصبت في مكان ما، تنصب حيث تكون مياه النهر قليلة العمق، ومن المعتقد أن المراكب الصغيرة سوف تكون مفيدة وعملية في مناسبات عديدة، خاصة لحراسة السفن العملاقة وحمايتها، حتى إذا ما صدف وحاول بعض رجال العدو الوصول إليها سباحة تحت الماء، يستحيل عليهم النزول إلى النهر، وقد حدث في الماضي أن تسللوا ليحدثوا خروقاً في سفن الصليبيين، هذا وهناك احتمال كبير أنهم لن يتجرأوا على النزول إلى النهر لسرعة جريانه وعنفه، وبسبب وجود التماسيح في النهر المذكور، وفضلاً عما تقدم يحتاج ذلك الجيش أيضاً إلى أن يكون مع اسطوله بعض المراكب المصفحة، أي أن تكون محاطة بنوع من السواترالدفاعية، حتى يأمن رجالها من رمايات الحجارة من مجانيق العدو وعراداته، ويحسب عدد هذه السفن حسب حاجة الجيش، وفوق هذا يحتاج الجيش أيضاً إلى سفن موائمة تكون قوية جداً وكبيرة، تقتصر مهامها على نقل المعدات والآليات المناسبة واللازمة لتنفيذ بعض المهمات، وذلك حسبما يراه المشرفون على الجيش، وأيضاً ينبغي أن تكون هذه السفن مجهزة بكل ما يلزم لاتقاء النيران، أي أن تكون ملفومة بالجلود، وفي سبيل إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ينبغي أن تكون سفن

البحـر أو الأنهار ذات ألوان ساطعـة، مـزينة بالرسـوم، ترفـرف فوقهـا الأعـلام والرايات في المقـدمـة وفي المؤخرة، وأن يـوجد عليهـا رسـوم مرعبة، توضع على الجوانب بشكل خاص.

ولكي لاينقص المشروع أي شيء، ويكون كـامـلاً حتى يحقق الهدف المرجو، والغـاية الحميدة، يلزم أن يكون مع كل جيش— وخـاصة على الأنهار— أبواق، ونفـر، وطبـول وكـوسـات، وكل أنواع الآلات الموسيقية القوية الأصـوات، وأن يكون عددها كبيراً بقدر الامكان، من أجل بعث الحماس، وشـد عـزائم الأصـدقـاء، حتى تـوزع الفـرح في قلوبهم، ولكي يدب الرعب في قلوب الأعداء الماكرين.

الفصل الثـامن: أصناف الأسلحـة، وتعـدد أشكـالها من دفـاعيـة وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

من الطبيعي هناك حـاجة للتـزود بالأسلحة الكافيـة لحاجات رجـال الجيش حتى يدفعوا عن أنفسهم، ولمهاجمة أعدائهم، وفق مايلي:

أولاً: يحتـاج كل رجـل من ذلك الجيش إلى سيف صـالـح، وجـاهز لسحبه سريعاً من غمده.

ثانيـاً: يجب أن يكون في كل سفينة عـدد كبير من الدروع الواقيـة للصدر، وأغطية للرأس، وسواتر للرقبة، يزود بها جميع العناصر، أو على الأقل الثلثـان منهم، وذلك على الرغم من أن المراكب المعـدة للملاحـة على النهـر ستكون كما تقدم وأشرنا مـدرعة، وذلك بغيـة إتقاء رمـايات الأعداء.

ثالثـاً: من الضروري أيضـاً أن يكون كـل عنصر من عناصر الجيش مزوداً بخوذة من الحديد أو غيره من المعادن الخفيفة، والمهم أن تكون له خوذة خاصة به تبقى معه.

رابعاً: من المتوجب أن يكون مع الجيش عدد كبير من الترسة، بحيث يكون لكل عنصر ترسه الخاص به في المكان والزمان المقرر، وأفضل أنواع الترسة تلك التي يستعملها أهل كاتالونيا، بسبب جودتها وخفة وزن كل منها، والحاجة إلى الترس دائمة، فقد يحدث أن يترجل المقاتلون، ولايكون وقتها بمقدورهم حمل الدروع، متذكرين أن المسلمين مؤهلون للاقلاع بحملات متوالية، فإذا ما اضطر الجندي إلى ارتداء الدرع ثم بعد ذلك إلى خلعه، قد يتعرض لخطر داهم، وهو يلبس أو وهويخلع، وهكذا عندما يكون مع كل رجل سابغته وخوذته وترسه وما يحمي به رقبته وصدره وجسمه، حسبما تتطلب الظروف، في ذلك كفاية لقمع جرأة الماكرين، وينبغي أن يكون معه علامة مميزة جميلة المنظر، وحذاء متين ومفيد، وكل ما هو لازم لإطفاء النار.

وإذا ما التفتنا نحو الأسلحة الهجومية نقول: يلزم لكل واحد سيف وغمده، وبالاضافة إلى ذلك هناك حاجة إلى:

أولاً: أن يحمل كل عنصر قنا حديدية.

ثانياً: أن يزود كل واحد من الرماة بكمية من النشاب، وأن يحمل معه قوسين، قوس أشد من الآخر، يستخدم الشديدة عندما يتمركز في نقطة ثابتة على الارض، ويستخدم الثانية أثناء التقدم والتراجع حسبما يقتضي الحال.

ثالثاً: ينبغي تزويد كل غليون بقناة طويلة من المعدن معقوفة الأطراف، وأيضاً برماح طويلة، وبحراب، وبسلاسل ضخمة تحمل في نهاياتها كلاليب، وأن توضع بشكل خاص في مؤخرة كل سفينة.

رابعاً: وينبغي أيضاً أن يكون في كل مركب رماح طويلة ورماح قصيرة، وكميات من الحجارة كبيرة بدون عدد.

خامساً: ويتوجب أن يكون في السفن كلاليب حديدية مربوطة إلى

سلاسل حديدية من أجل عندما يرى الملاحون أنفسهم أنهم تفوقوا على الأعداء يلتقطون مراكبهم بهذه الكلاليب ولايدعونها تفلت.

سادساً: من المفيد جداً أن تحمل كل سفينة معدة للملاحة فوق المياه العذبة منجنيقاً كبيراً بإمكانه الرماية بالتتابع نحو كل الجهات، وأن يكون هذا المنجنيق مجهزاً بكل ما يحتاجه، وأن تحمل عدة عرادات، يكون عددها وفقاً لما يستحسنه قائد الجماعة، حتى وإن تطلب ذلك عدداً إضافياً من المحاربين، وسيكون ذلك مفيداً للغلايين أيضاً، ومن الموائم أيضاً توفر كميات كبيرة من النشاب، لاسيما من النوع الذي يدعوه العامة باسم العقار.

سابعاً: تحتاج تلك السفن إلى منصات للمجانيق الخشبية، ومنصات أيضاً إلى آلات للرماية أبعد مدى، أي مجانيق مدعمة، مع كل ما يقتضيه الأمر من رجال مدربين لتشغيلها.

ثامناً: من المفيد، والمستحسن أن يثبت من الطرفين في مؤخرة كل غليون دعامة خشبية طويلة، يستعملها الغليون والبحارة سواء كرأس كبش مثل الذي يستخدم لتحطيم أبواب المدن المحاصرة.

تاسعاً: تحتاج كل سفينة إلى جرار كبيرة تكون مملوءة بالكلس، ومثل ذلك إلى أواني كثيرة تكون مملوءة بالصابون الطري، وينبغي أن يوضع بين الجرار والأواني أدوات حديدية يدعوها العامة «الحراقات» ذلك مع غيرها من التجهيزات اللازمة لاشعال النيران، وأيضاً لرمي النشاب، وأشياء أخرى كثيرة حسب النصائح التي يقدمها خبراء الجيش، ويتوجب على القبطان الذي هو القائد العام لذلك الجيش أن يختزن أكبر كمية ممكنة من هذه الأسلحة، نظراً لأن كثيراً منها ينكسر، أو يتلف، أو يفقد أثناء استخدامه من قبل الرجال.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش،

وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

وأتوسل أيضاً إلى قداستكم أن يعمد القبطان الذي— بنعمة من قداستكم —توليتم تعيينه قائداً على ذلك الجيش، إلى إيلاء تنظيم جميع الذين معه والعاملين في الجيش كامل العناية والاهتمام واليقظة، وأن يوزع عناصر الجيش المأجورة، وجميع الموجودين فيه لسبب أو لآخر، ويقسمهم إلى مجموعات بعضها مكون من ألف عنصر، وثانية من مائة عنصر، وثالثة من خمسين عنصر، ورابعة من عشرة عناصر، وأن يولي على كل مجموعة قائداً أو رئيساً مسؤولاً، وأن يعطي القبطان أولئك المسؤولين التعليمات الواجبة حسبما يراه مناسباً، كل حسب مقامه وخبرته، وعلى قائد الجيش المسيحي أن لايولي هذه المسائل لوحدها العناية والاهتمام، بل عليه أكثر من ذلك أن يسهر ويحرص على وصول الطعام إلى جميع أفراد جيشه بانتظام، سواء منهم الذين يعملون لقاء راتب، أو الذين بدون راتب، وليكن ذلك حسب كرمه، وحسبما يحكم بفطنته أن ذلك لازم وضروري لهم، وذلك للحيلولة دون الاستيلاء على الأطعمة خلسة وخفية من قبل أتباعه، ويخيل لي أنه من المستحسن والمفيد للحفاظ على الجيش ولرفع معنوياته أن ينظر القائد ومستشاروه الذين على كل سفينة من السفن بمفردها هل يناسب بالاضافة إلى التوزيع العام لكل ما هو ضروري على الذين في الجيش، خاصة المأكل والملبس، أن تكون هناك أشياء يمكن بيعها، لكن بسعر عادل، شرط أن لايتولى البيع إلاّ الذين كلفهم بذلك القبطان أو مستشاروه، ومن الممكن بيع بعض السلع بالدين، وذلك حسب أوضاع الأشخاص، على أن يجري التسديد بعد يوم دفع الرواتب، فيومذاك ينبغي تسديد جميع الديون تماماً، بشكل يصل فيه كل انسان إلى حقه دون غش أو خديعة، ودون أن تكون هناك أية شكوى من فرض علاوات أو ضرائب وترصد جميع أرباح المبيعات لما فيه المصلحة العامة للجيش، هذا ومن

الضروي تطبيق النظام العـام جملة وتفصيـلاً في جميع المجالات المتبقيـة، والتقديم في النظام القويم هو دوماً للسلاح، وعلى السلاح لايعلو شيء.

الفصل العـاشر: كميـات الميرة، والطرق المتبعـة لـدى أهل البندقيـة لتـوزيع الميرة على العـاملين في غـلايينهم، وعـدد الأفـراد المستخـدمين، والزمن والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

من الضروروي إعطاء كل رجل يوميـاً ليبرة واحدة (الليبرة تسـاوي ٤٥٣,٦٠ غ) ونصف الليبرة من البقسماط، وعلى اعتبـار أن عـدد أيام الشهـر هي ثلاثين يوماً وأشهـر السنة هي اثني عشر شهـراً، وبما أن كل شهر مكون من ثلاثين يوماً، ينقص مـن كل سنة خمسة أيام وربع اليوم، وذلك بعـد ضم السنة الكبيسـة إلى تعـداد باقي السنوات؛ وينبغي أخـذ العلم أن كل جوالق من البقسماط يزن تسعين ليبرة، وأن كل جوالق من الدقيق الجيـد يعطي مـائـة وخمس ليبرات من البقسماط، وفي هذا زيادة سـدس على مايفـرضه أهل البندقيـة، وبناء عليـه يحتاج كل فـرد تسعين ليبرة كل شهرين أي بمعـدل جوالق واحد، وبالنسبة لسنة كـاملة مؤلفة من اثني عشر شهراً وخمسة أيام وربع اليوم ستكون هناك حاجة إلى ستة جوالق من الدقيق، وسبع ليبرات، وإحدى عشرة أو نصة (الأونصة هي ٢٨,٣٥ غـرام) ونصف الأونصـة، وتسـاوي هذه الجوالق ٥٤٧ ليبرة بقيـاس أهل البندقيـة للجـوالق الـواحـد، هذا ويسـاوي كل ألف ستـة قناطير بعيار أهل أبوليا ونابولي.

ويعطى أيضـاً يوميـاً لكل واحـد ممن يتقـاضـون رواتـب كأسـاً من الخمـــرة، بحجـم ربع ليبرة، وإذا ضربنا كـل ليبرة بسبعين نحصل على المقياس المسمى عند العامة «برميل صغير»، وكل برميل صغير مضروب بأربعة يسـاوي تماماً «برميل كبير» حسب قياس أهل البندقيـة، ويساوي كل برميل كبير برميلاً واحداً Veges وثلثاً من عيار نابولي، وبناء عليه تكون حصـة كل رجل في السنة الكـاملة— كما قلنا— برميـلاً واحـداً،

واحدى وعشرين ليبرة، وربع وستة عشر جزئاً من الليبرة حسب قياس أهل البندقية.

ويعطى كل واحد ممن ورد ذكـرهم أونصة واحـدة من الجبن يومياً، أي يعطى على مدار السنة ما مجموعه ثلاثين ليبرة وخمس أونصات وربع أونصة تماماً، وكـذلك يعطى لكل واحد ثلاث ليبرات وثلاث أونصات من لحم الخنزير المملح كـل ثلاثين يومـا، أي مـامجمـوعـه تسع وثلاثين ليبرة وست أونصـات وأربع Sagys كل سنة، ويوزع أيضـاً يوميـــاً على كل واحد من المقاتلين المأجوريـن لقاء راتب: فول أو أية حبوب أو بقـول بمقـدار جزء من أربعين من ربعيـة (كـوارتا رولاQuartarola) حسب عيار أهل البندقية، ولكي يكون كل شيء واضحاً، تجدر الاشارة إلى أن كل أربع ربعيـات تسـاوي ربعاً واحـداً (Quarsta) وكل ربع مضروب بأربعة يساوي جوالق واحد من عيار أهل البندقية، وكل ثلاثة جوالق من عيـار أهل البندقية، تسـاوي سالما Salma واحدة من عيار أبوليا، سواء أكان ذلك من الحبوب أو من الدقيق.

وبناء عليه تكون حصـة كل رجل لكل سنة كاملة نصـف جوالق من الحبوب، وربعية واحدة وخمسة وأربعين جزءاً من الربعية.

مايجب تقديمه من طعام لعشرة رجال

١٥ — ليبرة من البقسماط	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٥ — جوالق	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٦٠ جوالق	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٧٨ ليبرة وتسع أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١/٢ ٢ ليبرة خمر	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
برميل صغير واحد وخمس ليبرات	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
١٢ — برميل صغير و ٦٠ ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٨ ١٣ — ليبرة	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع
١٣ — أونصة لحم	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
١/٢ ٣٢ ليبرة	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٤٩٠ — ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٥ — ليبرات و٩ — أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١٠ — أونصات جبنة	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٢٥ — ليبرة	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٣٠٠ — ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٢ ٤ أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١/٤ ربعية حبوب	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
١ — ربع ١/٢ ٣ ربعية	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٥ جوالق و ١٠ ربعيات	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٤ ١ ربعية ١٦ جزء من الربعية	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة رجل

١٢/٣ — جوالق بقسماط	في اليوم الواحد لسفينة تحمل مائة رجل على أن يحسب الجوالق تسعين ليبرة
٥٠ — جوالق	لثلاثين يوماً
٦٠٠ — جوالق	لاثني عشر شهراً
٨ — جوالق و ١/٢ ٧٧ ليبرة	لخمسة أيام وربع اليوم
٢٥ ليبرة خمرة	حصة المائة رجل يومياً
١٠ — برميل صغير و٥٠ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً
٣٢ — برميل كبير و٤٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً
١ — برميل صغير و٦٠ ليبرة	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم
Fieta واحدة من النبيذ	تعطى لهم كذلك بمثابة حصة يومية.
٨ ليبرة و ١/٤ أونصة جبنة	حصة المائة رجل يومياً
٢٥٠ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً
٣٠٠٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً .
٤٣ ليبرة و٩ أونصات	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.
١٠ — ليبرة و١٠ أونصات لحم	حصة المائة رجل يومياً.
٣٢٥ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً.
٣٩٠٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً.
٥٦ ليبرة و ١/٢ ١٠ أونصة	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.
١/٢ ٣ ربعية فول أو حبوب	حصة المائة رجل يومياً.
٤ — جوالق و ١١ ربعية	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً.
١/٢ ٥٦ جوالق	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً.
٤ — ربع و ١/٨ ١ ربعية	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم

مايجب تقديمه من طعام لألف رجل

١٦ جوالق و ٦٠ ليبرة بقسماط	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٥٠٠ جوالق	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٦٠٠ جوالق	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٨٧ جوالق و ٤٥ ليبرة	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٣ براميل صغار و٤٠ ليبرة خمرة	حصة ألف رجل ليوم الواحد
٣١ برميل كبير و٣ براميل صغار و٤٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٢١ برميل كبير وبرميل واحد صغير و٤٠ ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
١٨ برميل صغير	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣ ليبرة وأربع أونصات جبنة	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٢٥٠٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٠ ألف ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
١/٢ ٤٣٧ ليبرة	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨ ليبرة وأربع أونصات لحم	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٣٢٥٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٩ — ألف ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٥٦٨ ليبرة وتسع أونصات	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
جوالق واحد فول و٢ — ربع وربعية واحدة	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٤٦ جوالق و ٣ — ربع و٢ ربعية	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
١/٢ ٥٦٢ جوالق	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٧ جوالق و ١/٤ ٣ ربعية	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لعشرة آلاف رجل

١٦٦ جوالق و٦٠ ليبرة بقسماط	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٥٠٠ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٦٠٠٠ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٨٧٥ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨ برميل كبير،و ٣ — براميل صغار، و٥٠ ليبرة خمرة	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٢٦٧ برميل كبير، و٣ — براميل صغار، و٣٠ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٢١٤ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٤٧ برميل كبير، و٣ براميل صغار، و٣٥ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣٣ ليبرة جبنة و٤ — أونصات	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٢٥ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٤٣٦٥ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨٣ ليبرة لحم وأربع أونصات	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٣٢ — ألف ليبرة وخمسمائة ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٩٠ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
١/٢ ٥٨٠٧ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٥ — جوالق فول(أو حبوب)	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٤٦٨ جوالق و٣ — أرباع	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٥٦٢٥ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٨١ جوالق و٣ — أرباع و ١/٢ ١ ربعية	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة ألف رجل

١٦٦٦ جوالق بقسماط و٦٠ — ليبرة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٥٠ — ألف جوالق	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٦٠٠ — ألف جوالق	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٨٧٥٠ جوالق	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٩ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليبرات من الخمرة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢٦٨٧ برميل كبير، و٢ برميل صغير وليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٢١٤٢ برميل كبير، و٣ براميل صغيرة و٣٠ ليبرة	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٤٧٤ برميل كبير	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣٣٣ ليبرة وأربع أونصات من الجبنة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢٥٠ليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠٠ — ألف ليبرة(ثلاثة ملايين)	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٤٣ ألف و٧٥٠ ليبرة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨٣٣ — ليبرة وأربع أونصات من اللحم	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٣٢٥ ألف ليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠٠ — ألف ليبرة(ثلاثة ملايين)	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٥٦٨٧٥ ليبرة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٥٦ جوالق وربع واحد من الفول(الحبوب)	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢ / ١ ٤٦٨٧ جوالق	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٥٦٢٥٠ جوالق	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٨٢٠ جوالق وربع واحد، وربعية واحدة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

طريقة توزيع الأغذية

يتولى كتاب الغلايين توزيع الأغذية على الرجال وفق الشكل التالي:

أولاً : يوزن راتب البقسماط وفق ما ذكرناه أعلاه لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام، ويوزع على الرجال بقدر ما يتبين أن العناصر قادرة على الحفاظ عليه بشكل جيد، علماً بأنه من الممكن توزيع أيضاً راتب يومين يومين.

ثانياً: يوزع الجبن على جميع الرجال راتب ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً.

ثالثاً :يوزع راتب اللحم المملح كل أسبوع، ويعطى لكل عنصر تسع أونصات كمايلي: يوزعها المكلفون بهذه المهمة على خمسة أيام بحيث يعطون ليوم الأحد لكل رجل ثلاث أونصات، و يعطونه في الأيام الأربعة المتبقية، أي : الاثنين والثلاثاء والأربعاء و الخميس، نصف ما كان أخذه يوم الأحد المتقدم، وتطبخ هذه اللحوم مع الحبوب، لكن لا يشارك في تقديم اللحوم للطبخ إلاّ نصف الموجودين على ظهر الغليون وإن كانوا جميعاً يحصلون على حصتهم من الطعام المطهي، ويقدمون النصف الثاني للطبخ لاحقاً، ومن جديد يتشارك الجميع في الطعام المطهي، ويحصلون بهذه الطريقة على اللحم ثلاث مرات في الأسبوع، ويستفيدون خمس مرات من طبخ اللحم، أما في باقي أيام الأسبوع أي في يومي الجمعة والسبت، فيكون الطبخ حبوباً، وتقدم مسلوقة لكل عنصر من الموجودين في الغليون، وإذا صدف ووافق يوم من أيام توزيع اللحم، وكان يوم صيام قبل يوم العيد لواحد من الأعياد الكبيرة، فتوزع الحبوب، وتحفظ اللحوم لتوزع على الرجال في أول يوم عيد يأتي، ويظل الأكل في يومي الجمعة والسبت من الحبوب حسبما جرت

العــادة، ونذكـر هنـا أنه من الضروري أن يكون على ظهــر كل سفينة مسـؤول يتولى أعمال الطبخ مـرة في اليوم لصـالح رجال الغليـون، وهو بالعادة يتسلم من الكتّاب الحبوب اللازمة للطبخ، وكذلك اللحوم التي تؤكل فيها اللحوم، وذلك قبل يوم حتـى يتاح له الوقت لإعدادها ومن ثم إطعام من في الغليون، ويجري تكليف ثلاثة رجـال لاستلام الأطعمة وتوزيعها، يقف أحدهم في مقدمة الغليون والثاني في وسطه، والثالث في مؤخرته، ويرافق هؤلاء الرجال الثلاثة رجل يتولى الإشراف والتأكد من حصــول كل رجل على حصتــه، ويستحسن تبــديل الموزعين بين آونة وأخــرى، ويبقـى هذا حسبما يراه المرافق الـذي هو مــدبـر الغليــون، وبالحري يعـود ذلك إلى رأي القبطان، أي القـائد العـام للجيش، فإليـه أوكلت مسؤولية العدالة وتطبيقها، والمهم بالأمر عدم الإخلال بوصول حصة كل إنسان من الطعام إليه.

ورب سائل يقـول:هل يكفي هذا الراتب من ا لطعـام لهذه الجماعة؟ وأجيب نعم، بما أن القوم يتسلمـون من الموزعين البقسماط بكفاية، علماً بأنه عند الاقتضاء يمكن لأحدهم الاحتفاظ بمقدار خمس عشرة أونصة أو اثنتي عشرة أونصة بقسماط يومياً، وأضيف أنني وجدت شخصياً في أحد الجيـوش أنه لم يكن يوزع سوى تسع أونصـات للشخص الواحد، لكن هذا هو الحد الأدنـى في أوقـات الضيق وفي العــادة عندمــا تزول الضـائقـة — حسب ظروف الزمـان والمكان — يجري التعـويض على الناس مـا نقصهم إما بدفع مبلـغ من المال، أو بإعطائهم مواد أخـرى، علماً بأن أولئك الناس يستطيعـون أن يبتاعـوا بمالهم الخاص متى وحيث يريدون الخمــــرة والطعــام، حسبما يروق لهم ويطيب، وذلـك عندمــا يصلون إلى مكان تتـوفـر فيـه تلـك المواد، هذا ويقـدم للرجـال في أيام الصوم الكبير بدلاً عن اللحم وعن الجبن طعـام آخر يوازي بقيمته ثمن ذلك اللحم والجبن.

تخمين منطقي لأسعار المواد الغذائية المتوجب تأمينها:

في البـداية من المفيـد التعرف ولو قليـلاً على النظام النقـدي المتبع في البندقية:

تساوي كل قطعـة فضية كبيرة Grossus من نقود البندقية اثنان وثلاثين ديناري صغير، وبناء عليــه إن كل ٧١/٢، قطعــة فضيــة كبيرة تساوي عشرين سولدي صغار، وتسـاوي كل عشرين سولدي كبار من نقود البندقية اثنتان وثلاثين ليبرة صغيرة، وهكذا دواليك.

ولنفترض أن البقسماط الذي يزن الجوالـق الواحــد منه تسعين ليبرة يســاوي ثمنه ٣٢١/٢ ســولدي صغــار، يكون ثمن ليبرة ٤١/٢ ديناري، وطبعــاً يلزم لكل رجل يـوميــاً من ذلك البقسماط ١١/٢ ليبرة، وبذلك يكون ثمنهـا١/٢ ٦ ديناري، ويكون الثمن في ثلاثين يـومـاً ١٦ سـولدي وثلاثة ديناري صغـار، مقابل ٤٥ ليبرة من البقسماط، أمـا في اثني عشر شهـراً فيكون ثمن ستة جـوالق من البقسماط ٦ سـولدي كبار، وقطعـة فضية كبيرة، وأربع قطع صغار.

وثمن البرميـل الكبير من الخمـــرة ١٥ — ليبرة و١٥ ســــولدي، ويساوي ذلك بعملة البندقيـة ٩ سولدي كبـار، و١٠ قطع فضية كبيرة، و٤ ديناري، وبنـاء عليـــه يكون ثمـن البرميل الصغير ٣ ليبرة، و١٨ سولدي، و٩ ديناري صغيرة، ويكـون ثمن ليبرة الخمرة ١/٢ ١٣ ديناري، ويعطى يوميـاً للفرد ربع ليبرة ثمنهـا ٣/٨ ٣ ديناري، مما يعـادل في الشهر ثلاث قطع فضيــة كبيرة و ١/٤ ٥ ديناري، ويســاوي هذا في اثني عشر شهراً ٣٧ قطعة فضية كبيرة و ٣١ ديناري.

أمـا ثمـن اللحم المملح فهـو للألـف ليبرة، ٥٠ ليبرة صغـار أي ٣١ سـولدي و ٣ قطعـة فضية كبيرة، وحصـة الرجل يومياً هي ١,٣٩ —

أونصة، ثمنها ١ ١/٥ دينار، ويعادل هذا بالشهر الواحد ٣٩ — أونصة ثمنها قطعة فضية كبيرة واحدة و٧ ديناري صغيرة، وبموجب ذلك تكون حصة الفرد في اثني عشر شهراً ٣٩ ليبرة من اللحم ثمنها ١٤ قطعة فضية كبيرة و٢٠ ديناراً.

وتحسب الألف ليبرة من الجبن بخمسين ليبرة، ويلزم للفرد الواحد يومياً أونصة جبن واحدة، ثمنها ديناري واحد، ويساوي هذا في ثلاثين يوماً ٢ ١/٢ ليبرة و٣٠ ديناري، وفي ١٢ شهراً ٣٠ ليبرة و٣٠ سولدي، تعادل ١١ قطعة فضية كبيرة وربع القطعة.

أما جوالق الفول فنفترض ثمنه ١٢ ١/٢ قطعة فضية كبيرة، وهكذا تكون قيمة ١/١٦ منه واسمها ربعية ٢٥ ديناري، ويحتاج الفرد في اليوم الواحد إلى ١/٤ ربعية ثمنها ١/٨ ديناري، ويعادل هذا في الشهر ٣ ٣/٤ ديناري، وفي اثني عشر شهراً ١٨ سولدي و ٩ ديناري صغار،أي ٧ قطع فضية وديناري واحد.

وعلى هذا يكون ثمن الراتب اليومي للرجل الواحد عن البقسماط واللحم المملح والفول والخمرة ١٢ ٤/٥ ديناري، وعن الشهر المكون من ثلاثين يوماً ١٢ قطعة فضية كبيرة، وعن السنة المكونة من اثني عشر شهراً ١٢ سولدي كبار.

وهكذا إذا أخذنا بعين التقدير سدس البقسماط الفائض، وإذا قدرنا — بعون الرب — أن بالإمكان أن نحصل محلياً على أصناف رخيصة بسهولة، أو بالأسعار المذكورة أعلاه، بعد التذكير أننا حسبنا الأسعار بمقياسها الأعلى، لهذا كله لم نحتسب الخمسة أيام وربع اليوم الزائدة على اثني عشر شهراً.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي وأشكالها، في أعماله البحرية، لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على

القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

أيها الأب الأقدس: يحتاج القائد العام عند الانطلاق لتنفيذ هذا المشروع إلى خمسين غليون وفق الأحجام المشار إليها من قبل، أي: عشرين من الحجم الكبير، مما يسير بالمجاذيف، وعشرين من الحجم الوسط، وعشرة من حجم قادر على الخدمة، وطبعاً هي أيضاً مما يسير بالمجاذيف، وأتمنى الأخذ بالرأي الداعي إلى استخدام أربع مجذفين على نسق واحد فوق كل مقعد، حسبما بينت في الفصل الخامس، ووقتها لن نكون بحاجة إلا إلى أربعين غليوناً من النموذج المذكور في الفصل الحادي والعشرين من القسم الرابع، أما شكل الغلايين فهو كمايلي:

١ — *الغلايين الكبيرة*: الطول ٢٣ خطوة ٢ — قدم، والفتحة من الأمام(العرض) ١/٢ ١٥ قدم، والارتفاع من وسط أرضيتها ٧ أقدام و٣ أصابع، وعمقها(الغاطس) ١/٢ ٩ قدم، وأخيراً علوها من المؤخرة ١/٢ ٩ قدم، ومن المقدمة ١/٢ ١٠ قدم.

٢ — *الغلايين من الحجم الثاني*: الطول المطلوب ٢٣ خطوة و٢ — قدم، وفتحتها من الأمام ١/٣ ٢٠ قدم، وعلوها ٧ — أقدام وإصبعين حتى ثلاثة أصابع، وعمقها١/٢ ٩ قدم، وعلو مؤخرتها ١/٢ ٩ قدم، ومقدمتها ١/٢ ١٠ قدم.

٣ — *الغلايين الصغيرة*: وأخيراً إن قياسات هذا النوع هي: الطول ٢٣ خطوة وقدم،وفتحتها من الأمام ١/٢ ١٤ قدماً، وعلوها من الوسط ١/٢ ٦ قدماً وعمقها ١/٣ ٩ من الأقدام، وعلوهاعند المؤخرة ٩ من الأقدام، وعند المقدمة ١٠ — أقدام. وحتى يتمكن المجذفون الجالسون أربعة أربعة على نسق واحد فوق مقعد واحد من العمل بشكل أفضل، ولاسيما إذا جرى اعتماد أسلوب خمسة خمسة في الغلايين الأكبر حجماً، من المتوجب أن تكون المجاذيف من أفضل أنواع الخشب، ويستحسن

أن تكون من خشب بيروناداا Pironada ، وأن تكون مربوطة ببعضها، ومصنوعة بشكل خاص لتتحمل عناء التجذيف وشدته وعنفه، ومن المحبذ وجود سفينتين لهما عشرة زوراق، مثل ما يستعمله أهل جنوى في القسطنطينية وبيرا — المسماة قديماً غلاطية — .

وبرأينا إنه من المفيد وجود — فضلاً عما تقدم — خمسة غلايين كبيرة لحمل المعدات ذهاباً وإياباً، وأن تكون غير مسلحة، وتسير بقوة دفع المجاذيف لحمل العناصر والخيول والمؤن، ولحمل الأخشاب وجميع الأسلحة اللازمة لأولئك القوم، ويمكن لهؤلاء أن يسيروا بسلام وفرح كبير نحو الشواطىء المصرية، ويستولون هناك — كما بينا من قبل — بكل بساطة وبطش على الأرض، وعليهم أن يكونوا حاملين معهم لتلك الحملة مراكب معدة للملاحة في المياه العذبة، الموجودة في تلك المناطق، ولغيرها من المياه العذبة التي قد تكون موجودة في بلدان الشرق، ولتكن تلك المراكب من النوع الثلاثي، وأن تكون هناك الخمسة غلايين الضخمة جاهزة باستمرار للذهاب والاياب لحمل جميع لوازم الجيش، وتبقى الغلايين الخمسون أو الأربعون مع الغلايين المذكورة مع الجيش المعدّ للابحار في المياه المالحة والمياه العذبة المذكورة حتى تنقض على أعداء الإيمان الكاثوليكي، وتنزل بهم الرعب وتلحق بهم الويلات، وبناء عليه يقومون في السنة التالية لاحتلالهم قطعة من أرض مصر البحرية فيتقدمون في المياه العذبة، ويكون هناك عشرون غليوناً جاهزين لنقل جميع الأشياء اللازمة ولتمكين الغلايين غير المسلحة من شحن كل ما يلزم.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها، ولتكون أسرع، وخاصة المجاذيف.

ولكي لا يطرأ أي عطل، أو يقع نقصان في صناعة السفن، مما يسبب

للجيش بعض الضرر ويعيقه في حملته، تقصيت بإلحاح، وسألت رأي الذين يفترض أن يكونوا خبراء في هذا المضمار، لأنهم اعتادوا على قطع الأشجار من الغابات، وعلى صنع السفن، فإنهم أجمعوا على القول: إنه لا يصلح أبداً قطع الأشجار من الغابات في شهر آذار أو نيسان، وأن شهري تشرين الثاني وكانون الأول هما أفضل زمن خلال السنة لقطع الأشجار، شريطة أن لا يقع ذلك بين الخامس عشر والثاني والعشرين من القمر.

فإذا ما قطعت الأشجار في الوقت المذكور،يقولون إنه لا يجوز الشروع على الفور بصنع السفن، بل يتوجب أو لاً لتقطيع الجذوع إلى ألواح، وأن تترك بعض الوقت لتجف، إنه إذا صنعت السفن من أخشاب أو ألواح خضراء، لم تجف بعد فإن الألواح لا تنطبق تماماً على بعضها، ولن تصلح لمنع تسرب الماء كلياً، وإذا هبت عاصفة في البحر فإنها تلتوي — كما يقول العامة — وبذلك تنسحب الدسر بسهولة من وسط الألواح، وإن في ذلك لخطر جسيم على من في السفينة، وتسير أيضاً ببطء كبير، ومع التسليم بصحة هذه المعلومات، يبقى المفيد أكثر أن تصنع السفن من ألواح وأخشاب لاتزال خضراء، أو نصف جافة، حيث تجمع قبل أن تجف تماماً، سوية وتعطي للسفينة الشكل الموائم، وبهذه الطريقة — كما يقول الخبراء — تكون الألواح أنسب وأصلح سواء للسفينة أم للملاحة، لأن الأخشاب الخضراء تطاوع أكثر عند العمل وتضبط أكثر، وعندما توضع على طبقتين تكون أقوى وأمتن مما لو كانت طبقة واحدة،لأن الطبقة الأولى هي أساس للثانية، وللحفاظ على السفن المسيرة بالمجاذيف والعناية بها، ولكي تكون أسرع هي بحاجة إلى«معجونة»، ولاسيما النوع المعدّ منها لخوض مياه البحر، ويلزمها من حيث المبدأ كل شهرين على الأكثر في أيام الصيف، عندما يكون الحر على أشده، وكل ثلاثة أشهر في أيام الشتاء، أن تحف بفرشاة،

وبمحرقة ومن ثم ترمم، لأن السفن تحتاج إلى الاصلاح في ذلك الموسم من السنة، وبعد هذا تنـزل وتغطس في أعماق الماء حسبما يكون مناسباً لكل واحدة منها، وتحتاج كل سفينة، كل مرة لتتميم الصيانة إلى خمس وتسعسن ليبرة من المعجونة».

وبعد مرور شهر — على كل حال — وفي أي أسبوع، وبعدما تكون السفينة قد طليت وتمعجنت تماماً، بحوالي مائة ليبرة من المعجونة، يجب تمييلها لبعض الوقت على الجهة اليمنى وبعض الوقت الآخر على الجهة اليسرى، حتى تدلك بالأيدي من الخارج وتنظف تحت الماء بفرشاة مصنوعة من شعر الخنازير، لكن بشكل لايزيل المعجونة عن الألواح.

وتجفف السفن غير المسلحة المعدة لركوب البحر، ولنقل الحمولات الثقيلة مرتان في السنة، وترمم قطعة قطعة، وتطبق الأعمال نفسها على السفن المعدة للمياه العذبة، ولكي تكون سريعة ومصانة، يجب — كما ذكرنا أعلاه — أن تطلى وتنظف وترمم، ويجب أيضاً معجنتها بطبقة من المعجونة بقدر ما يحكم أنه ضروري ومفيد، ومفيد أن نعلم أن السفن يمكن حفظها بشكل أسهل في المياه العذبة مما في المياه المالحة، ولا يتمكن السوس من نخرها، علماً بأنها إذا ما أنزلت وهي مسوسة في المياه المالحة، فإن السوس يؤذيها أكثر، ويمكن أن يتغلغل فيها بسرعة أكبر، لاسيما إذا بقيت من دون حراك، في المكان نفسه، في المياه المالحة.

وإذا حدث وتقشرت المعجونة عن إحدى السفن، لا يجوز معجنتها كما ذكرنا من قبل، بل ينبغي أن تجفف أولاً ثم تحف بالفرشاة بشدة حتى يُزال من عليها جميع الأوساخ والأعشاب العالقة بها، ومن المناسب أن يتم ذلك شهرياً، وكلما تبين أنه ضروري، ويجب التنبه إلى أن على كل سفينة أن تكون متأهبة وجاهزة في أيام الصيف أكثر منها في أيام الشتاء، لأن الأضرار التي تلحق بها في الصيف أعظم، هذا ولا يجوز التوقف عند الطريقة التي يرفع فيها الأذى عن السفينة، بل ينبغي

الاعتماد على الطريقة التي تضمن صيانتها حتى تقوم بالمهمة المكلفة بها، ولتكون سريعة الابحار، وإذا اتضح أنه غير مناسب لسفينة ما ألا تعمل لبعض الوقت، لأنها تحتاج إلى الصيانة، ينبغي جرها إلى مكان مغطى حتى تنظف ويزال عنها الأذى، وذلك بعد التشاور مع الأعيان والجماعات، هذا وإن المكان الذي تحفظ فيه السفن يعرف عند العامة باسم«دار الصناعة»، وقد تتوفر أسباب أخرى تدعو للمحافظة على بعض السفن، لكن إذا لم يكن بالامكان حفظها في دار الصناعة لوقت طويل، من الأفضل عدم تعريضها للشمس والمطر، والندى في مكان آخر.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة، وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذي سيعبرون البحر فيها بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لايصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها، وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة، لاتناسب ولاتفيد.

وإذا ما حظي الذي ذكرته أعلاه بما يستحق للمباشرة به ومن ثم إتمامه، فإنه ينبغي — أيها الأب الأقدس — من أجل إنجازه وإتمامه تجهيز أسطول آخر عدا عن الذي سلف وذكرناه في الفصل المتقدم، فالفضل كل الفضل ليس بالشروع والمتابعة إلى منتصف الطريق، بل إنه بإتمام تلك البداية ومتابعة المسيرة حتى يتم الوصول إلى الغاية، وعندئذ يكون المدح والثناء، ويكون هذا الأسطول لحمل المؤن والأخشاب، وباقي العتاد اللازم لذلك الجيش المذكور، وكذلك بكميات كبيرة للصليبيين الذين سوف يلحقون بهم، حسبما ذكرنا أعلاه، وأيضاً لمحاربة أهل الأندلس الذين يحاربون في المناطق الواقعة من هذا الجانب من البحر، أي في إسبانيا، فهؤلاء سيداسون بالأقدام بسرعة، وستجتث

شرور أتباع محمد(ﷺ)، ونحن حين نتحدث عن أسطول آخر، غير الذي نحن بصدده، فهذا لا يعني أن ذلك الأسطول الثاني سوف يكون ذا عدد كبير، أو أنه سوف يجهز على نفقة الكرسي الرسولي، ومن الممكن إيضاح ذلك على الوجه التالي:

إذا ما استمرت جزيرة كريت — بنعمة من لدى العلي القدير — تحكم نفسها، كما هو حالها اليوم، من الممكن التفاوض مع أهل البندقية حتى يتولوا نقل القمح والحبوب والحاجيات الأخرى لصالح جيش قداستكم، عن طواعية، إلى الجزيرة المذكورة، ومن هناك يجري نقلها إلى شواطىء مصر، وإذا لم يتوفر عند أهل البندقية الكميات الكافية من القمح والحبوب، فإنه من الممكن الحصول عليها من أبوليا، لتنقل منها إلى تلك الجزيرة، بالكمية التي تقررها قداستكم، ويناسب هذا أهل البندقية كثيراً، لأنهم سينقلون تلك المواد من مكان مناسب وقريب، ولاشك أنهم سيلبون هذا المطلب إذا ما عرض عليهم الأمر، علماً بأن قمح أبوليا أفضل نوعية من النوع الذي في كريت، ومنه يستخرج دقيق يعطي خبزاً أفضل، وبكمية أكبر من ذلك الذي في كريت، ومن الممكن الحصول أيضاً على كمية كافية من الخمر من تلك الجزيرة، وعلى الكثير من الجبن، وعلى عدد كبير من المواشي الصغيرة، وعلى الأخشاب وخاصة أخشاب الوقود، أيضاً على المجاذيف، وعلى عدد كبير من قرون الغزلان لاستخدامها في صناعة القسي، ويمكن عدّ هذه المواد وكأنها موجودة في مصر نفسها، لقرب موقع كريت منها، ومن جزر بحر ايجة، شرط أن لايكون الأتراك قد تقدموا من مواقعهم الحالية إليها وخربوها، فمن هذه الجزر يمكن الحصول على كمية كبيرة من الأخشاب والمجاذيف وعلى أعداد وافية من المواشي الكبيرة والصغيرة، لتحمل إلى ذلك الجيش على غرار الأخشاب والحاجيات الأخرى المجلوبة من جزيرة كريت.

وفضلاً عما تقدم يمكن الحصول من جزيرة ميلو Melo ، الواقعة أيضاً في بحر إيجة، على عدد كبير من أحجار الطواحين، فالطواحين لازمة ومفيدة جداً لخدمة ذلك الجيش، وإذا طاب لقداستكم، يمكن أن يعمد قائد الجيش المعين إلى التعامل مع الأتراك القاطنين على الشاطىء التركي، وأن يسايرهم ويتصرف معهم بصداقة، وخاصة مع ذلك القسم منهم المسيطر على الأرض الممتدة من كاندلورو Candeloro حتى ماكروم Macrum ، فيعطيهم بعض المال حتى — كما أرجو من الخالق العلي — يتركوا رجال ذلك القائد يقطعون الأشجار، ويشترون القار، وكافة أنواع المواشي لحملها إلى مصر، وعليه أيضاً التعامل مع جزيرة قبرص الخضراء، حسبما جرت العادة، حيث تتدفق منها كميات الحبوب والخمرة، والمواشي والحيوانات كبيرة وصغيرة، وأيضاً الملح، وهذا كله يمكن شحنه بالشكل المناسب إلى الجيش في مصر.

وهذه الجزر وهذه الأراضي قريبة جداً من بلاد مصر، وفضلاً عن ذلك يمكن لجزيرة نغروبونتي، ومثلها دوقية أثينا، ومقاطعة المورة أيضاً، أن تؤمن الأخشاب مع أصناف وحاجيات عديدة مناسبة للجيش المذكور، هذا ومن الممكن شراء الدقيق من بلاخيا Blachia ، ومن غيرها بوفرة، ومن ميناء أميرو Amiroومن ميناء ميثريد Mith-riade، ومن ميناء لادي Lade ، كذلك بكميات كبيرة، إذا عاد إلى سالف عهده، لأن كونت دي بريان قد دمره كلياً، أثناء تسلمه الحكم على الكتلان Catelani وكذلك يمكن الحصول على الأخشاب والحديد والحبوب وغير ذلك من المواد بكميات وافية، من الأراضي التي يحكمها الروم الذين في القسطنطينية حالياً، وليس من هناك فقط بل من مناطق البحر الكبير من جهة الشمال، فمن هذه المناطق يمكن أيضاً الحصول على القمح بكميات كبيرة، وعلى«المعجونة Sepo »، وعلى جلود البقر، وحاجيات أخرى عديدة من هذا القبيل، وكذلك من

أرض ديسبـوتي Despoti ، ومن منطقـة فـالوني Valonae ، ودوراتي Durati، وكـذلك من بلاد صربيا، فمنهـا يمكن استخراج الأخشــاب بكميـات كبيرة جداً، ولاسيما خشب السنديـان، مع مواد أخـرى كثيرة، وأعداد كبيرة من المواشي، ويمكـن أيضاً الحصول على القمح بكثـرة مع النبيـذ والزيت، واللحـوم المملحــة، والجبنة وثمار الأشجـار، من مملكة صقليـة، ومن دوقيـة أبوليا، ومـن مقاطعـة كـابوا Capua ، وكل هذه الأراضي — مـا عـدا الواقع منهـا إلى شمال البحـر المتـوسط — ليست بعيدة كثيراً عن أراضي مصر البحرية، ومن المعقول كذلك القول إنه إذا ما اتبع الترتيب المذكور لن يحتـاج الأسطول إلى عدد كبير من الغلايين، لأن الذين يسـافرون على تلك السفن، ويزورون تلك الأقـاليم يمكنهم الذهاب والإياب مـــراراً كثيرة، وأمـا الأراضي المسماة سيغنا Signa ، وغيرها من أراضي بلاد الصقــالبـة فيمكن أن تجلب منهــا الأخشـاب الكثيرة واللحـوم المملحـة، ويؤخـذ من البندقيـة — بالطبع — الحديد والخشب، خصوصاً خشب الشربين، وخشب الصنوبر، وهما من أفضل أنواع الأخشاب بالعالم، وهذا كله مفيـد جداً ومناسب للجيش المذكور، ويمكن أيضــاً الحصول مـن ماركيـا Marchia ، وأنكونا Anchona ، ودومـــانديولا Domandiolaعلى الكثير من الخمـــــرة، التي هي من الصنف الجيد.

وإذا راق لقداستكم أن يعين في المراكـز الأهم لهذه المناطق، التي هي محكومة من قبل واحد من أبنائكم المؤمنين، وكيـلاً أو وكلاء يشترون ما هو لازم ومناسب لذلك الجيش، ولتأمين حاجيـاته، فسيكون هذا مفيداً وعمليـاً، ولا يقتصر على تلـك المناطق، بل إذا ارتأى قـداستكـم حبـذا تعيين وكـلاء آخـرين في مناطـق أخـرى، إنما إذا لم تعمـد قـداستكم إلى تعيين وكلاء في تلك البلدان والمناطق، يمكن إصـدار الأوامر إلى التجار بالإبحار بأسرع ما يمكن إلى أرض مصر البحـرية، من اليوم الذي تقلع

الحملة به إلى هناك، هذا وإذا قررت قداستكم تطبيق الإجراءان معاً، أي تعيين وكلاء، وتوجيه التجار نحو مصر، فإن المشروع سوف يلاقي خدمة كبيرة، ولا شك أنه سوف ينجز بوقت أسرع، أما طريقة إيجاد وكلاء مناسبين وصالحين لهذا النوع من العمل، فهي واضحة بما فيه الكفاية ولا لبس حولها، أي : أن يعمد الذين تكلفهم قداستكم بإنجاز هذه المهمة، إلى التفتيش في الأراضي التي يسكنها مؤمنون مسيحيون، والسؤال والتحقق، والاستعانة بغيرهم للتفتيش عن رجال أمناء معروفين، وأغنياء وحكماء في آن واحد، ولديهم خبرة في هذه الشؤون، وذلك من أجل تأمين كل ما يتطلبه المشروع المذكور، أما بالنسبة للبلدان والمناطق التي يتم التعرف فيها إلى وجود رجال بالصفات المطلوبة، لابأس وقتها بإرسال عدد من الأشخاص إلى هناك، بقدر ما يراه الذين كلفتهم قداستكم، بغية القيام بما هو لازم، آخذين بعين التقدير أنه إذا كان الوكلاء صالحين — وهؤلاء يمكن العثور عليهم بعون الرب — فإن المشروع سيصل إلى الغاية المرجوة، ويجري تأمين كل ما هو مناسب وموائم.

وبالإضافة إلى جميع ما تقدم ينبغي إبلاغ تلك المناطق ما مضمونه: إن كل من يريد حمل المواد الغذائية وسوى ذلك إلى جيش قداستكم، هو آمن لدى المؤمنين جميعاً للذهاب والإياب والإقامة.

وينبغي دراسة هذا الأمر، وإصدار قرار من قداستكم يقضي بالسماح لأي كان أن يحمل من أية بلد أو مكان الأخشاب والمواد الغذائية، وغير ذلك مما يحتاجه الجيش، وينقله إلى شواطىء مصر، دون أن تفرض عليه أية أتاوة أو ضريبة في تلك الأماكن والبلدان والتجمعات البشرية، وفوق ما تقدم يحتاج الجيش على سبيل الأمان والحيطة في البقعة المعسكر فيها من أرض مصر، أن يجمع كمية كبيرة من الذرة، وأن يختزنها، وأن تصل الكمية إلى مقدار مائتي ألف جوالق من مقياس أهل

البندقية، أي ما يساوي سبع وستين ألف«سالما» من مقياس أبوليا، لأن الذرة تبقى محفوظة لمدة طويلة، ويمكن إطعام الجيش منها إذا طرأت ظروف استثنائية، ومن الممكن الحصول عليها من بلدان البحر المتوسط، وهي في مناطق الشمال أفضل منها في مناطق أخرى، والذي أراه مفيداً ومنطقياً أنه إذا ما احتاج الجيش إلى عدد من السفن فوق العدد الذي ذكرته لقداستكم، وذلك من أجل نقل المؤن، يفضل استئجار مثل هذه السفن بدلاً من استخدام السفن العائدة لبلاطكم، وسبب هذا واضح تماماً، وهو أن أصحاب السفن التجارية هم دوماً ساهرون ومتأهبون للعمل في سبيل منافعهم الشخصية، وهم يهتمون بذلك كثيراً، أكثر من اهتمامهم بالأمانة وبما يعود للمصلحة العامة للكنيسة، لذلك لا خشية — بعون يسوع المسيح — من أن يحتاج ذلك الجيش إلى السفن الضرورية، لأنه حالما ينتشر خبر الحاجة ويصل إلى مسامع التجار، حتى تراهم ينظمون سفن النقل بكفاية وسرعة من أجل تحقيق الكسب والمنفعة.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه للابحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر، وكثرة المياه فيها.

ومن المفيد أن نعرف هنا أخيراً ما سوف أقوله وأشرحه عن جودة مناخ مصر: من حيث المبدأ، على الذي يريد الذهاب إلى الشواطىء المصرية سواء من الغرب أو من الجزر اليونانية، عليه أن يرسو في جزيرة كريت، طبعاً عند رأسها الشرقي، وهناك يُعطى شارة الصليب المميزة، لكي يقلع نحو مصر عندما تكون الرياح شمالية وشرقية.

وبسبب التيارات التي تتدافع نحو الغرب في تلك المناطق، يلزم هناك التوجه إلى وسط مجرى الريح، والسير بوضع مقدمة السفينة باتجاه الشرق مقدار الربع من الريح الشرقية، وبعد ذلك من وسط مجرى

الريح حتى الاسكندرية مع الريح بخط مستقيم، ويقدر هذا العبور مع مجرى الريح بأربعمائة وخمسين ميلاً، وهناك من يؤكد أن هذا العبور مع مجرى الريح يبلغ خمسمائة ميل، وبما أن جزيرة كريت تتمتع بمناخ جيد، لكن كثيراً ما يتفاجأ الذين يعبرون من هناك بحراً أنهم كلما اقتربوا من مصر أن المناخ يتحسن ويتبدل ويغدو صافياً ونقياً، وتبدو زرقة السماء، علماً بأن مصر البحرية تسقط فيها الأمطار باعتدال كبير، لكن بكفاية، إنما كلما مضيت في داخل مصر نحو القاهرة والقلعة وماوراءها نحو الصعيد، هناك لا تسقط الأمطار إلاّ بالنادر، وإذا سقطت لا تكاد تبلل الأرض ، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بكل تأكيد، أن مناخ مصر، بسبب هذه المواصفات هو مناخ جيد، لا بل ممتاز، ويمكن البرهنة على هذا من خلال الأعلاف، فإنها إذا ما حملت إلى مصر، وقد أصيبت بالعفونة، أو بدأت تتلف، تصح وتستعيد جودتها، نتيجة لجودة ذلك الهواء، وجدير بالتنويه أن المياه غزيرة بمصر، وهي من أفضل مياه العالم، وخير ما فيها أنها خفيفة تساعد على الهضم.

ولذلك لا يجوز مطلقاً التراجع عن هذا المشروع، بل يلزم إنجاز كل ما يمكن عمله، حتى تتحقق آمال جميع من يسعون في سبيل مجد الرب وكنيسته، ولكي يتمتعوا بتلك الأرض بسلام وأمن.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم حتى يتحقق هذا المشروع.

فيمايلي الشروط المطلوب توفرها بالرجال الذين ستتعاقد الكنيسة معهم لقاء عطاء ثابت:

أن يكون كل قبطان وكل مسؤول من الذين يتقنون قيادة السفن والابحار بها في المياه المالحة وفي المياه العذبة، وأن يكون قادراً على تأمين

العـدد الكافي من المجذفين، لأنه كثيراً مـا ينقص هذا النوع من العناصر في سفن الجيش، وتتعرض السفن للمخاطـر بسبب ما يطرأ من حوادث تهدد أولئك الرجال، وتقـود إلى النقص في تعداد المجـذفين، ويلزم أيضاً وجود كتّاب يتولون شـؤون السجلات، وتوزيع المواد الغذائية، وتسليم الأسلحـة، وباقي اللوازم يوميـاً، وهناك حـاجـة أيضـاً إلى نجـارين للأخشاب بعدد كبير، وأن يكون معهم عدد كبير من المعلمين الحرفيين، يحسنون الحرف المتعـددة، وأن يكون هناك أيضـاً أكبر عـدد ممكن من المرممين والمنظفين والعاملين بـالمعجونة والطلاء، لإعـداد كل ما تحتـاجه السفن في كل وقت.

وبعـد هذا أعرض على قـداستكم ثبتاً سريعـاً بأنواع الباقين المحتـاج إليهم:

يحتـاج ذلك الجيش إلى نجـارين وإلى حـدادين يكونون قـادرين على إنجـاز جميع أعمال الحدادة والنجارة التي يتطلبهـا الجيش، وهناك أيضـاً حـاجة إلى معلمين لمختلف الحرف ممـا بإمكانه تقديـم المساعـدة للسفن ولطواقمهـا، أما البـاقون من القـوم الذين هم رجالة، فيجب أن يؤخـذ منهم رماة وحملة رماح قادرون على قتـال الأعداء ببسالةسواء على وجه الماء أو على وجــه الأرض، وأن يدحـروا أعــداء الايمان المسيحي بكل رجــولـة، ولدعم هذا المشروع، وتـوفير سبل النجــاح كما ينبغـي، من المناسب أن يرافق الأسطول أسـاقفة، ورهبان وعـاظ من رهبنة النساك، ومن رهبنـة الكرمـل، وغيرهم من الأكليروس العلماني حتـى يتــــولوا تعليم رجال ذلك الجيش الديانة والأخلاق القويمة، ولكي يقدموا لكل محتـاج أسرار الكنيسـة المقـدسـة، وذلك في سبيل مجد الرب، وفي سبيل العبادة الحقة في كنيسته.

الفصل السـادس عشر: حـول شكل تبـديل عناصر الجيش وطريقـة ذلك، وحـول المشـافي للمـرضى، وكيـف ينبغي تأمين كل شيء سلفـاً،

وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرامل والورثة، وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

فضلاً عما تقدم، يتوجب تأمين العطاء الشهري لجيش الكنيسة الذي سوف يغادر من مناطق الغرب وجهاته، دون أي نقصان، وذلك إلى جميع الرجال والمقاتلين، مهما كانت ظروفهم أو أوضاعهم، حسبما جاء في الفصل المتقدم، وكلما طلبوا أن يدفع لهم، وكذلك إلى الذين سوف يرسلون إلى ذلك الجيش مع الغلايين غير المسلحة، وذلك بأقصى ما يمكن من سرعة، ودونما إبطاء.

والسبب هو أنه في الجيوش البحرية، يهلك بالعادة قوم كثيرون، إما بسبب الحوادث المألوفة في الحرب، وإما بسبب حوادث الغرق التي كثيراً ما تحدث في المياه، وإما أيضاً بسبب تكبد مشاق لا تطاق، يتحملونها ليلاً ونهاراً، ولذلك تنهار قواهم ويقهرهم المرض، ولهذا إن التأخير في دفع المستحقات لا يرضي بعض هؤلاء القوم، كذلك إن ذلك قد يساعد على تعويض النقص في أعداد الجند المسيحي، وعلى تجديد الجيش، وهذه طريقة ناجعة، لا تحتاج إلى نفقات عالية.

ثم إن ما يعطى للمأجورين من أعطيات وأطعمة، هو وسيلة لهم لمتابعة حياتهم بأمان وكرامة، وليتمكنوا بنفسية غير قلقة من الخضوع لأوامر الكنيسة الرومانية المقدسة، ولتعليمات قائد الجيش، ونخص هنا بالذكر قباطنة السفن والملاحين، والمكلفين بتوزيع الأغذية، حتى لا يتوفر أمامهم مجال — بسبب منفعة ما — لإلحاق الأذى، أو لإنزال أي ضرر بجمهور الجيش المذكور، لكن إذا ما تجرأ واحد من أولئك القباطنة، أو الملاحين، أو المسؤولين عن توزيع الأطعمة، وأقدم على اختلاس أو احتكار شيء من الأطعمة أو الأعطيات، فليعاقب بشدة، حتى يكون عبرة لغيره، لأن هؤلاء يتقاضون أجوراً عالية.

ويتلاشى بهذه الـوسيلة شر الذين يختلسون أو يغشـون، أو يطمعون بما هو لغيرهم، ويتم ضمان حق الضعفاء، وبذلك يبقى الجيش بدون أية مشـــاكل طيلة المدة التي تقـــررها قـداستكـم، هذا وينبغي أن لا تكون أعطيـات رجال ذلك الجيش، والمبـالغ التي تسلم إلى الموزعين، أدنى مما يتقاضاه الذين يتعاقـدون لقاء أجر مع سفن أهل البندقية، حسبما أوردنا في الفصل العاشر من هذا القسم، وفضـلاً عما تقدم إنه ضروري ومفيد تخصيص أول بيـت يقيمـــه الجيش على الأرض، ليكـون مشفى، أي أن يعد لاستقبـال المرضى، حيث يقدم لهم كل مـا يلزم لخلاص أرواحهم، ولشفاء أجسادهم.

وبالنسبة للنساء اللائي سوف يكن مع الجيش بحكم ارتباطهن بعقود زواج مع رجالهن. فإنهن يـأخذن رواتب أطعمة مثل الرجـال، وكل من يحدث ويموت زوجها، يغدو وضعهـا القانوني وضع المترملات، وعليها أن تحافظ على العفة، وتستمر في أخذ راتبها من الطعام، ولا يجوز مطلقاً أن يقطع عنها الطعام والزاد.

وإذا حدث وانهارت قوى واحد من عناصر الجيش، بسبب مرض أو غير ذلك، فيتوجب إبقاء أجره كما هو حسب العطاء الذي كان يتقاضاه وهو معـافى، مع الانتباه دومـاً لعـدم ارتكاب أي غش أو خديعـة، لأن رجالاً كثيرين يتهـربون من المخاطـر، ويتجنبون الأعمال الشاقـة، لذلك ينبغي التنبه لهذا حتى يسير كل شيء بشكل منطقي حسب ما يرام .

وبالنسبة إلى الذين فقـدوا حياة الجسد، وعند أحـدهم زوجة وأولاد، فإن كل متطلبـات الحيـاة، وكل مـا كـان يقـدم له أثناء خـدمتـه، فيبقى ساري المفعول ويقدمـه المكلفون بالتوزيع لتلك الزوجة وللأولاد حتى يتمكنوا من العيش، وذلك إلى أن يصل الأولاد إلى سن الرشد.

لكن في حـــال وفـاة الأم، على المســؤولين عن تنظيم الجيش قبـــول

الأولاد ووضعهم في مكان يمكنهم فيه تلقي التربية الصالحة والتعليم والتدريب على الأخلاق القويمة، وذلك حسبما يقتضي النظام الطبيعي، أي إلى أن يصل الصغار إلى سن الفتوة، ويجتازوا سن المراهقة، وإلى أن يستحقوا بعلمهم وفضيلتهم وأعمالهم تدبر شؤون حياتهم بالشكل المرضي، وطبعاً يستمرون خلال ذلك كله بتسلم النفقات والمصاريف حسبما ورد أعلاه.

وهذا كله يجعلني أتكل على الرب، الذي بيده الخلاص الحقيقي للذين يؤمنون به ويتكلون عليه، وهو بحلمه، سيتكرم — بالنظر إلى فضائلكم — فينير قداستكم بنور الحقيقة يوماً فيوماً، من الآن وإلى اليوم الذي سوف تتحقق فيه أمور الأرض المقدسة بنجاح وغبطة.

الفصل السابع عشر: حول المناطق والأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة، مثلما في البحار.

لا شك أيها الأب الأقدس أن يسأل بعضهم، أو يتمنون السؤال: من أين يمكن العثور على مثل هذا العدد الكبير من البحارة للملاحة في المياه العذبة وكذلك في المياه المالحة، وأن يكونوا بالوقت نفسه صالحين لحمل السلاح، وجاهزين للقتال ببسالة على الأرض وعلى وجه الماء؟ وعلى هذا السؤال يمكن أن نجيب بإيجاز:

ليس مهماً من أي مكان أو من أية جهة قدم الذين يريدون الالتحاق بالجيش الذي تولت قداستكم حشده، المهم أن يكونوا صالحين، لديهم أهلية الملاحة فوق مياه البحار، وأن يكونوا قد جاءوا من مناطق مسيحية، وتمّ التعاقد معهم على أجر، ولقيادة السفن والاتجاه بها إلى حيث يناسب سوف نجد أعداداً وافرة من الرجال القادرين على الملاحة في البحار، أي في المياه المالحة.

وفيما يتعلق بالملاحين الذين برعوا بالملاحة في المياه العذبة، فيطيب لي

أن أعرض على قداستكم وأن أبين بتواضع: إنه من الممكن التجول فوق سطح المياه العذبةوالمالحة بواسطة المراكب من البحر الأدرياتيكي، وخلال مناطق كثيرة من فاروجولي ومن ماركيا تروزينيا - Marchia Teruisina ومن مناطق كثيرة من لومبارديا، بل منها جميعاً تقريباً، ومن رومانديولا Romandiola ،ومن جهة أخرى لتتلطف قداستكم وتعيد إلى ذاكرتها أنه يوجد في المناطق والأماكن المذكورة، وفي أحوازها بحيرات كبيرة وصغيرة عديدة، نخص بالذكر منها: بحيرة بيناكوس -Bi nacus ، التي ينحدر منها نهر مانزوم Manzum ، ومن هذا النهر تتكون بحيرة مانتوا Mantuae ، والبحيرة المدعوة بحيرة ليزوس Liseus ، وهي في مقاطعة أسقف بركسيا Brixia ، ثم بحيرة مرغوتي Mergoty ، أو بحيرة ماريودكتوس Mariodictus ، بسبب اتساع حجمها، وبحيرة كومي Comi وبحيرة لوغام Logam ، وهناك أيضاً فيما وراء الألب بحيرة لوسيرا Lucera ، وبحيرة كوستانتيا Costantiae ، التي بسبب اتساعها سماها المحيطون بها البحر الألماني، وتوجد أيضاً في برغنديا بحيرة لوزان، وهناك أيضاً بحيرات أخرى كبيرة وصغيرة يعيش على ضفافها أناس هم بحارة صالحون، ورجال حرب شجعان، بواسل في القتال، والبحارة الذين يسكنون في هذه المناطق، أعدادهم كبيرة جداً، ومن المؤكد أنه يتوفر بينهم العدد المرغوب لا بل أكثر من المرغوب، ممن معدّ للملاحة في المياه العذبة وفي المياه المالحة، وهم أيضاً مدربون على السلاح، ووجدانهم المسلكي جيد، ومع توفر الأعدادا المطلوبة في المناطق التي ذكرنا أنها تكثر فيها البحيرات، هناك مناطق مسيحية أخرى توجد بها أنهار ومستنقعات، وبحيرات كبيرة وصغيرة، ولا سيما في جهات الشمال حيث هناك أمم متعددة متنوعة، رجالها يتقنون الملاحة في المياه العذبة، من الممكن لقداستكم توجيههم إلى مصر، ليحققوا بعون يسوع المسيح ذلك المشروع الذي تتطلع إليه المسيحية جمعاء.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الاسهام في إنجاح الحملة.

مع أنني سمحت لنفسي من قبل أن أذكر لقداستكم أشياء كثيرة عن الرجال الذين يصلحون لحمل السلاح، والذين هم شجعان ولديهم خبرة في الملاحة في المياه العذبة والمياه المالحة، تراني الآن أقدم على سبيل التذكرة بعض الاضافات لعلها تكون ذات فائدة ومنفعة للمشروع، أو أنها فاتتني ولم أذكرها فيما تقدم أعلاه، والذي أريد استدراكه وقوله هو: إنه يوجد في أقاليم ألمانيا أمم متعددة تسكن هناك، قد تكون نافعة جداً، لا بل ضرورية لتدعيم مشروع العبور إلى مصر، وأخص بالذكر سكان ترمارتي Tremarty، الذين يسكنون في الأطراف البحرية من أسقفية برمان Bremen ، ومثل هؤلاء الفريزيون الذين يسكنون الناحية السفلى من وستفاليا قرب البحر، وهناك أيضاً شعوب في مناطق دولاندا Dulanda وسيلاندا Sylanda ، يسكنون في الناحية السفلى من جهة البحر في إمارة غيلارا Gellera وغلوا Gleuae حيث من المفترض أن يكون هؤلاء القوم صالحين للمشروع ومفيدين كونهم لديهم مساكن في الجزر وعلى شواطىء البحر، وكذلك منهم من يقطن على ضفاف أنهار كبيرة، تمر عبر أقاليمهم وأراضيهم، ولذلك يفترض بهم إتقان الملاحة في المياه المالحة والعذبة على السواء، وهكذا نجد عندهم النصائح السديدة والعون الأفضل، وأيضاً هناك غيرهم في هولساتيا Holsatia ، وسكلويا Sclaiua ، إلى حيث ذهبت شخصياً، ومازال هناك مناطق كثيرة شهيرة، إليها يتوافد الكثير من الناس،حيث يبنون مساكن ممتازة على ضفاف الأنهر، وشواطىء البحيرات مثل: أمبورغ Amburg ولوبيك Lubek ، وفيزمار Visimar ، وروستوك Rostoc ، واكسوندس Xundis وغوسنبال Guspinal ،

وسكتن Sectin، ومن الممكن أخذ أعـداد كبيرة من الناس الجديرين من هناك، وفي الحقيقـة ليس من هناك فقط، لابل من داشيـا، وسـويتيـا Suetia، ونورويا Norueia، حيث هناك الكثير من المسـاكن المقـامـة على شاطىء البحر، أو في الجزر، وفيها أعداد كبيرة من البحارة الأشداء البـواسل، ولايسـاورني شك أنهم جميعـاً يصلحـون لمشروعنا العظيم، وفضـلاً عن هذا كله هناك أيضـاً في تلك المناطق أقـاليم وبقـاع أخـرى كثيرة لم يتسع المجال هنا لذكرها بالتفصيل.

لذلك أغبط قـداستكم وأنصحكم، بكل مـا أمتلك من الاحترام، أن يجري التعـاقـد مع بعض هؤلاء القـوم، لكـن ليس معهم فقط وإنما مع غيرهم من أمثـالهم من مختلف المنـاطق المسيحيـة، أي من حيث يتـوفـر وجـودهم بعـدد وافر، ويـرسلون بعد التعـاقـد للعمل في سبيل إنجـاز مشروع مصر مع ذلك الجيـش، ويسهمـون بتقـديم النصـائح الطيبـة والصائبة، ولدي معلومات أكيـدة تفيد بوجود أعداد كبيرة من الملاحين الكاثوليك يسكنون على الشـواطىء من جهـة البحـر المحيط ومن جهـة البحـر المتـوسط، ذلك أنني عندمـا كنت أكتب هذا الفصل، وصل عبر البحر من البندقيـة إلى ميناء كلوزا Clusa في فلاندرز غـلايين، وقد عرفت منها عبر مصادر موثقة، كما أنني شاهدت بأم نفسي أن شواطىء ألمانيـا حيث يقع الميناء المذكـور شبيهـة جـداً بشـواطئنا في البندقيـة، ووجدت أن سكان تلك الأرض يمكن عدهم أشـداء جداً وشجعاناً في استخدام السـلاح، وأكثرهم من البحـارة، والباقون فـلاحون ملتـزمون بفلاحة الأرض وزراعتها، والبحـارة مهرة ومؤهلون للعمل، ومن جهة أخـرى أحـوالهم المادية جيـدة، وهذا مستسحن، ويمكنهم أن يتجـاوبوا بدافع من التقـوى كبير لدعم مشروع الأرض المقدسـة، وأعتقد أنهم إذا اتفقوا مع أهالي البندقية على احتـلال بلاد مصر، فإن ذلك سوف يكون رائعاً، مثلما حـدث في حملة صليبية تقدمت، عندما جـرى الاستيلاء على

القسطنطينيـة على يد كـونت فـلاندرز، وغيره من بارونات فـرنسـا وبيرغندي، مع عـدد من النبلاء، والمركيـز دي مـونتفرات، وكـان ذلك بمعونـة البنادقة، وقـد عقدت وقتذاك أواصر صـداقة متينة بين كـونت فلاندرز والبـارونات والنبلاء من جهـة وأهل البندقية من جهـة أخرى، ولم يكن ذلك بلا فـائـدة، لأنه بعـد الاستيلاء على القسطنطينيـة، وبعـد وفاة ذلك الكونت، وعلى الرغم من تـوالي الحكام من بعده فإنه لما انتقل حكم القسطنطينيـة أخيراً إلى السيد بلـدوين، الذي كان مـايزال يافعـاً، عقدت معاهدة جرى توثيقها بالأيمان، بموجبها انتقلت السلطة إليه من ابنة الامبراطور إكـزاغوراروس Exagoravus، وكان هذا الامبراطور في ذلك الحين رجلاً غنياً جداً وقوياً، فقد خطبت ابنته الى ذلك الشاب، وبهذه الخطبـة عظم شأن بلدوين وترسخت سلطته وتمتنت، وكـان هذا الامبراطور قـد قطع عهداً لبلدوين أنـه سيستعيد له كل أراضي بيـزنطة على حسـابه وبوسـاطة رجـالـه، وهي الأراضي التي كـان أسـلافـه قـد خسروها في المناطق الغـربيـة، ووقتهـا خشي البـارونـات من أن يقـوم بلدوين،بعـد أن يرسـخ سلطانه فينقلب عليهم بسبـب الإهانة الكبرى التي اقترفوهـا بحق سلفه، فتآمـروا ضده، ونصحـوه بأن يرفض الزواج من ابنة الامبراطور، وأن يتزوج من ابنة جين ملك القـدس وقتذاك، ولم يتنبـه بلدوين إلى هذه الخديعـة الماكـرة، فتعـرف إلى تلك الابنة، وأخـذ بتلك النصيحـة دون أن يستشير أحـداً، وبعـد ذلـك توجـه البـارونات وأجلسوه على عرش القسطنطينية، فـانزعج الامبراطور إكزا غوراروس كثيرا مما حدث وغضـب، فزوج ابنته إلى ملك الروم الذيـن هم في جهة الشرق، وبناء عليه تم التحـالف بين الاثنين ضد بلدوين وضـد البنادقة براً وبحـراً، وتقـدمت جيـوشهما ضـد بلدوين وضـد أهل البنـدقيـة، واستولت هذه الجيوش على مدنهم وعلى جميـع حصونهم تقريباً، ولم يبق لهم سـوى حصون القسطنطينيـة، ونكلوا به بمختلف الطرق لمدة طويلة بشتى السبل، حتى قـام أعيـان القسطنطينية ضـده وأرغمـوه على تسليم

ابنه فيليب ورهنه مقابل مبلغ محدد من المال، ولكي يحفظ بضمانة أكبر أرسلوه فيما بعد إلى البندقية، واضطر بلدوين إلى تجريد بعض قصوره التي كانت مغطاة بالرصاص منذ زمن بعيد، كما أنه أرغم على القيام بأعمال غيرها لاتتناسب مع كرامته كامبراطور، وذلك في سبيل أن يعيش.

أما أهل البندقية، فإنهم طيلة الوقت الذي رزح فيه الامبراطور بلدوين تحت نير الفقر، وتعرض فيه أيضاً لهجمات الاعداء فقد دافعوا عن القسطنطينية على نفقتهم، وكان ذلك خدمة لمصالحهم من جهة، ومن جهة ثانية لصداقته، واستمر ذلك حتى خسروا تلك المدينة، وعمل أهل البندقية بعد سقوط القسطنطينية. بإخلاص لمدة ثلاثين سنة وأكثر، في سبيل استرجاعها، واستنجدوا لتحقيق ذلك بجميع ملوك بلدان الغرب وحكامها تقريباً، وخاصة بألفونسو ملك قشتالة، لكنهم لم يحصلوا منه على أي تنفيذ، وتحالفوا أخيراً من أجل هذا الغرض وتعاقدوا مع شارل الأول ملك صقلية، الذي لم يتمكن من تلبية طلبهم بسبب خسارته لصقلية، ثم كان أن تحالفوا مع شارل دي فاليوس، حيث كان مرشحاً لتولي الامبراطورية بعد موت زوجته، إنما هنا كانت المحصلة أيضاً ضئيلة أو شبه منعدمة، ومع هذا استمر أهل البندقية لوحدهم أحيانا وأحيانا أخرى مع حلفائهم يحاولون استرداد الامبراطورية من البيزنطيين ويشنون ضدهم الحملات المتوالية.

ويتضح من جميع ما تقدم مدى أواصر الحب الوثيق ما بين التيوتون (الالمان) والفرنجة من جانب وبين أهل البندقية من جانب آخر، فهم شاركوا من قبل في تلك الحملة الصليبية، ولذلك من الموائم قدوم أهل المناطق الالمانية المشار إليها إلى البندقية، ومن هناك يعبروا مع البنادقة، وإذا أرادت شعوب أخرى أن تصنع صنيعاً طيباً، فما عليها سوى التفاهم مع الألمان وأهل البندقية، ومن ثم الانتقال بوساطة غلايين أهل

البندقية، وسيكـون هذا مفيداً لرجال هذه الشعـوب، علماً بأنهم يمكنهم أن يتركـوا نساءهم وأولادهم في البنـدقية، لكن أجـد من الضروري أن أبين إحـدى سمات ذلـك الشعب الالماني حتى يمكن التعـامـل معـه بسـلامة، فـالالمان شـديدوا التضـامن فيما بينهم، لأنهم ولدوا في مناطق باردة، لهذا يتـوجب أخـذ الحيطة واعتماد اليقظة، أنهم إذا مـا انتقلوا إلى منطقـة حارة، أن يقـومـوا بسبب عظيم تقـواهم، وبسبب إرادتهم في أن يرتحلوا ويبحـروا على شكل جماعـات كبيرة، فيثـور فيهم حب السيطرة والطمع، وقـد ينجم عن هـذا نتـائـج غير محمـودة وتكـون هناك بلبلة كبيرة، لاسيما أن أهل البندقية يريدون أن يكونوا معهم شركاء لا أسياد، ويستطيع القائـد العام— بنعمـة من الرب— لكونه مستقيماً وحكيماً أن يتخذ ما يلزم من تدابير، وأن يوجد العلاج المناسب لهذه المسألة.

وكنت لا أريـد في الوقـت الحاضر ايضـــاح حكايـة الإهانـة التي حصلت، ولاسببها، إذ لا دخل لها بهذا الموضـوع، لكن عددت ضرب هذا المثل يمكن أن يفيـد في المستقبل، لذلك حكيتـه على حـاشيـة هذا الكتاب وهامشه:

كان في امبراطورية القسطنطينية بارون كبير وشريف من سلالة أمراء بيرغندي، وكـان قد خطب سيـدة شريفة من أسرة كبيرة، وكـانت على قسط كبير من الجمال، وقـد وعـدها بالاقتران بها، وكـان امبراطور القسطنطينيـة، المدعـو هنري، وهو أخ كبير لبلـدوين، لما رأى جمالها، ولأنها كانت جـذابة في نظر الجميع، قد اتفق مع أمهـا على تزويجه إياها، وفضلت الأم — بدافع مـن عـاطفـة الأمـومـة — أن يكون صهـرها امبراطوراً على أن يكون باروناً، وهكذا نفـذت رغبـة الامبراطور، وقـد أثار هذا حفيظة البارون، فأقـدم ليلاً مع أقربائـه وأصدقائـه على اقتحام القصر عنوة، وقبض على الامبراطور الصهـر وأغـرقـه في البحـر، وترك بذلك عـرش الامبراطور ية شـاغـراً، وهكذا أصبحت نار صغيرة ناراً

عظيمـة، ولهذا عندما مـات هنري لم يجر أي انتقـام لهذا العمل الرهيب، وورث بلدوين عرش الامبراطـورية، ولم ينل البارونات الذين شـاركوا في العمليـة العقـاب، مع أنهم استحقـوا ذلك، وجـرت فيها بعـد مفاوضات، سوف نأتي على ذكرها في سياق هذا الكتاب.

الفصل التـاسع عشر: حـول التبشير من أجل حملـة صليبيـة عـامـة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

بعد أن يكون الجيش الممول من قبل الكنيسة المقدسة، قد احتل أرضاً على شواطىء مصر، وبعـد أن يكون شيد بعض المسـاكن، واتبع المنهاج والأسلوب الذي ذكـرناه من قبل، يحتـاج هذا الجيش إلى الدفـاع عن وجوده، وأن يؤمن لنفسه المواد الغذائيـة والسفن وكل ما سوى ذلك مما يحتاجـه المسلحون لأنفسهم، ولبـاقي الحشود التي ستلحق بهم لتمـدهم بالدعم، وفي هذه الحقبـة من الزمن يمكن لقـداستكم الاعـلان في أثناء احتفـال رسمي كبير عن الـدعـوة إلى حملة صليبيـة، وأن ينادى بهذه الدعـوة في جميع أنحـاء العـالم بين أتبـاع المسيح كـافـة وفي هذه الأثناء سيكون — إذا وافقت قـداستكم — مفيـداً أن تترافق الدعـوة لحمل الصليب بأساليب صالحة وبطرائق عمليـة للاسراع بجباية الأموال دونما إبطاء، سـواء من الأمراء أو مـن البارونات، أو من جماعـات المدن، وأن يفرض الدفع أيضاً على الجميع بلا استثناء، وخاصة على الذين استثمروا أو ما زالوا يستثمرون أوقاف الكنيسـة، سواء أكانوا من رجال الدين أو من العلمانيين، وذلك بهدف إنجاز هذا المشروع المقدس.

وسبب هذا واضح، فإذا كـان على الصليبيين العبـور — كما قلنا — إلى شـاطىء مصر، فإن الذي قـد صرف على العبـور المتقـدم لن يكون كـافيـاً، ويلـزم لهذا العبـور عـدداً كبيراً من أرباب السفن ومـلاحيهـا، يكونون قادرين على قيـادة السفن والابحار بها،بعضهم في الميـاه العذبة، وبعضهم الآخـر في الميـاه المالحة، ويحتـاج هذا الأسطول أيضـاً إلى عمال

تجذيف بعـــدد كبير، ذلك أن عمل التجـذيف مهمـــة شـاقـــة، يتحمل المجذفون من جرائها متاعب لا تطاق، ولذلك لا يؤخذ لمثل هذا العمل الذي لا يطاق، إلاّ من كان منتخباً ومختاراً، شريطة أن يؤمن له بالتمام ما يرضيه من أجرة.

ويفترض توفر رماة قسي عقارة صـالحون وبعدد كبير جداً، علماً بأن الفوارق بين القسي العقـارة والرماة العاديين كبير جـداً، فإن رماة القسي العقـارة يشـدون القوس بقـوة، ويرمـون نشـابهم إلى مسافـات بعيـدة، ويسـددون ضربات شـــديدة، تنقض كـالعـاصفـــة ويصيبـون أهدافهم بجـراحة أو يقتلونها، ونادراً مـا تذهب رمـاياتهم عبثاً، وتلقي رشقـاتهم الرعب والهلع في قلوب أعـدائهم، وعلى عكسهم الرمـاة الخاملون وغير المدربين، تراهم غير قـادرين على شـد أوتار قسيهم القـوية، ويضيعـون السهـام سـدى، وإذا قـدر لهم الرمـاية تأتي رمـاياتهم ضعيفـة، مما يجعل خصومهم يزدادون جرأة، ويتشجعـون وينقضون على مثل هؤلاء بإقدام كبير، ومن الممكن أن نقـول القول نفسـه عن حاملي الرمـاح والحراب، وكما تقـدم وقلنا يحتاج ذلك الجيـش إلى عدد كبير ممن يصنعـون القسي، ومن المعلمين المهنيين، ومثل هذه العناصر لايمكن الحصـول عليهـا من دون بذل للمال، كـونهم أناس فقراء، وينبغي التنبـه إلى عدم التعاقـد مع مثل هؤلاء، حتى وإن طلبـوا ذلك، إذا ما انخـرطوا في جيش الصليبيين بسبب الفقر والفاقة، وإذا جـرى التعاقد مع هؤلاء فليكونوا الأقلية بين من يحتاجهم الجيش، هذا وهنـاك حاجة مـاسة للتعاقـد مع جماعات من الذين يعرفون جيداً أساليب حفر الأرض، أما بشأن الفرسان فأنا أعتقد — بعد التمعن — أن العدد الأكبر منهم سيكون من النبلاء والأشراف الجديرين بحمل رايـة الصليب، وبالالتحـاق بالجيش المذكـــور، وبدعم مهمتـه، ومنطقيـاً لا يمكن بالطبع إصـدار الأوامـــر إلى هؤلاء من قبل المسؤولين عن الجيش بـالطريقة نفسها فيما لو كـانوا يتقاضـون أجورهم

من أموال الكنيسة، ولا ينطبق هذا على هؤلاء النبلاء فقط، بل على من هم من الطبقة الشعبية أيضاً، بما أنهم تطوعوا بمطلق إرادتهم للحاق براية الصليب، فهؤلاء يتمتعون بالحرية في ذهابهم وإيابهم، وأقول هنا بكل احترام، مذكراً قداستكم وتقواكم أن من أراد أن يحمل الصليب ويبحر على نفقته الخاصة، ثم أبحر مع جيش الكنيسة، عليه برأيي أن يعطي إلى الكنيسة المبلغ الذي كان عليه أن ينفقه، أو أن يعطيه لمن جرى تكليفه من قبل الكنيسة لجمع ما يلزم من مال للأجور وللأعطيات، وأن يمنح مقابل ذلك صك غفران حسبما ترتئي قداستكم منحه في مثل هذه الظروف.

وفي العادة يصغي العساكر إلى الأوامر الصادرة إليهم من القائد ويطيعونها، أكثر مما لوكانوا متطوعين صليبيين، وإذا كان القائد صاحب فطنة — وهذا هو المطلوب — وإذا كان حسن الارادة، وكانت العناصر المعهود إليه بقيادتها مطيعة، فسيكون ضرباً من المستحيل أن تخفق نيته وتحبط مقاصده، وإذا حدث أن من معه أو بعضاً منهم لم يؤدوا الطاعة له بسهولة، وقتها تتحول عدم الطاعة إلى كارثة كبيرة، ينجم عنها خطر جسيم، فلتتدبر عنايتكم هذا الأمر حسبما ترونه مناسباً.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال وأعمالهم، والمرتبات، والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس، وأجورهم.

يلزم لتجهيز مناسب لغليون واحد مائتين وخمسين عنصراً، يتقاضون الأعطيات، ويكونوا موزعين من أجل تنفيذ هذه المهمة كما سأذكر:

أولاً : يحتاج كل غليون إلى قبطان واحد، راتبه الشهري المعقول خمسة عشر سولدي كبار.

ثانياً: يحتاج إلى ثمانية ملاحين الراتب الشهري لكل منهم سبعة سولديات كبار أي ما يساوي ستين كروسي Grossi كبار(قطع فضية كبار).

ثالثاً : من المناسب تماماً أن يكون في كل غليون نجار واحد، وعامل طلاء ومعجنة، لكن لحسن سير الأوضاع في الغلايين يفضل أن يكون في كل منها نجارين وعاملي طلاء ومعجنة، ويكون راتب هؤلاء شهرياً ثلاثين كروسي كبار من عملة البندقية.

رابعاً: من المستحسن أن يكون في كل غليون اثنان من الكتاب، يتوليان توزيع الطعام على جميع من في الغليون وذلك في الزمان والمكان المحددان، واثنان غيرهما أيضاً من الكتاب يتوليان حراسة الأسلحة وتوزيعها على كل عنصر من العناصر، ويكون الراتب الشهري لكل واحد من هؤلاء سبعة سولدي ونصف السولدي كبار، أي ما مجموعه ثلاثون سولدي كبار شهرياً، ولا يجوز لجميع هؤلاء، أي القبطان، والبحارة، والكتاب والنجارون وعمال الطلاء والمعجنة، المطالبة بأية علاوة غير أجورهم، لا شخصياً ولا عن طريق غيرهم، أو بفرض أية أتاوة مهما كانت الطرائق أو المسوغات، والمفترض تطبيق شرط الاكتفاء بالراتب، وذلك تحت طائلة الاقتصاص من أموالهم ومنهم شخصياً.

خامساً : من الموائم أن يكون في كل غليون طباخ واحد، براتب شهري مقداره أربعة سولديات كبار، ليعد الطعام إلى كل من على الغليون الذي يكون فيه.

سادساً: ينبغي أن يكون على كل غليون خمسون من رماة القسي العقارة، براتب شهري للواحد منهم خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه شهرياً مائتين وخمسين سولدي كبار، وأن يكون هناك أربعة ينفخون بالأبواق والنفر والمزامير، ويحسنون الضرب على النقارة والطبل

والكوسات، وأن يكـون هناك أيضاً رجل آخر يتكفل بضبـط المجاذيف وإصلاحها.

سـابعـاً: من المستحسن أن يكون هناك أيضـاً عشرة مجذفين سريعين عند مقدمة كل غليون، براتب شهـري مقداره ستة سولديات كبار لكل واحد منهم، أي ما مجوعه ستين سولدي كبار.

ثامناً: من المناسب أن يكون هنـاك عشرين مجذفـاً سريعـاً للتجـذيف وهـم جـالسون على المقـاعـد التي في مقدمـة الغليـون، إذا توفر المجـال هناك، ولكل واحـد منهم راتب شهري مقـداره خمسة سولديـات كبار، أي ما مجموعه مائة سولدي كبار.

تاسعـاً: أن يكون هناك ثلاثين مجذفـاً من الأشـداء أيضـاً، لكل منهم راتب شهري مقداره خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه مائة وخمسين سولدي كبار من عملة البندقية.

عاشراً: أن يكون هناك أيضاً مائة وعشرين مجذفاً، براتب شهري لكل واحد منهم قـدره أربعة سولديات كبـار أي ما مجموعـه أربعمائة وثمانين سـولدي كبـار، وهكذا يغـدو الجميع على العمـوم، ملزمـون جميعـاً بالتجذيف عندما تصدر الأوامر إليهم بذلك، ومن المناسب تجهيز واحد من بين الغلايين بنظام التجذيف الثلاثي.

حادي عشر: من المفيـد اكتراء رجلين مقـابل راتب شهـري مقـداره عشرة سولديات كبار ونصف السولـدي، تكون مهمتها القيام بتنفيذ أية مهمة يرتئيهـا القائـد أو القبطان في الغليون، ومـا يراه مفيداً أو ضرورياً لصـالح الجيـش، وهكذا يكون مجمـوع الرجـال اللازمين على متن كل غليـون مائتين وخمسين رجـلاً، وكما قلنا من قبل تبلغ رواتبهم الشهـرية سبعين ليبرة كبـار من عملة البندقيـة، ويكون بذلك مجمـوع الرواتب لاثني عشر شهراً لكل غليون حسبمايلي:

يتقاضى القبطان تسع ليبرات كبار، ويلزم للملاحين الثمانية ست وثلاثين ليبرة، وللكتاب الأربعة ثمان عشرة ليبرة، وللنجارين الاثنين تسع ليبرات، ولعاملي الطلاء والمعجونة تسع ليبرات، وللطباخ ثمانية وأربعين سولدي كبار، وللرماة الخمسين مائة وخمسين ليبرة، وللعشرة المجذفين السريعين ست وثلاثين ليبرة، وللعشرين من المجذفين السريعين ستين ليبرة كبار، وللثلاثين من المجذفين العاملين في المؤخرة تسعين ليبرة، وللمجذفين المائة والعشرين مائتين وثمان وثمانين ليبرة، وأيضاً للرجلين الموضوعين تحت تصرف القائد أو القبطان اثنتي عشرة ليبرة، وأحد عشر سولدي كبار.

وعلى هذا يكون المجموع العام للرواتب لمن على متن الغليون المذكور سبعمائة وعشرين ليبرة كبار لمدة اثني عشر شهراً، ما عدا نفقات الأكل، ويعادل هذا سبعة آلاف ومائتين من الفلورينات، إذا حسبنا أن كل فلورين يساوي سولديين كبار.

راتب طواقم عشرة غلايين في الشهر

١٠ — قبطان أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
٨٠ — ملاح أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار
٤٠ — كاتب أجرهم في الشهر الواحد	١٥ ليبرة كبار
٢٠ — نجار أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
٢٠ — عامل طلاء ومعجونة أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
١٠ — طباخين أجرهم في الشهر الواحد	٤٠ سولدي كبار
٥٠٠ — رماة أجرهم في الشهر الواحد	١٢٥ ليبرة كبار
١٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار

٢٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٥٠ ليبرة كبار
٣٠٠ — مجذف في المؤخرة أجرهم في الشهر الواحد	٧٥ ليبرة كبار
١٢٠٠ — مجذفون أجرهم في الشهر الواحد	٢٤٠ ليبرة كبار
٢٠ — رجل تحت تصرف القائد أجرهم في الشهر الواحد	عشر ليبرات كبار ونصف الليبرة

مجموع النفقات التي ذكرت أعلاه يساوي ستمائة ليبرة، ما عدا الأكل، ويساوي هذا ستة آلاف من الفلورينات الذهب.

راتب طواقم عشرة غلايين في السنة الواحدة

يتبين مما ورد أعلاه أن جميع رجال الغلايين العشرة يلزمهم رواتب لمدة اثني عشر شهراً مبلغ قدره الإجمالي سبعة آلاف ومائتي ليبرة كبيرة، أي ما يعادل اثنان وسبعين ألف فلورين ذهب.

راتب طواقم ستين غليوناً في الشهر الواحد

سيكون الراتب المعطى إلى ستين قبطاناً	٦٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى أربعمائة وثمانين ملاحاً	١٨٠— ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وأربعين كاتباً	٩٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وعشرين نجاراً	٩٠ — ليبرة
وإلى مائتين وعشرين عامل طلاء ومعجونة	
سيكون الراتب المعطى إلى ستين طباخاً	١٢ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى ثلاثة آلاف من الرماة	٧٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الأوائل	١٨٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الباقين	٣٠٠ — ليبرة

سيكون الراتب المعطى إلى ألف وثمانمائة مجذف في المؤخرة	٤٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى سبعة آلاف ومائتي مجذف	١٤٥ — ليبرة كبار

وتعطى هذه المبالغ في شهر واحد إلى جميع المذكورين حسبما تقدم أعلاه، ويلزم إلى المائة والعشرين الذين تحت تصرف القائد ثلاث وستون ليبرة، أي عشرة سولدي كبار ونصف سولدي، كل شهر للواحد، وعلى كل واحد منهم مساعدة الآخر، فيكون العدد الاجمالي للغلايين الستين خمسة عشر ألف مقاتل، يلزمهم شهرياً ثلاثة آلاف وستمائة ليبرة كبار أي ما يعادل ستة وثلاثين ألف فلورين ذهب، بمعادلة سولديان كبار لكل فلورين.

راتب طواقم الغلايين الستين سنوياً

ويتضح لنا كذلك أن راتب اثني عشر شهراً لطواقم ستين غليوناً سيكون مجموعه ثلاث وأربعون ألفاً ومائتي ليبرة كبار، أي ما يعادل أربعمائة ألف واثنان وثلاثين ألف فلورين، كما بينا أعلاه، أي أن التكلفة اليومية مائة وعشرين ليبرة كبار أي ألف ومائتي فلورين ذهب.

راتب ثلاثمائة فارس وخدمهم

هناك حاجة إلى ثلاثمائة فارس لكل واحد منهم خادمان مدربان على السلاح براتب مقداره أربعمائة سولدي كبار لكل واحد، وتعادل الأربعمائة سولدي كبار مائتي فلورين ذهب، وذلك دون أن نحسب نفقات العلف للخيول — إلاّ إذا نفقت أثناء الجري أو في البحر — ويلزم للخيول عن اثني عشر شهراً ستة آلاف ليبرة كبار، أي ما يعادل ستين ألف فلورين، وعليه يكون مجموع ما يدفع للفرسان مع خدمهم خمسمائة ليبرة كبار، وهي تساوي خمسة آلاف فلورين ذهب.

ويتضح مما تقدم أن نفقات الفرسان في اليوم الواحد سوف تبلغ ١٦

ليبرة و٢١٣ سولدي و٤ ديناري كبار، وهي توازي ١٦٦ فلورين، و١٦ كروسي(قطعة فضية كبيرة)، وعليه يمكن القول إن كل فارس من الفرسان المتقدم ذكرهم سيتقاضى يومياً مع خادميه ٣١٣ كروسي من عملة البندقية، وبذلك تكون كلفة الخمسة عشر ألفاً من المقاتلين مع الفرسان الثلاثمائة وخدمهم ٤٨,٢٠٠ ليبرة كبار، أي ما يعادل ٤٨٢٠٠٠ فلورين، وكل فلورين يساوي ٢ — سولدي.

ويفيد كذلك كثيراً ذلك الجيش، أن يصطحب على سبيل الاحتياط عدداً من الأساقفة والكهنة العلمانيين، والرهبان الواعظين، والرهبان الدومنيكان، والرهبان الفرنسيسكان والرهبان الكرمليين، ورهبان غيرهم من بقية الطوائف، وكما ترتئي قداستكم، على أن يصل مجموع عدد هؤلاء إلى المائة، ويحصلون على طعامهم من الغلايين، ومما يقدمه لهم الشعب من هبات أو تبرعات، يحسب بمثابة راتب لهم، ويكون ما يقدم لهم من الطعام ستة عشر ألف وجبة تكلف ثمانمائة ليبرة كبار، أي ما يعادل ثمانية وخمسين ألف فلورين ذهب، ويكون هذا المبلغ هو إجمالي النفقة للسنة كلها، حيث يكلفون كلهم تسعة آلاف وستمائة ليبرة كبار، أي ستة وتسعين ألف فلورين ذهب، فيكون هذا مجموع راتب أولئك الناس لمدة اثني عشر شهراً فقط، لأن ذلك المجموع يكلف ٥٨,٨٠٠ ليبرة كبار، أي ما بين ٩٥ ألف و ٩٤ ألف فلورين ذهب.

وينبغي التنبه أيضاً إلى أن من الضروري أن يكون بين هذه المجموعة من يعرف ويلتزم بحفر الأرض، وليصير ممكناً اكتشاف الماهرين منهم، يعطى إلى هؤلاء علاوة على رواتبهم لكل واحد منهم ١٢ — كروسي شهرياً على الأقل، ويجب أن لا يقل عدد هؤلاء عن ألف حفار، يتقنون أعمال الحفر كما قلنا، ويكلف هؤلاء سنوياً ٦٠٠ ليبرة كبار، أي ٦٠٠٠ فلورين ذهب، وكذلك للأعلاف اللازمة للخيول، والبالغة أربعة جوالق من الشعير كل شهر، أي ما يعادل سالما واحدة وثلث من

عيارات أبوليا، أي ما مجموعه ١٨٠٠ سالما، تكلف حسب السعر المعقول ١٨٠٠ فلورين ذهب، أي أن الثمن لكل سالما فلورين واحد ذهب، وهي واصلة إلى مصر مسلمة على شاطئها، وهنالك القش الذي يحتاجه أولئك الرجال لنومهم ولخيولهم، وكذلك الحطب اللازم للجيش وللوقود، وذلك حسبما يقرر إرساله قائد الجيش، فإن قيمة ذلك تبلغ ٣٢٠٠ فلورين ذهب.

وهناك مسألة المؤن التي على القائد القيام بتخزينها احتياطياً، فهذه ستكلف ٢٠٠٠ فلورين ذهب سنوياً، وبعدما تولينا تبيان كل نفقة على حدة، سوف يكون الانفاق الإجمالي العام ٦٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، أي ما يعادل ٦٠,٠٠٠ ليبرة كبار، وذلك باستثناء عطاء القائد العام، فهذا يترك تقديره لقداستكم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

ونحن إن كنا قد ذكرنا في الفصل المتقدم أسطولاً مكوناً من ستين غليوناً، فهذا لايعني أن كل الرجال يجب أن يوضعوا داخل تلك الغلايين الستين، بل في داخل خمسين، إذا ما جرى اعتماد النمط الثلاثي للتجذيف، ومن بقي سواء من الرجالة أو من الفرسان، فينبغي عليه الانضمام إلى السفن العادية، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني عشر، وإذا ما عمل بالرأي القائل، بأن يكون المجذفون أربعة أربعة على نسق واحد، على مقعد واحد، وهذا أسلوب قد امتحن — كما ذكرنا —ووجد ناجحاً، وينتج عن اعتماد هذا الأسلوب، لابل يلزم أن يوضع جميع الرجال المذكورين في أربعين غليون، ويجري تنظيم الأسطول العادي حسبما يناسب، أي أن تحمّل عشرين من السفن الكبار، ذوات الحجم الكبير، وتدبر شؤون ثلاثمائة رجلاً، وتحمل وتتدبر شؤون مائتين وخمسين رجلاً إلى مائتين وسبعين رجلاً في السفن الخمس الأصغر

بشكل معقـــول، ويكون لهذه السفـن، أي للصغيرة مـــائتين وعشرين مجذف، يجلسـون أربعـة أربعـة على نسسق واحـد، فـوق مقعـد واحـد، وينصرف الباقون إلى أعمال أخرى.

وقد يلاحظ أنه في الجزء المتقـدم لم نأت إلاّ على ذكر اثني عشر شهراً في السنة، وأغفلنا ذكـر الخمسـة أيـام وربع اليـوم الإضـافيـة فيما يتعلق بالأجر المالي والمعيشة، وسبب ذلك هو مايلي:

أولاً : حسبت أسعار نفقات المعيشة ليـس على أساس السعر المتداول فقط بل على أســاس السعـــر الأعلى، بحيث أن الأشهـــر الاثني عشر المذكورة، حسبما رتبناها على مدار السنة تكفي للسنة كلها، وتزيد بوفرة.

والسبب الثـاني هو أن القطاع الرسمي في البندقية يحسب الشهـر على أسـاس ثلاثين يوماً، أمـا في القطاعات غير الرسميـة، فإن الناس الذين يتـولون شحن السفن بالرجـال يذكـرون في العقـود بشكل صريح أنهم يحسبون جميع الأشهر على أساس أن الشهر ثلاثة وثلاثين يوماً، وإذا زاد في نهاية العـــام يومـــان أو ثلاثة، فإنهم لا يدفعـــون أجـــور تلك الأيام الزائدة،وهذا ما تصنعه كومـونة البندقية أيضاً، فضلاً عن هذا ينبغي ألا يغـرب عـن البـال، أن الذينن يتقـــاضـون أجـورهم مـن الكنيسـة الأم المقـدسة، يبرمـون عقودهم ليس حسب الأشهـر، بل حسب السنوات، وهنا إذا رأت قـداستكم أن بالإمكان حسـاب رواتب اثني عشر شهـراً حساب سنة، فليكن.

هذا ويبقى دومـاً من صـلاحيـات القـائـد صرف بعض الرجـال من الخدمـة، أو الاحتفـاظ بهم، حسبما يرى ذلك منـاسبـاً، وسبب ذلك هو — على سبيل المثـال — أن عنصراً مشـاغباً في الجيـش يعد مـذنبـاً مثل العنصر الخائن، فمشاغب واحد، قـد يثير البلبلة فجأة في أوساط الجيش كله، بدون حســاب، فعلى القـائـد المتحلي بـالحكمـة أن يأخـذ بأسبـاب

الحيطة الكبرى في هذا المجال.

وتجدر الاشارة إلى أنه بعدما يبحر الجيش من الغرب، ويأخذ طريقه، لا بد من تأمين المعـاشـات للأفـراد لمدة أشهـر عـديدة، حتى يمكن اجتـذابهم بسهـولة من بيـوتهم، وليتمكنوا من الإفـادة مما هو ضروري، وتأمين مـا هـو لازم لهم في الحاضر وفي المستقبل، وينبغـي أن تتمتع الأمـوال التي يتقـاضـونها بالحماية والحيطة المطلوبة لكـل من يتقـاضى الرواتب، ومفيـد إعطاء الرواتب في البـداية شهراً شهـراً إلى أن يتمكنوا من ترتيب أمورهم على شواطىء مصر، وبعد هذا لابأس بدفع الرواتب كل ثلاثة أشهر.

ويتوجب اعتماد التفتيش اليومي العام، على مدى أيام الشهر، ولاسيما في الليل حسبما جرت العادة، وفي أثناء هذا التفتيش ينبغي إنزال العقوبة بحق من تثبت بحقهم المخالفة.

وينبغي توزيع المائة والعشريـن رجلاً الموضوعين تحت تصرف القـائد العام، حسبمايلي، إذا ما وافق هو على ذلك.

١ — أدميرال(أمير ماء) بحري: إثنان.

٢ — مستشارون يستعين برأيهم: ستة.

٣ — مفتشون يراقبون الطعام والكتاب: أربعة.

٤ — مشرفان رئيسان مسؤولان مباشرة عن الأسلحة.

٥ — ثلاثة أطباء صحة، وثلاثة جرائحيون.

٦ — حرفيون من الدرجة الأولى، ومعلمون في النجارة.

٧ — حرفيون اختصاصهم قطع الأخشاب: أربعة.

٨ — حرفيون في الأقمشة وصنع الأشرعة: ثمانية.

٩ — حرفيون بالجلود، ينبغي معرفتهم بصناعة أغطية للرأس.

١٠ — حرفيون يتقنون صناعة المجاذيف، وأن يعرفوا أيضاً صناعة أقنية الرماح والحراب وغير ذلك من الأدوات اللازمة للجيش: خمسة عشر.

١١ — حجارون يحسنون نقب الحجارة، وحفر الأنفاق تحت الأرض، ووضع قواعد حجرية للآلات وغير ذلك مما يحتاجه ذلك الجيش: عشرة.

١٢ — صانعوا نشاب: ويتوجب اختيار هؤلاء من أمهر المعلمين أينما وجدوا بحدود : عشرة.

١٣ — موسيقيون ينفخون بالأبواق والنفر، ويقرعون على الطبول، ويضربون على النقارات ويحسنون استخدام سائر الآلات الموسيقية الناعمة مثل الرباب والقيثارة، والكمنجة الكبيرة، بقدر ما يرى أن في ذلك فائدة للجيش: عشرون.

ويجري توزيع العشرين المتبقين من المائة والعشرين إما على أعمال أخرى أو يجري تحويلهم إلى مساعدة هؤلاء المائة المذكورين أعلاه.

وبما أنه جرت الإشارة في الفصل المتقدم إلى توزيع حوالي ستة عشر ألف حصة، ينبغي التنبه إلى أنه مع اقتراب نهاية السنة، أو لدى مرورها، وبعدما يكون القوم قد نزلوا على شواطىء مصر، واستولوا على الأرض، وتمركزوا فيها، سيتدافع الناس إلى هناك من مختلف المناطق، وستكون أعدادهم كبيرة، يريدون السكنى قريباً من تلك النقاط، خاصة وأنهم لن يشكوا أنه ستقدم إليهم حصة من الطعام تؤمن معيشتهم، مع تدبر ما يلزمهم من خدمات، ولا شك أن هؤلاء سوف يفيدون، وستكون الحاجة كبيرة إليهم سواء للقيام بحراسة الأماكن الدفاعية، أو بتقديم الخدمات لرجال ذلك الجيش، أو القيام بما يلزم من أعمال

محتاجة ومفيدة، وبموجب ذلك سوف يتقاضى هؤلاء الناس جميعاً، أو أكثريتهم الأجور، وسيكون بإمكانهم البقاء مع الأسطول، لإلحاق المزيد من الأضرار والأذى بالأعداء، ولحراسة البحر والأنهار والبحيرات، وأخيراً سوف تنظر قداستكم بفطنة إلى كل ما هو مناسب عمله، وإلى إعطاء القائد العام ما تراه قداستكم موائماً من تعليمات وتوجيهات.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

كنا قد شرحنا أعلاه وقدمنا وصفاً مجملاً ومفصلاً لأي نوع من الناس هناك حاجة لإنجاز هذا المشروع المقدس، وكذلك بينا الذي يحتاجه الأسطول المرتقب، وبعدما تكلمنا عن الأسلحة اللازمة لهذا الأسطول، رأيت أن الذي قدم أقل من المحتاج وأنه كان ينبغي التوسع بهذا المجال، ولهذا سوف أقوم بمايلي بالتطرق — ولوبإيجاز — إلى أمور جديدة أخذت بشأنها، رأي بعض الخبراء، ومع هذا إن ما سأقوله سوف يكون موجزاً، ومن الممكن إجراء بعض التعديلات عليه، حسب رأي ذوي الاختصاص بهذا الموضوع.

أولاً — بخصوص الأسلحة الدفاعية:

يجب أن تكون خفيفة، حتى يتمكن الرجال من التنقل والتحرك بسهولة، وأن يكون عددها كافياً، كما تقدم وقلنا.

ثانياً — الأسلحة المعدة لإلحاق الأضرار بالعدو:

المطلوب أيضاً أن يستطيع المقاتلون استعمالها بطريقة جيدة وسريعة، وفي هذا المجال هناك نوعان من الأسلحة الهجومية هما : الضرب بوساطة سلاح قاطع، أو الرشق بسلاح ثاقب، كما ذكرنا من قبل.

ويلحق بالعادة بالعدو أضرار كبيرة، ويكون عرضة لمخاطر هائلة عن

طريق استخدام الآلات الثاقبة، ويكون ذلك أعظم مما يلحقه عن طريق استخـــدام آلات التجـريح فقط، ويبقـى على ذوي الدراية في الجيش أن يأمروا باستخدام أنواع الآلات التي يقدرون أنها الأفضل لجماعتهم.

وجديـر بالتذكير أن الهجوم على الأعـداء عن بعد أضمـن للمهاجمين من استخدام الأسلحـة ضدهم عن قـرب، والبرهان على ذلك أن جميع الأدوات أو الآلات أو القسي العقـــارة فعـــالـة بحسب مقـــدرتها على الإصـابة عن بعد، ولتحقيق ذلك يتـوجب على المهندسين وذوي الدربة في الجيش أن يشغلوا تفكيرهم، لأن المقذوفـة سواء أكـانت من الحجارة أو من السهام أو من أي نوع من الآلات، تفيد أكثر إذا كان مجال الرمي عندها أطول من مجال الرمي لدى مقـذوفات الأعـداء، وهي تحتفظ لمن يملكهـا بـأولوية زمـام المبـادرة،ة فإذا كـان بإمكـان نشـاب المسيحيين الوصول إلى جيش الكفار، ولا يستطيع نشـاب أولئك الأعداء الوصول إلى جيش المسيحيين، فمن المؤكـــد أن النصر سيكون حليف المسيحيين، ولسوف يهزمون أعداءهم على الأرض وكذلك في البحر.

وإذا ما اعترض معترض وقال: إذا تراجع الكفرة إلى الوراء، وتدبروا أمـرهـم كـي يطال نشـابهم جيش المسيحيين، يمكنني الإجـــابة على هذه الحجج والرد قائـلاً: إنه مع ذلك يبقى زمام المبادرة بيد المسيحيين، لأن الضربات التي تسـددها آلات المؤمنين بيسوع المسيح سـوف تبقى أقوى من التي تسدد إليهـم من قبل الكفرة، حتى وإن لم يكونوا بعيـدين جداً عنهم، ولهذا ينبغي — كما أوضحنا من قبل — السعي بكل جهد ممكن لاكتشاف مهندسين متفوقين، واستخدام أجود أنواع الأخشاب لصناعة القنطاريات، وصناديق لـلآلات، ولقسي النشـاب للمحـافظة دومـاً على تفوق المبادرة.

ولكي يتـوصـل المهندسـون إلى النتيجـة الأفضـل في أعمالهم، سـوف أوطد بهذه المقدمة لأتكلم عن آلة المنجنيق العـادي، حتى يتم التمييز ما

بين المنجنيق العادي وبين المنجنيق البعيد المدى.

كيف يمكن صنع المنجنيق العادي

يجب أن يكون القسم الأسفل من هذه الآلة، أي قاعدتها من حيث الاتساع بقدر ما سيكون عليه ارتفاعها داخل حصن من الحصون، وينبغي أن تكون الآلة مفتوحة من الأسفل في قاعدتها بين الذراعين الاثنين، وأن يكون الجزء الثالث أصغر، بمعنى آخر: إنه إذا رفعت الآلة داخل حصن بارتفاع أربعة وعشرين قدماً،ينبغي أن يكون ارتفاع هذه الآلة عند القاعدة ستة عشر قدماً، ويقسّم العارفون آلة الرمي هذه من قاعدتها إلى رأسها إلى خمسة أو ستة أقسام، ويوضع جسم الهيكل بين الجزء الخامس والسادس، أي إذا كانت الكفة يبلغ طولها ثلاثين قدماً من الأسفل إلى القمة، يكون الخمس ستة أقدام، والسدس خمسة أقدام، لذلك يوضع الهيكل على بعد خمسة أقدام ونصف القدم من هيكل الرأس المشار إليه أعلاه.

كيف يمكن صنع المنجنيق البعيد المدى

يجب أن يوضع مرتكز جسم الهيكل على بعد خمسة أقدام من الكفة، إذا كان طول الكفة ثلاثين قدماً، أي عند سدس الكفة، علماً بأن القياس يؤخذ من مرتكز جسم الهيكل صعوداً إلى رأس الكفة، وعليه ينبغي أن توضع هكذا: يؤخذ خط من عند وسط ذراع الكفة، ويمد ذلك الخط إلى زاوية قبضة مرتكز جسم الكفة، حتى يتلامس ذلك الخط نصفياً من الجهة الثانية مع الخط ذاته الذي هو في وسط مرتكز جسم الهيكل.

وينبغي شد جوانب جذع المنجنيق نحو مرتكز جسم هذه الآلة، ويمدّ فوقها غطاء يبلغ قياسه نحو قدمين أو أكثر، لا بل حتى أقل، وذلك حسب تلك الآلة، بحيث يأتي مرتكز الهيكل من الأسفل أوسع، لكي تأخذ الكفة توازناً وثباتاً أعظم، ويجب أن يكون الصندوق أكبر

وأطول بالقــدر الذي يمكن للمعلمين صنعــه، فبقـدر مــا يعظم وزن المنجنيق بقـدر مـا يكون ثبـاته أعظم، وبقـدر مـا يكون أكبر، بقـدر مـا يقذف أكثر، وأبعد، وأثقل.

ولأجل ذلك ينبغـي أن يكون المنجنيق قــوياً من كـافـة أجـزائــه، في:الصندوق، وفي الكفــة، وفي مـرتكـز جسم الهيكل، ويجب أن تكون الكفـة ممتلئة غير نحيفـة الذراع لا سيما في وسطهـا وشبـه منفـرجـة من جهتهـا الأماميـة، ويتـوجب أن يكون للصندوق نابض قـوي يمكنه أن يدفع الصندوق إلى الجهة الخارجية.

ومن جديد: بقدر ما يكون المنجنيق أكبر، بقدر ما يمكنه قذف أوزان أثقل، وإيصـال الرمـايات إلى مسافـات أعلى وأبعـد، فبقـدر ما يقـذف الحجر إلى علو أكبر، وإلى مسافة أبعد، بقدر ما يكون وقع سقوطه أشد، وأكثر تدميراً.

وإذا أراد أحد أن يصنع المنجنيق البعيد المدى، يمكنه أن يضع الفوهة فـوق الجانب وأن يصنع كفـة طويلة الذراع إلى حـد الوصـول إلى قعـر السفينة، وعليه أن يجعل هذا الذراع يرتكز فوق قعر السفينة، وأن يجعل الصندوق يصل إلى قـريب حدود الذراع، وينبغي تصنيع جميع المجـانيق التي تجهز بها السفن بقـوة ومتانة بحيث يصل ما ترميـه من حجارة من وزن ومـدى إلى الشيء نفســه الذي كـانت ستصـل به لو كـانت الكفـة مـركزة على سطح الأرض، فضـلاً عن هذا، ينبغي الأخذ بعين التقـدير أنه حتى تقـذف المجـانيق بخـط مستقيم وإلى مـدى بعيـد، ولتستـوعب القذيفة كما يجب، فإن ذلك مرتبط بحجم المنجنيق، وبقدر وزن صندوق الهيكل، وكـذلك بقدرة التمكن من صنع حجـارة مستديرة، وهو أيضـاً مرتبط بنوعيـة كفة ذراع الرمي، التي تمسكهـا مجموعـة التهديف، ولابد من أن تكون معقــوفـة حتى تتماشى مع مــا يريده الرجــال من الرمي صعـوداً أو إلى مـدى بعيـد، ويتــوجب على المهندسين ومعلمي الحرف

تشغيل عقـولهم حـول هذه الأسلحـة حتى يمكن تشغيلهـا بالشكل الأفضل.

كيفية تصنيع القسي العقارة

لصنع القسي العقـارة(الجروخ— الزنبـورك) سـواء أكـان ذلك من الخشب، أو من القرون، يفضل توفر معلمين ماهرين مع الخشب الجيد، ويظل أفضل نوعيـة من الأنواع الخشبيـة تلك التي تصنـع من القـرون العظميـة، بحيث تلصق القـرون إلى بعضهـا بالغـراء، وتلف بالجلود أو بمادة الأوتار، وفعالية هذه القسي أعظم في المناطق الجافة منها في المناطق الرطبة، وتطلق في أيام البرد إلى مسافـة أبعد منها في أيام الحر، وكثيراً ما تم اختبار ذلك.

أما بالنسبة لقسي النشاب العادي فتصنع بالعادة من الخشب، ولاسيما الخشب الذي يسميه الناس ناسوس Nassus وأفضل مكان يتوفر فيه هو في جزيرة كـورسيكا، علماً بأنه توجد منه أنواع هنـا وهناك في أماكن وبلدان أخـرى، وينبغـي قطع ذلك الخشب من الاحـــراش في الوقت المناسب الذي ذكـرناه، وهو الوقت الموائم لقطع سائـر الأخشاب، وإذا شدت أقواس النشاب الخشبيـة بالطول وطويت قليلاً، فإنها تغدو قادرة على الرمي إلى ارتفاعات أكبر، وتقذف بسهامها إلى مسافات أبعد، ومن المقـرر اعطاءها دومـاً القيـاسات المفترضـة، ومن المفيـد أيضـاً— بما ان المطلوب هو رمي السهام إلى مسافة أبعد— أن تكون أوتارها لدنة بقدر مـا يمكن حتى تستطيع تحمل شـد الضغط والتفـويق، ولذلك ينبغي أن تكون مصنوعة من القنب الجيد، والمتقن الصنع، ويظل المطلوب ايصال السهام التي يرميها القوس المذكور الى أبعـد مسافة ممكنة، ويفضل وقتها أن تكون نصـال السهـام وقضبـانها متناسبـة مع القــوس، لابل من الضروري أن تكون النبال مريشة، أو أن تأخذ نهاياتها مثل هذا الشكل.

أما عن مقبض القوس، وكبدها، وسيتها، ونعلها، وظفرها، فأكتفي بهذه الاشارة السريعة إليها، وكل ما قيل عن صنعها كامل وجيد بدون شك، وذلك سواء قوس النشاب أو ما يتعلق به شرط أن يصنع من خشب جيد، وبطيء الاحتراق، ومن المستحسن أيضاً إعطاء الذين يشدون الأقواس أوتاراً جيدة، وعريضة، وأن تكون الأجزاء الخلفية من تلك الأوتار واسعة، وقد اعتاد الرماة على استخدام الأوتار سواء وهم يفوقون أو وهم يرمون، فالعادة تعطي الرجال قوة كبيرة للشد، وتتحول العادة إلى طبيعة حسب المثل المأثور.

ويجب— على كل حال— على الرماة حفظ أقواسهم، سواء أكانت من خشب أو من قرون وحمايتها من الشمس والمطر والريح، ومن الندى أيضاً، وأن تبقى دوماً مغطاة إلاّ وقت تشغيلها، وعلى الرامي في كل سفينة أن يغطيها بجوالق مفتوح، وأن يبقيها في مكان منخفض، أو أن يعين لها مكان يضعها فيه، وتحفظ معلقة كما جرت العادة، ويجب التذكر أن القسي الأصلح هي التي تشد بالأرجل، وبالتحديد برجلين وليس برجل واحدة، فهذا أضمن لفعالية القوس العقار(الزيار)، ولهذا ينبغي استخدام القوس العقار في المكان الذي يكمن فيه الرماة ثابتين لإنزال الأذى بالعدو، سواء على الأرض أو في السفن، وأن يأتي هذا الاستخدام من قبل رجلين، أما باقي الأنواع فتكون كما أوردنا في الفصل الثامن، وفضلاً عن هذا قد يحدث أن تكون بعض الأقواس قادرة على اطلاق ما يسميه العامة موسكيت Muschette، والأقواس المستقيمة التي تخصص لها هذه المقذوفات هي أقواس الزنبورك، وهذا النوع يتوجب على خبراء الجيش التوصية بصنعه، وأن يعلموا المكلفين بالرماية على طريقة استعمالها، خصوصاً العناصر التي يرون أنها ذات فائدة أكبر للجيش المسيحي، وليفعلوا ذلك بخصوص الأقواس العقارة، حسبما ذكرنا في الفصل الثامن.

لذلك يجب— أيها الأب الأقدس— على القائد المكلف من قبل الكنيسة الأم المقدسة أن يدرس طريقة صناعة تلك الآلات، سواء أكان المنجنيق أو الأقواس، مع كل مايلزم للقيام بوظيفته، وخاصة لصناعة المجانيق البعيدة المدى، وكما بينا إنه عند الوصول إلى تلك المناطق والشروع ببناء المراكز المناسبة لتنفيذ المشروع، فإن الأعداء سوف يخافون منها كثيراً، وبسبب رعبهم وخوفهم سوف يضطرون إلى الانسحاب وإخلاء الساحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطىء مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

إنه — على كل حال— قبل وصول الصليبيين المتطوعين، أو الجماعات المأجورة والممولة من الصليبيين، كما بينا في الفصول المتقدمة، أتشوق بكل احترام وتواضع وتقوى أن أبين لقداستكم أن هؤلاء القوم، الذين يتقاضون أجورهم من الكنيسة، أعني الخمسة عشر ألفاً من الرجالة والثلاثمائة من الفرسان، بعدما يكونوا قد وطئوا شواطىء مصر، يمكنهم أن يتابعوا محلياً صناعة تلك الاسلحة، كما أنهم يقدرون على الانضمام إلى الغلايين وغيرها من السفن، التي يمكن توجيهها لمراقبة الشواطىء الخاضعة للسلطان كي لاتقترب قواته من المنطقة التي يكون قد استولى عليها الاسطول، وبذلك يلحقون الأضرار والخراب بسكان تلك الشواطىء وبغيرهم من جيرانهم الكفرة، وبعد مرور سنة على اليوم الذي تمت فيه تعبئة القوات المذكورة، وبعد أن يكونوا قد بنوا لأنفسهم مساكن وحصون على تلك الشواطىء لضمانة إقامة اسطولهم بأمان، يمكنهم أيضاً أن يرسلوا في كل سنة عشرين غليوناً خارج المعسكر في الوقت المناسب، أي منذ منتصف نيسان حتى منتصف

تشرين الأول.

ويجب ان يكون على ظهر هذه الغلايين ما لايقل عن خمسة آلاف من الرجالة المسلحين مع مائة وخمسين من الفرسان، يجوبون في نواحي الأراضي الخاضعة للسلطان للقيام بأعمال المراقبة والتفتيش، ويقومون بالشيء نفسه في نواحي ملك التونسيين والتركمان والروم البيزنطيين المنشقين، وفق الطريقة التي يرونها الأمثل، ويمكن القول بصدق إنه مثلما الحديد يسيطر على المعادن كلها— على الرغم من أنه يلوى وينكسر— هكذا سوف تكون وظيفة تلك الغلايين، وأولئك الرجال فيها، أي قهر، وتدمير، وقمع المنشقين في تلك المناطق، ومثلهم باقي الكفرة الممكن وجودهم خارج المدينة أو القلعة، وإليكم برهان على امكانية تنفيذ ماذكرناه: على تلك الغلايين أن تكون مثل الريح، أو أن تشبه البرق والعاصفة التي تهب فجأة، وأفضل بأن تكون مثل الزلزال، حيث تكون جاهزة ومتأهبة للسير بالمجاذيف، وعليها طاقم سهران متيقظ، وأن لايكون بإمكان أحد أن يسبقها ويباغتها، بسبب الطريق الطويل القادرة على سلوكه، ففي الوقت الذي يخيل فيه للكفار أنها ماتزال في سورية، إذا بها قد صارت في تركيا، ويمكن في الحقيقة القول إن البحر هو أكبر متاهة موجودة في العالم، وبينما يكون أولئك الرجال على ظهر غلايينهم، إذا بهم ينتقلون فجأة إلى الأرض التي يريدون غزوها أو عبورها، وبطرفة عين— إذا صح التعبير— يمكن العودة إلى عباب البحر، بشكل لايتركون مجالاً فيه لأعداء الايمان المسيحي، ليكتشفونهم، طالما تكون الشمس غائبة، فعلى هؤلاء الرجال القيام بأعمال الاستطلاع في النهار، وانتظار الليل، ومن ثم السير بشكل يوصلهم إلى هدفهم قبل انقشاع ظلمات الليل بشكل كلي، فهناك ينزلون قسماً من الرجالة ومن الفرسان إلى اليابسة ليروا ما الذي يمكن صنعه على الفور، ووقتها يكون الكفار المذكورين أو الروم المنشقون — إذا لم

تكن قـد وصلتهم أية معلومـات مـؤكـدة— في غفلـة عما هو مبيت، وعندها يمكن للجيش الصليبي أن ينفـذ بالسـلاح مايـريد تنفيذه، ومـا يكون الرب قد قدر له أن يصنع.

وقـد يحدث أن تصل تلك الغلايين ليـلاً إلى جانب رأس أو جـزيرة، إمـا لتؤمن حـاجتهـا من مياه الشرب، أو لتبقي متخفيـة هناك، دون أن يصـل الخبر أو العلم إلى المسلمين، أو إلى المنشقين الـروم، وبالتـــالي يبحرون من هناك في الوقت المناسب كما يطيب لهم نحـو أرض الكفار، أو يتصرفـون وفق طـريقـة أخـرى، حسبما أشرنا أعــلاه، وبهذه الطرق وبغيرها من الأساليب الخفيـة— حسبما تتطلب شؤون الحرب— تكون الغلبة لصالح أصحاب تلك الغلايين والسفن، ويسيطرون على أعدائهم الكفـــرة، وعلى المنشقين على الســـواء، وينكلـون بهم في أيام الشتـــاء والصيف، ومن ثـم يرغمـــونهم على اخــلاء القسم الكبير من الاراضي الواقعة على الشواطىء البحرية والتخلي عنها، وتحقق بذلك قداستكم ما يطيب لها، وذلك عـــدا مـــا قلناه أو يمكن أن يقـــال، أو يصير، مما هو بمتناول المجمـــوعـــة التـي سترسلهـــا إلى أنهار مصر، أو إلى غيرها من المناطق البحريـة، وهكذا سيحدث بنعمة من الرب، أن الـذين عطشوا، ومـازالوا يتعطشـون إلى الدم المسيحي، سـوف يقتلون بسيف المسيحي، وسيهوون من شاهق كبريائهم إلى حضيـض الذل، أما الذين انشقوا عن الكنيسة الرومانية المقدسة، سيتخلون— بقوة وبطش ذلك السيف الذي يطاردهـم— كلياً عن انشقـاقهم، ويعودون بتـواضع نحو سلوك الطريق القويم الذي سار عليه أجدادهـم.

الفصل الرابع والعشرون: إعدادات متقـدمة، وتنظيمات واحتيـاطات موائمة تماما تتعلق بالأسطول البحري.

إن من بين الذي ينبغي معـرفتـه هو أن الجيـوش المحـاربة التي تسير بحراً تواجـه مخاطر مثل التي اعتادت عليها الجيـوش البرية، فقد يحدث

أن تتعـرض لهجوم مفـاجىء، أو أن تقـوم بذلك فتهجم فجأة، وترعب الأعداء، وتتغلب عليهم بسهولة، وهكـذا يكون الوضع في البحر، فبعد عبـور الغـلايين لعـدد من الجزر، أو المحطات الصخـرية البحـرية، قـد يحدث أن ينقض المقــاتلون البحــريون فجأة على عــدوهم ويهزمــونه بسهولة، ولذلك يتوجب على القائـد أن يرسل دوماً أمام الجيش سفينتي استطلاع، تكونا من أفضل الغلايين التي عنده وأسرعها، وتكون مسيّرة بقـوة التجـذيف ذهاباً وإياباً، وتتقـدم واحـدة على الأخـرى وتسبقهـا، وكلتاهما تسيران للاستطلاع وكشف أحـوال الجزر والصخور، ومـراقبة الخلجان، فإذا تبين لهما مـا يريب ووجود مكيـدة ما، تنضمان إلى بعضهما وتصدران اشـارات محددة لانذار الجيش والاسطول حتى يتدبـر ما يلزم صنعـه، ويأخذ بأسبـاب الحيطة، وإذا حدث والتقت سفينتـا الاستطلاع بسفن من غلايين العـدو، ورأتا أن عددها عـاجز عن الصمـود في وجه حملة الجيش المسيحي، وقتهـا يأمر القـائد العـام بارسال اشـارات متفق عليهـا تتلقاها غـلايين الجيش المسيحي،وذلك حسب مـا تلقـاه هو من سفينتي الاستطلاع، حتى يعرف كل انسان مـا الذي عليه القيام به، وما عليه تجنبـه، إذ أن عليه أن يوجه إلى كل نقطـة من هو مكلف بها، سواء إن كـان من جهـة اليمين أو جهة اليســار، وهكذا يسير كل واحـد وفق الأوامر الصادرة إليه، وعلى القائد العام أن يجعل شكل الجبهة مستديرة مثل ترس، أو على شكـل هلال، أو أي شكل حسبما يراه مــوائماً، وأن يأمـر بتجهيـز الدفـاع والسـلاح الحربي المنـاسب استعماله، وليفتش عن طريقة إنشاب المعركـة، وعندما يتهيأ كل شيء ويترتب حسب الأصول، وقتها يأمر القائد العام قواته بالاقتراب من العدو بهدوء وسكينه.

لكن إذا أراد القائـد العام أن يترك تلك الجبهة في ظل مـراقبة معينة، فليتــدبر أمــره بحيث يجعل ربع الغــلايين أو خمسهـا، مـن التي بدأت بخوض المعـركة تلتف فجأة، وتدور لتهـاجم سفن العدو من الخلف أو

من الجوانب، أو أن تنتقض لتدعم الجهة التي تكون هي الأنسب، ولتنفيذ ذلك ببراعة وحيطة، ففي هذه الأمور بقدر ما تكون الحيطة بقدر ما يخف الخطر، وهناك اسلوب آخر للهجوم على الأعداء، وهو ان تمدّ الغلايين أشرعتها، وتنتقض بجرأة وبسالة على سفن الأعداء، لكن غالباً ما يكون هذا الاسلوب خطيراً، وأنا لا أنصح به مطلقاً، إلاّ إذا كانت المبادرة واضحة والتفوق ظاهر بشكل مؤكد، حتى وإن حدث وتغلبت بعض الأساطيل، لأنها كما يظن أخذت بهذا الاسلوب واتبعته، مثلما حدث بين أهل جنوى وأهل البندقية، فحسبما نقرأ في مدونة أياشيوم Aiacium كانت معظم سفن البندقية كبيرة وقوية، ومعبأة لشن الهجوم، وكانت الرياح الآتية من البحر لصالحها، وكانت سفن أهل جنوى أصغر وأضعف من سفن خصومهم، وكانت واقفة على مقربة من الشاطىء، ومقدمتها مهيأة وكانت ناصبة لأشرعتها بعكس الريح، وكانت كلها تشكل جبهة واحدة متماسكة مع بعضها ومربوطة ببعضها، بشكل أنه كان بوسع الرجال التنقل على سطح السفن ذهاباً وإياباً من سفينة إلى أخرى، وكان لدى أهل البندقية طريقة أخرى لانهاك قدرة أهل جنوى، وبالنهاية اقتحامها، وهي أنه كان بإمكانهم— ما لم يلجأ وا إلى الاستعجال، الذي قد يفيد أحيانا، لكنه قد يعيق مرات أكثر بكثير— إرسال بعض سفنهم، أو سفن غيرهم، واضرام النيران فيها، ومن ثم ارسالها وهي محترقة من خلف سفن العدو، فبهذه الطريقة كان من الممكن إغراق اسطول أهل جنوى وتبديده كلياً، وكان من المنتظر— ما لم تكن إرادة الرب مغايرة— الحاق الهزيمة بأهل جنوى، لو أخذ البنادقة بهذه الحيلة، وكانوا سيتحكمون بساحة القتال، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فقد كانوا قد حشدوا ثمانية وعشرين غليوناً، وعندما باتوا على مقربة من أعدائهم، أنزلوا الأشرعة ولفوها، ولم ينتظروا حتى تنتظم صفوفهم، بل حملوا نحو الجنوية بكل سرعة بواسطة قوة دفع المجاذيف، وقاموا أخيراً بالهجوم على أهل جنوى، ونتج عن ذلك أن بعض سفن

البنادقة هاجمت سفن الأعداء بخط مستقيم، وكان ذلك إما بسبب شدة الريح، أو بسبب هيجان البحر، أو للسببين معا، وحين فعلوا هذا تركوا جوانب سفنهم ومؤخراتها مكشوفة، وتلاحم البنادقة مع اثنتين وعشرين سفينة معدة ومهيأة وكانوا في أثناء حملتهم قد تركوا سفن الوسط مكشوفة وعاجزة عن تقديم أي دعم، أو الحاق أي أذى بالعدو، وهذا ما جعل القسم الأكبر من سفن أهل البندقية يقع بين أيدي أهل جنوى، الذين أحرزوا النصر، وكان ذلك في آذار عام ١٢٩٣، وبهذا الاسلوب، أو بما يشبهه لحقت الهزيمة بأهل البندقية قرب كورسولا Cursola في سلافونيا، والسبب هو أنهم استداروا بشكل صارت فيه أشعة الشمس أمام أعينهم، وكان تعداد اسطول جنوى هو ستين سفينة، وكان بالمقابل مع أهل البندقية نحو تسعين سفينة، لكن أحجام سفن الجنوية كانت أكبر من التي عند البنادقة، وعليها عدد أكبر من الرجال.

وفي عودة إلى موضوعنا ينبغي القول:إنه على قائد الاسطول المذكور، أن يتنبه— قبل الشروع بالقتال— فيدير ظهره هو وجماعته كلهم للشمس، فذلك يمنحه فرصة أفضل لحسن القتال.

فهذا ما وقع في مكان اسمه ميلورا Melora ، فلسرعة البنادقة بالهجوم، ولعزمهم الشديد، لم يتجنبوا مواجهة أشعة الشمس، التي كانت تجرح عيونهم وتؤذيهم باستمرار في أثناء القتال، ولهذا هزمهم أعداؤهم، وفي النهاية قهروا، وأحرز أهل جنوى الذين كانوا يديرون ظهورهم للشمس نصراً مؤزراً، وقد حدث ذلك في حوالي شهر آب سنة ١٢٨٢ للميلاد، ويؤكدون أن عدد سفن البنادقة كان حوالي التسعين، في حين بلغ عدد سفن الجنويين حوالي المائة.

فضلاً عن كل ما تقدم يلزم الاسطول ويفيده أن يوجه وفق الشكل التالي عندما يتقدم لمجابهة الأعداء: أن تبقى السفن منضمة إلى بعضها بعضاً، وأن تظل مجتمعة على نسق واحد، بحيث تكون لوحات

المجاذيف مقابلة لبعضها بعضاً، كيلا يترك أدنى مجال لأي من سفن العدو، للتمكن من التغلغل بأي شكل من الأشكال بين صف مراكب المسيحيين، وينبغي على ربان كل سفينة إطاعة أوامر القائد العام تحت طائلة فقدانه لحياته، وأن لايقدم على الانسحاب طالما المعركة لم تنته بعد، ويتوجب أيضاً على جميع المتدربين على الرماية من الموجودين في السفن، والمتدربين على القوس والنشاب، وكل المتبقين من أصحاب الوظائف كل بحسب مؤهلاته، أن يعملوا جميعاً بانتظام، حسبما يكون ذلك أفضل، وأعظم فائدة برأي المسؤولين.

ولايجوز لهم الاقدام على الانسحاب من مراكزهم قبل انتهاء المعركة، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، وليكن أيضاً مع الجيش المذكور، أي في الأسطول نحو أربعة مراكب إشراف ومراقبة صغيرة تكون مهمتها بتكليف من الكنيسة الرومانية المقدسة، بحيث تسهر على بقاء الأسطول مجموعاً حسبما يرتئي القائد، ولتكن لدى الجيش خططاً متعددة للمعارك، فذلك أضمن للجيش المسيحي، مما لو ذهب إلى الحرب، وهو مزود بخطة واحدة.

وإذا حدث وكان عدد جيش المسلمين أو المنشقين أكبر عدداً، بحيث لا يمكن للجيش المسيحي مجابهته، فإنه لن ينسب إليه العيب إذا ما تراجع ولاذ بالفرار من أمامهم، فإن مهارة الخبراء تقضي حسب الظروف إما بالحرب، أو بالفرار، أو بالمطاردة، وهذا ما يمارسه التتار بالفعل، وهم الذين استولوا بهذه الطريقة على جزء كبير من العالم، لذلك يلزم أن يعمد القائد العام للجيش المسيحي، إلى إعطاء شارة معينة، يجري تعميمها على جبهة تقضي بالرد فقط على من يهاجمهم، وأن لا يتفرقوا إطلاقاً، وتصدر الأوامر بشكل خاص إلى الرماة بالنشاب في كل الجيش المسيحي ليتدبروا ما يناسب عمله في مثل هذه الظروف، عندما يباغتهم العدو ويقترب منهم، ومن المعروف أن نبال المنسحبين

ونشابهم، وهم هاربين تجرح الأعداء، بينما نبال العدو هي بدون جدوى في أثناء المطاردة.

لهذا، لن يتعـرض الجيش المسيحـي — بإذن الـرب — للخطر إلاّ نادراً، مـا دامت السفن مـوائمـة كما ذكـرنا، وإذا حـدث وقـامت سفننا بمطاردة سفن الأعـداء، فيلزم وقتهـا التنبـه وأخـذ الحيطة، بأن تتقـدم السفن التي هـي أخف من على الجوانب، وأن تضغـط على العـدو وأن ترميـه من أقـرب مسـافـة ممكنة، وأن تتصرف بالشكـل الذي تراه هو الأنسب، وإنه لمن الضروري والمفيـد والحسن، أن يكـون في كل سفينة من السفن — طوال مـدة بقـاء الأسطول في البحـر ليـلاً — وفي كل مركب من المراكب عـلامة متفوقة خـاصة، يوزعها القـائد عليهم، حتى إذا تغلغل بينهم أي غليون أو أية سفينة للعـدو، يتعرف عليها البـاقون، وإذا مـا بقي الأسطول ليـلاً في أحـد المرافىء، ينبغـي تخصيص بعض السفن — ما عدا أثناء المناخ العاصف — للحراسة باستمرار، ولا يجوز إهمال تلك الخفـارة بدقـة على الإطـلاق، كـذلك على القـائـد العـام في النهـار، أثناء توقف الأسطول في أحـد المرافىء أو قرب أرض صخـرية، أن يفـرز من السفن المعـدة للمـراقبـة خفـراء ينزلهم إلى اليـابسـة، حتى يستطلعـوا جميع الجهات، من البحـر، وعلى اليـابسـة، ويؤمنوا السلامـة الكاملة لأسطولهم، فإذا ما شـاهدوا أحداً يحاول التقـدم نحو الأسطول ليلحق به الأذى ، ترسل فرقة المراقبة تلك إشارات معينة إلى الأسطول، ثم تهرع نحـوه، وتعطي الإشـارات مجدداً، كي لا يلحق أي أذى بسفن الأسطول، أو بالذين يجوبون تلك المنطقة، ولكي يتأهب الجميع لإلحاق الهزيمة بالعدو.

ولا يجوز مطلقاً إهمال أمر مهم جـداً، وهو تأمين مياه الشرب لرجال الجيش، وينبغي إيلاء هذه المهمـة كامـل العناية، وتخصيص جماعة تتـولى تأمين هذه المياه، وقد تقـدم وهلكت جيوش كثيرة وكبيرة بسبب فقدانها

للماء، ويتوجب أيضاً تأمين الحطب لطبخ الأطعمة لكل من في الأسطول، فبدون ذلك لن يتمكن الجيش من نيل أطعمته، وفي الحقيقة كثيرة هي الاحتياطات التي يتوجب على القائد التنبه إليها، من تنظيم وترتيبات واحترازات، يطول بنا المجال هنا لوصفها وشرحها، علماً بأن الكثير المهم بهذا الشأن قد تمّ تبيانه وشرحه هنا أو هناك، وسيكون مفيداً أيضاً ونافعاً أن يكون مع القائد العام رجال حكماء، ذوي نزاهة، ولديهم دربة ومراس على هذه المواضيع المتقدمة الذكر.

الفصل الخامس والعشرون: وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان، وأسماء الشواطىء والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر، مع وصف للشواطىء التونسية التي هي امتداد بحري لها.

من مرعش إلى الاسكندرونة خمسة عشر ميلاً، إذا ما أبحرنا بريح شرقية، وتقع مرعش حالياً عند الحدود بين أراضي ملك أرمينية وأراضي السلطان، ومن الاسكندرونة إلى أرسوز، بريح غربية وباتجاه الجنوب، والمسافة عشرة أميال، ومن رأس الخنزير إلى مصب نهر العاصي، باتجاه جنوب شرق، عشرين ميلاً، ويصب العاصي في السويدية على ساحل جبل اللكام، ومن ميادون على بعد نصف ميل من مصب العاصي حتى الوادي المسمى تاندرا عشرة أميال باتجاه الغرب، وفي ذلك الوادي مرسى اسمه قرابجاك، ومن مصب العاصي حتى برج الإسلام عشرين ميلاً باتجاه الغرب، ومن برج الإسلام حتى رأس البسيط عشرين ميلاً باتجاه الجنوب الغربي، ومن رأس البسيط إلى اللاذقية عشرة أميال باتجاه الشرق، وللاذقية ميناء جيد تغلقه سلسلة، ولهذا الميناء مدخل من جهة الجنوب، وعند مدخله باتجاه الجنوب يوجد أيضاً برج يدعى برج أوغاريت، وهو محصن من جهة الغرب، ومن مرفأ اللاذقية إلى مصب نهر السن باتجاه الجنوب عشرة أميال، ومن مصب هذ النهر إلى بانياس خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومرسى بانياس

مرسى صالح، ويفتح من جهة الجنوب، ومن بانياس إلى حصن المرقب خمسة أميال، والمرقب قلعة حصينة، باتجاه الجنوب،وهذا هو ساحل سورية، أي شواطئها البحرية: من المرقب إلى طرطوس باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ومن أوغاريت المتقدمة الذكر إلى طرطوس باتجاه الجنوب أربعين ميلاً، ولمدينة طرطوس ميناء جيد، ينفتح من جهة الشاطىء على جزيرة أرواد، ويمكن التوقف هناك نحو الرأس من جهة الجنوب، كما يمكن الدخول إلى ذلك المرفأ من كل الجهات، ويبعد هذا المرفأ عن اليابسة مقدار ميلين تقريباً.

ومن طرطوس، وكانت قديماً مدينة مشهورة إلى طرابلس، باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ولطرابلس ميناء جيد، ومقابل ذلك المرفأ، وعلى مسافة أربعة أميال توجد عدة جزر، اسمها جزيرة الأرانب، وإذا حدث ووصل إنسان إلى ذلك المرفأ، فليترك تلك الجزر باتجاه الجنوب، ويبتعد عنها باستدارة واحدة ونصف، ثم ليتجه شرقاً على مسافة ميل واحد،ثم باتجاه الجنوب مسافة ميلين، فسيجد بقعة صخرية القعر، فليتخذها مرسى، وهذا المرسى بعمق ثلاثة قامات، ولينتقل من هناك نحو الجزيرة، بمقياس مقداره طول الحبل الذي يربط السفينة باليابسة، وفي داخل الأرض الواقعة خلف طرابلس، هناك جبال عالية جداً، توجد عليها الثلوج باستمرار.

ومن طرابلس حتى أنفة(نفين) خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومن أنفة إلى بئر خليح الهري خمسة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الخليج ملجأ صالح، وهو رأس متوضع في البحر، واسم هذا الرأس، رأس شقعة، ومن رأس شقعة إلى البترون ستة أميال باتجاه الجنوب، وفي جبيل مرفأ للمراكب الصغيرة، وهو مقفل بسلسلة، ومن جبيل إلى بيروت خمسة عشر ميلاً، باتجاه ربع دائرة جنوباً، وعند ذلك الرأس باتجاه الشرق توجد مدينة اسمها بيروت، وفيها قلعة...، وقريباً من هناك يوجد نحو

الشرق ميناء صالح، وعلى ميل باتجاه شمالي غربي هناك جزيرتان مع مرفأ، ويجب الابحار مروراً بميل واحد بعيداً عن رأس تلك الجزيرتين، وعند مدخلهما نحو الشمال الغربي، يقابل مرفأ بيروت جزيرة الزيري، وهو يبعد عنها عشرين ميلاً باتجاه الجنوب، ومدخل مرفأ هذه الجزيرة نحو الغرب، ومن الممكن إلقاء المرساة هناك والتوقف.

أما المرفأ المقابل لليابسة، فمدخله من جهة الجنوب، وهو قليل العمق، وفوق الزيري توجد منطقة صيدا، وهناك جبل يسميه العامة مذراة صيدا.

ومن صيدا إلى الصرفند جنوباً مع ربع استدارة عشرة أميال، ومن الصرفند إلى صور خمسة أميال، ولصور مرفأ صالح، لكن هناك عدة صخور باتجاه الجنوب، ينبغي تجنبها من جهة الجنوب، حيث ينبغي على الجميع الدخول من جهة الشمال، أي من عند الصخرة المعروفة من جهة الغرب، مع الابتعاد عن تلك الصخور باستدارتين ونصف الاستدارة، ويجب أخذ الحيطة لأنه عند جميع هذه الممرات العمق قليل، ويمكن باستدارة واحدة البقاء هناك قرب أسوار تلك المدينة، التي تعرف باسم مدينة صور، ويرى القادم من البحر تلال صيدا من جهة الغرب، ثم جبالاً عالية، يسميها العامة لبنان، وهي تمتد نحو الجنوب.

ومن صور إلى البياضة(الرأس الأبيض) عشرة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الرأس مرتفع، ويليه أيضاً جبال عالية جداً، يسميها سكان تلك المنطقة بلينا Bellina ، ومن رأس البياضة إلى عكا عشرة أميال باتجاه الجنوب حتى الوصول إلى صخور خلف قلعة لمبرتو(حمصين — قرب الناقورة)، ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي من تلك الصخور، حتى مدينة عكا، حيث هناك خليج جاف طوله حوالي الثلاثة أميال، ولعكا مرفأ هو عند رأس، يمكن الوصول إليه باستدارة واحدة، وإلى الشرق منها برج الذبان، ومن أراد القدوم إلى هذا المرفأ، عليه القدوم بحراً من

بعيـد، من عند بيعة القـديس اندراوس، ويبقى بخط مستقيم حتى يرى البيت الذي كـان يسكنـه فـرسـان الاسبتـارية في بـرج الذبان، وآنذاك يمكنه أن يأخــذ طريقــه إلى داخل ذلك الميناء،وإذا أراد اجتيــازه حتى يصل إلى قلعـة حيفا، فعليـه أن يوجه نصف مقـدمة السفينة نحـو تلك القلعة، ونصف مؤخرتها نحـو برج الذبان، وبهذه الطريقة يمكنه دخول الميناء بأمان، ومن أسـوار تلك القلعة حتى مـوقع الكرمل عشرة أميال، والكرمل جبل مـرتفع، وهو مستطيل الشكل في مقـابل البحـر، ويظهـر وكأنه جزيرة طويلة، ورأسه فوق البحر، وهو يتجه نحو الجنوب، وعلى قمته كنيسة اسمها كنيسة القديسة مرغريت، ومن جهة الشمال بقعة تمتد على طول ميل واحد.

ومن جبل الكرمل حتـى عثليت(قلعـة الحجـاج) خمسـة أميـال باتجاه الجنوب، ومن عثليـت إلى قيسـارية عشريـن ميـلاً بـاتجاه الجنوب، ومن قيسارية إلى أرسـوف خمسة عشر ميـلاً باتجاه الجنوب، ومن أرسوف إلى يافا، باتجاه الغرب، عشرة أميال.

ومن جبل الكرمل حتى دميـاط، لا يوجـد عند الشـاطىء أي جبل، وكلها أرض منبسطة، فيها صخور رملية بيضاء.

وأما في داخل البلاد صعوداً من الشاطىء، فهناك جبال اسمها جبال القـــدس، ومن الممكـن رؤية هذه الجبـــال حتـى جبل الكـرمل على سلسلتين.

الشواطىء البحرية الممتدة من يافا إلى دمياط

أولاً: من يافا إلى قلعة أشدود، باتجاه الجنوب عشرة أميال.

ومن أشدود حتى عسقلان عشرة أميال، باتجاه الجنوب الغربي.

ومن غــزة إلى الدارون(دير البلح) خمسـة عشر ميــلاً باتجاه الجنوب

الغربي.

ومن دير البلح حتى رأس أشـدود ثلاثين ميلاً، وذلك من عند خـان يونس باتجاه الغرب.

رأس أشـدود إلى آخر خليج خـان يونس ثلاثين ميـلاً باتجاه الشمال، ومن ذلك الرأس باتجاه شمال غـربي ثلاثين ميـلاً، ومن ذلك الرأس إلى رأس رفح باتجاه الغـرب ثلاثين ميلاً، وعند هذا الرأس خليج يستـدير على مسـافـة عشرين ميـلاً، ومن رأس رفـح إلى العـريش باتجاه الغـرب خمسين ميـلاً، ومن العريش إلى الفـرمـا باتجاه الغرب ثلاثين ميـلاً، ومن العـريش إلى نهر تنيس خمسـة وعشرين ميـلاً، ومن نهر تنيس إلى دميـاط خمسة وعشرين ميلاً وربع درجـة شمالاً، ودمياط هي مدينة لها نهر كبير، لون قاعه أحمر، وعمق مصبه عندما تكون المياه شحيحة لا يقل عن ستة أذرع، لكن عندما تكون الميـاه قوية، وقتها يقدر العمق بنحـو أحد عشر ذراعاً، ويقتضي الابحـار من مدينة عكا إلى دميـاط، باتجاه الغرب، قطع مسافة قدرها مائتين وخمسة وسبعين ميلاً.

الشواطىء البحرية من دمياط إلى الاسكندرية

أولاً: من دميـاط حتى بحيرة نستراوة(البرلس) باتجاه الغـرب سبعين ميـلاً، ومن البرلس إلى مصب نهر نستراوة شـاطىء يمتـد على طول ثلاثين ميلاً غرباً، وهذا الشـاطىء مستدير، ويلتف على ثلاثين ميلاً، وله مصب عـريـض، وعلى بعـد خمسـة أميـال باتجاه الشمال من مصب نهر نستراوة إلى مصب نهر رشيـد أربعين ميـلاً بـاتجاه الغـرب، ونهر رشيـد كبير، وعمق المياه فيه عشرة أذرعة، وحـوله أراضي جافة كثيرة، وعندما ترتفع مياه ذلك النهـر فإن عمقه يبلغ خمسة عشرذراعـاً، ومن رشيد إلى جـزيرة أبي قير خمسة وعشريـن ميلاً غـرباً، وعلى تلك الجزيرة برجـان، بالقرب منهما مجال صالح للنزول.

ومن أبي قير إلى مدينة الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً باتجاه الغرب، والاسكندرية مدينة كبيرة وجميلة، لها من الجهة الخارجية صخرة متقدمة، تضربها مياه البحر يومياً، وعلى ظهر تلك الصخرة برج يسميه الناس المنارة، وهي التي تسمح بمعرفة موقع المدينة.

فإذا قدم أحد بحراً من الشرق أو من الشمال، يمكنه أن يرى تلك المنارة، كذلك إذا قدم إنسان من الشمال الغربي، يمكنه أيضاً رؤية برج تلك المنارة، وأما المدينة فلها مرسيان، الأول شرقي، ويشرف عليه ذلك البرج، ومن يصل إلى المرسى يمر بجوار صخرة يسميها الناس ميمون Memon ، وهي مجاورة لبرج المنارة، ومن ثم يذهب باستدراة واحدة، ويلازم تلك الصخرة على طولها، وهناك في الجنوب أرض جافة، ومن الممكن البقاء باستدارة واحدة نحو صخرة ميمون، والمرسى الثاني للاسكندرية هو من الجهة الغربية ومدخله من الشاطىء الغربي، ومن أراد دخول ذلك المرسى من ذلك الشاطىء، عليه مسايرة الشاطىء، لأن دخول ذلك المرسى يتم عبر أقنية.

والمسافة من عكا إلى الاسكندرية هي أربعمائة وأربعين ميلاً، باتجاه الشمال الشرقي من الريح الثالثة، وبالنسبة لنهر نستراوة، فإن لون قاعه أحمر، وعلى النهر بساتين نخيل تنتج البلح، ومن الاسكندرية حتى برج العرب، باتجاه الغرب، ثلاثين ميلاً، ومن برج العرب، إلى خليج العرب باتجاه الغرب خمسين ميلاً، ومن وسط خليج العرب إلى الخروبات بالاتجاه الشمالي الغربي أربعين ميلاً.

ومن الخروبات إلى التلال البيضاء عشرين ميلاً باتجاه الغرب، والعلامة المميزة للتلال البيضاء هي: ظهور أرض بيضاء مقسمة إلى تلال عدة، وهي تطل على الخروبات تلك من الشرق، حيث تشاهد قناطر كثيرة واسعة بين الأبنية المهدمة والصخور البيضاء، ويوجد على بعد ميلين من خليج رشيد جزيرة مسطحة، وهي إلى الشمال من

الصخـور البيضـاء ولها مـرسى جيـد، وله عمق مسطـح يبلغ ست خطوات، ومن الممكن الدخـول إلى الجزيرة وإلقـاء المرسـاة على أرض ثابتـة، ومن تلك الجزيرة إلى خليـج رشيـد عشرين ميـلاً، لمن يبحـر مع الريح الرابعة غرباً باتجاه الموقع المسمى Beleze .

ومن خليج رشيـد إلى مـرفأ السلطـان مـائـة ميل وعشرة أميـال من الشرق أيضاً، ولهذا المرفأ مـدخل ضيق، يتولى حراستـه جنود مسلمون، وهو في داخله عريض جداً، يمكن أن تصطف فيه سفن وغلايين كثيرة، ومـا بين ذلك الخليج وذلك المرفأ، لا يوجـد أي مكان يصلح للرسـو. والعمق سيء ومملوء بـالنتـوءات، وتمتـد هناك شـواطـىء مسطحـة ومساحات جافة كثيرة.

ومن مرفأ السلطان إلى جـزيرة الحمام عشرة أميال، باتجاه شمالي غربي، وهي في داخل البحـر على مسافـة ميل من الشـاطىء، ومدخلهـا شرقي شمالي والفتحـة التي يمكن الدخـول عبرها من الغـرب، ولها شـواطىء كثيرة جافة، وتمتد هذه الشواطىء الجافة من الساحل حتى تلك الجزيرة، والفتحة التي يمكن الدخول عبرها من الشرق نظيفة، ويلزم السير منها إلى الجزيرة قطع مسـافـة ميل ونصف الميل، ومن الزاوية الشرقيـة يصل العمق إلى عشر خطوات، وينبغي الانتظار بعيـداً عن الجزيرة، مع إعطاء استـدارتين للغـلايين، وهذه الصخـور محميـة ضـد كل الرياح، باستثناء الريح الشرقية التي تهب من الشاطىء، وتلك الجزيرة مسطحة ولاتظهر إلاّ عن بعـد عشرة أميال في البحر، ولا يمكـن معرفتها إلاّ مـن خلال قصر موجـود على الشاطىء من جهـة الشرق، وإذا قدم أحـد من البحر إلى الشاطىء، فإنه يجد المياه العذبة في تلك الجزيرة.

ولايوجـد من جـزيرة الحمام حتى رأس رمـدا Rameda أي مكان يصلح للرسو فيـه،لأنه تنتصب هناك مرتفعـات جبلية من جهـة البحر، ومن جـانب الجزيرة على طول شـاطـىء البربر، ومن رمـدة حتى مـرفأ

السلوم عشرين ميلاً، باتجاه جنوبي غربي، وهو مرفأ جيد، وله مدخل صالح، ومن مرفأ السلوم إلى مرسى مات Mat عشرين ميلاً، باتجاه غربي جنوبي، ومن مرسى مات إلى رأس لوقيا Luchia خمسة عشر ميلاً، باتجاه جنوبي غربي، ورأس لوقيا جاف ممتد نحو الخارج مسافة نصف ميل، ومن رأس لوقيا إلى مرفأ طبرق ستين ميلاً، مع ربع استدارة نحو الغرب، ولهذا المرفأ أرض جافة عند رأس سن، والذي يصل إلى المرفأ عليه أن يسلك جهة الشاطىء الشرقي، ومن ميناء طبرق إلى جزيرة البطريك أربعين ميلاً، مع ربع استدارة نحو الشمال، ومن جزيرة البطريك حتى رأس تيني ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، ولهذا الرأس امتداد من الأرض اليابسة مقداره نصف ميل.

ومن رأس تيني إلى الفوارة Faura عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن الفوارة إلى فورسيللو Forcello عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن فورسيللو إلى كارسي Carse عشرين ميلاً، باتجاه شمالي شرقي، ومن كارسي إلى بوننوريا Bonandrea خمسين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي ولبوننوريا مرسى محمي من جميع الرياح باستثناء الريح الشرقية، ومن بوننوريا إلى جزيرة سوسة عشرين ميلاً، من جهة الشمال الشرقي، وهذه الجزيرة مكان صالح للرسو.

ومن جزيرة سوسة إلى رأس هاينة عشرين ميلاً من جهة الشمال الشرقي، وتنصب من رأس تلك الجزيرة في البحر أربعة أنهار مياه عذبة، ومن رأس هاينة إلى طلميثة مائة ميل من جهة الشمال الشرقي، وعند رأس طلميثة صخرتان صغيرتان، ومن طلميثة إلى برنيق(بنغازي) سبعين ميلاً مع ربع استدارة نحو الجنوب، وفي برنيق ميناء جيد، ويوجد على مسافة نصف يوم من الميناء بقعة يابسة، ومن يريد دخول ميناء برنيق هذا عليه أن يساير الشاطىء الشرقي.

الفصل السادس والعشرون: وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت

سيطرة ملك أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

من مرعش إلى جبل كايبو Caybo عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن جبل كايبو إلى لايكيوم Laiacium خمسة عشر ميلاً غرباً، ومن لايكيوم إلى مرفأ المجاذيف عشرة أميال غرباً، وأمام لا يكيوم قطعة أرض يابسة يمكن تسميتها رأس، ومن الممكن الاستدارة حوله ورمي المرساة والتوقف، ومن مرفأ المجاذيف إلى مصب نهر جيحان عشرة أميال غرباً، وجدير بالذكر ينبغي أن يكون الاقتراب من رأس مرفأ المجاذيف على مسافة نصف ميل، ومن أراد الدخول إلى ذلك المرفأ سيجد هناك انفراجاً يبقى دوماً مفتوحاً، وليحذر من التقدم كثيراً من رصيف ذلك المرفأ.

ومن مصب نهر جيحان إلى مالو عشرة أميال باتجاه الشمال — الغربي، ولمالو ميناء أمامه جزيرتان صغيرتان تبعدان ربع ميل عن اليابسة، ويجب الاستدارة عندها، وإلقاء المرساة حتى قعر الأرض الصلبة، حيث عمق المياه هناك خطوتين أو ثلاث خطوات.

ومن مالو، وهي نوع من أنواع القلاع إلى مصب نهر أذنة عشرين ميلاً باتجاه شمالي غربي، ومن مصب نهر أذنة إلى مصب نهر طرسوس عشرين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، ومن مصب نهر طرسوس(البردان) إلى كركوم Curcum إلى الصخرة عند مصب نهر سيحان عشرة أميال باتجاه الغرب، ومن نهر سيحان إلى لينا دي لاباغاكسا Lena de Labagaxaعشرة أميال بالاتجاه الشمالي الغربي، وتلك البقعة منبسطة جداً، وفي قعرها رمال، ومياهها في البحر قليلة على مسافة ميل.

ومن لينا دي لا باغا كسا إلى مرسى بينو Pino خمسة عشر ميلاً باتجاه جنوبي شرقي، والمرسى واسع، وله قعر جيد، ومن مرسى بينو إلى

ميناء الفرسان عشرة أميال مع ربع استدارة نحو الغرب، وفيه مكان للرسو، وله قعر جيد، ومن مرفأ الفرسان إلى مرفأ رأس برودنساليوم، Prodensalium خمسة عشر ميلاً، وهذا الرأس بالاتجاه الشمالي الشرقي، ولهذا الرأس مكان داخلي للرسو، قعره عميق جداً، وعند ذلك الرأس أسوار مما يجعله مناسباً للرسو.

ومن رأس برودنساليوم حتى سقوين Sequin عشرين ميلاً، مع ربع استدارة غرباً، ويلزم تثبيت المراسي، وأن تكون محمية من الرياح، وفيها نهر يصب هناك في البحر، ومن سقوين إلى ستالليموري Stal-limuri عشرين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، وهناك يمكن إلقاء المراسي، حيث تكون محمية من الرياح.

ومن ستالليموري إلى كالاندرو Calandro ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، وفيها ميناء جيد، ومن كالاندور إلى سلمودا Salmoda خمسة وعشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن سلمودا إلى أنطاكية عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن أنطاكية إلى قلعة اللومبارديين خمسة عشر ميلاً باتجاه الشمال، ومن قلعة اللومبارديين إلى كانديلورو Candeloro عشرة أميال باتجاه الجنوب الشرقي، ولمدينة كانديلورو مرسى جيد محمي من الرياح الغربية، ومن كانديلورو إلى رأس القديس فوكاس ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي.

ومن رأس القديس فوكاس إلى أضاليا القديمة أربعين ميلاً باتجاه الغرب، ومن أضاليا القديمة إلى أضاليا الجديدة أربعين ميلاً مع الريح الشرقية، وأضاليا الجديدة مدينة كبيرة، ولها في مقابلها بقعة صخرية على مسافة ثمانية أميال، واسمها أغوباندي Agopandi ، وفيها موضع للرسو.

ومن أضاليا الجديدة إلى ريناثيا Renathia خمسة عشر ميلاً،

ولأضاليا الجديدة مرسى جيد في داخل البحر، وهو محمي، ويصب عنده نهر، ومن ريناثيا إلى كبيرمايوت (البند البحري) عشرة أميال، وهناك مرسى جيد في جزيرة، وهو مأمون من جهة البحر واليابسة، وفيه مياه نهر غزيرة، ومن كبيرمايوت إلى مرسى الجنوية عشرة أميال، وهو مرسى أمين يتجنبه الأتراك من جهة البحر واليابسة، وعلى شواطئه مياه نهرية وافرة.

ومن مرسى الجنوية إلى شيباسكو Chipasco ثمانية أميال، وهناك مرفأ جيد ونهر، لكن ينبغي أخذ الحذر مما يمكن أن يحدث من جهة اليابسة، ومن شيباسكو إلى كامبروكسا Cambruxa ستة أميال، وهناك مكان للرسو، ومياه بكثرة، وتقابله جزيرة في البحر على بعد ثلاثة أميال.

ومن كامبروسكا إلى رأس الخيلدونيين Childoniis عشرة أميال، لكن مكان الرسو صغير، ولا مكان لإلقاء المراسي، والذي نراه إن التوقف من جهة البحر خطر، مع أنه آمن من جهة اليابسة، ومن رأس الخيلدونيين إلى ميناء مار اسطفان ثلاثة أميال، وهناك مرسى صالح، ومياه غزيرة، لكن تبقى هناك ريبة من جهة الناس الذين على اليابسة.

ومن ميناء مار اسطفان إلى رأس فينيغيا Finighae خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد بين صخور الرأس، وهو قريب إلى أرض فيها مياه عذبة نهرية، وهناك خشية من جهة المنطقة الداخلية، وعلى بعد ستة أميال من المرفأ قلعة كبيرة، ويسكن في الجبال المجاورة يونانيون وأتراك.

ومن فينيغيا إلى القديس نيقولا دي ستاميريس Stamiris خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد ومأمون من جهة البحر، وأما من جهة البر فيلزم الحذر، ومدخل ذلك المرفأ جيد، وتصب هناك في البحر مياه غزيرة وعذبة.

ومن القديس نيقولا دي ستاميريس إلى ككابوم Caccabum خمسة أميال، ولها مرفأ صالح، وبين الصخور مياه آبار، ومقابل المرفأ شاطىء رملي، ومن الضروري التزام الحذر، بسبب شراسة السكان من جهة البر، ومن ككابوم إلى جزيرة المهرولين Correntibus عشرين ميلاً، ولها مرفأ جيد للرسو، وأمين من جهة سكان البر، وفيها مياه آبار بوفرة، ومن جزيرة المهرولين حتى غيام Ghyam أربعة أميال، ولهذا الموقع ميناء صالح وأمين من جهة البحر، وحذر من جهة البر، وتوجد مياه على ضفاف النهر، ومن غيام إلى قلعة روزي Rozi خمسة عشر ميلاً، ولها مرفأ صالح، ومياه وفيرة، ولا خوف من جهة اليابسة، والمرفأ قريب من شاطىء رملي، وحوله أقسام كثيرة جافة، ومن قلعة روزي إلى جزيرة بولسللي خمسة عشر ميلاً، وفيها ميناء جيد وآمن من جهة اليابسة، وإنما ليس هناك مياه عذبة، وبين تلك الجزيرة والأرض اليابسة هناك أقسام صلبة بعمق ثلاث قامات تحت الماء.

ومن جزيرة بولسللي إلى ميغراديكو Megradico تحت بترا Patra خمسة عشر ميلاً، ولها مرفأ صالح من جهة الشرق، لكن الماء معدوم فيها، وينبغي أخذ الحذر من جهة اليابسة، ومن ميغراديكو إلى برديكياس Perdichias ثلاثين ميلاً، وفيها ميناء، صالح ومياه غزيرة، ولا خوف من جهة الأرض، ومن برديكياس إلى القديس نيقولا دي ليوكسو أربعة أميال، وهناك ميناء صالح، ومياه وفيرة، ولاحذر من أية جهة من الجهات، ومن سان نيقولا دي ليوكسو إلى رأس تراكيلو Trachilo خمسة أميال، ولا خوف من جهة اليابسة.

ومن تراكيلو إلى ميناء منطقة ماكري Macre خمسة عشر ميلاً، وهذا الميناء ميناء جيد، والأرض صلبة عند مدخل المرفأ على عمق قامتين أو ثلاث، ومياه الشرب هناك غزيرة، ولا خوف على الاطلاق من جهة البر، ومن ماكري إلى جزيرة كوبي Copi عشرة أميال، ولها ميناء صالح

وآمن سـواء مـن جهـة البحـر أو من جهـة البر، وفي الجزيـرة ميـاه آبار وفيرة، ومن كوبي إلى جزيرة غويا Guia عشرين ميلاً، ومن غويا إلى بريبيا Prepia عشرين ميلاً، ولها في الصيف مـرفأ صالح، وآمن من جهـة اليـابسـة، وبعـد ذلك يصير الـدخـول إلى نهر عمق ميـاهه سبعـة قـامــات، وبهذه الطريقـة يصير الضغط شـديـداً على السفن التي تحمل الأخشاب إلى مصر.

الفصل السـابع والعشرون: حـول دور الصليبيين المأجـورين من قبل الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشـاطىء المصري، وحــول ضرورة الاستيــلاء على نهر النيـل، وتبيــان لكيفيــة الاستيــلاء على جـــزيرة رشيـــد، وكم ينبغي أن يبلغ تعـــداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتـوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

وينبغي الآن الشروع بالتفكير بعمق، والتأكد مما سـوف ينجزه جيش المتطوعـون الصليبيـون وكـذلك الذيـن جندتهم الكنيسـة المقـدسـة من الأموال التي تبرع بها المؤمنون لأجل الحملة الصليبيـة، حسبما ذكرنا من قبل، فبعــد أن تكون الدعــوة إليهــا قــد بدأت في جميع أقطار العــالم المسيحي، وعندما سيجد الجيش نفسه مستعداً ومجهزاً بالسفن، وبكل ما يلزم أو يفيـد المقاتلين، وبعـد أن يكون قـد تزود بالمياه العـذبة سينطلق وقـوامـه بدون تمييـز خمسـون ألفـاً من الرجـالة، وألفـان من الفـرسـان الملتـزمين مقـابل أجـر، وخمسـة عشر ألفـاً من الرجـالة مع ثلاثمائـة من الفرسان الذين أتينا على ذكرهم في القسم الأول من الكتاب الثاني هذا، والأمل بالرب، والاتكـال دون أي شك عليـه، أنهم بعــونه، وهوالذي يقوم باسمـه المشروع، لابد من أن يسيطروا على مصب نهر النيل، وبعد سقوط مصب نهر النيل والاستيلاء عليه، سيتمكنون على الفور، وبدون جهد، من الاستيلاء على جزيرة رشيد، وهي ذات أهمية عظمى، وبدون

تأخير سيكون بإمكانهم بناء قلعة حصينة، ومن ثم يقيمون فيها كما يطيب لهم، وينفذون ما يرونه مناسباً، خصوصاً بالنسبة للمنطقة العليا القريبة من القاهرة ومن قلعتها، وبناء عليه يتوجب النظر أنه بسبب التنظيم الجيد، والتخطيط الموفق، والقوة الضاربة عند جيش الصليبيين وأسطولهم، سوف يتم في وقت قصير الاستيلاء على ما تبقى من الأقاليم المصرية، وتصير مصر خاضعة لقداستكم، وإذا لم تتمكن قداستكم من حشد العدد المذكور أعلاه، فإنه بالإمكان اتمام مشروع مصر بوساطة أربعين ألفاً من الرجالة، وألف من الفرسان، تكون أجورهم، كما بينا من قبل، هذا إذا بقي الوضع على النيل مثلما هو اليوم، وقد يعترض معترض فيجادل قائلاً: بعملك هذا أنت تفكر أنك تؤمن مصالح التتر وبالتالي ستستميلهم إليك، لكنهم قد يأخذون منك موقفاً معادياً لأن قسماً كبيراً منهم قد انقلب إلى عقيدة محمد(ﷺ)، وقد يقدم هؤلاء التتار إلى مصر لنجدة أهل هذه العقيدة، ومساعدة تلك الملة، وهم أيضاً منتشرون في مناطق عدة من المشرق، وهؤلاء سوف يهبون أيضاً للمساعدة وتقديم العون، ومثلهم سيفعل العرب، وبعض المسلمين في أفريقيا، فهؤلاء جميعاً سوف يقدمون بالذات، أو سوف يرسلون الامدادات إلى المصريين.

وعلى مثل هذا الاعتراض يمكن أن نجيب:

إنه بعون من الرب، ينبغي منطقياً احتلال نهر النيل بهذا العدد من المقاتلين، بفضل تنظيمهم ومعداتهم، حسبما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وإذا ما امتلكوا السيطرة على ذلك النهر، فإنهم سوف يحتلون جلّ أرض مصر، ولسوف يدمرونها برمتها تقريباً، وعلى الرغم من وجود هذا العدد الكبير من المسلمين في مصر، فإن العملية الحميدة سوف يتم إنجازها بسرعة خاطفة، وبعد هذا لن يتمكن المصريون من حراسة

مصر ولا الدفاع عنها. لأن المسيحيين سوف يحطمونهم ويبددون شملهم، خاصة وأنه لن يعود لدى المسلمين إمكانية التموين، والحصول على ما يلزمهم للعيش، ولن يكون بالإمكان نقل المواد الغذائية إلى مصر عن أي طريق من الطرق بسبب ما حولها من صحارى، كما لا يمكن لمصر أن تستنجد عن طريق البحر، لأن مفاتيح البحر بيد جماعتكم، فهي التي تؤمن الحراسة والحماية، ولن تصل الإمدادات إلى المصريين من أعالي النيل، ولا من النوبة، ولا من أي مكان آخر بالكميات التي يحتاجها سكان مصر، ووقتها لن يبقى أمام المصريين من مجال سوى الانسحاب وإخلاء تلك البلاد بسبب الجوع، ويتضح من كل ما تقدم أن الكفرة عاجزون عن المدافعة عن الأرض المصرية، أو مجابهة قوة حشودكم القادمة بالأعداد المذكورة، وإذا تفضل الرب القدير على شعبكم أن يتم بإخلاص الأعمال التي رجاله بصددها، أي أن يحتلوا مصر باسمكم ولحسابكم، فإنهم سوف يتمكنون من استغلال كنوز تلك البلاد، بشكل لا يمكن تصوره أو التعبير عنه، ذلك أن أرض مصر بالذات فيها منتوجات جمة، وتمر عبرها من مختلف المناطق بضائع ضخمة قادمة من الهند، حيث تصل إلى مصر، ومن هناك تصدر بسهولة إلى البلدان الغربية، وبفضل رضاكم سوف يبقى في مصر العدد الذي تريدونه لتولي الحفاظ على الأرض المكتسبة، بحيث يصير الحال أنه ليست أرض الميعاد المقدسة فقط، التي رزحت طويلاً مستبعدة من قبل الكلاب، ودفعت الجزية للمسلمين، سوف يحررها جيشكم — بعون الرب — بالقدرة والعنف، بل إن باقي الكفرة والمنشقين سوف يخضعون بدون شك للسلطة المسيحية، وسيعودون — بعد تركهم كلياً لمفاسدهم وتخليهم عن انشقاقهم، شاءوا أم أبوا إلى عبادة اسم يسوع المسيح، بينما يطاردهم سيف الصليبيين.

وإذا ما تفضل أحدهم وسأل مستوضحاً بدقة: كم ستكون كلفة

هؤلاء الفرسان والرجالة، بما في ذلك الأجور والمؤن وغير ذلك، في كل شهر، وكم ستكون كلفة السنة الأولى؟ أجيب بكل احترام: يكلف كل واحد من ثلاثين ألفاً من المسلحين ثلاثة فلورينات ذهب شهرياً، أي ما مجموعه تسعين ألف فلورين ذهب لهم جميعاً كل شهر، ويضاف إلى هؤلاء عشرة آلاف رجل، كل واحد منهم يساعد الآخر، وكلفة الواحد منهم خمسة فلورينات، أي أن مجموعهم تبلغ نفقاته خمسين ألف فلورين، وسوف تكون نفقات إطعام أربعين ألف مقاتل بالشهر الواحد عشرين ألف فلورين، أما الفرسان فمن الممكن حساب تكاليفهم مع الأجور والإطعام والأعلاف للخيول بثلاثين ألف فلورين ذهب كل شهر، أما بالنسبة للرسل الذين سوف يبعثون إلى التتار، مع ما سيحملونه من هدايا، فيمكن تقدير كلفة ذلك بخمسة آلاف فلورين شهرياً، وهكذا يكون المجموع العام شهرياً مائة وتسعين ألف فلورين أي في السنة اثنتين وعشرين مرة ضعف هذا المبلغ، ويبلغ ذلك كله ١٨٠,٠٠٠ فلورين، شرط — كما قلنا من قبل — أن يكون الناس من الصنف الجيد، أما نفقات السفن والأخشاب لصنع المساكن، والأسلحة، والتجهيزات كلها، للمحافظة على الجيش الموسوم بشارات الصليب، فإن ذلك قد يرتفع إلى مبلغ قدره ٢٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، وإذا ما أضفنا إلى هذا ما يصرف للأساقفة والرهبان، والكهنة العلمانيين، وللمرضى وللنساء وللغرباء، وغير ذلك من النفقات الواجب صرفها بكرم وسخاء، عندما يكون ذلك مناسباً، فلربما تصل النفقات في السنة الأولى إلى ٣٢٠,٠٠٠ فلورين، ولدى حديثي عن إطعام أربعين ألف رجل، فإن من المنطقي والطبيعي أن يكفي ذلك الإطعام خمسين ألف رجل،فيكون المبلغ الإجمالي العام ثمانية وعشرين مرة مائة ألف فلورين في السنة الأولى، إنما في السنة التالية، فالأمل بالرب، أن يكون مشروع مصر قد انتهى، ولن يكلف هؤلاء الرجال وسفنهم أكثر من اثنتين وعشرين مرة مائة ألف فلورين ذهب، وذلك لأسباب عدة، يمكن

الإشارة إليهـا في الوقت والمكان المناسبين، وبذلك تكون الكلفة الكاملة للسنتين خمسين مـرة مائـة ألف فلورين ذهب، على أساس أن قيمـة كل فلوريـن — كما أوضحنا في القسم الأول من كتـابنا الثـاني هذا — تسـاوي سـولديان فضـة كبار من نقـود البندقيـة، وهذا يكفي منطقيـاً، ويزيد عما هو مطلوب لإنجاز المهمات المذكورة.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجـوبة حول الاعتراضـات المثارة ضـد قدرة المسيحيين: أي هل سيستطيعـون، بعد إخضـاع أرض مصر، مجابهة قـوات السلطان، لابل وقـوات المسلمين جميعـاً، ومن ثم متـابعـة العمل للاستيـلاء على أرض القدس وسـورية، وإيجاد حلول للمشـاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

ولعل هناك من يرتـاب ويرغب في أن يسأل تـائـلاً: لقـد عـرضت وجهـة نظرك حـول طريقـة الاستيـلاء على مصر، وبينت كيفيـة ذلك، لكن، كيف يمكن احتـلال الأرض المقدسـة وسـورية، وهذا هو الهدف الذي يجب أن يوجـه إليه كل الانتبـاه، لا سيما وأنك لم تأت حتى الآن، إلاّ بشكل عام وعابر على ذكر هذا الهدف؟

هذا وإنه لأمـر معروف لدى الجميع أنه لا في القـدس ولا في سورية كلهـا أنهار وبحيرات وسبـاخ تجعلنا نعقـد الأمل على إمكانيـة تنفيـذ المشروع كما نرغب، وفق الطريقة الموصلة إلى نتيجة صالحة، كما قلت إنه سوف يحدث في مصر؟

وعلى هذا أجيب قـائـلاً: على كل مسيحي مخلص أن تكون لديه نيـة صـافيـة ومجردة، وهدف رئيسي يبتغيـه من هذا المشروع، وهو استرداد الأرض المقدسة كلياً، وإمكانية الحفاظ عليها بحالة آمنة ومزدهرة، ولهذا كله قلنا إنه ينبغي أن يبـدأ المشروع من شواطىء مصر، فبـدون ذلك لا مجال على الإطلاق لاحتلال الأرض المقدسـة، ولا للحفاظ عليها بسلام

من قبل المؤمنين، أمــا بشأن مـا قيـل بأنه لا يوجــد في القـدس ولا في ســورية أنهار ولا سبـاخ يمكن لجيشنا أن يتغلغل من خـلالها حتى ينزل الضربات المدمرة من أجل احتلالها في النهاية، فنقرّ أن ذلك لا يخلو من الصحـة، لكن يوجد هناك أيضـاً البحر، فتلك المناطق قـريبة جـداً منه، ومدنها إمـا موجـودة أيضاً، على شـاطىء البحر، أو بأمـاكن قريبـة منه، وعبر ذلك البحـر من الممكن القيام بأعمال كثيرة تجر الويلات الجسيمـة على الأعـداء، هذا ولئن تمت الأعمال المذكـورة ونجزت، سـوف يتحتم على قداستكم الاحتفـاظ بعدد لايستهـان به من الفرسان ومـن الرجالة البـواسل من أجل الاستيلاء بقـوة على القدس وعلى سـورية، كما ينبغي الاحتفاظ كـذلك بأسطول بحري من أجل نقل الخيـول بوساطة السفن المسيرة بالمجـاذيف، وكـذلك لحمل بقية العتـاد اللازم إلى تلك القـوات ومجدداً يمكن الاعتراض والقول:

كم هو عدد الرجـالة، والفرسـان الذين ينبغي نقلهم إلى القدس وإلى سـورية، حتى يمكن التغلب برجـولة على الذين قـد يكونون هربوا من مصر، وعلى الذين في القدس وفي سـورية، وعلى جميع الذين يكونون قد احتشدوا من جميع بلدان الكفرة، وانضموا إلى من هم أصلاً سكان تلك البـلاد، مع العلم أن قوة التتـار عظيمة، وكـذلك باقي الأتراك المسلمين القاطنين في الشرق، وفي أفـريقيا، ولا سيما إذا شعـرتم أن قواتكم بدأت تتناقص؟

وعلى هذا يمكننـي أن أجيب وأن أقـــول بكل صــــدق، مثلما قلت وأجبت مفصلاً في القسم الثاني من هذا الكتـاب، أي الكتاب الثاني: إذا قصد التتار أرض الميعاد وأرض سورية في أيام الشتاء، فإنهم في الصيف لن يكون ممكناً لديهم الاستمرار هناك بسبب شـدة الحر، الذي يسود في تلك البقـاع، وبسبب انعـدام المراعي، التـي لن تكون متـوفـرة لإطعـام مـواشيهم، ومن الممكن إعطاء الحكم ذاته بخصوص الأتراك وسـواهم

من الشعـوب والأمم التي قـد تأتي من الشمال لنجـدة تلك الأرض، خـاصـة أولئك الذين يتكلون في معيشتهم على الثـروة الحيـوانيـة، كما ذكرنا.

فضلاً عما تقـدم، إنه إذا ما قدم إلى أرض الميعـاد التتار أو غيرهم من الشعوب الغريبة عن تلك الأرض، لتقديم النجدة والمساندة للمسلمين، فإن قدومهم بالذات سينقلب إلى هلاك لهم، أكثر من أن يكون ذا فائدة، إذ أنهم لن يستطيعـوا أكـل غـلات تلك الأرض، وإفـراغهـا من المواد الغذائية.

وعلى العموم يتوجب على قائد الجيش الصليبي التصرف بفطنة، وأن يرى مـا ينبغي عمله بالمكان والزمـان المناسبين، فيجـوب المدن في فصل الصيف، ويتـولى إقـامـة الأماكن الدفـاعيـة وبـ.كل خـاص ورئيسي في المواقع القائمة على شاطىء البحر، وأن يضـع لحمايتها عدداً من الفرسان والرجـالة، بأفضـل حـال ، بحيـث تكون مهمتهم الذهـاب والإياب والتجـول حسب الـزمـان والمكان، وكما يطيب لـرغبـاتهم، فيتلفـوا المحـاصيل والمواد الغـذائية، وينـزلوا الدمار في تلـك الأقاليم بقـدر مـا يستطيعون.

وإذا مـا سأل سائل: كيف يمكـن اقتحام الأمـاكن الحصينة والكبيرة التي هي بحـوذة السلطان وجماعتـه في القدس وفي سـورية والاستيـلاء عليها؟

أجيبـه باختصار: إذا مـا أتلفت المواد الغـذائيـة في تلك المناطق، فإن الحاجة القصوى سوف تستبد بهم وتقهـرهم، وفي النهاية بعد أمد قصير تراهم وقد تحتم عليهـم التخلي عن الأرض وعن الحصون، والجلاء عن البـلاد بسبب الجوع، ذلك أنه من غير الممكن أن يصـل إليهم أي دعم من أي مكان، بعـدمـا يكون المسيحيـون قـد سيطروا على البحـر، وعلى

أرض مصر، لأن أرض الميعاد المقدسة وسورية واقعتان هذه الأيام تحت سيطرة السلطان، وهـذه البـلاد مجاورة لمصر، كما أنها نتيجـة لموقعهـا موجهـة نحو الغـرب، أي أنها واقعة تحت حكم البحـر، لأنها محاطة من جانبين: من الجنوب ومن الشرق، بصحراء كبرى.

وإذا أضـاف أحـدهم ملحـاً: أو ليس بالإمكـان الإقـامـة في تلك الصحـارى؟ فأجيب قـائلاً: نعم وخـاصـة في البـادية، فإن أرض حلب تنتهي حيث يسكن العـرب الذين يدعـون بالبـدو، فقـد سكن هؤلاء باستمرار منطقة البرية، وجميع مناطق البادية، وقد اتخذوا أماكن إقامتهم تحت الخيم، ويعيشـون في معظم الأوقـات اعتماداً على المواشي التي يربونها ويرعـونها، ولدى هؤلاء خيـولاً جيـدة، وسريعـة الجري،وهم تراهم تارة يؤيدون المسلمين الـذين هم في مصر، ويؤيدون تارة أخـرى التتـار، الذين يتاخمونهم، خـاصـة في منطقة بغـداد، حيث يسيطر أولئك التتار.

أمـا الأرض التي يحكمهـا السلطان من جهـة الشمال، فـإنها متـاخمة للمناطق التي يسيطر عليهـا ملك أرمينيا، وفوقهـا المياه البـاردة، المتاخمة لمنطقـة التتار، حسبما تقـدم بنا الذكر، وتمتـد تلك المناطق من الشمال إلى الجنوب، ومـن الشرق إلى الغـرب، وجميـع الأنهار الموجـودة في تلك المناطق، واقعة في هذه الأيام تحت حكـم السلطـان، لذلك فإنه لا التتار، ولا أي شعب من تلك الشعـوب، يمكنه أن يؤمن لهم الدعم، إلا بعـد عناء شديد، وتكبد لنفقات هائلة.

وإذا ما اعترض معترض وقـال: كيف يمكنك أن تدمـر أرض الميعاد وسـورية والسلطان مسيطر عليهما بعـدد كبير من الناس، ولا شك أنك لن تتمكن من مجابهتـه في البسـائط، وكيف سيكون بإمكانك إعـادة بناء تلك المدن وتحصينهـا، وإنشاء الحصـون حتى تتمكن من مجابهة طاقـات السلطان وقواته؟.

وعلى هذا يمكن الإجابة والقول: بعد أن يكون البحر قد صار بأيدي رجالنا، وبعد أن يكونوا قد تمكنوا من التجول فيه بأمان، بأسطول يحمل أعـداد كبيرة من الناس، ناقلين معهم مـا يشـاءون من أعـداد كبيرة من الفرسان والرجـالة، وأن ينزلوا إلى الأرض التي يريدون الوصول إليها، ولاشك أنهم — بعون الرب — سيتمكنون مـن التنقل بأمان، والنزول إلى الأرض، وانتزاعها من الأعداء ببساطة، ومن ثم التمركز هناك بقوة، وبشكل لن يعود بإمكان أحد مقاومتهم فيه، أو إلحاق الأذى بهم.

ويمكنهم بالطريقـة نفسهـا مركـزة فـرسان ورجـالة على الأرض كما يرون ذلك مناسباً، وأن يشنـوا الغـارات على الأعـداء، وبهذه الطريقـة سيكون بإمكانهم تدمير المنطقـة وإتلافها بشكل لن يعـودوا قادرين فيـه على إيجاد طعـام، لأن شواطىء سـورية يقدر طولها بأربعـة آلاف ميل، وهذا يعنـي أن المسلمين لن يستطيعـــوا، بما لديهم من عنـاصر بشرية، حراسة السواحل ضد المؤمنين، الذين يستطيعون تدميرها متى أرادوا.

ولما تقـدم من أسبـاب، ولأسبـاب غيرهـا يمكن إضـافتهـا في المكان والزمان المناسبين، أقول بكل تواضـع واحترام: إنه قد اتضح بجلاء تام أنه بعد الاستيلاء التام على أرض مصر لن يتمكن الكفار من الدفاع عن القـدس وعن الأرض المقـدسـة وسورية ضـد الصليبيين إذا مـا اتبعـوا الأسلوب والمخطط الذي ذكـرناه، وأيضاً كما بينا عن المناطق المذكـورة، وكذلك يندرج القول نفسه على كثير غيرها من الأراضي والمناطق حيث يسيطر الكفـار والمنشقـون، والسبب هو أنه عندمـا تصـــدر قـداستكم الأوامـر بتجهيـز ذلك الأسطول الكبير، وبإعـداد السفن المطلوبة لنقل الخيول، وأسطول آخر لنقل باقي العتاد اللازم للجيش، ولنقل الفرسان والرجالة، كي ينزلوا على الأرض كما يرغبـون، طالما أن السلاح مؤمن، والحماس مـرتفـع، وذلك حسب قـرارات قـــداستكم، وبعـدمـــا تكون سلطتكم الأبوية قـد وفـرت ما يمكـن من عون، ومـا يمكن استغـلاله

أيضاً من أرض مصر،وكذلك ما يمكن لقداستكم أن تأخذه من المؤمنين، ومن الخاضعين لسلطانكم، وإنه لا شك أن جميع المناطق الواقعة تحت سلطة بيزنطة، وهي هامة، وكذلك التي يحتلها الأتراك، أو تلك التي يحامي عنها اليونانيون المنشقون وغيرهم من الشعوب الذين يحكمون بعض المناطق ويخضعونها لسلطانهم، هذه كلها سيتمكن — بعون الرب — جيشكم المنظم — كما ذكرنا أعلاه — مع الأسطول، من إخضاعها، ومن ثم تدميرها، وبناء عليه سوف يسقط سكان تلك البلدان نهائياً تحت سلطانكم، وكما قلنا عن مملكة بيزنطة، مثل ذلك يندرج القول عن بلاد المغرب مع سائر الأقطار الأفريقية، وبعدما تكون قداستكم قد استولت على أرض مصر، من الممكن إدخال أسطول إلى بحر الهند، ليسيطر على ذلك البحر، وليخضع لسلطانه الأجزاء والأراضي الواقعة على شواطئه، وعلى مقربة منها.

وكذلك الأمر نفسه في أفريقيا، في ذلك الإقليم الذي كان موطناً للقديس أوغسطين ذلك الأسقف والأب المبجل، والعلامة النابغة.

وسيصير كذلك بالإمكان الحج إلى أماكن عديدة مكرمة ومقدسة، سكنها قديسون وأقاموا فيها، ولاسيما تلك التي تكرم يسوع المسيح فوطئها بقدميه المقدستين من أجل خلاصنا، هذا ومع مرور الأيام سوف يمكن لقداستكم تحقيق رغباتكم فيها، وبشأنها.

وكما سلف وبينا لن يستطيع التتار مجابهة المؤمنين إلاّ بمقاومة هزيلة، ومع هذا إنني أحبذ، وبالتالي أنصح باكتساب صداقة هؤلاء القوم، إذا كان ذلك ممكناً، حسبما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب، حتى وإن تطلب ذلك عدم التقتير بالإنفاق، ولا يكفي أن نلتمس مودة التتار وصداقتهم، بل يحسن تحريضهم هم وسائر غيرهم من الشعوب لما يكون ضرورياً أو مفيداً لهذا المشروع، فإنه في مجال الحروب وعمل الجيوش جميع الضمانات مطلوبة وكذلك كل الاحتياطات والمبادرات

التي يشير بها الحكماء، وأهل الخبرة.

ولإنجاز كل هذه الأمور الصعبة، لكن المثمرة، لايجوز مطلقاً التقتير في الإنفاق في سبيل هذه الغاية السامية، كما أنه لا يجوز إرهاق الكنيسة المقدسة بأعباء هذه النفقات، فالأمل معقود على كل مسيحي مؤمن، مع الثقة المتوجبة، حتى نستحق الوصول بسرور إلى تحقيق تلك الغاية المتوخاة والسعيدة.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمراء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحرب.

تأتي النعم كلها والهبات من عند الرب، وبدونه لا يوجد أي خير، ولهذا إن الانسان لا قيمة له، ولا يعرف إلاّ بقدر ما يوهب،ولا يقدر إلاّ بمدى ما يعطى من قبل الرب، وبالتأكيد إن قائد الجيش ومنظمه بحاجة ماسة إلى نعمة الرب، ويلزمه أيضاً:

أولاً: سرعة البديهة، والاهتمام الحثيث والأخذ بما يحقق النتيجة الحسنة.

ثانياً: كرم وسخاء مع الانضباط اللازم.

ثالثاً: عدم الاستهانة بأعدائه، مما يتحتم عليه التنبه والتجسس والإصغاء بعناية كبرى لأخبار كل ما قد يكون مضاداً له أو مؤذياً.

رابعاً: المحافظة على أتباعه وعدم تعريضهم للخطر مهما كان قليلاً، وعدم خوض معركة إلاّ إذا كانت المبادرة وجميع المعطيات لصالحه.

خامساً: أخذ الحيطة سلفاً لكل ما يكون ضرورياً، وخاصة فيما يتعلق بالقمح، فإن مشاريع كبيرة ممتازة قد أخفقت بسبب انعدام الخبز.

سادساً: تقدير الرجال ومحبتهم والاهتمام بهم أكثر من الاهتمام بالأشياء.

سابعاً: تسيير الأمور وفق الطريقة التي تراها قداستكم نافعة، وأن لا يحيد عن الهدف المرسوم له.

ثامناً : إبداء الشفقة نحو الجميع، وعدم الاقدام على عمل لا يرتضيه لنفسه، وأخذ الحيطة والانتباه إلى شحن السفن في أرضكم بجميع ما يلزمها نوعاً وكماً.

تاسعاً: عدم إهمال الأمور الكبيرة بالانشغال بالأمور الصغيرة.

عاشراً: النظر بعناية إلى أوضاع شعبكم، أي إلى نوعية وأحوال الذين هم من سكان أرضكم، والاهتمام بالمحتاجين أكثر من الاهتمام بالمترفين.

حادي عشر: الالتزام بمبدأ أن البداية الصالحة، والطرق الثابتة، تنتج النهاية الحسنة.

ثاني عشر: إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، فهذا ما حقق إزدهار روما، وتنفيذ أكبر قدر ممكن حسب المنطق، وليس حسب واقع الحال فقط.

ثالث عشر: الإصغاء إلى الجميع، والتقرير بعد ذلك مع القليلين.

رابع عشر: مكافأة الصالحين، و معاقبة الأشرار، فهذا ما سبب اتساع الامبراطورية الرومانية، ذلك أن الاسم الطيب خير من الثروات الكبرى.

خامس عشر: إكرام رجال الكنيسة المقدسة، ومعاملتهم باحترام، واستقبال التجار، والتعامل معهم بكياسة ولطف.

وحمداً للرب وشكراً له، وبركته على كل ما يتكرم به ويمن من نعم، آمين.

بسم يسوع المسيح الحي والحق
آمين

بعض أمور تتوجب معرفتها

التكتم رأس الفضائل، والبوح بالأسرار أس الرذائل، نكران الجميل ريح حارقة، تجفف ينبوع التقوى، وندى الرحمة، ونبع الحنان، ومن لا محبة لديه، لا يملك شيئاً.

يقول القديس[يوحنا] فم الذهب:«لا تنبني الحكمة على معرفة أقوال الرب، بل على العيش حسبها»،والطمع مصدر جميع الشرور، وما من فضيلة أعلى من الصبر، وأي شيء أفضل من الذهب: اللازورد، وأي لازورد؟المشاعر، وأية مشاعر؟ العقل وأي عقل؟ إنه الأسلوب.

وعندما يقدم الوثنيون إلى الكنيسة، ليصيروا مسيحيين، ينبغي ختم ما يتلونه من وصايا الرب بالحكم التالية:

الذي لا تريد أن يصنع لك، لاتصنعه لغيرك.

ينبغي النظر قبل كل شيء إلى الأمور حسب العقل، والتأكد بعد ذلك منها بالاختبار، حتى يتأكد العقل بالاختبار، أو بمثل حقيقي.

الإقدام بدون عقل، مثل سيف بيد مجنون.

يحكى عن أرسطو أنه بينما كان يسير اقترب من جبل، فسأله تلاميذه إعطاءهم إحدى الحكم، فقال: دخلت إلى هذا العالم باكياً، وعشت فيه قلقاً، وأغادره مضطرباً جاهلاً بلا معرفة.

يطلب مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من أعمال البندقية، لنفسه ولذويه بخشوع وتواضع رضا قداستكم الممنوحة لكم من الرب إلهنا.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية، في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسةالكاثوليكية.

ويتألف هذا الكتاب من مقدمة، ومقسم إلى أقسام وفصول.

عندما يتم بنعمة من الخالق احتلال أرض مصر،وأرض الميعاد المقدسة،وسورية بكاملها حتى«المياه الباردة» — حسبما ذكرنا في القسم الرابع من الكتاب الثاني،من هذه الرسالة — وبعد إخضاع الجميع للسلطة المسيحية، ذلك أنها الآن بأكملها تحت سيطرة سلطان مصر، ينبغي الانتباه، وتدبير الأمور أيضاً، بحيث تستمر المحافظة على تلك الأرض التي انتزعت من قوة الكفار، وذلك في سبيل مجد الرب، وازدهار الكنيسة الرومانية، ولكي ينعم جميع المؤمنين المسيحيين القاطنين هناك بحياة سليمة مستقرة، ومزدهرة مثمرة لشؤونهم الجسدية، وبالتالي لخلاص نفوسهم، هذا وقد قررت الحديث في هذا الكتاب أحياناً روحانياً، وأحياناً أخرى دنيوياً، وسأمزج أحياناً بين الأمرين حسبما تقتضي المادة ويستلزم الموضوع.

وبما أن ذلك لا يمكن أن يتم، أو أن ينفذ من دون عون القدير، المتوجب طلبه، ليس فقط للأمور الهامة والكبرى، بل أيضاً لأصغر الأمور، ومن يريد الحصول على تلك الحكمة، عليه أن يلتمسها بكل قواه مع عون المولى، أي أن يحب الرب فوق حب كل شيء، وأن يقدم الطاعة له والاجلال، وذلك حسبما نقرأ بحق في إنجيل القديس يوحنا الانجيلي الرسول قوله:«إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي

وعنده نصنع منزلاً. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي»[يوحنا : ١٤ / ٢٣ — ٢٤]، وكما تكلم في المزامير قـائـلاً:«إن لم يبن الرب البيت فبـاطلاً يتعب البناؤون، إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحراس»[المزامير: ١٢٧ / ١ — ٢].

ولهذا حتى تتحقق المطلوبات بكاملها، وتستمر بثبات كما قلنا، ينبغي أن نخـاف الرب في كل شيء، وأن نقـدم له الاجـلال، حتى يتمكن كل من هو مخلص للرب، أن يسير بموجب هذه الطريقة وهذا الترتيب.

هذا وينبغي الاعتراف، والتأكـد من أن الضربات التـي نزلت بالناس منذ بداية الخليقة حتى اليوم، إنما نزلت بإذن من الرب، وقـد قُدرت إما لزيادة أجـرنا في الحيـاة الدنيـا، كما يقـول بولص الرسـول المجيـد:«وإنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الرب»[أعمال : ١٤ / ٢٢]، أو أنها نزلت بسبب الخطايا الجسيمـة، والآثام القبيحة التي تقترف فعـلاً في هذا العالم.

وعندمـا نقـول:إن المحن والمصـائب قـد أنزلت من قبل الرب، حتى نكسب أجراً أكبر في الحيـاة الدنيا، فإن هـذا ينطبق على أفراد معينين، لا على مجمـــوع الناس ، وبناء عليـــه إن النوازل والمحـن التي تنزل عـــادة بسكان مملكة مـا، أو بـإقليم، أو بمـدينة، فإن نزولها هو عقـــاب للآثام والذنوب القبيحة المقترفة هناك، كما نقرأ في الكتابات المقدسة.

فقد حل في أيام نـوح الطوفان بالمسكونة كلها، بأمـر من الذي يحكم من عليائه،وكذلك احترقت في أيام لوط خمس مدن فجأة، وخسفت إلى أسفل الأرض، وكان ذلك بسبب الخطايا، التي كانت وما برحت سبب جميع النوازل والمصائب والضربات.

وبناء عليه ينبغي تجنب الخطايا الجسدية والروحية، طالما أننا لا يمكن أن نحصل منهـا على منفعـة مفيـــدة، أو على أية ثمـرة صـالحة، وبما أن

الأرض المقـدسـة تفوق بمكانتهـا كل مـا سـواها من الأراضي، ولأجل خـلاص الجنس البشري الذي أراد فـادينا أن يحققـه فيهـا، ولأنها سرة الأرض، يتوجب إجلالها أكثر من أية أرض غيرها في الدنيا، وهي أيضاً التي اختارها الرب، ولذلك بقدر ما نتجنب الخطايا فيها بعزم شديد — حتى لا نغضب الرب — بقدر ما يحبها بغيرة شديدة.

ولكي أستطيع الوصول إلى هدفي، وتحقيق مشروعي، خصصت جزءاً من هذه الرسـالة لذكر ما دونه بعـض العلماء وسواهم — وهم كثيرون — من معلومـات عن التـواريخ الشرقيـة، وخـاصـة تاريخ الأرض المقـدسـة، ولسـوف أدخلهـا في كتـابي هذا بإيجاز، وسأضيفهـا لإظهـار الحقيقة بجلاء أعظم.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة
ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على
أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة
مطمئنة، بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،
في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسة الكاثوليكية.
ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً.
وسنكتفي بذكر عناوين الأقسام، باستثناء القسمين
الرابع عشر والخامس عشر، حيث سنوردهما كاملين.

الكتاب الثالث

في التعليم الأكيد والصادق لأجل امتلاك أرض الميعاد المقدسة، وتنميتها وحفظها

عناوين الأقسام

القسم الأول: حول الأمم المتعددة، التي توالت على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية، وهو في أربعة فصول.

القسم الثالث: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة، أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاقات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

القسم السادس: تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

القسم السابع: صورة الأوضاع المزدهرة في الأرض المقدسة، أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

القسم الثامن: أسباب دمار أرض الميعاد المقدسة، وفقدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه

ثمانية فصول.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها، وتقلب الأوضاع وتداول الحكم فيها، منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملته، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقدسة حتى طُرد الصليبيون منها، وفيه اثنين وعشرين فصلاً.

القسم الثالث عشر : بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت الفقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً.

القسم الرابع عشر: وصف أوضاع الأماكن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة، وهو في اثني عشر فصلاً.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

(القسم الرابع عشر)

الفصل الأول

وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

أرض الميعاد المقدسة موجودة في سورية التي تحتوي جميع البلاد من الدجلة حتى مصر، ويحدها من الشرق نهر الدجلة، ومن الجنوب الخليج العربي، ومن الغرب البحر المتوسط ومن الشمال أرمينيا وكبدوكيا، وهذه

البلاد، التـي اسمها العام، هـو سورية، مقسمـة إلى عدة أجـزاء أصغر، أولاها، سورية الأولى، وهي قـائمة ما بين الدجلة والفـرات، وهي تمتد طويلاً نحـو الشمال ونحـو الجنوب، أي أن نقـول: من جبـال طوروس حتى الخليج العربي، وهي تعرف أيضاً باسم سورية الجزرية، ومن أجل عـرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الأول، وفيهـا تقع الرها، التي دعي فيهـا توبيت باسم راغس Rages ، وتعرف بشكـــل عام باسم«الرسا» Resse ، وهي واقعة على مسافـة أربع عشرة فرسخاً فيها وراء الفرات، بين جبـال طوروس وجبال القـوقاز Caucasus ، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الثاني، وقد اتخذ هذا القسم الشمالي لنفسه اسم المنطقة كلهـا، وصار يعرف بشكل دقيق باسم سـورية الجزرية، وفي هذه المنطقـة أيضـاً نينوى وبابل، وزيادة على هذا، سورية هذه مقسمـة إلى مقاطعـات هي، ميديا، وأكـاد، وفارس، كما هو موضح على المصور.

أما سورية الثـانية، فتعرف باسم سورية المجوفـة(البقاع)، وهي ممتدة من جبـــال طوروس حتـى نهر أبانا، الذي يدخـل البحـــر عند مـــدينة بانياس، أمام قلعة المرقب، وأنطاكية هي المدينة الرئيسية في سورية هذه.

وتدعى سورية الثالثة باسم«فينيقية» وهي تبدأ عند نهر بانياس المتقدم الذكـر، وتمتد جنـوباً حتى خربة دستري، التي تعـرف باسم دستركتـوم Districtum ، تحت جبل الكـرمل، وهي تعـــرف الآن بـاسم قلعـــة الحجاج(عثليت)، وتمتـد نحو الشرق حتى مـدخل حماه، وبناء عليه إنها تحتوي على كفـر نعوم(كفـر لام)، والمرقب، وطرطوس، ومـدن أخرى، والمدينة الرئيسية فيها هي صور.

وتدعى سورية الرابعة باسم سـورية دمشق، لأن المدينة الرئيسية فيها هي دمشق، وتدعى أيضاً باسم سورية لبنان، لأنه يوجد فيها جبل لبنان المشهـــور، كما أنها تدعى بالغـــالب ببسـاطة بـاسم سـورية، كما يقـــول

إشعيا:«رأس سورية(آرام) دمشق»[إشعيا :٧ / ٨]، فضلاً عن هذا تدعى ثلاثة أجزاء من فلسطين بالسورية، وبناء عليه إن الجزء الخامس من سورية هو فلسطين، وهو يدعى بشكل صحيح باسم الفلسطيني، والمدينة الرئيسية في هذا القسم قيسارية، وهو يبدأ عند قلعة الحجاج[عثليت]، ويمتد نحو الجنوب، مماشياً لساحل البحر المتوسط حتى غزة.

وسورية السادسة، هي فلسطين الثانية، التي المدينة الرئيسية فيها هي القدس، وهي تحتوي جميع المنطقة الهضبية حتى البحر الميت، وإلى قفار قادش — بارينا Barnea ، وبشكل دقيق تعرف هذه المنطقة باسم اليهودية، وهو اسم جزء أطلق على الجميع.

وسورية السابعة هي الجزء الآخر من فلسطين، والمدينة الرئيسية فيه هي مدينة بيسان، عند سفح جبل جلبوع، قرب الأردن، ويضم هذا الجزء الخليل، وسهل جزريل الكبير، ومثل هذا تدعى الأجزاء الثلاثة من العربية باسم السورية، وبناء عليه هناك سورية الثامنة، التي المدينة الرئيسية فيها هي بصرى، وهي تعرف الآن باسم بصريث، وفي قديم العصور باسم برسا، ويحدها منطقة الطرخونية بوساطة الايطورية في الغرب، وتمتد حدودها في الشمال تقريباً إلى دمشق، ونظراً لقرب هذا الجزء من العربية من دمشق، فقد دعي في بعض الأحيان باسم سورية الدمشقية، ولهذا السبب عرف أرتاس[أرتاس الأول — المكابيون ٢ / ٥ / ٨] باسم ملك العربية، في حين أنه كان في الواقع ملك دمشق.

وسورية التاسعة، هي منطقة العربية، التي المدينة الرئيسية فيها هي البتراء، وهي قد عرفت بالقديم باسم النبطية، وأر، وآريوبولس، وهي قائمة عند بركة أرنون ، وعند حدود المكابية والعمورية، وهي قد احتوت مملكة صهيون ملك هشبون، ومملكة عوج ملك باسان، وجبل جلعاد، وتتصل في الجنوب بالعربية الأولى.

وسورية العاشرة، هي التي في العربية، ومدينتها الرئيسية هي مدينة(مونريال» التي تعرف الآن باسم الكرك، وقد عرفت هذه في الأيام الخوالي باسم البتراء في القفار، وهي قائمة فيا وراء البحر الميت، ولها السلطان فوق أراضي مآب، التي قد تعرف أحياناً باسم سورية سوبال Sobal، وتحتوي في داخلها على جميع منطقة أدوم، التي هي جبل سعير مع جميع الأراضي حول البحر الميت ، حتى قادش — بارينا، وإلى عزيون — جابر، ومياه الصراع، على الطريق الذاهب إلى البحر الأحمر، وعبر القفار الشاسعة، حتى إلى الفرات، وهذه هي العربية الكبيرة، والأولى، وتعرف أيضاً بالعربية الأدومية، أي المقدسة، ففيها توجد مدينة مكة، وهي المدينة التي يُعبد فيها محمد(ﷺ)(كذا).

الفصل الثاني

المنطقة الساحلية لسورية كلها

لدى خروج الانسان من آسيا الصغرى، يجد درباً ضيقاً بين الجبال وبين البحر، وهو الذي يدعى باسم بوابة سورية[عمود يوحنا، أو ممر بيلان]، وبعد سفر نصف يوم من هذا المكان باتجاه الجنوب، يصل الانسان إلى اسكندرونة، وخلف هذا يعبر الجبل الأسود(اللكام أو الأمانوس)، وبعد سفر نصف يوم آخر يصل الانسان إلى قلعتي بغراس ودربساك عند سفح الجبل(اللكام)، ويقوم البحر على مسافة عشرة أميال من أنطاكية، وهناك ميناء اسمه السويدية، أو ميناء القديس سمعان، ومن أجل عرض حوله، انظر القسم الخامس — الفصل الرابع، والقسم السابع — الفصل الأول، ومن ميناء القديس سمعان إلى رأس البسيط عشرين ميلاً، ومن البسيط إلى أوغاريت عشرين ميلاً، ومن أوغاريت إلى اللاذقية عشرة أميال، ومن اللاذقية إلى جبلة عشرة أميال، ومن جبلة إلى بانياس خمسة أميال، وعلى بعد خمسة أميال وراء بانياس، وعلى فرسخ واحد عن البحر، تقوم قلعة المرقب الحصينة جداً،

التي امتلكهـــا فيما مضى الاسبتــاريـة، وعند النهــر الـذي يمــر عبر بانياس(انظر الفصل الأول) تنتهي إمارة أنطاكية، وتبدأ كونتية طرابلس، والمسافة من المرقب إلى طرطوس عشريـن ميلاً، وتعرف طرطوس باسم أنطروس، لأنها قائمـة أمام أشعة الشمس، [كـذا والصحيح لأنها مقابل أرواد]، وأرواد جزيرة قـائمة في عمق البحـر، على مسافـة نصف فرسخ من اليـابسـة، وهناك عليهـا مـدينة بنيت من قبل أراديوس ابن كنعـان، وفيها وجد القديس بطرس أم القـديس كليمنت، وكان القديس بطرس في طريقــه إلى أنطاكيـة، وقــد بنى هناك[في طرطوس] كنيســة صغيرة كـرسها على اسم العـذراء المباركـة، وقد قيل بأن هذه أول كنيسـة بنيت على شرفهـا، ولهذا قامـت أم الرب المباركـة بكثير من المعجـزات هناك، ولهذا فإن هذه الكنيســـة مبجلة حتى مـن قبل الكفـــار، وإلى جــــانب طرطوس، وعلى بعـد نصف فرسخ إلى الشرق هناك جبـال، يسكن فيها بعض المسلمين، وتدعى هذه المنطقـة باسم بلاد الحشيشية، وفيهـا حكم من قبل شيخ الجبـل، وهو الذي ســوف نتحـدث عنه فيما بعــد، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من طرطوس تقوم قلعـة عرقة، التي بناها عرقة ابن كنعـــان، (القسـم الامس — الفصل الســـابع)، وهنا تنتهـي سلسلة لبنان[الغربية] وكذلك سلسلة لبنـان [الشرقية]، وعلى بعد نصف فرسخ من قلعـة عرقـة تقع بلدة سين[مـوقع غير معـروف — التكوين :١٠ / ١٧] التي بنيت من قبل سينوس بـن كنعـان، ويدعـو بعض الناس هذه القلعة سينوكيم Sinochim ، ويمتد من هذه البلدة والقلعة سهل جميل وخصب ليصل حتى قلعة الكرك، التي كانت فيما مضى بيد الاسبتارية، ويمتـد هذا السهل لمسـافة عشرة فـراسخ حتى طرطوس، ويحتـوي على عــدد كبير من القـــرى، والحدائق الجميلـة التي فيهـــا أشجـــار التين، والزيتـون، ومـا شـابه ذلـك، وفيهـا أعـداد كبيرة من الجداول والمراعي الخصبة، ولها السبب يسكن هناك في الخيـام التركمان، والمدينيين والبدو، مع أزواجهم وأولادهم وقطعـانهم، والجانب الشرقي من السهل محدود

بجبال ليست كبيرة الحجم، وتبدأ من هناك من مقابل عرقة، وتمتد بعيداً حتى بعلبك، ويسكن هناك مسلمــون يدعـون البـاطنيــة، وهم جماعـة شجعان بواسل يكرهون الصليبيين، وعلى بعد مسـافة عشرين ميلاً من طرطوس تقـوم مـدينة طرابلس، التي يمكن أن نقـرأ حـولها في الفصل السـادس الفصل الثـامن عشر، وعلى مسافـة خمسـة أميـال من طرابلس تقوم أنفة(رأس شقعة جنوب طرابلس — نفين)، وعلى خمسة أميال من نفين تقوم البترون التي تعرف بشكل عـام باسم البترون، وعلى بعد أحد عشر ميـلاً من البترون تقــوم بيبلوس، التي تعـرف بشكل عــام باسم جبيل، وهي إيفيا Eveaالقديمة التي أسسهــا إيفيوس بن كنعان، ومن أجلهـا انظر الفصل السـادس — القسم الثامـن عشر، وعلى بعد خمسـة أميـــال من جبيل تقــوم مـدينـة بيروت، التي من أجلهــا انظر القسم السـادس — الفصل السـادس، وعلى مسـافـة ثلاثة فـراسخ من هناك، باتجاه البترون، وبواسطة النهــر(الذي يعـرف بـاسم نهر الكلب)، هناك مكان يعرف باسم ممر الكلب، وهنا تقوم الحدود بين بطريركية أنطاكية، وبطريركيـة القـدس، وليس بإمكان إنسان اجتيـاز ذلك الممـر أبداً، إلا برضـا المسلمين، لأن بإمكان عـدد صغير منهـم الدفـاع عن ذلك الممـر والتحصن به ضـد أي عدد كان، لأن الممـر هناك قائـم بين جرف جبلي حاد والبحر، وعرضه ليس أكثـر قامة واحدة، وطوله حوالي ثلاثة أرباع الفرسخ، ومن أجل الحصول على عرض حول هذه الأماكن انظر القسم السادس — الفصل الثـامن عشر، وتقوم صيدا على مسافـة عشرة أميال من بيروت، التي تدعي بشكل عام باسم سـاغيتا Sageta ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل السادس، وعلى بعد فرسخين من صيدا تقوم الصرفند، التي تقدم وصفها، وعلى فرسخين من الصرفند يقوم نهر الليطاني، الذي ينبع من إيطـورة، عند لحف حـاصـور، وهو يجري أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الغرب، ويجري مجتازاً قلعـة كوكب، قرب جبل الشيخ، الذي إلى حـده طارد يشــوع الأربعـة والعشرين ملكاً[يشـوع :

١١]، وإلى هذا المكان نفســه طارد يوناثان ديمتريوس(المكـابيـون: ١ / ١٢)، وهو الذي يمـركـز البحر بين الصرفند وصـور، وعلى بعـد ثلاثة فراسخ من نهر الليطاني تقـوم صور، التي دفن فيهـا أورجين، وفي صور كثير من آثار القديسين، لأنه في أيام ديوكلتيان، الرب وحده يعرف عدد الذين تسلموا تاج الشهادة هناك، وقد تحدثنا الكثير عن صور في القسم السادس — الفصلين: الحادي عشر والثاني عشر، وفي القسم السابع — الفصل الأول، وعلى بعد فـرسخ واحد وراء صور يقوم«بئر مـاء الحياة» المشهـور، ويقـوم على مسـافـة قـرابة رميـةسهم الطريق الذي يؤدي إلى الأماكن التـاية. والتي تأتي مياهه(Cant, 4 - 15) على شكل جدول من لبنان، ومع أنه يدعى بئر، بـالمفرد، هناك أربعـة آبار بالشكل نفسـه، لكن تختلف بالحجم، وواحـد منها مـربع وطول جـوانبه أربعين ذراعـاً، بينما مقيـاس الثلاثة الأخـريات حـوالي خمسـة وعشرين، وكلها مسيجـة بأربعـة جـدران من حجـارة كبيرة جـداً،وقـد بنيت بشكل من المتعـذر تهديمــه، وهي بارتفـــاع رمح، لابل أعلى، وهكذا تتجمع الميـــاه فيهم، وتجري من هناك بكل اتجاه خارج الجدران، ومثل هذا هناك مجاري مياه عميقـة وعريضـة بقدر خطوة إنسـان، ومياه هذه المجـاري تروي سهل صور، وتبعد هذه الينابيع مقـدار رمية سهم عن البحر، ومع ذلك تحرك دواليب ستة طواحين، وعلى هذا النبع ينطبق قول الالهي تماماً(الالهيات : ٢٤ / ٣١):« إنني ســوف أروي أفضل حــدائقي، ولســوف أسقي بكميات وافـرة أرض حديقتي، وانظروا لقد أصبح جـدولي نهراً، وغدا نهري بحراً»، وقد تقدم وصف هذا أعلاه في القسم السادس — الفصل الثـامن عشر، وعلى مسافـة تزيد قليلاً عن فـرسخ واحد عن البئر تقـوم قلعــة اسكندرون، التي تقـدم ذكـرها في القسم الســادس — الفصل الثـامن، وعلى بعد ثـلاثة فراسخ من اسكنـدرون، وبعد عبـورك لرأس الناقـورة، وعند لحف الجبل هناك تقـوم قلعـة حمصين(لمبرتي — امبرتي) وذلك على شاطىء البحـر، والمكان هناك مكان مليء بالحدائق، والكروم

والمياه الجارية، وعلى بعد أربعةفراسخ خلف قلعة حمصين تقوم عكا، التي تدعى أيضاً بتولمياس وأبيرون، ولم يتملك بنو إسرئيل هذه المدينة قط، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى بعد ثلاثة أميال من عكا تقوم مدينة حيفا، الواقعة عند سفح جبل الكرمل، وفي جانب الشمال، وعلى فرسخ من حيفا هناك الطريق الذي يقود إلى قلعة الحجاج[عثليت]، وبعد حوالي نصف فرسخ، وعلى جبل الكرمل نفسه يوجد كهف إيليا، ومسكن اليشع، والبئر حيث قطن أبناء هذا النبي، وفيما بعد سكن الرهبان الكرمليون فوق جبل الكرمل، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من حيفا تقوم قلعة عثليت، التي امتلكها فيما مضى فرسان الداوية، وهي قلعة على درجة عظيمة من الحصانة، كما أنها قائمة في أعماق البحر، وبعد ثلاثة أميال من قلعة عثليت تقوم قيسارية فلسطين، ويقدر إطار هذه المنطقة بعشرين ميلاً، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى مسافة فرسخين من قيسارية يقوم حصن أرسوف أودورا[الدورة هي الطنطورة إلى الشمال من قيسارية]، ومحيط هذه المنطقة خمسة عشر ميلاً، وكانت بالعادة ملكاً للداوية، الذين اعتادوا — حتى بعد فقدانهم لها — على دفع ثمانية وعشرين ألف دينار سنوياً إلى صاحب أرسوف، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم الثالث — الفصل الرابع، وعلى بعد ثمانية فراسخ من أرسوف، تقوم يافا، الواقعة على شاطيء البحر، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الثالث، وعلى بعد عشرة أميال من يافا(؟) تقوم قلعة بيروالد Beroald (خرائب إلى الجنوب من يبنى اسمها مينة القلعة) وعلى مسافة عشرة أميال من قلعة بيروالد تقوم عسقلان، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الثامن، وعلى مسافة خمسة عشر ميلاً من عسقلان تقوم غزة، ومن أجل عرض حولها. انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، ومن غزة إلى الدارون(دير البلح) خمسة عشر ميلاً، ومن أجل عرض عن

الدارون، انظر الكتاب الثـاني — القسم الرابع — الفصل الثامن عشر، وهنا نهاية أرض الميعـاد، وقـد تقـدمـت بعض الاشـارات إلى الأمـاكن السـالفة الذكـر في الكتـاب الثـاني — القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرون.

الفصل الثالث

وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة

تمتـد أرضُ الميعاد طوليـاً من دان، القـائمـة عند سفح جبل لبنان، في الشمال، إلى بئر السبع، القـائمـة قـرب قفـار مصر، ومقـدار ذلك ثلاثة وثمانين فرسخاً، أمـا عرضياً فتمتد من البحر المتوسط في الغـرب، مسافة ثمانيـة وعشرين فرسخـاً نحـو الشرق، ودعـونا نتصور أن أرض الميعـاد مقسمة بوساطة خطوط مستقيمة إلى ثمانية وعشرين قسماً، تمتد من جبل لبنان إلى القفـار، التي من خـلالها تذهب إلى مصر، وتقسم مثل هذا إلى ثلاثة وثمانين قسماً بوساطة خطـوط مستقيمة ممتدة عبر الخطوط المتقـدمة من الغـرب إلى الشرق، وبـذلك يحصل لدينا عـــدد كبير من المربعـات، مسـاحة كل واحـد منها فـرسخ واحد أو ميلين، وفي الفـراغ الأول، أو الفـراغ الأخير، الذي هو بـاتجاه الشرق، ويبـدأ في الشمال ويمضي نزولاً نحـو الجنوب توجـد«أر» التي هـي الآن ايروبولس أو بترا، ويوجـد في المربع السـادس والسبعين بتراء القفـار،أو الكرك، ومن أجل عــرض حولها انظر القســم السادس ـ الفصل الثامن والفصـل الثامن عشر، وفي الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر، توجد بصرى التي هي الآن آدوم، وفي الفـــراغ الثـالث، والمربع الخمسين تـوجـد حسبـــان، وفي المربع الحادي والستين توجـد القريات، وفي الفـراغ الرابع والمربع السادس والثـلاثين توجد الماخـور، أو محانيم التي هي الآن حيلون(كـذا وحيلون واقعة إلى غـــربي البحـر الميـت)، وهذا هو المكان الذي اختبأ بـه داود، وسجن به يوحنا المعمدان، وفي الرابع عشر عير AYR أو أنوث سير Anothseyr

[تيروس — عراق الأمير — في جنـوب جلعاد]، وفي السادس سيـزين Sethyn ، وفي الفـراغ الخامس والمربع الثـامن بعلجـاد، وفي الحادي والعشرين جدر[أم قيس] وهي مـدينة مسورة مشهورة على جبل سنير، ومنها يمـر الطريق الذي يمضي من آخون Achon مماشياً الشاطىء لبحيرة طبرية، ويعبر جدر إلى آرام، ولهذا دعـاه اشعيا — ٩ — «طريق البحر» لأنه يمضي مسايراً شاطىء بحيرة طبرية، ويعبر الوادي في أرض عـاشر، الذي يدعـى الآن وادي القـديس جـرجس، الذي تقـع مـدينة السلط على جـانبـه الأيسر[البعنة شرقي عكا — مـزار الخضر]، ويدعى هذا القسم باسـم «جليل الأمم»، ويدعى أيضـاً: مـا وراء الأردن، لأنه يقود إلى ما وراء الأردن أي إلى البلاد التي اسمها آرام، ويقال أيضاً بأن هذه المنطقـة واقعـة في جليل الأمم، لأن الجليل نفسهـا تنتهي هناك عند الأردن، وفي الفـــراغ الســادس والمربع الثــالث عشر، منطقـــة السـواد(الجولان)، التي جاء منهـا بلداد السـوادي، وقرب أسـوار هذه المدينة، وفي الناحية المتجهة نحو جدر، اعتاد المسلمون من دمشق، وبلاد الرافدين، وحران وسورية، ومآب، وعمان، ومن جميع أجزاء الشرق على الاجتماع معـاً، حـول نبـع مـزيريب Phiale ، ولأن المكان جميل هناك كانوا يقيمـون سوقـاً يدوم خلال الصيف، وينصبـون الخيام من مختلف الألوان، التي تعطي منظراً جميلاً جـداً للناظر من مدينة جـدر، وعرفت هذه الخيـام في مـزامير سليمان باسم خيـام جـدر، وفي المربع التـاسع والثـلاثين تقـوم بيسـان، وفي المربع الثـالث والخمسين جـازر، والفـراغ السـابع والمربع الحادي عشر يوجـد ضريح يعقـوب(الشيخ سعـد في حوران — سورية) وعلى فرسخ واحـد من هناك يبدأ الصعود إلى جبل سنير، وفي المربع الرابع والعشرين تقـوم جـدر، وفي الثـالث والثـلاثين عفريم Ephraim (عفرون)، وفي السادس والعشرين فانويل Pha-nuel (بنويل) وفي الثامـن والثلاثين يابسlabes (جبش جلعاد)، وفي الخامس والأربعين العـال، وفي الخمسين سرتان Sartan (زرتان شرقي

الأردن)، وفي الثامن والخمسين كنيسة القديس يوحنا المعمدان، عند المكان الذي جرى تعميد المسيح فيه(قصر اليهود)، وفي الثاني والستين عين غليم(عين حجلة) عبر البحر الميت، وفي الفراغ الثامن، والمربع الثلاثين تقوم فحل، وفي الحادي والأربعين أرنون، وفي الزابع والأربعين بيت جشموت(السويمة)، وفي الحادي والستين بيت حجلة(قصر حجلة) فهناك بكى بنو إسرائيل على أبيهم يعقوب، عندما جلبوه من مصر، وهو بعيد عن الأردن مقدار فرسخ واحد، وفي الفراغ التاسع، والمربع الثاني والعشرين كورزيم Chorazim (خرسا) وذلك عند بداية بحيرة طبريا، وفي السابع والعشرين خرسا(جرش) التي منها أخذت منطقة جرش اسمها، وفي الثامن والثلاثين اسكوت(تل درعلة)، وفي الثامن والخمسين أريحا، التي تقدم وصفها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي الثالث والثمانين طلعة الدم [? Afasantomar] ، وفي الفراغ العاشر والمربع الثامن والثلاثين توجد سليم، وقد بنى في الحادي والأربعين مذبح بحجم مدهش، وفي التاسع والأربعين توجد عين دوك، ويوجد خلفها في الجانب الشمالي بلاد تمبني Tampne [هضبة إلى الشرق من جبال السمرتان شروعاً من تمون جنوباً]، وفي عين دوك أسر بطليموس بن أبوبوس سمعان المكابي[المكابيون : ١ / ١٦ ١٥ — ١٦] بعمل خياني، وهناك من عين دوك منظر بهي نحو الشرق باتجاه بسغا Pisgah وإلى الجنوب حتى إلى أريحا، وفي السادس والخمسين تقوم جلجل، وهو المكان الذي خُتن فيه بنو إسرائيل، وأقاموا لمدة طويلة، وعلى مقربة من جلجل يأتي وادي عكور Achor (في وادي القلط)، وفي الفراغ الحادي عشر تنفصل لبنان عن جبل الشيخ، حيث تقوم دمشق بعيداً عن سفحه في الجهة الشمالية، وقد تقدم وصف دمشق في القسم السادس — الفصل التاسع عشر، وفي هذا الجزء من الجبل هناك الطريق الذي يقود إلى حماه، وفي المربع العشرين هناك جبل يعرف باسم«جبل المائدة»، حيث أطعم الرب هناك وأشبع خمسمائة رجل،

وهناك وعظ بقداس فوق الجبل، وأمضى الليل في الصلاة، ويستطيع الإنسان أن يرى من هذا الجبل جميع المنطقة من حوله لمسافة عشرة فراسخ وأكثر، وهذا الجبل طوله رميتي سهم وعرضه رمية حجر، وعند سفحه هناك نبع، قرب بحيرة طبرية[منية، أو عين تبغه] وعلى بعد ثلاثين خطوة منها، المكان الذي يدعونه باسم عرق النيل، لأنه ينتج سمك Corconus الذي هو غير موجود في أي مكان آخر سوى في النيل، وعلى بعد عشرين خطوة من ذلك النبع، وعلى طول ساحل بحيرة طبرية، ظهر المسيح لسبعة من حوارييه، عندما كانوا يصطادون السمك، وعلى مسافة عشر خطوات بعد ذلك هناك المكان، الذي أشعل فيه الحواريون النار، بعد خروجهم من السفينة، ووضعوا سمكة فوقها، وفي المربع الحادي والعشرين توجد كفرناحوم[تل — حوم]، وهي على مقربة من الشواطىء الشمالية لبحيرة طبرية، على بعد فرسخين، ففيه اعتاد الناس على رؤية البيت والمكان الذي اعتاد معشرو الملك على الجلوس فيه(بيت صيدا)، ومنه استدعي متى من قبل المسيح، وفي الحادي والخمسين تقوم فصيل(عين فصيل)، وذلك على بعد ثلاثة فراسخ من الأردن في منطقة منبسطة، حيث يجري جدول كيرث Che-rith نازلاً من الجبل، فهناك سكن إيليا عندما جلبت الصقور اللحم له(الملوك ١ — اصحاح ٢١)وفي السابع والخمسين جبل القرنطل، حيث صام المسيح، غير أنهم أعلنوا أنه أغوي فوق جبل آخر، على بعد فرسخين، نحو بيت إيل وعاي في الجنوب، ودون جبل القرنطل على بعد رميتي سهم منه هناك نبع اليشع، الذي جعل مياهه حلوة، وهو يتدفق حول جلجل على الجانب الجنوبي من هناك، ويدير هناك ثلاثة طواحين، وينقسم بعد هذا إلى مجريين للماء، يسقيان كثيراً من الحدائق، ويصبان أخيراً في الأردن، وفي الفراغ العشرين، والمربع الثاني والعشرين تقوم بيت صيدا، التي هي مدينة بطرس، وأندرو، وفيليب، وهي قائمة إلى جانب طريق يقود من سورية إلى مصر، إلى حيث يبدأ البحر ينعطف

نحـو الجنوب، وفي الثـامـن والعشرين طبريا، التي منهـا نالت البحيرة اسمهـا فصارت تعـرف باسم بحيرة طبريا، التي كـانت تعرف بالقـديم باسم جنسارث، وهي تمتد بعيداً على طـول شاطىء البحر، ويوجد على الجانب الجنوبي حمامات دوائية، وعند طبرية تنتهي المنطقة المعروفة باسم منطقـة المدن العشرة، التـي حـدودها: مـن الشرق بحيرة طبريا، ومن الغرب صيدا، وهذا هو عرضها، أو طولها فيمتد مسايراً شاطىء البحيرة من الشمال، انطلاقـاً من طبرية نفسهـا حتى دمشق، وقـد عـرفت باسم منطقـة«المدن العشرة» بسبب مـدنها العشرة الرئيسيـة، التي هي: طبرية، صفـد، قادش، نفتـالي، حـاصور، قيسـارية ،كفـر ناحوم، جتـابرة، بيت صيدا، جـرزيم وبيسان التي تعـرف أيضاً باسم سكيـزوبولس، ويطلق على هذه المنطقة عـدة أسماء مختلفة، ذلك أنها تعرف أيضـاً باسم «منطقة المدن العشرة» وايطورية، والراحـوب، وكـابول، وجليل الأمم، ومهما يكن الحال تصل ايطـورية حتى بيروت، التي هـي قـائمـة على بعـد عشرين فرسخاً إلى الشمال من صيدا، وفي المربع التاسع والخمسين تقوم قلعة ادوم(طلعـة الدم)، التي تقوم على الجانب الأيمن، على الطريق من القـدس حتى أريحا، وفي المربع الثـاني والسبعين توجـد هيروديوم(جبل الفـريـديس) حيث كـان هيرود قـد دفن، وفي السـابـع والستين تقـوم مسعـدة، التي هي قلعـة حصينة لا ترام، بنيت من قبل هيرود فـوق تلة حقيلةHachilah ، وفي الفـراغ الثـالث عشر، والمربع الرابع والعشرين، تقوم المجـدل، التي هي قلعة مريـم المجدلية، وهي تمتلك سهـلاً واسعاً موائماً للرعي، وذلك على طرفيها الغربي والشمالي، وفي السابع والأربعين توجد عمان، القائمـة في مكان بديع، مليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، — وفي السـادس والخمسين تقـوم عـاي، التـي تقـدم ذكـرها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي التاسع والستين تقوم مدينة الزيب، وعلى مقـربة من القفار، وهي تعـرف باسم الزيف، فهناك أخفى داود نفسـه، ويقع إلى الجنوب منها مباشرة قفار معين، التي يوجد فيها جبل الكرمل،

حيث سكن نابال Nabal ، وفي الفراغ الرابع عشر، والمربع الثاني توجد صوبا، التي دعيت في مزمور سليمان باسم برج لبنان، وفي الخامس عشر قادش — نفتالي(قدس) التي جاء منها برق بن أبي نعوم، الذي قاتل ضد سيسرا فوق جبل الطور، وكانت هذه إحدى مدن اللجوء، وكانت خصبة جداً، وفي الثالث والأربعين بيت أوليا، وفي الحادي والثلاثين قلعة كوكب الهوا Belvoir وفي الرابع والثلاثين بيسان التي تعرف أيضاً باسم سكيزوبولس، وهي قائمة فيما بين جلبوع والأردن، وعلى أسوارها كانوا قد علقوا رؤوس شاؤول وأولاده، وفي الثالث والأربعين تل أوزه(أوتياسير — شمال شرق شكيم) حيث حكم ملوك إسرائيل أولاً، وفي الرابع والخمسين تقوم بهوريم Bahurim وصخرة بوهان Bohan ، وفي الثالث والستين تقوم تقوع، حيث ولد عاموس، وهناك دفن بعدما طعنه الملك آحازيا بمدية في جبهته، وتقع هذه المدينة على مقربة من قفار تقوع، وبين تقوع وعين الجدي يقوم وادي التبريك، حيث هزم يهوشافاط(شعفاط) الأدوميين وبني عمون، وفي الفراغ الخامس عشر والمربع الثلاثين (يوجد المكان حيث) قاتل برق ضد سيسرا، وفي الثالث والثلاثين(مكان) آخر معارك شاؤول، وفي الرابع والخمسين توجد شجرة نخيل دبورة التي نقرأ عنها في سفر القضاة: ٤ / ٥(نخلة دبورة في عطارة شمالي البيرة) وفي الخامس والخمسين بيت إيل أو لوز،حيث رأى يعقوب السلم، وفي السابع والخمسين عفريم(عفرة — الطيبة)، وفي التاسع والخمسين بيت حاني، وفي الثاني والستين مجدل عدر، وفي السابع والستين بيت صور، وفي الفراغ السادس عشر والمربع التاسع عشر، توجد صفد، وفي الثاني والعشرين نفتالي — توبيت، وفي الخامس والعشرين دوثان[خان جب يوسف]، عند سفح جبل بيت أوليا، وهو مكان غني بأشجاره ومروجه، وفي هذا المكان يمكن رؤية الجب الذي ألقي فيه يوسف، وهو على مقربة من الطريق الذي يقود إلى جلعاد، وهو الذي يتصل في بيت صيدا بالطريق

الذاهب من سورية إلى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثان قرب جبل بيت أوليـا، ومن هناك يستمـر عبر سهل أسـدرايلون(مرج ابن عـامـر) وذلـك على طول سفـح جبـل الطـور، وعلى الجانب الأيسر عبر سهـل مجيدو، حيث يصعد جبل عفـرة، ويمر عبر غزة إلى داخل مصر، وتطلق كلمة دوثان على كل من البلدة والوادي، وحدث في وادي دوثان أن قام السـوريون بالإحاطة باليشع(الملوك ٢ — اصحـاح ٦)، وقد قـادهم إلى وسط السـامـرة، وفي السـابع والثـلاثين البيرة، وفي الخامس والأربعين دان، حيث كـان العجل الذهبـي، وفي السـادس والخمسين رامـه، وهـم يعتقدون بأن هذا المكان قد ذكر من قبل إرميا:«في الرامة سمع صوت»، وهناك رامـه أخـرى قـرب تقـوع، على الطـريق الذي يقـود إلى الخليل، وأخرى في منطقة سبط نفتالي، ليس بعيداً عن قلعة صفد، وأخرى قرب Spploni ، وكـذلك أخـرى قرب شيلوه، وهؤلاء جميعـاً يقعن فـوق تلال، وهناك أيضاً رامة أخرى قـرب اللد، حيث تقدم ذكرها في القسم السـادس — الفصل الرابع، وفي التـاسع والخمسين القـدس — المدينة المقـدسة، التي تقـدم وصفهـا في القسـم السابع — الفصل الثـاني، وفيما سيأتي في الفصل السـابع، وفي الحادي والستين قبر راحيل، وفي السبعين الخليل، وذلك إلى اليمين من ممرا، وتقـوم الخليل القـديمـة حيث حكم داوود لمدة سبع سنوات، فوق رابية على اليمين، وهي مهدمة، وعلى بعد ثلاث رميـات سهـم إلى الجنوب من هناك تقع الخليـل الجديدة، حيث يوجـد الكهـف المزدوج، وعلى بعـد رميـة سهم طويلـة إلى الغـرب من الكهف يوجـد حقل دمشق، الذي تقدم ذكـره أعلاه(القسم السـابع — الفصل الثاني)، وعلى رمية سهم نحـو الجنوب، حيث يحفرون في الحقل، يوجد المكان الذي قتل فيه قـابيل هابيل، وعلى بعد رميتي سهـم من هذا الحفير نفســه، وذلك إلى الغـرب، على تلة إلى الجانب الجنوبي من الخليل القـديمـة، هناك وسط الصخـور كهف قيـاسه ثلاثين قـدمـاً بالعـرض، والقيـاس نفسه بالطول، حيث ناح آدم وحـواء على هابيل، ومن الممكن

رؤية مكان فـراشهما هنـاك، مع نبع مـاء يتـدفق هنـاك، وفي الثـالث والسبعين دبير أو قريات — سفير(الظاهرية)، وفي الفراغ السابع عشر، والمربع السـادس توجـد لكش التي استـولى عليهـا أبناء دان، وسمـوها ليسدان Lesedan ، اشتقاقاً من اسم أبيهم، وهي تعرف أيضاً ببساطة باسم دان فقط، وقيسارية فيليب، وتعرف الآن باسم بانياس،وأمام باب هذه المدينة يلتقي(نهرا)«أر» و«دان» ويشكـلان نهر الأردن، وفي الثـالث عشر خيمة حابر القيني، وفي السـابع عشر كابول(النبي سبلان)، ويطلق المسلمون على هذا المكـان اسم قلعة زبلون، واسمها هذا لا يتـوافق مع مـا جـاء في الملوك الأول — الاصحـاح التـاسع، وفي الرابع والعشرين إربد، وفي الحادي والثلاثين المكان الذي قـاتل فيه جدعون ضـد أمالك Amalek ، وفي الثالث والأربعين سبسطية أو السامرة، وكان منظر هذه المدينة في غـاية الجمال ويشرف على منظـر بهي فـوق البحـر، وهي الآن نابلس، على بعد رميتـي سهم من بئر يعقوب، حيث نقـرأ عنه في يشوع — الاصحـاح الرابع(؟)، وعلى الطرف اليمين تقـوم جـرزيم، التي من المعتقد أنها المكان الذي أشـارت إليه المرأة السامرية عندمـا قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»، وعلى الجانب الأيسر البلدة التي يعتقـد أنها شكيم القديمـة، أما شكيم الثانيـة فمن المعتقد أنها قـرية طوباس، وهما تبعدان عن بعضهما بعضاً مقـدار رميتي سهم، فضلاً عن هذا فإن الأرض التي منحهـا يعقـوب إلى يـوسف مـلاصقـة لهذا البئر، وهـي واد طويل، وخصب، وفـائـق الجمال، وقـد دفنت عظام يوسـف في شكيم، وفي الخامس والخمسين جبعه شاؤول حيث قتلت الـزوجة اللاوية(القضاة : ١٩ / ١٤)، وحيث كـان شـاؤول قـد ولد(صمـوئيل الأول : ١٠ / ٢٩)، وفي السـابع والخمسين Astaroth (? Anathotl) [عند عطارة قـرب جبعـة]، وفي الحادي والستين بيت ساحـور العتيقـة، وفي الثـالث والستين بـزت(غـــربي بيت لحم)، وفي الســـادس والستين بيـت هكاريم(جبل الفريديـس)، وهي مدينة قائمـة فوق رابية مـرتفعة،حيث

يمكن منها رؤية العربية كلها حتى جبل سعير، وأماكن اختباء داود، وجميع المناطق المحيطة بالبحر الميت حتى جبل عبريم، وإلى الغرب جميع شاطىء البحر من رامة الخليل حتى بئر السبع وقفار شور، وفي التاسع والستين ممرا حيث سكن إبراهيم، وكانت هناك البلوطة التي حدثنا إرميا بأنها بقيت حية حتى أيام الامبراطور ثيوديوس، وقد تابعت باستمرارنموها، وغدوها أكبر، ومنها نمت البلوطة التي يمكن رؤيتها في هذه الأيام هناك، والتي هي محل تبجيل، وهذه الشجرة، وإن كانت جافة، لقد تبرهن أنها دوائية، لأنه إذا ما حمل فارس قطعة منها معه، فإن فرسه لن يصاب بالعرج، وفي الفراغ الثامن عشر، والمربع الحادي عشر، توجد حاصور، وهي مدينة حصينة جداً(يشوع ١١ / ١)، وفي الحادي والعشرين تقوم NAASON في الوادي، وتقوم في الثلاثين عين دور، وفي الخامس والثلاثين جرزيل، على الجانب الغربي من جبل جلبوع، وذلك فوق مكان مرتفع بعض الشيء، وهي تعرف الآن باسم زرعين، وأمام أبوابها يمكن رؤية كفر نابوت، وينبع إلى جانب المدينة نبع، وعلى بعد رمية سهم عن جرزيل هناك مشهد فائق الجمال، إنه مشهد الجليل كله حتى جبال فينيقية وجبال الطور والكرمل، وجبل عفريم، وفي الثامن والثلاثين توجد زمين أو زليم(سيا) حيث شفا المسيح المصابين بالجذام(لوقا : ١٧ / ١٢)، وفي السادس والأربعين هناك الهيكل فوق جبل جرزيم، الذي تقدم ذكره أعلاه(القسم الأول — الفصل العاشر) وهناك يوجد أمامها عيبال حيث بنى يشوع مذبحاً وقدم ضحايا إلى الرب، وكتب أيضاً سفر التثنية، وتبعاً لبعض الروايات الوصايا من واحد من الاثنين، وقد وضع قسماً من الشعب مع كاهن ولاويين فوق عيبال، وقسماً آخر مع كهنة ولاويين فوق جرزيم، وقد طلبوا التبريكات واستنزلوا اللعنات بالتناوب حسبما أمرهم موسى، وفي التاسع والأربعين لبنه(في خان لُبّن)، وهي قرية جميلة، وهناك لبنة أخرى في منطقة سبط يهودا، وفي الثامن الخمسين تقوم بيت عور التحتا،

وفي الحادي والستين بيت زكـريا،(كذا والصحيح أن بيت زكـريا في عين كـارم) حيث حيث مـريم ايـزابل، وفي الفـراغ التـاسع عشر والمربع السادس والعشرين تقـوم رومة حيث كان يونـه قد دفن ومن هناك نقل إلى المشهد (Ravenna) ، وفي الثامن والعشرين الطور،وفي الثلاثين نين، حيث أقـام المسيح ابن الأرملة من الموت، وفي الثـالـث والثـلاثين قاتل أهاب ضـد السوريين. وفي الخامس والثـلاثين قتل الفرعـون نيخو Necho يوسيا Josiah ، وفي السادس والخمسين شيلوه فـوق رابية، ويعـرف هذا المكان الآن باسم النبي صمـوئيل، وهو على بعد أكثـر من فرسخ من جبعة شاؤول، والمسافـة نفسها من الرام، وهناك رقد التابوه، وخيمـة العهـد، الذي صنعـه مـوسى، وفي السـابع والخمسين الجيب(جبعـون) الذي جاء منه الجبعـونيـون، وعقـدوا معـاهدة مع يشـوع(يشـوع: ٢٢) عند سفح رابيـة، وفي الثـامن والخمسين بيت نوبة(صموئيل الأول: ٢٢ / ١٩)، حيث أمـر شاؤول بقتل الكهنة، وفي الثـامن والستين ناحـال اشكـول(وادي اشكول) حيث حمل رجـلان عنقـوداً من العنب(العـدد : ١٣ / ٢٢)، وفي الفـراغ العشرين، والمربع الرابع والثلاثين سـولم[شولم] على لحف جبل الشيخ، وذلك على الجانب الأيسر للطريق الذي يقـود إلى جـرزيـل، وغـالبـاً مـا طرق اليشع هذا المكان وهو على طريقـه من الكرمل إلى جلجل[الملوك الثـاني: ٤ / ٨]، وعبر من هناك من خلال بيسان في المنطقة السهلية للأردن، لأن الطريق أقل مـرتفعـات، ومن شـونم جـاءت أبيشج الشـونميـة، الفتـاة التي احتضنت داود[الملوك الأول:١]، وفي السـادس والأربعين كفر حـارث، حيث دفن يوشع، وفي الثـامن والخمسين تقـوم سكوز Succoth ، وفي التـاسع والخمسين عمـواس، التي هـي سيكـوبولس (Nicopolis)Sycopolis ، وبصعـوبة تـدعى بيـت لحم، بيت لحم اليهودية، لتمييـزها عن الأخرى الموجـودة في عفريم(عين شمس)، وفي السـادس والستين زكـلاج Ziklag [في تلال الخليل]، وفي الفـراغ

الحادي والعشرين، والمربع التاسع عشر القديس جرجس(اللد)، حيث من المعتقد أن ذلك القديس قد ولد، وهي قرية قائمة في منطقة تلية، في وادي جميل وخصب يمتد حتى بحيرة طبريا في منطقة سبط أشير، التي قيل عنها في سفر التكوين:«أشير خبزه سمين»[تكوين :٤٩ / ٢٠]، وفي السابع والعشرين توجد الناصرة، وفي الثلاثين المزرعة، وفي الحادي والثلاثين قلعة الفولة، ورامة الفولة، وراء الطريق الذي يقود إلى جرزيل، وفي سهل جرزيل الكبير أو سهل مجيدو، وهو أيضاً يدعى باسم سهل الفولة، أو الجليل الأدنى، أو سهل منطقة الجليل، ويمتد هذا السهل من طبريا مروراً ببيت لحم إلى مجيدو وجبل عفريم ثم يعود عبر جبل الطور وبيت أوليا إلى طبريا، وفي الثالث والخمسين عين عريك(إلى الغرب من النبي صموئيل)، وفي السابع والخمسين قريات — جيريم، وفي الحادي والستين المكان الذي جرى تعميد الخصي فيه(عين — حنينا)، وفي الثاني والعشرين، والمربع الرابع عشر توجد تيرون(تبنين)، وهي قلعة حصينة جداً بنيت من قبل صاحب طبرية من أجل الدفاع ضد صور، وهي على سبعة فراسخ من صور، ومن أجل صور انظر القسم السادس — الفصل الخامس، وفي الثاني والعشرين قانا الجليل، وفي الخامس والعشرين الصفورية، التي من أجلها أنظر القسم السابع المقبل، وفي الخامس والخمسين مسيدا Maceda [أو مكيدا Makkedah شرقي اللد، وربما قرب وادي عجلون]، وفي السابع والسبعين تل الصافي[قرب بيت جبرين]، التي من أجلها أنظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثالث والعشرين، والمربع الثامن والعشرين القلعة الملكية(معليا في التلال شرقي عكا)، وكانت ملكاً لطائفة فرسان التيوتون، وهي مليئة بالفواكه وجميع الأشياء الجيدة، والفواكه قليلة من حولها، وفي الخامس والثلاثين مجيدو أو الزوبا(في مرج ابن عامر)، وفي السابع والخمسين لكش Lachish (شرقي الرملة)، وفي الثاني والستين قبر المكابيين(المعروف أنه قرب

اللطرون)، وهذا يمكن رؤيته من البحر،لأن المكان يقف مرتفعاً، وفي الثاني والسبعين تمنه(تبنه)، وفي الفراغ الرابع والعشرين، والمربع الثامن عشر تقع قلعة مونت فورت(القرين)، وفي المربع التاسع عشر هناك قلعة كانت ملكاً لفرسان طائفة التيوتون، فوق جبال سهل ابن عامر، وفي التاسع والعشرين تل القيمون، حيث قتل لامخ قابيل بوساطة سهم، وفي السادس والثلاثين قاقون، أو منحته(كذا ولا علاقة بينهما)، وفي الخمسين شارون(سهل يافا)، فوق جبل شارون، وفي التاسع والخمسين بيت شمس، وفي السادس والسبعين بئر السبع أو جبلين(بيت جبرين)، وقد تقدم وصف هذا المكان في القسم السادس — الفصلان الخامس عشر، والثامن عشر، وفي الفراغ الخامس والعشرين والمربع الحادي والخمسين تقوم اللد أو ديوسيبولس، وفي الفراغ السادس والعشرين، والمربع الخامس والخمسين رامتايم صوفيم(صموئيل الأول: ١)، التي هي الرملة الآن(كذا) وقد تقدم وصفها في القسم السادس — الفصل الرابع، وفي الفراغ السابع والعشرين، والمربع السابع صرفند الصيداويين، وأمام الباب الجنوبي يمكن رؤية بيعة قائمة في المكان الذي جاء فيه النبي إيليا إلى المرأة الصرفندية، وسكن هناك، وأقام ابنها من الموت، زيادة على هذا، من الممكن رؤية الغرفة الصغيرة التي سكن فيها، وفي الخامس عشر اسكندرون، التي تقدم وصفها أعلاه في القسم السادس — الفصل الثامن، وفي السادس والعشرين المكان الذي قتل فيه إيليا أنبياء بعل(الملوك الأول: ١٨)، وفي الحادي والستين عقرون، وفي الخامس والستين أشدود، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفراغ السابع والعشرين، والمربع الثالث صيدا، التي هي مدينة عظيمة، كانت قائمة في سهل طويل، يمتد من الجنوب إلى الشمال، عند سفح جبال لبنان الغربية، وقد بني بين خرائبها مدينة أخرى صغيرة، لكنها حصينة، وهي قائمة من أحد الجوانب في البحر، ولها من

جـانبيهـا قلعتين حصينتين، تقـوم إحـداهما في الشمال فـوق صخـرة في البحـر، وقد بنيت هناك من قبل حجـاج ألمان، أمـا الثانيـة ففي الطرف الجنوبي، فـوق تلة، وامتلك فيها مضى هاتين القلعتين مع البلدة فرسـان الداوية، والأرض هناك خصبـة جداً، والهواء لطيف جـداً، وفي الثالث عشر، صور ، وفي الثـامن عشر عكا، وفي السابع والعشريـن حيفا، التي من أجلها انظر القسم السـادس — الفصل الثالث، وفي الثـلاثين قلعة الحجاج[عثليت]،وفي الأربعين قيساريـة، وفي السابع والأربعين أرسوف أو الطنطورة أو Antipatris ،وفي الثـالث والخمسين يـافـا، وفي الخامس والخمسين ميناء اليهـود(مينة روبين — شمالي يبنا)، وفي السـابع والسبعين غزة، ومن أجل هؤلاء جميعاً انظر الفصل المتقدم.

الفصل الرابع

أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيها وراء الأردن، نحو الشرق

يمتـد جبل الشيخ فيها وراء الطريق الذي يقـود إلى حماة، الذي تقـدم وصفـه في الفصل السـالف، وانتبـه إلى أن في لبنان وجبل الشيخ وسعير أو سنير(كذا وسنير هو جبل الشيخ) وجلعاد، والمنطقـة التلية حول نبع أرنون، والهضاب بين عمان ومآب والعمـورية، كلها جبل واحد متصل، مع أن أجزاء متعددة منه تحمل أسماء مختلفة بسبب ارتفاع قممها، وأعلى هؤلاء جميعاً هو جبل جلعاد، وبنـاء عليه يمكننا الاستماع إلى إرميا وهو يقول:«جلعاد أنت لي، رأس من لبنـان»[ارميا : ٢٢ / ٦]، ونقبل صحة ذلك حرفياً، ويمتد جبل الشيخ المتقدم الذكر حوالي عشرة فراسخ، ومن بعـد ذلك تنعطف سلسلة الجبـال وتستـدير نحـو الجنوب، ويدعى أول هذه الجبـال باسم جبل سعير أو سنير، وهـو ينتهي عند سفـوح جبل جلعـاد عند مكان يطل مواجهـاً مدينة بيسـان وجبل جلبوع، وآخـرهم ويدعى أيضـاً سعير، وهـو ينتهي قـرب القفـار، عند النهـاية الجنوبيـة لأرض الميعـاد، وهناك حسبما جـاءنـا الخبر في سفـر التكوين[١٤ / ٦]

ضرب كـدر لعـومـر والملوك الآخـريـن الذين معـه الحوريين في جبلهم سعير،لكنه لم يكن آنذاك يعـرف باسم سعير، ذلـك أنه حمل اسم سعير لأن عيسـو الذي حمل الجبل اسمـه منه لم يكن قـد ولد بعـد، ولهذا من المعتقد أنه دعي بهذا الاسم عن طريق التـوقع واستباقاً للحـدث، ونقرأ في سفر التثنيـة — الاصحاح الثالث(كذا):«أنتم مـارون بتخم أخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير»[التثنيـة : ٢ / ٤]، وقد قيل هذا في قادش — بارينا، عندمـا كـانـوا على وشك القـدوم إلى جبل سعير هذا،لأننا لم نقـرأ أن بني إسرائيل قـد جـاءوا في ذلك الـوقت إلى جبل سعير هذا، الذي هو قريب من دمشق، وقد سكـن عيسو في هذا الجبل عندما رجع يعقوب من بلاد الرافدين، حسبما قـرأنا في«التكوين:٣١»، وذلك عندما أمسك لابان بيعقوب عندمـا أُستلب على جبل جلعاد، وكذلك مـا جاء في الاصحاح التـالي من أن يعقوب عندمـا كان على طريقـه التقى ملاك الرب وقـال له:«هذا معسكر الرب»، فـالمكان مـوجـود على ذلك الجبل نفسه، ومن هناك أرسل رسلاً إلى عيسـو،وعاد الرسل إليه وأخبروه بأن عيسـو كـان قـادماً لمقـابلتـه، ومعـه أربعمائـة رجل، وبناء عليـه أمضى يعقـــوب في المعسكر — أي محنايـم — تلك الليلة، وأرسل هـدايا إلى أخيه، ونهض باكراً، وأخذ زوجتيـه وأولاده، واجتاز مخاضة يبوق، التي تبعـد حوالي ثلاثة فـراسخ عن محنايم، وفي الاصحـاح الثاني والثـلاثين، رأى عيسـو قادمـاً، إلخ، وجـاء بعـد هذا:«فرجع عيسـو ذلك اليـوم في طريقه إلى سعير»(تكويـن:٣٣ / ١٦)، وهذا لا يمكن فهمه حسبما أشير إلى سعير، الذي هو قرب القفـار، إلى الجنوب، لأنه بعده يزيد على مـائة ميل، وذلك بسبب مختلف الزوجـات الـلائي تزوج منهن، فقـد كـانت عنده زوجه هي أهـوليبامة بنت عنى بنت صبعـون الحوي، الذي سكن في سكيزوبولس أو بيسان قرب بحيرة طبرية وغير بعيد عن جبل سعير، وزوجة أخرى هي بسمة ابنة إسماعيل، وأخت نبايوت، وقد سكن أبناء حوز في جبل آخر اسمه سعير ليس بعيداً عن قفار فاران، على مقربة من

مكان إسماعيل، جدهم لأمهم، الذي أخبرنا عنه في«التكوين ٢١» بأنه سكن في القفار، وصار رامياً بالقوس، وهناك أيضاً جبل ثالث اسمه سعير على حدود أشدود وعسقلان، في حصة ميراث سبط يهوذا، والذين سكنوا هناك عرفوا باسم الأدوميين، وإليهم ينتسب أنتباس Antipas، وابنه هيرود، وكل من ينتمي إلى عسقلان يدعى أدومي، ويمكننا أيضاً أن نقسم جميع الأرض فيما وراء الأردن هكذا: وأول منطقة إلى الشمال هي الطرخونية، وقد عرفت بهذا الاسم بسبب قلة ماء المطر، غير أنهم يجمعون ماء المطر في صهاريج وبرك وينقلونه من مكان إلى آخر بوساطة طرخونات(أنابيب مثل الأفاعي)، وعرفت هذه المنطقة في«يشوع ١١» باسم سهل لبنان، وهو يمتد حتى جمالا(الحصن شرقي بحيرة طبريا) وإلى بحيرة طبريا، وهناك في المقام الأول أرض عوص، وفي القسم التالي إلى الجنوب نصف سبط منشا، ثم يلي ذلك سبط جاد عند سفح جبل جلعاد، ثم سبط رأوبين، بما في ذلك مملكة سيحون ملك هشبون، ويلي هذا منطقة مآب السهلية دون جبل عبريم، في شطيم، حيث نزل بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة أمام أريحا، وتمتد أرض مآب حتى البتراء في القفار، مسافة عشرين فرسخاً تقريباً، ويأتي أخيراً جزء من أرض عمون التي تمتد طولياً لتغطي طول البحر الميت، ويصل طرفها الجنوبي حتى ما حول جبل سعير، بقفار فاران قرب قادش — بارينا، وهناك على هذا الطرف قفار سيناء والبحر الميت، غير أن منطقة مآب ومنطقة عمون لم تكونا جزءاً من أرض الميعاد.

الفصل الخامس

وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن

يبدأ لبنان بعد جبل الشيخ(انظر الفصل الثالث) وجبال لبنان الشرقية حيث حاصور على نهر الليطاني(القسم السادس — الفصل السادس)، وتمتد هذه لمسافة سفر خمسة أيام، وخمسة فراسخ دون طرابلس، ودون

هذا إلى الجنوب، يأتي جبل شارون(جبل يافا)(انظر الفصل الثاني المتقدم) وعلى مسافة فرسخ طويل واحد من عبلين Abilene يقوم جبل بيت أوليا حيث قتلت يهوديت هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من جميع أجزاء الجليل تقريباً، ويمتد باتجاه الغرب ليصل إلى قانا الجليل، وعلى مقربة منه في الجهة الجنوبية الوادي في سهل دوثان، حيث غسلت يهوديت نفسها، وهو الذي اجتازته عندما عادت إلى بيت أوليا، ودون هذا الجبل نفسه، في جهة الجنوب، يوجد سهل يمتد من قانا الجليل حتى صفورية، وهوسهل خصب وجميل، ويأتي بعده جبل آخر نحو الجنوب، وهو الذي يمتد من الناصرة في الغرب حوالي الثمانية فراسخ إلى الشرق، حيث دوثان(خان جب يوسف)، وعلى بعد فرسخين من الناصرة يقوم جبل الطور، الذي سيأتي وصفه فيمايلي في الفصل السابع، وفيما وراء جبل الطور، نحو الشرق يقوم وادي شوى، الذي هو وادي الملك، وعلى بعد فرسخ واحد من جبل الطور يقوم جبل النبي ضاحي(حرمون الصغير)، وهو هضبة صغيرة، روابطها حرمونية، وهي أرض مرتفعة وليست جبلاً، وهي متصلة بجبل الطور وفوقها عين دور، حيث سكنت المرأة التي كانت فيها روح عادية(صموئيل الأول:١٨)، ويمتد حرمون، الذي على طرفه الشمالي نعيم Naim، حوالي أربعةفراسخ حتى نهاية بحيرة طبرية، وعند سفح جبال الناصرة، والطور، وحرمون، وإلى جانب البحر، يقوم جبل الكرمل، الذي في نهايته القصوى، وذلك نحو الجنوب الشرقي قتل لامخ قابيل بسهم، ومن أجل وصف للكرمل انظر ما تقدم، وإلى الجنوب خلف حرمون هناك جبال جلبوع، وهي تمتد من بيسان إلى جرزيل نحو الشرق لمسافة ثلاثة فراسخ، وعلى بعد قرابة رمية سهم من هذا المكان، ينبع نبع جرزيل، حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم عندما كان شاؤول في جلبوع، وهناك مجرى ماء آخر يسيل من حرمون بين هذا النبع وبيسان، ويجتمع بهذا النبع، ويتدفقان معاً عبر وسط

الوادي إلى الأردن، ومقياس هذا الوادي حوالي الفرسخين بالعرض، وفيه قاتل جدعون ضد مدين Midian [القضاة: ١٢]، وقاتل أهاب ضد السوريين[الملوك الأول:٩] وكان ذلك في هذا السهل أيضاً، على الجانب المتجه نحو الأردن، لأنه الوادي المشهور، الذي يمتد بعيداً حتى البحر الميت، وبعد جلبوع ونحو الجنوب، تأتي البيرة، حيث تبدأ جبال السامرة، وبين هذه الجبال والأردن حوالي الثلاثة فراسخ، وتقع فيها أرض تمنه(تمّون)، التي تحتوي على جبال عالية جداً، وهي تمتد نزولاً إلى المنطقة السهلية للأردن، وأما الجبل الذي تقوم عليه البيرة،فيبعد مقدار فرسخين، وهو ينشطر إلى جبلين باتجاه الجنوب، وعلى أحدهما، وهو الذي قائم في الغرب، والذي هو جبل مرتفع، وضع فيه يربعام واحداً من العجلين الذهبيين، ووضع العجل الآخر على بعد نصف فرسخ، على جبل أعلى قائم باتجاه الشرق، ومهما يكن من أمر، فإن بعضهم يعتقد بأن ذلك قد كان في دان، التي تدعى ليش Laish ، وتقوم في الوادي بين هذين الجبلين شكيم التي هي نابلس الآن، وهي مكان فائق الجمال، لكن لا يمكن تحصينها لأن الحجارة من الممكن رميها من الجبلين هناك، ومن أجل عرض عن هذين الجبلين، انظر الفصل الثالث، ويأتي بعد هذا إلى الجنوب المنطقة التلية لليهود ية والقدس، ومن أجل عرض عن القدس، وصهيون، والجوار، انظر الفصل السادس، والفصل السابع، ومن أجل القرنطل، انظر الفصل الثالث، وتقع عين الجدي وراء القرنطل باتجاه الجنوب، وعين الجدي جبل مرتفع كثيراً على الشاطىء الغربي للبحر الميت، ولهذا الجبل شكل غريب حيث فيه شعاب صخرية منزلقة ووديان، وفي عين الجدي اعتادت نباتات البلسم على النمو، لكن في أيام هيرود صاحب عسقلان، أخذت الملكة كليوباترا هذه النباتات إلى مصر، بفضل مساعدة مارك أنطوني، وفي مصر يستطيع المسيحيون فقط العناية بها، وعند نهاية عين الجدي يقوم جبل الكرمل، حيث سكن نابال، ووراء ذلك تقوم عمالق -Am

alek، وبعد ذلك بـاتجاه البحر الأحمر تقوم قـادش — بارينا، التي منها أرسل مـوسى الجواسيس، وقد أقـام بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة، ومن هناك أمروا بالارتحال حول جبل سعير الموجود في أدوم قرب قفار تل معين، نحـو الجنوب — الشرقي، ومن هناك رجعوا بوسـاطة طريق البحـر الأحمر، وجرى وصف قفـار تل معين في الفصل الثـالث، وجبل بيت لحم في الفصل العـاشر، وجبل رامـة في الفصل الثـالث، وليكن في هذا كفاية فيما يتعلق بالجبال.

الفصل السادس

مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة

ينبع الأردن من سفح جبل لبنان(الفصل الثـالث)، ويقـولون بأن نهر دان ينبع من نبع اسمـه بركـة الرام(Phiale) التي تراها دومـاً مليئة لكنها لم تفض قط، وهي قـائمة في الفراغ السـادس والمربع الثامن عشر، ويقـولـون بأن سبب هذا، لأنهم وضعـوا قشـاً في ذلـك النبع فـوجـدوه ثانيـة في دان، ولهذا السبب قالـوا بأن ذلك هو النبع الحقيقي للأردن، ولهذا السبب أطلـق المسلمـون على ذلـك النبع اسم«ميـدان»، وهذا ترجمة لكلمـة معناها«مـاء دان»، وقـد دعـاه القـديس مـرقص دلمانوتة(مرقص:٨ / ١٠)، وسماه القديس متى مجدل(متى :١٥ / ٣٩)، وحين بدأ نهر الأردن على هـذه الشـاكلة فقـد فصل الايطوريـة عن الطراخونيـة، وهو يتدفق في البـداية ويسير باتجاه الشرق، لكن بعد ذلك باتجاه الجنـوب، وفي منتصف الطريق بين منبعـه وبحيرة طبرية يـدخل وادياً حيث ينتشر هناك فيتحول إلى مستنقعـات، وخاصـة عندما يذوب الثلـج مـن على جبل لبنـان، ويعـرف هذا المكـان بـاسـم بحيرة ميرون(الحولة)، وهـو المكان الذي تحارب فيـه يشـوع مـع يبين ملك حـاصور وأربعـة وعشرين ملكاً آخـرين، ويجف هذا الماء كله تقريبـاً في الصيف، وتنمو النباتات، حيث الأسود والدببة، وأمثالها من المخلوقات

تمتلك بيوتها، ومن ثم يمكن إقامة صيد ملكي هناك، ويجري نهر الأردن من هناك ليدخل بحر الجليل فيما بين كفرناحوم وكورزين، وعرف هذا البحر بهذا الاسم لأنه مجاور للجليل، وهو أيضاً يعرف باسم بحر طبرية، اشتقاقاً من أقرب مدينة منه، ويعرف أيضاً باسم بحر جنسارث، وذلك حسب رواية بيد Bede وتتولّد أمواجه الملتوية من الريح، أو من قطعة الأرض الصغيرة التي اسمها جنسارث، التي يجري عبرها متدفقاً، وتبعاً لبيد فإن طوله مائة وأربعين ستاديا، وأربعين ستاديا هو عرضه، ويتدفق الأردن بعد هذا ويجري باتجاه الجنوب، ويدخل إلى البحر الميت، الذي يفصل العربية عن اليهودية، وهو يمتد نحو الجنوب قرابة خمسة وثلاثين فرسخاً، أي أنه يمتد حتى قادش — بارينا وقفار فاران، ويعتقد بعضهم بأنه يمتد حتى البحر الأحمر، هذا والمسافة بين هذين البحرين تقدر بسفر خمسة أيام، ويعتقد الناس أن المياه على الطريق، التي ورد ذكرها في الخروج ١٥، والتي اسمها مياه مارة تأتي من هذين البحرين، وأعلن بعضهم أن مياه الأردن لا تدخل إلى البحر الميت، لكنها عندما تصل إلى هناك تبتلعها الأرض، لكن الذين يعرفون يقولون بأن هذه المياه تدخل إليه وتخرج منه، وأن مياه الأردن بالأخير تبتلع من قبل الأرض على مسافة ليست بعيدة من هناك، ولهذا ترتفع مياه البحر عندما ترتفع مياه الأردن، وذلك عندما يذوب الثلج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، ولون هذا البحر دخاني بشكل دائم، وهو مظلم كأنه مدخنة الجحيم، ويصب نهر يبوق Jabbok في الأردن من الجهة الشرقية، وهو ينبع في الفراغ الثاني، والمربع الخامس والأربعين، ويجري أحيانا إلى الغرب وأحيانا إلى الشمال، وهو يدخل إلى الأردن على بعد ثلاثة فراسخ من بحيرة طبرية، وهو يشبه نهر أرنون الذي ينبع من جبل بسغا، ويدخل إلى الأردن تحت جازر، ومثل هذا يدخل نهران صغيران آخران إلى البحر الميت، أحدهما عند بدايته وثانيهما بعد ذلك بقليل على مسافة

تسعـة فـراسخ إلى الجنوب، وفي الغـرب النهـر الصغير الذي دعـاه يوسفيوس الأردن الصغير، من هناك يدخـل إلى البحر الميت، وهو ينبع عند القلعة الملكيـة (معليا)، وهو متصل بنهر صغير آخـر يأتي من قرب كـابول [الملوك الأول: ٩/ ١٣]، وهو يـدخل إلى بحيرة طبرية عند بيت صيـدا، وقـريب من المكان نفسـه، ولكن أكثـر نحـو الجنوب، هناك نهر صغير آخر يدخل فيها، ويأتي هذا النهـر من ينابيع موجودة على أطراف دوثان، وإلى جانب مجدله هناك نهر صغير آخـر يأتي من جبل بيت أوليا، ويدخل إلى البحـر، وينبع نهر قيشـون الصغير أيضـا عند سفح الطور، على الجانب الشرقي حيث قـاتل برق ضـد سيسرا، ويتشكل هذا النهـر من ميـاه الأمطار التي تتساقط على جبل الطور، وجبل الشيخ، والتـلال الصغيرة لجبل الشيخ، ويجري جـزء منـه وينزل حتى نهاية بحيرة طبرية، بينما يجري الشطر الآخـر ليصب في البحر المتـوسط على بعد ميل واحـد من حيفـا، وثلاثة أميـال من عكـا، وهو يدخل إلى البحـر قـرب المكان الذي قتل فيـه ايليـا كهنة بعـل (الملوك الأول: ١٨)، ويتلقى هذا النهـر كثيراً من الماء من جبل عفـريم، ومن الأماكن التي هي حـول السامـرة، ومن جميع سهل جـزر يل العظيم، وجبل قـابيل (تل قيمون)، ومجيـدو، وهناك نهر صغير آخـر يتـدفق من الجانب الشمالي لجبـل الشيخ، وهو يصب بالنهـر الذي يجري متـدفقـاً من نبع جـزريل، ويصب في الأردن دون بيت لحم، ويصب نهر يبوق أيضاً، وهو الذي تقـدم ذكره أعلاه — الفصل الثـالث — في الأردن مقابل العـال، ويجري نهر كيرث نزولاً من الجبل الذي أطعم فيـه ايليـا من قبل الصقـور، ويعبر إلى الشرق قـرب الفصيل، وقـد تقـدم وصف جب اليشع في الفصل الثـالث، فضـلاً عن هذا تجتمع المياه الموجودة حـول القدس بالمياه التي تسيل نازلة من جبل عين الجدي، وتدخل الى البحـر الميت عند بدايتـه، دون المكان الذي يصب نهر الأردن فيه.

وأول الأنهار التي تصب في البحر المتوسط، وهو موجود بالشمال: نهر الليطاني، الذي من أجله انظر أعلاه الفصل الثاني، ويأتي بعده باتجاه الجنوب «بئر مياه الحياة»، الذي تقدم وصفه أعلاه في القسم السادس— الفصل الثامن عشر، ويلي ذلك النهر الذي يجري قريباً من القلعة الملكية (معليا)، الذي يتدفق فيما بين القرين ويودين Iudyn ، ويدخل إلى البحر ويصب فيه قرب لمبرتي (حمصين)، ثم يلي ذلك— قرب عكا نهر يصب في البحر وهو ينبع على بعد خمسة أميال، ثم يأتي بعد ذلك نهر قيشون، الذي تقدم للتو وصفه أعلاه، ثم يجري بعد ذلك نهر من قرب سيسلك Sycelec ، وهو الذي يصب في البحر فيما بين قيسارية وأرسوف، ويأتي بعد ذلك نهر يجري من موضع بين بيت زكريا وعمواس خلال وادي ريفائيم Rephaim ، ويمر قرب الرملة، ويصب في البحر قرب يافا، وبعد هذا هناك نهر يجري نزولاً من قرب بيت صور، ويسير أولاً باتجاه الغرب، ثم ينعطف جنوباً، ويجتمع مع النهر القادم من عين حقور في لحي، والذي يجري من الشمال، وقرب هذا المكان كان قد جرى تعميد الخصي (عين حنينا)، وهو يجري من هناك نزولاً إلى ستاؤل Staol قرب عسقلان، من جهة الغرب، ومن ثم يصب في البحر، ويأتي أخيراً نهر بيصور Besor ، الذي ينحدر من جبل الكرمل، فيما وراء بير السبع، وينعطف باتجاه غزه، ومن ثم إلى البحر.

الفصل السابع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

كل من يود زيارة الأماكن المقدسة في أرض الميعاد المختارة، عليه أن يبدأ من الناصرة، حيث بدأ مخلصنا، ويبعد هذا المكان سبعة فراسخ عن عكا، وعلى الطريق إلى صفورية يجد الانسان قلعة، قيل ولد فيها جيمس ويوحنا ابنا زبدي [قلعة شفا عمرو]، ويرى الانسان في الناصرة المكان

الذي أعلن فيه ملاك الرب جبريل، إلى العذراء مريم المباركة بأن القدر الذي رسم منذ البداية من أجل مخلص العالم قرب موعد تنفيذه،وحول هذا وللمزيد من المعلومات انظر القسم السابع- الفصل الثاني،ويوجد في البيعة التي بنيت هناك ثلاثة مذابح،وقد نحتت هذه البيعة من الصخر،وذلك مثل بيعتا المهد والقيامة،وفي الحقيقة جزء كبير من المدينة القديمة قد نحت في الصخر،وهذا ما يمكن رؤيته في هذا اليوم،وهناك من الممكن رؤية الكنيس،الذي جعل منه الآن كنيسة، حيث تسلم المسيح سفر إشعيا، وقرأ منه«روح المولى الرب علي»[اشعيا: ٦١ / ١]، وعلى بعد رمية أربعة أسهم إلى جنوب المدينة يقوم المكان الذي يدعى«قفزة الرب»،وهو حيث أراد اليهود أن يرموه إلى مكان سحيق، لكنه نجا من بين أيديهم، ورؤي فجأة على طرف الجبل المقابل، وعلى بعد رمية سهم المكان الذي يمكن أن يرى فيه طبعة جسده على الصخرة، ومن ذلك الجبل يمكن للإنسان أن يرى جبل الطور، وجبل الشيخ(حرمون) الأصغر، وحرمونيم، وقرى: عين دور، ونين، وجرزيل، وعرض جميع سهل مرج ابن عامر الكبير وعمقه، وعلى بعد فرسخين من الناصرة تقوم الصفورية، وهي مكان ولادة القديسة حنة، وهناك قلعة جميلة جداً فوق البلدة، ويقال بأن يواكيم قد ولد هناك، وهذا المكان موجود في ديار سبط أشير قرب وادي الكرمل(وادي الملك)، وعلى مسافة فرسخين ونصف الفرسخ من صفورية تقوم قانا الجليل، التي جاء منها سمعان القاني وناثائيل، وفيها من الممكن رؤية المكان الذي وقفت عليه جرار الماء الست، حيث حوّل المسيح الماء إلى خمرة، وغرفة الطعام حيث كانت المائدة قائمة، وهذه الأماكن مثلها مثل الأماكن الأخرى التي عمل فيها المسيح معجزات، كلها تحت الأرض، وينزل الناس درجات كثيرة إليها، ويدخلون إلى كهف، مثلما يدخلون إلى موضع البشارة، والمهد، وأماكن أخرى كثيرة، ويبدو أن سبب هذا هو الهدم المتوالي للكنائس، حيث علت خرائبها فوق الأرض، وبعد

تسوية هذه الخرائب أقيمت فوقها أبنية أخرى، وبناء عليه بنى المؤمنون أدراجاً تقود إلى الأماكن الأصيلة، ومن ثم قاموا بزيارة الكهوف، وعلى مقربة من هذه المدينة، وفي جانب اليمين هناك رابية طويلة ومستديرة، تقوم على سفوحها وجوانبها المدينة، ودونها، نحو الجنوب، يوجد سهل جميل، وخصب، وممتع، وهو يمتد نحو الصفورية، والنظام الذي على الحجاج اتباعه في زيارة هذه الأماكن هو الذهاب من عكا، والسير خمسة فراسخ نحو الشرق حيث تقوم قانا الجليل، ومنها إلى الجنوب عبر الصفورية والناصرة، وعلى فرسخين من الناصرة يقوم جبل الطور، حيث تبدلت هيئة الرب، وهناك من الممكن رؤية خرائب ثلاثة هياكل، بنيت بناء على رغبة بطرس، وهناك أيضاً خرائب أبنية كثيرة، حيث هي الآن بيوت للأسود وللحيوانات المفترسة الأخرى، وعلى هذا يوجد هنا أيضاً مكان مناسب للصيد الملكي، والجبل صعب الارتقاء، وهو مرتفع جداً، وموائم للتحصين، وعند سفحه، في الجانب الجنوبي، وعلى الطريق الذي يقود من سورية إلى مصر، يوجد المكان الذي قابل فيه مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل الملوك الأربعة في المنطقة المجاورة لدمشق، وعند سفحه في الجهة الغربية، في مقابل الناصرة، تقوم البيعة التي بنيت فوق المكان حيث قال المسيح لحوارييه:«لا تخبروا أحداً بالذي رأيتموه»، إلخ، في حين يسيل من سفحه، على الجانب الأيسر، نهر قيسون، وعلى فرسخين من الطور، نحو الجنوب الشرقي، توجد نين، حيث أقام المسيح ابن الأرملة من الموت، وعلى مسافة خمسة عشر فرسخاً من هناك توجد الناصرة، ومن هناك إلى القدس طول الطريق مائة وثلاثة(؟).

الفصل الثامن

الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون

عندما تزور هذه الأماكن الأعظم قداسة، التي لا يكاد يكفيها يوم واحد، عليك أن تدخل من باب بنيامين، أي من باب القديس ستيفن، ثم عليك قبل كل شيء أن تزور كنيسة الضريح المقدس، الذي هو المكان الأكثر قداسة في العالم، وهذه الكنيسة دائرية، وقطر الدائرة، ثلاثة وسبعين قدماً بين الأعمدة، من دون احتساب الأجزاء نصف الدائرية التي مقياسها ثلاثين قدماً، وهي قائمة حول دائرة الأعمدة، وحول ضريح الرب القائم في وسط هذه الكنيسة نفسها، هناك استدارة مفتوحة، وبذلك جميع القسم الداخلي من كنيسة الضريح المقدس مفتوح نحو السماء، وكنيسة الجلجلة مجاورة لهذه الكنيسة وهي ذات شكل مستطيل، وهي بمثابة شرفة لكنيسة الضريح المقدس، ولها سقف منخفض بعض الشيء، غير أن الكنيستين تحت سقف واحد، وقبل أن يتسلم المسيحيون الحكم في هذه الأجزاء، بنيت كنيسة بحجم بيعة فوق المكان الذي صلب فيه المسيح، وحيث وجد الصليب، لكن عندما تملك المؤمنون هذه الأجزاء لقد اعتقدوا أن هذا كان صغيراً، وضيقاً، ولذلك قاموا بتشييد بناء جديد، وعالي النفقات، وجميل، وقوي متين، ضم في إطاره جميع الأماكن المقدسة، وباب الضريح المقدس منخفض كثيراً وصغيراً، وقد جرى وصف شكل الضريح المقدس في القسم السابع — الفصل الثاني، وهو كهف من دون أية فتحات، ولهذا لا يوجد فيه مكان يمكن للضوء أن يدخل منه إليه، وهناك تسعة مصابيح تؤمن الاضاءة الدائمة، وهناك أيضاً كهف آخر أمام هذا الكهف الذي فيه الضريح المقدس، وله الطول نفسه، والعرض والشكل، وهذان الكهفان يبدوان وكأنهما كهف واحد، حيث يدخل الانسان من أحدهما إلى الآخر، وإلى داخل هذا الكهف الخارجي دخلت النساء عندما قلن:«من الذي سيزيح الحجرة من باب الضريح»؟ وقد انزاحت هذه الحجرة حتى باب الكهف الداخلي، وفي هذا اليوم هناك جزء كبير موجود أمام هذا الباب المتقدم الذكر، وقد نقل الجزء الباقي منها إلى جبل صهيون، حيث يستند

عليها أحد المذابح، وإلى جانب خلوة الضريح المقدس هناك عمود يحمل صورة تمثل القديس بانتاليون Pantaleon ، وكان عندما قام واحد من المسلمين باقتلاع عيني هذا التمثال، سقطت عيناه فوراً على الأرض، ويقوم جبل أكرا(الجمجمة) حيث صلب الرب على بعد مائة قدم وثمانية أقدام عن موضع الضريح المقدس، وعلى الانسان أن يصعد تسعة عشر قدماً فوق رصيف الكنيسة، إلى المكان الذي نصب فيه الصليب، والصدع الموجود في الصخرة حيث جرى تثبيت الصليب، يبلغ من الحجم مقدار ما يتسع لاستيعاب رأس إنسان، وهو عميق مفتوح من المكان الذي وضع فيه الصليب حتى رصيف الكنيسة، أي مقدار تسعة عشر قدماً، ومايزال لون دم مولانا يسوع المسيح ظاهراً حتى هذا اليوم في الصدع في الصخرة، وكان هذا الصدع موجوداً تحت يده اليسرى، وجرى بناء مذبح فائق الجمال قرب هذا المكان، حيث كانت يده اليسرى، وقد زين بالرخام، وقد عملت أرضية هذه البيعة ورصفت أيضاً بالرخام، أما الجدران فقد غطيت بالرخام، وزينت بأعمال الفسيفساء، والمكان الذي جرى تثبيت الصليب فيه عبارة عن فتحة عمقها كفان، وهي واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب رأس إنسان، وعلى بعد عشرة أقدام من الجمجمة، وعلى الجانب الأيسر، هناك مذبح يوجد تحته عمود، عنده جرى جلد الرب، وقد جلب إلى هذا المكان من بيت بيلايطس، وجرت تغطيته بحجر المذبح بطريقة يمكن بوساطتها لمسه، ورؤيته، وتقبيله من قبل المؤمنين، وهو حجري من نوع الرخام السماقي الداكن، مع بعض البقع الحمراء الطبيعية، وهي التي يدعوها العامة بقع دم المسيح، وقد جرى نقل جزء آخر من هذا العمود إلى القسطنطينية، وهناك مثل هذا مكان آخر، على الجانب الأيسر من الكنيسة، فيه عمود اسطواني صغير، يقال بأن يسوعاً قد ربط إليه وجلد، وعلى بعد اثني عشر قدماً إلى الشرق من المذبح، يذهب الانسان من أمام العمود، وينزل ثمان وأربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة(حنة)

الصليب، ويوجد هناك بيعة مع مذبحين، تحت الأرض، ففي هذا المكان تم العثور على الصليب، ومن المعتقد أنه كان واحداً من خنادق المدينة القديمة، التي كانت تطاح إليها الصلبان بعد إنزال الأجساد من عليها، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة قرب الصليب مع النساء الأخريات لم يكن تحت الذراع الشمالي للصليب، حسبما يعتقد كثيرون، بل أمام وجه الابن، تقريباً في مواجهة الغرب، ومن الممكن رؤية هذا المكان عند سفح الصخرة المتقدمة الذكر، وعلى مقربة منها يمكن رؤية المكان الذي غسل فيه يوسف الرامي ونيقوديموس يسوعاً بعدما أنزلاه من على الصليب، ويقال بأن الرب يسوع قد أشار إلى هذا المكان، وأعلن أنه كان وسط العالم، وهو يقوم في وسط شرفة جوقة المنشدين، وعلى الجانب الأيسر من شرفة جوقة المنشدين هناك موضع سجن المسيح، وقرب هذا المكان الذي قابل فيه مولانا مريم المجدلية، وذلك عندما قام من الموت، وقد افترضت أنه الحدائقي فقالت له:«سيدي، إذا كنت أنت قد حملته من هناك، أخبرني أين مددته، فأنا سوف أنقله»، وقد أقاموا في هذا المكان مذبحاً، ذكرى لهذا الظهور،وذلك فوق في مقابل الضريح المقدس، ويذهب الانسان من هناك إلى الباب الغربي، حيث تحولت القديسة مريم المصرية إلى الإيمان، بسبب أنها لم تستطع أن تدخلها مع بقية المسيحيين الآخرين، ويوجد أيضاً في هذه الكنيسة عدد كبير من المذابح المبنية بشكل جيد، والحسنة التزيين.

ويتوجب بعد هذا على الحاج أن يذهب إلى جبل صهيون، وعلى الطريق هناك — عبر مايقابل برج داود — يجد الانسان المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا جيمس أخو يوحنا بالسيف، ويقترف خطأ من يقول بأن رأسه قد جلب إلى هناك بأيدي الملائكة من يافا، ودفن هناك، وأول ما يجد الانسان على جبل صهيون كنيسة القديس المخلص،التي كانت في يوم من الأيام بيت كيفياس، ففيه سكن المسيح وأقام حتى

الصباح، بعدما اعتقل، وحدث هناك أيضاً أن قام رؤساء الكهنة مع جميع أعضاء المجلس بالبحث عن شهود زور ضد يسوع، في سبيل قتله، وفي هذا المكان حدث أن قام الكاهن الأعلى، وقال له:«أستحلفك بالرب الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الرب» وقد أجابه يسوع قائلاً:«من الآن تبصرون ابن الانسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء»[متى:٢٦ / ٦٤ — ٦٥]، ثم قام الكاهن الأعلى بتمزيق ثيابه، لكن ما يشبه مئزر المسيح لم يمزق، الأمر الذي يرمز إلى نمط تهديم الكنيس وقوة الكنيسة، ثم أعلنوه مجرماً يستحق الاعدام، وبصقوا في وجهه، وضربوه ولكموه، وسخر آخرون منه واستهزأوا به وهم يضربونه، ولطموه على وجهه وضربوه وغطوا عينيه قائلين:«تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك»؟ وشتمه آخرون كثر منهم، وتفوهوا بالتجديف وهم يخاطبونه وفي العادة من الممكن رؤية جزء من العمود الذي ربط إليه حتى الصباح وجلد، وهناك أيضاً في هذا المكان من الممكن رؤية السجن، الذي سجن المسيح فيه بعد ارفضاض مجلس التعذيب، وبقي فيه حتى الصباح، حيث سمع ما لا يحصى من الشتائم وتحمل كثيراً من الاهانات من عبيد لا يساوون شيئاً، وهناك أيضاً حجر كبير فوق المذبح، وقد قيل بأنه الحجر الذي كان موضوعاً فوق ضريح المولى يسوع وعلى رمية حجر نحو الجنوب من هذا المكان، هناك المكان الذي سكنت فيه العذراء مريم الرائعة، بعد صعود ابنها إلى السماء، وهناك أيضاً العلية التي فارقت فيها هذه الحياة، وهناك أيضاً كنيسة القديس يوحنا الانجيلي، التي قيل بأنها أول كنيسة بنيت في العالم، وفي هذه الكنيسة اعتاد هذا الرسول على إقامة القداس لتلك الملكة الأكثر قداسة مادامت حية، واعتاد الناس أن يروا في هذا المكان صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وقد أعلنوا بأنها جلبت من جبل سيناء على أيدي الملائكة، وذلك استجابة لدعاء القديس توما، وهو عائد من الهند، وعلى مقربة من المكان المتقدم الذكر قاعة العشاء الأخير، وهي بناء كبير

مبلط، فيه تعشى المسيح مع حوارييه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر إليهم عدة مرات بعد قيامته، وقد جرى بناء بيعة تحتها، وهنا جرى اختيار متى حوارياً، وقد أنزلت الروح القدس على الحواريين، وجرى اختيار القساوسة السبعة، كما جرى رسم القديس جيمس الأصغر أسقفاً للقدس، ومن الممكن رؤية هذه الأماكن جميعها كل واحد منها على حدة، وهنا من الممكن رؤية الجرن الذي صب فيه المسيح الماء، لغسل أقدام حوارييه، وعلى مقربة قريبة من هناك قبور سليمان، وداوود، وملوك اليهودية الآخرين، جزئياً داخل كنيسة جبل صهيون، وجزئياً خارجها، في الطرف الشمالي، وليس بعيداً عن هناك ضريح القديس ستيفن، الشهيد الأول، الذي دفن فيه بعد العثور على جسده.

الفصل التاسع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

عندما ينحدر الانسان قادماً من جبل صهيون، يجد المكان الذي عندما كان الحواريون يحملون العذراء الرائعة إلى قبرها في وادي شعفاط، أراد الكاهن الأعظم لليهود أن يختطف جسدها، لكن يده تيبست مباشرة، وهناك أيضاً كنيسة تعرف باسم كنيسة صياح الديك، حيث توجد حفرة عميقة فيها بكى بطرس بمرارة، ويمضي الانسان من هناك إلى الجنوب إلى الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة من الفضة، وهو المبلغ الذي باع فيه يهوذا المسيح، ثم يذهب الانسان إلى نبع سلوان، عند سفح جبل صهيون، على مقربة من قصر سليمان، ويتدفق منها الماء إلى البركة التحتا، وإلى بركة استحمام سليمان، ولا تتدفق هذه المياه بشكل دائم لكن بين آونة وأخرى، وتتلقى البركتان كلتاهما الماء من نبع جيحون، الذي ينبع في حقل القصار حيث حمل ربشاقة Reb-shakeh ضد الرب لدى سماعه بالناس على السور، وإلى الشرق وعلى

مقـربة مـن هاتين البركتين يجري نهر قـدرون، الذي يتغـذى من الميـاه المتجمعـة من الأراضي المرتفعـة، من ذلـك: من رامـة، ومن عين توت Anathoth ، ومن ضريـح ملكة عـــديـابين Adiabene ، ويمكن للانسان أن يسمع خرير اندفاع الماء وهو يتدفق من مكان بعيد من تحت ضريح العذراء، وهكذا تجتمع هذه الميـاه مع بعضها وتجري منحدرة إلى وادي جهنم Gehinnon ، الذي يدعى أيضاً باسم محلة توفت -Toph et ، وفي هذا الوادي أيضاً صخرة زحلت Zoheleth ، وجب روجل Rogel ، حيث صام أدونيا Adonijah عندما حاول أن يجعل نفسه ملكاً، فـالحدائق والبسـاتين تسقـى بميـاه نهر سيحـون، وعندمـا يمضي الانسان قاطعاً شعفاط وذلك انطلاقاً من نبع سلوان، في مقابلة الهيكل، يمكنه أن يرى عند سفح جبـل الزيتـون ضريح يهوشـافـاط(قبر زكـريا حاليـاً) ملك اليهودية، حيـث يوجد فـوقه أهرام جميل جـداً، وعلى بعد أكثر من رمية حجر إلى الشمال من هذا الضريح يوجد المكان الذي صلى المسيح فيه، وبعـد ذلك على مسافـة رمية حجر، توجـد كنيسة جيسماني، حيث الحديقـة التي دخل المسيح إليها مع حـوارييه، وذلك على جـانب جبل الزيتـون، وهي مـرتبطة بـالصخـرة المجـوفـة التي تطل من الجبل، فتحت هذه الصخرة جلس الحواريون، عندمـا قال المسيح لهم:«اجلسوا هنا وصلوا حتى لا تتعـرضوا للإغـواء»، ومن الممكن رؤية المكان الذي جلسوا فيه في هذا اليوم، ومن الممكن أيضاً رؤية المكان الذي أخذته فيه الحشود، وحيث جرت خيـانته من قبل يهوذا بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية عـلامة رأسه الأجـرد على الصخرة المنزلقـة، وكذلك آثـار شعره، ومن الممكن رؤية عـلامات أصـابعـه على الجانب الآخر من الصخـرة، وكأنهم قـد طبعوا فـوق عجين، ويقال بأن هـذه العلامـات قد حـدثت لدى محاولته تسلق الصخرة عندما اعتقل من قبل الحشود، وهذه حكاية مـدهشـة، حيث تحدث الناس الذين عـانـوها، وحكوا أنهم لم يتمكنوا بالأدوات المعدنيـة ليس فقط من قطع أية قطعة مـن هذه الصخرة لا بل

لم يتمكنوا من خدشها وإثارة الغبار منها، ومثل هذا، نجد في المكان الذي صلى فيه، وبما أنه كان متألماً صلى لوقت طويل، وأخذ عرقه يتساقط مثل الدم فوق الأرض، كما أن علامات ركبتيه ويديه قد انطبعت فوق الصخرة، علماً أنه لا يمكن قطع شظية من هذه الصخرة ولا من الصخرة الأخرى، ويمر الطريق الصاعد إلى جبل الزيتون بين هذا المكان وجيسماني، مقابل كنيسة العذراء المباركة، والمسافة من باب الكنيسة المتقدمة الذكر، أي كنيسة جيسماني إلى باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة التي فيها ضريح العذراء الرائعة، خمسين خطوة، وذلك باتجاه الغرب، لكن في قلب الوادي، لابل على طول سفح جبل الزيتون، وكانت هذه الكنيسة قبل خراب القدس فوق سطح الأرض، غير أنها الآن دون سطح الأرض بشكل سحيق، لأن الرومان — كما أخبرنا يوسفيوس — حاصروا المدينة من هذا الجانب، وقطعوا أشجار جبل الزيتون، والأشجار الأخرى، وملأوها (أو ملأوه — أي الوادي؟) بالركام الذي نتج هناك، وبعد ذلك، أي بعد الاستيلاء على المدينة، تمت تسوية جبل موريا نفسه، وذلك خشية ترك هذا المكان الحصين قائماً، وأمر هدريان برمي أنقاض الهيكل وساحاته في نهر قدرون، وبذلك سبب إغراق المدينة بالملح، ونتيجة لامتلاء الكنيسة، ولأنها كانت عالية، ومقببة وذات أقواس، فقد تمت تغطيتها بالكامل، وصار ما فوقها أرضاً مسطحة، مع طريق عام فوقها، ومع هذا فقد بقي فوق سطح الأرض بناء مثل البيعة، الذي يمكنك الدخول منه، ومن ثم النزول حوالي الستين درجة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وهو من الرخام، مزين بشكل بديع، غير أن الكنيسة رطبة جداً، لأن نهر قدرون يمر من تحتها، وهو مليء بالماء من الأماكن المتقدم ذكرها، وهو أيضاً محتفظ بمجراه القديم، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، يفيض النهر المتقدم الذكر، ويملأ الكنيسة، إلى حد أنه غالباً ما تغطي المياه جميع الأدراج، وتتدفق المياه من باب البيعة القائمة عند رأسهم، والكنيسة منارة بنوافذ موجودة

في الطرف الشرقي، وإذا مـا قـدرنا شكل الأرض، نراهـا قـد وضعت بشكل جيـد، من أجل تلقي النور من جهـة جبل الزيتون، وإلى جـانب ضريح العـذراء هناك ضريح القـديس جيمس الأصغـر، لأن المسيحيين قد دفنوه هنـاك، بعدما ألقى اليهـود به من الهيكل، ولقـد تقدم وصف ضريح الملكة حنة(هيـلانة)، ولم تكن حنـة هذه أم قسطنطين، بل ملكة عديابين، التي أطعمت أخـوانها في القدس، عندما كـانت هناك مجاعة في القدس في السنتين الرابعـة والحادية عشرة من حكم القيصر كلوديوس، وبعـدمـا ينهي الحاج زيارة هذه الأمـاكن عليـه المضي عبر الطريق الذي قلنا بأنه يمـر قرب ضريح العذراء، وبذلك يتبـع المسيح، ويحذو حذوه، عندمـا جاء إلى القدس على ظهـر أتان، في يوم أحد السعف، ويتـوجب عليـه أن يصرخ بصـوت مرتفع مع حشـود المؤمنين:«المجـد لابن داود، مبارك الذي يـأتي باسم الرب، سلام في السماء(كـذا)، ومجد في الأعالي»، وقـد دخل المسيح إلى القـدس مـن خـلال البـاب الذهبي، ويقـوم على مسافـة رمية قوس من ها هنا، هيكل الرب، فـوق جبل موريا، وفي هذا الهيكل كان يسوع مـوجوداً، عندما كان طفـلاً عمره أربعين يوماً، فغنى سمعان له قائلاً:«الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام»[لوقا:٢ / ٢٦]، وجـاءت النبيـة حنة[لوقـا:٢ / ٣٦] وتحدثت إليـه، وإلى جميع الذين كانوا يتطلعون نحو فداء في إسرائيل، وكـان وقتها طفلاً في الثانية عشرة من عمـره وقــد وقف في وسط رؤسـاء الكهنة والكتبــة وأخـذ يعلمهم بواسطة أسئلته الحكيمة بدلاً من التعلم منهم، وهناك — عندما بلغ إلى حـد الرجـولة — تولى طـرد الذين كـانوا يبيعـون ويشترون إلى خـارج الهيكل، وقلب مـوائـد الصيـارفـة، ومقاعـد باعـة الحمام قـائـلاً لهم:«لاتجعلوا بيتي مغــارة لصـوص»،[متى :٢١ / ١٢]، وهنـاك غفـر للمـرأة التـي أخـذت وهي تزني، وشملت مغفــرته العقــوبة والذنب، وهناك قذفـه اليهود بالحجـارة عندما قال:«أنـا وأبي واحد»، وهنا فضل فلسي الأرملة على المنح الكبيرة للآخـرين، وقـد سـوغ العطاء الشعبي

المتـواضع، وأدان الفريسيين المتكبرين، وقـام بعدة أعمال أخـرى تساعـد على خـلاصنا، والشكـل الداخلي للهيكل شكل مـربـع، ومسـور من الداخل، ومقاسـه أكثر من رمية سهم في الطول وكـذلك بالعرض، وله من الجهة الغـربية بابان، يدعى أحدهما بـاسم الباب الجميل، ومن أجل عـرض حوله، انظر مـا تقدم: القسم الأول، الفصل الثـامن، وعند هذا الباب تولى بطرس شفاء الرجل الأعـرج(أعمال:٣)، وليس للباب الآخر اسم يعـرف به، ويوجد على الطرف الشمالي باب، وهناك باب آخـر على الجانب الشرقي يدعى باسم البـاب الذهبي، ويقوم فـوق كل واحد من هذه الأبواب برج مـرتفع، اعتـاد كهنة المسلمين على ارتقـائه والاعـلان عن شريعة محمد(ﷺ) وما من إنسـان يتجرأ على الدخول إلى هذا المكان المغلق،إلاّ وهو نظيـف القــدمين، ومن أجل هذا الأمــر جـرى تعيين حـافظي الأبواب أو البوابين، ويوجـد في وسط هذا المكان المغلق مكان مغلق آخـر، وهـو مـربع وأعلى من المكان الخارجي، وإليــه تصعـد من جهتي الغرب والجنوب بوساطة عدد متواصل من درجات السلالم، وفي وسط هذا المكان المغلق جرى بناء الهيكل، وذلك على المكان الذي شُري من قبل داود، وهو أرض بيدر أرونا اليبـوسي، وذلك من أجل أن يبني مذبحاً للرب، وهو المكان الذي أقام فيه الوباء الذي هاجم الناس، ومن أجل هذا انظـر سفــر صمـوئيـل الثــاني، وللهيكل ثماني زوايا وثمانيـة جوانب،وجـدرانه مغلفة بالرخـام ومزينة بأعمال الفسيفسـاء، ويقال إنه على مقربة من هيكل الرب يوجـد هيكل سليمان الذي فيه هيكلان، وما من مسيحي يمكنه الدخول إليه مالم يُسمع دعاؤه وفقاً لكلمات سليمان، وإذا لم يرد الحاج أن يدخل من خـلال البـاب الذي دخل المسيح منه إلى الهيكل، دعه يـدخل من خلال باب الوادي، الموجـود على مسافـة قرابة رميـة حجـر مـن السـاحـة المغلقـة الكبيرة في الهيكل، وذلـك من جهـة الجنوب، وقبل أن يدخل الباب سـوف يرى على جهة يمينه المكان الذي ربط فيـه القديس ستيفن، عندمـا رجم بالحجـارة، وفي هذا المكان صلى

وهو راكع على ركبتيه من أجل قتلته قـائلاً:«يا رب لا تجعل هذا الذنب في حسابهم».

الفصل العاشر

الحج إلى الأماكن المنسية في القدس

عندمـا تكون قـد دخلت إلى باب الوادي المتقدم الـذكر، ستمـر أولاً على جهة يمينك على كنيسة القديسـة حنة، حيث سترى فيها القبو الذي ولدت فيـه العـذراء مريم الرائعـة، وذلك في المكان الذي قـام فيـه بيت يواكيم والقديسة حنة، وعلى مقـربة من البركة الكبيرة التي تعرف باسم البركة الداخلية، والتي صنعت من قبل حزقيا، وفق الطريقة التالية: فقد أوقف المجـرى الأعلى لجيحـون، وجلبه مبـاشرة إلى الجانب الغـربي من مدينة داود، حيث حفـربصعوبة بالحديد في الصخـر، وذلك حسبما نقرأ في الإلهيات:٤٨ / ١٧، وقاد المياه في وسط المدينة إلى البركة، وذلك من أجل أن يتمكن الناس وقت الحصار من الحصول على ماء الشرب، وأن لا يكون بمقـدرة الآشوريون إعـاقتهم، لكنه قـاد نبع مياه جيحـون إلى البركة العليا، التي هي فوق بـركة استحمام سليمان، وكان هذا العمل قد بدأه آحـاز، لكنه لم يكمله، وأتى إشعيـا(٧ / ٣) على ذكـر هذه البركـة والنبع، وذلك لدى قـوله:«إخـرج وتقـدم الآن... إلى طرف قناة البركـة العليا، إلى سكة حقل القصار»، ودُعيت هذه باسم البركـة العليا، تقديراً لسليمان، ومن أجل ذلك أنظر الاصحـاح الثامن، وهناك بركـة رابعة في المدينة على جهة اليسـار من باب الوادي المتقدم الذكـر، حتى وإن كانت القديسة حنة على اليمين، وتعرف هذه باسم بركة الضأن، على مقربة من مذبح الهيكل، ففيهـا اعتاد النتينميين Nethinims على غسل الضحايا، ومن ثم إحضارها إلى الكهنة، من أجل تقـديمها في الهيكل، ويرى هذا حتى هذا اليـوم، مع قناطرها الخمسة، التي اعتـاد المرضى على الانتظار تحتهـا حتى تتحـرك المياه، لأن كل من خطـا أولاً إلى داخلها بعـد تحرك

المياه يصبح معافى،(يوحنا: ٥ / ٤)وهنا شفى المسيح الرجل الذي كان يعاني من العجز منذ ثمان وثلاثين سنة، ويقول بعضهم بأن البركة الأولى التي هي قرب القديسة حنة هي بركة الضأن، لكنني لا أرى ذلك، ولم نقرأ عن مزيد من البرك في القدس، أو من حولها القريب، وبعد رؤيتك لهذه الأشياء من على جهتي اليمين واليسار، امض بشكل مستقيم على طول الطريق إلى الباب الذي أمامك، الذي يدعى باب القضاء، وهناك سوف تجد بيت بيلايطس، حيث جرى جلد حمل الرب البريء وسخر منه من قبل الجنود، وحيث لكم، وبصق عليه، وتوّج بتاج من شوك، وأدين أخيراً وحكم عليه بالإعدام، وهنا يوجد الطريق الذي يقود إلى الهيكل، وهو الذي من تحته قدم اليهود من الهيكل وهم يصرخون:«اصلبوه،اصلبوه»، وعلى مقربة من بيت بيلايطس يوجد بيت حنة، الذي اقتيد المسيح إليه أولاً، بعدما جرى اعتقاله من قبل الحشود في جيسماني، وهنا جرى استجوابه حول عقيدته، وكأنه معلم هرطقة، وقد لطم بكف يد عبد شرير، ومن هناك أرسل وهو في الأغلال إلى كيفياس على جبل صهيون، ومن أجل وصف لهذا البيت، انظر الفصل الثامن، وعلى مقربة من بيت حنة هناك كنيسة القديسة مريم صاحبة البجعة، وذلك في المكان الذي أغمي فيه على العذراء المباركة لحزنها، لدى رؤيتها ولدها البريء، وهو يحمل صليبه، وقد اعتراه الاعياء بسبب وزنه، وإلى هذا اليوم هناك صخرتان بيضاويتان عظيمتان، قد بنيتا في داخل القنطرة في مكان مرتفع، فعلى هاتين الصخرتين ارتاح الرب عندما كان يحمل الصليب، ولدى متابعة السير على طول الشارع المتقدم الذكر، يجد الانسان على جهة اليمين الطريق الذي يقود إلى باب القديس ستيفن، الذي عندما كان اليهود يقودون يسوعاً عبره، صدفوا رجلاً اسمه سمعان القيرواني قادماً من الريف، فأرغموه على حمل الصليب، وقد حمله حتى جبل أكرا(الجمجمة) حيث تولوا صلبه(كذا)، ومن أجل عرض حول هذا المكان، انظر الفصل الثامن، ولقد قيل بأن

قصر الملك هيرود قد كان قائماً قرب كنيسة القديسة مريم صاحبة البجعة، وليس بعيداً عن قصر هيرود، من الممكن رؤية بيت يهوذا الخائن، حيث سكن مع زوجته وأولاده.

الفصل الحادي عشر

الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل

بعد الحج إلى القدس، وجبل صهيون، والأماكن من حولهما، عليك الذهاب عبر باب داود إلى بيت لحم، التي تبعد نحواً من فرسخين، باتجاه الجنوب، على جهة اليد اليسرى للطريق إلى الخليل، غير أنها تقوم على بعد رمية سهم عن الطريق، وفي منتصف الطريق هناك توجد كنيسة حيث قام إيليا ببعض أعمال التوبة، وعلى مسافة ميل من بيت لحم يوجد ضريح راحيل، وهو موجود على جهة اليمين، قرب الطريق، وهو مغطى بقبة جميلة، قد بنيت من قبل يعقوب، الذي وضع تحتها، فوق قبرها اثني عشر صخرة عظيمة، وذلك تبعاً لعدد أسباط بني إسرائيل، وهذه الحجارة باقية حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من ضريح راحيل يوجد حقل البازلاء الحجرية، حيث يقال بأن المولى يسوع، كان يجتاز مرة من هناك، فسأل رجلاً رآه يحصد البازلاء، عن الذي كان يحصده، فأجابه«حجارة»، وبناء عليه قال له الرب:«ليكونوا حجارة»، وهكذا تحولت البازلاء إلى حجارة، وإلى هذا اليوم من الممكن العثور على بازلاء متحجرة هناك، وقد اعتاد الحجاج على جمعها، ويصل الإنسان أخيراً إلى بيت لحم، التي تقوم فوق جبل لابأس بارتفاعه، غير أنه جبل ضيق، وهو يمتد شرقاً وغرباً، والمدخل موجود من جهة الغرب، ويوجد إلى جانب الباب الجب الذي اشتاق داود أن يشرب منه، عندما كان معوقاً هناك، ويوجد على الباب الشرقي هناك، كهف في الصخر قرب سور المدينة، وهو يبدو حسب أساليب تلك المنطقة، أنه اسطبل مع معلف منحوت بالصخر، حسبما هي العادة في تلك الأجزاء، ولا

أدري كيف يمكنني أن أمـــدح هذا الاسطبل، فهـــو المكـان الذي ولد المسيح فيــه، ولد من العـذراء ، فكـان شمسـاً من نجمــة، وهناك نبع الصدق من الأرض، وأعطت أرضنا المزيـد؟ وبأي كلمات سوف أصف مجد ذلك المعلف الذي بكى فيـه الطفـل الرضيع، وقـد لفّ بقطع قماش رثة، أو لم يكن هو الـذي صنع السمـوات، وكـذلك المعجــزة الرائعـة، فصرخت الملائكة، وركـض الرعـــاة ليروا، ولمعت النجــوم من عليين، وارتعب هيرود، وارتجت القـدس؟ يا بيـت لحم، مـدينة داود، تمجـدي بميلاد داود الحقيقي، صاحب يد جبّـارة، ومظهر وسيم، وكانت المدينة مدينة صغيرة، غير أنها غدت عظيمة بالرب، والذي كان من قبل عظيماً، جعلهـا هناك عظيمة، فأي مـدينة مـوجودة لـن تحسدها، عندمـا تسمع بإسطبلها الثمين، وبمجـد معلفها؟ ولقـد قيلت حولك أشيـاء مجيدة في كل مكان، فأنـت مـدينة الرب، وفي كل مكان يغنـي الناس:«ولسـوف يحكى بأنه ولد فيهـــا، والعلي الأعلى سـوف يثبتهـا»[المزامير: ٨٧ / ٥]، وانتبه إلى أنه على مقربـة من الصخرة المتقدمة الذكـر، وتحته قام المعلف، الذي تمدد فيه ذلك الطفل الجميل المولـود حديثاً، والملفـوف بثياب رثة، تمدد إلى جانب الثور والأتان، ويبدو أنهما كـانا كهفاً واحداً، وفقط قسم إلى قسمين بوساطة باب أقيم فيـه، وبين الأدراج هناك واحد يصعد من البيعـة إلى شرفة المرتلين، وقـد حمل القش من المعلف إلى رومـا من قبل الامبراطورة هيـــلانة، وهو محل تقـــديس وعناية في كنيســـة القـديســـة مـريم[المجـــدليـة] الكبيرة، وقـد دفن القـديـس جيروم على مقـربة من المعلف، وينزل الانســـان من الكنيســـة إلى مكان المهــد الأعظم جمالاً، بوساطة عشرة درجات، تقود إلى البيعـة، وداخل هذه البيعة معمول كله من الفسيفساء،وهي مبلطة بالرخام، وقـد بنيت بشكل عالي النفقات إلى أبعـد الحدود، ومن الممكن إقـامة قـداس فـوق المكان الذي ولدت فيـه العذراء المباركة، وذلك فوق ألواح من الرخام وضعت هناك، هذا ومن الممكن رؤية بعض الصخـور الجرداء التـي ولد عليهـا المسيح، وكـذلك

جـزء من المعلـف الذي مـدد فيـه، حيث ترك دونها تغطيـة، وتزار هذه الأمـاكن بتقوى عظيمـة واحترام، ومن الصعب أن يجد الانسان كنيسـة أجمل منها في العالم، أو واحـدة تعادلها بالقداسة، هذا ويـوجد فيها أجمل الأعمـدة الرخاميـة، مـوضـوعة على شكل أربعـة صفـوف، وهي جميلة متميزة ليس لعددها فقط، بل أيضـاً لحجمها، فضلاً عن هذا إن القناطر الموجودة فـوق الأعمدة معمولة بأكثر الفسيفسـاء جمالاً وأروعه، حيث يمثل برسومه التـاريخ كله منذ خلق العالم حتى قدوم المسيح للحكم في العالم، زيادة على ذلك جميع رخـام الكنيسة معمـول من الرخام المختلف الألوان، وقد زين بوساطة تصاميم متنوعة رائعة، وجرت العادة على أن يحتفظ في كنيسـة القـديسة مـريم في بيت لحم، وعلى الجهـة اليسرى من الجدار، في مكان مخصص، بحبل الصرة العـائـد للرب وبغـرلتـه، وعلى الجانب اليمين من السـدّة، أي في الجانب الجنوبي، هنـاك الموضع الذي دفن فيه الأبرياء المقدسين، ومن الممكـن رؤية مذبح مقام هناك، غير أن الشطر الأعظم منهم كـانوا قـد دفنـوا في مكان يبعـد ثلاثـة أميـال إلى الجنوب من الكنيسة، وكان واحداً مـن السلاطين قد أمر بحمل الألواح الرخامية الثمينة لهذه الكنيسـة المبجلة مع أعمدتها، إلى القاهرة، ليبني بها قصراً، لكن عندمـا مثل العمال مع أدواتهم في حضرة السلطان، لتنفيـذ أوامره، خرج من الجدار السليم غير المهـدم، الذي لا يمكن إدخال إبرة فيه، ثعبـان له حجم مدهش، فقـام بعضّ أول لوح وصل إليـه، فما كان من اللوح إلاّ أن تفتت، وفعـل الشيء نفسـه باللوح الذي يليـه، وتابع ذلك حتـى وصل إلى اللـوح الأربعين، ووقف الجميـع مندهشين، وإثـر ذلك صرف السلطان نيتـه وألغى قصـده، وبناء عليـه اختفى الثعبـان، وبقيت الكنيسة منذ ذلك الحين، وهي باقيـة حتى هذا اليوم، مثلما كانت في البـداية، ويحترم المسلمـون جميع الكنائس المكرسـة للعـذراء الرائعـة، وهـم يجلون هذه فـوق جميع المتبقي، ومـن الممكن حتى هذا اليـوم رؤية أثرالثعبـان على كل واحـد من الألواح، وكأنها قـد حـرقـت بالنار،

وبالإضـافة إلى جميع مـا تقـدم إنه لمدهش حقاً، كيف تمكن الثعبـان من المرور فوق الألواح، وذلك لدى رؤية الجدار كم هوناعم ومصقول كأنه زجـاج، وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسـة، يوجـد دير للرهبان، يصعـد إليـه الانسـان بوسـاطة عـدة درجـات، ومن الممكن أن يرى في الكهف الزنزانة التي تـاب فيهـا القـديس جيروم، وقـام بكثير من أعمال الترجمة والشروح المتعلقـة بالكتـابات المقـدسـة، وكـذلك يمكن رؤية فـراشـه، وغـرف العمل في الدير الذي كـان رئيسـاً له، وعلى رميـة حجـر باتجاه الشرق بالنسبة للكنيسة المتقدمة الذكر تقوم كنيسة القديسة باولا وابنتها يوستـوخيوم Eustochium، وقد بنيت فـوق المكان الذي تابتـا عليه، وفيها يمكن رؤية ضريحيهما، ويوجد تحت الكنيسـة المتقدمة الذكر كهف عظيم، يوجد فيه بيعة، قـد قيل لنا بأن العذراء قد جلست هناك مرة مع ابنها، وذلك من أجل أن تمتلك منفردة المزيد من المتعة بالنظر إليه، وهو الذي رغب الملائكة بحمله، ربٌّ ربٍّ، جـالس فـوق البراءة بجـلالتـه، جـالس فـوق عـرش مـرتفع، مســاو بالمظهـر للأب، وذلك وسط مجد القـديسين، وقد ولـد قبل ظهور نجم الصبـاح، ويقـال بأنها عصرت في هذا المكان فـوق الأرض ما كـان في صدرها بشكل كـامل، ولذلك فإن الأرض هناك بيضاء، وتبـدو وكأنها حليب متخثر، ولقـد قيل إنه إذا ما فقـدت امرأة حليبهـا، يمكن أن تستعيده مبـاشرة، إذا ما وضعت قليـلاً من تراب هذه الأرض في كأس ماء، وشربـت ذلك، وعلى بعد ميل من بيت لحم، كـان الرعـاة — حسبما جاء الخبر في الانجيل — يقيمـون في الحقل، يرعـون قطعانهم طوال الليل، ولقـد كـان بإمكان رعاة آخـرون الحفاظ على القطعان التي عهد إليهم بالعناية بها في تلك الأرض نفسها، لولا أن خرج أسد من الغابة، والمعني بهذا قوى صلاح الدين، فذبحهم وكذلك لولا ما فعل البندقـداري، وهو ذئب المساء، حيث بدد شمل ما أبقـاه الأسد، ثم كـذلك لولا مـا فعله الملك المنصور، وهو فهـد سريع، متشـوق لصنع الشر، مثلما الفهد متشـوق لسفك الدمـاء، فاستـولى على

المدن التي كانت قد تركت لوحدها، وعلى بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من بيت لحم، يقدم الانسان إلى الخليل، التي تقدم وصفها أعلاه في الفصل الثاني، ووصف وضعها ومكانها في القسم السابع، الفصل الثاني، وفيما يتعلق بأوضاع وأحوال الأماكن الأخرى في الأرض المقدسة، يمكن العودة إليه فيما تقدم في الفصل الثالث، وكذلك في الفصل الرابع.

الفصل الثاني عشر
أوضاع مملكة مصر

بما أنه قد قيل ما فيه الكفاية حول سورية وأرض الميعاد، حان الوقت لتحويل قلمي نحو مصر، ولقد رسمنا حدود أرض الميعاد عند الدارون في الفصل الثاني، ومع أننا مررنا مسايرين لساحل مصر في الكتاب الأول، القسم الأول — الفصل الخامس عشر، وباتساع أكبر في الكتاب الثاني، القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرين، ومع أن الإشارة قد كانت حول هذه البلاد نفسها، يمكننا أن نقول إن المسافة من الدارون إلى قفط الـ Berouldi هي ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى السبخة المعروفة باسم سبخة بردويل ثلاثين ميلاً، ثم من هناك إلى نهاية خليج هذه السبخة ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى رأس القصرون خمسين ميلاً، ومن هناك حتى الفرما ثلاثين ميلاً، وكانت هذه المدينة فيما مضى حسنة التحصين بالأسوار، غير أنها فيما بعد لحقها الخراب،وصارت مسكناً للأفاعي، ومن الفرما إلى نهر تنيس خمسين ميلاً، لكن مدينة تنيس وراء النهر، وتبعد عنه حوالي خمسة وعشرين ميلاً، وهي قائمة فوق البحيرة، وقد وردت الإشارة إليها في المزمور ٧٨ / ١٢ قوله:«صنع أعجوبة في أرض مصر في بلاد صوعن»، فهناك كان موسى وهارون قد سكنا مع بني إسرائيل، وفي بلاد جوشن Goshen ، وحولها أخبر يوسف أخوته وأبيه بقوله:«سوف تقولون لفرعون: إن عبيدك هم رعاة، نحن،

وكـذلك آباءنا، قولوا هذا، حتى يمكنكم أن تسكنوافي أرض جـوشن»، ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وكانت تنيس مدينة قديمة، ومحصنة بشكلٍ جيد، وقد بنيت فوق أرض حصينة، لكنها في هذه الأيام مـدمـرة كلياً، ويعيش في خـرائبهـا فقط البـداة، بسبب مـراعيهـا، وثراء ريفهـا، فضـلاً عن هـذا هي مليئة بالطيـور الكثيرة وبالأسماك، ومن أجل عـرض عنهـا انظر القسم السـادس — الفصل السـابع عشر، ومن نهر تنيس إلى دميـاط مسـافـة أربعين ميـلاً بوسـاطة البحر، وكانت هذه المدينة تدعى قديماً باسم ممفيس، ومن أجلها انظر ما تقدم: القسم السادس — الفصل الثاني والعشرين، وعلى بعد فرسخين من البحـر بنى المسلمـون قرية طـويلة بدون تحصينات، وذلك من أجل ركوب السفن فيها، ومن أجل خزن بعض التجارات، وهذا المكان مليء بالفواكـه، والحبوب، والأشياء الأخـرى الجيدة، وذلك حتى مثل تنيس، ويجري واحـد من فـرعي النيل بين هذه المدينة ومـدينة دميـاط، ويتـابع جـريانه نحو تنيس، ويجري من هناك من خـلال قناة اسمها البحـرية، إلى الفـرمـا، ويدخل البحـر هنـاك، وهذا هو الميناء المصري الأول باتجاه أرض الميعاد، ومن دمياط إلى البرلس مسافة سبعين ميلاً، ومن هناك إلى مصب النهر في رأس البر Sturio، وعـرض هذا المصب خمسة أميـال، وطوله ثلاثين ميلاً، وهو كله حـوالي الثلاثين ميلاً مسـاحة، ومن مصب رأس البر إلى مصب رشيـد وفرع النيل هناك أربعين ميـلاً، ومن مصب رشيـد إلى برج أبي قير خمسة وعشرين ميـلاً، ومن هناك إلى الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً.

وواضح مما تقدم أعلاه وقيل، بأ ن المسافة من الفرما إلى الاسكندرية هي مـائتين وثمانية وستين ميـلاً، وهذا هو عرض المنطقـة الساحليـة من مصر، لكن مملكة مصر تمتـد حتى ميناء السلطـان، وهو ميناء يقع بعيـداً عن الاسكندرية، ويبعـد عنهـا سبعين ميلاً باتجاه الغـرب، وذلك حسبما

تحدثنا في الكتـاب الثـاني، القسم الـرابع — الفصل الخامس والعشرين، والمسافـة من الاسكندرية إلى الفسطاط هي مائتين وثـلاثين ميلاً، وذلك عبر نهر النيل، والمسافة من الفـرما، عبر تنيس ودمياط إلى الفسطاط هي مائتي ميل فقط، وذلك على سطـح نهر النيل مثلما تقدم، ومن الفسطاط إلى أسـوان — التـي هي أقصى جـزء مـن مصر باتجاه الجنوب واتجاه الحبشة — هي مائة وأربعين ميلاً، ومن مـدينة أسوان المتقدمة الذكر إلى المكان الذي يعرف باسم قوص، عبر النيل، جاءت المسافة مائتين وستين ميـلاً، وفي قوص تشحن السفن بـالبضائع القـادمـة من عدن، وتعـرف الحبشة المتقـدمة الذكر بشكل صحيح باسم النـوبة، وهي مسكونة كلياً، من قبل المسيحيين، الذين اهتـدوا بوساطة القديـس متى، وإذا ما مضى الانســان صعـوداً فـوق النيل من دميـاط يصـل أولاً إلى بدالة، ثم إلى المنصــورة، حيث ينقسم النيـل، والفــرع الأصغـر هو الذي يجري إلى الفرما، لكن المكان الذي ينقسم فيه النيل انقساماته الرئيسية، ويجعل من الجزء الأكبر من مصر جـزيرة، يدعى بـاسم الدلتـا، وذلك لأن شكل الجزيرة شكل مثلث، وهو مثل حـرف دلتـا، ويجري الفـرع الأكبر نحـو الاسكندرية، والفـرع الأصغر نحـو دمياط، ومن الدلتـا إلى عين شمس ثلاثة أميال، ويجري فـرع النيل من هنا باتجاه الشمال نحو مـدينة بلبيس، التي عرفت فيما مضى باسم Pelusium (تل الفرمـا)[القسم السادس — الفصل الثـامن عشر]، ويجري من هناك خـلال القفار نحـو الأرض المقدسة، ويدخل البحر قرب مـدينة العريش، وهي على مسافة سفر يوم من غـزة وبير السبع، وهـذا ربما الذي ورد ذكـره في العهــد القــديم باسم«وادي مصر»[الملوك الأول: ٨ / ٦٥، الملـوك الثـاني / ٢٤ / ٧]، وهناك كانت حدود ديار سبط يهوذا(العدد...) لكن لايمكن الملاحة به، وعين شمس بلدة جميلة جـداً، غير أنها ليست محصنة، ومثلهـا كـذلك جميع بلدان مصر الأخرى، باستثناء الإسكنـدرية والقاهرة، ومن الممكن أن يُرى في عين شمس والفسطاط الأمـاكـن التي سكنت فيهـا العـذراء

الرائعة مع ابنها عندما هربت إلى مصر خوفاً من هيرود، وبما أنها لم يكن لديها مكان تدخل إليـه للاستراحـة، فإنها دخلت إلى معبـد كـان فيـه ثلاثمائة وخمسة وستين وثناً، حيث كـان يحتفل طقوسياً تشريفاً لها في كل يوم من أيام السنة، إنما لدى دخول المسيح والعـذراء مريم سقطت جميع الأوثان، وبذلك تحققت كلمـة إشعيـا(الاصحـاح ١٩) في قـوله:«هو ذا الرب راكب على سحـابـة سريعـة وقـادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من وجهـه»، وعندمـا حملت هذه الأخبـار إلى أفـرودوسيـوس Af-rodosius ، قـدم إلى المعبـد ومعـه كل جيشـه، واقترب من الطفل الرضيع وتعبـده، وقال لجيشه:«لولا أن هذا هـو رب الأرباب، لما سجد هؤلاء أمـامـه، ولهذا إذا لم نكن حـريصين بأن نفعل مـا نرى أربابنا قـد فعلوه، لسوف نصاب بالرعب مثلما حدث لفرعون»، وهكذا فإن الرب المقـدس، الذي تفكر بالرحمة أثناء غضبـه، فأرسل ابنه إلى مصر، وبذلك قـدم برهاناً على غفـرانه، شفـى بذلك العـلاج جميع أوبئة مصر العشرة، وعلى مسافـة سبعة فـراسخ من عين شمس تقوم مـدينة الفسطاط،وهي مدينة محصنة بشكل جيد وعظيمة جـداً، وتقوم على الضفة الشمالية لنهر النيل، هذا ويجري وسط المدينة فرع كبير من ذلك النهر، وكذلك وسط مـدينة القاهرة(القسم السـادس — الفصل الثـاني والعشرون)التي هي مرتبطة بالفسطاط، وفي القاهرة يعود هذا الفرع إلى النهر الأساسي ثانية، ويوجـد إلى جانب القـاهرة شجرة نخيل قـديمة جـداً، وهي التي حنت نفسهـا للعـذراء المبـاركـة حتى تتمكن من قطف التمـر منهـا، ثم إنها انتصبت وعادت إلى وضعهـا ثانية، وعندما رأى الكفـار ذلك قطعوها، لكنهـا التحمت بأجـزائهـا ثانية في الليلة التـاليـة، ووقفت منتصبـة من جديد، ومن الممكن رؤية آثار القطع حتى هذا اليوم، ويوجد حول هذه المدينة كثيراً من الحدائق الرائعة، وعلى بعـد ميل واحد منها يقـوم بستان البلسم، التي هي شجـرة بحجم نصف شجـرة Mansus ، وحجم أغصـانها بقدر حجم داليـة عنب عمرها ثلاث سنوات، وأوراقهـا مثل

ورقة ثلاثية الوريقات صغيرة، أو مثل ورقة الفيجن، لكن لونها أشد بياضاً، وعندما تصبح ناضجة وذلك في حوالي شهر أيار، يتفجر لحاء الأشجار، ويتم جمع الماء في أوعية زجاجية، ثم يوضع في وسط روث حمام ويجفف، وبهذه الوسيلة يجري صنع البلسم الحقيقي، ويقال بأن هناك طريقة أخرى لجمعه، وهي باقتلاع الأوراق الموجودة على الجهة المتوجهة نحو الشمس، ذلك أن الأوراق تلتصق بالساق، وعندما يجتمع عدد منها فوق بقعة واحدة من الأرض، يمتلكون ساقاً واحدة، وعندما تنتزع الأوراق يتدفق من الساق مباشرة سائل شفاف جداً وطيب الرائحة، ويأخذ بالتنقيط، وهذه الحديقة يمكن سقايتها من نبع ماء واحد فقط، التي قيل بأن العذراء المباركة قد غسلت فيها قماش قماط الطفل يسوع، ويجتمع الناس من مسلمين ومسيحيين في أيام عيد الغطاس عند هذا النبع، ويغسلون أنفسهم تبركاً وصدوراً عن التقوى، وهناك معجزة أخرى تحدث هناك، وهي أن الثيران التي تقترب من الماء المتقدم ذكره، لا تقترب من أي ماء آخر فيما بين منتصف يوم السبت حتى الساعة نفسها من يوم الأحد، حتى لو حاولت سلخها حية، وفي الفسطاط هناك أعجوبة أخرى جديرة بالتدوين، ففي دير بني هناك وكرس على اسم القديس يوحنا المعمدان، هناك صندوق يحتوي على آثاره، وقد اعتادوا على حمل الصندوق المتقدم الذكر، والنزول به فوق النيل مسافة خمسة أميال إلى كنيسة رهبان أخرى، بنيت وكرست على اسمه أيضاً، وبعد القداس يضعون الصندوق في النهر، لمعرفة أي مكان رغب هذا القديس بأن ترتاح آثاره فيه، أي في هذا المكان أم في المكان المتقدم، وما أن يضعوه، حتى يأخذ الصندوق بالتحرك أمام أعين الجميع، ويسير بسرعة فائقة على عكس التيار، ويبلغ من سرعة التحرك أن راكب فرس يجري به بسرعة كاملة لا يمكنه أن يسبقه، وعلى بعد خمسة فراسخ من الفسطاط هناك بعض الأهرامات الثلاثية الشكل، وهي ذات ارتفاع شاهق، وقد قيل بأنها كانت أهراءات قمح يوسف،

وعلى بعد فرسخين منهم هناك خرائب مدينة طيبة، التي منها جاءت الفرقة الطيبية، ومرتبط بها قفار طيبة التي كان فيها في الأيام الخوالي حشد من الرهبان.

ويجري النيل من خلف الفسطاط، ويتدفق كله نهراً واحداً من أسوان، المكان المتقدم الذكر، وتبعد أسوان عن الفسطاط مائتين وأربعين ميلاً، ومن أسوان إلى مدينة مرواو مائتين وستين ميلاً، وتقوم مدينة أسوان تحت خط الاستواء،ولذلك لايشاهد فيها ظل عندما تكون الشمس في المحطة الأولى من برج السرطان، وتلقي مرواو في ذلك الوقت بظلها نحو الجنوب، وعليك أن تتنبه أنه صحيح أن المسافة من الفسطاط إلى أسوان، ومن أسوان إلى مرواو، هي مسافة طويلة، مع ذلك فإن الأرض ليس لها عرض إلاّ بالنادر، لأن هذا الطريق كله يساير النيل، الذي يمتلك جبالاً على كلا الجانبين، ولا يمكن العثور على منابع النيل، فيما يتعدى الجبال الموجودة على الجهة اليسرى من النوبة، التي يجري بينها، فخلف ذلك منطقة لا يمكن اجتيازها، ومن النادر حماية مصر من جهة البحر، ويوجد إلى الغرب منها ويحدها بلاد المغرب، التي تدعى برقة، وهناك قفار بينهما تحتاج إلى رحلة خمسة عشر يوماً، وإلى جهة الجنوب هناك قفار الحبشة، والرحلة إلى النوبة تحتاج إلى اثني عشر يوماً أو أكثر، وعلى الجانب الشرقي هناك فيافي طيبة، التي تمتد حتى البحر الأحمر، والرحلة تحتاج إلى ثلاثة أيام إلى مكان يدعى البرلس(كذا)(رأس بناس)، فهذا هو الميناء الرئيسي لمصر على البحر الأحمر، لأنه بالنسبة للذين يرغبون بالابحار نحو الهند، ونحو الجنوب الغربي، ونحو الشمال، هناك قفار واسعة تمتد حتى الأرض المقدسة، وهي التي تاه فيها بنو إسرائيل لمدة أربعين سنة، ولا يستطيع الانسان عبور هذه القفار إلى سورية بأقل من ثمانية أيام، وعل هذا نجد مملكة مصر محاطة من كل جانب — باستثناء ساحل البحر — بالرمال

والقفار، والمناخ في مصر صحي، والطعام جيد، والأرض أكثر اعتدالاً منها في فلسطين أو سورية، مع أنه من خلال وضعها، قد يخيل للانسان أنه سوف يجد العكس، وتسقى أرض مصر بمياه النيل فقط، ويبدأ النيل بالزيادة اعتباراً من عيد ميلاد القديس يوحنا(٢٤ — حزيران)، ويتابع الزيادة حتى أيام عيد تمجيد الصليب المقدس(١٤ — أيلول)، ويبدأ بالتناقص من هذا التاريخ حتى أيام عيد الغطاس، فوقتها تظهر الأرض الجافة، ويأخذ الفلاح برمي بذاره، والحصاد سوف يكون في آذار، ويقوم في وسط النهر عمود رخامي، فوق جزيرة صغيرة(جزيرة الروضة) وذلك خارج مدينة مصر القديمة، التي هي على مقربة من مدينة القاهرة، ووضعوا على ذلك العمود علامات، يعرفون من خلالها فيما إذا كان الموسم المقبل سوف يكون جيداً أم سيئاً، ويتم جمع الفواكه والخضار شروعاً من أيام عيد القديس مارتن(١١ — تشرين الثاني) حتى آذار، وتحمل الشياه والماعز مرتين في السنة.

ووصف الطريق من أرض الميعاد إلى القاهرة براً، وعبر القفار هو كمايلي:

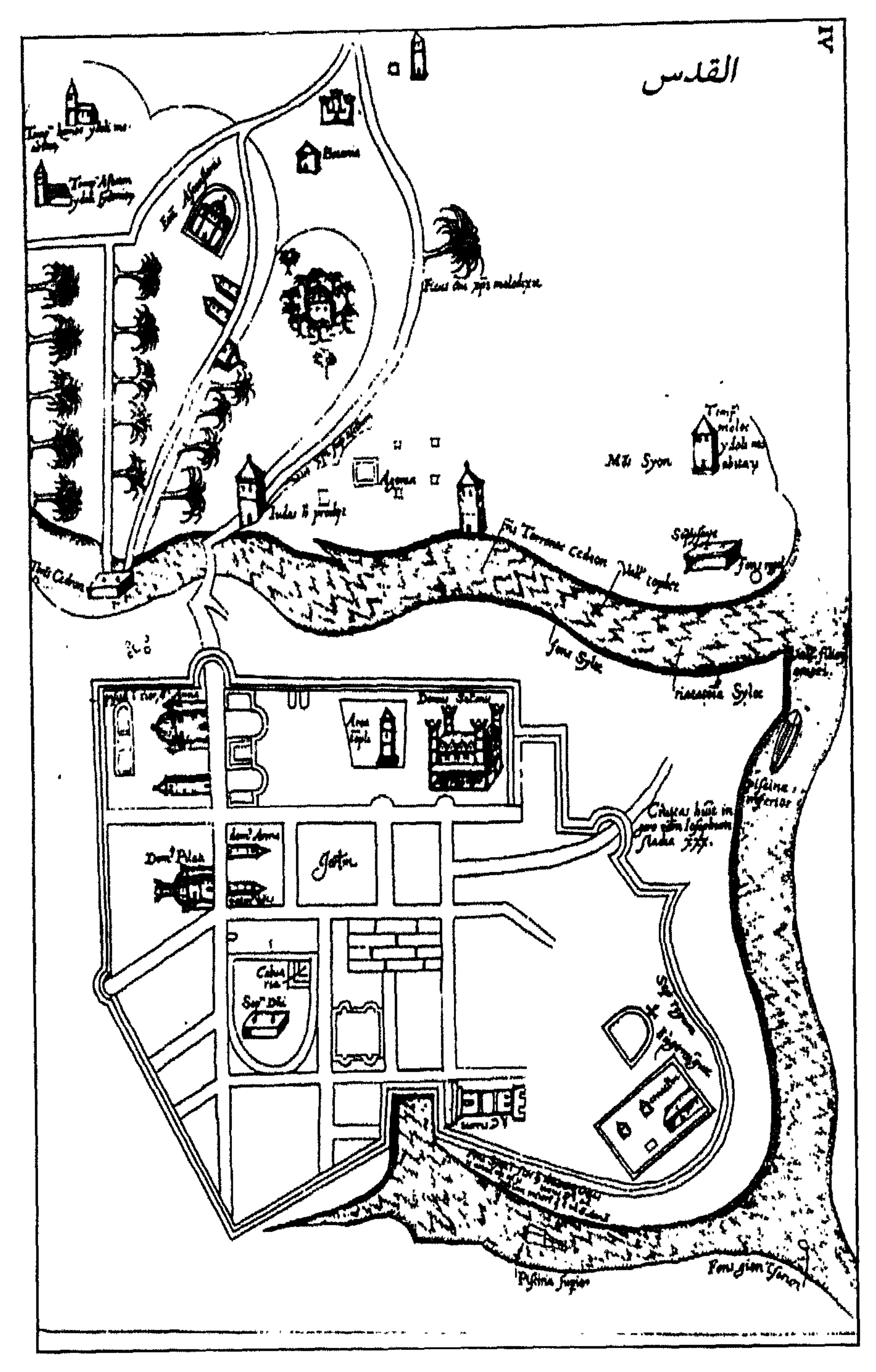
من غزة إلى الدارون ثلاثة فراسخ، والطريق جيد مع مياه كثيرة، ووفرة من الأعشاب، ومن هناك إلى رفح مسافة فرسخين، والطريق جيد، ووفرة من المياه مع جميع الأشياء، ومن هناك إلى Zasque أربعة فراسخ، ولا يوجد هناك رمل كثير، والطريق طريق كثير الأعشاب، وفيه كثير من المياه الجيدة، ومن هناك إلى الحسي Heus أربعة فراسخ، والطريق هو فوق الرمال، وفيه مياه جيدة إلى حد ما، ومن هناك إلى العريش أربعة فراسخ، والطريق كله فوق الرمال، وفيه مياه كافية، ومكان للبيع وللشراء ، ومن هناك إلى Burelaui أربعة فراسخ، وينقسم الطريق هنا إلى إلى طريق علوي، وطريق سفلي، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استخداماً، وهو يعبر مكاناً اسمه سبخة البردويل،

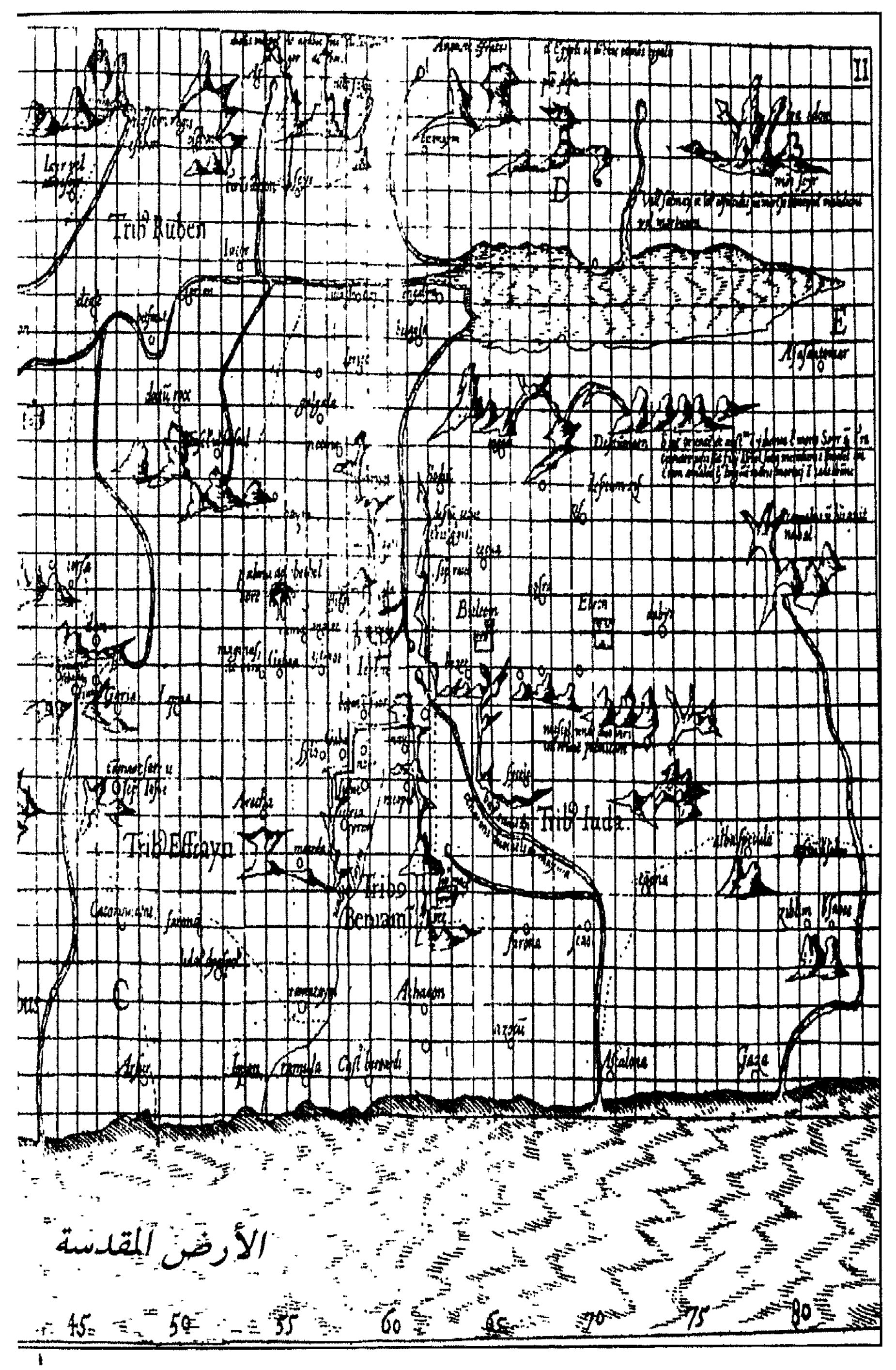
وهو المكان الذي فيه مـات الملك بلدوين، ومن Bouser إلى Tarade فرسخين، وهناك كثير من الأعشاب وماء جيد، كما ويوجد سوق هناك، ومن هناك إلى Asbede أربعة فراسخ، وهناك كذلك كثيراً من الرمال، ووفـرة من الأراضي المعشـوشبـة، وهنـاك أيضـاً سـوق، ومن هناك إلى Viteleb خمســة فـــراسخ، وهناك الكثير من الـرمــال، والقليـل من الأعشاب، وماء سيء جداً، لكن هناك الكثير منه، ومن هناك إلى Nah-er Lersibia أربعـة فـــراسخ، وهناك كثير من الرمـال، لكـن مع مـاء جيد، ومـن هناك إلى قطيا(كـذا)...فرسخ، وهذه قـرية جيدة، فيهـا ماء جيــد إلى حــد مـــا، وينقسم الطريق هنـا إلى طريقين: علوي وسفلي، والطريقـان معاً يقودان إلى [بركـة] الحبش Habesse ، وهي قرية رائعة، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استعمالاً بين الطريقين.

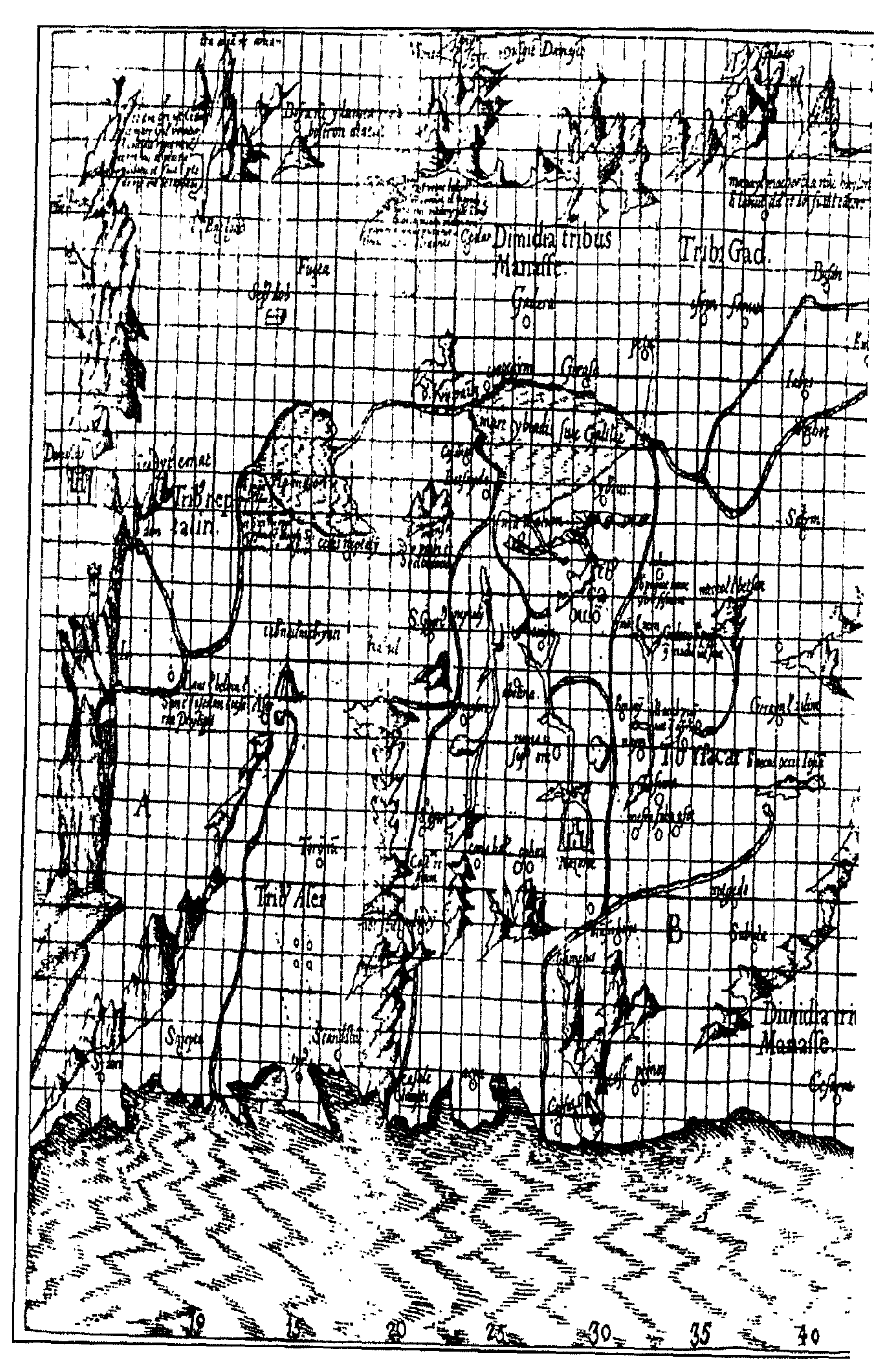
والطريق الأعلى هو كمايلي: من قطيـا(كذا) إلى العرس خمسـة فراسخ، وهناك كثير من الرمال ومـن الماء، لكنه ماء سيء، ومن هناك إلى بير أبي روق أربعـة فراسخ، وكثير من الرمـال، وماء سيء جـداً، ومرّ ومـالح، ومن هناك إلى Hucar أربعة فراسخ [حيث كثير من الرمال، والعشب، والماء الجيـد، ويوجــد ســوق هناك] ، ومن هناك إلى Hesiuone أربعة فراسخ] حيث كثير من الرمـال، وماء جيد من نهر، ومن هناك إلى Masinach ثلاثة فراسخ وهناك كثير من الرمـال، ومياه جيدة من نهر، وتبـدأ بعـد Sbesbie أرض مفلوحـة، ومن هناك إلى Vacaria — وهي قرية جيدة — فرسخين طويلين،وهناك كثير من الماء من نهر، ومن هناك إلى[بركـة] الحبش abesse ثلاثة فـراسخ، والطريق جيـــد، والأرض خصبـة، والقرية مليئة بجميـع الأشياء الجيـدة، ومن هناك إلى بلبيس ثلاثة فـراسخ، والأرض هناك صـالحة للزراعـة، والقرية واسعـة وخصبـــة، ومن هناك إلى Abirelcara ثلاثة فـــــراسخ، وهي أرض خصبة، ذات ميـاه جيدة، وفيهـا الكثير منها، ومن هناك إلى Hus أربعة

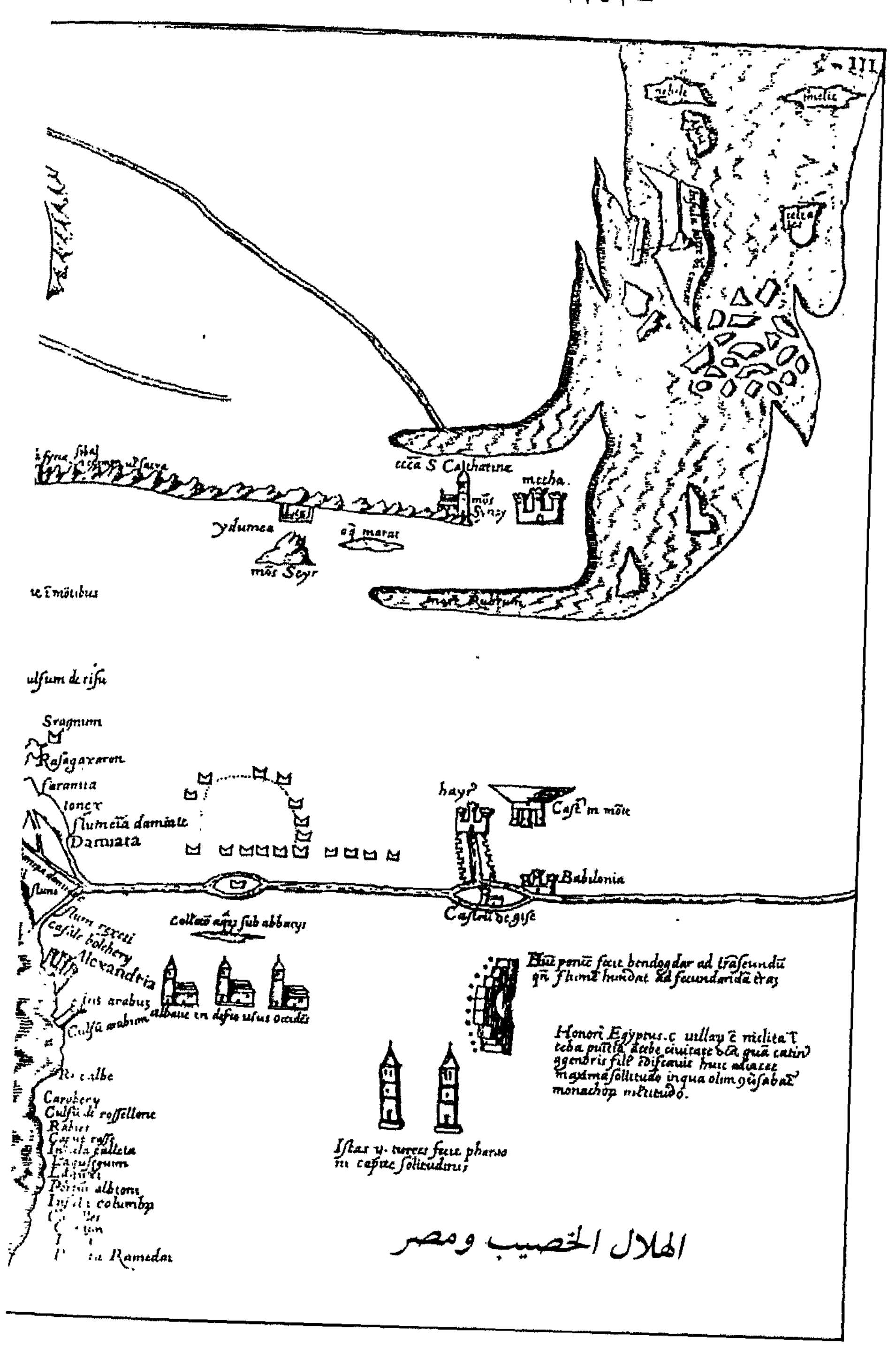
فراسخ، حيث الأرض خصبة، والماء جيد، وهناك كثير منه، ومن هناك إلى Quiriai ثلاثة فراسخ، حيث الأرض خصبة وكثيرة الثمار، ومن هناك إلى القاهرة ثلاثة فراسخ والطريق جيدة.

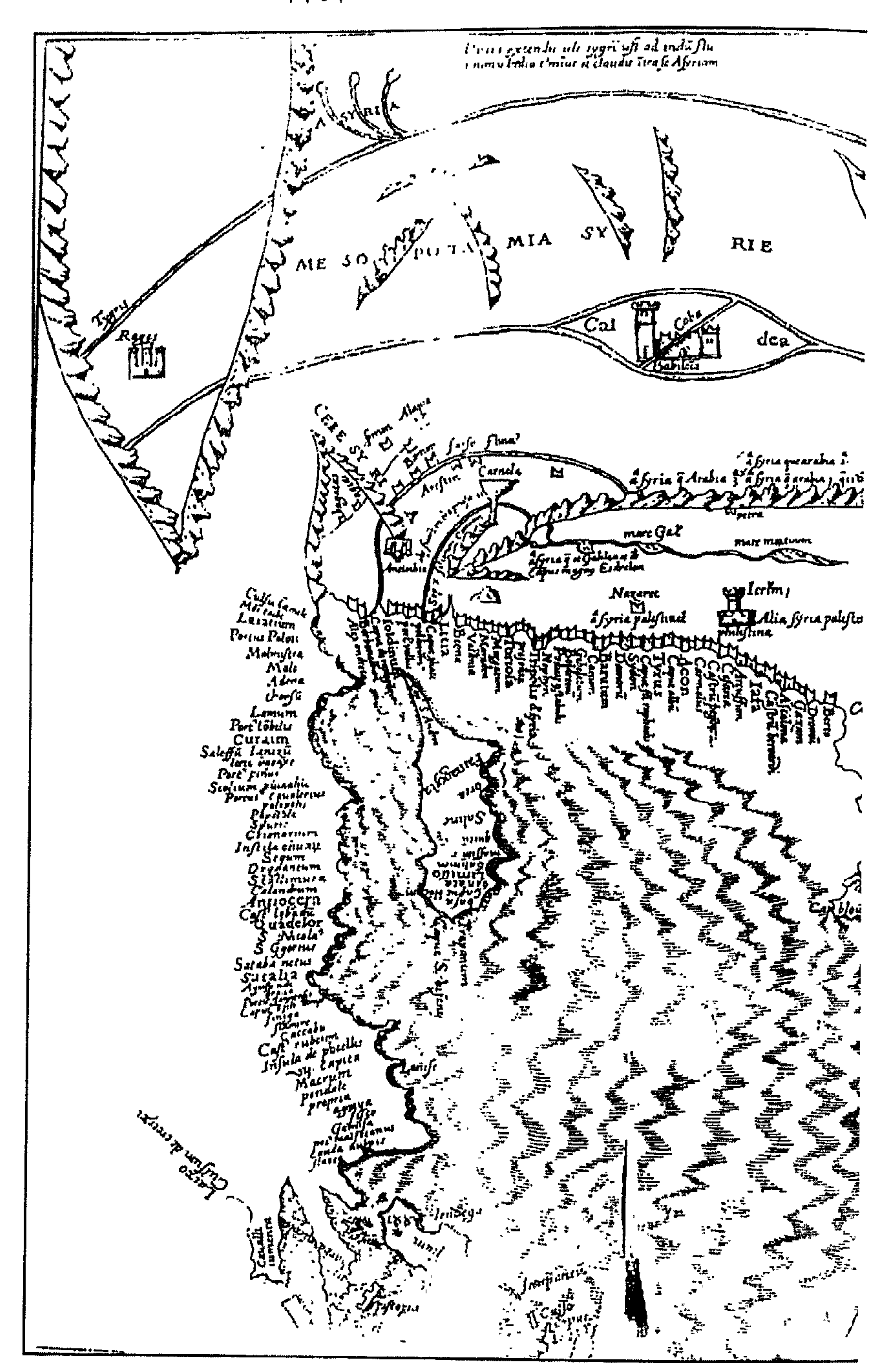
والطريق السفلي: من قطيا إلى الغرابي أربعة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وقليل جداً من الماء، وهو ماء مالح، ومن هناك إلى القصير خمسة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وكثير من المياه، لكنها مياه سيئة جداً، ومن هناك إلى بيرخيس أربعة فراسخ، وليس هناك الكثير من الرمال، وهناك وفرة من الماء، لكنه ماء مالح، ومن هناك إلى الصالحية — وهي قرية جيدة — أربعة فراسخ حيث الكثير من المياه الصالحة، ومن هناك إلى [بركة] الحبش Habesse ستة فراسخ، وهو طريق جيد فيه وفرة من الماء الجيد من نهر، ومن هناك إلى القاهرة، كما من قبل، وعلى هذا تمتد القفار إلى حوالي السبعين فرسخاً، والأرض المفلوحة إلى حوالي العشرين أو أكثر، ما بين غزة والقاهرة.

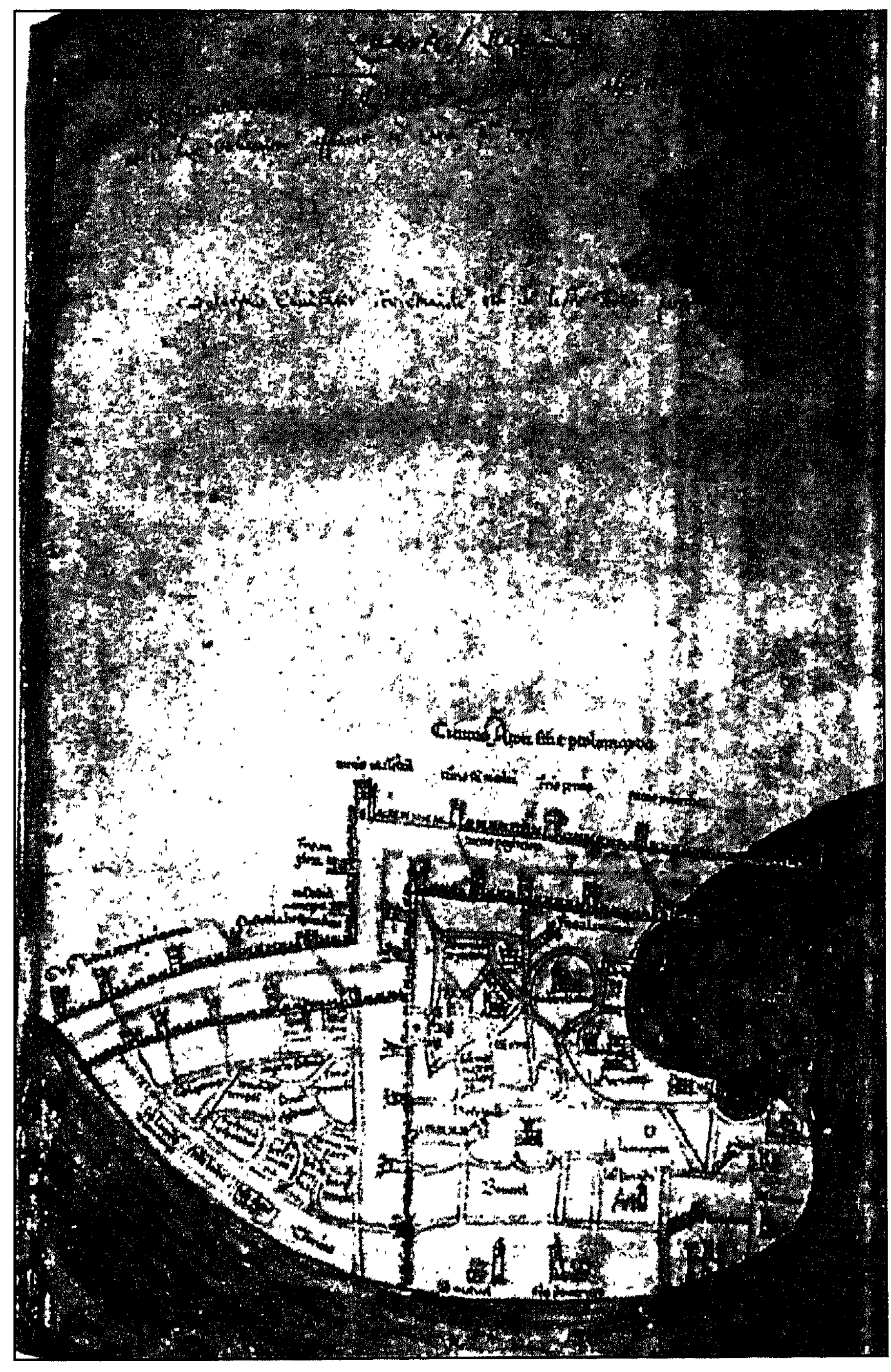

القدس


Trib Ruben
Trib Effrayn
Tribo Beniamin
Trib Iuda
Bethleem
Ebron
Gaza
Ascalona
Ioppen
C
D
E
II
45
50
55
60
65
70
75
80
الأرض المقدسة


Dimidia tribus
Manasse
Trib. Gad
Trib. Asser
A
B
Dimidia tri
Manasse
10
15
20
25
30
35
40


eccã S Catharine
mecha
mõs Sinay
ydumea
mõs Seyr
mare Rubrum
Babilonia
Castrũ de gise
Damiata
Alexandria
Istas ij. turres fecit pharao in capite solitudinis
الهلال الخصيب ومصر


ME SO PO TA MIA SY RIE
Cal dea
Tygris
mare Gal
Nazaret
Satalia



القسم الخامس عشر

الاجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول

الاجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

شرحنا فيما تقدم معائب كثيرة سواء في الحياة الخلقية أو في الانضباط العسكري، حيث ارتكب الشعب المسيحي في مجالها أخطاء كثيرة في أرض الميعاد، ولهذا زال من هناك كل وجود كاثوليكي، ولكن«لأن سماع خبره فقط يخيف» كما يقول إشعيا ٢٨ / ١٩، ولأن الشرور الماضية تساعد على تجنب المستقبلية، وتقدم الحيطة المناسبة مما لحق من مساوىء، نحاول بحق أن نقطف ما هو نافع، أي الأمان من المخاطر والأغلاط، وكذلك أن نقدم ناموساً للحياة، وطريقة للسلوك، وهنا نجد أولاً أن المؤمنين قد قصروا في الانضباط العسكري مراراً كثيرة، ونجد أن الصليبيين كثيراً ما تحرشوا بالمسلمين وأثاروهم عندما كانوا مرتاحين غير هيابين، مما جعلهم ينفرون بأعداد كبيرة، فيحرقون القرى أحياناً مع القلاع والمدن، وعندما كانوا يقعون في ضيق لم يكونوا يحسنون التخفي، أو إرسال رسل للتهادن، غير متنبهين لما أوصى المسيح به في لوقا ١٤ / ٣١ — ٣٢«وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب لايجلس أولاً و يتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً، وإلاّ فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح»، لاسيما عندما يشهدون أن العدو هو أغنى وأكثر ثروة وأعظم دهاء، وأشد ضراوة، وأقوى بالعدد والعُدد، وتطلب إرادة الرب

في مثل هذه الظروف منا التواضع بسبب الخطايا وعندئذ إنه لضرب من الحماقة أن نتعجرف ولا نقدم على عقد اتفاقية منقذة، ونحذوا حذو ما فعله يواكيم وصدقيا، كما جاء في القسم الأول — الفصل السادس، وما فعله الملك اللاتيني الثاني في القسم السادس — الفصل الرابع، فقد اختار هؤلاء، على الرغم من قلتهم القتال ضد عدو شرس وكثير العدد — انظر القسم الثاني عشر — الفصل الأول، ذلك أنهم حتى بعد أن احتلت مدنهم كانوا لا يعرفون إلى أين المهرب، وهكذا يروى بأن البندقداري قال لبعض المسيحيين بعد احتلاله لأنطاكية:«حقاً أيها المسيحيون إنكم أغبياء وبلا فطنة، لأنكم لا تعرفون كيف تقاتلون، ولا كيف تعقدون الصلح، ولا كيف تهربون في الوقت المناسب»، ولهذا إنه بعد احتلال الأرض المقدسة، نرى بين الأمور المطلوب المحافظة عليها، من المناسب تماماً درس الانضباط العسكري والتمرين المتواصل عليه، ويتوجب اتخاذ قرار علني بفرض تعليم فيجيتيوس Vegetius في مقرر الشؤون العسكرية، وأن تتم قراءة غيره في المدارس من قبل معلمي فن الحرب، وذلك في أمكنة موائمة، وذلك كما كان الرومان يعملون قديماً، وبموجب ذلك يعلمون العسكريين والمهتمين بشؤون الحرب، لأن عليهم التمرين المتواصل، حتى إذا طرأ طارىء يكونوا متأهبين لمجابهة المخاطر، وآخذين حذرهم، لأنه كما يقول فيجيتيوس:«في الحرب ليس المهم العدد، بل الفن والتمرين هما يعطيان بالعادة الغلبة»، وهكذا نجد أن أماتوس روفوس Amatus Rofos عندما ضايقته الأعداد الكبيرة من الداشيين Dacis ، أمر القلة التي معه، أنها إذا رأت المعركة تنقلب نتائجها ضده، بالانقضاض من خلف العدو، وبالظهور في قمم الجبال وهم يصدحون بالأبواق، على أمل أن يرعب هذا الأعداء، فيديرون ظهورهم.

ويتوجب اتخاذ قرار، تحت طائلة عقوبة محددة: إن على جميع سكان

القـدس، لا بل أيضـاً على جميع سكـان مملكة القـدس الالتـزام — على الأقل مـرة في الاسبـوع — أن يتمـرنوا على الـرمـاية بالقـوس، أو على الرماية بالمنجنيق، سـواء أكانوا في المدن أم في القـرى، ومثل هذا نقرأ في سفر الملوك الثاني أن داوود قد أمـر أن يتعلم يهوذا الرماية بالقوس،لأنه سمع أن الملك شـاؤول وابنه يوناثان قد أصيبـا برشقة سهـام، وكذلك قـــال الأب الأكبر لليهـــود في(سفـــر التكويـن:٤٨ / ٢٢)[لابنه يوسف]:«وأنا قـد وهبت لك سهماً واحداً فـوق أخوتك أخـذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي»، وكذلك لم يكن سكيبيو Scipio الإفريقي يرى أن بإمكانه إحراز النصر إلاّ إذا وزع على جميع الجهـات رماة قوس منتخبين ، يطلقون السهـام من بعيد فيرعبون الأعـداء، وإذا كان بعض الناس يتمتعـون بالتدرب على الحرب بالرمـاح الطويلة، فليعكفوا أيضـاً على التـدرب على الرمي، فكثيراً مـا تكون إسهـامـاتهم مفيـدة جـداً في الحروب، وهكذا للدفـاع عن أرض الميعـاد المقـدسـة يصير الشعب المسيحي بارعـاً، وفي الوقت نفسـه يتم تجنب كسل المقـاتلين، ذلك أنه بؤرة لجميع الرذائل، فقـد نادى حـزقيـال هكذا وأعلن عن إثم اليهـود قـائـلاً:«هذا كان إثم أختك سـدوم الكبرياء والشبع من الخبـز وسـلام الاطمئنان»(حـزقيـال:١٦ / ٤٨)، وقـد جعل التـدرب على السـلاح الرومـان يخضعـون العـالم — حسب فيجيتيـوس — وإلاّ مـاذا كـان بمقدور تلك القلة مـن الرومان ضد حشـود الغاليين والإسبـان، وضد مكر الأفارقـة، وفطنة اليونانيين، ففي جميع الميادين يتفـوق التدريب على الجرأة، وقلة متـدربة هـي الأسرع نحـو النصر، والكثـرة الجاهلة هي الأسرع نحو الفـرار، ولايظنن أحد أنه ضـد القداسـة انصراف الانسان نحـو الجندية للدفـاع عن الحق والوطن، فقـد قال هيرونيمـوس Her-onymos في رسالتـه إلى بونيفـاسيوس Bonifacius :«إياك أن ترى أنه غير ممكن للمـــرء أن يرضي الرب إذا كـــان يقـاتل بـالسـلاح في الحروب»، ففي هذا الميـدان كـان الملك داود القـديس، وغيره كثير من

الأبرار في تلك الأيام، وكـان هذا أيضاً وضـع الجند الذين سألوا يوحنا المعمدان عما يتـوجب عليهم أن يفعلوا،فأجابهم قائلاً:«لاتظلمـوا أحداً، ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم»[لوقا: ٣ / ١٤]، فهو لم يحرم عليهم القتال تحت السلاح، بل أمرهم بالاكتفاء بأعطياتهم.

الفصل الثاني

الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

قـد روي بأن واحـداً من الشعـراء قد قـال:«إذا فهمك العـدو، فقـد خسرت المعـركة»، ولذلك كـان القـادة أصحاب الفطنة يبـذلون أقصى جهـودهم حتى يخفـوا عن العـدو مقـاصـدهم، وبناء عليـه عندمـا ألح أحدهم على ميتليـوس بيوس Metellius Pius بالسؤال قـائلاً:« ماذا ستصنع غـداً»؟ أجـابه«لـوأجـابك على ذلك قميصي لأحـرقتـه»، ورأى بورتيـوس كـاتو Portius cato أن المدن الاسبـانيـة التـي قهـرها في الحرب قد تتمـرد عليه، اعتماداً على كـونها محصنة، فكتب إلى كل واحدة منهـا، يهددها بالحرب إذا لم تهدم تحصيناتها على الفـور، وأمـر أن ترسل الرسائل إلى كل واحـدة منها في يوم واحـد، وبإخفائه مقـاصده، فكرت كل واحـدة من تلك المدن أن الأمـر قـد صـدر إليهـا وحـدها، وكـان يستهدف منعهـا من التحالف ضد أوامره، وعندمـا ذهب ج . ليليوس G. Lelius إلى سفاقس، أخـذ معه وفداً من القـادة ومن أمراء السرايا، على أساس أنهم عبيد، فيما هم في الحقيقة كانوا جواسيس، وكان إذا ظن أن أحـدهم معـروف من قبل الأعـداء، كـان يؤدبه بالعصـا مثل تأديب العبيـد، حتى يخفي وضعـه، وهكذا نجح مخططه، وكـان ميثـريدات Mithridates عندمـا حـاصره بومبي، قد فكر بـالهرب في اليوم التـالي، ولكي يخفي نواياه وعـزمه على ذلك، تقـدم على جبهة واسعـة، واقترب من مـواقع العدو، وعقـد اجتماعـات عـدة حتى لا يلفت انتباه العـدو،

ولكي لا يثير الريبـة لدى العـدو أمـر بـإشعـال النيران الكثيرة في جميع أرجـاء المعسكر، وقـام بعـد ذلك عند الهجيع الثـاني مـن الليل بقيـادة جيشه، فعبر من خلال وسط معسكر العدو.

ولدى وقـوع جيش لوسيـوس فيريوس Lucius Furius في مأزق خطير، أخفى قلقه لئلا يخاف الباقون، وارتد بعد ذلك بقليل كما لو كان سيهـاجم العدو من كل صـوب، ثم لف جيشـه واقتاده سـالماً، والجيش نفسه لم يكن يعرف مـاذا يجري، وتعلمنا هذه الأمثلة بما فيه الكفاية، كم هو مجدي لقـائد المعـركـة إخفاء نـواياه سواء لإلحاق الأذى بالعـدو، أو لتأمين سـلامـة جماعته، والتتـار هم أكثـر من يلجأ إلى الأخـذ بأسبـاب الحيطة، حيث يروى عنهم أنهم لايدعون أحداً يدخل إلى معسكرهم أو يخرج منه دون موافقتهم حتى لا تنكشف مقـاصدهم إلى الأعداء، وهذا مـا لم يفعلـه الصليبيـون عندمـا استـولوا على دميـاط، وهكذا عنـدمـا انكشفت خططهم جُرحوا وأسروا ، ثم اضطروا إلى إرجاع دمياط(انظر القسم الحادي عشر — الفصل التـاسع) ومثلهـم كـان أهل عكا، فإنهم عندما نصبوا الكمائن لم يعـرفوا كيف يخفون خططهم فقتلوا(انظر القسم الثاني عشر — الفصل الثامن).

الفصل الثالث

ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

المسلمون كثيرو الاهتمام بمعرفـة مقاصد أعدائهم، وأكثـر ما يسعون نحوه هو معـرفة ما يجري بين المسيحيين، ليس فقط في الأماكن القـريبة منهم، بل في الأماكن النائية عنهم.

وكان م. كاتو M. Cato عندما أخفق بطريقـة من الطرق بالتعرف إلى ما كـان يدبره الاسبان، أمر ثلاثمائـة من جنوده بالهجوم على معسكر الأعـداء، ليجلبوا سـالماً بأحدهم، وكـان بعـدما عـذبوه أن اعترف بكل

أسرارهم، وباح بها، ذلك أن معرفة مخططات الأعداء تفيد في تجنب المخاطر، لأنه كما قال القديس غريغوريوس:«تجرح السهام المنتظرة أقل، وتحتمل الشرور أكثر إذا تسلحنا ضدها بترس الاحتراز المسبق»، ولذلك أرسل أهل قرطاج إلى الاسكندر هملقار وبعثوا رجلاً قاسياً، انتقل إلى عنده وتظاهر بأنه منفي ليكسب صداقته، وليتمكن بذلك من الكشف عن خططه، فيأمن أذيته، ويهيء ما يلزم ضدها.

وكذلك عندما رأى القنصل أميليوس عن بعد كثرة من الطيور قد طارت من الغابة أدرك أن كمائن تنصب هناك ضده، وهكذا لما كشف مخطط الأعداء أفلت من المخاطر، وتصلح هذه الطريقة أيضاً لمضايقة العدو، وخاصة عندما يتم الكشف عن نقاط الضعف لديه، وهكذا فعل سكيبيو الافريقي، عندما بعث مع ليليوس إلى سفاقس قادة وأمراء سرايا منتخبين، وهم يرتدون ألبسة العبيد حتى يراقبوا بكل دقة قوات ذلك الملك، ولكي يتفحص هؤلاء مواقع الجيش المعادي بحرية أكبر، أفلتوا جواداً عن عمد، وطاردوه كما لو كان هارباً، وداروا يبحثون عنه في كل مواقع المعسكر، ولدى عودتهم تحدثوا عن كل ما شاهدوه، وهنا بعدما عرف سكيبيو كيف عليه أن يهاجم العدو ، أنشب المعركة.

ويفيد هذا لطمأنة النفس أيضاً، ويحكى أنه عندما كان القنصل ج. ماريوس محتاراً حول حرب سمبروكو Cympruco مع الغاليين واللغاريين Ligurii، أرسل إليهم رسائل أمرهم في مطلعها أن عليهم قبل نهار حدده لهم النظر فيما جرى معهم من الالتزام بالمعاهدة، وكرر بعد وقت بعث الرسائل إليهم، وعندما تأكد بأن الرسالة الأولى قد وصلت إليهم، أدرك أنهم يضمرون شن الحرب ضده، وقتها ارتاح من الشك الذي ارتابه.

وهكذا قصّر الصليبيون كثيراً في التنقيب عن أسرار المسلمين، وهذا يمكن ملاحظته من خلال أخبار الأحداث التي سردناها من قبل، فلقد

وجـدنا مـرة أن واحـداً من البـداة المسلمين دل الصليبيين على معبر بالنهـر(راجع القسم الثـاني عشر — الفصل الثـاني)، وهكذا عندمـا لم يكن بين الصليبيين مخبرون بل خونة، حل بهم مـا حل بحق لأنهم كانوا يقبلون أن يخالطهـم دون تمييز الهراطقة والكفرة(أرثوذكس ومسلمين).

الفصل الرابع

أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها .

مع أن كل مـا هو متعلق بالعدو، ومـا هو مختص به ينبغي البحث به بسرية مطلقـة — حسبما أوردنا في الفصل الثـاني المتقـدم — إن من بين الأمور الواجب إتمامها بسرية أكبر أمر تنقلات الجيش وتحركاته، وهكذا نجـد الاسكندر الكبير قـد تمكن من احتـلال اليـونان، لأنه وصل قبل الوقت الذي كان متوقعاً وصوله فيه، وبالطريقة نفسها احتل التتار مدناً عـديدة، لا سيما دربند، أو باب الأبـواب ، ولتجنب المكائـد والمخـاطر ينبغي التنقل بالجيش بسرية، وإذا تمّ ذلـك ببراعة من قبل القـائـد، فإن مخاطر كثيرة يمكن تجنبها.

وهكذا نجد قستوريوس Questorius عندما كان في إسبانيا، ضغط عليه العـدو من الخلف، لذلك توجب عليه عبور نهر هناك، فقـام فحفر عند ضفته خندقـاً على شكل هلال، ثم ملأه بمواد مشتعلة، وأوقـد فيه النيران، ومن ثم عبر النهـر بحـرية، في حين كـان ذلك متعـذراً على أعدائه.

وكـذلك عندما عجـز غريسـوس Gressus عن عبور نهر من محل كان قليل المياه، ولم يستطع أيضاً بناء جسر، حفر قناة من وراء معسكره، وحـوّل إليهـا مجرى النهـر، ومثل هـذا عندمـا وجـد هرقـل مـوفـد

سرتوريوس Sertorius في إسبانيا، نفسه محصوراً بين الجبال، وقد أقبل إليه عـدد كبير من الأعداء، ووجد أن طريقـه للافلات صعب وطويل، قام بحفر خندق بالعرض بين الجبال، وملأه بمواد مشتعلة، ثم أوقد فيه النيران، وبذلك أقام حاجزاً بينه وبين العدو، وأفلت.

وعندمـا وجـد بركليس Pericles الأثيني نفسـه مطوقـــاً من قبل العـدو، وجميع الممـرات مغلقـة في وجهه،إلاّ مخرجـان، أقـدم على حفـر خندق عميق وكبير، كما لو أنه كان يستهدف عزل العدو، هذا من جهة، وتظاهر من جهة أخرى بأنه عـازم على الانقضاض على الأعداء، فتركوا جميعاً جهة الخندق وتجمعوا أمام المخـرج الآخر، وعند ذلك مدّ جسوراً فوق الخندق، وعبر ومعه جيشه.

ولكي يخدع داريـوس شعب السكيـت Schytas ، انسحب من معسكره، وترك فيـه الكلاب والحمير، فلما سمعـوها تنبح وتنهق، خُيّل إلى هؤلاء الأعداء أن داريوس مابرح هناك.

ومثله غيره ربطـوا الثيران إلى الأشجـــار، فتراءى للنـاس من سماع خوارها الكثير أن أصحابها مـايزالون هناك، وكان آنو Anno عندما حـاصره الأعداء قـد اختـار مكاناً مناسبـاً جداً لـلافلات، فجمع مـواد خفيفة أضرم فيها النيران، ووقتها تجمع أعداؤه لحراسة بقية المنافذ، وهنا أمـر جنوده بالعبور من خـلال تلك النيران، بعدمـا أمرهم بأن يضعـوا أمام وجوههم الترسة، وأن يغطوا سيقانهم بالثياب.

وعندما ضغط فابيوس Fabius على هانيبعل، وحاصره في مكان شديد الخطر، ربط في قرون الثيران حـزماً وأضرم فيها النيران وأطلقها، فأخذ القطيع الهائج يركض هنا وهناك، وأشعل النيران في الجبل من كل جهة، فخاف القـائد الروماني من الكمائن والمصائـد، فجمد جنده حيث هم، وهكذا أفلت المغربي سالماً.

وصــدف أن قــاد القنصل إميليــوس بولس Aemilius Paulus جيشـه في طريق ضيق جـداً عند الشاطىء، فحمى جـوانب جيشـه بأن صف الأسرى على الأطراف، وبسببهم امتنع العدو عن رمايته بالسهام.

وعندما كـان بورو Poro يمنع الاسكندر المقــدوني من عبور نهر ايداسبن Idaspen ، أمر أتباعه أن يركضوا بعزم نحو الجهة المقابلة من النهر، فتبعهم بـورو، خشية منه أن ينفذوا العبـور من هناك، وعند ذلك أمر الاسكندر جيشه بالعبور من الجهة العليا.

وهكذا إذا كان القادة البارعين قد تخطوا المخاطر، بأخذهم بإجراءات احترازية متنوعــة وقـادوا جيــوشهم ســالمة، على عكس ذلك تصرف بلدوين الأول ملك القدس عندما أقبل ليـواجه ثلاثين ألفاً من المسلمين بين اللد والرملة، فأوقع نفسه مع أتباعه في موقع حرج جداً، وفعل مثل هذا أيضاً قرب جبل الطور.

الفصل الخامس

كيفية إقامة المخيم

يتـوجب دومـاً أن يقـام المعسكر — خاصـة إذا كـان على مقـربة من العدو — في مكان آمن حيث تتوفر كمية من الأخشاب والعلف والماء، ولهذا عندمـا خـدع الخونة امبراطور ألمانيــا ومعـه ملك فـرنسا وملك القدس أثناء حصارهم لدمشق، فبدلوا موقعهم المناسب بموقع آخر لا ماء فيه، دحروا وتخلوا عن حصار دمشق، وبالطريقة نفسها هزم صلاح الدين غي لوزغنان وأسره.

وإذا كـانت الإقامـة ستطول يتـوجب اختيار المكان الصـالح، والمناخ الجيد، لنصب المعسكر، كذلك ينبغي تجنب أن يكون هناك جبل قريب، ولا بأس أن يكون المكان مـرتفعـاً حتى لا يسهل على العـدو احتـلاله، ومن غير المناسب أيضاً أن تكون هناك كثـرة من سواقي المياه، فإن أهل

دمشق قد دحروا التتار بسبب ذلك، كذلك ينبغي تجنب حصر الجيش الكبير في مكان ضيق، أو زج الجيش الصغير في مكان ممتد أكثر من اللازم، ويجب نصب المعسكر حسب المعطيات والظروف، بحيث يكون أحياناً مربعاً، وأحياناً مثلثاً، وأحياناً على شكل نصف دائرة، وذلك حسبما يقتضي وضع المكان،هذا وإن الشكل المربع والمستطيل أنسب في حالة الدفاع، وللشكل المستدير مفعولاً أكبر، وإذا لم تكن هناك ضرورة قصوى ينبغي عدم تثبيت الأوتاد في الأرض،بل ليصنع منها ما يشبه الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض، وأن يكون أمامها خندق عرضه تسعة أقدام وعمقه ثمانية أقدام، إنما ينبغي إحاطة النقاط التي يكون ضغط العدو عليها شديداً بخندق عرضه اثني عشر قدماً وعمقه تسعة أقدام، وأن تحاط قمة الخندق بسواتر خشبية متينة جداً، هذا وقد اعتاد الجنود أن يحملوا كمية منها معهم، وأن يكوم منها على الأرض تلة يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، لكن إذا حالت مقاومة العدو دون ذلك، فلينظم الفرسان جميعاً مع الرجالة في الوسط على شكل جبهة قتال، في حين يتبعهم الباقون، وهكذا نجد يوليوس قيصر أثناء الحرب الأهلية، عندما قاد قواته ضد أفرانيوس Afranius ، ووجد نفسه غير قادر على التقدم دون التعرض للخطر، صف جيشه على شكل ثلاثة صفوف الواحد وراء الآخر، وحفر خندقاً عمقه خمسة عشر قدماً، لجأ إليه مع جنده عند غياب الشمس.

ويلزم فوق كل شيء أخذ الحيطة في أن لا تتم مواجهة الأعداء من جهتين في وقت واحد، فإن ذلك يعرض لأكبر خطر داهم، ويترك المجال واسعاً للخوف ، وكذلك ينبغي السهر الشديد على حراسة المعسكر، وينبغي إضاءة الأماكن الهامة لتوفير الرؤية من بعيد، لئلا ينقض العدو فجأة، وعلى كل عنصر أن يكون سلاحه جاهزاً بالقرب منه.

وينصب المسلمـون معسكراتهم حسب نظام دقيق، حيث يضعـون في الوسط سرادق السلطان، ومن حـوله الأشراف والرجـالات الأشـداء حيث يكون تعـــدادهم حـــوالي الألفين،ويـدعى هؤلاء باسـم الحلقـة السلطانيـة، ثم يوزعـون مـا تبقى ويرتبـونـه حسب تلك الدائـرة، وهم يتبعون هذه الطريقـة وينفذونها جميعاً، وهـي مناسبة، ذلك أن كل مسلم يعـرف في أي دائرة هو، وفي أي دائـرة ينبغي أن يكون، ومكان خيمتـه بالتمام والكمال.

الفصل السادس

توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

لاتترك الأوضـاع في الحرب مجالاً للمغـالطة، والمغـالطة هي أن تفيـد عـــدوك، وتدعـــه يؤذيك، ولذلك ينبغـي أن لا تصنع أي شيء حسب هوى عـدوك،لئلا تكون أنت نفسـك عـدواً لنفسك، ويؤذي هذا أكثـر ويضر وقت التحام الجيـوش، من ذلك مثلاً نجد روجـر أمير أنطاكية، قـد انطلق بتحريـض من المسلمين وإثارة، دون أن يكون لديه أدنى أمل بوصول نجدة مرتقبـة، فقتل بسيف الأعداء هو وكامل الجيش الصليبي تقـريباً، وفي الحقيقـة لإنشاب القتـال ينبغي اغتنام الفـرصة المناسبـة، لا الخضـوع إلى إرادة العـدو، على هذا عندمـا بلغ سكيبيـو في إسبـانيـا أن جيش أسـدروبعل، قـد زحف إلى القتـال صبـاحـاً دون تناول للطعـام، ضبط جنوده، وأمـرهم بالجلوس وبتناول الطعـام، وعندما حل بالعـدو التعب من الوقوف الطويل تحت السلاح، وعرف أن الأعداء قد جاعوا وعطشوا، أخرج جيشه وتقدم به، فأحرز النصر.

ومثل هذا حدث في إسبانيا مع متللوس Metellus ، فقد زحف هرقل ضده عند شروق الشمس في وقت من السنة شـديد البرد، وتقدم

نحو خنادقـه، فضبط متللوس قواته، وانتظر حتى الظهـر، وإذ شعر بأن الأعداء قد تعبوا انقض عليهم ، وانتصر.

وكذلك عندما كان بوستوميوس Posdtumius في صقلية يقاتل ضد البونيين،(أهل قرطاج) جعلهم يتقدمون كل يوم مسافة ثلاثة آلاف قدم منه، حيث كـان يقاومهم برخاوة ودونها شـدة عند خندقه ويشتبك معهم بمعارك خفيفة، واستمر الوضع هكذا حتى سئم أهل قرطاج من هذه الرتابـة، وكـان هو قـد ترك جنده داخـل الخنادق وكل شيء معهم جاهز تماماً، وفي النهـاية تمكن مع جيشه المرتاح من التغلب على جيشهم الذي هدّه التعب وأرهقه العوز.

ولاحظ أبقـراط الأثيني أن أعداءه يتناولون الطعـام دوماً في السـاعة ذاتها، فأطعم أتباعه في ساعة مبكرة، وهاجم أعداءه وهم يتناولون طعام الإفطار، وأمسـك بهم فجأة، بحيـث لم يترك لهم مجالاً للحـــرب، ولا للانصراف، وعنـد اقتراب حلول الظـلام أرجع جنـده، وتركهـم تحت السلاح، وبينما أعـداؤه يتناولون طعام العشـاء وهـم غير معبئين للقتال، هجم عليهم، ومثل هذا فعل فولك ملك القدس، فهـو عندما عرف أن المسلمين يرتاحون بين أنطاكية وحلب، من أجل تضييق الخناق على أهل أنطـاكيـــة، سبقهم ليلاً، وهم مايزالون في خيامهم داخل معسكرهم، وبطش بهم، وكذلك عندما وجد صلاح الدين الحشد الصليبي في مكان خطير، وهو يعـاني من العطش الشـديد، هاجمه قبل أن يصل أفـراده إلى الماء، وانتصر على الملك وعلى الجيش الصليبي.

الفصل السابع

مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

مثلما يجب لدى إقـامـة المعسكر أخذ الحذر، وعـدم تمكين العـدو من أخـذ الأمـاكن المرتفعـة (انظر الفصـل الخامس، المتقـدم أعـلاه)، هكذا

يجب، عندما يلتحم القتال، اختيار المكان الأعلى، ووفق هذا اختار كنويوس بومبيوس . Cneus Pompeius في كبدوكية مكاناً مرتفعاً لمعسكره، حيث ساعد انحدار المكان جنوده في هجومهم، فتغلب بسهولة على عدوه بفضل عملية الانحدار، ومثله فعل يوليوس قيصر عندما ذهب للحرب ضد فرناس Farnace ابن ميثريدات Mithridatis فنصب محلته على رابية، وكان هذا تدبيراً موفقاً منه، أمن له الانتصار، ذلك أن الجرف المطل من الرابية فوق البرابرة وهم في الأسفل، ردهم فوراً على أعقابهم، وكان هانيبعل عندما ذهب للحرب ضد مارسيليوس، قد هاجمه من جانب الطرق المنخفضة ومن المرتفعات، واستعان بوضع الأرض كحصن، وبذلك تغلب على ذلك القائد الشهير؛ ولاحظ هانيبعل أيضاً عندما كان قرب بلدة كان Ca-nas أن الرياح جنوبية، وأنها تثير عند الصباح الرمال وتنشر الغبار، فنظم صفوفه بشكل جعل فيه قوة الرياح تضربه بمجملها من الظهر، في حين تصدم الرومان وتصفعهم في وجوههم وعيونهم، وهكذا بسبب ما لحقهم من ضيق أحرز عليهم نصراً حاسماً مشهوراً، وأقدم كليومنس اللاكدموني Cleamenes Lacedaemonius عندما كان يحارب ضد هسبياس Hyspias الأثيني، الذي كان يتفوق عليه بعدد الفرسان، أقدم على قطع عدد من الأشجار، ورماها في الميدان الذي كان ينوي أن يخوض المعركة فيه، وبذلك جعله غير صالح لحركة الخيول، وأيضاً عندما خاف الايبيريون في إفريقية أن يحاصرهم الحشد الغفير من الأعداء، مع أنهم كانوا أشجع منهم، استداروا من خلف النهر، وانقضوا على من كان قريباً منهم، وبذلك حطموا بالنهاية الحشد كله، وكذلك عندما لاحظ أنطيبيوس Antipus اللاكدموني أن الأفارقة فاقدين للامل، وكانت قواتهم معتمدة على الخيول والفيلة، وكانوا يسلكون طريق التلال، فيما كان الرومان يمسكون بالسهول، وتعتمد قواتهم على الرجالة، عند ذلك قلب مصير

الحرب، بمجرد تبديل الأماكن، حيث قـاد الأفارقة نحو السهل، فتمكن بوساطة الفيلة من تبديد صفوف الرومان.

وكان إبامنداس Epaminundas قائـد الطيبيين في أثناء مواجهته لأهل لاكـدمونيا قد أمر خيالتـه بأن يركضوا ذهابا وإيابا حتى يتعالى الغبار، وفي هذه الأثناء استـدار مع الرجالة، وانقض على الأعداء من الخلف وهم غارون، فصرعهم.

ومما تقـدم، وبناء عليـه، على قـائـد الجيش أن يتنبـه لاختيـار المواقع المناسبـة، وعليـه أيضـاً أن يدفـع بالعـدو إلى حيث البقـاع الخطرة، وأن يتقصى بعناية لدى اختيـاره للأمـاكن حتى يكون على معـرفة تامة بها، وبما أن الخطر أثناء الحروب ليس أقل منـه أثناء السفـر في البحـار وعلى ظهر المراكب، عليه أن يسعى لامتـلاك خرائط مكتوبة أو مرســومة، قد دون عليها تعـرجات الطرق، مع ايضـاح الأخطار بقدر مـا يكون ذلك ممكنا.

وليكن لديه أيضا مستشارون أمناء، فإنه بسبب عدم أمانتهم نقرأ بأن الاسكندر خـذل في الهند، ومثل ذلك حـدث مع امبراطور ألمانيـا، ومع فـولك ملـك القـدس، كما كـاد خليفتـه الملك بلـدوين أن يهلك بسبب صعـوبات المكان، لولا أنه أنقـذ بأعجوبة ربـانية، ولحقت الهزيمـة بغي لوزغنان على يدي صـلاح الدين، نتيجة للنصيحـة الفاسدة التـي تلقاها من كونت طرابلس، حيث دله على موقع غير مناسب.

الفصل الثامن

الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

كـان بامكاننا أن ندرك مـن الفصل المتقـدم، بما فيــه الكفــاية، وأن نتـوصل إلى أنه من المستحسن عــدم انشـاب القتـال بلا روية، ويفضل ذلك على أن يسلم المرء نفسه للحظ دون أن يتخذ الاحتياطات الموائمة،

لذلك يتوجب قبل خوض المعركة، الالتزام فوق كل شيء ، بالأوامر والأنظمة، لأنه حيث تكون هناك مجموعة بلا نظام وأوامر، يكون هناك الخزي، يضاف إلى هذا أن النظام والتعبئة في أثناء المعركة يرعب الأعداء، وجاء في الكتاب المقدس في شعر نشيد الانشاد، (٦/ ٤): «مرهبة كجيش بألوية»، ولقد كان التتار ينظمون قواتهم تحت قيادة أمراء عشروات، وأمراء مئات ، الخ... وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على الهند، وينبغي كذلك أن يعين لكل كتيبة راية خاصة بها، حتى إذا ضل أحد الجنود سبيله يعود إليها بسرعة، ولهذا السبب ذاته من المفيد أن يشار إلى أمراء العشروات وإلى أمراء المئات، على خوذهم أو في مكان آخر بعلامة مميزة لهم؛ وليكن مع الصليبيين رماة قسي ورماة مجانيق كثرة، يكونون مختلطين بهم، يردون هجمات المسلمين، ويكونوا متنبهين جيداً لعقر خيولهم الخفيفة، ذلك أن المسلمين ليسوا من الرجالة الجيدين، وليحذروا من اطلاق السهام طائشة بلا هدف أو جدوى، وكذلك ليكن عدد الرجالة كبيراً، بحيث إذا لم يكن بمكنتهم مرافقة جميع الفرسان. يكونوا وقتها من حولهم مع رماح طويلة، وليكن هؤلاء متكتلين ومجتمعين مع بعضهم في كتلة واحدة، بشكل لايتمكن فيه أحد من الدخول بين صفوفهم، وليكن بينهم حملة رماح يردون عنهم بالترسة نشاب المسلمين، ويؤمنون لهم التغطية، ويتوجب على هؤلاء أن يكونوا من الخارج أشبه بجدار، أما في الداخل فيجب أن لايكونوا مكتظين حتى لايضايق بعضهم بعضاً، ولكي يتركوا لرماة النشاب المجال للتصرف بحرية، ذلك أن هؤلاء هم الذين يعرقلون حملات المسلمين، وعلى هذا ينبغي أن يحملوا معهم الرماح والخناجر والسهام والنشاب المتنوع بوفرة، وليحذروا كل الحذر أن تتخلخل صفوفهم وأن يتباعدوا عن بعضهم، حتى لايقعوا بسهولة تحت سيطرة الأعداء ومكايدهم فيقهرون، وعليهم أن يتعلموا مما يفعله المسلمون، في العودة والانضمام إلى بعضهم، وذلك إذا ما حدث طارىء فصلهم عن

بعضهم، وليعاودوا رصّ صفـوفهم، ومستندين إلى الاشـارة التي تصدر إليهم، وبهذا سوف يتجنبون المخـاطر، وسيكونوا مرهوبين أكثر من قبل المسلمين.

وإذا كان قصـدهم الأخذ بخطة دفـاعية فقط، فلتكن صفـوفهم على شكل دائــرة، وينبغي أن تكون كثيفــة لئلا تتفكـك، على أن يوضع في الواجهــة الذين هم أحسن تسليحـاً حتـى يتحملوا الضربات، لكن إذا كانت خططهم هجـومية، فلتكن صفـوفهم على شكل هرمي، ففي هذه الحالة لايمكن ضعضعتها بسهـولة، وإذا ما تبين أن عـدد الأعداء قليل، فقــد يكون من المفيــد العمل على تطـويقهم، ووقتهــا ينبغي أن تكون الصفوف مفتـوحة من الامـام، ومقفلة عند الساقة، بحيـث تأخذ شكل كماشة، أما تشكيلة الصفوف المربعـة فإنها لاتفيد أصلاً أحداً من الناس، وعلى قائـد المعركـة التنبه إلى أحوال الطقـس وإلى أوضاع المكان، وذلك حسبما ذكرنـا في الفصلين المتقدمين، ولينتبه أيضـاً إلى معرفـة من عنده عـدد أكبر من الفـرسـان والرجـالـة هو أم الاعـداء، وفي العـادة يدافع الفرسان عن أنفسهم في السهل بشكل أفضل، أمـا في التلال والأحراش فـالمشاة أفضل، وليحـاول أن يعرف أين مـوقف الاشداء من الخصـوم، وأين الركيك فيهم، وأين الاكثر قوة، وأين الأشد ضعفاً.

وكان ج. سكيبيو عندما ذهب إلى إفريقية ليقاتل هنون، قد لاحظ أن الإسبان قد وقفوا عند الجناح الأيمـن، وكان يعرف أنهم أشداء، لكنهم يعملون لمصلحـة غيرهم، ووقف الأفـارقـة عند الجناح الأيسر، وكـانوا أدنى قـوة، لكن أشد شكيمـة، فرتب صفـوف جنوده بحيث وضع عند الزاوية اليسرى نخبـة جنوده، وخفف عن الجهة الأخـرى وأرسل الجند من هذا الجانب للوقوف ضد صفوف الأفـارقة، وهكذا عندما تمكن من تبديدهم وهزيمتهم، استطاع بسهولة الحصول على استسلام الإسبانيين. وكان الملك فيليب المقدوني عندما لاحظ أن مقدمة جبهة العدو متراصة

ومكونة من الجنود النخبة، قد أمر باقتحام الجهة الضعيفة، وهكذا بلبل الجبهة.

وعندما جابه برمانس Parmenes الطيبي صفوفاً قوية جداً من الفرس، درّب ضعفاء جيشه، وأوصاهم أن يلوذوا بالفرار عند أول صدمة، ومن ثم الاختباء داخل الأحراش وبين الأماكن الصخرية والمتعرجة الوعرة، أما هو فقد اتجه مع نخبة قواته نحو من هم أقل عدداً، وهكذا اختل ميزان القوى بين صفوف الفرس، فأحاط بالجيش كله وبدده.

وكان سكيبيو الإفريقي عندما توجه لمحاربة أسدروبعل في إسبانيا، قد سار بجيشه بانتظام لمدة أيام متواصلة، وقد ترك النخبة في الوسط، وكان أعداؤه يزحفون أمامه باستمرار وفق النمط ذاته، فبدل سكيبيو تعبئة صفوف قواته، ووضع الأشداء من النخبة على الجناحين والضعفاء في الوسط، وفي الساقة، وتولى بنفسه قيادة الجناحين، وتقدم على شكل هلال، وبذلك استطاع بكل سهولة أن يدحر الفئات الضعيفة من جيش عدوه، وحقق الانتصار.

ومثل هذا لما اكتشف ميتللوس في إسبانيا أن هرقل قد مركز في القلب فرق المحاربين الأشداء، خفف القوات المتمركزة في الوسط من جيشه، وجعلها لا تنشب القتال مع قلب قوات العدو، قبل تحطيم الجناحين، فعند ذلك يحاط القلب من كل جانب ويدمر.

وعندما قدم كاسترونيوس Castronius اللاكدموني إلى نجدة المصريين ضد الفرس، ولمعرفته أن الفرس يرهبون الإغريق أكثر من سواهم، قام بتغيير التعبئة، فوضع الاغريق في الصفوف الأولى، وبدّل سلاحهم وزيهم، ووضع خلفهم المصريين، وقاوم حملة الفرس بضراوة، والفرس يعتقدون أنهم يقاتلون ضد المصريين، وعندما أطلت

بعـد ذلك صفـوف المصريين وحشـودهـم خيل للفـرس أنهم الإغـريق فتراجعوا.

ولكي يثير سيلا Silla الخلل بين صفوف العـربات التي أرسلت ضـده لضعضعـة صفـوفـه، أثار البلبلة بينهـا بغـرز أوتاد على طريقهـا، وبالطريقة نفسها أوقف يوليوس قيصر عربات الغاليين المسننة.

ووضع استياغس Astiages ملك الميديين في أثناء حربه ضد الفرس المقاتلين الأشداء في مؤخرة جيشه، وأبلغهم أنهم إذا لم ينتصروا، لن يعاود وضعهم في المقدمة، وبذلك دحر الأعداء.

الفصل التاسع

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

فيما كـــان ابـن القنصل بابيريـوس كيرســـور Papirius Cursor يقاتل ضـد السانيت Sanites ، وهم يبدون صـــلابة في القتال، أمربعض راكبـي البغال أن يجروا على الأرض آلات ضجيج، وأن يثيروا بها ضجـة عظيمة، ولما رآها صرخ لقـد بات النصر حليفنا، وذلك حتى يتحمس جنده وينالوا مجد تلك المعـركـة، وبالفعل استعاد الرومـان عند هذا العمل ثقتهم بأنفسهم، وارتعب العـدو، ولاذ بالفرار، وعندمـا كان القنصل فابيوس Fabius يقاتل ضد السـانيت، فصل عن صفوف قواته حملة الرماح، وأمرهـم بالصعـود إلى ظهر تلة كانت هناك، كان من الممكن النزول منها إلى ساقة جيش السانيت، وبذلك هزمهم.

وعندمـــا اشتـد الضغط على أميتيـــوس روفـوسAmitius Rufus من قبل الداشيين Dacis ، وكان عـددهم كبيراً، أمر قلة ممـــن معه، أن يقومـوا حالما يرون أن المعـركة قـد احتدمت بالإطلال على مـؤخرة الأعـداء من جبل كـان هناك، وأن يمـلأوا الجبل بأصـوات الأبواق، وبهذا خــــاب أمل الداشيين وأداروا ظهـــورهـم لأعـــدائهـم، وصنع

سيلبيتيوس Sulpitius الشيء نفسه ضد الغاليين، وفي أثناء حرب جوغارتا Jugarta ضد ج. ماريوس ركض أمام صفوف الرومان، وهو يصرخ أنه قتل ماريوس، وبهذه الوسيلة هزم الحشد الروماني الكبير، وبمثل هذا هزم فاليريوس ليفينوس Valerius Le-vinius الأعداء، عندما ركض وهو شاهر سيفاً يقطر دماً وينادي كاذباً: لقد قتلت بيروس Pyrrhus .

وعندما كان ميرونيدس Mironides الأثيني يشك بنتيجة القتال ضد أهل طيبة، أطل فجأة على الجناح الأيمن لجيشه، وصرخ بأنه قد فرغ لتوه من دحر الجناح الأيمن للعدو، فثار حماس جنوده، ودبت النخوة بين صفوفهم، والخيبة في صفوف العدو، وبذلك انتصر.

ولدى مواجهة كريسوس Cressus لخيول أعدائه، وكانت قوية جداً، تصدى لها بقطيع من الجمال فارتعبت الخيول من منظرها غير المألوف، وجفلت وهي مرعوبة، ولم تكتف بأن رمت من كان على ظهورها، بل نشرت الفوضى بين صفوف الرجالة.

وكذلك كثيراً ما استعان ملك إبيروتي Epeyroti في حروبه ضد الرومان بالفيلة، وكذلك فعل البونيون القرطاجيون.

وربط الاسبان أثناء حربهم ضد هملقار حزماً من القش مشبعة بالقار والكبريت ووضعوها في عربات كانت تجرها الثيران، وعند إعطاء الشارة ببدء المعركة أضرموا النيران بالعربات، ودفعوا بالثيران نحو الأمام، فنشروا الفوضى بين صفوف الأعداء وضعضعوها.

وفي أثناءحرب التركيوننس Traquinenses ضد الرومان، تقدم عدد كبير من حشدهم بلباس الكهنة، وهم يحملون المشاعل، وانتشروا بشكل مرعب بين صفوف الرومان، فأثاروا الفوضى فيها.

الفصل العاشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حالة إصابته بانتكاسة.

الذي يستطيع إعـادة تنظيم جيشه، عندمـا يبدأ بالتفكك والانحـلال هو كمن ينقذ أتبـاعه من براثن الموت، ففي تلـك الظروف ينبغي إظهار القسط الأكبر من الحنكـة، ذلك أن الفــرار من صفــوف القتــال ينشر الرعب في النفوس، ولقـد أجبر المسلمون أحيـاناً الصليبيين على الفرار، إتقاء لرشقات خفيفة من النشاب، مع أن المؤمن الحقيقي يبعد عن نفسه الخوف وينفيه، لعلمـه بأنه يقاتل في سبيـل قضية محقة، وأنه بعـد التعب سوف ينال المكافأة، وهل من قضية محقة أكثر من إزالة العار عن المسيح وعن الشعب المسيحي، أو ليس من المخجل بالنسبة للشعـوب المسيحية أن تسكت شريعـة الإنجيل، وأن تعلن شريعـة أخـرى واحـدة فقط، في أرض حملت فيهـا العذراء بالمسيح الرب، وفيهـا هناك ولد، وهناك تألم، وهنـاك أُنزل إلى القبر، وهنـاك تدبـر الخلاص في وسط الأرض، حيـث يمكننا أن نردد مع سفـر المكـابيين١ / ١:«صـار اسم القـدس غـريبـاً، وهجرها المولودون فيها، وبقدر ما كان عزها صار عارها».

ليته يهب واحـد من الناس مثل يهوذا المكابي، يساعـده أخوته كلهم، فيحـاربون حـرب الرب بفرح، وليلبس يهوذا الحديد كـالجبـار، وليكن كـالأسـد الذي لا يخاف قـدوم أي كان، وقـد قـال الرسـول بولص في رسالته إلى العبرانيين(الاصحـاح: ١١ / ٣٢ — ٣٤):«جدعون وباراق وشمشـون ويفتــاح وداود وصمـوئيل والأنبيـاء الذيـن بالإيمان قهـروا ممالك،صنعـوا بـراً، نالوا مـواعيـد، صـاروا أشــداء في الحرب، هزمـوا جيــوش غـربـاء»، وهل أفيـد وآمـن من ذلك الموت الذي يحصل فيــه الانسان على غفران لكافـة خطاياه؟ وبموت مثل هذا لا تفنى أجسادنا، بل تتبـدل إلى مـا هو أحسن، ويقـول صـاحب سفـر الرؤيا(الاصحـاح الثاني:١٠):«كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة».

وحـدث أنه عندمـا احتل البندقـداري صفـد، قـام بإعطاء الأمـان للمؤمنين إذا استسلم إليـه من في القلعة، وضمن مـواكبتهم حتى مدينة عكا، وبعدمـا تسلم القلعة دعا المسيحيين إلى اعتناق شريعـة محمد(ﷺ) وتملق إليهـم، وفي الغـداة هددهم بـالموت، لكن اثنان مـن الرهبـان الفـرنسيسكان الصغـار قضيـا الليل يشـدان من عـزيمتهـم بالنصـائح المقدسـة، فاختاروا إكليل الشهادة، وسـال عند منحدر الجبل ليس قليل من الدم بل نهر، ويحكى أنه تكلل بالاستشهـاد في ذلك اليوم مـا لا يقل عن خمسمائة شخص.

وأمـر بعد هذا بتجـريد هذين الراهبين، واسـم أحدهما يعقـوب دي باديو Padio ، واسم الآخر جيروم دي جـانوا Janua ، وكان معهما مقدم فـرسان الداوية، ثم أمـر بجلدهم بكل قسـوة، واقتيدوا أخيراً إلى حيث استشهـد البـاقـون، فهناك أكمل استشهـادهم بقطع رؤوسهم، وغطى ذلك الملك الهمجي أجسـادهم المقـدسـة بالردميـات، ومع ذلك كان يشـاهد في ساعات الليل، على مـرأى من المسلمين، نوراً عظيماً كان يشع مـراراً منهم، ولـذلك لا مسـوغ للمسيحيين أن يخافـوا في الحرب، وإذا قوي الضعف البشري على القائد، فليعمد إلى الاقتفاء بأعمال القادة الكبار.

من ذلك أن سيرفيـوس توليوس Servius Tullius الفتى، عندما رأى حملة الرايات لديه في أثناء الحرب التي شنهـا الملك تاركينوس ضد السابيين Sabinos، يقاتلون بـاسترخاء كبير، انتزع إحـدى الرايات، وأرسلها إلى بين الأعـداء، ولاسترجاعها قاتل الـرومان بشجاعة فـائقة، حيث استردوها وأحرزوا النصر.

وأعلن سكيبيو، عندما رأى جيشه بدأ يتخـاذل، أنه يعدّ عدواً له كل من يرجع إلى المعسكر، وفي حالة مماثلة قـال ق.فوريوس Q.Furius ، أنه لن يدع أحـداً يعـود إلى المعسكر إلاّ إذا كـان منتصراً، وهكذا أعـاد

جنوده رص صفوفهم وأحرزوا النصر.

وأمر فوليوس بريسكوس Fuluis Priscus لما تردد حامل رايته في تنفيذ أوامره بالهجوم على العدو، بقتله، ولما تمّ ذلك ونفذ خاف الباقون، وانقضوا على الأعداء، وصنع كوسوس كورنليوس Cosus Cornelius، قائد الفرسان، مثل هذا، وعندما بدأ بعض الجنود في قوات القنصل ق.أتيليوس Q. Attilius بالهرب إلى المعسكر، حيث تصدى لهم بصفوف جيشه، وأعادهم إلى ساحة القتال ضد العدو، وعندما تراجعت كتائب دي سيلا D. Silla أمام ميتريتكو Mitritico ، استل سيفه، واندفع نحو مقدمة الصفوف وخاطب الجنود قائلاً:«إذا سألكم أحد أين تركتم الامبراطور قولوا تركناه يقاتل في بوشيا Boe-tia»، فخجلوا من ذلك، ورجعوا كلهم وتبعوه.

وخاف فيليب أن لايتمكن أتباعه من الصمود أمام هجمات السكيت، فمركز في المؤخرة الفرسان الأكثر إخلاصاً له، وأمرهم أن لا يدعوا أحداً من المقاتلين يهرب من ساحة الوغى، وإذا أصر أحد على ذلك وتمادى بفعلته فليقتلوه، ولهذا فضل أتباعه أن يقتلهم العدو على أن يصرعهم رفاقهم، وبذلك أحرزوا النصر، وقد قيل الشيء نفسه عن أستياغس Astiages ، في الفصل الثامن أعلاه.

الفصل الحادي عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

من الممكن معرفة كم هي الكمائن مفيدة للمقاتلين من خلال الأمر الذي وجهه الرب إلى يشوع، إذ قال له:«اجعل كميناً للمدينة من ورائها»[يشوع:٨ / ٢]، وعندما تظاهر يشوع بالهرب، لحق به سكان المدينة، بحيث لم يبق واحد منهم فيها، وعندها انبعث الذين كانوا مختبئين في الكمائن، ودخلوا المدينة، وأفنوها بالحرائق».

وعندما كـان سكيبيو الإفريقي يواجـه معسكران: أي جيش سفاقس وجيش قـرطاج، أضرم النيران في المعسكر الأول، حيث كـانت هناك مواد كثيرة قابلة للاحتراق، فهرع رفـاقهم لنجدتهم، وقد خيل إليهم أن النار اشتعلت قضاء وقدراً، فقتلهم بالكمائن.

وعندما كـان بومبي في إسبانيا، شرع بتركيـز عناصر تخرج من جيشه سراً، وتظاهر بالخوف واستدرج العدو المطارد له إلى أماكن موبوءة، وفي المكان الذي كـان يرغب به استدار وهاجمهم من الأمـام ومن الجوانب، وظل يوقع بهم الضربات حتى أبادهم.

وعندما سمعت الملكة تاماريز Tamaris بموت ابنها، أخذت تبحث عن طريقة تروي بها غليـل انتقامها، فأحـاطت الأعداء بالكمائن خدعـة، وتظاهرت بالانسحاب تغـريراً، واستدرجت قـورش إلى مكان ضيق، فقتلته وقتلت معـه نحواً من عشرين ألفـاً من الفرس، ووضعت رأس الملك في قـربة مليئة بـالدم وألقت بها وهي تقـول مخاطبـة إيّاه بشكل وحشي:«اشرب من الدم الذي طالما تعطشت إليه، فقد كنت دائماً تتعطش إليه».

وفي أثناء حـرب بومبي ضد ميثـريدات Mithridate ، صف في الغـابة ثلاثة آلاف جندي وعبـأهم على شكل رتلين، ووضع معهم قسماً خفيفاً من الفـرسان المسلحين، وتظاهر بالخوف، واستـدرج الأعداء إلى أبعـد من مـوقـع الكمائن، ثم ضربهم من المجنبتين، إذ صـار الهاربون يصطدمون ببعضهم وجهاً لوجه.

وكان ملانتوس Melantus قائد أثينا، قـد تحداه وطلبه للمبارزة فـرداً مقـابل فـرد، فاستجـاب وعندمـا وصل إليـه سمع عـدوه يقـول له:«أنت مجرم، كيف تـأتي ضـدي أنا وحـدي، ومعك رفيـق»، فـالتفت ليرى من الذي يرافقه، فصرعه عدوه بضربة واحدة.

وأخرج أبقراط الأثيني من السفن فرقة من الجنود لديه، ووضعها في كمائن، وأمر بعـد ذلك السفن بالإقلاع وكأنها محملة بـالجنود، وأن تبحر علناً، فـاطمأن اللاكـدمـونيون، وهنا أقـدم على حين غـرة، فضربهم من الخلف، وأذلهم في الطريق.

وعندمـا كان هانيبعـل في كان أمـر ستمائة مـن الجنود البدو بالفـرار، ولكي يصـدقهم الـرومـان تخلوا لهم عن ترستهم وسيـوفهم، وعندمـا وصلوا إلى الفرقة الأخيرة، فإنهم مثلما فروا راكضين، كروا مرتدين نحو أعدائهم، حيث استلوا السيوف القصيرة التي كانوا قد أخفوها والتقطوا ترستهم من على الأرض، وضربوا صفوف الرومان.

وتجسس هانيبعل نفسـه أيضاً على معسكر القـائد الرومـاني فوليـوس Fuluius ، فوجـده مهملاً للتحصين، ثم علم بعـد ذلك أن لا جرأة كبيرة لديه، ولهذا أظهـر لحراس المعسكر الرومـاني قبل بـزوغ الفجـر، والظلام مـا يزال مخيماً، قلة مـن الفـرسـان، وللحـال سحب فـوليـوس جيشـه، وقتهـا احتـل هانيبعل المعسكر الرومـاني بمهـاجمتـه من الجهـة الخلفية، وانقض على الـرومان من وراء ظهورهم، فقتـل ثمانية آلاف من نخبة جنودهم، وقتل معهم قائدهم.

وبعـد أن كـان فـرياتوس Veriatus لصاً صـار قـائـداً للكلتبيروس Celtiberos في الحرب ضـد الرومـان، وفي إحـدى المعارك تظاهر بالانهزام أمـام الفرسان الرومـان، واستدرجهم إلى مكان وعر ومرتفع، وبعـد أن أفلت هو عبر ممرات كان يعرفهـا واعتاد عليها، دفع بالرومان إلى مستنقع غرقوا فيه وقتلوا.

ولاحظ ج فوليوس G.Fuluius عندما وصل إلى تخوم الرومان أن جيش الفلسيكي Falsici كـان أكبر من جيشـه بكثير، فنصب معسكره، وبعث ببعـض جنوده لحراسـة بعض الأبنيـة القـريبـة من

معسكره، حتى يظن الفلسيكـي أن جماعتهم قـد فعلوا ذلك، فتفــرقـوا للنهب.

وعندمـا أرسل أهل قرطاج هانيبعل ضـد الأفارقـة، علم أن أولئك القوم يتشوقون إلى شرب الخمـرة، ولذلك شن عليهم هجوماً خفيفاً ثم توقف، وتظاهر بعـد ذلك في ساعـة متأخـرة من الليل بالفرار، بعـد أن ترك في معسكره خـوابي مليئة بالخمـرة الممـزوجـة باللُّفـان، وهي مـادة مفعولها ما بين السمية وتسبيب النعاس، فـانتشى الأفارقة فرحاً واحتلوا المعسكر، واحتسوا الكثير من تلك الخمرة المزيجة، فما لبثوا أن ارتموا مثل الأموات، وهنا ارتد عليهم فأسر منهم من أسر، وقتل من قتل.

وتظاهر المسلمـون عندمـا كان الصليبيـون يحاصرون عكا، ويعـانون من الجوع، تظاهروا خـديعـة بالهزيمـة، فـاستـدرجـوهم إلى نهب المواد الغذائيـة وسواها، وفيما الصليبيون راجعون قـد أثقلتهم المنهوبات، ارتد عليهم المسلمون ووجهوا إليهم ضربة قاضية.

وعندمـا لاحظ القائـد هانيبعل نفسه عـدم وجود الحطب في منطقـة صحراوية، ترك القطعان الكثيرة التي كانـت معه في أحد الوديان، وجاء الرومان وحملوا معهم اللحوم نصف نيئة، فما كان منه إلاّ أن أعاد جيشه ليلاً وشدد الضغط عليهم بكل عنف.

وكـان أهل هي HY في حـرب مـع الأريتيريين، فقبضـــوا على واحد منهم قـدم إليهم متجسساً، وقتلوه فـوق مكان مرتفع، ثـم ألبسوا واحداً منهم ثيابه، وأعطى إشـارة إلى الأريتيريين من فوق ذلك المرتفع، أن يهجموا، ففعلوا فوقعوا بالفخ.

الفصل الثاني عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على

العدو، أو لتسهيل فراره.

كان الاغريق قد عقدوا العزم على منع ملك الفرس خسرو Xerxes من الانسحـــاب عن طريق تحطيم الجسر القـــائم على طريقـــه، لكن تيميستكل Themistocles خشي من دفـع الأعـــــداء إلى اليأس، فيبذلون وقتهـا كل قواهم، فأرسل خـادمه إلى خسرو حتى يحتل الجسر، ويعجل بالهرب.

وعندما حاصر قيصر الألمان، وصـاروا يقاتلون ببسالة بسبب يأسهـم، أمر بتركهم يذهبون، وطارد بعد ذلك الفارين.

وعندمـا وصل الخبر إلى جيـش ت. مـارتيـوس T.Martius بأن القـادة البونيين قـد قتلوا، وإذ شرع أفـراد جيش قرطاج يقـاتلون بعنف حتى يحققوا الانتقام، أخلى السبيل أمامهم وتركهم يتفرقون، حيث خلى بينه وبينهم مسافة كافية للهروب، ثم كرّ عليهم وقتلهم دون أن يعرض جماعته للخطر.

ولما عاد القنصل مانيليوس Manilius من ميدان القتال، وجد أن المعسكر الرومــــاني قـــد احتلـه المتمـــردون، وأن جميع أبـوابه محاصرة، والأعداء في الداخل، فانقض عليهم كالمسعور حتى أنه سقط في القتال، وعندمـــا لاحظ بعـض رجـــاله ذلك وكـــانوا في الطـرف الأقصى من المعسكر، فتحوا منفذاً ليخرج منه المتمـردون، وبعد أن خرجوا وتبددوا، وصل القنصل الثاني، وطاردهم.

ومثل هـذا فعل بنو إسرائيل عنـدمـــا اشتـــد القتـــال ضـــد سبط بنيامين(القضـاء:٢٠) تركوا لهم مكاناً يهربون منه، حتـى يقعوا في كمائن قد نصبوها لهم من قبل.

وبعدمـا احتل بيروس Pyrus ملك إبيروتا Epirota إحدى المدن، رأى أن سكانها قد ضـاق بهم الأمر، وأغلقـوا الأبواب، وأخذوا

يحاربون بشدة، فبادر ففتح لهم منفذاً، وترك لهم مجالاً يهربون منه.

وترك بيروس نفسه في جملة ما ترك من وصايا وأوامر قوله:«لاتقاوموا العدو المصر على الفرار، ليس فقط حتى لا تحرجوه بسبب المضايقة، وتدفعوه لبذل مقاومة أشد، بل لكي يسهل عليكم قتله فيما بعد، ولكي لا تكونوا من الظافرين الذين دأبوا على الشر».

الفصل الثالث عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإخفاء الكمائن، ولتضليل الأعداء.

بقدر ما يكون أحدهم مقدراً ذا قيمة كبيرة لدى الأعداء، بقدر ما يخسر من الجرأة والبسالة، ولذلك من الضروري أن تخفي على العدو كل النواقص الضرورية.

فلدى خوض توليوس هوستليوس Tullius Hostilius ملك الرومان الحرب ضد الفيغنت Vegentes وصل الألبان إلى بعض التلال القريبة بعدما تخلى عنها الرومان، وهنا أعلن جهارة أن ذلك تم بأمر منه حتى يطوق الأعداء، فهدأت نفوس الرومان المضطربة وتحطمت قلوب أعدائهم.

وعندما عرف سيلا بوجود من يتآمر في جيشه للاستسلام، أرسل مبعوثين من قبله يطوفون في أرجاء الجيش كله، وقال بأن ذلك يتم بتدبير منه، وبذلك أخفى مظاهر الهزيمة الواضحة، وشدّ من عزائم الجنود.

وكان هانيبعل قد جلب معه ثلاثة آلاف نجار إلى إيطاليا، وعند وصوله تخلوا عنه وهجروه، فما كان منه — حتى لا يضطرب الباقون — إلاّ أعلن أنه هو الذي صرفهم، ولهذا السبب كسب الذين بقيوا

معه.

وعندما لاحظ لوكولوس Lucullus أن الفرسان المقدون الذين كانوا معه لمساعدته، اتفقوا سوية والتحقوا فجأة بالأعداء، أمر بالنفخ بالأبواق، وأرسل الفرق التي كانت تحت إمرته، وشن بها الهجوم على الأعداء، وفضل ملاحقة الفارين بالنبال، فاضطروا إلى العودة إلى الرومان، وهاجموا العدو معهم.

وعندما انهزم الرومان الذين كانوا مع القنصل ت. كونتوس كابيتولينوس T. Quintus Capitolinus كذب مصرحاً، قبل أن تفلت الأمور، بأن قنصلاً آخر على الجناح الآخر قد هزم الأعداء، فتماسك من كان معه، وأحرز النصر.

ومثله فعل ج. مانليوس G. Manlius في حربه ضد المتمردين، فعندما جُرح زميله فابيوس Fabius الذي كان يقود الجناح الأيسر، أقبل مع مجموعات من جنده نحو المنهزمين، صارخاً في وجوههم بأن زميله حي، وأنه موجود في الجناح الأيمن، وقد حقق النصر، وبرباطة الجأش هذه استرد معنويات جنده، وانتصر.

الفصل الرابع عشر

بعض الاجراءات الضروري اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

بعدما غلب ج. ماريوس التيوتون في الحرب، حاصر فلولهم، وكان الليل قد حل، فترك من جيشه جماعة ترعبهم، وتتركهم طوال الليل بدون نوم، فنتج عن ذلك أنه تمكن في اليوم التالي من هزيمتهم بكل سهولة، كونهم لم ينعموا بالراحة.

وعلى عكس ذلك تصرف بلدوين الرابع، ملك القدس، بعد أن هزم

نور الدين(كذا)، فصرف بعض البارونات، ولذلك عندما عاد المسلمون لم يسلم المسيحيون من الإبادة إلاّ بالفرار، وبالطريقة ذاتها، وللسبب نفسه لحقت الهزيمة عند قلعة هنزيط ببعض البارونات الواصلين من فرنسا.

وبعدما غلب نيرو Nero البونيين رمى برأس أسدروبعل في معسكر هانيبعل، حتى يحطم معنوياته ومعنويات جيشه بالبكاء على أخيه، ولكي يدركوا أن لا أمل بوصول النجدة إليهم.

وأرسل جوسلين أيضاً برأس بلك إلى الصليبيين المحاصرين لمدينة صور، وبذلك اغتم المسلمون وحزنوا كثيراً،

وأمر ل. سيلا L. Silla برفع رؤوس القادة المقتولين في الحرب على أسنة الرماح، حتى يراها الواقعون تحت الحصار في مدينة بنسترا Penestrae ، وبذلك حطم تصلب المتصلبين.

وبعدما تغلب إرموكراتس Ermocrates السرقسطي على القرطاجيين في المعركة، أعاد معه عدداً كبيراً جداً من الأسرى، ولخوفه من أن تخفف الحراسة عليهم وأن تتدنى، لأن المنتصرين بطروا بسبب النصر، ومالوا نحو المآكل، وركنوا إلى الطمأنينة، نشر إشاعة بأن جيشاً من الفرسان قادم في الليلة التالية، وكانت نتيجة ذلك الاحتراز والانتباه أكثر للحراسة.

وينبغي أن لا يتوزع المنتصرون حالاً لجمع الغنائم وللنهب.

فهكذا فعل التيوتون بعد انتصارهم، فتفرقوا للنهب، فانقض عليهم شارل ملك صقلية، وهم متفرقين، وانتصر عليهم بسهولة، وهذا ما فعله يهوذا المكابي عندما انتصر على جناح من جيش جورجياس(المكابيون الأول:٤) فقال لشعبه:«لاتطمعوا بالغنائم لأن الحرب ما تزال قائمة بيننا»، وأطلت وقتها مع جورجياس فرق الجيش

تراقب مـن الجبل، ورأت هذه الفـرق مـا يحدث، وأن يهوذا واقف في السهل مستعـد للقتال، فحـل بين صفوفهـا الرعب، وهربت، ووقتـذاك فقط رجع يهوذا إلى المعسكر ليأخذ الأسلاب.

ومثل هذا الاحتراز ضروري لا بل ضروري جـداً بالنسبـة إلى الذين يقـاتلون ضـد المسلمين، ذلك أن المسلمين يحسنون الفـرّ والانصراف، ويعـرفون بـالوقت نفسه أيضـاً، ويحسنون الكرّ، حيث يقـومـون بجمع بعضهم بعضاً للعودة، لأنهم يقفون عن بعد، ويقومون بمراقبة ما يعمله الصليبيون، فإذا رأوهم قد تفـرقوا وانشغلوا بالغنائم والأسلاب يكرون عليهم وينتصرون.

ولهذا يمدح الغاليون، لأنهم عندما ذهبـوا للحرب ضد أتيلا، سلموا إلى بعض الحراس كل ما كان معهم من ذهب وفضة، وهكذا إذا تقلبت حظوظ القتال، وكان اليوم عليهم، يكونوا قد أنقذوا كنوزهم، وتركوها للناجين من أصحابهم.

كذلك فعـل تريفون Tryphon ملك سورية عنـدما هرب من أمـام أنطيخوس، حيث ذر المال ونثـره على طول الطريق، وبذلك أفلت من جنود أنطيخوس، لأنهم تمهلوا لالتقاط الدراهم.

وعندمـا هزم كونت متللو بيـو Metello Pio في المعـركة ضـد ق.سرتوريوس Q.Sertorius ، أمر سرتوريوس جنوده بالانصراف متفرقين، ولكي لا يعتقدوا أن في الفرار أمن، أوصاهم بأن يتجمعوا من جديد في مكان عينه لهم.

ولم يصنع الصليبيـون صنيعـاً مماثلاً عندمـا وقعـوا أسرى مع الملك لويس قـرب القلعـة المسماة سرياقوص، ولم نقـرأ أنهم لجأوا في مـرة من المرات إلى مثل هذا التدبير والاحتياط.

الفصل الخامس عشر

طرق متعددة لإلقاء الحصار، والاجراءات الاحتياطية اللازمة.

يأتي الضرر الأعظم إلى المحاصرين من خلال النقص بالمياه، لذلك ينبغي أثناء الحصار المراقبة بكل عناية لمعرفة من أين تصل المياه، فعندما حاصر أولفرنس Olofernes بتوليا Bethulia أمر بكسر قناة الماء، فجال جنده يفتشون عنها، ولما اكتشفوها وضعوا حراسة مشددة على الينابيع، مما جعل رئيس الكهنة، يقرر بعد خمسة أيام استسلام المدينة.

وكذلك يجب محاصرة الطرق ومراقبتها من حيث تصل المواد الغذائية، وقبل وقت حصاد الغلال، فهكذا فعل فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus حيث أقدم على تدمير حقول الكامباني Campani ، ثم انسحب حتى يزرعوها من جديد، ويفقدوا البذار، وعندما أنبتت أتلفها، هذا ونجد أن أساليب متنوعة قد استعملت من أجل سحب الحبوب من المحاصرين، من ذلك أن ديونيسيوس Dio-nysius ، أراد — بعدما احتل مدناً كثيرة — أن يهاجم الريجينيوس Reginos ، الذين كانت لديهم غلال كثيرة، فتظاهر بالمسالمة، وطلب أن تقدم المواد الغذائية إلى جيشه، وعندما استنفد القمح الذي كان عند أهل المدينة هاجمها.

وكان عندما حاصر الاسكندر لوكاديا Leycadia ، وكانت غنية بالمؤن، بدأ باحتلال القرى التي في جوارها، وسمح أن يهرب إليها السكان حتى تنفد المؤن التي فيها بسرعة.

وتظاهر فالاريس أغريجنتنوس Fallaris Agrigentinus بأنه تعاقد مع إحدى الجماعات التي أراد إخضاعها، ووضع عندها كميات من القمح برسم الأمانة،لكي تأكل قمحها بدون حذر، ولما نفد ما

عندها، طلب استرداد ما أودعه، ومن ثم تغلب عليها عن طريق التجويع، هذا وهناك المزيد من الأساليب لخداع المحاصرين.

فلقد احتل هانيبعل مدناً كثيرة في إيطاليا، وهو يرتدي ألبسة الرومان ويتكلم لغتهم، لأنه تعلمها من كثرة الاستعمال أثناء تلك الحروب الطويلة.

وهكذا احتل المسلمون مدناً كثيرة للمسيحيين، عندما بدا لهم أنهم قد انتصروا.

وكان قائد جيش أثينا قد أحرق هيكل ديانا خارج إحدى المدن، فخرج أهل المدينة للعمل على إطفاء النيران تاركين المدينة بلا دفاع فاحتلها.

وفي أثناء قيام ألسيبيادس قائد جيش أثينا بحصار مدينة أغريجنتيا Agrigentia الجيدة التحصين، سأل مجلس المدينة أن يتداول معهم حول بعض الشؤون العائدة للمصلحة العامة، وفيها كانت جماعة المجلس مجتمعة معه، تاركين مدينتهم بدون حراسة، هاجمها جيش أثينا، وكان مستعداً لتلك المهمة، واحتلها.

وألقى أنطيخوس في كبدوكيا القبض على مكاريين كانا يحملان على البغال حنطة لقلعة محاصرة، وألبس اثنين من جنده لباس المكاريين، وسلمهما وظيفتهما،وبالطريقة ذاتها دخل الأرمن إلى إحدى القلاع، وهم يخفون سلاحهم،وخدع المسلمون قرب عكا مسيحيين كثيرين.

وعندما أدرك ب. كورنليوس صعوبة الاستيلاء على مدينة دلفينا Delvina، لأن كل من كان في أحوازها كان يهب للدفاع عنها، شرع باحتلال بلدات الأحواز، فاستدعت كل منها مقاتليها للدفاع عنها، وعندما باتت دلفينا من دون من يهب لنجدتها، استولى عليها.

وعندما عجز القنصل كورنليوس روفينوس Cornelius Rufinus عن احتلال بلدة كروتونا Crotona ، تظاهر بالانسحاب، وبعدما صرفت الذين قدموا لعونها، عاد فاحتلها عاجزة.

وبعدما غلب مانغو Mango، قائد جيش قرطاج القائد بيزون Pisone ، شاهده يطل من أحد الأبراج، فخشي أن تكون هناك نجدات قادمة إليه، فأطلق سراح أحد الأسرى لديه ليقنع النجدات القادمة أن بيزون وقع أسيراً، فخاف هؤلاء وهربوا وبذلك أكمل نصره.

وعندما كان ثليوبيداس Theleopidas الطيبي يهاجم بلدتين معاً في آن واحد، أمر أن يرسل إليه أربعة فرسان مكبلين بسرعة كبيرة، وأضاف إلى هذه الخدعة أنه أمر بإشعال النيران في غابة كانت بين البلدتين، ليعطي انطباعاً ووهماً أن المدينة تحترق، وأمر بالوقت نفسه بجر بعض الرجال وهم يلبسون زي تلك المدينة.

وأرسل فابيوس مكسيموس عندما كان الأربوس Arpos منشغلين في مساندة هانيبعل ستمائة فارس ليتسلقوا في ليلة دهماء الأسوار من الجهة الأقل تحصيناً في المدينة، وقد ساعدتهم أصوات المياه المتساقطة، ولدى إعطائه إشارة متفق عليها، هاجم الأربوس من الجهة الأخرى.

وأمر كاتو Cato بمهاجمة إحدى المدن من قبل أكثر الجنود ركاكة لديه، وترك المحاصرين ينتصرون ويطاردون المهاجمين بحماس، وعند ذلك قام مع الكتائب الجيدة التي احتفظ بها ، باحتلال المدينة التي فرغت من المقاتلين.

وهكذا فعل سكيبيو في سردينيا، حيث تظاهر بالفرار، فلحق به أهل المدينة، وعند ذلك استولى على المدينة بوساطة فرق كان خبأها على

مقربة من هناك.

واستولى هانيبعل على جميرا Gemera بالأسلوب نفسه.

وتظاهر بنو إسرائيل أيضاً بالهرب(انظر سفر القضاة) عندما عقدوا اجتماعاً لقلع أبناء بنيامين من المدينة، وبذلك احتلوا جبعة، وقتلوا خمسة وعشرين ألف مقاتل منهم.

ولم يصنع عموري، ملك القدس، هكذا عندما كان يحاصر دمياط مع جيش امبراطور القسطنطينية بل إنه اضطر بعد انتظار طويل إلى الانسحاب بسبب الجوع والبرد.

وعندما ذهب الملك هيغ Hugo مع الأمير ادوارد لهدم مدينة كاكو Caco ، عدلا عن ذلك ولم يحاصراها لأنهما وجدا غنائم.

الفصل السادس عشر

توصيات مفيدة للعساكر وتعليمات.

من المفيد توجيه قادة الحروب وتزويدهم ليس فقط بالأمثلة، بل إعطائهم أيضاً قواعد ثابتة، وتعليمات غير قابلة للخطأ أبداً، ففي الحروب والحملات العسكرية هناك قاعدة هي: كل ما يفيدك أنت، يضر عدوك، وكل ما يضرك أنت، يفيده هو.

لاتعمل شيئاً يجرك العدو إليه، ولاتخفيه، واختر ما يبان في رأيك أنت أنه الأفضل والأنسب اختياره، واحذر أن تعمل ضد نفسك إذا بدأت تقتدي بما يعمله العدو لنفسه، وفي الحرب من يكون أكثر سهراً في الشدائد، ومن يثابر على إجراء التمارين للجنود، يكون الأقل تعرضاً للخطر، ولاتكلف جندياً بأمر صعب ما لم يكن كفؤاً للقيام به، وعند الوقوع في ضيق، وأثناء الارتباك والكمائن، من المفيد أكثر أن تدرأ عدوك لا أن تقاتله، وفي تلك الظروف الحظ أقوى من الشجاعة،و

المخطط الأنجح لإنجاز مهمة ما، هو معرفة ما من شأنه أن يحول دون نجاحها، وفي العادة يفيد أكثر أن يكون المقاتل صاحب قضية عادلة، من أن يكون صاحب مهارة في القتال، وعند ملاقاة العدو، أو مهاجمته، عنصر الثقة هو المهم، في حين يلحق الهاربون بالعدو ضرراً أعظم ويحطمونه أكثر من القتلى، والاحتفاظ باحتياط كبير في مؤخرة الجبهة، أفضل من نشر الجنود على جبهة واسعة في المقدمة، ومن الصعب التغلب على من يستطيع الانتقام، أكثر ممن معه جحافل الأعداء، وقلة مدربة مقدمة للنصر، والمحصلة الحتمية لجمهور غشيم هي في العادة الهرب، وكثيراً ما يكون المكان والزمان أهم من المهارة في الحرب، وقلة هم الذين يلدون رجالاً أقوياء، وكثرة هم الذين يصيرهم التدريب كذلك، ولا تصفّ قواتك للقتال مالم يكن عندك أمل بالانتصار، ولا شيء يثمر أكثر من التقدم بانتظام، وينبغي التقيد به، إلاّ إذا تعلم الجيش الزحف السريع المتوازي، ودوماً يتعرض للخطر الجيش غير المنظم والموزع، ويتوجب أخذ أقصى حيطة حتى لا يحل شيء بمن ليس عندهم خبرة، إذا ما حصلت شدة، ولا يغلب العدو بالسلاح المحلى والمزين، بل بالمهارة في استعماله، وبالرعب، ويمكن الاصلاح في باقي الحالات، بعد ارتكاب الخطأ، أما الغلطة في الحروب فلا يمكن تداركها، ذلك أن عقوبتها تنزل حالاً، وخضع العالم للشعب الروماني ولمجلس شيوخه، بفضل التدريب على السلاح، وخبرة الجيش، والانضباط في المعسكر.

ويزيد الانضباط العسكري الشجاعة والخبرة في القتال، ومن اعتاد على الحياة الخشنة، فذاك الذي الخوف عليه من الموت أقل في الحرب، ولا شيء يفيد ويجدي أكثر من ترتيب المعدات في المعسكر، ومن أن يقضي الناس هناك الليل والنهار وكأنهم قد حملوا مدينتهم معهم، وهكذا إذا حلت بهم شدة، ووقعوا في الخطر، يجدون ملاذاً، ولا يقتلون

مثل البهائم، ويقهر بدون سيف من لا يجهز القمح وباقي الحاجيات.

ما ينبغي أن يكون، ابحثه مع كثيرين، واعلم أن الحكماء هم أعين القادة، وما تريد أن تعمله ابحثه مع قلة، بل الأفضل أن تبحثه مع نفسك فقط، ولا يعمد القادة الصالحون إلى القتال العام، إلاّ في بعض الظروف الاستثنائية، أو عندما تضطرهم حاجة كبرى.

ويُطلب من الجندي: الكفاءة بالعمل، والسرعة، والقوة، والتدريب على السلاح.

ومن الموائم أن يُضم إلى الجيش: حدادون، ونجارون، وجزارون، وصيادون.

ومن شيم فرقة النخبة أن لا تهرب بسهولة، وعدم إغفال الشهامة تجعل الجندي مؤهلاً، والخجل من الفرار يجعله منتصراً.

والمطوقون تزداد بسالتهم بدوافع اليأس.

ولا مسامحة لمن يستسلم للاهمال، عندما تكون المعركة للخلاص.

ولاتُطلب كثرة العدد، إذا كانت الفرائص ترتعد فوراً، وإذا كانت النفوس لا تسعى فقط إلى التهرب من سهام العدو بل من مواجهته.

ويكفي حتى الآن ما ذكّرنا به حول الانضباط العسكري، وعلى كل حال، كل ما لم يرد ذكره هنا من قواعد وأمثلة يعوض عنه في المدارس.

الفصل السابع عشر

وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء على أرض الميعاد.

يجب بعد الاستيلاء على أرض الميعاد تنصيب ملك يتأمر على الجميع، ويحكم شعبه بفطنة وعدل، ويهزم الأعداء ويرعبهم، وذلك حسبما يوصي الكتاب المقدس إذ يقول سفر التثنية في الاصحاح السابع

عشر:١٤ — ١٥: «متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت أجعل عليّ ملكاً لجميع الأمم الذين حولي فإنك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك».

واستخدم كلمة ملك لا ملوك، وكما قلنا من قبل إنه ينبغي اختيار قائد واحد للجيش، حتى يستتب السلام، وتتحقق الوحدة بشكل أعم، حيث يجب فوق كل شيء تجنب الانقسام، والانقسام قد يحلّ بسهولة بين المؤمنين، إذا حصلوا على انتصار، وذلك بسبب تنوع لغاتهم، وتعدد بلادهم، واختلاف تركيباتهم الاجتماعية، وشبه سلطان مصر نفسه بأفعى لها ذنب واحد وعدة رؤوس، علماً أنه لا يمكن لذنب واحد أن يتبع عدة رؤوس لها رغبات متنافرة، وذلك بشهادة المسيح في قوله:«لايمكنكم خدمة ربين»،وبناء عليه، ينبغي انتخاب ملك واحد، لكن ليس كيفما كان، أو بدون مبالاة، بل اختر الذي اختاره لك الرب إلهك، بحيث يكون ممن يكره ما هو عيب، ومتحلياً بالفضائل، ويؤثر ما هو نافع، ويمقت الإثم، وليكن مثل داوود آخر، مسحه الجميع بقلب واحد في حبرون(سفر صموئيل الثاني — الاصحاح الخامس)، وانتزع نير الجزية من يد الفلسطينيين، وضرب مآب وأذل المآبيين، وجعلهم عبيداً يدفعون الجزية، وانتشر صيته، وعندما رجع ضرب السوريين في وادي صوبا، وصارت أدوم بكاملها تخضع لداود.

وليكن مثل سليمان آخر، الذي كانت الأرض تشتاق لرؤية وجهه، وكان بفضائله أعظم من سمعته وصيته، وقد استولى على جميع المنطقة الواقعة عبر نهر الأردن، وخضع له كل ملوك تلك المناطق، وفي كل مكان حوله كانت له مشاركات(سفر الملوك الثاني — الاصحاح الرابع)، وكان سكان يهوذا وإسرائيل يعيشون بدون خوف، كل واحد منهم تحت كرمته وتحت تينته، وكذلك حصّن حزقيا المدينة، وجرّ إليها المياه، فبالحديد نقب الصخور وحفر بئراً(أخبار الأيام الثاني: ٣٠، سفر

ابن سيراخ: ٤٨)، وأخيراً ليكن مثل يوآش الذي أرسله الرب ليعيد الشعب إلى التوبة، وفي أيامه أزال جميع الأرجاس، ودعم التقوى(أخبار الأيام الثاني: ٢٤ / ١. ابن سيراخ:٤٩).

على هذه الشاكلة ينبغي أن يكون ملك القدس، حتى يتمكن الشعب المسيحي هناك من النمو عدداً، والارتقاء مرتبة، وقد أحسن الشاعر أنتي كلاديوس Anticladius حين قال:«الناس على شاكلة ملوكهم، والقرارات التي تدغدغ أحاسيس الناس لا تستميلهم، بل الذي يستميلهم هو حياة حكامهم».

فهكذا كان غودفري المختار من الرب والمحبوب، وكذلك الذين خلفوه، الذين جبوا الجزية من سلطان مصر ودمشق.

الفصل الثامن عشر

يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل:

ومثلما قدمنا من قبل بعض الارشادات المفيدة المتعلقة بالانضباط العسكري، من المفيد أن نضيف إليها أيضاً — فيمايلي — بعض النصائح المرتبطة بالمثل الأخلاقية والحياة المستقيمة، ونحن إذا قرأنا بوعي ما تقدم وذكرناه، نلاحظ أن الصليبيين قد افتقروا إلى الخلتين، وسلف أن أشرنا أعلاه بشيء من الايجاز إلى أن الشعب يكون بالعادة مثلما ملكه، وأنه كما يكون حاكم المدينة يكون سكانها(ابن سيراخ:١٠)، وتقدم بنا القول«بأن الناس في العادة على شاكلة ملوكهم».

ولا يظنن الملك أنه معفى من تطبيق الشريعة عليه(سفر التثنية — أعلاه)، بل عليه الالتزام بطاعة الناموس المعطى له من السماء، وعندما يتوج ملكاً:«لايكثر لنفسه الخيل»[التثنية ١٧ / ١٦]، لكن هذا لا يعني عدم اقتناء الخيول الجيدة، والفرسان لحماية المملكة، بل المحظور هو

الاكثار للأبهة والجاه مثلما حدث مع سليمان[الملوك الأول: الاصحاح الرابع] حيث ورد أنه كان لدى سليمان أربعين ألف مزود لخيل مراكبه واثني عشر ألف فارس، وجاء في موضع آخر أنه كان لديه عشرين ألف فارس.

فلتمنع عن الملك هذه العجرفة وهذا الاسراف كي لا يثقل شعبه، ويصبح هو صلفاً جباراً، ذلك أن الذي قصده المشرع بكلمة«الخيل» هو «الحشم» والحاشية وكل ما يمت إلى الملك، وقد تطرف سليمان وتجاوز الحدود في ذلك، حيث كان طعامه«لليوم الواحد ثلاثين كرّ سميذ، وستين كرّ دقيق. وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثوراً من المراعي،ومائة خروف ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والأوز المسمن»، وعمل مجنباً من ذهب مطروق، وثلاثمائة مجن من ذهب، كل ذلك لإظهار أبهة ملكه وبذخه، وهذه كانت كلها من استخدامات الحرس الذين كانوا ينامون عند باب الملك، وكان يتقدمهم لدى خروج الملك فرسان شبان، يتولون توزيع العطور من حوله، وكانوا يفعلون ذلك حتى عند مرابض الخيول، ويحلّون أسلحتهم ويطلونها بالذهب حتى إذا ضربتها أشعة الشمس تبرق لمعاناً، وقد أرهق هذا الاسراف كله الشعب الذي كان خاضعاً لسليمان، وعبر عن ذلك سفر الملوك الأول — الاصحاح الثاني عشر، عندما صرخ الناس من أفراد الشعب إلى ابنه رحبعام قائلين:«إن أباك قسى نيرنا،وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك»، وعندما أجابهم بعكس ما طلبوه وهددهم بها هو باهظ أكثر، خسر الأسباط العشرة،وجرّ الانقسام إلى المملكة.

وما الذي يفيد الملك الفائض من السلاح أو المسلحين؟ وكان لما رأى أفلاطون ديونيس Dionys طاغية صقلية وقد أحاط نفسه بالحرس، قال له:«أي شر صنعت حتى لزم أن تقيم حولك هذه

الحراسة»؟!وقال سناكوس Senecus في كتابه إلى نيرون عن الرحمة:«حصن واحد لا يمكن اقتحامه هو محبة الشعب»، فلينتبه الحكام والبارونات إلى هذا:إذا كان لا يجوز للملك أن يكثر من الخيل والفرسان من أجل الجاه، فكم هو بالحري أن لا يكثروا من الكلاب والطيور الجارحة، والقردة، والحيوانات البرية المختلفة، التي تهبها الطبيعة.

ولعلهم أخطأوا، وتمادوا أكثر من اللازم في هذه الأمور، ذلك أنهم تعودوا كثيراً على التعلق بالمهرجين، وصرفوا أنفسهم عن الاستماع إلى من وعظهم بالحقيقة، وقالوا: إنه شرف للزعماء أن يتمرنوا على الصيد للترفيه، وأن يلاعبوا طيور السماء، وأن يجمعوا الخيول السريعة، والمخمل المطرز، وغير ذلك من المقتنيات، فهل هناك من يجهل كم كل هذا التنعم هو من عفونة الكسل والاستخفاف؟

وقال الفيلسوف تيموستكل Themistocles :«ينبغي إبعاد القضاة عن اللعب وعن كل ما ليس فيه رصانة، لئلا يبدو أن المصلحة العامة هي لعبة يلتهون بها».

الفصل التاسع عشر

الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

إذا كان يتوجب على ملك القدس الامتناع عما هو باطل وغير رصين، كونه بؤرة للخطايا، بات متوجباً عليه أيضاً أن يقدر مدى العناية التي عليه أن يتجنب بموجبها الخطايا الأكثر جسامة التي من شأنها، أن تجلب آخرته، ليس وحده فقط، بل وآخرة المملكة كلها، لابل والشعب كله، وتجر على الجميع عدم التوفيق والخطر، ولذلك من الموائم أن يلتزم بذاته بالقاعدة التالية:«ألا يرجع الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل»، ذلك أن البذخ والباطل لدى الملك يقودان إلى الخطيئة،

وخطيئة الملك تعيد الشعب إلى مصر، أي إلى ظلمات الخطايا، فقد قال أمبروز Ambros في رسالته إلى الرومانيين:«يعمل الأدنى ما يرى الأعلى يفعله»، وقال ايرونيموس أيضاً إلى الأسقف هليودوروس:«إقامتك في البيت هي كمن هو واقف أمام المرآة، وهي معيار للانضباط العام، فكل ما يعمل هناك يظن الناس أن عليهم الاقتداء به»، وهكذا قاد يربعام عشرة أسباط إلى عبادة الأصنام كما لو كانوا في مصر، ولهذا السبب تم تدمير المملكة على أيدي الآشوريين، وكذلك أفسد يوشع ملك القدس نخبتها، عندما زاغ عن وصايا الرب وابتعد،(انظر الفصل المقبل)، ولذلك لم يعد كلام الرب يخرج لا من دبير Dobyr ، ولا من إفود Ephod ، وبسبب خطيئة داود، عندما أجرى الاحصاء للشعب جرى قتل الآلاف العديدة(صموئيل الثاني: ٢٤)، وهكذا يتضح صدق ما جاء في سفر ابن سيراخ — الاصحاح العاشر قوله:« مثلما يكون قاضي الشعب يكون الخادمون له، ومثلما يكون رئيس المدينة يكون جميع سكانها».

ولأن نتائج الخطيئة تشمل الشعب مع الملك، فإنهم بحق يتسربلون بالعقوبة المشتركة، وعن هؤلاء قال الرب في سفر حزقيال:«الملك ينوح، والرؤساء يتسربلون بالدهش، وأيدي الناس معفرة بالأرض، وما يفعلونه يذهب سدى».

وهكذا عدّ الملك متحملاً لمسؤولية الذين أعادهم إلى مصر(إلى الخطيئة) بمثله السيء الذي ضربه لهم، ولهذا توجب على الملك أن يتحلى بالفضائل، حتى يضرب لشعبه المثل الأعلى بالأخلاق الفاضلة، ويحثهم عليها، مثلما يفعل الرأس في الأعضاء، حتى لا يستحق التوبيخ الذي وجهه إيليا إلى آحاب بقوله:«أنت مقلق إسرائيل، أنت وبيت أبيك»، ولكي لا ينتحب الشعب في النهاية ويردد ما جاء في المراثي:«هددني وساقني في الظلمة وليس في النور»، ثم يستطرد فيقول(مراثي: ٥ /

٥):«نتعب ولا راحـة لنا، أعطينا اليـد للمصريين والآشـوريين لنشبع خبزاً».

الفصل العشرون

كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة، وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

مثلما يمتثل الجميع، في المدينة الحسنة التنظيم،لأوامـر الملك الواحـد، ويطيعونها، هكذا يتوجب على من يريد العيش باستقـامة أن يخضع كافة شهواته لسلطان العقل، وألا يسعـى أبداً وراء شهواته(ابن سيراخ:١٨)، بل عليـه لجم نفسـه، وإبعـادهـا عن الملذات التي نتشـارك بها مع البهائم(كتـاب الأخلاق الثالـث)، والذي يسعى خلفها دونما رادع ليس مـؤهلاً لأن يحكم على غيره، بل بالحري أن يكون تحت حكم غيره، ممن يتبعـون حكم العقـل، مثلما قـال الرب على لسـان نوح، عنـدمـا أوصى أولاده في سفـر التكوين — الاصحـاح التـاسع(٢:):«ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيـوانات الأرض»، فإنه ذكـر«الحيـوانات» ولم يذكـر «البشر» حتى لا يخاف العقل، بل تخاف البهيميـة من تسلط الانسـان، فالرذيلة هي من الأمور القابلة للاشتهاء(الأخلاق الثالث)، ومثلها عدم القناعـة، وهي تشبّـه بالطفل«والـويل لأرض ملكهـا طفل وحكـامهـا يأكلون منذ الصباح»(ابن سيراخ ١٠)، وعلى هذا من الضروري أن تدار الحواس وقـوة الغـرائـز بوسـاطـة العقل، فـالعقل ضروري مثلما المعلم ضروري للطفل، وقـد قـال بولس الرسـول في رسـالتـه إلى تيطس ـ الاصحاح الثالث(الصحيح إلى ثيمـوثاوس: ٣ / ٥):«وإنما إن كان أحد لا يعـرف أن يـدبر بيتـه، فكيف يعتني بكنيسـة الرب»؟ وعلى هذا على ملك أرض الميعاد المختـارة أن يتعلم بطريقة عمله ونمط سلوكـه، كيفية

إدارة شـؤون جميع شعبـه، وأن يكون حسبما قـال كلـوديانو -Claudiano في قصيدة عن الأخلاق:

«إذا استولى عليك الرعب، إذا استحـوذت عليك شهوات كثيرة، إذا استدرجوك إلى الغضب»

«إذا طغت عليك الرذائل وأرهقتـك، وإذا ثارت في داخلك رغبـات آثمة فتحملها»

«وإنك حقاً ستمسك بزمام جميع الأمور» .

«عندما تتمكن من أن تكون سيد نفسك وملكها».

ويقـول بلوتارخ Plutarchus في وصـاياه إلى تـراجـان:«لن تصنع شيئاً باستقامـة تامة ما لم تتخلى عـن نفسك، وإذا ما لزمت ذاتك بالسير حسب الفضيلة، فإن كل ما سينتج سيكون مستقيماً».

وبما أنه بين الملذات الحسية، تعدّ الملذات الجنسيـة أهمها، فإنها ذكرت باسمهـا عندمـا حـرمهـا قـانون الملـوك في سفـر التثنيـة:١٧ / ١٧ في قوله:«ولا يُكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه».

وعلى هذا الأسـاس كم هو بالأحرى تحريم اقتراف الزنا، أو الاتيـان بأية قباحة، وإذا اعترض معترض، انطلاقاً مما ذكر عن داود الملك، وابنه سليمان، اللذان اتخذا زوجـات كثيرة نجيب: لما فهم داود المثـل الذي ضربه له ناثان، أقر بأنه ابن الموت(صموئيل الثاني:١٣...)،وعن سليمان قـال سفـر ابن سيراخ: ٤٧(/ ٢١) بعـدمـا تحدث عن عظمتـه وعن أعماله:«أمال فخذيه إلى النساء فكان وصمة في مجده»، وحين اتخذ هيرود هيروديا خلافـاً للناموس، أمر بقطـع رأس يوحنا(متى:١٤. مرقس:٧)، وحين لم يأبه بلدوين الأول، أول الملوك اللاتين على القدس، بهذا الأمر، حل رباط الزوجية الذي يلتزم به الانسـان نحو الآخر منذ البدء، وأقفل

على الملكة وألقاها في أحد الديرة، في دير القديسةحنة، قرب بركة الضأن، وعلى مقربة أيضاً من باب شعفاط، وتزوج كونتسة صقلية، التي كانت تمتلك الأملاك الكثيرة، وكانت مطلقة روجر أخو روبرت غويسكارد، وحين فعل ذلك ضربه المرض، وخسر أخيراً مملكة صقلية وأبوليا، وعرّض مملكة القدس وأملاكها للانقسام والكراهية لمدة طويلة.

وكذلك ايزابيلا[ابنة عموري الأول] التي خلفت أختها الملكة سيبيلا، تخلت عن همفري، وتزوجت من كونراد، بل لنقل إنها تمرغت في الزنى، لأنه بشهادة المعلم معلم الحق«كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني»[لوقا: ١٦/ ١٨) هذا من جهة ومن جهة ثانية:«وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني»، وإنه لأمر بشع لا يليق بشرف الملوك، لابل إنه لا يكاد يترك للضالين، أن يفسخ إنسان الزيجات المعقودة، أو أن يضاجع نساء غير شرعيات، أو أن يربط واحداً بكثيرات، خلافاً لوصية الرب، ولما حرمته الكنيسة، ولهذا على الملك أن يلجم شهواته وميوله، تحت سلطان العقل حتى لا تنزلق نفسه إلى الخطيئة، ولئلا تتلطخ نصاعة سمعة الملك بأوحال الخطيئة، وتفسد سيرته الشعب، في حين إنه لوبقي على الفضائل، لأمكنه إبقاء الشعوب الكافرة المقيمة من حوله تحت نير الجزية، ويقول توليوس Tullius ، في كتابه عن المتناقضات:«هل هناك من لا يستطيع أن يلجم شهواته»؟.

فليلجم الملك أولاً شهواته الجنسية، وليحتقر الملذات، وليبعد الوصيات عن نفسه، وعندها ليبدأ بالحكم، وذلك بعدما تأمر على أسياد مكروهين، وعلى ما يجر العار والمخجلات».

الفصل الحادي والعشرون

كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية وتأمين

الثروات الوافرة.

كما أن جميع الأشجار قابلة للتطعيم في الجذع المناسب، هكذا جميع الآثام مطعمة بالبخل حسبما قال[بولس] الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس — الاصحاح السادس(١٠:):«لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الايمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة»، ثم عاد فقال:«وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس في العطب والهلاك»، ذلك أنه«ليس هناك من هو أكثر إثماً من البخيل»(سفر ابن سيراخ)، ولا نتحدث هنا فقط عن الطمع بالثروات، وهو الجذع الذي تطعم عليه كل الشرور، بل نريد أيضاً الطمع بالثروات الحسية والشهوانية، التي يتوجب على الملك الامتناع عنها(انظر الفصل المتقدم)، ويقول كتاب الأخلاق عن داء الحب:«الحب الشهواني يتغذى بالثروات»، ولذلك لانتزاع وصمة جميع الرذائل ومنبع الرذائل الجنسية خاصة، قضي في قانون الملوك:«وفضة وذهباً لايكثر له كثيراً»[التثنية:١٧ / ١٧]،وذلك حتى لا يقوم مجد الملك على مصائب الكثيرين الذين يرغمون على حرمان أنفسهم من الضروريات في حين كان الأنسب لهم الاستفادة منها، والقادرون على عمل الخير لغيرهم يستحقون فخر تسميتهم ملوكاً، وإلاّ بأي حق يكدس الثروات من يملكها باسم غيره؟ ولا يجوز أن يفرض ضرائب خاصة ذاك الذي يعترف بأنه يفرض ضرائب عامة، وبما أنه يلزم التخفيض من الامتيازات لا توسيعها، يجب أن نتأمل بعناية — بعد استرداد الأرض المقدسة — وننظر ما هو الأكثر فائدة للاحتفاظ بالمملكة، وهل يجب تحويل مداخيل تلك الأرض إلى ضريبة تغذي صندوق الملك، حتى تصرف في وقتها على الرجال المحاربين، وذلك حسبما يتدبره الملك، وكما يتصرف سلطان مصر حتى الآن، أم أنها يجب أن توزع بعد احتلال الأرض على البارونات والجنود

ورجـال الحرب، الذين يخدمـون الملك والمملكة لقـاء رواتب محددة، وتحفظ المداخيل الفـائضـة عند الملك حتى يتمكن من أن يقـدم بسخـاء المسـاعـدات لـرجـال الدين وللرهبـان وللعلمانيين، وخـاصـة المعـاقين والمعوزين، وبشكل أخص إلى الذين يكونوا قد تعبوا في احتلال الأرض المقـدسـة، أو خـدمـوا في بلاط الملك، وكـذلك لبنـاء الكنائس والديرة ولترميمها، وللعناية بالمرضى، والمحرومين من المساعدة الزمنية، وإذا تم التـوصل إلى رأي أنه أجدى وأكثـر فـائـدة القيام بتـوزيع المداخيل على المدن والقـلاع، فلربما يكون ذلك أكثـر فـائدة لمدن بعض المجمـوعـات القوية في أوربا أن تقيم توأمـة مع تلك المدن، بحيث يكون لها مداخيل الاقطاع نفســه تحت الولاء لها، وبذلـك يكون لها عليهـا سلطة إدارية، وتعطي لكـل ذي حق حقـــه، وتدفـع إلى الملك وإلى المملكة شيئـاً من رسومات ملاحتها، أو ترسل له بعض الجنود، أو تقدم له الخدمتين معاً، لأن كل إنسان يسعى بجهد أكبر للمحـافظة على ما هو له، وبالفعل إننا نرى أن بعض أقسام بيزنطة يحافظ عليها أهل البندقية حتى اليوم بفضل تلك الطريقة، وبما أنه يلزم بناء القلاع ورفع التحصينات وإشادتها ليس فقط في الأرض المقدسة، بل في العـربية وفي الداخل السوري وفي مصر، وذلك ليس فقط من أجل الدفاع عن المملكة بل أيضاً من أجل الكسب الكبير، وللخيرات الدنيـوية التـي سـوف تتـدفق بوفــرة، عندمـا تنفتح أمامها شواطىء مصر وسـورية، ومهما كانت الطريقة — من بين الطرق التي ذكـرناها أعــلاه — التي سـوف تعتمـد بخصـوص الترتيبـات في المملكة، يحتفظ الملـك في جميع الحالات دومـاً لنفســه بمنطقـــة تكون ضريبتهـــا له حتى«يكـون له مثـــاقيل كثيرة مـن ذهب ومن فضـــة» ولكي«لايعلق قلبه بها»[مزمور: ٦٢ / ١٠] إذا كثرت بتدبير من الرب.

ولقـد خسر موريتيـوس Mauritius الامبراطورية بسبب تمسكه بالذهـب، لأنه عندمـــا وجـــد في أرض معـــادية له، ورفـض أن يدفع

للجنود أعطياتهم، طلبوا فوقاس فانتزع الراية الامبراطورية وهرب موريتيوس مع زوجته وأولاده الخمسة إلى إحدى الجزر، وأمر فوقاس بقتلهم.

ولطمع شاؤول بغنائم العمالقة استدرج إلى عصيان أوامر الرب، فخلع من الملك، وبعد اقتراف آخاب لجريمة القتل، لأنه كان يشتهي ضم كرم نابوت، سمع الرب يقول له على لسان إيليا:«هل قتلت وورثت أيضاً، ثم كلمه قائلاً: هكذا قال الرب: في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس دمك أنت أيضاً»[الملوك الأول:٢١ / ١٩]، ويقول سفر ابن سيراخ(٣١):«طوبى للغني الذي لا يسعى وراء الذهب، ولا يتكل على كنوز الفضة، من هو ذاك فنمدحه»؟، ومثلما الملك يلحقه الدمار بسبب بخله، مثل هذا أيضاً إنه يشع خاصة بسبب كرمه».

وكان بوليكراتس POlicratis ، ملك أهل جزيرة ساموس، الذي اشتهر أثناء حياته بكرمه وبصنعه الخيرات، قد تمكن من الوصول إلى الهند، لأن كل من اشتهى أن يقطف من عنده ثمرة شيء، كان يهبه إياها، وعلى هذا ليسع ملك القدس، وأرض الميعاد، وأن يتصرف بكرم وسخاء وذلك حيث يلزم ويناسب، حتى يتجنب كراهية حشمه أو الخاضعين له ولسلطانه، وبذلك يدفع الخطر عن نفسه وعن مملكته، وعند انتشار هذه السمعة عنه، يجذب الشعوب الغريبة إلى عنده، ويرعب أعداء المسيح والشعب المسيحي.

الفصل الثاني والعشرون

اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياها.

يقول سفر الحكمة:«الملك الحكيم ثبات الشعب»، ويقول سفر ابن سيراخ:١٠ / ٣ :«الملك يدمر شعبه، وتعمر المدينة بعقل ولاتها» ،

ويقول الشاعر بواتيوس Boetius مخاطباً الفلسفة في كتابه الأول، في «التعزية»:«أنت قررت على لسان أفلاطون أن الجمهوريات ستكون سعيدة إذا تسلم إدارتها من يدرسون الحكمة باستمرار، أو صدف وكان حكامها ممن دأبوا على الحكمة»، وعلى هذا تقول الحكمةفي سفر الأمثال:«بي أنا يملك الملوك، وبي يشرع المشرعون القوانين العادلة»، ودون تلك القوانين ثيودسيوس، وجستنيان،وليون، فكانوا من عالم لم يكن له شكل عالم آخر، وذلك عندما كرسوا العدالة للعالم، وأتحفوه بشرائع كما لو كان هيكلاً.

وبما أن كل الشرائع باطلة وغير فعالة، إذا لم تأخذ شكل الشريعة المقدسة، وبناء على هذا عن حق ما جرى تدوينه في سفر التثنية، قوله في قانون الملوك:«وعندما يجلس — الملك — على كرسي مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب»[التثنية: ١٧ / ١٨] وأضاف:«أيها الملوك اتعظوا وتعقلوا بشريعة الرب، وتأدبوا يا قضاة الأرض، إن شريعة الرب كاملة، وترد النفس، وشهادة الرب صادقة تعطي الحكمة للصغار»[المزامير:٢ / ١٠ ،١٨ / ٨].

ولايقطع التشريع الصادر عن القيصر، أو عن الناس، دابر كل خطيئة، لا بل قد يجيز في بعض الأحيان مخالفة ما معينة، أما شريعة الرب، فهي التي لا عيب فيها، وهي تحرم الخطايا جميعاً، وتجمد الشريعة البشرية اليد، ولا تجمد النفس، وتبدل شريعة الرب النفوس وتعيدها، وبسبب تنوع الأعمال البشرية لا يمكن للشريعة البشرية أن تتناولها بما فيه الكفاية، في حين تعطي شريعة الرب، شهادة أمينة، ومعرفة كاملة حتى للصغار، وبعدما تبحر فيلادلفوس Philadelphus بنقاء تلك الشريعة وكمالها، طلب من المؤمنين بالرب الحصول على نسخة منها، حتى يفهم بوضوح أكبر ما يتعلق بالرب، ويحكم شعبه بعدالة أكبر، وإذا كان الملك قاصراً في السن، أو كان بسبب إهمال أهله لا يحسن

القراءة والكتابة، فليحضر لمساعدته ناتان النبي، وصادوق الكاهن.

ولهذا أضاف في قانون الملوك:«ليتخذ لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين»[التثنية:١٧ / ١٨]، وهكذا ساند يهويا داع يوآش، فعاش باستقامة لكن لما رفع عنه المساندة اقترف الخطيئة(انظر ما تقدم القسم الأول — الفصل السادس)، وكان ملوك الوثنيين يتخذون الفلاسفة معلمين لهم، فلقد اتخذ الاسكندر أرسطو، واتخذ نيرون سناكوس Senecus واتخذ تراجان بلوتارخ، وإلى الاسكندرصاحب العبقرية الرفيعة كتب أرسطو كتاب«أسرار الفلسفة»، ولنيرون صاحب النفس المجرمة، كتب سناكوس عن«الرحمة»، وكان تراجان قد وصل إلى السلطة دون أن يطمح إليها، وإليه كتب بلوتارخ مجلداً لطيفاً عن التنظيم السياسي عرف باسم«معهد تراجان»، وهكذا عرف معلمون مشهود لهم تطبيق كلامهم حسب الأمكنة والأزمنة والأشخاص بالشكل الموائم، فليسع ملك القدس إلى الحصول على مثل هؤلاء الحكماء والوعاظ له ولشعبه، حتى يتولوا جعل الناس يكرهون الآثام ويصرخون ضد الرذائل باستمرار، مثلما صنع زكريا بن يهوياداع مدفوعاً بروح الرب، إذ وقف فوق الشعب وقال:«لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون»[أخبار الأيام الثاني:٢٤ / ٢٠] لماذا تفعلون ذلك، وما الذي أحوجكم للمخالفة، طالما أن حفظ الوصايا سهل، وقد جاء في سفر التثنية:«الوصايا التي أنا آمرك بها هي ليست فوق طاقتك»، لماذا طالما عدونا لا يتغلب إلاّ على من يريد، ولأي طمع، طالما أن السعادة بحفظ الوصايا، ويقول المسيح في متى:«إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا»[متى: ١٩ / ١٧]، فالمدين يرد الفائدة إلى الدائن، وتعطي الأرض المزروعة بذاراً ثمارها لواحد ثلاثين ضعفاً، ولآخر ستين، ولآخر مائة، ولسوف ترد الحقيقة ما وعدت به، فإنه قال:«تأخذون مائة ضعف وترثون الحياة الأبدية»، ولكن لماذا أيضاً؟

وبأي خسارة؟ إذ إن هناك مخالفات تستوجب العقاب.

وقال المزمور:١٩ / ٢١:«انتهرت المتكبرين الملاعين الضالين عن وصاياك»، وقال الديان في متى:٢٥ / ٤١:«اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته»، فهم يذهبون إلى النار ويزداد عذابهم بقدر ما خسروا مكافأتهم، وبحق قال:«إلى النار الأبدية» فهذا لم يحدث عرضاً بل جاء تنفيذاً منطقياً، ذلك أن الملاحق ليس هو المجرم، بقدر ما هي الجريمة، وعلى هذا إن المتوجب هو البحث عن الذنب، ولا يجوز إخفاء مادته، وكذلك إن الخطيئة التي لا توضع نهاية لها تحترق في نار لا نهاية لها، وبما أنه ليس هناك أمل، إذ أنه ليس بإمكان أحد أن يَعِد بالنهاية بعد أزمنة طويلة، فإنهم سوف يشعرون بالألم في الوقت الحاضر، وفي كل الأجيال التي ستتبع، فعودوا إلى قلوبكم أيها الزائفون، أنتم يا من من أجل ملذات عابرة خالفتم وصية الوقت، فلماذا أنتم معرضون ذاتكم لمثل هذه الأنواع القاسية من العذاب، وهي أنواع غير منتهية، لا يكفي كلام للتعبير عنها؟ ونحن نرى أنه من أجل اتباع الوصايا بعناية وكما ينبغي، من المفيد — بالإضافة إلى المواعظ والارشادات المألوفة والمعطاة إلى العموم — إجراء تدريس نصوص الكتابات المقدسة، في مدارس اللاهوت، باللغات الشعبية على أيدي بعض الرهبان، وقد تمّ اختبار هذا الأسلوب في البندقية، وثبت أن الناس أخذوا يتجمعون بتقوى منذ الصباح الباكر، ليسمعوا القداس، وللمشاركة في الوظائف بعناية أكبر بعد الانتهاء من القداس الرباني، حيث تعطى لهم في ساعة مناسبة إرشادات متعلقة بالإيمان والأخلاق والوصايا، وعندما يجري تكرار ذلك يومياً، ويعاد إلى الذاكرة، يصيرون مؤهلين أكثر ليشرحوا لكل من يستوضح عن حقائق الإيمان، حتى يتجنب ما هو مؤذي ويتبع ما هو مفيد وأكثر جدارة، وقد أضاف قانون الملوك بعد أمره بأن يتخذ الملك لنفسه نسخة من كتاب الشريعة

فقال:«فتكون معه، ويقرأ فيها كل أيام حياته لكي يتعلم أن يتقي الرب إلهه، ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة، وهذه الفرائض ليعمل بها»[التثنية:١٧ / ١٩]، أما ما هو أجل وأدق، فإنه يبحث بالحوار مع من هم متعلمون ومختصون.

الفصل الثالث والعشرون

تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته منذ بداية الخليقة.

لم يُسلط الانسان على الانسان، لأن الرب قال في سفر التكوين — الاصحاح الأول(٣٦):«وقال الرب نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»، ولم نقرأ عن ذكر للعبودية إلاّ عندما انحرف الكافر حام عن طريق العقل ليعيش كالبهيمة، وسخر من سوءة أبيه السكران، لذلك ليعلم ملوك الأرض والمتسلطون عليها أن المتوجب عليهم هو التحكم بغرائزهم وبرذائلهم أكثر من تحكمهم برجالهم، ولا يصير أحد تحت حكم غيره،طالما هو سائر في الطريق المستقيم، وملتزم بمنهج العدالة، وعلى هذا نقرأ في قانون الملوك قوله:«لئلا يرتفع قلبه على أخوته»[التثنية: ١٧ / ٢٠]، وإنه لأخ حقاً ذاك الذي لا يتجاهل تقلبات الطبيعة المخلوقة، والذي يُمنّ عليه بذلك التراث، ومن لا تفصله الخطيئة عن مجموعة المؤمنين، وبناء عليه قال المسيح في متى:٢٣[٨]:«وأنتم جميعاً أخوة»، ذلك أن جميع المؤمنين يدعون أخوة المسيح، وقد جاء في الرسالة إلى العبرانيين:«لأن المقدس والمقدسين جميعهم من واحد فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم إخوة»[٢ / ١١]، ولينتبه الملك وليأخذ بنصائح ابن سيراخ(في الاصحاح ٣٢).

فالاحتياط والحذر هو شأن الطغاة، ولا يجوز للملوك أن يخافوا وأن

يرتعدواحتي يستمروا آمنين، ولايؤمنوا سـلامتهم بالسلاح، بل بالمعاملة الحسنة، فهذا ما قـاله سناكوس في كتابه عن الرحمة:«ليس هناك من تليق به الرحمة أكثـر من الملك، وعليـه أن يكون حليماً، لأن شيم النفـوس الكبيرة أن تكون هادئـة ومطمئنـة، وأن لا تأبه بالشتـائـم والاهانات، والنحل سريع الغضب وهـو يترك إبرته مغـروسـة في مكان القـرصـة، وهكذا يكون بوضعـه الاعتيـادي، فإذا رمى بسهـم الغضب بقي بدون سلاح، وينطبق هذا المثل على الملوك الكبـار، ويقول كلوديانوس:«الحلم وحـده يجعل منكم دائماً متساوين أمـام الآلهة »، وحـاول ثيودوسيـوس إقناع الآخرين بفعالية الحلم إذ قـال في مجموعة القوانين:«إذا خيل لأحد أن على أسمائنـا أن تتمـزق، فنحن لـن نكتفـي برفـض الخضـوع للعقـوبة،لكن إذا صدر ذلك عن خفـة فنحن نزدريها، وإذا كانت طبعـاً منذ الطفولة فهي تستحق الشفقة، وإذا كـانت صدرت عن إهانة، فنحن نسـامح»، وعلى هـذا إذا جـرح الملك، فليعف عن أهل بيتـه، وعن من هم تحت سلطته.

ويقول سناكوس في الموضع ذاته أعـلاه:«ولمنح العفو عن الذنب، إذا استطاع ذلك بأمان وإلاّ فليخفف من العقوبة»، وليكن أرحب صدراً في العفـو عن الاساءات لدى المقـربين إليـه أكثر مما لدى الأغـراب، وليس كـريماً كبير النفس من يُكرم سـواه من مـال غيره، لأنه يعطـي مما هو لغيره،وإن كان يتنزعه عن نفسه، ومثل هذا إنني لا أعدّ حليماً من يميل بسهولة إلى مشـاركة غيره في المهم، بل الحليم الذي لا ينقـاد بسهولة إلى الغرائـز التي تحركه، وضعف الطبيعـة البشرية هو نداء موجـه إلى الملك كي يكون حليماً، وكـذلـك يدفعنا الميل المولـود معنا نحـو الخطيئة إلى الاشفـاق على كل مـا هو بشري، وهذا مـا توحي به الطبيعـة مع تبـدل الظروف.

وكان ابن ملـك الليديين قد بقي صـامتاً إلى الوقت الـذي أرادوا فيه

صلب أبيه، حيث صاح بقورش قائلاً:« اعف عن أبي يا قورش، واتعظ مما يحلّ بنا، ذلك أنك أنت أيضاً إنسان».

الفصل الرابع والعشرون

عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

إذا فقد النظام وانعدمت العدالة تكاثرت اللصوصية، لذلك يتوجب على ملك القدس، أن يسن — بعد الدراسة والاستشارة الخبيرة — قوانين توائم الأرض، والأحوال، والأشخاص، ذلك أن تطبيقها يضمن الاستقرار للمملكة، والاحترام للملك، والطاعة لدى الشعب، والسلام للجميع، ولقد كانت المدينة المقدسة يسودها السلام(مكابيون:٢ / ٣) عندما كانت الشرائع تطبق فيها بدقة بسبب أونيا، الكاهن الأعلى، وبما أن رذيلة الجسد الممقوتة لدى الرب، والتهافت نحو الرغبات، كانا في أكثر الأحيان — حسب الكتب — سبب خراب أرض الميعاد المقدسة، وبما أنه من الثابت أن أكثرها سعيراً هو التمرغ في وحول الجنس، والسكر الدائم، لاسيما في الحانات الليلية حيث الغانيات اللائي يحرضن على الخطيئة، بالآلات الموسيقية، والرقصات، و الحركات الخلاعية، حسب عادات البلد، يجب إلغاء هذا كله بقرار ملكي، على أن تبقى الفنادق كما هي الحال في البندقية، لاستقبال الضيوف المسافرين، الذين ليس لديهم بيوت خاصة بهم، كما يمنع أن يكون عند الناس زمارين ونادبات، يجلبونهم يوم دفن الأشراف للبكاء والنحيب على زوال المجد الباطل، فالمسيح لم يرض إقامة البنت المتوفاة بحضور تلك النسوة(متى:٩ / ٢٣ — ٢٤)، ومن الأفضل لو سنحت الفرصة إبدالهن، حتى لا يحرم الميت من الصلاة، وأن توجه إليهن كلمات المخلص:«لاتبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[لوقا: ٢٣ / ٢٨]، أما أنا الذي أتلوى في العذاب، فليس هذا الذي يمحو خطاياي، بل الأدعية الربانية، وذبيحة القداس، والصدقة المخبأة في

حضن الفقير، وكافة أعمال التقوى.

وهناك من يمارسون — وخاصة النساء بينهن — أعمال السحر والشعوذة المتنوعة، فهؤلاء يشاركون المنشقين والهراطقة والملحدين، ويتعلمون أعمالهم، التي كثيراً ما تحولت إلى تشكيك، وخراب، وهناك رذائل كثيرة كانت سبب الدمار، وسبب خسارة أرض الميعاد المقدسة، هي من الضروري اقتلاعها، ومحوها كلياً بتدابير ناجعة.

وعلى الملك السهر حتى يطبق الجميع القوانين المشروعة، وذلك بكل عناية، وبدون استثناء كما هو مدون في البند الأخير من قانون الملوك، وهو قوله:«ولئلا يحيد عن الوصية يميناً أو شمالاً»[تثنية: ١٧ / ٢٠]، والمقصود«بيميناً» الأقوياء، «وبشمالاً» الضعفاء أو الغرباء، فقد جاء في سفر التثنية قوله:«احكموا بين الناس بما هو عدل، وسواء أكانوا من أهل البلد، أو من الغرباء»، وينبغي أن لا تكون هناك محاباة لأحد، بل كما تسمعون للكبير اسمعوا كذلك للصغير، وقد يكون أراد«بيميناً» التوزيع بدون تمييز، «وبيساراً» القساوة بدون عنف، حيث يتوجب على الملك، اتخاذ الموقف الوسط في أحكامه، ويكون هذا باعتماد العدالة التي تلطف الرحمة قساوتها، وهكذا فعل المسيح حين ضرب مثلاً بمعالجة السامري، حيث قام هذا السامري لدى معالجته للجرح بمزج الخمرة التي تحرق وتعض بالزيت، والزيت هو لطافة الرحمة، ومثل هذا جمع في تابوت العهد مابين عصا القساوة، والمنّ، الذي هو العذوبة والحلاوة، ويقول غريغوريوس في الكتاب العشرين من قانون الأخلاق — الباب الخامس والأربعين:«تفقد صرامة النظام ورحمته من قيمتيهما إذا صار التمسك بواحدة دون الأخرى»، ذلك أن المطلوب من الحاكم نحو شعبه استعمال الرحمة التي تفيدهم بالحق، والنظام الذي يقسو عليهم بحب».

الفصل الخامس والعشرون

إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة بعد استردادها.

مثلما حدث في الماضي، وطرد اليبوسي واليهودي، وفيما بعد المسيحي، بسبب إهانتـه الخالق، كما تقـدم وقلنا في القسم الأول كلـه، وأيضـاً في الثامن والتاسع من هذا الكتاب، هكذا نرى أن احترامه للرب والحرص على حفظ وصـاياه، سـوف يحفظهـا كاملـة، ويحفظها للعبـادة المسيحيـة وللاسم المسيحي، وبدون ذلك سيكـون كل مـا يصنع عبثاً، ولن يكون ضمانة، كما بينت جميع أجـزاء هذا الكتـاب، فلقـد بحثنا واسترسلنا في سرد الوقائـع بجد وبإسهاب لتـوضيح هذه المسألة، ثم إنه بعـد احتلال الأرض ينبغي إدارتها بفطنـة، وبشكل مفيـد، حسبما ذكـرنا أعـلاه، ويتوجب بناء قلاع وتحصينات في مواضع موائمة، لصد الهجمات المباغتة من قبل الكفـار، وخاصـة في مصر والعـربيـة، وحـوران، والأردن، وأنطاكية وكليكيـة، ودمشق، وذلك مثلما بنى الأقدمون ضـد عسقلان، أو المصريين قلعة زبليم Zebelim حيث كانت مـدينة بئر السبع من قبل، والمغـارة البيضاء، وغـزة، وجبليم Jbelim أي جت Geth ضد سوبعل Sobal السوري، والمونيين، ومونتريال، أي الكرك، وهو الموقع الذي كـان يعـرف من قبل باسم بتراء الصحـراء، وبنو ضـد طرابلس شقيف تيرون، وكذلـك صفد بين طبريا وعكا، والقرين على مقـربة من جبل الطور .

ويلزم في كل وقـت انتـزاع الأسلحـة من المسلمين، وكـل مـا هو ضروري بقـدر مـا يكون ذلك ممكناً بسهولـة، وهناك حاجـة للتـدريب المتـواصل للمـؤمنين السـاكنين هناك على القـوس وعلى المنجنيق، وعلى اتخاذ كـافة الاحتيـاطات الحربيـة، كما قيل في مطلع هذا القسم، وعليهم كـذلك ممارسـة أعمال المحبـة، والالتـزام بالتقـوى، التي تكاد التمارين الجسدية أن تكون بلا قيمة إزاءها.

ولقد جاء في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس قول[الرسول بولس]:«وروض نفسك للتقوى»[٤ / ٧]، وعلى هذا يتوجب عليهم بناء مشفى في كل مدينة يعمرونها، كما قيل من قبل، وعليهم أيضاً عندما يشرعون بتناول طعامهم أن يحسبوا حساب الفقراء، وأن يرسلوا حصة للمحتاجين، حتى يكون للمؤمنين جميعاً قلب واحد، ونفس واحدة، وعلى الأمراء والبارونات نبذ البدعة، وأن يتصرفوا كرجال، وأن لا يحتفظوا بالأولاد كالنساء مع زوجاتهم، بل بالحري ليتولوا إرسالهم إلى البلاط، عندما يبلغ أحدهم العاشرة من عمره،ليعيشوا مع البارونات، ولكي لا يتشربوا الأخلاق النسائية، وليحكم الملك شعبه بالحلم، فقد قال أحدهم:«إذا كان الملك متمهلاً في العقوبة، فليكن سريعاً بالمكافأة»، وليتذكر دائماً أنهم سوف يكونون معه في المستقبل ملوكاً، وورثة في الملكوت السماوي، وليقض بالعدل للجميع حسب الحق، ولتكن عنده شدة خاصة ضد الذين يستغلون القادمين الجدد لنجدة الأرض المقدسة، ولمعاقبة الآثام الجنسية، بل الذي عليه هو محوها من الأرض المقدسة، فقد جاء في سفر التثنية:«لاتكن بغي بين بنات إسرائيل، ولا زنيم بين أبناء إسرائيل»، وليكن الجميع أكثر من باقي الشعوب الكافرة«خاضعين للملك، يعتمد عليهم، أما بالنسبة للولاة، فهم بمثابة مرسلين من قبله للانتقام من فاعلي الشر، وللثناء على فاعلي الخير»، وبما أنه من الصعب أن نرضي الرب دون الإيمان(عبرانيون:١١، كورنثوس الأولى:١٥)، ولأن الأحاديث الشريرة تفسد الأخلاق الحميدة يتوجب الحفاظ على نقاوة الايمان والأخلاق، وبعد أن يكون قد جرى طرد المسلمين، وكذلك الباقين الذين على شاكلتهم، من الذين خلعوا نير الطاعة للكرسي الروماني المقدس، ولم يعودوا يخضعون له بكل تواضع واحترام، وكذلك الذين بطقوسهم المختلفة ابتعدوا عن الكنيسة فيما هو جوهري في الايمان، إلاّ إذا عادوا إلى القطيع وإلى حضن تلك الأم الحنون، وذلك بعد أن يكونوا قد تركوا لهم المجال،

ويجب أيضاً أن يقتلع من الأرض العرافون، وأيضاً المنجمون، والسحرة كلهم، لأن كـــلامهم ينتشر ويتسرب كـــالسرطان، وكثيراً مـــا يتفشى، فيصيب الأبرياء، ولا يجوز قبـول من هم خطاة معروفـون، ولا الرجال أصحاب الآثـام الفظيعة، من القادمين مـن بلدان الغرب، فقد تقـدم لنا إيضاح أنهم سببوا أكثر من سواهم دمار الأرض المقدسة وخرابها.

وللحفـاظ على هذا كله بالتمام والكمال، ينبغـي إقـامـة آباء للكنيسـة ورعاة لها، يتـولون رعاية قطيع الرب بالعلم والمعرفـة(إرميا:٣)، وتكون حيـاتهم وأعمالهم قـانونيـة، ويحافظون على الأكليروس في حيـاة لائقـة، وينبغي كذلك اعتماد رهبان نظاميين، من النخبة المجربة، فيجري إرسال بعضهم للوعظ والتعليم حسبما قلنـا أعـلاه، وللتبشير بنامـوس الحيـاة، والملـك الحسـن، على أن تكـون لـديهم غيرة على الـرب وعلى الايمان، فيتولون مـلاحقة الهراطقة والمنشقين، والسحـرة، والعرافين، وذلك بكل عناية وجرأة، ملقين جانباً كل مجال للخوف.

ولا يتصـورن أحد أنه سيكون قـاسياً إذا لاحق الهراطقـة هناك بمثل هذه الطريقـــة، لأنه فضـــلاً عما ذكـــرناه أعـــلاه يقـــول الرســـول في غـــلاطيـة:٥(/ ٧ —٩٠)«كنتم تسعـــون حسناً، فمن صـــدكم حتى لا تطاوعـوا للحق، هذه المطاوعـــة ليست من الذي دعـاكم. خميرة صغيرة تخمر العجين كله».

وهؤلاء هم الذين قـال عنهم المسيح:«احذروا الأنبيـاء الكذبة الذين يأتون إليكم بثيـــاب الحمـلان»، ذلك أنه مـا من شيء يدمـــر أكثـر من التظاهر بالخير، فإن الشر، عنـدمـا يكون مخفيـاً تحت ستـار الخير لا يثير الريبـة، طالما أنه غير معروف، وثيـاب الحمـلان هي كلمات التملق التي يتفوه بها الهراطقة، وهي كافة مظاهر التدين والتقوى، وهي التي جعلت الشرقيين يحيدون عن حقيقة الانجيل، وكأنها ثوب لبسوه واختفوا تحته، حتى يضلوا غير المتيقظين، بينما هـم في الداخل ذئـــاب خـاطفـــة، وفي

داخلهم حقــد لا يخمـد، وجشع لا يشبـع لتمـزيق نقــاوة الايمان عند القطيع، فيخطفون الحقيقـة وينتزعـونها من قلوب المؤمنين، ولكي تعلم أنك لن تجنـي من ذلك أية فــائــدة أضــاف:«هل يقطف من الشــوك عنب،أو من العـوسج تين»؟، وهكذا إنك لن تقطف ثمرة الحيـاة لا من الهراطقـة، ولا من أي من غير المؤمنين، وفي هذه الأثناء يجري اجتـذاب الكاثوليـك إلى صفــوفهم المقــوتة، بسبب الانقطاع عـن الطقــوس الكنسيـة، وبسبب عــدم الرغبـة بسماع شيء عن الـرب، وأيضـاً بسبب بعض مكاسب الثروات التي تتمازج مـع اجتماعاتهم، ومع الزيجات التي يعقدونها، والتي كـانت من أسباب تزعـزع متانة الإيمان في قبرص، وفي جـزيرة كريت، وفي إمـارة آخيا، وهذا مما لا شك فيـه عند الكثيرين من الشعب، لابل حتى أيضاً عند قسم من الجنود.

ولا يعترض أحـد فيقـول:«لايهلك الانســان إذا وجـد بالقـرب من الخطر، ومع ذلك إنه أضمن له أن لا يكون قـرب الخطر، وعندما يكون الأمـر متعلقـاً بأمــور الايمان وبضرورة الخلاص، ينبغي اختيـار مـا هو أضمن.

وأخيراً، ينبغي — بعـد طرد الكفرة مـن الأرض المقدسـة — العمل على اجتـذاب الكاثوليك والمؤمنين من كافـة أنحـاء المعمورة، اجتـذابهم وكأنهم غرسـات جديدة، غـذتهم مياه النعمـة، فيعطون ثمار الحياة،«لأنه هكذا قـال الرب لرجال يهوذا ولأورشليـم احرثوا لأنفسكم حـرثاً ولا تزرعوا في الأشواك»[إرميا:٤ / ٣].

ولكي يتشجع القـادمـون الجدد للمجيء عن طيبـة خـاطر ويكونوا مفيـدين، رأينا أنه من الموائم ومن النافع، لو قـام الحبر الرومـاني، نائب المسيح بتحريض الذين يريدون الابحار إلى الشرق، على البقاء في الشرق مهما كـان جنسهم — ذكوراً وإناثـاً — ومهما كانت حـالتهم، شرط أن لايكون بينهم مـن هو خــاطـيء معــروف ومشهــور، أو مجرم، حتى

نتجنب، — كما قلنا أعلاه — امتلاء الأرض بمثل هؤلاء، لا بل حتى لا نفسد بهم، على أن يترك الأمر إلى حكم الأساقفة، وأن يمنح البابا القادمين الصفح والغفران الكامل عن خطاياهم، وأن يتم ذلك بوساطة مبشري الإيمان، الذين يعلنون كل هذا، وينشرونه في كل مكان، وأن يتدبر بالطريقة المناسبة شؤون سفرهم، ومساعدتهم المناسبة، لئلا ينقطعوا بسبب الفاقة عن متابعة هذا المشروع التقوي.

وعلى الملك، وعلى سائر الذين يمتلكون الأرض المحتلة، أن يؤمنوا للقادمين الجدد أراضي للإقامة فيها، ولبناء بيت وبستان وكرم، وذلك مقابل مبلغ سنوي محدد يدفعونه، وبعد هذا تكون هذه العقارات ملكاً أبدياً لهم ولورثتهم، وإذا وجد أنه من الأنسب منحهم أراضي زراعية يعتنون بها، وتقدم لهم المساعدة في سبيل ذلك وفي سبيل اقتناء المواشي، وسائر الأشياء المحتاجة والمناسبة فليفعل.

فهكذا اجتذب الملك بلدوين الأول الكثيرين ليسكنوا في القدس، ويجب أخذ الحذر خاصة في البداية، حتى لا توضع العراقيل أمام المؤمنين القادمين إلى الأراضي المحتلة مع بضائع وحاجيات أخرى، وأن تفرض عليهم مكوس وأتاوات، وأن يسمح لهم بكل حرية أن يستثمروها كما يطيب لهم، وبهذه الطريقة تتوافر الخيرات، وتكثر المتاجرات، ولا سيما مع تدفق الآخرين بغية السكن في الأراضي المقدسة، ووقتذاك سوف تتدفق على سكان الأرض الحاجيات الضرورية بكثرة، ويلقون من وراء ذلك المنفعة، فهذا ما احتاط له في مدينة القدس بلدوين دي بورغ.

ولهذه الأسباب، ومع مرور الزمن، ولأن المكوس، ليست في نظر العامة إلاّ سرقة وسلب لابسة ثوباً قذراً، لايحل فرضها إلا في حال الضرورة القصوى، وبعد مداولات طويلة، وباعتدال كبير.

وهذا مختصر لما عـددنـاه مسـاوىء ينبغي تجنبهـا، ومحاسـن يتـوجب اتبـاعهـا حتى نمتلك أرض الميعـاد المقـدسـة بفائـدة وأمـان، وسـلام، واستمرار، وراحة، وليت ربنا يسوع المسيح يشفق على دموع وتوسلات الشعب المسيحي، فيهبه إياها، لعـزته ومجده، ولتحقيق الأمنية التي طالما انتظرتها الكنيسة المقـدسة، والذي«هو مع الأب والروح القـدس يمجد ويعبد، إله واحد»، آمين.

المحتوى